عماد شيحة

غبار الطلع



رواية

الطبعـة الأولـــى 2006

المركز الثقافي العربي
للنشـــر والتــوزيــع

الدار البيضاء: ص.ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 2303339 ـ فاكس: 2305726
البريد الالكتروني:
markaz@wanadoo.net.ma
بيروت: شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
ص.ب: 113/5158
هاتف: 352826 ـ فاكس: 343701
بريد إلكتروني: hassan2@inco.com.lb
صمم الغلاف: جمـال سعيــد

نصوص من وراء الجدران
III

عماد شيحة

غبار الطلع

روايـــة

إلى غياث ورفاقه:

لماذا تركتم للروح

وقد غبتم

وجع الأيام... ووجد الأحلام؟

عماد

«لا لأيٍّ من الشواطئ يهدى، لا لأيٍّ من الصفحات يباح الطعم النقي لهذا النشيد.. آخرون يمسكون في المعابد بأبواق المذابح الملونة:

مجدي على الرمال! مجدي على الرمال!..

... وأن تَشرُد أيها المهاجر

ليس إلا أن تشتهي المدى الأكثر عرياً

لكي تجمع من رمال المنفى قصيدةً ولدت من هباء

قصيدةً عظيمةً أُبدعت.. من خواء!»

سان جون بيرس

«قلتَ نصف الحقيقة،
ومع ذلك فسيزعمون أنك تكذب مرتين
في ما لو ذكرتَ لهم نصفها الآخر!»

أنطونيو ماتشادو

القسم الأول

«غابرون»

غَمْر

غير مصدّقٍ تندفع على رملٍ أصفر... لم يكن لرمال البحر مثل هذا اللون أبداً، ومثلِ خرائط الأطالس تتدرّج الزرقة مع تدرّج العمق، مساحاتٌ محدّدةٌ وخطوطٌ بينيّة تفصل بينها، مياهٌ تغور سريعاً وتضيع السماء خلف زرقةٍ عميقةٍ يشوبها سطوعٌ غامض، تنغلق الأمدية الجانبيّة وتضيق كأنّ جدراناً تُبحِر مزدلفةً جانبي البر، تنسدّ الآفاق دون تغيّرٍ في شدّة الإضاءة، أو كأنّك التصقت بتخم الماء واتّسعت رؤيتك فما عدتَ خاضعاً للمدّ!! لكن هبوطك الصاخب في ما لا غور له يوقظ إحساساً قديماً وموغِلاً بالمطاردة فتمتلئ رعباً ويداخلك الحذر ويغزو أطرافَك الخدر. وأنت تلمح حدباتٍ سوداً تتكاثر، وتلاحقك ظلالُها الكالحةُ تحت السطح الشفوف، تقفز مرعوباً وقد غمزت بأنوفها الماء وفتحت أشداقها على صفوفٍ متراصّةٍ من نصالٍ حادّة، تخرج هادراً بأعلى صوتك لتنبّه من لم ينتبه بعد أن تبصر اندفاعتهم نحوها، تجنّ فزعاً وتسبح مرتاعةً بكامل قوّتها.. لكنّها لا تُمهَل فتعجز عن الوصول، كأنّما يعلو هديرَ الموج صوت قضمٍ خافتٍ من تحت الماء فيخمد القلب ملتاعاً... ويلي!! فغمت رائحتُه أنفكَ من غير أن يطفو الدم المعتاد ويظهر بقعاً نديّةً، كأنّ الفاه الفاغر امتصّه فما أبقى منه للماء قطرة.

يحيد البرّ.. تتعثّر خطاك.. تودّ الاطمئنان فتصطدم بعكازٍ خشبيٍّ طويلٍ من قصبٍ يعلوه رأسٌ معروفٌ تعبث الريح بخصلاته السود. عينان تسألان!!

تستيقظ فتلفّك العتمة والجدران، يعاودك البحر أرجوحةً تلقّت دفعةً

أولى راحت، رغم قسوتها، تتخامد على وقع نوّاسٍ يلامس الموج.. ومن الموج تبدو صدوع الماء عاكسةً من قيعانها السحيقة صدى انفجاراتٍ عنيفة.. قصفٌ مريعٌ يرجّ خلاياك قبل أن تندلع ألسنة النار المتوهجة مخترقةً الشاشة الزجاجيّة صاليةً عينيك بلهيبها الفاجع.. تضيء الشاشة مرّةً أخرى وتدفعك للولوج إليها.. تلفحك ريح الصحراء وقد دهمها الهجير وسط شتاءٍ أمطر غيمه حرائق.. تعبق بروائح الأجساد المشتعلة والرم التي عافتها الضباع والكلاب الشاردة، صفوفٌ متراصّةٌ من خيم متفحّمةٍ طوّقتها الخنادق من كلّ الجهات، قطعانٌ مسودّةٌ لبهائم بائدةٍ من هياكل دبّاباتٍ ميتةٍ وسبطانات مدافعِ التوت في مرابضها التي سدّت الآفاق قبل أن تطلق عياراً نارياً واحداً! تنطفئ الشاشة فيمتصّك سوادُها وتغيب كما تفعل الآن!

كان العقاب ماحقاً.. ومثلما سُدّدت الديون لآخر رمق، أُغلقت الدفاتر القديمة وفُتح سجلٌّ جديد، حوليّةٌ مستحدثةٌ لدمارٍ مدفوع الثمن مسبقاً، وكذلك أغلقتَ دفترك، ختمتَه بخضابٍ أسود ورميتَه في منفىً ما.. حاوية قمامةٍ ما، من غير أن تفتّح نافذة القمر المطعّمة بنجوم الليل صفحةً جديدةً بعدما صودرت كلّ الدفاتر.

رأس من؟ شعر من؟ عين من؟ وسؤال من؟ تنغرز القصبة في الرمل، يستدير الرأس وتهمد الريح فيسدل الشعر ليلَه ويخيّم عليك طاوياً اللحظات تحت جنح النبض! هل كنت تتقدّم حينما تراجعت اللحظات أم كنت تتراجع معها؟ وهاهو الزمن ينيخ عليك هنا حيث قادتك قدماك بعدما ضلّتا طويلاً.. ومن الهواء المطبِق يهبّ السؤال كريحٍ صقيعيّةٍ تكاد تجمد في الهواء، وما الفارق بين زنزانتك وقمرتك وغرفة منفاك ونعشك المتنقّل بحثاً عن مثواك؟

يتململ متلفّتاً حوله، ولولا سكينةٌ تهدهده رغم أوجاعه، لسأل دون شكّ، أين أنا؟ ولحاولت يده أن تتسلّل عبر الظلمة لتتلمّس مفتاح النور لتنجلي ظلمةٌ محت تفاصيل المكان.. هل كنتَ تهرب من حتفك الذي

لاحقك ليلتقيك في نفس المكان وإن اختلف الزمان؟ حسنٌ، لقد اقتنصوك أخيراً بل أوحوا لأنفسهم أنّهم فعلوا ذلك، وأنت تؤكّد له أنّ ما أمسكوه ليس سوى جثّةٍ هامدة تحتضر!! أبوا تصديقك كيلا يُزهقوا فرحة اصطيادك حياً واستضافتك إلى ما شاء الله أو الحاكمون بأمره! لكنّ تململه لم يُبعِد عن عينيه المغمضتين، رغم تيقّظه، آثار الماء والروع اللذين أمسكا بخنّاقه ولم يفلتاه بعد. من هي إن لم تكن مي؟ يحاول جاهداً أن يتذكّر ملامحها أو يستحضر صراخها آن أطبق الفكّ الجهنمي على قامتها ولم يترك لها سوى رأسها وعينين يبحر فيهما الأسى سائلاً: لماذا؟ وقد انغرست وتداً، رمحاً من خشبٍ فوق شاطئٍ مجهول...

لم يكن الشاطئ قد لاح بعد، ما كان مجهولاً واللجّة السوداء التي يمخر المركب عبرها همست أنّ البر قريب، هكذا تقول اللوحة الرقميّة التي تنتفض ثوانيها نبضةً نبضة لتعلن مرور الدقائق وتهيّئ لانقضاء الساعات. كم بقي من الزمن؟ لو أنّ لذلك أهميّةً ما! ساعاتٌ من الماء تقابلها سنواتٌ من الخواء! لمَ اخترت جانب السفينة مكاناً للوقوف ولم تختر مقدّمتها لتستعجل استقبال برّك أو مؤخرتها لتودّع البر البديل؟

- ألم تختر موضعاً غريباً؟

أجفل أدهم وتلفّت ناحية الصوت ليتأكّد أن حنجرةً أخرى غير حنجرته قد أطلقته تجاهه.. تبيّن وجه جميل رفيق رحلته القصيرة فعاد يتطلّع إلى اليمّ، ليس شبحاً إذن!

- ربّما، لكنّها وجهةٌ تطلّ منها على أفقٍ ما!

أجاب كأنّما يتابع خطاب نفسه، لكنّ جميلاً رغب عن مناخٍ كئيبٍ سيشيعه استمرار حديثٍ بدأ على ذلك النحو:

- أدهم... أنت تحنّ لمنفاك؟

- وموتي؟

تمهّل جميل قليلاً كأنّه يتلمّس خطاه قبل أن تقوده مجدّداً نحو دربٍ حاول تفاديها...

ـ لأنّك تعود!

ـ أعود؟ كأنّك تتجاهل! وكأنّ سبب رحيلي قد زال!

حاول جميل التلهّي بإشعال لفافته، كان اللهب يومض لثوانٍ وسرعان ما يخمد رغم سكون الهواء الظاهر، وعلى شعاعات الومض المتوالي تطلّع أدهم في وجهه.. بدا نجماً يتلألأ ويخبو فتابع:

ـ هو مستمرٌّ يا جميل مثل هذه الريح الخفيفة التي تحاول أن تعاندها عناداً، تعبّها إن استطعت! لكنّها ستمنع إيقاد نارك.

لفّ جميل كتفيه بساعده كأنّما يريد بالتصاقه به الاحتماء من أجواء الوحشة التي عشّشت في قلبيهما فما استطاعا منها إفلاتاً:

ـ هلمّ ندخل يا أدهم، ثمّة ما نلوذ به ونستطيع إشعال نارٍ تكشف ويضيء وجوهنا وربّما أرواحنا! هيّا.. بقي من الزجاجة نصفها! لربّما أفاضت عليها من روحها وساعدت أرواحنا على احتمال ما يحيق بها ويعتصرها.

انقاد أدهم فوراً كطفلٍ يتيمٍ أحسّ لمسة حنان افتقدها مذ غابت أمّه...

ما عاد ثمّة مهرب، ضاقت الحلقة واكتمل الحصار.. ما من شيءٍ يعزّي وما من حضورٍ يزيل الغربة! وهاهو الصغير الذي نما وكبر على مهلٍ وظهر فجأةً لا ليعلن قيامةً تمتح من براءة طفولته وعفويّة حبورها المرجوّ، بل ليكون شاهد موتٍ جديدٍ ينضاف لآلاف الأرقام التي لم تجد مثوىً ولا شاهدةً تذكّر أنّها وُجدت يوماً ما! هل اغتيلت أحلامك أيضاً يا جميل؟ هل كنتُ مرآةً أبصرتَ بها نفسك بعد سنوات تحطيم السواعد والجماجم داخل مكابس القرميد وآلات اختبار جهد الانهيار حتّى نطقت باسمي بعد غياب؟ ليس العالم صغيراً كما يحلو لهم القول، لربّما كانت أوجاع أرواحنا بلا حدودٍ وهي التي تدفعنا دفعاً للتلاقي!!

وفي القمرة المختنقة بضوءٍ باهتٍ تداعى أدهم على كرسيه وقد ضغطت الجدران الشمعيّة الملساء على جوانحه حتّى كادت هشاشتها تسحقه.. التمعت في الضباب حوافّ بلّور الكأس الرقيقة والشفافة واهتزّ السائل القاني محاكياً ارتجاج المركب المتقدّم.. بدا لزجاً دافئاً مزهوّاً بطزاجته.

ـ شكراً لك.

هل يلاحقني الدم إلى هنا؟ تساءل في سريرته وعيناه تختلسان نظرةً مواربةً إلى اللهب المستقرّ الذي أحال رأسي اللفافتين اللتين أشعلهما جميل إلى جمرتين كاويتين، واستمع:

ـ أما قلتُ لك، لن تصل الريح هنا.. تلك هي نارنا نحرقها لتحرقنا تحت أجفاننا وداخل جوانحنا، ربّما لا نبدد الظلمة لكنّنا لا نخضع لوحشتها ولا نتبدّد داخلها. اشرب يا أخي.. يكفي أنّنا نتنفس!!!

حاول أدهم أن يعترض، أيّ هواء نتنفّسه؟ لكنّه اغتصب ابتسامةً أخفتها نفثة دخانٍ كثيفةٌ أطلقها من منخريه بينما تساءل جميل في صمته، من منّا يحتاج عزاءً وسلوى؟ حتّى التلاقي بعد غيابٍ طويل، تابع جميل في سريرته، ما عاد يتّسم بغلواء الفضول وشهوة المعرفة والاستفسار، ما الذي حلّ بنا؟ هل استحلنا أشباحاً غارقةً في سباتٍ دائم؟ وأيّ جحيم لامسته أقدامُنا والتصقت بأرضه فما استطاعت حراكاً ولا مغادرة؟ لكنّه ورغم ذلك رفض أن تمضي تلك اللحظات دون أن يستحضر طقسها المميّز أو يختلقه اختلاقاً. ربّما ستحلّ كؤوس النبيذ عقدتي لسانينا وتضرم دفئاً مصطَنعاً في صقيع مجاهلنا يذكي جمرةً انطفأت منذ دهر، سمّيناها الحنين وظلّت تلعق أفئدتنا زمناً حتّى اعتدناها أو اعتادتنا فما عادت تأبه بنا أو نأبه بها.

سبحا معاً في ضبابةٍ طغت وسدّت المنافذ.. وعلى رخاوتها طفت نفساهما ابتغاء لقاءٍ بدا رغم القرب محالاً. رويداً رويداً استعاد أدهم رباطة جأشه، تركته يحتاج رعايةً ومواساةً وهاهو الآن يتبرعم موجةً تحنو عليّ

وتحاول لأم جراحاتي. عد لنفسك يا أدهم أيّاً كان الصدع وأيّاً كانت الزلزلة، فما الذي أكرهك على التردّي في هاويةٍ جعلتك مثاراً للشفقة ومدعاةً للرثاء؟ أما عاد بمقدورك الاختباء وراء صخرةٍ ما.. عمودٍ ما.. تمثالٍ ما؟ ما بالك؟ ألا ترى أنّه يحتاجك اليوم أكثر من أيّ وقتٍ مضى؟ هل أعمت إعياءات هزائمك بصيرَتك فما رأيت ما يكمن خلف محاولاته للتخفيف عنك واستلالك من وحدتك واصطناع مرحٍ بعيدٍ عنه؟ ألا تستحي وأنت تتغافل عن أسىً تنطق به كلّ خليّةٍ من خلاياه، أم أنّ وحدتك والعزلة التي طوّقتك بشرنقتها البغيضة نمّت أناك وضخّمتها لأبعد الحدود فما عدت ترى ولا تهتمّ بغيرها؟

ـ جميل، قل لي، كيف..كيف استطعت التعرف إليّ؟

تنبّه جميل من إطراقته.. فتح عينيه دهشةً كأنّه استيقظ للتوّ متسائلاً عمّا حدث.

ـ أسألك كيف تذكرتني؟

ابتسم جميل بوداعةٍ أعادته فتيّاً.. التمعت عيناه الزرقاوان.. اختفى شعر لحيته الأشقر الطويل وشارباه المسبلان على شفتيه، وتضاءل حجمه مقارباً الصبيّ المتوثّب الضاحك المنمّش الوجه الذي كانه يوماً.. وأجاب حالماً:

ـ لم تتغيّر أبداً يا أدهم. كأنّك لم تمضِ ولم تغادر الذاكرة.

احتسى أدهم كأسه وأخفى وجهه وراء غلالةٍ كثيفةٍ من دخانٍ رماديٍّ، بقي مصرّاً وهو يحدّق بجميل:

ـ ألم يتغيّر فيَّ شيءٌ البتّة؟

تأمّله جميل طويلاً، فقد الحيويّة التي غيّبها هرمه المبكّر وعاد لأبعاده الطبيعيّة التي صيّره إليها الزمن، قائلاً بعد برهة:

ـ بلى! ثمّة ما تغيّر في عينيك، اختفى الوهج الذي يضيء عتم ليلهما،

واحتلّهما فحمٌ مسحوق! غير هذا بقيت كما أنت.. حتّى شيب فوديك يبدو قديماً. كيف لم تهرم كما حدث لي؟

قالها مبتسماً، فردّ أدهم سريعاً:

ـ هرمت؟ لا لم تهرم إلا أنّك اتّخذت صورةً مخالفةً عمّا تخيّلته عنك وقتها. لكنّك لم تجبني كيف لم تتردّد؟ بل، كيف خطرتُ ببالك؟

سارع جميل للقول:

ـ يصعب عليّ التعبير، تعرف كيف نتعلّق أحياناً ببعض أساتذتنا، يختفون من حياتنا لكنّنا نسعى وراءهم كأنّنا ملاقوهم يوماً، ربّما لنقول وحسب: انظروا صرنا مثلكم، ليس بمعنى القدوة التي يسعى المرء لمحاكاتها بقدر ما هو المثال الذي نتطلّع دوماً لمجاراته أو تجاوزه عبر حوارٍ دائم معه. كأنّما تريد أن تطمئنّ لوجودهم قربك ساعة تحتاجهم فيستحيلون بعضاً منك! تساءلت دوماً، بعد حينٍ من الزمن وعلى خلفيّة النيران التي أشعلتها يداك واقتحامك لها لإنقاذ قصي الصغير المعاق ونجاحك في ذلك، عن جدوى فعلك وضرورته وهل كان الجواب الصحيح على المعضلة التي اعترضتنا يومها؟

قاطعه أدهم:

ـ أما زلت تذكر؟ هل وجدتَ جواب سؤالك؟

ـ كيف أنسى؟ هنا تكمن المشكلة.. ربّما لو وجدت الجواب لطوى النسيان ذلك الزمن، وربّما.. ربّما ما كنّا لنلتقي هنا وفي هذا الوقت بالذات لو أنّي فعلت. أما ترى كم طفتُ لألتقي بوجهك الذي سيعيد نفس السؤال الذي لم يتوقّف عن ملاحقتي طويلاً كظل!!؟

انتظر أدهم ملء كأسين آخرين، احتضن كأسه براحتيه مخفياً ومضه الياقوتيّ دون أن يرفع عينيه عنه وسأل:

ـ تعود لتواصل البحث وتجد الإجابة؟

لكنّ جميلاً فقد قدرته على متابعة دور اصطنعه لنفسه رغماً عنه:

ـ ليس تماماً، أضعتُ الكثير وعليَّ أن أجد القليل ممّا ضاع وتاه في الزحام. لكن إن كانت الدروب جميعاً تقود إلى روما كما يقولون، ففي عودتي محاولةٌ للإجابة عن سؤال تغيّرت صيغته قليلاً.

تجمع حبر الليل وماء البحر.. اختفت الجهات مختبئةً في قعر كأسٍ استحال بؤرةً تركّز فيها جَيَشانٌ كاد يفلت من جميل، وقبيل أن ينفض أدهم استرخاءه المتوفّز ليستبدل الأدوار مع جميل ويحاول درء انفجارٍ أحسّ بنبضه المتقدّم، كان صوت تهشّم زجاجٍ قد جرح السكينة... سقطت الشظايا يلاحقها السائل اللزج وقطراتٌ ثقيلةٌ من راحة جميل، هبّ أدهم واقفاً وقد استثارته الرائحة النافذة.

ـ ويحك! ما فعلت؟

تمتم جميل بأشياء غير مفهومةٍ وبقي واجماً يتطلّع للجسد العملاق المنحني فوق راحته المدمّاة! كيف عرفني؟ لم يسأل ولم يستفسر بقدر ما قرّر. ما الذي تفعله هنا يا أدهم؟ لم أخفِ الحقيقة رغم اضطراري، لم أنكر ولم أتنكّر له فسألته من أنت؟ وهاهو الآن يعود فتىً مكلوماً أطارت لبّه مهانةٌ لحقت بأمّه وأمضّه عجزه عن حمايتها أو الثأر لها! دار الزمن ولم تكتمل دورة هذا النيزك الطائش، أم تراها قاربت نهايتها؟

ومثلما ظهر من صدفةٍ مجهولةٍ حرّكتها الأمواج وانتزعتها من الرمال أو الصخر المرجانيّ فطفت على سطح موجٍ هاديءٍ في منتصف ممرٍّ مائيٍّ تبحر خلاله وعبره مئات السفن والمراكب يومياً، اختفى كأنّ اليمّ ابتلعه دون أن يخلّف أثراً وراءه، أو كأنّ موتاً غافله على البرّ وأعاده لمياهه التي جاء منها!

يستيقظ أدهم تماماً، يمدّ يده ليضيء النور لكنّه يتراجع في الثانية الأخيرة. ما من خبر! لم يمض على وصولنا أسبوعان وهاأنت تغيب، تغادر من غير أن تقول أين. وكأنّني احتللت مكانك ياجميل.. كأنّني سعيت لطردك كي أحلّ محلّك! كأنّ شقيقتي أنا التي انتظرت أوبتي طوال سنوات، كأنّها هي من صلّت كلّ يوم لأعود إليها، كأنّها هي التي هيّأت غرفتي على هواي قبل أن تجهّز غرفتها وباقي غرف البيت. أنا الذي تنكّر لي الجميع، اللحم والدم والأقارب والأصدقاء، بتُّ الوباء الذي يخشون عدواه ويخافون الريح التي تحمل رائحته. هل فعلت ذلك كلّه يا صفاء كيما يأتي أدهم جبيلي ويحتلّ مكان ذاك الذي انتظرتِه العمر بحاله!؟ يصغي لحركتها في الغرفة المجاورة.. لم تنم بعد. تُراها تفكّر على النحو الذي أفكّر فيه؟ ستجنّ لا محالة إن لم تجده أو تسمع شيئاً عنه. أعياكما البحث دون جدوى؛ إلامَ ستنتظر؟ وهل ستتخلّى عن الذي عدت لأجله وتكفّ أيضاً عن البحث عنه؟ تصير دمدمتها خافتة.. تعتمل بعنفٍ كامنٍ ينتظر لحظة الانفجار. هل انتحت ركناً وركعت سائلةً عذراءها أو يسوعها أو قدّيسيها أن يعيدوه؟

آه.. كفاني يا أمّي، ما عدتُ أحتمل، تمزّقتُ وبات لحمي نتَفاً تلوكها أسنانٌ حادّة. لماذا يحدث ذلك معي من دون الناس جميعاً؟ مضيتِ أنتِ.. مضى أبي.. وزوجي، وقبل ذلك كلّه مضى البيت السكن، أو مضينا عنه طوعاً أو كرهاً.. ثمّ أنتظر وأنتظر سنواتٍ طويلةً أموت فيها وأحيا مئات المرّات، بكتني الجدران ورثت لي الأشجار حتّى عاد! أبي وأمّي، أخي وأختي وزوجي وأصدقائي وعمري الذي تنصّل منّي، كلّهم كانوا عودته. ما استطعت بعدُ أن أشمّ ريحه وأملأ رئتي بها، وإذ به يمضي دون إخطارٍ أو

إنذار!! أوّاه خذيني إليكِ، دعيني أرتح على صدرك، مضيتم جميعاً.. ارتحتم وتركتموني للوحدة وعذاب الانتظار!!

كأنّ نشيجها استحال أثيراً اخترق الجدران فوصل أذنيه وتمدّد وجعاً كاد يضيق به، هل يخرج إليها وسط الليل، يضمّها إلى صدره، أباً يأتي مغافِلاً زمناً يتّم امرأةً وأثكلها ولم يستسغ الفكرة، هما رجلٌ وامرأة. وحيدان في بيتٍ بدا كلاهما فيه غريباً رغم قرابة العزلة والألم!

يخرج متلمّساً دربه خلال العتمة إلى الصالة الصغيرة حيث وضح نشيجها المكتوم كأنّه انطلق من زاويةٍ ما واندفع نحو الجدران فانعكس صدىً يعيد تجميع نفسه في الزاوية التي انطلق منها ليكرّر دورةً بدا أنّها لا تنتهي. تردّد أكثر وقد أهاجه ارتطام النواح المتواصل جيئةً وذهاباً عبر جسده المتوتّر لأقصى الدرجات، يعيث به غير عابئٍ بانهياره الوشيك تحت ضغط الاصطدام الموجيّ المتداخل عبر الجهات.. سدّ أذنيه بكفّيه وأسدل جفنيه على السواد المتمدّد حوله، لكنّ الصدى تجاوب داخله كأنّ صفاء اخترقته وافترشت أرضاً معفّرةً تحت أضلاعه ممزّقةً ثيابها ناثرةً شعرها ذارّةً رماداً فوقه مدمّرةً الفضاءات التي تحيط بها بندبها المحطّم.

هل تستعجل رثاءه؟ كفى يا ابنتي.. كفى يا أختاه، لم يمت بعد! ولئن حدث ذلك فما زلنا نجهله. أبتْ ذلك، وواصلت عويلها. لا تصدّق أنّه حيّ.. لا تصدّق أنّه ميت. تريده الآن، جسداً أو جثّةً سيّان! هو غائبٌ وعليها أن تستحضره على أيّة صورةٍ كيلا تفقده مرّةً أخرى دون أمل الرجوع ودون رجاء الانتظار!

يحزم أمره، يتّجه نحو بابها، يلمس خشبه الصقيل، يحاور انسيابه برؤوس أصابعه خشية أن ينفر منها سريعاً، يقترب بشكلٍ مواربٍ من القبضة التي تتوسّط جانبه الأيسر، يدور حولها ويدور، لا يجرؤ على لمسها فثمّة شحنةٌ صاعقةٌ تكمن فيها منتظرةً بخبثٍ لمسة كفّه لتنفجر بداخلها! لو يكفّ

أنينُها ثانيةً واحدةً في أعماقي لكنت.. ينفتح الباب فجأةً، يتضاءل الحائط الذي غطّاه، يستحيل مفتاحاً صغيراً يكاد يلج في ثقبه مختبئاً، لكنّ صفاء تدفعه بعيداً.

- أدهم! ألم تنم بعد؟

هل أقول أرّقني نواحك؟ تتخثّر اندفاعته نحوها كأنّها لا تحتاج حنوّه ولا وقوفه إلى جانبها.

- أردت أن أقول لك، إنّني مغادر!

تتماسك وهي تحاول:

- إلى أين؟

لكنّها تتداعى..

- هل ستتركني أيضاً؟

لم يجسر على رفع بصره، أضحى مكشوفاً أمام الضوء المنبعث من غرفتها فلم تحجب قامتُها إلاّ جزءاً يسيراً منه.

- لا يصح أن أبقى هنا! سأنتظر عودة جميل في مكانٍ ما.

ما الذي دهاه، هل سيتخلّى عني؟

- ستنتظر، هل أبحث عنه وحيدة؟

وهل أغضّ الطرف عن استغاثتها، هل أهرب مجدّداً، هل أخضع لمبالغات خوفها عليه؟ ليس طفلاً فتخشى ضياعه! لكنّ قلقها تسرّب إليك، عليك أن تعترف، ولو أنّه قلقٌ من نوع آخر ربّما لا يخطر على بالها، حدسٌ يمليه احتراسٌ مفرِطٌ وحذرٌ يقارب الشكَّ!

- لا، سنبحث عنه معاً.

- لماذا تغادر إذن؟ قل لي فقط!

- لا بدّ من ذلك. سأحضر كلّ يومٍ و...

يستدير ويمضي في حيّز الضوء، تتلكّأ قدماه كأنّما ينتظر انقضاض ساعديها على كتفيه ليوقفا تقدّمه. يعبر العتمة ويلتفت، فيجدها واقفةً تحيط طفليها المذعورين، وقد تعلّقا بثوبها، بذات الساعدين! لقطةٌ بالأبيض والأسود امتصّت الظلالُ فيها الألوانَ تحت قسوة تقاطع الأجساد مع الإنارة الساقطة بإهمالٍ من الخلف. كأنّ الصبيّة التي تشبّثت بعنادٍ بطرف ثوب أمّها، دافنةً رأسها عميقاً في ثنياته بينما انساب شعرها الكستنائيّ على جانبه الآخر، تعيد الحياة للطفلة التي كانتها أمّها وتوقف الزمن عند لحظةٍ أوغلت في القِدَم حتّى فقدت تمايزها، حقيقةً كانت أم وهماً. أمّا الطفل، فبدا شاهداً صامتاً يكمل جانب المشهد. يهزّ رأسه باستسلامٍ صاغرٍ وهو يتابع خطوه ثمّ يتوقّف على صرخة الطفلة:

ـ عمو، ارجع مع خالو!

يتلكّأ قليلاً، يومئ برأسه وقد أعجزه القول، يغادر متسائِلاً إلى أين؟ ينحني بعد إطباق الباب خلفه، لكنّ كفّه تقبض على الفراغ. نسيتُ الحقيبة، هل أدخل مجدّداً؟ تراخت يده.. الحقيبة دوماً، والفراغ أبداً. هل عدتُ أحتاجها؟ هاهي المرّة الثانية التي تترك فيها حقيبتك، الأولى قادتك إلى هنا! أين سيقودك تركها الآن؟ أما أنهت دورها كوطنٍ يلاحقني أينما رحلت وأيّان مكثت؟ المكان؟ ما من موضعٍ لتضعها فيه.. لا غرفة فندق أو منزلٌ مؤجّرٌ أو منزل صديق، ما من خيمةٍ حتى! ليس ثمّة إلاّ الخلاء الذي يعادل ويساوي الفراغ الذي تقبض عليه الآن!! وهاهي الشوارع مرّةً أخرى فضاءاتٍ، والأرصفة ملاجئ تستحي منك!!

في غبش السحر استيقظت تلك الطفلة المتعلّقة بثوب أمّها بعد سباتٍ طويل، لفّها بسترته الجلديّة كيلا يلفحها برد فجرٍ يُعِيد الظلمة عن الأبنية المتراصّة والأشجار المتباعدة المتلفعة بعباءة الليل، وقد باغتتها ثلاثة أزواجٍ من مصابيح سيّاراتٍ عرضت عريه مراتٍ ثلاثاً لأنوارها قبل أن تتوقّف فجأةً وتوقظ رعباً بديلاً جعل قلبه يهوي وينسى وجيبه الصاخب على صفحتي

عنقه... مهما كنتَ مهيئاً ومستعداً سيأتي الخوف، يخطف لونك لثوانٍ قبل أن تسيطر عليه رويداً رويداً حتّى يختفي أو يدخل هامش النسيان! لكنّه لا يختفي هذه المرّة ولم تعجّل خطاه المتسارعة إزاحته، التفت وهو يدور حول منعطفٍ فلاحت أشباحهم وهي تغادر السيّارات وتندفع صاعدةً من حيث هبط! تذكّر جدّته.. ستكون محصّناً يحيط بك ملاكان باستمرارٍ يحذّرانك من أيّ مكروهٍ يأتيك من فوقك أو تحتك! من أمامك أو ورائك أو من جانبيك ويبعدانه عنك! توالي طقوسها متمتمةً بأدعيتها وهي تضغط بكفّيها جانبي رأسه ثم تغرس بتؤدةٍ رأسَ سكّينٍ فوق ثديه العاري مستنزفةً قطرة دمٍ وحيدة.. وسيكون قلبك أشجع من قلب نمر.. اشرب هذه الكأس وامضِ بسلام. لكنّ أباه سيعلن فيما بعد عقب نجاته من عدّة حوادث كادت تودي بحياته، أنتَ مثل القطّ بسبعة أرواح. سيكرّر القول بلسانه بصيغةٍ أخرى فيما بعد حين تنفجر قذيفةٌ طائشةٌ في مبنىً أوقف داخله مؤقّتاً لحين تسليمه.. الأوغاد كادوا أن يسلّموني لهم، لا يتورّعون رغم تذابحهم عن التعاون الأمني!! ـ المهم أنّك نجوت! ـ عمر الشقي بقي!، لكنّ أسامة تابع ضاحكاً: ـ اعترف، ليست القذيفة من أنقذتك، رأوا غرلتك مدلاةً تتأرجح روحك عليها فعفوا عنك! ـ أتمزح؟ الأوغاد، زادهم ذلك شراسةً ووحشيّةً فقالوا: يجب أن نصلبك أيّها الكافر لكن قبل ذلك علينا أن نطهّرك. ثم ليحتفلوا هم ببهاء انتمائك إليهم، كنت معهم حين هاجمتم الكنيسة وقُتِل الأب الياس، أليس كذلك؟ من غيرك يعلم بمخزون الذخائر في قبوها؟ لن يغفر لك أيّها الكلب إطلاقك لسراحه قبل تفجير القبو بما فيه، الأبالسة لا ينسون شيئاً، ومع ذلك أصرّوا على تسليمي، لكن كما قلت لكم، عمر الشقي بقي!!

يتساءل الآن بأسىً، أما كان خيراً إحضار الحقيبة معي؟ فقدتُها نهائياً وما عادت استعادتها ممكنة! حثّ خطوه، ما الذي سيحلّ بها، توقّف فجأةً، أما آن له أن يوقف هذا الهروب الدائم الذي يخلّف وراءه دوماً ضحايا ذنبهم أنّهم أحبّوه ووثقوا به؟! يعود من حيث أتى، لا يتابع، يقطع الشارع، يرتقي

درج بناءٍ مقابلٍ يستطيع أن يرقب من جوفه ما يحدث خارجاً.. لم يطل الوقت، خرجوا يدفعونها دفعاً.. وصل صوتُها سكّيناً حزّت شرايين معصميه وودجيه وراحت تحزّ وسط حنجرته. لم يكترث أيّهم بها وفي يد أحدهم كانت حقيبته. ينطلقون وقد خلّفوا وراءهم سيارةً مطفأة الأنوار. يتوقّعون عودتي، تأخّرتم يا سادة الليل! لكن ما ذنب الطفلين؟!

تزهق تباشير الضوء روحَه مثلما تفعل مع سلام العتمة. من أين ستنهض الشمس؟ يخرج جاهلاً مساره وسؤاله.. من يهتمّ لذلك؟ أضحت غريبةً كأنّه ما عرفها ولا ألِفها ولا كانت له أمّاً ثانيةً قادته قدمها في دروبها، مدينة هائمة.. مدينة غابرة، أوجدت يوماً؟ ألا تزال؟ حيث تختفي الشمس وراء الجبال.. أتى أحدهم، بعضهم، من مواقع الينابيع المرتفعة وشقّوا وادياً ضخماً فجرت الأمواه إلى قاع ما صار مدينة، بحيرة ماء! هل مرّ نوح من هنا؟ غاض الماء ونهضت المدينة مثل شمس! ارتفع مرّةً أخرى أغرق الأحياء والأموات ثم غاض! وبنى الأموات بيوتهم من بقايا الطين والأشجار ثم جاء زلزالٌ نقضها نقضاً فاندثرت.. جاءها غمرٌ جديدٌ ثمّ تمخّض عنها جبلها بركاناً أزالها من الوجود. لكنّها عاشت مرّةً أخرى، اختلف الناس في الخلائط العجيبة لملامح سكانّها.. شعوبٌ وأقوامٌ وأجناسٌ مختلفة مرّوا جميعاً بها وقالوا في الاجتياحات التي عصفتها بأعاصيرها. حملت نساؤها، ثمّ تزوّجن أولادهنّ لأنّ رجالهنّ انتحروا تحت سنابك الخيل. مدينةٌ من تيهٍ تطفو حيناً وتغور كثيراً، ولأنّها تطفو على غمر الماء قالوا أيضاً إنّها تتّصل بالبحر بما لا يُرى ولا يُعرف!!

هل تنكّرتَ لها أم هي من تنكّرت لك؟ السبيّة التي تجدّد عذريّتها عقب كل سبيٍ، تُشرِع أبوابَها ونوافذَها للغزاة الذين استبوها عنوةً مرّةً ودون قتالٍ مرّات! أكانت القوّة من استهوتها بكلّ ما فيها من بطشٍ لا يكلّ ولا يملّ، أم أنّ سطوة المال بأعطياته وهداياه هي التي تسقط مزاليجها وتفتح

بوّاباتها؟ أثمّة من اغتال براءتها أم هي التي بذلتها للطامعين بمجد ديمومتها.. يأتون ويمضون، يقيمون دهوراً ويرحلون، وهي باقيةٌ تجدّد حيويّتها وصباها.. تخرج من رمادها عنقاء وُلِدت من جديد!؟

ومن جديدٍ بدا أنّها دخلت محرقتها الأُخيرة! الشوارع رغم فجرٍ يغسل إسفلتها وينتزعه من رحم الليل كئيبةٌ موحشةٌ كأنّما تخشى الهجرة الصباحيّة للقادمين لتلويث أجوائها واجتثاث بقايا خضرتها وإحالتها رماداً في الرماد، مدمّرين سكينتها بصخبهم وضجيجهم وقعقعة فقرات ظهورهم المنحنية باستمرار.

يسألك وهجٌ أطاح ببرودة فسحةٍ من الشرقِ وصلها شارعٌ عريضٌ بشمسٍ باهتةٍ تستثقل القيام كأنّها لم تنم كفايتها وأُكرهت على الاستيقاظ: هل تنتمي إليهم أم أنّك شبحٌ من الغابرين الذين بادوا منذ قرونٍ أم أنّك جنسٌ آخر وسط، بين بين؟ تحسن القراءة لكنّك لا تعي ما تقرأ، يعبر الصوت من أذنيك من غير أن يستقرّ، تمّحي المشاهد حالما تصل لشاشة إبصارك، لا تأبه بالسؤال فربّما صاغه الوهج على هواه وهو يتلمّس المسافة المتوسّطة التي تفصله عن البرودة! تتابع سيرك دون هدف، تعرف أنّك ستفقد وحدتك عما قليل، ستتضاعف عزلتك حالما تضيع بين آلاف البشر المنطلقين من غير أن يصحوا تماماً، ومئات العربات بدأت بشائرها تقطع الطرقات فارضةً عليك حذراً مضاعفاً خشية أن تدهمك إحداها فتصير وجبةً شهيّةً تفتتح بك نهارها! تودّ لو يصطدم بك تلامذة المدارس الابتدائيّة وهم يتلاقون جماعاتٍ صغيرةً تسلك دروب مدارسها، لكنّ أيّهم لم يظهر ليبدّد غباراً منع عن عينيك الإبصار! تودّ لو تنتحي ركناً في مقهى رصيفٍ ترقب الرائحين والغادين لكنّك لا تزال في المنطقة المجهولة التي رحلتْ عنها إلى الأبد روائح الأشجار والأعشاب والطمي المعتكر لمجرىً كان يخترقها وروث الأبقار والماعز المنتشر فوق دروبها الترابيّة حيث استحالت شبكاتٍ غير منتظمةٍ من الشوارع والأبنية والمحالّ التجاريّة.. تمرّ الحافلات بك، تمرّ بها وقد بدأتَ

بالتمهّل أمام مواقفها، لكنّك ترفض الانصياع لتعب يدفعك لارتقاء إحداها والاسترخاء على مشاهد المتاهة، كنت تريد تبديد غموضٍ سيزداد ريبةً وإبهاماً إن خضعتَ لمسار الحافلة المقرّر!!

تلهّى قدر مستطاعه عن ملاحقة هواجسه، لكنّ قدميه دفعتاه رغم أنفه نحوها كأنّه يهرب منها إليها ويحيد عنها ليصطدم بها!

ابتلعه شارعٌ عريضٌ لا ينتهي، وعند انعطافة نهايته انسكب في ساحةٍ بدت مألوفة... أخيراً بدأتَ بتلمّس ما خفيَ عنك وغاب. انتابه إحساس من فاز بشاطئٍ بعد طول معاناةٍ مع الأمواج، لم يتوقّف ليرتاح بل غذّ سيره فهو يبغي الوصول لقلبٍ ما، يعرفه، كيلا يتوه عنه مرّةً أخرى أبداً! نسي رغباته الصغيرة وأدرك أنّه يتحرّك صوب الحريق الذي أضرمه يوماً وما انطفأ أبداً في روحه المتأرجحة دون توقّفٍ والتي يزيد عنفَ حركتها استقرارُ اللهب في تضاعيفها. أراد التوقّف أو الاستدارة عائداً أو تغيير وجهته، لكنّ الطفلة المتعلّقة بأطراف ثوب أمّها قطعت عليه درب العودة والهرب وظلّت تدفعه نحوْ الهاوية التي أفلت من حبائلها منذ سنواتٍ طوال، تذكّر الآن أنّ تلك الطفلة أضحت الآن امرأةً، أمّاً، وأن طفلةً أخرى تتشبّث بها دون جدوى.. لم يفدها العويل ولا البكاء في إبقاء أمّها حين اندفعوا وانتزعوها كظفرٍ بقي ينزف دم لحمه! هل ارتبط الأمر بجميل؟ أجاب نفياً بقدر ما توفّر له من معلومات! كان يحاول الابتعاد عن دائرة الاتّهام وفشل فشلاً ذريعاً.. لا تخادع نفسك، مهما حاولت الابتعاد عن بؤرة الضوء ستجد نفسك وسطها دون ريب. لقد ورّطتهم معك وهاهم الآن يدفعون ثمن إيوائهم لك. وأنت لم تنبّههم لخطر ذلك! ربّما لم يخطر ببالك، من عرفك إذن وأدرك أنّ لعنة المطاردة تلاحقك من أبد الدهور؟ من الذي أبلغ عنك؟ هدر فيه القهر واستحال زعزعاً يدعوه لانتقامٍ عاجل، صرّ على أسنانه التي كادت أن تُفلِت شتيمةً مقذِعة، تحسّس بآليّةٍ جانب خاصرته، فتشنّجت أصابعه على فراغ، لقد ودّعته خلفك وما عاد لك الآن سوى أصابعك لتزهِق روح الواشي!

كأنّما أراحته الفكرة فاستكان لها، واكتشفت في خموده المتتالي أنّ الجهل تلبّسه، ليست المشكلة في سؤاله، بل هي تتركّز في ما عليه فعله.

طوال الوقت كان يسأل كيف لا يكترث أحدٌ بتسكّعه اللافت للأنظار. كم تغيّرت الحال، وكم دأبت صدفةٌ غبيّةٌ على إظهار أنّها لم تتغيّر!

كيف تمّ ذلك ومتى؟ تكتظّ الشوارع رويداً رويداً ويدفع اختفاء الأطفال الريبة في نفسه! أيُعقَل ذلك؟ لكنّ الذي أثقل عليه وبدّد ريبته أنّه لم يكن موضع مراقبة. لاقى العيون التي تعبره عجلى بحذرٍ متوجّس! رصد العيون التي تمرّ مسرعةً في الحافلات العامّة والسيّارات، أراد أن يمسك واحدةً ترقبه، عبثاً، وبقدر ما حاول أن يلوذ بأفاريز الأبنية وأسوارها المنخفضة والنباتات التي تتسلّق حوافّها أو أن يتقلّص ليلتصق بظلّه فلا يظهر للأبصار التي تقاطع هامته المتحرّكة ببطءٍ واحتراز، بقدر ما اكتشف عدم اكتراث الجميع به! توقّع أن يكون غريباً تستطلع غربتَه العيون جميعاً وهاهو الآن لا يعدو حشرةً ضئيلةً لا يراها إلاّ من يبحث عنها. هل كفّوا عنّي واعتبروني مفقوداً أبديّاً أو منتفي الوجود؟ ثمّة ما يريب! انطفأت العيون، وبدل أن تكون مراقَباً هاأنت تتّخذ موضع المراقِب، لا تغرّنك نفسك فلربّما كنت واهماً، ولربّما تلبّست العيون الجدران والأشجار والنوافذ التي تُخفي وراء زجاجها ما لا تعرفه ولا تدريه! حتّى الإسفلت الذي تطأه قدماك ربّما اختزن عيوناً ترصد خطوك واتّجاهك! دون إرادةٍ راح يخفّف الوطء لكنّه تنبّه فأثقل خطوه كأنّما يريد سحل ما يختبئ تحت الإسفلت وحجارة الأرصفة الرماديّة. أين تمضي الآن وأيّ مأوىً سيجرؤ على استقبالك؟ بدأتَ تتعرّف الحجارة والمنعطفات والشجرات الباقيات يفئن عليك ظلالهن لكنّ أيّاً منها لا يتعرّفك كأنّك لستَ منها أو كأنّها هجرتك كما هجرتها. لمَ عدتَ إذن؟ لمَ عدت؟

قرع السؤال جدران جمجمته، كاد أن يغلق دروزها بصداه المتردّد محتبساً دون منفذ. وإذ أحسّ هواءً يلامس ظاهر كفّه تأجّجت نيرانٌ على سطوح أصابعه، رفعها إلى عينيه فأبصر دماً معجوناً بفتات جلده الذي

انكشط وعرّى اللحم، أدرك متأخراً أنّ كفه كانت تحتكّ بالخليطة الإسمنتيّة الخشنة والنافرة التي غطّت أسوار الأبنية التي يخلّفها وراءه كلّما تقدّم للأمام. التفت يمنةً وانفتحت رئتاه على المشهد المدفون عميقاً في لحم ذاكرته المحترق واستيقظ الألمُ دفعةً واحدة فطفر من عينيه موجعاً لاذعاً كاوياً يطفح أسىً! صار اللحم يحفر باللحْم ويلملم شظاياه من ذاكرة مداهمةٍ استحالت طيناً غير مسوّى «من أجل هذا!!!!!»

تيه

وقفت رحاب مشدوهةً، كانت جحافل ممّا لا تدريه تغزوها موجةً إثر موجةٍ واطئةً جسدها المباح، ساحلةً أطرافها، معفّرةً رأسها خائضةً بعيداً في أحشائها دفعةً إثر دفعةٍ مخلّفة دماراً وحرائق، دماً وجوعاً، وفي انتفاضة النزَع أطلقت صرخَتَها الوحشيّة المحتبسة عقوداً في حنجرتها وأطلقت غضبة امتهانها صفعةً مدوّيةً في وجه جنان، هذه لكنّ جميعاً! لم تنطق حرفاً، كانت تدور حول الضحيّة المذهولة التي ألقتها الصفعة أرضاً وأشعلت حرائقَ امتدّت من جذور روحها حتّى صفحة وجهها المتلظّية وقد جمدت دمعةً وحيدةً في زاوية عينها شكّلت علامة استفهامٍ مع مقلتها المفتوحة رعباً ودهشة، هادرةً غابيّتها مزيجاً بربرياً غير مفهومٍ من الشتائم وصخب الاتهامات والادعاءات والاحتجاجات! رقصاً بدائياً يردّد باهتياج أدعيةً مبهمةً على إيقاع قلبٍ مستثارٍ ورعدٍ يزمجر في سماء ملبّدةٍ ينذر بعصفِ آت!!

ما الذي دهاها؟ وكيف انقلبت بهيمةً أفلتت من جوف كهفٍ أحاطت به ضوارٍ مفترسةٌ يتحلّب لعابها على عاج أنيابها استعداداً لانتهاشها فدافعت بسعارٍ مجنونٍ عن حقّها بالبقاء؟ وقد كانت منذ دقائق ترجو وتحاور تحاول أن تقنع، تتوسّل للتي علّمتها أن تختار لنفسها بنفسها، أن تتروّى وحسب، ألاّ تحوّل قرارها المفاجئ لفعلٍ قبل أن تطمئنّ لصحّته وضرورته، تمزج بين

وعدها ووعيدها بطريقةٍ حاذقةٍ لم تعهدها بنفسها من قبل، كيف انقلبت هكذا على نفسها أولاً، وعلى ما غرسته في تربة البنيّة ثانياً؟

ومثلما أتاها جنونها على حين غرّةٍ همدت كذلك وقد أنهكها الصراخ والعويل والتلويح والقفز الدائري المطبق على القربان الخامد، تداعت وقد تخلّت ساقاها عنها مجتاحةً بحنو الحقول ورقّة أشجار الحور، وعذابٍ مقيم وندمٍ عنيد. انتحت جانبها، طوّقتها بذراعيها وانتحبت فوقها، لكنّ البنيّة الغائبة بدت جثّةً منتزَعةً من فوق طاولة تشريحٍ بعدما اتّكأت على جانبها الأيمن تاركةً لذراعها حفظ كتلتها من الانهيار وقد نسيت يسراها على خدها خشية أن يبوح بما تبعثر في حناياها، عاودتها خفقة الروح مع العناق الذي استحال نشيجاً مكتوماً يتلوّى حواليها، تعويذةً تسترجع الحياة التي فرّت منها إلى حين، وفي صحوتها أخذت ترتجف كمن مسّته حمّى أمدّته بتيارٍ لا سبيل لإيقافه.. انتفضت وهبّت واقفةً فناحت رحاب غيبةٌ وشيكةٌ وقد جبنت عن التطلّع إليها. على جرف اندحارها عبرت.. خطوات مثقلة، وفي الحيّز المطلّ على الخواء رأت باباً يفتح، وقفت على عتبته فتاةٌ غريبةٌ تنحني فوق حقيبةٍ غطّت ساقيها وقد انطلقت من عينيها أسراب سنونو اختلط عليها الطقس فتاهت، رمقتها بعينين كسيرتين برهةً ثمّ أغلقت الباب على قامتها وغابت! كأنّ شيئاً ما قد اجتثّ، أطبقت الغيبوبة فعلقت في فخّ الفراغ وضاعت. بابٌ مغلق، نافذةٌ مسدلة الستائر، خريفٌ يأتي على غير موعد، سديمٌ مبرقش بالرماد. وحيدةٌ في وحشتك مثلما كنت، كأنّ شيئاً لم يتغيّر وكأنّ أنت أنت، لم يعبر جبينك حائط الزمن فملتِ للنسيان! أو نسيك؟ نسيك؟ أين؟ أما نسيتِ أنت نفسك؟

يرتدّ الزمن، يستعيد لحظة مسّ أخرى أُطلقت من قمقمٍ مجهول انتهبتها واحتلّت تفاصيلها... في ضباب عينيها تتشكّل الصورة رويداً رويداً، تفوح روائح جسدها الممنوع من الماء والاغتسال فتفغم أنفها متداخلةً مع

روائح الضماد والجبس الذي أحاط بساقها من أخمص قدمها وحتّى قمّة فخذها. ستّة شهورٍ من عذاب، ونصف موت!

جدرانٌ عارية لا يصل انغلاقَها بالفضاء إلا فسحة نافذةٍ صغيرةٍ اتّجه السرير نحوها، وفي ضجعتها كانت الزرقة تمرّ عبر قدميها الشمعيّتين الكالحتين. تتلفّت حواليها فلا يلاقي عينيها سوى رماد الجدران، غير سريرها البدائيّ الذي يأكل خشب سطحه لحمَ جذعها وكفّيها وساقها الطليقة، ما كان هنالك إلاّ مائدةٌ صغيرةٌ تحاذي كتفها الأيمن تناثر عليها بإهمالٍ إبريق ماءٍ زجاجيٌ وكأسٌ نصف ممتلئةٍ وعلبٌ ملوّنةٌ احتوت ما يخفّف أوجاعها، علبة محارم ورقيّة وزجاجةٌ كبيرةٌ من الكحول الشفّاف يلتصق بها كيسٌ زهريٌّ محشوٌّ بقطنٍ طبّي ناصع البياض. على بعد مترين تداخل بابٌ خشبيٌّ مطبَق مع الجدار وإلى يسارها استندت على الحائط حقيبة كمانٍ سوداء مهملة تخشى أن تصبح جزءاً من الجدار الميّت وهي تختبئ خلف كرسيّ الخيزران الذي لم يقعد عليه أحد البتّة! شكّلت النافذة صيغة ارتباطها الوحيدة مع العالم وتلك الإجّاصة السوداء المتدلّية إلى جانبها، ضغطةٌ صغيرةٌ تعقبها رنّةٌ خفيفةٌ تتزامن مع فتح الباب وإطلالة وجه خالتها التي تصطنع ابتسامةً بدل السؤال عن حاجة ابنة الأخت! تساءلت بدهشة: ألا تنام؟ أتستطيع البقاء متيقّظةً دوماً وراء ذلك الباب؟ ألا يؤخّرها عملها ولا لمرّةٍ واحدةٍ عن تلبية النداء؟ دفع بقاء الأسئلة دون إجابةٍ لسيطرة إحساس كونها غريبةً في منزل خالتها من غير أن يزيح شعورَها بتفاني الخالة في رعايتها وخدمتها على وجه الدقّة. كانت عنايتها بالنظافة أمراً لا يُصدَّق، ترفض أن تبقى سلّة المهملات قرب سريرها أو تحته فما بالك بوعاء مفرغاتها الذي ترفض رفضاً باتّاً إبقاءه إلا حين حاجتها الآنيّة إليه، ولا يقاربها إلا إصرارُها على الصمت كأنّما نذرت نفسها لطقسٍ مقدّس! لكنّ السؤال الذي نزف على شفتيها ببطء ومن غير توقّف: ما الذي يحملني على العيش بتلك الصورة وقبول متاهاته على ذلك النحو؟ لم تجرؤ على التلفّظ به، كان مجرد

ارتطامه بأذنيها يعني إجابةً واحدةً قاطعةً تنزف حقاً من رسغيها وتُغرِقها في لجّة الحناء! وما منعها من فعل ذلك إلا أملٌ ضئيل، ارتبط بتحطيم الجبس الذي سجنها داخل جسدها والذي سيُعلِن، إن حرّرها، إمكانية تصالحها مع الجسد العاصفة الذي منعها من الاختباء والانزواء!

ـ يا خالتي، عليَّ لن أتّصل بأصدقائي فمن حقّهم أن يعرفوا مكاني، يزوروني ويؤنسوا وحشتي!

ـ لا، ليس من حقّهم أن يروا حطامك ويبدوا شفقتهم عليك شاكرين الله في سريرتهم أنّهم ليسوا في مكانك.

ـ لا يمكن لأصدقائي أن يفعلوا ما تقولينه!

ـ ما أدراكِ؟ لماذا نعرّض أنفسنا للتجربة؟

كانت الأجوبة باترةً وحاسمةً تُلغي وتُصادر أيّ حوار!

أبي لمَ تركتني هنا؟ أما كان بمستطاعك العناية بي بمفردك؟ حسنٌ لا تستطيع، لكن لمَ تهملني؟ لمَ تنساني وتتركني وحيدة؟ أعرف شقاقكما ولكن إن استطعتَ تجاوزه وسألتَها إيوائي والعناية بي أو قبلتَ طلبها في أحسن الأحوال، ألا تستطيع السماح لنفسك بزيارتي، أتظنّها ترفض هي الأخرى دخولَك بيتَها؟ متى سينتهي كلّ ذلك؟

كانت العزلة والحصار المفروضان عليها يولّدان رائحةً تخترقها وترفع جداراً شاهقاً من فحم ليليّ يعتلي بصرها لا تبدّده الزرقة التي تطلّ ساهيةً من فوقها دون أن تحمل إليها الضجيج المعتاد لما يمكن أن يكون ويحدث تحتها أو بين تضاريسها المتباينة. ودّت لو تختلق ذريعةً توجب إعادتها للمشفى، ربّما تتخلص هناك من الوجه المتشفّي لخالتها التي صارت سجّاناً يراقب بإمعانٍ ردود أفعالها ويدرس بعنايةٍ تقلّبات حالاتها وتهاويها في ظلمات الوحشة والكآبة، لكنّها اصطدمت بحاجزٍ حقيقيّ، لم يكن عاجزاً عن إبقائها في المشفى وحسب بل إنّه بالكاد استطاع تأمين تكاليف علاجها، لا تعرف إن

كان قد اقترض أو باع شيئاً ما كيلا يتركها لرحمة المشافي العامّة التي تنظر شزراً لها ولأمثالها باعتبارهم كائناتٍ كريهةً لا بدّ من استقبالها! ثناها ذلك عن استمرار التفكير في ما لا طائل منه ولم يثنها عن محاولة اختراق الحلقة التي أطبقت عليها وأنشبت أنيابها في لحمها المعزول عن الزمن!

ـ خالتي، ما الذي يكرهك على احتمال وجودي معاقةً وأنت لا تطيقين رؤيتي معافاةً؟

لم يفاجئ السؤال الخالة، ربّما انتظرته منذ زمنٍ حتّى أنّه لم يحرّك ساكناً في تعابير وجهها الصامت والمنقبض، فأجابت بهدوءٍ بدا مصطنعاً لأنّه لم يحسن إخفاء تهدّجٍ قسريٍّ داخل صوتها:

ـ هل بدر مني ما أوحى بذلك؟

أجابتها بسرعةٍ كأنّما تعمّدت تصعيد انفعالها المكبوت واستخراج مكنوناتها الغامضة والسرّية!

ـ هل بدر مني ما يوحي ويشي بغير ذلك؟ صحّحي السؤال يا خالتي، ما من غريبٍ بيننا! ممَّ تخشين؟

كادت أن تكسر جليدها وتعبر حطامه سريعاً لكنّها تمهّلت:

ـ أبداً! كلّ ما هنالك محاولة تحقيق رغبةٍ مُحالة، أن تكوني شيئاً آخر مختلفاً عنها.. وعن أختك التي ما كانت سوى نسخةٍ مطابقةٍ لها!

وهاهو الجليد يستحيل مرآةً ذكيّةً، بل خبيثةً ردّت محاولات الاستفزاز لنحر مُطلِقِها فأطلقت شرايينه نبضَها دافقاً دافئاً ويقينيّاً مثل لون الشفق.

ـ خالتي تتحدّثين عن الأموات! شقيقتك وابنتها! أما من حرمةٍ تمنع عنك تقمّص دور القاضي والجلاد؟

ابتسمت الخالة بمرارةٍ وسخريةٍ غير مكترثةٍ لم تذب صقيع وجهها الذي استحال فولاذاً لامعاً في عينيها.

ـ لماذا تستثير الحقائق المشاعر على هذا النحو؟ أويشتري الموت رضانا وسكوتنا، أم أنّ روابط الدم تُرغِم على تزوير الوقائع البيّنة؟ هذا رأيي، لم يتغيّر وقد قلتُه وهما على قيد الحياة، وأقوله الآن سواءً أكانتا قريبتين أم غريبتين.

انتابت رحاب رغبةٌ وحيدة، أن تنقضّ عليها وتصفعها صفعةً لا تضرّج وجنتها وحسب بل تجعل الدم يغطّي صفحة الوجه القبيح ويحجب رؤيته! لكنّها تساءلت بوجع:

ـ ما الذي فعلتاه بحقّ الإله حتّى أورثتاك كلّ هذه الكراهية؟

طربت الخالة في سريرتها، كبحتُ جماحها أو أنّها خضعت، ولجم جسدها الأسير اندفاعاتها، سيّان فهي الآن تحت سيطرتي وأنا من يوجّه دوافعها ويحرّك انفعالاتها.

ـ هل تسألين، أم أنّك تقررين؟

فأتت الصيحة مكسورةً.. ومهانة:

ـ وما الفارق يا خالتي.. ما الفارق إذن؟

وبذات الهدوء المهيمن واللذّة الساديّة في الإيلام، تمهّلت الخالة قبل أن تقول:

ـ ألا ترين الفارق؟ بلى ولكنّك تخادعين نفسك حاسبةً أنّك تخدعينني، الفارق يتحدّد في الموقف! أن تدافعي، أو تشكّكي لتشكيل معرفةٍ تطرح سؤالاً مغايراً!

يا للفلسفة الحمقاء، قالتها رحاب لنفسها وهي ترقب انسلال أفعىً أرعبت فريستها فخدّرت أوصالها ولو أنّها عافت التهامها. وقبل أن تغلق الخالة الباب رمقت ابنة أختها طويلاً.

ـ لا تنسي تناول الدواء!

ومرّةً أخرى انتابتها رغبة الإمساك بالعلب الصغيرة الملوّنة ورمي خالتها بها، لكنّ الباب انطبق مخلّفاً الصمت وأصابعها الضاغطة بإصرار على راحتيها حتّى انغرزت الأصابع في اللحم فأدمته وهي تنتفض على وقع الجملة التي استمرت تدوّي رغم خفوتها في أرجاء المكان، عساكِ ألاّ تكوني مثلهما! ما عادت تطيق صبراً، عليها أن تنهض وتلحقها وتنشب أظافرها في وجهها، لكنّ الجبيرة شدّتها للأسفل وقد أطلقت محاولة حركتها المفاجئة والعنيفة الوجعَ الغافي في لبّ العظم فاندفع إلى رأسها ومزّق عينيها. عضت على شفتيها فتلوّنتا بنجيعٍ ناضجٍ واحتبست صرختها.

وهاهي تنطلق الآن مخترقةً أزمنةً بعدت ممزّقةً الوحدة والفراغ اللذين ألمّا بها من جديدٍ كأنّهما ما برحاها.. هل كانت ثورَتك يا رحاب؟ أم أنّها بقايا مكبوتةٌ وعاجزةٌ من تمرّدٍ عنيفٍ قديمٍ وانتفاضةٍ كان لا بدّ منها في وجه خالتك؟ أم أنّها تقمّصتكِ وانفجرت في وجه الحفيدة التي تمشي على درب أمّها.. ودرب جدّتها خطوةً بخطوةٍ مثلما تنبأت الخالة في هوس تداعيات الطهر وعنت التمسّك بأهداب الفضيلة؟ تتناسل الخطيئة مثل الأفاعي وتنتقل عبر أوردة الدم! أتاها السؤال وقد تمدّدت في العتمة ضائعةً في برهةٍ من التردّد والشكّ وكادت أن تتلمّس ساقها، إن كان ثمّة جبيرةٌ تغطّيها، لتحسم أمرها في الزمن الذي يغطّيها. هل توقّف أم أنّه استمرّ وتوقّف عند لحظةٍ بديلةٍ أو شبيهة؟

الحقيقة الوحيدة التي أماطت اللثام عن وجهها وأفاقت عليها غياب جنان، هل سيكون نهائيّاً؟ ذلك ما خافته وأعاد مرارةً غصت بها من جديد، هل تتحقّق نبوءتكِ أيّتها الخالة التي اختفت دون أن تمضي؟!

كان عليها أن تلملم أعضاءَها لتلوذ بها، فما من مكانٍ آخر أو جسدٍ آخر أو فضاءاتٍ أخرى تمكّنها من اللجوء إليها. مضى الزمن الذي يمكّنها من ندب وحدتها ورثاء عزلتها، اختارت من وقتٍ مبكّرٍ وكان عليها أن تحتمل نتائج خياراتها حتّى نهاياتها مثلما تجرّعت كأسها حتّى ثمالته إن كان ثمّة

قطرةٌ أخيرةٌ تقبع في قاعه. أما عليها الآن أن تعيد حساباتها وتعاود قراءة خارطتها لتعيّن موقعها وسمتها؟ ذلك ما همست به لنفسها وهي تنفلت من عباءة خذلانها وتزيح أنقاض هزيمتها وعجزها معاً. رحاب رحّال، لم تُخلقي لهذا ولم تُعدّي وتهيّئي لمثله! وقفت لتشاهد تحت الضوء، الذي تردّدت في إزهاق الظلال به وخلاله، آثار العاصفة التي مضت وخلّفت وراءها غيبة جنان وحضورها المفزوع والمنهك. عليكِ أن تفعلي شيئاً ما بدل التطلّع ببلاهةٍ في الفراغ الذي يُبعِد عن عينيك الرؤية والذكرى، عليك استرجاعها قبل فقدانها الأبديّ. أما فقدتِها من زمنٍ طويل؟ ربّما ولكنّ فقدانها الآن سيكون نهائيّاً ومزدوجاً، سيمسُّك أنتِ قبل أن يمسّها! فعليها سيُطبِق حلمُك الذي حاولتِ إنعاشه عبرها جفنيه ويوليك ظهره دون رجعة!

في الغمرة ضاع كلّ شيء.. طفا ما غار طويلاً تحت السطح وظهر جارفاً قاسياً غير مرغوبٍ وغير مردودٍ وغير متوقّع! هل احتجنا كلانا لتلك اللحظة السرمديّة لتَكشِف غامض غافيتنا وتعرّي المستور؟ هل كان ذلك ضرورياً لنعرف نفسينا أكثر ونتعرّف على ما نضمر بفجاجةٍ ولؤم؟ ليست هي.. ولستُ أنا! ثمّة ما اختلّ وأماد بالمستقرّ والمتوازن وظهر ما كان هشّاً وصدِئاً ومستوفياً شروط البقاء! امرأتان وحيدتان كانتا على ضفّةٍ واحدة، تعانقتا بقوّةٍ وتطلّعتا في سطوع الشمس من غير أن ترفّ أجفانُهما وأصرّتا على المضيّ قُدُماً نحوها أو نحو ظلالها المسكونة بالأوجاع، وعلى حين غرّةٍ انفطرت تلك الشمس أو تصدّعت الضفّة وانشقّت فانفكّ عناقهما! أفلتت سواعدهما تشابكها.. باعد بينهما طوفانٌ من أمواهٍ سحريّةٍ بدت تحت الشفق الأخير لفلقتي الشمس المرتجفتين على حدّ الأفقين المفترقين ناريّة! مهلّ بركانيّةٌ باردةٌ رغم توهجها تتدفّق وتسيل دون حركةٍ سوى تباعد الضفّتين. أدارتا ظهريهما لبعضهما وراحت كلّ واحدة ترنو لشمسها المحتضرة في سوادٍ سقيم!

ألا تزال تحاول استرداد شموسها الآفلة وأنتِ الآن تبحثين عن نجمك الهادي أو الهاوي في سديم ليلك؟ لكنّ الخطوة لا تتلكّأ.. تغذّ سيرَها دون هدفٍ واضحٍ فالأرصفة ترسم اتّجاهاتها الخاصّة والشوارع تعيّن مسارها الضروري بلا ربّانٍ وبلا مركب، واطئةً الأرض بعنفٍ وقسوةٍ كأنّها تحمّلها مسؤولية ما حدث أو أنّها تريد إعلان رفضها لما حدث، لما فعلته بها، فدفعتْ غضبها تجاهها احتجاجاً أو عقاباً أو أذىً.. ملأ الصدى أذنيها فأهاج خوفها.. استشعرت وحدَتها فاسترت بظلٍّ وهميٍّ ودنت من الجدران ملتمسةً حارساً يحميها فتبدّد خطوها وصار همساً ينسج حولها مرآةً تعكس

النظرات وتردّها إلى عيونها فارغةً مهجورةً مثلما هو السحر الذي يعاند فلا يمضي ويتيح لها متنفّساً في خطوها وإقدامها.. مالت تحت ثقل حقيبتها.

ما أغباني! أطاشت لبّي فتهوّرتُ، أين أمضي الآن حاملةً روحي وحقيبتي؟ ودّت لو تفتحُها تخرج ثيابها منها وتنسلّ داخلها ولتقم الثياب بمهمّتها فتحملها وترحل بها حيث تشاء...

فكّرت أن تتركها وتمضي دونها، لكنّها عجزت عن فعل ذلك. فيها بقيةٌ من عمرها وتميمة آثاره القادمة. هل تعود؟ لا، أبداً. ما عاد ذلك ممكناً. لاحت لها أشباح الشوارع المختبئة في الخلاء، والمتدلّية من أعمدة مصابيح الإنارة المرتفعة التي زادت أضواؤها وحشتَها وعزلتَها. ليتها كانت مطفأة، إذن لكان لي في العتمة موضعٌ يُخفيني ويمنعني! التفتت فجأةً.. ثمّة وقع خطئ يلاحقها.. أتواصل اقتفاء آثاري؟ أجابها الخواء الكامد وراءها. لا يمكن لها فعل ذلك، ربّما لم تستفق بعدُ من ذهول صدمتها، وما لم تهاجمها نوبةٌ أخرى من جنونها الكامن فستبقى طويلاً تنتظر امرءاً ما ليوقظها. ما الذي حدا بها لفعل ذلك؟

كانت تحاول الهروب من مخاوفها عبثاً، فهياكل الأبنية المتشابهة والسيارات المركونة بحذاء الأرصفة تطبق عليها من كلا الجانبين كوحوشٍ خرافيّةٍ ستنقض عليها في أيّة لحظة، أو ككمائن ينتظر فيها مطاردوها لحظة غفلتها للانقضاض والقضاء على البقيّة الباقية من ضوءٍ تنتظر قدومه! انسلّت من الشوارع الخلفيّة وانعطفت نحو طريقٍ عريضةٍ وطويلةٍ بدت لها أهون الشرّين، تستطيع على الأقل أن تأمن أحد جانبي الطريق التي تفصلها عنها أمتارٌ عديدةٌ من الإسفلت مقطوعةً طوليّاً بجزيرةٍ إسمنتيّةٍ متطاولة.. اطمأنّت قليلاً رغم فزعها من السيّارات التي تعبرها أنوارها عابثةً بظلال قامتها فتجعلها تستطيل وتتراكض بسرعةٍ مخيفةٍ أمامها وعلى جانبها.. تكشفها للحظاتٍ وسرعان ما تخلّفها لعبث المصابيح التي تتخاطف ظلّها وتبدّده في اتجاهاتٍ متباينةٍ متناوبةً بين انتقالها من عمود إنارةٍ إلى عمودٍ آخر. كان

إحساسٌ ضئيلٌ بالأمان ينتابها حالما تتجاوز واحدةً من الشجيرات تنهض من بين الأعمدة المتتالية، تودّ لو تتوقّف تحت إحداها فتهبط الأغصان عليها وترفعها لتؤويها في أحد أعشاش العصافير الغافية منتظرةً نداء النهار وربّما منتظرةً متململةً انبثاقةً مثلها. فجأة ضغط صرير مكابحِ شديدٌ قلبها وهصره فتسمّرت قدماها قبل أن تعي الصوت الذي صكّ أذنيها كأنّه صور القيامة يدعو وما من مجيبٍ سواها، اقتنصتها دائرة الضوء التي انسكبت عليها لكنّها باتت كصورةٍ متحرّكةٍ ثبتت في لحظةٍ غير مواتية، قدمٌ في الهواء، قدمٌ على الأرض، جذعٌ مائلٌ وساعدان يغطّيان وجهاً سيتلقّى صدمةً وشيكة، عينان مفتوحتان على الفزع وروحٌ كسيرة!

لم يستعدها اللغط والصياح وأصوات انطباق الأبواب الهابط كرعدٍ سماويّ، طرقاتٌ موجسةٌ لبدء فاصلٍ مسرحيّ! لكنّ الذي استفز وعيها واستجمع إرادتها وبلّل جفاف صوتها القسريّ، ملامساتٌ تنتهك جسدها.. تنبّهت على بصمات أكفٍّ تتحرّى جسدها وتوغل في خباياه تنقيباً وبحثاً، وقبضتين تعتصران بقسوةٍ عضديها فتشلاّن حركة ساعديها.

ـ ما بكم؟ أبعدوا أيديكم الوسخة عنّي، من أنتم وما الذي تريدونه؟

وحين لم تكن الإجابة إلا صمتاً شرهاً راحت تصرخ بأعلى صوتِها طالبةً النجدة ومحاوِلةً بما تبقى لها من قوّتها المجهَضة التخلّص من الأذرع الأخطبوطيّة التي التفّ أحدها على وجهها وكمّ فاها!

ـ اهدئي.. رجال أمن، من أنت وأين تروحين في مثل هذه الساعة؟

حاولت أن تطمئن نفسها لكنّ هلعها ازداد، يعاملونها مثل قطّاع طرق أو سفّاحين أو مغتصِبين، تمنّت لو تستطيع فتح فاها لتعضّ الراحة التي اغتصبت الهواء ومنعته عن رئتيها.

ـ ما الذي تحويه حقيبتك تلك؟ سأل صوتٌ يشبه نقيق ضفدعٍ بحنجرةٍ بشريّةٍ وتابع آمراً:

ـ أبعد يدك عن فمها قليلاً!

ما إن ابتعدت الكفّ حتّى أطبقت بقوّةٍ لتخنق زفيرها المندفع صراخاً مجنوناً، أتتها لكزةٌ موجِعةٌ فوق خاصرتها.

ـ اخرسي، لن نأكلك.. لسنا وحوشاً!

لم تستشعر ألماً بقدر ما أحسّت اختناقاً بعدما غطّت الكفّ منخريها أيضاً.. وغابت مع غياب الهواء. راحت تتلوّى وتتلفّت يمنةً ويسرةً إلى الأعلى وإلى الأسفل، لكنّ الكفّ لم تمنحها حياتها إلاّ بعد تلمّسها همود حركتها الوشيك فأفلتتها. وبينا تتنفّس بعمقٍ وسرعةٍ عادت الأسئلة متداخلةً مع تردّد لهاثها.

ـ من أنت، ما تفعلين، أين تمضين؟ أين مفتاح حقيبتك؟

لكنّ الأجوبة أضحت ناجزةً ومنتشرةً على الرصيف المخادع الذي لم يحمها من السيّارات الطائشة والسائقين الرُّعناء. ثيابها ومحتويات حقيبة يدها.: كأنّما عبثوا بمحتويات روحها وبعثروها خارج تخوم جسدها.. ريحٌ شعواء شعّثتها وبدّدتها نتفاً متنافرةً لا جامع بينها ثمّ مضت بعيداً لتثُبت لها أنّ ما حاولت الفرار منه لاحقها وأوقعها بحبائله أسرع ممّا حسبت وظنّت. هل أوقعتُ نفسي في هاويةٍ هربت منها بعدما دفعت نفسي برعونتي دفعاً نحوها؟ أما كنتُ بمأمنٍ لو لم أغادر على هذا النحو وبهذا الاندفاع وتلك السرعة، أم أنّ ذلك سيحدث عاجلاً أو آجلاً بطريقةٍ أو بأخرى؟

راودتها الأسئلة وهي تستعيد وعيها خارجةً من شرنقة الرعب التي التفّت عليها ودفعت خيوطَها الشائكةَ في حركاتٍ لولبيّةٍ ومكّوكيّةٍ داخل لحمها وأحشائها كأنّما أرادت تقسيمها قطعةً قطعةً وعزل كلّ واحدةٍ عن شقيقاتها.

لم تدرك كنه ما تخاطفوه منها لكنّ إحساساً طاغياً تلبّسها أوحى بأنّها فقدت كلّ شيء، وأنّ ما هربت من أجل المحافظة عليه وحمايته أو منحه

فرصة الحياة قد ولّى إلى غير رجعة. تاهت روحُها وتلاشت حين عمّ السكون مجدّداً وامتصّتها بقايا العتمة.. لملمت أشلاءها واستدارت لتعود من حيث أتت فأضاء في عينيها غبش الصباح وسمّر قدميها في الأرض. مضيتُ لأثبت أنّني أستطيع أن أكون من دونك، رغم الأشباح التي تسعى لسبيي وإلحاقي بعالمها الخفيّ. أردتُ ابتعاداً حتّى لو كان بصيغة الفرار لأتمكّن من تصليب عودي ومدّ جذوري في تربةٍ يصعب اقتلاعي منها.. فكيف أعود وقد اصطادتني تجسيماتها دون أن تطاردني على بعد خطوةٍ من نبضي ومسافة ضوعك الملاحق؟ ما عاد ذلك ممكناً.. ما عاد لي سوى البحث عن شتاتي في الشوارع والأزقّة التي حاذرتُها دون أن أغفل عنها، ومن غير أن تفسح لي فرصة اعتيادها والتآلف معها!

وهاهو ذا الضوء الذي انتظرتْه طويلاً ليهدي خطوها ويؤنس وحشتها يلفظها وينقلب عليها. دعتها العتمة وتوسّلت إليها أن تمتصّها وتطويها، وفي رجعتها ارتطمت ببقاياها الملقاة بإهمال والمتروكة للعراء والريح الخامدة فتخطّتها مسرعةً لا تدري أين.

كان السؤال البسيط والملحّ، أين مضت؟ سألت، وحاولت ابتداع إجابةٍ مطمئنة. هيهات لها! أدركت جهلها وقد حسبت نفسها عالمةً بكلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ تخصّ البنيّة التي غادرتها دون وداعٍ حتى. هل كانتك يا رحاب وقد حطمت قشرة الصدأ السميكة التي غلّفتكِ فتُهتِ عن نفسك؟ هل مددتِ جسر الدم واللحم نحوها لتستعيضي بها عمّا روّضتِه داخل نفسك ووأدتِه دون موت فاكتشفت أنّها هدمته دون زلزلةٍ ومضت وقد تركتكِ خالية الوفاض.. جسداً من عظامٍ هشّةٍ وعينين كابيتين وأحشاء عقيمة؟ دعي ذلك جانباً، عليكِ أن تجديها سريعاً. إن استطعتُ أن أعرف كيف، وإن استطعت القيام بذلك. عليك إذن أن تعرفي و.. تستطيعي. هل هي المرّة الأولى التي ترين فيها نفسك مشلولة الفكر والحركة؟ تذكّري كيف كنت تفعلين حينها.. كيف كان جبنك وفزعك وذهولك يستحيلون بسحرٍ عجائبيٍّ إلى اندفاعٍ وإرادة وصول! حسنٌ.. حسن، سأعيد تركيب الصورة لأرى إن كان ثمّة ما يشي بإمكانيّة اكتشافها وفرصة استعادتها! لقد لفظتني، باختصارٍ شديد، ورأت أنّها جديرة بظروفٍ أفضل بكثيرٍ ممّا وفّرتُه لها. رفضت الشروط التي كبّلتني وأصرّت أنّ روحها أرحب من أن تُحاصَر في هذا الحيّز الضيّق، وآنف من أن تخضع مثلما فعلتُ. هكذا قالت، وعليه فقد أعلنت استقالتها من التصاقي بها وجاهرت باستحالة قبولها بما لا ترتضيه. من أين أتاها كلّ ذلك وكيف؟ كيف أخفته حتّى انفجر على نحوٍ لم يخطر على بالك أبداً؟ في عمرها ذاك.. وفي تقاطعات مكوّناتها ومكتسباتها، إرثها واجتهادها، أليس غريباً؟ أكان غريباً حين فعلتِ مثلها في عمرٍ يقارب عمرها وفي ظروفٍ أكثر مواتاةً وأشدّ وضوحاً وأرجح أملاً؟

هل سألت نفسك ذات يوم لماذا استغربت استهجانهم لاندفاعة

رحيلك فتستغربين اليوم؟ ثمّة ما يعاود سيرورته ضرورةً كان أم صدفة. ما كان أبداً صدفةً رسمُك صورتِك التي كنتِها على خلاياها خليّةً خليّة.. فكيف تدهشين الآن؟ أليست فرشاتك نفسها، ألوانك نفسها التي رفضت دوماً انتقالها إلى البياض غُفلاً مثلما تلدها الأنابيب التي تتمخّض عنها مهما اقترب اللون المقترح من اللون المتخيَّل والمشتهى.. وتردّدين: المتخيّل والمشتهى لا يمكن أن يوجد جاهزاً أو يولد ولادةً طبيعيّة! سيكون مفتقراً للهفةٍ يلزم أن تداخله فلا ينسكب أو يتمدّد إلاّ وقد اختار جزءاً حميمياً منك فاستلّه مندغماً به خارجك. ثمّ تنوسين بين محاولات اقترابك منه.. ونأيك عنه.

أما فعلتِ ذلك معها؟ تسألين الآن والإجابة الوحيدة ليست سوى جسدك الهامد دون حراكٍ وقد غادرته الروح التي انخلعت عنك رقعةً رقعة.. ولمسةً لمسة، وتقصّفت مِزَقاً هشّةً وضوعاً وراء الجدران!

تهاوت كأنّ الدفعة الأولى التي ولّدت نوساتها تخامدت وهي تصارع كوابح المقاومة والاحتكاك دون جدوى. وفي لحظات تلاشيها تماسكت متحاملةً على تبدّدها كيلا تتداعى.. قادتها قدماها دون رغبةٍ إلى النافذة المفتوحة على غبش استغاثات السحر. أرادت أن تبعد عن عينيها نافذةً قديمةً ظلّت مشرعةً تحت جفنيها في الإيماض وفي الإغماض على ليل أزلي، شبّاك حديدٍ متصالب على فوّهة بئرٍ عميقةٍ اتّخذت شكل قبرٍ طولانيٍّ دون قرار، تتردّد في أرجائه دون توقّفٍ صرخةٌ حزّت على وتر الموت فاستحالت صدىً يموج في قيعان الروح، تطلّعت بنافذ صبرها وبقايا لوعتها تستجلي ظلّ جنان وتشتمّ رائحتها التي علقت خليط الأبنية والأسوار والإسفلت والغبار... أين أنت الآن؟

ـ لن أبقى ثانيةً واحدة! حكت بنزقٍ طفوليٍّ بدا تشنّجه عارضاً ولحظيّاً.

ـ هوّني عليكِ.. أخبريني ما حدث؟

تعلّمتُ، في نوبات غضبها، أن أتحوّل لدريئةٍ تتلقّى قذائف غضبها وفرضت عليّ أن أحسن الإصغاء لشكواها إن جاهرت بها.

ـ ليس مهمّاً ما حدث، فكلّ ما يحدث يدفعني لذلك، ما عدتُ أحتمل. هل تفهمينني؟ تابعت على نفس الوتيرة، لكنّ إصراراً غير طارئ لاح في تشبّثها وهي تضغط فكّيها بشدّةٍ قاذفةً رأسها للخلف بعصبيّةٍ مفرطةٍ محاولةً ردّ شعرها القمحيّ الذي انسدل على وجهها لحظة إطراقها مستعيدةً صدى كلماتها.

ـ أحاول ذلك، لكنّني أحتاج مساعدتك لأفهم تماماً.

اقتحم الانفعال جرس صوتي رغماً عنّي ولم أمنعه، كان عفويّاً وضروريّاً كي تلمس مشاركتي لها. لكنّ غضبها استعر فجأةً وصرخت على غير عادتها:

ـ لن تفعلي ذلك أبداً، لن تفهميني مهما حاولت، وما عاد هنالك ما نتحدّث حوله. كلمةٌ واحدةٌ وحسب، سأرحل، ولن يرغمني شيءٌ على البقاء!

أجفلني صوتها. تراجعت يداي عنها آن حاولتا تطويقها وضمّها وقد هبّت واقفةً مندفعةً نحو غرفتها...

لمَ حدث ذلك وكيف؟ كان الجواب الوحيد تحلّل ذوّب الفراغ ببقايا الليل، والبروزات الغبراء لتضاريس المكان الملقيّ على عتبات مقلتيها ووراء أفقها المهمل. أيّ الاتجاهات سلكت؟ وأيّ المنعطفات غيّبتها وأيّة غربةٍ تمتصّها الآن وتتآكلها؟ فكّرت.. لو تلحق بها! لكنّها أدركت، مع توالي انتشار الشحوب المغموس برمادٍ داخله ندفٌ تميع في بهوت زرقةٍ متسلّقةٍ، أنّها أصبحت بعيدةً.. أبعد من أن تطالها عيناها وأنأى من قلبها النابض بكسلٍ وارتياب. لا! ما يجب فعله الآن تحديد الأمكنة التي يمكن أن تلجئها إليها مهانةُ طردها وأحاسيس كونها منبوذة، وتفاعلات التشهير بها باعتبارها طفلةً رعناء تحتاج كثيراً من الضبط والرعاية المحكَمَة والرقابة الصارمة على سلوكها وما يدور في ذهنها وعلى ضروب تحولاتها الطارئة والمتوقّعة! دخل

السؤال إلى رئتيها أبخرةً ثقيلةً مخرّشةً تنفّستها مضطرةً بعد احتباسٍ طويلٍ تحت سطح ماءٍ موحل. لو كنتِ مكانها كيف ستفعلين؟ تمدّدت الأبخرة فضاقت بها رئتاها وأشعل عينيها صبيب حمضٍ كاوٍ أدخل المشهد الممتدّ أمامها في ضبابٍ زعفرانيٍّ غام في هديرٍ ارتجفت له أوصالها. أعود وأرى نفسي فيها أو أراها فيَّ!! في لحظةٍ كتلك محالٌ أن ألجأ لأيٍّ كان، لا صديق ولا قريب ولا غريب أجسر على مواجهته وأنا مصدّعةٌ على ذلك النحو، سأترفّع عن عرض ضعفي أمام أيّ عين. ما الذي ستفعلينه إذن؟ ربّما لا شيء سوى التسكّع في الطرقات! إلى متى؟ حتّى أستعيد بعض ما فقدتُه و...، أراك صمتِّ؟ أداريه أو أتجاوزه.. أو أتكيّف معه! هاقد قلتها، ربّما كانت فضيلةً لكنّها لا تنفي السوءة أو تخفيها.. تعودين إذن؟ أعود! هي لن تفعل ذلك، وأنتِ خير من يعلم!

جهلك هو الذي يضعك الآن في نقطة اللاتوازن، حيث ترتعش الإبرة، وتتراقصين على رعشتها التي تشير صوب التيه الذي ابتلعك وطوّحت بك ريحُه المهتاجة!

جالت بعينيها تبحث عن أولى الشعاعات لتدخل من صفرها تدرّجات صعودها. أيُعقل أنّني أضعت مواعيد شروقها ومواضعه؟ ليس مهمّا. المهمّ أن تعلو لأنتشر مع عيونها الباحثة ومعابرها الكاشفة. لا تظهر، كأنّها تقصّدت تأخّراً استثنائياً جعلها تضيق ذرعاً بالانتظار وتعبر عن خافيتها، فمجرّد ظهورها يعني البدء جدّياً برحلة بحثٍ قد لا تنتهي، وهو ما كانت تخشاه وتسعى جاهدةً للتملّص من مواجهته!

هيمن عليها، دون هوادةٍ ويقينٍ مطلق، إحساسُ فقدانِها وامتناع لقائها مرّةً أخرى مهما فعلت وحاولت. لم ذلك؟ أستطيع إيجادها، فلا يمكن لسجاياها وقسماتها أن تذوب وتنحلّ في الوجه العام المهيمن طالما حافظت على تمايزها واختلافها عن صحبها ومئات الألوف الذين امّحت ملامحهم الخاصّة والمتفرّدة وتشتّت على سطح ذلك الوجه الذي لا يميّزه لون عينيه ولا

تلاوين جرس صوته ولا تفاصيل ظلّه! لا يمكن لها أن تتبدّل على هذا النحو ما لم أكن أنا قد تبدّلتُ وتحوّلت. ولكن أما تبدّلتِ؟ أما استبدلتِ سماتك الخاصّة واستحلتِ هلاماً يترجرج حاملاً ملامح ظاهريّةً ليست فيها أيّة خصوصيّة، لا يميزها إلا انتماؤها لأشباحها الذين انتُزِعت منهم مكوّنات روحهم ففقدوا وجهتهم ومعنى تحرّكهم وانتقالهم؟

ومن نافذةٍ إلى نافذةٍ إلى نافذةٍ تنقّلتْ، لكنّها اصطدمت بجدارٍ سميكٍ من ليلٍ حجريٍّ يشفّ حيناً فيوحي بزرقةٍ فجريّةٍ لا تتبدّى إلاّ في الأحلام أو تحت ضغوطات الخرافة التي تريد أن تخفّف عن الروح أوجاعها، ويتكثّف أحياناً فلا يُبدي إلا عتمةً لا تُخترَق ولا تتزحزح، ومع ذلك سمعت وجيب صدرها وأفاقت من غيبوبتها. كان عليها أن تباشر رحلة البحث مهما كانت احتمالات النجاح ضئيلةً ومهما تساوت تلك الاحتمالات مع إمكانيّة فقدانها لنفسها أو دخولها في ذات التيه الذي اكتشفت للتوّ أنّها لم تغادره مذ قرّرت الخروج من النفق الذي وجدت نفسَها داخله يوماً ولم تغادره حتّى اللحظة.

لم يكن إبراهيم قد استيقظ تماماً حين قُرع الباب، تثاءب وتمطّى، لامسته سخونة الهواء المدفوعة من مروحةٍ تواجهه، أحسّ ثقل رأسه وصداعاً شديداً يعتصر جمجمته طارقاً عينيه وأذنيه بشدة. التمع على سطح عينيه بياضُ قماش اللوحة الذي تقطعه خدوشٌ بنفسجيّةٌ لا يعلم إلا الله ما هي وإلامَ ستستحيل إن أوجد في نفسه ما يكفي من المثابرة والإقدام لإنجازها. تذكّر أنّه تقصّد ترك وجهه مواجِهاً لها كيما يفتح عينيه عليها حالما يستيقظ مثلما أغلقهما عليها قبل أن ينام حين ألقاه ثَمَلُه أرضاً، فأصرّ أن يتملاّها أطول زمنٍ ممكنٍ قبل أن يطبق الإرهاقُ والنعاس وعادةُ سكره جفنيه رغماً عنه.

أراد معاودة النوم لولا إلحاح القرع الذي جعله يثِب شاتماً آباء الحمار الذي وافاه في هذا الوقت. أما عنده ذوق؟ لمْ يطلع الصبح بعدُ.. انتبه لشمسٍ توهجت في طرف نافذته الغربية فلعن غباءه وفوضى حياةٍ تركته لا يميّز ليلَه من نهاره، وقبل أن يفتح بابَه لمح عُريَه فما كان هنالك سوى سروالٍ قصيرٍ يغطّي وسطه. لم يأبه، من يأتي على غير موعدٍ عليه ألاّ يتفاجأ! وارب الباب فحشرت فريال رأسها وتراقصت خصلات شعرها المصبوغ بشقرةٍ حنّائيّةٍ ثم تخامدت من كثرة تجعدها وتنافرها. لمح الوجه المثلّث المطليّ بألف لونٍ امّحت سمرتُه الأصليّة تحتها وأخفت ملامح هرمٍ مبكّرٍ افترس نضارته دون رحمة، التمعت عيناها البنيّتان بخبثٍ ظاهرٍ داخل الشقّ الذي طوّقه جفناها بينما تجعّد أنفها مع التكشيرة التي أبرزت أسنانها الصقيلة، تبدو اصطناعيّةً فهي لا تلائمها، قالها في نفسه حائراً في تكلّفها ضحكةً تؤذِن بغضبٍ آت. ارتعشت شفتها السفلى المليئة فغاص ظلٌّ بينها وبين ذقنٍ بدت بارزةً أكثر من حقيقتها، نزل بعينيه ليبصر عنقها فاصطدمتا بحافة الباب.

ـ مرحباً، ما لك تبحلق مثل مسطول؟ كنت تحشّش؟ تنحَّ عن دربي!
دفعته بالباب الذي استتر خلفه متابعةً:

ـ أم أنّني أخفتُك أم خفتَ اكتشاف شيءٍ عندك؟ أما زلت تتحبّب للغلمان أيّها الفاسق؟

قالتها وهي تصهل بصخب، كانت تلك ضحكتها الطبيعية وكان يسمّيها الفرس الضاحكة وليس البقرة الضاحكة، فما من بقرةٍ في العالم تستطيع إطلاق قدرٍ من القهقهة التي تجلجل وترجّ الهواء الذي يتحمّل مكرهاً عنفَ تردّداتها. وتابعت:

ـ وعارٍ أيضاً؟ لابدّ أنّك كنت تمارس منكراً ما. أفي هذه الساعة؟ أما تتقي الله؟

مع الكلمات الأخيرة كانت كفّها تصفع كتفه وتتحسّس صلابته.. ظلّ مشدوهاً، ما الذي تبغيه تلك السحاقيّة المنتنة؟ التقط لسانَه بعد لأيٍ، حاول تحريكه فما استجاب كأنّه التصق بحلقه لشدة جفافه. انطلق أيها الثرثار، سِطها بسلاطتك المعهودة علّها تخرس لثانيةٍ واحدةٍ ريثما تلتقط أنفاسك، حورية الجحيم تلك لا تستحي ولا تعرف خجلاً. تركها تواصل لغوها وضحكها ومضى إلى المطبخ يلتمس جرعة ماء تحلّ عقدة لسانه، تذكر فجأةً من تنام في سريره فوثب عائداً ليحول بين الإبليسة التي غافلته وبين الملاك الذي وطأ جحيمه فأطفأ ناره، كانت لا تزال واقفةً في الصالة الصغيرة تتأمل مشروع لوحته الجديدة فاستشاط غضباً واندفع نحوها، أزاحها بعنفٍ وألقى ستارةً مرميّةً على طرف الحامل وصرخ بها مغضباً وقد تلاصقت الكلمات والحروف بالصمغ الذي ملأ جوف فمه:

ـ من سمح لك بذلك؟

أفزعتها الدفعة التي كادت تلقيها أرضاً والصرخة التي واكبتها، لكنّها تمالكت نفسها فهي تعرف غرابة أطواره من جهة، ولا تريد إفساد متعة الزيارة من جهةٍ أخرى. فقالت مصطنعةً المرح:

ـ أما زلت ثملاً؟

لم يحتمل مزاحها فتابع صراخه الصمغي:

ـ تثملين أنت وأبوك وطائفة القوادين المحيطين بك، وأشربكم جميعاً ولا أثمل. هل تفهمين؟

آنها عادت حقيقةً لهزلها الأول:

ـ أحقّاً؟ ألا تخشى الغصص؟

فأجابها حانقاً:

ـ لا.. أخشى التقيؤ!

ضحكت وهي تؤرجح كفّها بعدما ضمّت أصابعه تاركةً الإبهام والخنصر:

ـ رأيناك فوق.. ورأيناك تحت، الطهر ينزّ من مسام جلدك. عندك كأسٌ فارغة؟

أخذ بسؤالها ولم يحذره:

ـ لماذا؟

أطلقت صهيلها الضاحك:

ـ لأملأ بعض طهرك الذي يسيل منك.. وأشربه!

استردّ برهة الفكاهة فردّ بنزق:

ـ اشربي بولك، لعنة الله عليكِ وعلى صباحك.

ـ أي صباح أيها المخبول؟ يكاد العصر يحلّ وأنت تقول صباحك. رُح اغسل وجهك أولاً واعمل فنجاني قهوة، أفٍ لك ولاستقبالك، ألا تفرّق بين أصدقائك الذكور الذين يشابهونك في صفات التيوس البرية، وبين زائرةٍ محترمة غير أولاء اللواتي تنز عليهن ليلاً؟

ضحك أخيراً:

ـ من؟ السيدة المصون، حرم فلان، وكريمة علتان، غفرانك! أرجوك اصفحي عن غبائي الذي لم يميزك عن غيرك. تعرفين، المرء تخدعه المظاهر فلا يلتفت للدرّ المكنون. أمرك سيدتي، سأغسل وجهي وأحضر القهوة لجنابك. لكن...

أمسك بكتفيها ودفعها نحو أريكةٍ تحت الشباك وتابع:

ـ اجلسي هنا هادئةً وانتظريني، لا أحب أن يعبث أحد بأغراضي.

قالت مستغربةً:

ـ منذ متى اكتسبت تلك العادة السخيفة؟ هل تغيّرت حياتك دون أن أدري وانتظمت بعد طول انتظار؟

أجابها سعيداً لامتثالها، فما كان من عادتها أن تفعل:

ـ ليس مهماً، فكّري كما تشائين، وأنت جالسة.

ـ سترتدي ثيابك؟

تطلّع إليها محترساً فضحكت:

ـ إن دخل غريب سيحسب...

ـ بلى.. بلى، إن دخل غريبٌ ورآك، سيحسب.. قبل أن يراني عارياً أو كاسياً.

تلفّتت حواليها فأبصرت كومةً من مجلاّتٍ وصحفٍ على جانب الأريكة، تناولت واحدةً وقذفته بها، شاتمةً أمه التي نسيت لسانه بين فخديها بعد أن رمته للعالم. هرب منها ضاحكاً، غسل رأسه وهيّأ القهوة ناظراً إليها خلسةً بين فترةٍ وأخرى.. كانت مستغرقةً في تصفّح مجلّةٍ جنسيّة، حدس ذلك فهي عادتها ومحور اهتمامها، تأكّد من ذلك حين أبصر رماد سيجارتها يتطاول وقد نسيت ذرّه. عاد إليها وجلس إلى جانبها قائلاً:

ـ ألم تتخلّصي بعدُ من هواياتك البذيئة؟

ردت بسرعة:

ـ حين تنهي احترافك لها.

قال مسوّغاً:

ـ أنا أفعل ذلك لدراسة حركة الأجساد وتداخلاتها... تعلمين، ذلك جزءٌ من شغلي إذ لا أستطيع جلب الموديلات دائماً...

ـ آه، هكذا إذن! تفتقد موديلاتك فتعوّضها بالصور العجائبيّة لالتحام الأجساد البشريّة المعبّرة عن نزوعٍ شديدٍ للحياة وميلٍ للخصب في جوف العقم وتحطيم للسائد الموروث والقامع والكابت و... انتهت تلك الاسطوانات أستاذ إبراهيم، ابحث عن غيرها! كلّنا في الحال واحد. لأيّ شيءٍ تسعى لتبرير فعلك بزخرف القول؟ قلْها بالعربيّ الفصيح ولا تستحِ؛ كلانا تشويه الشهوة ولا يكتفي ولا يشبع، انشرها على بساطٍ دون فلسفةٍ زائدة. قل لي الآن قومي لنجرّب واحداً من هذه المشاهد فأقوم دون تردّد، أمّا أن تقول اخلعي ثيابك لأنّي أريد رسمك بوضعيةٍ معيّنة فلن أصدّقك ولن أفعل. قل ما شئت، ولكنّ صراحتي التي تدعوها وقاحةً خيرٌ من ادّعاءاتك الخفراء الكاذبة.

صب الفنجانين مصغياً لكلامها. ها قد بدأنا، حالما تنحرف في هذا المنحنى فهي تستعدّ لقول شيءٍ ما، أو الحديث عن فعلٍ تريد تسويغه بشكلٍ مسبق. ما الذي أتى بها اليوم؟ قدّم لها فنجانها قائلاً:

ـ تفضلي سيّدة الصراحة، أعرف حقّ المعرفة استعدادك لتلبية النداء فوراً، لكنّ اندفاعك سيكون أعظم لو أن الداعي امرأةٌ مثلك!

ضحكت وهي تشعل لفافةً ثانية:

ـ وما الفارق؟ ما المعيب في ذلك؟ أكرّر، يكسبني إقراري وعدم إخفائي فضيلةً تفتقدها.

ـ وهل تستطيعين الإخفاء؟ إنّ روائحك تزكم الأنوف أينما حللتِ.

ـ حسنٌ، دع لي نشوتي وسأدع لك غلمانك، قم استر جلدك الآن كيلا أخالك امرأةً فأنقضّ عليك.

نهض مسرعاً متقناً دوراً تقمّصه:

ـ تفعلينها وحقّ الأبالسة، سأرتدي ثيابي لأحمي نفسي من نظرتك المفترسة، صرتُ أخاف على نفسي منك.

عاد بعد دقائق مرتدياً قميصاً بنّياً قصير الأكمام وسروالاً أزرق، بدا شخصاً آخر، ثمة مفكّرٌ وراء هذا الرأس الأصلع والجبهة العريضة.. ملامح رومانيّةٌ لا تخطئها العين وزرقةٌ بحريّةٌ تمرح في الوجه المحمرّ.. هيكلٌ متينٌ متناسق. من يتخيّل بؤس عيشه؟خاطبت نفسها وهي تتأمله.

ـ لا تقولي أعجبتك، أريد التخلّص من سلاطة لسانك وحسب.

ابتسمت:

ـ وأنا أردتُ إخراجك من وحل الهموم التي ينطق بها وجهُك النكِد. أما وقد استعدتَ طبيعتك فلن أزعجك أبداً. لكن بجدٍّ أنتَ تعجبني!

ـ أعوذ بالله، عدنا ثانيةً؟ أبوس يديك اعفيني من هذا الإعجاب، ليس لي قدرة مجاراته!

ـ طيب، سحبته، اجلس وأخبرني كيف هي أحوالك.

توجّس، أوقفت مزاحها وتحولت الآن لما هو أبشع منه.

ـ على حطّة يدك، يومٌ لي وأيّامٌ عليّ، أتدبّر أموري كيفما أتفق.

تأمّلته وهي تشعل لفافةً جديدة:

ـ إلامَ سيستمرّ ذلك؟ أما آن أوان استقرار حياتك وانتظامها؟

ما الذي تسعى إليه الآن؟ إنّ جدّها يثير الخشية أكثر من لهوها:

ـ ما الذي تريدينني أن أفعله؟ أشكر الله أنّ والدتي تركت لي هاتين

الغرفتين اللتين أمنتُ بهما تشرّداً دائماً. المهمّ أنّني أجد مكاناً أبات فيه ليلتي ولا أعمل حساباً للطرد أو الرمي في الشوارع كما تعلمين وتذكرين! باقي الشؤون أتدبرها بطريقةٍ أو بأخرى.

قالت مستدركةً بخبث:

ـ أما زلت تذكر؟

أجاب مغضَباً وقد تخلّى حذره عنه:

ـ الحمار لا ينسى، أما زلت تذكر؟ طبعاً أنا لا أقصدكِ، باعتباركِ حرباء تستطيع تغيير جلدها مع تبدّل الطقس، ومع ذلك لا أستطيع تصوّر قدرتِكِ على نسيان سنوات سجنك، أفهم وأستوعب نسيانك أيّ شيء حتى أمّكِ التي أرضعتك، أمّا كيف نسيتِ تلك السنوات واستعضتِ بها التفاهة التي تعيشينها واستجداء وتملّق من أزهقوا صباكِ وحشروكِ في هرمك قبل سنواتٍ طوالٍ من موعده الطبيعيّ، فهذا ما لم أفهمه أبداً. كيف وأنتِ المهتمّة بشبابك والتمسّك ببقاياه أكثر من أيّ شيء آخر؟

كانت تصغي وهي تومئ برأسها دون أن تنظر في عينيه، كأنّما تريد له نسيان سطوتها وكشف داخله بمعزلٍ عن وجودها وإنصاتها، ثم قالت:

ـ دع طول لسانك جانباً وأخبرني بما كان علي فعله. رأيتُ أو أوحى لي بعضهم أن شمساً ستشرق في صباحٍ قريبٍ وتعمّ الكون محيلةً البشر جميعاً إلى أطفال سعداء متساوين لا فوارق ولا امتيازات تفصل بينهم، فقلتُ هو اليوم الموعود ويستحق أن يضحّي المرء في سبيله بسنواتٍ من عمره ليسعد باقي العمر، وإذ بي أراها تهوي في أفولها الأخير. الشمس الحقيقيّة، وليس الموعودة وحسب، ماتت بالنسبة لي، بالأحرى دفنوها، لغبائهم أو لغبائي أو لغبائنا المشترك، وسط ظلامٍ استوطن عينيّ. لا ألوم من سرق أحلى سنوات عمري وحرمني منها، فقد دافع عن حقّه في إزاحة من يهدّ وما يهدّد

وجوده وتطلعاته أيّاً كانت، وهو حقّه المشروع بغضّ النظر عن رأيي ورأيك، لومي على من أدخلوا تلك العتمة في عينيّ ومنعوا عنّي الإبصار على أمل أنّ شمسهم المظفّرة سوف تبزغ من ليلي أنا. ولماذا لا يحدث ذلك من أيّ ليلٍ آخر؟ لا بأس أن تكوني ليلاً لتصيري في يومٍ قد يأتي وقد لا يأتي صباحاً لكِ وللآخرين. المهمّ، ما الذي تنصحني بفعله؟ أواصل دفن نفسي بعد انهيار صرح السماء الحلم وتناثر زرقتها شظايا جارحةً على أديم الأرض الصلبة التي لم تفعل غير الضحك من الذين تطلّعوا نحو السماء؟ هل ستفيدني انكساراتهم، تطعم أمّي وتؤمّن لأشقائي مصاريف جامعاتهم؟ هل أرتدي ثوب الحداد أو أعلن إضرابي عن الحياة إلى أن تستعيد قيمتها المأمولة؟ لا، ليفعل ذلك غيري. قالوا سنصفح عنك إن عدت كما كنت، لا نُكرِهك أن تكوني مثلنا، مدي يدك وسنمنحك أحضاننا. هل أركل تلك النعم وأواصل شقاءً يدمّر بقيّة حياتي وينتزع منّي شبابي بشكلٍ نهائيٍّ كما قلت؟ أخبرني أيّها الفيلسوف العبقري! جميعكم لامني وأطلق عليّ شتّى الصفات. ألستُ الآن خيراً منكم جميعاً؟ هل تريد أن أكون مثلك أو مثله أو مثلها؟ أو مثل باقي الأغبياء والمهووسين الذين حسبوا أنّهم سيغيّرون العالَم بعصاهم السحرية وحين وجدوا أنفسهم مغمسين في دمائهم ودماء أصدقائهم، قالوا نحن شهداء دربٍ سيصل نهايتها القادمون! مرحباً... لستم سوى غابرين! أم تريد أن أكون مثل أدهم؟

ما عاد يطيق استمرارها، فتجهّم وأمرها:

ـ كفّي عن هذا!

حسبت احتجاجه مرتبطاً بذكر أدهم، فصلته بطلقاتها:

ـ لماذا؟ هل دنست قدس الأقداس إن أتيت على ذكره؟ ومن هو؟ قل، ما الذي فعله حتى نبجّله كنبيٍّ، هو أو غالب أو رماح أو من يشابههم؟ من هم؟ قل لي الآن ودعنا نحطم أصناماً عبدناها دون أن نعرف لمَ. ربّما لنعوّض

نقصنا وهزالنا وتجوّفنا! لأنّنا لم نفهم بالمقابل من نحن وكيف يجب أن نحيا مثل كل البشر. وهاهو قد عاد، بطلك العنتري!

توقفت قليلاً لتلتقط أنفاسها وردّ فعله. تجمدت ملامحه، نضحت قطرات عرقٍ ضخمةٌ من جبهته، احتقن وجهه ونفر شريان صدغه نابضاً بعنفٍ مرئي. أمسكتكَ الآن، قالت لنفسها وتابعت:

- لماذا عاد برأيك؟ هل ليتابع دور الأمثولة ويصل نهايتها القصوى ليصلب شهيداً على مآقيكم وينحفر أسطورةً على سطوح أدمغتكم؟ لا ياأستاذ، مضى ذلك الزمن، قرف عيشه وتسكعه في الشوارع مثل اللقطاء، أراد أن يرتاح أخيراً وما عاد يأبه بكم، ملّكم مثلما ملّ تفاهات عمره، اكتشف الأكذوبة التي طالما خادع نفسه بها. قل يئس، قنط، قل ما شئت، لكنه عاد. رجع إليهم طالباً صفحهم وغفرانهم، وأنت لا تزال تسألني ماأفعل. ما تفعل؟ قم تحرّك. افهم ما يحيط بك وعش زمانك الحقيقيّ وليس أوهامك التي عفّنت أعشاشها في رأسك، تخلَّ أنت الآخر عن القذارات التي تسمّيها قيماً ومبادئ تمنح المرء هويّته الإنسانية، انظر لغيرك في أية فراديس يعيش وأيّ نعيم يغمره. لا ينقصك شيء، موهبةٌ أصيلةٌ وإصرارٌ وإرادةٌ جبّارة تزهقها كلّها في أحلامك الصبيانيّة وأنت تسقط في الحضيض وحلاً تستحي الأوحال منه، تحتال لتأمين رغيفك وتغرق نفسك في عرقك وكحولك الذي يملأ بخاره تجاويف رأسك ويترد ضباباً يعمي بصيرتك، وتتعلق بأيّة عاهرةٍ في آخر الليل لتحتال عليها وتجعلها تبلي مصائبك، آلامك، كي تتمتّع بسادية اغتصابها في نهاية المطاف. اصحَ وكفاك! قلت لك ارسم شيئاً رائجاً، أقم معرضاً تتقرب به منهم، اكذب يا أخي، نافق، ما الفارق؟ انظر كيف سيعلو اسمك وتصبح أشهر رسّامٍ في البلاد! سيتهافتون عليك لترسم وجوههم ووجوه نسائهم وأطفالهم وحتّى كلابهم المدللة، سيدفعون لك مئات الألوف لقاء خربشاتٍ لا معنى لها مبقّعةٍ بألوان لا يجمعها جامع، لا يهم ذلك طالما توقيعك المرضيّ عليه يذيّل لوحاتك. كفاك وتطلّع

حواليك! انظر، هل هم أفضل منك؛ شققٌ وسياراتٌ ومعارض في الخليج والخارج. خطوةٌ واحدةٌ وتجد الريح قد حملتك لأفخم القصور، بعدها افعل ما يحلو لك. قل لهم، لن أرسم الآن إلا رؤاي، شبعت من الرسم لكم وأريد أن أرسم لنفسي أو لغيركم. لن يعترضك أحد ساعتها!

قاطعها بهدوءٍ وجفافٍ وحزمٍ مهدِّد:

ـ فريال، تخرسي أم...

هبّت واقفةً، عرجت على سوقيتها وشتمت أمه وأخته ونفسها لأنها تشفق عليه وتعتبره بشراً يستحق الاهتمام، وفي سورة غضبها اندفعت نحو غرفة نومه التي يراكم فيها لوحاته التي لا تجد مشاهداً ولا مقتنياً ولا يسهل عمليات عرضها، واضعاً ألف شرط وشرط على مشتريها وخصائصه وميزاته.

لم يلحظ للوهلة الأولى وجهتها، حسب أنّها ماضيةٌ نحو الباب لتصفقه وراءها وترحل، لاعنةً الساعة التي وافته فيها، فظلّ مطرِقاً. لكنّ جلبةً التقطتها أذناه من الداخل أطلقته كمسعورٍ وراءها. وقف أمام باب غرفته مشدوهاً عاجزاً عن الحركة والقول كأنّما صعقته شحنةٌ فثبّتته في مكانه. كانت تعبث بلوحاته متقصّدةً التنقيب في قديمها، خاصّةً تلك التي تلوح في معظمها، على خلفياتٍ سوداء وظلالٍ قاسية، أشباح هياكل بشرية تتلوّى في جحيمها الخاص، ممحية المعالم متشابهة الأسارير، ترتدي بدل ثيابها لفافاتٍ ضخمةً من ضماداتٍ ملوّثةٍ بدمٍ صديءٍ وصديد.. وفي بعضها ثمّة مصلوبون على غيومٍ ترابيةٍ تحزّ لحومَهم ووجوههم أسلاكٌ شائكةٌ فيُضيع الألم ملامحهم وهيئاتهم. ترفع واحدةً، ترمقها، ترمي كلمتين ثمّ تلقيها وهكذا...

ـ مارسي نباحك خارج غرفتي يا ابنة الزنا ولا تلوّثي لوحاتي بأصابعك القذرة وإلاّ سترجعين إلى منزلك دونها!

صاح بصوتٍ هادرٍ ولم تلتفت إليه. والت هياجها الكليب وفورات غضبها السفلسيّ إلى أن وجدت ضالّتها، رفعتها فظهر هيكلٌ بشريٌّ متكاملٌ

واضح الملامح تشعّ نيران حارّةٌ منه، كأنّ الإضاءة تنبعث منه لتسكب ظلالها وتطرح نورها على ما يحيط به، يقف كإلهٍ يونانيٍّ شامخاً عارياً كما ولدته أمّه، نقطة ارتكازه بندقيّةٌ ترفعها يمناه عالياً لأنّ الأرض تحت قدميه اختفت.. وكأنّما ملأ صراخه المساحة البصريّة وتردّد صداه خارجها وهو يدفع آلاف السلاسل الغليظة التي تنهال عليه من كلّ الجهات تريد إركاعه، وما ظهر من الأجساد التي تحملها إلا سواعد اتّخذت لوناً معدنيّاً يطابق السلاسل ووجهٌ عاتمٌ غائمٌ لا يبين لامرأةٍ أو رجلٍ يبتسم بغموضٍ مثير... حملتها بساعديها فوق رأسها، بدا أنّها سترميها أرضاً لتحطّمها وهي تصرخ:

ـ هذا هو ربّكم.. أنا التي سأخلّصكم منه، ليس بفأسٍ كما فعل إبراهيم الذي سميت باسمه، بل بيدي! ولن أقول كما قال اسألوا كبيرهم بل اسألوني أنا لأنّي فعلت ذلك!

حين أحسّ أنّها ستهوي باللوحة على الأرض أو فوق هامته التي استحالت قالب جليد، اندفع نحوها وقد التمع في عينيه بريق القتل الأزرق. لمحت غارته فأصابها الشلل وصمتت.

انتزع اللوحة الأثيرة من يديها، وحالما لامست الأرض خمدت اندفاعته وانطفأت شهوة القتل في عينيه. أزاحها وقد تصلّبت كتمثالٍ طاوعه، للملم لوحاته وأعاد ترتيبها، التفت إليها فأبصر ساعديها مرفوعين وكفّيها تمسكان الفراغ.. قام إليها وخفضهما، ربّت على كتفيها فلم تستجب واستمرّت تحدّق غير مصدّقةٍ نجاتها. ضمّها فالتصقت به، فغمت أنفه روائح جسدها الممتزجة بعطرٍ مميّزٍ فانتفض قلبه، تطلّع إلى السرير فشاهد وجهاً مذعوراً يطلّ وقد ضمّت الكفّان المختفيتان تحت الغطاء ما علق من طرفه بأصابعها وجمعتاه تحت ذقنها. ما هذا النهار؟ لقد نسيتُها كلّيةً، حتى فريال لم تنتبه لها. حاول لحظتها الابتعاد عن فريال، لكنها تشبثت به بعد ما لمحت عينيه تختلسان النظر إلى السرير المهمل وراءه. حاول أن يتراجع ويجذبها معه فلا تلتفت إلى السرير فمانعته، أزاحت الشهوة رعبها وأعادتها إلى طبيعتها أسرع

مما توقّع. انتظر على مضضٍ إفلات لسانها من عقاله، مستعيذاً من شرور لسعه ووجع لذعه. حاول مرّةً أخرى فطوّقته بذراعيها وحاولت التراجع به نحو السرير فأذعن أخيراً وقد تيقّن أنّها ستعرف عاجلاً أم آجلاً، أشار برأسه ناحية السرير، التفتت وانفجرت ضحكتها كأنّما جمعتها طوال الوقت انتظاراً لهذه اللحظة فأطلقتها مزلزلةً تريد تعويض لحظات الغضب واختناقة الرعب التي اعتصرت عنقها. وبين موجات صهيلها المحموم الذي فاقم رعب المتزمّلة، فجّرت قذائفها الاحتياطية.

ـ هكذا إذن أيها الداعر! قلت في نفسي أوّل ما دخلت، ثمّة ما يخفيه عنده، لكنّني انتزعت الفكرة من رأسي، شاهدت فراشك الذي غادرته للتوّ فارغاً وقد أوحى شكله وروائحه أنّ أحداً لم يشاركك فيه.

ـ اصمتي أرجوك، ليست من هذا النوع و...

توسّل إليها هامساً فقاطعته متابعةً:

ـ ماذا؟ العبها على غيري! استحِ يا رجل، كن مثلي في عمرك الخسين، لمَ تلوّن وجهك بألف لونٍ كأنّك خجلٌ ممّا عندك؟ أهي أوّل واحدة؟ ولن تكون الأخيرة! انتظر، أتراني ارتكبت خطأً؟ أتكون غلاماً؟ لم أنتبه.

استدارت وحاولت أن تخطو تجاه السرير فأمسكها.

ـ أرجوكِ دعيها بحالها.

ـ أتخاف عليها يا حبيب أمّك؟ سألتك إن كنت تغيّرت فأجبت بلا. مالك انقلبت أحوالك رأساً على عقب؟ المهم هي فتاة! لا تقل إنّها أختك أو واحدةٌ من محارمك أو زوجتك! لكنّك، بيني وبينك، تعرف أن تنتقي أيها الشقيّ، دعني أشاهد جسدها بالله عليك، إطلالةٌ واحدة وأتركها لك سالمةً مسلّمة.

تشبث إبراهيم بها وكاد يفقد توازنه للانقلابات الحادّة التي تعتري

حالها. أذهلته قدرتها على استيعاب الوضع الجديد وإجراء قطيعةٍ كاملةٍ مع سابقه رغم ضآلة الفارق الزمني. قرّب فمه من أذنها وهمس:

ـ دعيها أرجوكِ، ليست منهن، لنخرج وسأخبرك بكل شيء.

تمنّعت متدلّلةً وحاكت همسه المتضرّع:

ـ صدّقتك، نظرةٌ واحدةٌ نغادر بعدها معاً، سأقترب بهدوءٍ وأنزع عنها الغطاء قبل أن تدرك مرامي ثم أخرج. هل هي عارية؟

عاود الهمس:

ـ كفّي عن حماقاتك! هل تحرّكت الأفعى في أحشائك؟ منذ ثانيتين التعت شوقاً لجسدي وهاأنت تستقتلين عليها. احترت معك، بجدّ ليست منهنّ، لنغادر.

سايرته متواطئةً معه، شبكت ذراعها بذراعه ومشت ساخرةً على رؤوس أصابعها. حين صارا خارج الغرفة، أغلق الباب وصفعها على كفلها، وساقها حتى الأريكة فحدجته مستثارةً:

ـ استنمرت الآن؟ كنت نعجةً خائرة القوى لا تجرؤ على الهمس. أتدري؟ الحقّ معك، حقيقةً هي جميلة، لو تركتني أراها، لكنّني تخيّلتها، كتلة نار!

ـ نار تحرق جثتك لتبدد روائحك الفاسدة! العمى يعميك، القطط تستحي، أما أنت فلم ترد في قواميسك لفظة خجل.

ضحكت بهدوء فداخلت صهيلَها قرقرةٌ حادّة:

ـ ما شاء الله عليك، تعمل عملتك وتتّهم غيرك بالفاحشة والمنكر. الله يخرب بيتك، هي بعمر ابنتك لو كنت أباً، وتتّهمني بقلة الحياء! هيا احكِ لي عنها.

أراد التخلص من هذرها... وكاد ينزلق ويحكي لها عن الصبيّة

وملابسات لقائهما كما حدث فعلاً. ولكنّه تردد، لا تؤتمن على قول، كم باتت مقيتةً ومبتذلة! لم لا أطردها؟ أهنالك ما يربطني بها بعد الانقلاب المذهل الذي طرأ على حياتها وأفكارها عن هذه الحياة؟

- لا زلت أنتظر الحكاية.

- هل تجلبين زجاجتي بيرة ريثما أطمئن عليها؟

رمقته من تحت أجفانها مستغربةً وقررت استرضاءه مصالِحةً بعدما قدّرت أنّها حمّلته فوق طاقته، فنهضت قائلةً:

- أيعقل أنّ إبراهيم يتحدّث بحنانٍ ويشعّ عاطفة؟ قلت ثمّة ما تغيّر فيك ولا تريد تصديقي، حسناً، قم بواجبك نحوها ريثما أعدّ كأساً لا تنسى طعمه...

داعبت شعره بأصابعها ومضت نحو المطبخ. التفتت قبل أن تلجه سائلةً وهي تغمز بعينيها:

- أهيّئ لها شيئاً؟

تطلّع مندهشاً، انتقلت عدواه إليها أم أنّها تمثّل هازئةً به أم دخلت أحد أطوار تقلّبها؟

- ليتك تعدّين لها فنجان قهوة من أناملك الـ...

قاطعته مهدّدةً:

- لا تعبث، وإلاّ عدتُ لقربكَ أو لقربها!

أجاب مسرعاً، مبتلعاً ضحكةً كادت تفلت من فيه:

- داخل على شبابك، أردت أن أقول أناملك الجميلة، ارحميني يرحم والديك!

ضحكت وغابت عن البصر، أمّا إبراهيم فقد تلاطمت الأسئلة في رأسه؛ هل أتت مصادفةً؟ هل تقصّدت إرسال رسالةٍ ما؟ بادر لإعادة

ماحدث من بدايته لكنّه قام، عليّ الاطمئنان على نوال أولاً. أي اضطراب أصابها؟ قرع بابها.. انتظر دعوتها لدخوله فما فعلت، فتح الباب متمهّلاً ووجدها جالسةً مرتدية أفرولاً أبيض شابته لطخٌ ضاعت ألوانها السابقة؛ كان يحبّ العمل به حين ينوي الوقوف ساعاتٍ طوالاً أمام القماش الخام. في ثوبه ذاك، كان يتحرّر من روابطه ومشاغله، تمضي ساعاتٌ تنوف عن عشرٍ دون أن ينتبه، يعتقل نفسه في توقيت فصل الأشغال الشاقة عاملاً على تهيئة مايساعده على احتمال آثار الفؤوس والمعادن والأزاميل والمتفجّرات في صخور روحه ليعيد صوغها بصورةٍ ترضي حلماً هارباً يوافيه لعشر ثانيةٍ ويغيب. جلست على حافة السرير ملصقةً قدميها بالبلاط العاري، محنيّة الظهر بزاويةٍ حادّة، مسندةً ذقنها براحتيها بينما غاص مرفقاها في ركبتيها... انسدل شعرها الليلي كحلاً ملتمعاً يعكس نوراً انبعث من مكان خفيّ، واجهه جانبها الأيمن ولمح الأيسر من المرآة. لم تلتفت، وقف مشدوهاً لثوانٍ، متمنّياً ألا تشزره بعشب عينيها فتفطر قلبه.. تقدّم محاذراً نفورها، جثى تحت ركبتيها مطرقاً يتملّى ظاهر قدميها، صغيرتين مشغولتين بإتقانٍ يقارب الكمال.. صعدت الأوردة حاملةً دماءها على طول السطح الظاهر ثمّ اختفت تحت ردتي الأفرول الذي كشف كاحليها وحسب:

- أرجوكِ لا تنزعجي، اعذريني، فهي لم تكن تعلم بوجودك! كرهت إخبارها وقد اقتحمت غرفتك رغماً عني.

تطلّع إليها متوسّلاً ولم تفارق عيناها قدميها. عند لفظة غرفتك رفعت جفنيها فانفتح سهلها الربيعي وهمست احتجاجاً:

- تقصد غرفتك!

لم يعرها اهتماماً وتابع:

- رغم ظاهر طبعها السوقي، فثمّة بقعة ضوءٍ في أعماقها. ستحبينها لأجلي...

أجابت بجفافٍ وبغير مبالاة:

ـ لا أسعى لمعرفتها ولا لمعرفة غيرها!

ـ كما تشائين، المهم ألاّ تحسبي أنّي تقصّدت إزعاجك. سأحضر قهوتك، وإن رغبتِ بالاستحمام فأنت تعرفين الدرب.

أومأت بما يدلّ أنّها سمعت وفهمت. كاد أن يقنط منها وكادت تستثير غضبه فينهض ويصفعها عشرين صفعةً ثمّ يلقيها أرضاً ويركلها برجليه حتى يعلو صراخها ويطاول السماء! البارحة لم تكن أكثر من عاهرةٍ أظهرت تسوّلها وحسب، وهاهي تلبس اليوم لبوس أميرةٍ حقيقيّة، أميرة نوَر، أنّى لها ذلك؟ ربما لا تعرف أباً ولا أماً! رغم ذلك استمرّ في محاولته:

ـ جائعة؟ أعدّ لك ما تأكلينه أم تقومين أنت بذلك؟

ظلّت واجمةً وتمتمت بخفوت:

ـ لست بجائعة!

ـ حسن، ستأذنين لي ريثما ترحل!

حين استوى أحسّ أنّه يغادرها مرغماً. أيّة فتاةٍ هي! كم تغيّرت بالنسبة له! استلّ من ضباب ثمله صورتها الليلية؛ كيف اصطحبها آخر الليل بعد أن برزت أمامه هائمةً على وجهها.. يعشّم نفسه وهو يمشي قربها، حالما أصل ارتدّ عليها وحشاً كاسراً كيلا تتمنّع وتجعل من نفسها شريفة، أضربها ضرباً مبرحاً ولا أترك لها عزيزاً أو غالياً إلا سببتُه. بعدها ستزحف إلى ساقيّ، تقبّل حذائي وترجو أن أصفح عنها ثمّ يكون الصفح خياراً آخر سترضخ له شاءت أم أبت. كان يخطّط مثلما يفعل كلّما التقط امرأةً ليلٍ فوق رصيف، يعتمد حدسه، ووفق انطباعه الأوّلي عنها وعن طبيعتها وما يظهره حديثها يرسم خطّته سريعاً، ونادراً ما تفشل. لكنّ نوال دمّرت خطّته وصيّرتها هباءً، أنسته دافع اصطحابه لها وغلمته نحوها. كأنّما صارت محرقاً مقدساً نصب شراك سحره الأسود فاستلب إرادته وصيّره طوع إشارتها!

هل أستطيع أن أحكي ذلك الشقّ من الحكاية لفريال؟ بلى، فهي تعرفني على هذه الصورة تماماً. لن تستغرب، بل ستضحك تعبيراً عن إعجابها ولربّما تمنت أن تكون بديلتها. أمّا أن أحكي لها الشقّ الآخر ممّا حلّ بي معها أو بسببها، فليس سوى الجنون أو البلاهة. قد تتعاطف داخليّاً معي لحاجتها لما يسكّن مقتها لنفسها، أمّا أن تعلنه؟ ستجعلني مضغةً في فمها وربّما تسخر منّي علانيةً وتجعلني أضحوكةً وهي تتّهمني بانعدام الذكورة. اللعنة عليها! عليّ أن أحكي لها ما يقنعها ويسلّيها دون إثارة ريبتها أو إطلاق نوازع سخريتها الشرّيرة! آنها دخلت حاملةً بيمناها صفحةً عليها كأسان مترعتان تلتمع قطعتا ثلجٍ في قعريهما وبيسراها صفحةٌ أخرى عليها كأس ماءٍ وفنجان قهوة. مدّت يسراها قائلةً:

ـ آخذه أنا أم أنّك لا تأتمنني؟

ـ لا، ارتاحي أنت.

ـ كما تشاء يا قيس، بلّغ ليلاك سلامي وقبلاتي!

ابتلعها كاملةً، أيّ جوابٍ سيدفعها لرميه بجعبةٍ كاملة من السهام السامّة، جنح للسلم، غاب قليلاً ثم عاد فبادرته:

ـ إذن ستحكي عنها.

الخبيثة لا تنسى شيئاً، عليّ إيجاد ما يقنعها. تناول منها كأسه وشرب نخبها:

ـ ما من حكاية. كلّ ما هنالك أنّني وجدتها فجر اليوم، تعلمين كيف أعود عادةً، اصطدمت بها وكانت كمن يهرب ممّا يلاحقه. قلت نلتَ مرادك أيّها المطرود من النعيم، ربّك لا ينساك، رغم لؤمك وجحودك، من رحمته. مشيت وراءها وتبخّر السكر من الرأس، حاولتُ أن تتملّص فقطعتُ الدرب عليها، لم تتمنّع بشدّة، كانت تبحث عن مأوىً لقضاء ليلتها ولم تظهر جهلاً بالثمن المعتاد لقاء منح سرير ليلة...

قاطعته هازئةً:

ـ واكتشفتَ فيما بعد أنّها قدّيسة، كم أرثي لك! قل بصراحة، نمت معها أم لا؟ وخلّصني من هذه الحكاية الممجوجة!

حسم تردده، لن ينقذه منها إلا ادعاءٌ كاذبٌ يرضيها.

ـ أهذا سؤال؟ المهم أنّها ندمت و...

قاطعته جادّةً:

ـ اسمع، أحضرها ودعني أقنعها بأن تأتي معي. سأؤمّن لها عملاً خيراً من خدمتك المجانيّة إن كنت تشفق عليها فعلاً وتودّ مساعدتها. ما اسمها؟

ـ اسمعي أنت، اتركيها في حالها، ستأنف العمل معك أيّاً كان نوعه وأيّاً كان عرضك، سأستخدمها موديلاً وأدفع لها أجراً وسريراً و...

عادت لمقاطعته:

ـ هل تلاقي ما تطعم به معدتك؟ ألا ترى أنّك ستقدّم لها عيشاً أدنى من عيش المومسات؟ أنت في أفضل تعبيرٍ مدعٍّ كبير، ومهنتك الحقيقيّة والواقعيّة لا تعدو التسوّل، بينما هنّ يعشن من عرق جباههن...

أخفى ضحكةً متهتّكةً في راحة كفه.

ـ تضحك، الحقّ معك، لكنّها الحقيقة. أيقظها، لي معها حديث، دعني أكلّمها فقد أحببتها، سأجد لها عملاً يجعلها تأمن غوائل الطرقات وأخلي لها غرفةً في منزلي كرمى لك. ستعيش عيشةً أفضل من عيشة الخنازير التي تمرّ بها عليها! أتعلم؟ بدا وجهها أليفاً كأنّما يشبه وجه صديقٍ حميم. ثم ستزورك ساعة تشاء، دعها تدّخر قليلاً كيلا تجد نفسها مرّةً أخرى في الشوارع تنتظر أن يلتقطها هرٌّ عجوزٌ قذرٌ مثل حضرتك ثمّ يرميها للكلاب بعد أن يملّها.

ضحك مجدّداً وقال:

ـ طيّب، سأرميها لك بعد أن أملّها!

دفعته دفعةً شديدةً أسقطت الكأس من يده فوثب مبتعداً ليتحاشى انسكابه على ثيابه.

ـ أسألك، أخبريني، بشرفك هل أنت عاقلة؟

ـ اقعد كفاك هبلاً، لو كنت عاقلةً أكنت جئتك أنت من دون خلق الله؟

ـ وإذن ما الذي أحضرك؟

تأملته لثوانٍ ثم قالت:

ـ اشتقت إليك، حننت لملمس يديك ورقّتك وبسالتك! لماذا أتيت؟ شعرت بالملل وسقم الضجر فقلت آتي وأهرّج معك أو عليك، وثبت لديّ أن الأخيرة هي الأصح.

ـ هكذا إذن، مع أنني كنت سأتّصل بك.

تنبّهت محترسةً خشية أن يكون قد أعدّ لها فخّاً يثبت أنّها هي المهرجة وأنّه ليس سوى متفرّجٍ أحمق! قالت متأنّيةً:

ـ خير إنشاء الله، أتكون قد اشتقت إلي أيضاً؟

ـ لا، دعي المزاح جانباً، المسألة... تذكّرت، لم تقولي، متى عاد أدهم؟

ما الذي يسعى إليه الآن هذا الذئب الأغبر العجوز؟ لماذا تذكّره في هذه اللحظة؟

ـ من حوالي أسبوعين على ما أحسب! لماذا؟

ـ لا، تساءلت لماذا لم تخبريني قبل اليوم.

أجابت محتدّةً:

ـ لماذا لم أخبرك قبل اليوم؟ ولماذا أخبرك؟ هل كنت جامعة أخبارٍ لك؟

خطر ببالي اليوم فأخبرتك! لست متفرّغةً لا لك ولا له ولا لتفاهاتكم! أشبعت فضولك؟ إن لم يحدث ذلك قبلاً فلأنّي عرفت اليوم أنّه ذهب إليهم!

ـ ذهب إليهم؟ كيف؟ ثمّ من أخبرك؟ ما أدراك أنّهم لفّقوا ذلك؟ أقابلتِه فعلاً أم أنّك سمعتِ ذلك؟

ـ أراك تحوّلت لمحقّق! ما رأيك أن أفصّل لك تحرّكاتي وأحاديثي من ساعة استيقاظي وحتى هذه اللحظة التي أحتمل فيها على مضض سفاهاتك وشناعة عشرتك؟ نعم، إن أردت معرفة ذلك، رأيتُه وحادثته ونصحته بإنهاء مشكلته باللجوء إليهم و...

سألها، كاشفاً قلقه:

ـ هل أصغى إليك؟

ضحكت:

ـ أيها الغبي، كان ذلك في داخله دون جرأة التصريح. أما قلت لك بأنّه انتهى وأنّ الهالة التي أحطتموه بها مجرد وهم مخادع؟ تردّد اليوم أنّهم أوقفوه أو أنّه سلّم نفسه، ذاك ما لا أعرفه تماماً! وكلّ ذلك لا يعنيني ولا يهمّني، المهمّ أنّ آخر قلاعكم قد تهاوت، والمهمّ أيضاً أن تعي ذلك وتلحق نفسك قبل أن تفاجأ باكتشاف انتهاء عمرك فتلوب بحثاً عمن يواريك الثرى فلا تجد. هل تفهم أيّها الرسّام العبقريّ المغرور، الظانّ أنّه مستطيعٌ تغيير العالم والناس بفرشاته وألوانه مثلما يستطيع اختراع طبيعةٍ مباينةٍ للطبيعة الحقيقيّة مهما مسخ بشرَه وحوّلهم أشباحاً تائهةً لا تعرف لنفسها يوماً ولا غداً ولا أمساً، مجرّد هوامٍ معلّقةٍ بين أرضٍ عائمةٍ وسماء هائمة؟ هذا هو الدرس الذي عليك تعلّمه، اتّعظ وخذني مثلاً! تطلّع إلى غبائي الذي أوصلني لما أنا عليه الآن! فقط قارن بين فريال القديمة التي رفضت يوماً أن تكون مجرّد موديلٍ عارٍ لريشتك الفذّة واتهمتك بالابتذال والسطحيّة وبين التي أمامك الآن!

فكّر وحسب كم كان الوضع مختلفاً لو أنّ الأمور سارت في وجهتها الطبيعية دون تدخّلاتٍ قسريّة، في قدرٍ تلقائيّ، سعت لنسج وهم قدرٍ حقيقيّ يخلقه الإنسان بيديه متطلّعاً لما وراء ظله بعيداً... بعيداً حيث المجهول!

كان إبراهيم يومئ برأسه مصغياً متفحّصاً عينيها محاولاً كشف كنه مايدور خلفهما ثمّ قال:

ـ لا بأس، يبدو الأمر مختلفاً الآن، ربما آن الأوان كما قلت ليقوم المرء بمراجعاته الجوهرية ليعرف أيّ عمرٍ يعيش وأيّة حياةٍ يحيا! لم أخبرك، اتّصلت بي ريمة وهي ترغب برؤيتك!

تحفّزت مرةً أخرى، إلامَ يسعى؟ ما الذي يريد إيصاله؟ أم أنّه يثرثر كعادته، كلمة من هنا، كلمتان من هناك وينقضي الوقت؟ لربّما يريدني أيضاً أن أنسى ملاكه الطاهر في الداخل ويحسب أنّني مهتمةٌ بها! كم أصبح تافهاً ومنحطّاً وضيّق الأفق! لقد أتخمه غروره وضخّمت نرجسيته أناه لأقصى الحدود، يتصوّر نفسه عبقريّاً يتنكّر الناس له لعمائهم أو غبائهم ويتعامل على هذا الأساس. ربّما، وربّما فقط كان يوماً ما مشروعاً احتماليّاً مفتوحاً لصياغة عالمٍ مباينٍ من الألوان والكتل والتشكيلات بعبقرية فذة... أمّا الآن، فقد انتهى، والأسوأ أنّه لا يدرك ذلك، يدّعي معرفةً رغم يقينه بجهله؛ طبلٌ أجوف، صعلوكٌ يحسب نفسه أميراً، اغتصبت إمارته على مرأىً ومشهدٍ منه وما فعل إلا مثلما فعل أحدهم قبله منذ قرونٍ خمسة بالتمام والكمال؛ بكى حتى عابته أمه وخرج من ذاكرة الناس!

ـ ألست معي؟

استفاقت على صوته:

ـ بلى، ولكنّي أتساءل فيمَ تريدني ريماك تلك؟

ـ تتحدّثين عن أصدقائك بتلك الطريقة؟

ـ دعك من ذلك، ريمة تريد شيئاً مني، من غير ذلك لن تذكرني أو تفكّر بالاتّصال بي، تحسب نفسها من مستوىً يفوق مستواي وتتعامل معي دون مواربةٍ على هذا النحو. لكنّ حاجتها ستدفعها لتغيير أسلوبها وترغمني بالمقابل على إذلالها!

سأل مستهجناً:

ـ لماذا تظهرين في لحظات معينة حقداً على من هم أفضل منك، ظاهرياً على الأقل؟

ـ خيرٌ لك أن ترضع إصبعك! تريدني أن أغبطها لأنّ ظروفها أتاحت لها ما لا أحلم به، وفوق ذلك تحسب نفسها وارثة أمجادها أباً عن جد. ربّما خرجت يوماً بادّعاء أنّ جدّها أو أباه كان والياً، باشا عثمانيّاً وأنّها تستعيد مآثره المندثرة الآن وتنفض عنها الغبار!

ـ افعلي ما يحلو لك، فضّلت أن أستأذنك قبل إعطائها عنوانك أو هاتفك أو...

قالت بخفوت:

ـ مضى زمن طويل، أتعلم؟ كنا صديقتين متلاصقتين ثمّ افترقنا بلؤم، عشقت كلتانا نفس الشخص، نبيلاً، وحظيت هي به زوجاً! على فكرة، لم لا تلجأ إليه لمساعدتها؟ آهٍ تذكّرت، كأنّي سمعتُ منذ فترةٍ أنّه يتعرّض لضغوطٍ شديدةٍ تصل حدود حربٍ وشيكةٍ بينه وبين بعض منافسيه الذين يغطّيهم شركاء أقوياء، أحسب أنّهم سيقيمون له محرقةً ويقدمونه قرباناً ليفتديهم!

ضحكت بأسىً وتابعت:

ـ ومع ذلك لازلت أحبّه، لازال يقيم في شقٍّ ضيّقٍ من قلبي صببت عليه قالباً إسمنتيّاً لا يستطيع الخروج منه ولا سبيل لي لدخوله، ولا يمنعني ذلك من إضمار كل شرٍّ له... سأسعد وأنا أراه يحرق حيّاً فوق ركامٍ هائلٍ

من الأحجار والحطب، موثقاً بسلاسل حديديّةٍ إلى عمودٍ نحاسيٍّ يلفحه اللهب من كلّ الجهات دون أمل النجاة. سيكون ذلك ممتعاً! ما قولك؟

أجاب مزدرداً لعابه الجاف:

ـ فريال، كيف تنمّين هذه الكراهية التي تصل حدود المرض؟ قولي، ألا تريدين ممارسة الجنس على خلفيّة مشهدك المقيت وروائحُ احتراق اللحم البشري تملأ منخريك؟

ـ كيف حزرت؟ ما لن تتوقّعه ولا يمكن لك تخيّله هو الشخص الذي سأمارس معه هذا العمل الصالح، أقول سأمارس معه متقصّدةً لأنّني سأكون فاعلةً وليس مفعولاً بها، واقعاً وليس مجازاً!

ثقبت عينيه فسال منهما اشمئزازٌ قبّض ملامح وجهه وما استطاع إخفاءه أو تمويهه.

ـ انتظر، لم تأتِ اللقمة التي ستدفعك مرغماً إلى التقيّؤ. من أدفع عمري ثمناً لأمارس معه وأمتع حواسي بالمشهد السابق ليس سوى زوجته وصديقتي السابقة ريمة!

نظر إليها شذراً:

ـ وزوجته السابقة أيضاً!

دهشت:

ـ تمزح، أليس كذلك؟

وقف قائلاً:

ـ لا، أبداً، أحكي جادّاً.

ضحكت شامتةً واسترسلت في غلوائها:

ستكون المتعة أقلّ، مع ذلك ستظلّ في الحدود المقبولة. إلى أين؟

اشتقت إليها؟ تريد تفقدها والاطمئنان عليها؟ لن تهرب، صدّقني، لن تلتقي بمن هو أكثر بلاهةً منك، ثمّ قالت مستدركةً:

ـ متى انفصلا؟

أجابها واقفاً متجاهلاً سؤالها الأخير:

ـ لا، سيدتي، أهرب من قذارات رأسك التي تفوق بشاعة وإنتانات قذارات جسدك، أفرّ من لوثاتك المقرفة، سأجلب شراباً أستطيع بواسطته ابتلاع خليطة المقيّئات والمسهلات والقيوح التي ترغمينني على ازدرادها، زيت الخروع أرحم منها بمئات المرات!

نهرته:

ـ ستظل طفلاً يحتاج ثدي أمّه كلّما جاع أو عطش، وحضنها كلّما خاف شيئاً. ما من داعٍ لذلك، سأمضي لتخلو بها كما يحلو لك.

قامت واقفةً واستدركت:

ـ لم تقل لي، متى انفصلا؟

ـ فأجابها متهكّماً:

ـ منذ أشهر، كانت قصّةً بائسة، ظلاّ دهراً يبنيان ثم اكتشفا أنّهما بنيا على رملٍ هشّ؛ تكشّفت المكائد والألاعيب والأكاذيب صغيرها وكبيرها دفعةً واحدة كأنّما كانا طوال الوقت يحاربان نفسيهما، عاشا وهم كونهما محبّين ثم أظهر حبّهما لمصالحهما الخاصة نزعةً تفوق أيّة نزعةٍ أخرى! باتا يقتتلان بشراسةٍ على مكاسبهما السابقة. هي تطلب بحسب ما فهمت عونك لتحسين قدرة منافسة شركة الإعلانات التي تديرها بما يتيح لها السيطرة على أغلب العروض المتاحة، وأيضاً حماية محالّها التجارية من محاولات نبيل لانتزاعها بصحبة آخرين يصرّون على مشاركتها بها عنوةً. ليس لها سواك لمساندتها كما تقول!

ضحكت شامتةً:

ـ لتشاركهم أم لتشاركني؟

ثم اتّجهت صوب الباب، لم يوقفها خوف تغيير رأيها فسأل حالما وصلت إليه:

ـ ماذا أقول لها؟

التفتت إليه وكفّها تمسك القبضة:

ـ من هي؟

ـ ريمة، هل نسيت؟

ـ صحيح، حسبت قدّيستك، قل لها أن تتّصل بي، من أجل خاطرك فهي لا تستحقّ ذلك. بخاطرك.

ـ لا بأس، مع السلامة.

وقبل أن تغلق الباب شتمت أمّه وأمّها، اعتبرتهما من كائناتٍ مغضوبٍ ومحكومٍ عليها بأن يكون نسلها خنازير وقروداً ومجانين!

عن الأحلام سأحكي، عمّا أُجهِض منها، عمّا اجتُثّ من جذوره وطواه النسيان وابتلعه العدم، عن انتظاري الممضّ لما خلتُه سيأتي وأنّني سأعيشه، ليس تعويضاً عن حرماني منه بقدر ما هو إثباتٌ لاستحقاقكَ ثقتي وعدم تفريطكَ بها. كان عليّ أن أختار بين أمرين لا ثالث لهما، أنتَ بكلّ ما كنتَه لي وبكل ما مثّلته وتطلّعتُ نحوه؛ وعكسك بكلّ ما فيه من ارتدادٍ وانكفاءٍ عمّا أحببناه وشدّنا الوجد إليه.

بينهما ما كان سوى الغربة وطناً ومصيراً وحياة! ما الذي شدّني إليك؟ كان عليّ أن أسأل قبل سنواتٍ طويلةٍ وأنتزع الإجابة بمعزلٍ عن النتائج التي ستتأتّى عنها أيّاً كانت. هل غفلتُ عن ذلك؟ أهربتُ منه خشية تحمّل عواقبه؟ أعاد ذلك مهمّاً؟ وقد عدتَ وبرهنتَ أنّ انتظاري ما كان سدىً ولم تُهدَر الثواني التي عددتُها لتقصير زمن أوبتك، ولم تكن هباءً. لكن لمَ صادفتْ أوبتُك إضاعتها وتزامنت معها بشكلٍ لا يصدّق؟ أحدث ذلك لنحر غبطتي بعودتك وظهور جزيرتي التي غابت طويلاً عن مدى رؤيتي وقدرة إبصاري؟ هل كان وجودُها محضَ تهيئةٍ لعودتك، تعويضاً عن غيبتك وقمراً يغسل كالح الظلمة آن غمرة سطوعك الآتي؟ سيّان، فغيبتها فاقت فقدانك وبقدر ما زاد مرور الوقت تشبثي بأملٍ لقياك وإصراري عليه بقدر ما يؤكّد معها نأياً مستمرّاً يجعل القرب محالاً!

كانت تقرأ في عينيه ما تحاول قوله بلسانها، كانت مساحة الدائرة الخشبيّة المغطّاة بقماشٍ ناصعٍ موشًّى بزخارف بارزةٍ من ذات اللون تفصل بينها وبينه، أبصرت نفس المسافة بين فنجانها وفنجانه اللذين لم تمسسهما أصابعهما بعدُ لولا كأسٌ صغيرةٌ اتّكأت على جدرانها الداخليّة وغاصت في مائها ساقٌ ضامرةٌ شابت خضرتَها بقعٌ كحليّةٌ توّجتها وردةٌ صفراء توسطت

المسافة بينهما. كأنّها جنان.. يانعةٌ تهدّد بذبولٍ سريع. وكان أدهم يتأمّلها بحنانٍ مشوبٍ بفضولٍ شديد، ما الذي تغيّر فيها؟ لا تزال صلبةً، ولو أنّ توتّراً خفيّاً يكاد يضعضع تماسكها الظاهر. ثمّة ما يعتكر نقاء اخضرار لجّة عينيها فتموجان بزبدٍ عاتمٍ يغلّف شفوفهما. لا تزال جميلةً ولو أنّ بهاءها أمسى ذاكرةً تلاشت مع لهفتها وفضولها المستتر! انتفضت كفّها داخل راحته وأحسّ رعشتها كأنّه لم يغادرها إلاّ أمس، لكنّها الآن تحصّنت بأسئلتها المنطلقة سهاماً موجعةً من عينيها دون اكتراثٍ بأجوبته التي لم يتكبّد عناء التفكير بها كيما تكون مقنعةً بمعزلٍ عن صدقها ومطابقتها لوقائع ما جرى. لم يكتف بتدمير جسوره، بل أحرقها فاندثرت! هل ستعيدها مجرد عودته؟ تساءل وهو يستعيد العصفورة المرتجفة في كفّه الضخمة منذ قليل. قيّدته إذ منحته المبادرة! افترض أنّه سينزوي ويتضاءل تحت الهبوب الراسخ لنظراتها المتفحّصة والسائلة والمتحفّزة للإدانة، عاجزاً عن إعادة تقديم نفسه بالعفويّة القديمة التي تلغي المسافة سريعاً وتحطم حواجز الممكن والمستحيل! ثما فيه حسٌّ مخاتلٌ للتملّك؛ أيّة مفارقة؟ هرب سابقاً من إحساسٍ مماثلٍ أطلقته زلّةً من لسانه، إنّ في علاقتنا شيئاً من التملّك المشترك والمتبادل. لم تكن قد سألت، ربّما كان مجرد تأنيبٍ ظهر على ذلك النحو ردّاً على قسوة هيمنته عليها ومطالبتها بالمحال تحت حججٍ وذرائع شتّى لا يربطها رابطٌ سوى استمرار وتجذّر التصاقها السرّي به كظلٍّ ارتبط بخاصرته عبر حبل سرّةٍ خفيّ. لكنّه الآن يكتشف بدهشةٍ طفليّةٍ أنّ الحبل كان يغذّيه هو بدمٍ طازجٍ تاق إليه، وبوهمٍ قاتل، وأنّ الظلّ الذي تمدّد بلا نهايةٍ وتقلّص حتّى أمسى بلا بُعدٍ ما كان سواه. وهو من يبحث عن صاحبه، بعدما ظلّت شمسٌ خرقاء تسكب أشعتها عموديّةً فوقه في ظهيرةٍ غير منتهية! ومع ذلك، فهو في موقفٍ معاكس، لم يتبادلا المواقع حقّاً، فهي تشرف عليه من علٍ لكنّها ترباً عن إشعاره بصغاره! لقد انتظرته وحسب، وهي لا تطالب إلاّ بتوضيحٍ بسيط، كيف جعلتني أنتظر طويلاً؟ وهي فوق ذلك تنبو عن السؤال، ترنو

إليه مطمئنّةً أنّه سيبادر للإجابة بمفرده، ليس لأنّه ملزم بذلك بل لأنّه غاب! وقد دافعت عن غيبته وتمسّكت بحضوره، وآن أوان كلامه الآن! كادت تختنق، يا لخراقة كلّ ما يحدث! بدل أن نعتنق ونتلاصق ونبدّد صقيع الهجران، ونبحث عنها معاً وقد عاد في الوقت المناسب، لا نفعل سوى تبادل النظرات والضغط بشدّةٍ على القوس الخشبيّ الذي يمتدّ من ساعديّ إلى ساعديه كأنّنا نخشى أن تتّسع الدائرة وتستحيل يمّاً يفصل بين ضفّتينا. أرادت تبديد ضبابة الصمت التي تخلّلت الفراغ، ونشر ريحٍ رخيّةٍ تملأ شراعه الحائر.

ـ ألا تشرب القهوة؟

هامسةً، وابتسامةً لم تستطع أن تشقّ دربها إلى وعورة شفتيها المزمومتين فظهرت في مقلتيها رغم الانهدامات التي احتفرت أخاديدها فوق حاجبيها المهملين، بدت مندهشةً وقد زادت اتّساعَ عينيها إطراقةٌ مفاجئةٌ تطلّعت إليه من خلالها.

ـ بلى، لا بد أنها بردت.

جاء جوابه سريعاً كأنّما انتظر مبادرتها وهو يوالي تأمّلها، بدا ردّ فعله عفو الخاطر، لم يستعدّ لمواجهتها بعد. كلّ تلك السنوات وهو يصر هذا اللقاء في صورٍ مختلفةٍ اتّخذت إحداها تمظهرها العيانيّ! لكنّ ذهوله لسرعة التقائهما أضاع عليه فرصة تذكّر ما أعدّه من قول. كان المشهد نفسه، ولربّما كانت هي هي، إلاّ أنّه الشخص الوحيد الغريب والنافر في المشهد، كأنّما غيره يحاول تقمّص دوره وحياته معاً دون إعدادٍ كافٍ وتهيئةٍ مُسبَقة! أو كأنّما حكى له أحدهم عن حلم يقظةٍ استعاده الآن مضطرباً مشوّشاً.

وهي، رغم انتظارها، لم تحسب أنّها ستضطرّ للتفكير في ما يتوجّب قوله. كانت الأمور رهناً به. ما كان عليه إلاّ أن يقلب الصفحة ويقول: هانحن نبدأ من جديد. فكّرت بصمت.. أما شاب انتظاري أيّة كراهية، إن

أسقطت من اعتباري أيّ حقد؟ أكانت حياتي غير حبّات رملٍ تنثال من بين أصابعي؟ ما أحسستُ أنّها تضيع سدىً بينما كانت تتبدّد وتتلاشى. ومع ذلك، لم أواجه نفسي مرّةً واحدة سائلةً: أما كان هو سبب ذلك، سبباً لخرابٍ لاحقني بصمت؟ أما كان القحطَ الذي جعلني أذوي، نتيجةً طبيعيّةً لرحيله؟ كان عبوري لحيّز الجمر ومعاندتي تيّار الفيضان الجارف بعضاً ممّا اعتبرتُه قدَر الإنسان وليس قدَر رحاب وحسب! ما كان موضع لوم. كيف لم أفكّر بأنّ الطبيعيّ أن أنساه وأعيد تأسيس حياتي خارج ذكراه، أن أبني أسرتي الخاصّة متفرّغةً لتربية أطفالٍ يكونون معياراً حقيقيّاً لممارستي العيش؟ هو أم جنان من أضاع عنّي تلك الحقيقة البسيطة والمفرطة السذاجة، أن أكون أمّاً! أم هما معاً أعمياني عنها؟

تناولا فنجانيهما في ذات اللحظة، رفعاهما ببطءٍ حتّى قاربا شفاههما. مع الرشفة الأولى نفذ صبرها. استغنت عن مبادرته، وضح أنّ عليها أن تدفعه دفعاً لينهي ذلك الفاصل ويبحثا معاً عن الذي ضاع وتركهما للتيه.

ـ وإذن، عدت أخيراً؟

هاقد بدأت، قال في سريرته مدارياً قلقاً انتابه وهو يترقّب لحظةً أراد لها أن تكون جزءاً لا يتجزّأ من قدرته على تجاوز الأزمة، دون أن يتبيّن أنّها مهارته الطبيعيّة في إذكاء التهويل لتسويغ تبريره لنفسه! أشعل لفافته غافلاً عن تقديم واحدةٍ لها... سرّح بصره في دخانها وهو موقِنٌ أنّها ترقبه بعنايةٍ لاتسمح له بأيّ تهاونٍ أو استرخاء.

ـ قولي دُفِعتُ للعودة!

ساءها القول! وساءها أكثر أنّه لا يطلقه على عواهنه، كان يختار كلماته بعنايةٍ مفرطةٍ وهو الآن يعرف دلالة قوله والصدى الذي سيخلّفه لديها. لكنّها لم تستسلم:

ـ أهو الحنين؟

هل تتقصّد الإيقاع بي؟ ربّما تريد الإحساس بوجودها كامرأةٍ مخذولةٍ عبر كلماتي. لن أمثّل دوراً، ولن أحوّل اللقاء لمشهدٍ دراميّ لن يقنعها ولن يرضيها إن بقيتُ كما عهدتُها. ولكن، من منّا لم يتغيّر؟

ـ لا أدري، ظننته حنيناً كذلك، وأحياناً أخرى حسبتُه الخواء واللاجدوى!

ما باله ينزف كلماته؟ أحطّمته السنون واعتصرت حيويّته وكبحت تهوّر اندفاعه، أم أنّه يقيسها الآن بدقّةٍ تتيح له البقاء مراقِباً على بيّنةٍ من أمره؟ وما بالي أسيء الظنّ به؟ هل أدركتُ أخيراً ضرورة الاحتراس قبيل الإيمان بأقواله دون تمحيص؟

ـ عليك أن تقرّ بوجود دافع محدّد. لقد كانت قطيعتك قسريّةً، ما لم أكن قد أخطأت فهمها. لا بدّ أنّك تنشد وشائجك التي... تمزقت؟

نطقت كلماتها متلعثمةً متردّدةً بدايةً، ثمّ انفلتت رغماً عنها. لا يمكن لها التسوّل في حدّ النهاية المقيت ذاك، ولا يمكن لها بذات الوقت أن تقرّ بهزيمةٍ تُفرَض عليها فرضاً.

رفع عينيه عنها، رغم تشبّث عينيها بهما. عبَر الزجاج إلى حيث الضوء، زاغت منه أخيلة بشرٍ يسيرون مسرعين، تخطّاها سريعاً وافترق بصره شعاعين حطّ أحدهما على عتبة حجيرةٍ معتمةٍ استلقى على عري إسمنتها جسدٌ يتلوّى ألمًا، عارياً مكشوفاً تحت عيونٍ ترقبه في الظلمة مخترقةً مجاله المحدود عبر قضبان حديدٍ ثخينة، وحطّ الثاني ظلاً على ضوءٍ شديدٍ تلتمع تحته حصيّات نهرٍ شفّافٍ يسير الهوينى عبر ظلال أشجار غابة مسنّةٍ، مداعباً ضفّتيه المخضوضرتين فأحاله ليلاً دامساً! هل تشوّهتُ، أو أنّ الزمن أبرز شوهتها التي كانت مغطّاةً بألوان ضاجّةٍ مخصبةٍ مثل تلك التي سرّبتها أصابعها؟ وكمن يخاطب نفسه من غير أن يرى مرآةً ترصد تعابيره الحائرة همس:

ـ لقد تغيّرنا يا رحاب. أنت، أنا، الزمن الذي دفعنا فيه أو فرض علينا؟ ربّما لم يكن العطب فينا، وربّما كان متأصلاً في خوافينا. انظري، رغم الحرائق التي اشتعلت في كلّ موقع قادتنا أقدامنا إليه، فإنّنا لم نتطهّر! ما شعرتُ يوماً بتمزّق تلك الوشائج التي حكيت عنها. ربّما كنت تتحدّثين بلسان حالك وبما سبّبتُه لك مكرَهاً أو مضطرّاً، لكنّني لم أتخيّل أبداً أنّني سأفكّر على هذا النحو. ربّما كنت أخادع نفسي! لكنّني معك لم أفعل ذلك، ولا أفعله، ولن أفعله.

وما الفارق أيّها النبيّ المنبوذ، ما الفارق إن كانت النتيجة واحدة، بمعزل عن تصوّراتك وتخيّلاتك عنها وحولها؟ أنا التي دارت الرحى عليها، وأنا التي استحالت فتاتاً تحدّث بعري لغته فأظهرته واستدرّت الشفقة عليه أو الاشمئزاز منه! خاطبت نفسها وهي تحاول ضبط هيجانها لئلا يتفجر مخالب تنشبها في عينيه اللامباليتين اللتين امتلأتا سديماً رمادياً تناثرت في تضاعيفه هباباتٌ سود.

ـ لم عدت إذن؟

تدحرجت العبارة على غصص أوتار حبال صوتها وتجرّح حنجرتها. مع ذلك، حافظ على هدوئه كأنّه ما سمع، أو كأنّ الصوت صدىً أتاه من بعيدٍ فتلهّى في تعيين موقع وروده قبل أن يفكّ رموز دلالاته. وحين تبيّن منحاه لم يلتفت إلى جدار ارتداده، بل تتبّع بحسٍّ غريزيٍّ منبعه الأوّليّ فحطّ على عينيها نورساً مهيض الجنحين محروماً من البرّ والبحر والحنين.

ـ كان عليّ أن آتي! لأجلك؟ من أجلك؟ صدّقيني لم أستطع تبيّن ذلك!

لم تطق احتمالاً. لم تحمل الكلمات هذه المرّة إلا معنىً واحداً؛ استجابةً متأخّرةً لتوسّلٍ غبيٍّ كرهت نفسها بسببه وكاد يستحيل بغضاً له. أطلقت طبولُ نبضها إعلانَ حربٍ ارتجّت له خلاياها، لم تجد ما يعيقها أو

يوقفها فهبّت في كيانها واستعرت في وقفتها الفجائيّة وعبرت دهاليزها حتّى غادرت حلقَها جافّةً، جليديّةً، تنزّ حقداً ولؤماً.

ـ عُدْ.. عُدْ لنفسك إذن! فلست بحاجةٍ إليك!

اندفعت ناسيةً حقيبة يدها المعلّقة على طرف الكرسيّ الخشبيّ المحروق بنارها اللافحة.

أصابه وجومٌ مستسلِم لثوانٍ. أذهلته ردّة فعلها ولم يحذّره حدسُه من طلائع تمرّدٍ أطلقته فهاجمه دون مقدّماتٍ وخلّفه مهملاً، سقط متاع لا يؤبه به، أرجوحةً قفز راكبها بعيداً عنها فاستمرّت تنوس مرتجّةً حائرةً! أيقظه صرير مكابحٍ اخترق أذنيه وحزّ لحم تجاويف قلبه. تطلّع إلى النافذة، بدت شبحاً انشقّت الأرض عنه أو أسقطته السماء على حين غرّةٍ، تقف كتمثالٍ شمعيّ تسمّر في الهواء وقد التفّ جذعها تجاه سيارةٍ وقفت على بعد أصابع منها، مادّةً ساعديها لإيقاف الزحف الذي كاد يغير عليها. رمى نقوده مسرعاً، التقط حقيبتها وطار إليها وهي تتلقّى صفعات الشتائم التي انطلقت أسرابَ ذبابٍ وقطعان صراصير من حفرة فم السائق الغاضب المرعوب آن كادت يداه تطالانها لولا تجمّع نفرٍ من المتسكّعين حالوا بينهما. دفعه بيده العملاقة دفعةً خشنةً وسط صدره أزاحته وأخرسته، وبيسراه استلّها من عضدها من وسط الجميع. دفعهم بمنكبه وأوسع لها حتّى قطعا الشارع واحتواهما الرصيف والزحمة.

انقادت بيسرٍ له، أسلست القياد دون وعيٍ وبغير اهتمام. استعاد دوره القديم، أخذ بيدها، فتح عينيها على ما لا تراه ووجّهها لترى بعينيه ما يجب أن تراه. هي الآن كذلك ربّما، أمّا فيما مضى فما كان الأمر على هذا النحو. لن تنكر، فقد ساعدها على الرؤية بعمقٍ أكثر وأوسع لها أمديةً لم تلحظ رحابتها، ورغم ذلك فما كانت مغمضة العينين، ولو أنّها أشبعته رضىً وأشاعت السرور في حناياه جرّاء رفعه لجفنيها وتوجيه جبهتها نحو الشمس. خال آن انزلقا خارج الزحمة وبعيداً عن الضوء ودخلا فسحات شوارع هادئةٍ

كثيرةِ الأشجار تطلّ الأزهار والورود من حدائق أبنيتها ذات الأسوار المنخفضة كمصابيح نهاريّةٍ ملوّنةٍ بشتّى الألوان أنّ المركب عاد ليُبحِر في ريح مواتية. وإذ تنبّه لاحتباس صوتها وكيفيّة تحرّكها وفق دفع ساعده الذي طوّق كتفيها، اعترف؛ لا، لقد أخطأتُ! ربّما ما كان هنالك مسافة، أمّا الآن فقد بتّما ضفّتين متباينتين. عليك أن تبني جسرك أو أنّك ستفقدها حقاً!

دخلا حديقةً فسيحة.. متاهاتٌ متشابكةٌ من دروبٍ حصويّةٍ بيضاء، تتوالى على جوانبها مقاعدُ خشبيّةٌ متطاولةٌ مطليّةٌ بأخضر كالح مع جذوع أشجار الفلفل التي عزلت أغصانها الفضاء بتشابكها، وبدت الكريّات الزهريّة المتعنقدة زاهيةً بين الأوراق الغمدية الشاحبة، تخترق ساحاتٍ متهضّبةً من الحشائش اليانعة توزّعت داخلها فقاعاتٌ دمويّةٌ من الشقائق الموشّحة بمداد الليل وأحاطت بها شموسٌ صفراء صغيرةٌ تنفّست بعمقٍ حتّى تضرّجت. انتشرت جزرٌ صغيرةٌ من الأقاحي على مصاطب جانبيّةٍ مرتفعةٍ أطلّت على بحيرةٍ صغيرةٍ بيضويّة الشكل علت ضفافها صخورٌ خفّانيّةٌ قرميدية اللون مليئةٌ بالنخور والثقوب، انتصبت فوقها زنابق حمراء أصرّت رحاب أن يقفا خلفها لتشهد الماء من تحت أقدامها.

على مشهد الماء أفاقت.. كان يتسلّقها رويداً رويداً ثم ينسكب شلاّل ضوءٍ فوقها فيغمرها والغبطة تطفح مطراً من عينيها. متى كان ذلك؟ وكيف توارد مرّاتٍ ومرّاتٍ ومرّات؟ تساءلت إن كان مجرّد حلم يحملها على جناحه ويحطّ بها دون أن تشعر، أو أنّه اختراقٌ سرابيٌّ لجفنيها المسبلين حال تكون محايدةً في يقظتها؟ اغتسلت يوماً في بركتي ماءٍ كانتا مقلتي أمّها ولم يجف ماؤهما عن جلدها بعد.. حنينٌ ممضٌّ لزرقةٍ تطلي الجسد ولا تظهر للعين وتختلج في الروح فتظهر في توقها للعوم والانحدار عمودياً في لجّة الماء؛ ما كان مهماً مالحاً أم حلواً، بارداً أم دافئاً. تشبّعت منه، خالط كريّاتها، ومع ذلك بقيت تحنّ إليه. غادرها لوهلاتٍ، تسرّب من أصابعها الرقيقة والدقيقة التي ترعش رعشةً لا تلحظها أيّة عين، لكنّ الأعين جميعاً تتلمّسها

حين يغادر الأزرق أناملها عابراً بسيالته أوعية خشب الفرشاة، معيداً إليه نسغاً جديداً يُزهِر على رؤوس الشعر ويسيل على القماش الناصع أو الورق الثلجي!

ظلّت تطلب مزيداً بدا أنّه يفوق قدرة تحمّلها ويجانب تفاصيل قدرها، لأنّها آمنت به واعتنقت موتاً طازجاً فيه. ولسدّ دواماتٍ من حيواتٍ استغرقتها واستنزفتها قطرةً قطرة وبدّدت ما اختزنته منها دورةً إثر دورة، أحسّت أنّه كان لزاماً عليها أن تمضي بعيداً، تغيب دون عودة، من يوم حسبت أنّها ستفعل، وإن كان لأسبابٍ مختلفة. لكنّه كان يفجؤها في اللحظة التي تدرك فيها أنّه ما من خلاص وأنّ النهاية التي تشرع أبواب المجهول المغلقة باتت دانيةً وكادت تُجهِر حضورها. لكنّ الماء ينتفض فيها ويسرّ؛ ما زال هنالك متّسعٌ. لأيّ شيءٍ، مع أيٍّ، ورغم أيٍّ؟ كانت تحسّ ذلك كلّه، ولو أنّها لم تستطع يوماً أن تشكّله قراءةً واعيةً لما يعتريها ويمزّق أكفاناً تلتفّ حولها. وعلى مشهد منه انكفأت، توارت في ظلالها الممتدّة غيوماً من قصديرٍ تعكس ضوءاً وحيداً فيختفي تحت لمعانه السائل الذي يغلي فيجعلها تتلوّى دافعاً شبكات أعصابها للتمزّق من شدّة الجذب والتوتّر. يغلي في مكان، يبخر في مكان، يتجمّع غيماً في مكانٍ، لكنّه لا يمطر في أيّ مكان! لا تبصر ظلّه، لا تشمّ رائحته لكنّها لا تيأس، تذود عمّا يكون بقعةً ما في يومٍ ما ستستقبل مياهاً ما، وتردّها جذوعاً قائمةً تستمدّ لونها من التربة التي بسقت فوقها، ثمّ تسمق وتتفرّع وترمي أغصانها في الجهات لتظِلّ الأرضَ تحتها وتهدي أزهارها وثمارها لمن تسعى قدمه به إليها، وتجذب رائحتها أنفه فيتسلّق وعورتها قبل أن تبصرها عيناه!

كانت تهذي وهي تستعيد فاصلاً من نهارٍ انهار عليها، اتّكأت عليه فوطئها.. وهديلٌ متواترٌ يغذّي هذيانها كصيفٍ قائظٍ حطّ على أجنحة الحمائم وما غادرها.. أنهار من جليدٍ تلتفّ على خاصرتيها وتطوّق صدرها ضاغطةً نهديها لاسعةً ظهرها بسياطها.. وبراكين تستعر في أحشائها قاذفةً

حممها وصهاراتها عبر خلاياها، مشكّلةً مخاريطها فلا تسيل ولا تبترد، لكنّها ترتجف على وقع ارتجاجاتٍ متصاعدةٍ من الهزّات وحركات الهدم العنيفة التي تغزو الساقين فتذكّر دوماً بحمّاها الكامنة.

كانت طفلةً وكان الماء لعبتّها الأثيرة، ومخيّلتها التي تنسج على مهلٍ فلوعها فتنشرها الريح في اتّجاهاتٍ شتّى. وكأنّما عرفت أنّها ستتيه يوماً أو هكذا خيّل لها، حين حاولت ملاحقة سمكاتٍ صغيرةً صفراء وبرتقاليّةً وحمراء بكفّيها النجمتين فانزلقت وراءها في البركة الصغيرة وغابت. تنبّهت وهي تلاحقها لنضوب الهواء من رئتيها فسألت: لم لا أستطيع البقاء تحت الماء مثلها؟ كان الجواب صعودها وتسلّقها جانب البركة لاهثةً والماء يسيل من شعرها الأبنوسيّ الملفوح بشمسٍ استوائيّةٍ متّقدة، وقد التصق ثوبُها الورديّ بجسدها وأبرز ملامح يفاعتها القادمة على مهل، فحملت سلّةً من قصبٍ مجدولٍ وملأتها بحصيّاتٍ لامعة راحت تنثرها على مسافاتٍ تقابل بعضها أينما حلّت، وحيثما سارت، كأنّها نجومٌ ستهدي أوبتها إن ضلّت دربها يوماً وضاعت! بصيص أملٍ يعيد إليها نفسها حين تشتاقها يوماً!

كانت تصحو من سباتها الذي ألجأها إليه رعبُها ممّا تحاشته زمناً وصدمها أخيراً. تكشّفته إلى جانبها على مقربةٍ من الماء.. ماءٌ آخر.. زمنٌ آخر.. وعمرٌ تبدّد بينهما. أضحى غريباً الآن، كادت تسأل، من أنت وما الذي تبغيه؟ لكنّ السؤال هاجر إلى ملاذاتٍ أخرى...

ـ فات الأوان وافترقنا في تلاشي الثواني!

هل كان سؤالاً؟ قرّرت شيئاً وتوارت خلفه؟ أراد أن يستعيد قدرة حدسه ويتعامل مع الحالة بافتراض أنّه يعرفها تماماً. أثقل عليه إحساسٌ مرهِقٌ بذنبٍ دافع دوماً عن براءته منه، لكنّها صفعته أخيراً بإدانتها له وإعلانها عدم التسامح، ونفورها من الغفران إن كان ثمّة ما يسوّغه.

في وهنه أرجحه إحساسه باستمرار التصاقه بها، كأنّه لم يبتعد يوماً!

وهي فوق ذلك تحت تأثير صدمةٍ مزدوجة؛ هو، والسيّارة التي كادت أن تودي بها وتلقيها على قارعة طريقٍ لن يأبه عابروه بمعرفة اسمها.

ـ لماذا مضينا إذن على وعد؟

لم تمهله، استعادت توتّرها وبدا احتدامها الوشيك عدواناً صريحاً:

ـ أنا التي بقيت على وعد اللقاء. أمّا أنت، فقد أدرت ظهرك وتخلّيت حتّى عن ذلك! لا أقول ذلك عبثاً، من غير أن أسمع منك حتّى. أريد الاحتفاظ بأوهامي وليست بي رغبة استبدالها بأكاذيب ملفّقةٍ على بطانة الحنين بخيطان الغربة الحازّة!

ظلّ صامتاً، محمولاً على مويجاتٍ غير مرئيّةٍ عبرته من سطح الماء العاتم كأن ليس ثمّة شمسٌ ليعكس ضوءها. لم يمتصّ أشعتها وحسب، بل ابتلعها بكلّ وهجها ووضوحها. وكأنّ ارتعاش تموّج الماء في أنحائه المبعثرة قد انتقل إليها، فأدركت أنّه يحيطها بساعده. انتفضت مزيحةً ساعده عن كتفيها.. غريبان!

ـ كيف سمحت لنفسك؟

لم يدهشه السؤال، أرخى ساعده معتذراً دون تذمّرٍ أو احتجاج.

ـ أنا آسف. يبدو أنّني ما عدتُ محتَمَلاً.. كأيّ غريب!

لسعها ندمٌ خفيٌ تجذّر في باطن روحها وراح يئزّ كنحلةٍ تناور لولوج مجاهل زهرةٍ بريّةٍ بهيّة الألوان فائحة الأريج.. فكّرت، عليّ محاربته مثلما عليّ محاربة أوهامي. لا تزال ضعيفةً، أحسّت أنّها تعجّلت اتّخاذ موقفها، لم تتروّ، تراجعت، كان ردّ فعلي طبيعيّاً، ربّما أقلّ ممّا يُفترَض أن يكونه! هي الآن أهدأ، تتلمّس تنامي قدرته على مناقشة المسألة برمّتها بحيادٍ كامل، ربّما لأنّها أدركت أخيراً فقدانه حقاً وواقعاً وأضحت محاولة استرجاعه عبثاً محضاً! ولكنّني لم أستمع إليه.. تعجّلتُ فعلاً. أما عليّ منحه فرصةً ما؟ تضعضعت وهي تمسك حيرتها وانشطارها. أرادت أن تستريح قليلاً، لو كانت وحيدةً

لكان الماء المترقرق أمامها كافياً لتستريح إليه، لكنّها ليست وحدها وهو لن يغادرها إن طلبت، وهي لا ترغب. رضخت أخيراً:

ـ دعنا نبحث عن مكانٍ نجلس فيه.

جاءه البلل في اللحظة المندثرة عن الرمق الأخير.. أبصر نفسه ذاويةً تميل لتنحني على الأرض ساقاً ذابلةً فقدت نضارتها وآن لها أن تلتحق بتربتها، هامدةً على طينٍ صلبٍ وجافٌ سيحطّم هامتها. قطرةٌ واحدةٌ أعادت إليه ارتباطه بالسموق وإمكانية التسلّق في شعاب سماءٍ معادِية، مع أنّه أحسّ طعنةً تنسلّ ببطءٍ بعدما أصابت مقتلاً في ناحيةٍ خفيّةٍ فكوته حرارة احتكاك النصلِ المتراجع عبر اللحم والأعصاب وألياف الأوعية والدم الخاثر مضيّعاً ومموِّهاً الموضع الذي استأثر به.

أشفقت عليّ! انتابه إحساسٌ خانقٌ بيأسٍ شابه أسى المنبوذين. لم تغضب إذن لامتهانك المنعكس رأفةً في تجاويف حنجرتها ولم يستأثر بك رجع انفعال انكشاف ضعفك الذي تمقته وتخفيه عن الأعين مستهلكاً ألاعيبك وطرائق خداعك لتمويهه، وإظهاره بمظهرٍ مخالفٍ تماماً. هيّا، دعه يعصف بك، أدر لها ظهرك وامضِ دون كلمة وداع. افعلها مرّةً!

ـ حسنٌ، هيّا بنا!

نائحةً، كادت ذراعه ترتفع طائراً لتحطّ وئيدةً على كتفيها أو تعانق خاصرتها وتسند خطوها المتردّد المتحامل، لكنّها تشنّجت في منتصف المسافة وبقيت معلّقةً خلفها، لا هي تسقط فتعود لتردف جانبه، ولا ترتفع متقدّمةً لتغطّي كتفيها أو تتقوّس ملتصقةً بتجويف خاصرتها. كان عليه أن يفعل شيئاً لاستعادة سيطرته عليها فتلكّأ، تقدّمت عليه رغم بطئها، احتال ليقارب جذعاً عجوزاً متقشّراً لشجرة كينا انحنت وأرخت أغصانها لتهدل فوق الماء. كاد يسير خلفها تماماً، ولم تنتبه حتّى لارتطام ساعده الممدود بالجذع الذي خدش باطن كفه وساعده فأعاده إليه.

استطاع بعد لأيٍ محاذاتها. بحثت عنه أمامها، وسعت لما كانه في ظلال عينيها فلم تلتفت لكفِّه التي أدمت الأسوار والجدران ظاهرَها وخدشت الأشجار باطنها! ودّ لو تراها فتكون دليله إليها.. تحكي هي عنه، فلا تتّهمه التي خلّفته وراءها بانتحال ما يحيي جذورها في بلقعه القاحل. ليحدث أيّ شيء! أيمكن لكلينا أن نفترق على هذا النحو من الانحدار غير المسمّى والإفلاس العلنيّ للحواس؟

كانت تحاول تقمّص النسيان حالةً والانعتاقِ أفقاً، ليرحل ويدعني، ربّما استطعت ترميم أوهامي، إعادة نسجها على امتداد سمت الانتظار والاحتضار المبكّر لموتٍ بدا مؤجّلاً منذ وقتٍ طويل. إلا أنّها تأنّت. أما عليه، إن كان هنالك ما يُلزِمه، أن يبحث معي عنها ويساعدني في إيجادها؟

وكأنّما دعاهما معاً فارتميا عليه من غير اتّفاق. مقعدٌ متطاولٌ انزوى في ركنٍ منعزلٍ أحاطته سياجاتٌ ورقيّةٌ عاتمة الخضرة.. شجيرات مرجانٍ نبتت في غير موضعها واستطالت، شذّبها مقص بستانيٍّ أحبّها فأعمل خياله بعد أن استفزّه تحويل الأشجار لمغائر تؤوي، وتُخفي من غير أن تستحيل أحجارُها لموتٍ مؤكّد. ومن الخلف بمحاذاة جدارٍ واطئٍ على شكل مثلّثٍ إسمنتيٍّ قائم أسند سقفَه مدخل بناءٍ تحت أرضيٍّ، ربّما كان ملجأً في أيّام غابرة... حينَ كان ثمّة حاجةٌ للملاجئ لأنّ وجودها يعني ويعادل ويساوي وجود حالة حربٍ قائمةٍ أو كامنة، كذكرى ماضيةٍ أو كاحتمالٍ مفتوح، قبل أن تتراكم عليها أتربة وغبار القصف اللغوي الذي استبدل التحضّر بالتاريخ، وشراك اصطياد الطرائد العصيّة باللغة! اندفعت أغصان وفروع لبلابةٍ ضخمةٍ تسلّقته وكادت تغطّيه، ثمّ مالت فوق جدران المرجان الثلاثة سقفاً أطلق أزاهيره الصفراء مصابيح في أفياء الكهف المتوحّد. كانت استطالة المقعد مسافةَ حيطةٍ تباعد اعتزال كلٍّ منهما في ركنه القصيّ. وصلا، وكان حريّاً بتجاورٍ ممتنعٍ أن يتمّ دون مواجهة بعدما واجهت أعينهما تلعةٌ معشوشبة بخضرةٍ سابغة. أيّ فصلٍ هو؟ شجيراتٌ متناثرة.. أحواض زنابق متفرّقة، والماء غاب

في موقعٍ ما، رغم الحضور الغامض لرائحته المستترة. وعلى مقربةٍ، تقاطع دربان مفروشان بحصيّاتٍ مغبرّةٍ يحدّان جزيرةً انغرست في رملها الأحمر أعمدةٌ خضراء تهادت بينها أراجيح أطفالٍ مطليةٌ بأصفر فاقعٍ معلّقةٌ بسلاسل سوداء.

ابتدأا.. غاب الأطفال عن ساحة لعبهم في عينيها، وفي عينيه غابت الأمّهات. كلماتٌ يتوجّب انتزاعُها كأشواكٍ استقرّت عميقاً في لحمٍ متورّمٍ يوجع سحبُها الحذر والبطيء بعد عناء البحث والتدقيق في مواضعها، أكثر من انغراسها السريع والمفاجئ. ومرّةً أخرى تمرّدت الكلمات واستعصت. هي التي طلبت الجلوس، فلتتحدث. لكنّها تمنحك فرصةً طلبتها بعد تراجعها عن رفضها. قرب البحر رملٌ، حول السراب رملٌ، يتباين اللون، يهتزّ متماوجاً ويتمازج تحت السطوع الشديد، فيحار في ما يمتص وفي ما يعكس. وقع بصرها على أرجوحةٍ تنوس ببطء.

ـ كيف تحرّكت من تلقاء نفسها؟ سألت دون أن تلتفت إليه.

حرّكه الفضول فأخرجه من وجومه المنتظِر وتطلّع إلى صفحة وجهها، تلقّى من امتداد بصرها سؤالاً أسدل على جفنيه غلالة دهشةٍ متردّدة. خرج صوته خافتاً سفعت الهاجرة اخضراره.. نباتاً متسلّقاً من ذُرورٍ متفحّم:

ـ ربّما دفعها أحدهم ومضى دون أن نلحظه!

لم يكن جواباً، مجرد تبريرٍ لما لا يفسَّر، لاحظت في سريرتها مبقيةً نظراتها على السلاسل المهتزّة وقد ابتلعت المسافة صرير احتكاكٍ عجز عن إخماد حركتها. وعلى وقعها رمته بلاذع سخريتها المبطّنة:

ـ أمعن النظر!

صمتت لثوانٍ أذكت خلالها فضوله ثم أطفأته بلمح طرف:

ـ ما من آثار أقدامٍ على صفحة الرمل.

أثارت حفيظته، ما الذي ترمي إليه بتلميحها؟ أتهذر، أم أنّها تُسِرّ غير ما تعلن؟ لم تأبه، تابعت وكأنّها تتمتّع بإرهاقه:

ـ ما لم تكن الريح، وليس ثمّة ريحٌ، فلربّما كان شبحاً.. روح أمٍّ مقتولةٍ خالت ابنها يصيح طالباً أن تدفعه! أو أنّها أحضرت روحه معها وأجلستها على الأرجوحة وراحت تدفعها جذلى!

ودّت لحظتها أن تضحك بهزء، لكنّها لم تستطع. أحسّت غبناً كما لو أنّ سخريتها ترتدّ عليها وتستثير سخطها. راح صدغها ينبض بعنفٍ وبدأ الوجع يتسلّل إلى عينها اليسرى فالتمعت وذرفت دمعةً لم تشعر بانثيالها على وجنتها الخدرة. كادت ترفع كفّها لتمسّد موضع الألم لولا صوته الذي علا محتدّاً من غير أن يتخلّى عن قحطه المتقصّف:

ـ رحاب! ما من داعٍ لتلك الألاعيب. دعينا نتحدّث بوضوحٍ بعيداً عن السخرية والمواربة. قولي ما شئتِ بشكلٍ مباشرٍ وصريح، مهما كانت قسوته.

تلجلج في كلماته الأخيرة. أخيراً حدث ما انتظرته، استفزّته وعليها أن تضغط بشدّةٍ وتركيزٍ لتخرجه عن طوره فيخلع قناع اللامبالاة التي خلخلتها وجعلتها أشلاء مهجورةً بين الإسفلت وحجارة الرصيف لوقتٍ ضئيلٍ خلا. أخفت انفعالها، وعلى نفس الوتيرة التي تواكب سقوط سائلٍ حمضيٍّ كاوٍ من ثقبٍ صغير.. قطرةً قطرةً، تابعت انتشارها على مساحاته التي تهيّأت مرّةً أخرى للانطلاق، للأمام أو الوراء، الاتّجاه ليس مهمّاً بقدر ما هي الحركة.

ـ لماذا؟ نحن لا نفعل غير البحث عن ندىً عبرته صحراء وأناخت عليه بدل الاعتراف بعبث بحثنا، نندفع وراء محاولةِ إعادة تركيب آثارها المتكلّسة والمفتّتة كسراتٍ وشظايا تراكمت فوقها عصورٌ من المستحاثّات والرسوبيّات وركام العظات!

قاطعها حانقاً:

ـ ثمّ نكتشف مذهولين أنّنا أعدنا تركيب بركانٍ انفجر وانهمرت سيول

لطاه فوقنا ودُفنّا تحت رماده وسحب أبخرةٍ ثقيلة الوطء. أقلعي عن ذلك! دعينا نعرف مواقعنا، نعيّن في الحدّ الأدنى أين نحن.

دون أن تلتفت، وبنفس الجرس الحياديّ ذي الرنّة الهازئة، تابعت من حيث وصل:

ـ أين نحن! في الحدّ الأدنى! هكذا إذن. أما كان أولى أن نحدّد من نحن أولاً؟ أم أنّها فرضيّةٌ لا ضرورة لها بالنسبة لك، وربّما ليست سوى بدهيّةٍ تستطيع تخطّيها على عجلٍ و...

قاطعها متوسّلاً:

ـ كفّي عن ذلك أرجوك! لقد عدتُ بقدميّ إليك، لم أصغ لمحاولات ثنيي عن ذلك. دون دعوةٍ أتيتُ، وهاأنت تسعين لطردي من فردوسي الموعود.

ـ تخطئ مرّةً أخرى، ليس ثمّة فردوسٌ موعود، هنالك جحيمٌ لن تطيقَه ولن تصطبر عليه، وأنا حامية بوّابته الوحيدة! لماذا لا تدّعي أنّني أحميك منه، من نفسي، محاولةً تجنيبك أهواله التي لا تليق برقّة مشاعرك ورهافة أحاسيسك؟!

ـ هاقد عدنا. اسمعي يا رحاب! لا يصلح الأمر هكذا، ما عهدت نفاذ صبرك ولا ضيق أفقك. احتمليني إن كنت تأبين الغفران، دعينا نتحدّث بشكلٍ طبيعيٍّ لدقيقةٍ واحدة!

لم تمهله.. كانت تفقد سيطرتها على نفسها ثانيةً إثر ثانية، امتنعت عن إطلاق عنان اندفاعاتها وأبت إدخاله في دوّامات هلوساتها الحميميّة التي ما عادت تراه أهلاً لمقاربتها أو التعرّف عليها.

ـ عمّ سنتحدّث إذن؟ وإلامَ، وإلى أين؟

أجاب متلهّفاً وقد أحسّ أنّها استجابت له أخيراً فأسرع خشية أن تتراجع:

ـ عنّا، عمّا مضى وعمّا يُنتظَر.. عمّا تبقّى من العمر وعمّا يمكن أن يحدث خلاله...

عادت لتهكّمها، وجدته خير متنفّسٍ لما يعتمل في باطنها ولا تريده أن يخرج متفجّراً كأبواغٍ انتظرت نضجها طويلاً ثم انفقأت واستلقت على أيّ ريحٍ بحثاً عن أرضٍ غريبة:

ـ هكذا إذن! عن الماضي.. وكذلك عن الآتي! هل أسقطتَ اللحظة من حسابك، اللحظة التي نضجت وعتّقها ما سبقها، مهيّئاً للذي سيلاقيها؟ عمّا تبقّى من العمر! والعمر الذي مضى، هل أغفلتَه؟ أو أنّك صفّيت حساباتك معه، لا غالب ولا مغلوب، وتفترض أنّني فعلت الشيء نفسه؟!

احتارت فيمن تمنحه أولويّة الكلام؛ روحَها المضناة أم جسدها المحروم. كلاهما كانا يصرخان، مطالبيْن بمئذنةٍ مرتفعةٍ يعلنان من أعلاها على الملأ تراكم أوجاعهما وتوالي إهمالهما. لكنّه لم يصغِ، سدّ عليها المنافذ وعاد ليهيمْن على فضائها بعدما سيطر على روحها طويلاً:

ـ كلّ ذلك.. كلّ ذلك. لن نترك شيئاً، ما يخطر وما لا يخطر في البال. فقط دعينا نهدأ، نستعيد سكينتنا ونلتقط أنفاسنا اللاهثة ثمّ نبدأ من جديد، نواصل بحثنا، فإمّا نؤسّس أو نغادر.

لجمتها اندفاعة الصدق في بوحه المرتج. لم تخمدها، لكنّها أبطأت تهوّرها وأعادت تكبيلها بخيوطٍ غير مرئيّة بدءاً من أوعيتها، متمدّدةً خليّةً خليّةً عبر مسار استطالاتها حتّى طوّقت قلبها وحزّت بحريرها لحمه المنتفض بذعرٍ فسيطرت على إيقاع نبضه، وعاودها الصمت...

في اختناقاتها القديمة والحديثة المتواترة دون مواعيد لجأت للحلم لتستعيد تنفّسها وتبعد ما يضغط على رئتيها ويعتصر آخر فقاعات الهواء في جيوبهما السرية. تحلم وتحلم، ثم تتخلّص من أحلامها، كيلا تعاودها،

بتشكيلها طلاءً على أقمشتها وأوراقها وجدرانها وحتّى وسائدها وأغطية سريرها. لكنّ ذلك كلّه لم يشفها من لوباناتها المضنية.. كان يسكّن مخاضاتها إلى حينٍ ثم تعود الأوجاع أشدّ والانفجارات أسطع وأعنف. أيّ حلمٍ يراودني الآن فيلتفّ عليّ ويدخلني التيه؟ أيّ سحرٍ يسحرني الآن كأنّما كُتِبَ عليّ أن أولد وأحيا وأموت هنا وفي لحظةٍ واحدة؟ كانت تنزاح سريعاً من تقاطع زمانٍ ومكان صُلبت على أخشابهما القاسية الخشنة... ممدودة الذراعين ملتصقة الساقين ملقاة الرأس إلى الخلف بعدما سمّرت أعلى قليلاً من الموضع المعدّ لها. أحاطت السماءَ بعينيها.. دون شمسٍ ودون غيم، ضوءٌ حياديٌّ منقّط بآلاف الطيور البعيدة كأنّ ريشةً خطّتها كيفما اتّفق وأطلقتها سواداً على هيئة حركةٍ لا تتبدل ولا تتغيّر، تخدش مقلتيها باصطفاقاتٍ زئبقيّة، وأذنيها بأزيزٍ مكتوم. خافت الهبوط إلى عوالم رؤاها حيث تتيه في شبكات أنفاقها المتشابهة فتنبذ في ظلماتها السرمدية. وإذ عركت هيكلها لتنتزع رفاتها عن الأخشاب الصلبة، أحسّت بشرايينها وأوردتها تتشقّق. ليس ثمّة مسامير إذن! وثمن تحرّرها من وثاقها قد يكلّف سفك دمها. قامرت، فكان تمزق حبال دمها أهون الشرور.

التفت إليها، هاله شحوبها وحار كيف يفعل. لم تطاوعه كفّه على الاقتراب.. خشي صدوداً آخر يحطّم الحلقة الزجاجيّة التي باتت تربطه بها وسيكون محالاً إعادة رأبها. لكنّ شخوصها دفعه للمغامرة، ناداها هامساً.. ومع استرسال النداء الخفيّ لمس كتفها فارتعش، كانت صلابة وبرودة ملمسها شيئاً مغايراً لموتٍ اعتاده وعاش قربه مراقباً دوماً! كأنّما تلمّس صخراً.. وكأنّ هيكلها استحال حجراً غطّته الأغصان والأوراق اللامعة وأضاءته حمرة الأزهار.

أراد أن يهمس باسمها، يربّت على كتفها، علّ الروح تستردّها فتلغي الصفا الأصمّ الذي يحاوره. لكنّه، رغم محاولاتٍ يائسةٍ، لم ينبس بحرف.

التصقت رؤوس أنامله بالانحناءة الليّنة لكتفها الصلدة وبات يخشى انتقال العدوى إليه. فزع وقد عجز عن انتزاع كفّه ولم تطاوعه قدماه على الحركة أو الوقوف، لكنّه لم يقنط، إما أن يغادر أو يبثّها الروح فتنبعث فيهما معاً. عاوده ذلك اليوم الكئيب. لم يكن استثنائياً، لأنّ الموت أشهر بيارقه مع أولى شعاعات شمسٍ شتائيّةٍ استحيت لأنّ غيماً لا يستر شحوبها ويمنحها دفئاً يقيها صقيع ريح قطبيّةٍ هاجمت من علٍ كأنّما حطّت عموديّةً من مجرّةٍ بعيدة، أو لأنّ الكآبة تسربلته، كلاهما استحالا خبزاً وماءاً لعيشٍ مبتذلٍ ومكرور. ما الذي ميّزه إذن؟

ما كانت مهزومةً مثله وليست يائسةً كذلك! لكنّ نيران الحياة فحّمت ظاهرها، وحجبت طبقاتٌ كتيمةٌ ينابيع داخلت أغوار روحها عصية السبر... مارست دورةً داخليّةً بعدما سُدّت المساحات والفضاءات وامّحت التضاريس وسكنت الريح في السماوات حيث كان لها، عبرها وخلالها، متابعة دورتها الخارجية فراحت تتعتّق على مهلٍ في باطنها، تترقرق وتشفّ مستقطبةً زرقةً لازورديّةً تتندّى عبر عروق الفحم الملتفة حولها، وتنبجس عذبةً بدائيّةً وصافيةً من عينيها الوحشيّين. التقاها ليلةً واحدةً، وفي هزيعها الأخير اكتشف كلٌّ منهما في الآخر ما أراد إيجاده في مرآة روحه. تردّد.. هل كان حلماً؟ لطالما تساءل وليس ثمّة يقين! لكنّه يتبدّى الآن مُبهراً كشهابٍ اخترق رحم ليلٍ حالكٍ فالتمع ثوانٍ وانطفأ. كانت تعود، يغيب المشهد المفتوح على رحابة الأفق والماء والأشجار، يستولي حضورٌ شاحبٌ لغرفةٍ فقيرة الأثاث مشبعةٍ بدخان السجائر وضباب الأحلام المشتّتة والمغتالة على قوارع الطرق ومداخل الأبنية المعتمة.. ريحٌ عاتيةٌ تعصف في الخارج ومطرٌ عنيفٌ يقرع نافذةً توسّطت الجدار وقد أطلّت من زاويةٍ خفيّةٍ على بحرٍ دامسٍ تخترق بقايا هديره الجدرانَ والأعصاب وتُعمِل فيها حتّاً وتعريةً. راحت تنتفض بعنف، لم تمتصّ الأغطية الثقيلة ولا الحمّام الدافئ ولا النار المتوهّجة في ركن

الغرفة ولا جرعة كونياك كبيرةٌ رعدة برد استوطنت نقيّ عظامها بعدما التقطتها من براثن عاصفةٍ اخترقها مطرها الثقيل وسال على هيكلها.

من أين أتت وأيّة حجبٍ اخترقت حتّى وصلت ملتجئةً إليه؟ هاتفٌ موجزٌ أتاه من صديقٍ قديم؛ صديقةٌ عزيزةٌ تحتاج اهتماماً ورعايةً كيلا تهيم على وجهها، لم أجد خيراً منك ليُعنى بها مؤقّتاً ريثما نتدبّر أمرها. ربّما أثقل عليك، ولكن ليس لي ولا لها إلاك، سيكون منزلك محطّة عبورٍ لها وحسب. لم يتح لي ساعتها طرح أيّ سؤال، كان موعد وصولها محدّداً قبل انتظار موافقتي، أكّد، عليك أن تولي وضعها الصحيّ اهتمامك. أغلق الخطّ قبل أن أسأله عن أحواله وأطمئنّ على صحته وابتعد طيفاً مفارِقاً انتمى لعوالم أخرى. يعلن عن بقائه بإطلالته بين عصرٍ وعصرٍ تفصل بينهما أزمنةٌ سحيقة... كان قد اختفى قبلها، لكنّه واصل الحضور. لم أعطه عنواني ولا رقم هاتفي، لكن ما من شيءٍ كان ليخفى عليه وهاهو يرسل هديّته على جناح السرعة. أبعدته وتحوّلت إليها، محاولاً رسم صورةٍ لها تهيّئني للقائها. بالنسبة لغالب، تستطيع دوماً توقّع نمط البشر الذين يقدّمهم كأصدقاء له، يغلب عليهم طابعٌ موحّدٌ، فتكاد تحسب أنّه لا يلتقي سواهم، مسحوقون حتّى لبّ عظامهم إلا أنّهم متفائلون! حاملون ما لا يطاق من الألم لكنّهم صامدون وشجعان في إيثار أحمالهم، مختلفون في كلّ شيءٍ وتوحّدهم رغم ذلك روحٌ بروميثيوسيّةٌ مؤتلفةٌ بنسبٍ متفاوتةٍ مع تصلّبٍ سيزيفيّ، رأياً وموقفاً واستمراراً.. قدَرٌ يعاند الحياة، يريدها على هواه دون أن تسمح له أبداً بنوالها كما يشتهي. ولا ييأس! فكّر، رغم محاولته إبعاد غالب عن ذهنه، هل يشبهونه؟ أكان يلتقيهم مصادفةً أم أنّه ينتقيهم بعنايةٍ مفرطةٍ ويُخضِعهم لتجارب قاسيةٍ كيما يخرجهم من مصاهرها أهلاً لمعانقته؟ يفترض تلاقي الأضداد خضوعاً لقانون تجاذب الأقطاب المتخالفة، فكيف يحدث أن يجتذبها ما يفترض أن ينفّرها؟ ما كان ذلك مهمّاً، المهمّ الحقيقيّ هو لحظة لقائهم التي تصيّرهم شيئاً واحداً، متمايزاً لكنّه يعبّر عنهم جميعاً. تراهم في

واحدهم، وفيهم جميعاً ترى أيّاً منهم. أكانت بقيّته فيهم أم أنّه أثرٌ من آثار التقائهم وحسب؟ وكانوا جميعاً محكومين بموتٍ عاجلٍ غير مؤجّلٍ أبداً! تصعب الإجابة! لكنّهم يرحلون.. لا تكاد تألف أحدهم حتّى تراه وقد مضى... أين؟ تريد لنفسك أن تظلّ جاهلةً، وهو خيرٌ لها!

تحاول أن تجمع من إيحاء ذلك كلّه طيفاً لها، صورةً مسبقةً يُفترَض أن تتطابق مع حقيقتها. هي منهم، وقد أصرّ على ذلك! كيف ستكون؟ وإلى أين ستمضي بعد عبورها؟

مع آخر ظلال الماء وصلت، ضبابةً تغلّف جمراً متّقداً، وهجاً يطلّ من عينين فاحمتين على أديمٍ يشفّ في شحوبه كاشفاً ما يغلّفه. قلتَ هي، دون أن تسألها اسمها. أخذتَ عنها حقيبةً ناءت بحملها وتقدّمتها دون أن تقول حمداً لسلامتك! لكنّها تعلّقت بك فالتفتّ إليها متسائلاً. ببساطةٍ أخّاذةٍ، دسّت ذراعها تحت ذراعك واتكّأت عليك. نبّهك لهاثُها لعجلتك، ما الذي يستعْجلك؟ سألت نفسك مخفّفاً سرعة اندفاعك. أهي مريضة؟ سألتها بحنوٍّ.. أترتاح قليلاً؟ بدا صوتك مقفراً جعلك تجفل قبل أن تلمح ردّة فعلها. ازداد شحوبها، إلاّ أنّها أشارت برأسها أن لا. في سيّارة الأجرة تطلّعتَ إلى وجهها المنعكس على مرآة السائق.. كان مواربأ وهي ترمي بصرها على حقولٍ مترامية مزروعةٍ بأشجارٍ عملاقةٍ تنتصب على طول الطريق حارساً لها ورقيباً.. تطاير شعرها واستعادت سمرتُها لونها على وقع تنفّسها العميق، ليست غريبةً، هل عرفتها قبلاً؟ تلوح في قسماتها ألفةٌ غامضة، ربّما تطابق الصورة التي خلتها عنها. ظلّت صامتة كأنّ حداداً يسربلها. كانت الفكرة مجرّد استجابةٍ آليّةٍ لسواد ثوبها وجوربيها. تململت واستقام رأسها، خلتَ أنّها ستقول شيئاً أو تسأل سؤالاً، لكنّها تراخت في مقعدها، رنت إلى ساعة معصمها، انزلقت قليلاً، فردت ساقيها المضمومتين بشدّةٍ وألقت رأسها للخلف مغمضة العينين. من تشبهين أيّتها السمراء؟

ظلّ صوتها محتبساً في رباب متناثر، ودّ سماع جرس صوتها لتكتمل الصورة لكنّها أبت ذلك. كانت غير مباليةٍ أو أنّ هنالك ما يستأثر باهتمامها وتتطلّع نحوه فلا تبدي أدنى فضولٍ لمعرفة موضعها، وإن كان مجرّد معبرٍ لها.

لكنّ ذلك كلّه سيختفي وتمّحي التفاصيل. سيذكر فيما بعد أمراً وحيداً كما تذكّره الآن باختصارٍ شديد؛ حين لامسها هالته استحالتها تمثالاً حجريّاً بقي، نائماً، يحتلّ حيّز فراغٍ في ذاكرته. وهاهو ذا يستيقظ من جديد...

ارتعشت أصابعه وسرعان ما تشنّجت فانتفضت، وما دري هل كانت كفّه هي التي تهزّها أو أنّ ردة فعلها الناهرة انتقلت لكفّه فزعزعتها. التفتت إليه باستغرابٍ وكادت أن تصيح:

ـ ما الذي دهاك؟

أُرتج عليه، فحاول متوسّلاً:

ـ أحاول.. أحاول إخراجك من استغراقك في ما لا أدريه!

أجابت بحدّةٍ:

ـ ستعرفه إذن. إن كنتَ جاهلاً هدفَك فهدفي واضحٌ بالنسبة لي، راهنتُ على الماضي فبدا في لحظة رؤيا صاعقةٍ انتحاراً.. سراباً غامضاً بعيد المنال، لكنّي لن أفرّط بحاضرٍ لقاء قادمٍ قد يجيء وقد لا يجيء!

عادت لألغازها. ما الذي تبغينه يا امرأةً عصيّة؟ قوليه واضحاً وأريحيني!

ـ وبعد؟ هلاّ وضّحتِ أكثر؟

هل يتعامى، أم أنّه فقد بصيرته فعلاً؟ أضحينا غريبين، عالمين مختلفين، محالٌ إعادة اكتشاف المشترك والمتّحد بيننا، فكيف بالتحامهما؟ كادت

تسأل عن سبب إصراره على التجاهل، لكنّها أنفت تسوّله مرّةً أخرى. ألقت بنفسها مرّةً فازدراها، أتكرّر فعلتها؟

- أدهم، ألا تبصر؟ رحل الماضي! لم يندثر، بل استحال رمّةً لم تتفسخ بالكامل، لكنّها غير قابلةٍ للإحياء. دعنا منه! لنتّفق على ذلك كي نلتفت إلى لحظة الراهن.

أحسّ لوماً شديداً في كلماتها المنسابة شروخاً فتابعها خطوةً خطوة:

- أما من شيءٍ عن الآتي؟

كبحت حدّةً عاودتها فارتعش صوتُها وأشاحت بوجهها:

- فشلنا في الحكم على ما مضى. أيُفترض أن نقامر بإطلاق حكمٍ على المجهول؟

تنبّه لشحوبٍ عاود غزو تضاريس وجهها ووشّاه بشمعٍ كابٍ، استنفذها اتّخاذ القرار وليس ثمّة مهربٌ من مواجهته دون نقاش.

آثار

بقيت حنان مثل مسحورةٍ تسند ظهرها لموقف الحافلات وقد بدأت أضواء الشوارع وأنوار السيارات تتخاطفها. لن يأتي، كيف خطر لها لقياه هنا؟ سيكون اللقاء إزميلاً صلباً تدقّه مطرقةٌ ثقيلةٌ فتزيل القشرة التي غلّفت البيت وتظهره لأصابعها كيما تعاود لمسه. وبقدر ما هربت من البناء الذي صاره، بقدر ما أرعفها الحنين وقادتها إليه خطواتٌ مجهولةٌ المرّة تلو المرّة، لايظهر لعينيها إلا حين تغشاها ومضة أسىً وارتعاشة دمعةٍ تتلألأ ولا تنساب، تبقى ثوانٍ وحال تبخّرها يعود المشهد البديل ويندفع ليسمل عينيها فتُغمِض جفنيها محتبسةً أوهامها وآهاتٍ تعصف بها. عليّ أن أمضي، حاولت، مخادعةً نفسها، الانتظار هنيهةً أخرى علّه يظهر. كيف ستعرفينه بعد تلك السنين؟ أما تراها غيّرته؟ ليس لها أن تفعل، وإن حدث وتغيّر فثمّة في عينيه ما لا ينطفئ.. يميّزه عن كل العيون التي تعبر جسدها وتحطّ عليه ذباباتٍ سمجة. هي التي ستعرفه مهما أعمل الزمان في هيكله وملامحه، أيمكن له أن يتعرّفك؟ حاولت تجنّب السؤال بالاستدارة ومغادرة المكان، لكنّها تلكّأت، انتظارٌ لهوفٌ سمّر قدميها، حين... سأقول... سأعترف... لن تعرفني، خرجتُ من أتون الزمان كائناً مختلفاً عما كنتُه! عاودها وجهها الصباحيّ يطلّ من مرآتها، يغلّفه الحزن وتحتضن قسماتِه المرارة، توسِع عينيها مبحلقةً فتصطدم بجنوحهما للتحدي وبصلابة ملامحها، يفترّ ثغرُها المنقبض عن ابتسامةٍ معزّية، ألا أطليه بلونٍ زهريٍّ فاتح؟ يرتفع حاجباها فترضخ، ثم

يهبطان ببطء. لا تهمّ تلك الخيوط البيضاء التي تسللت للشعر الخرنوبيّ الجعد المقصوص من الخلف، ولا تلك التجاعيد التي هامت بخبثٍ تحت محجريها وتهادت على زاويتي فمها.. أفٍ للعمر، كم يمضي على عجل! يعتصرها أرقٌ مُبهَم؛ لو أنجبتُ لكان الفتى الآن شاباً يتأبّط ذراع حبيبته ويصحبها لتناول الغداء بعد انتهاء محاضرات يومهما. تُبعد وجهها عن المرآة، لن أسمح للدمع أن يخزني بمرّ ملحه! تخلع صباحاتها وترميها مع المرآة... ليس مهمّاً... لازلتُ أحيا وأحاول القيام بما يضفي على تلك الحياة معنىً ما، مهما كان يائساً رثّاً عديم المعنى.

ـ أنا آسفة، تأخّرت قليلاً... أرجوك اعذريني!

أتاها الصوت لاهثاً مندغماً براحةٍ رقيقةٍ حطّت على كتفها فأخرجها من تهويماتها الدميمة.

استدارت، تعانقتا بألفةٍ وشوقٍ ثمّ قالت معاتبة:

ـ.أيعقل هذا يا صفاء؟ نصف ساعةٍ كاملة وأنا أنتظر، كلّما هممتُ بالرحيل أقول لا، ستأتي. لماذا؟

ـ أرجوك سامحيني، لم أشأ ترك الطفلين في البيت، اضطررتُ لانتظار الجارة.

سارتا متلاصقتين.

ـ صحيح، كيف حالهما؟ ما عادا طفلين، ممَّ تخشين؟

تنهّدت صفاء بأسى:

ـ لم يفارقهما الرعب، منكمشين تُجفِلهما أيّة نأمة يتعلّقان بي متشابكيْن، يجافيهما النوم خشية أن يستيقظا فلا يجداني!

ـ هوّني عليك، سيعبران الأزمة وينسيانها.

قاطعتها صفاء:

ـ لكنّهما يفطران قلبي وهما يسألان عن خالهما. عاشا عمرهما ياحنان على انتظاره، وحين أطلّ اختفى من جديد.

حاولت حنان أن تهدّئ روعها:

ـ لا عليك، سيستعيدانه قريباً. المهمّ أن تتماسكي. حاولي ما استطعت إلهاءهما و...

ـ هل يتيحان لي ذلك؟ لا شيء على لسانهما غير اسمه والسؤال عنه، حاولت إخراجهما من البيت للترويح عنهما فرفضا، وإن جاء خالو ولم يجدنا؟

سارتا صامتتين... انعطفتا نحو سوقٍ مكتظّةٍ فتباطأ خطوهما وهما تحاولان تخطّي المتسكّعين المتلكّئين أمام كلّ واجهةٍ متنقّلين من واحدةٍ إلى أخرى، مكتفين بإلقاء نظرةٍ والذوبان في أضواءٍ ساطعةٍ تخترق الزجاج فتبدّد العتمة وتكشف تفاصيلهم وخفايا حسراتهم دون أن تستوقفهم لتسأل، مابالكم؟ تاقتا إلى الخروج ممّا يستفزّ يقظةً في خواءٍ ضاجٍّ بالألوان والأضواء، يتكشّف الضياع ويتعرّى فتغمرهما غيمةٌ حزينةٌ تودّ لو تبكي أساها، عبرتا الشارع ودخلتا جادّةً شبه خاليةٍ خفيفةَ الإنارة، تمدّدت الغيمة وبادرت حنان:

ـ سألتُ كثيراً، عرفت منزل المرحومة أم أدهم. المسكينة توفّيت قبل أن تراه. قالوا إنّه أمضى أياماً ورحل قبل انتهاء العزاء إلى حيث لا يعلمون، وما سمعوا بعدها شيئاً عنه. ألم يظهر له أيّ أثر؟ ألم يتصل بك؟

ـ أبداً. هذا ما حصل فعلاً، أتى ليقيم عندنا و... تعرفين البقيّة، لم أسمع صوته رغم وعده بالاتصال، ولحسن الحظ أنّه لم يفعل وإلاّ...

قاطعتها حنان محتدّةً:

ـ وإلاّ، لو أوقفوه لكان جميل في البيت الآن. لم يطلبوه يوماً وما من شيءٍ لديهم ضدّه!

كانت ترفض الفكرة، لن يمكّنهم من نفسه أبداً، سيكون قد غادر أو سيبقى في الذاكرة جاهزاً للحياة في كلّ لحظة. هو من القلائل الذين لم يتعفّنوا في الزنازين أو يخرجوا مستلبين أو كافرين أو جاحدين، ولم يغرهم المنفى ويقطع صِلاتهم إلى أبد الآبدين. أقلّه أن يبقى ما نتطلع نحوه أو نتّكئ عليه حال نضعف أو نقارب تخم الانهيار، فكّرت موهنةً تمسك بخيطٍ واه من السلوان!

ردّت صفاء:

- لم أقل هذا، ولكن علينا أن نجده و...

صاحت بها حنان:

- لأجل ماذا؟ لأجل أن يسلّم نفسه؟

فقدت صفاء سيطرتها على نفسها وصرخت:

- لا أسمح لك بتحميل كلامي ما لم أفكّر به أو أنطقه. استمعي، أنت تحاورينني ولست تخاطبين أفكارك، ما أردتُ قوله أن أحداً غيره لن يساعدنا.

لم تطمئنّ حنان لقولها، لامت نفسها لتسرّعها، وإن ظلّت مرتابةً في ما يدور في رأس صفاء. قالت بخفوتٍ حاولت الاعتذار عبره ورصد ردّة فعل صديقتها:

- وإن كان قد غادر؟

رمقتها صفاء بعتبٍ حقيقيّ، استعادت هدوءها وأجابت بثقةٍ بدّدت قلق حنان وارتيابها:

- لترافقه السلامة، سنبحث آنها عمّن يساعدنا على إنقاذ جميل. ما بالك يا حنان؟ لم أتغيّر بعد! صحيحٌ لم أكن معكم ولم أشاركْكم معاناتكم، لكنّني أمينةٌ لنفسي، لم أتلوّث، وما زلتُ أصبو لما تصبين إليه. ربّما افترق دربانا، ولكنّي متشبّثةٌ بما يوحّدهما، مصرّةٌ ألاّ يجرفني التيّار.

تهدّج صوتها على وقع كلماتها الأخيرة، فتنبّهت حنان لما ألحقته بها من أذىً وغبن.

ـ اعذريني يا صفاء، لا أدرِي ما الذي انتابني، لا أسوّغ لنفسي لكنّهم نجحوا في تشويهنا حتّى بتنا نشكّك في أنفسنا وفي أقرب الناس إلينا، ولربّما كرهناهم كما كرهنا أنفسنا والعجزَ الذي يعتمل فيها. ربّما حدث الأسوأ، تحوّلت وجهة أحقادنا وانعكست عدواناً على أنفسنا. أكاد أُجنّ منذ اللحظة التي هتفتِ لي بها والتقينا. ثمّة من وشى به، وهو قريبٌ إليه لدرجة أنّه اطمأنّ لكشف هويّته. واحدٌ منّا!

ـ كان يا حنان و...

لم تتركها لتكمل:

ـ لا يغيّر ذلك شيئاً، صار منهم أو في خدمتهم، وقد نُخدع بغيره أو بأنفسنا مثلما خُدعنا به. دهمتنا الكارثة يا صفاء، هذا هو المهمّ والأخطر.

لم تجد صفاء ما تقوله، طوّقت كتفي حنان بساعدها، انتظرتُ مواساتها، تمنّيتُ استرجاع أمّي على كتفيها وفوق صدرها.. وهاأنذا دون عزاء!

ـ لا بأس، لا بأس يا حنان، لن يطول ذلك. وحتّى لو طال، فتلك كأسنا وسنتجرّعها.

ـ ما من عزاءٍ يا صفاء. تسيرين في أرضٍ يباب.. لا مطرٌ ولا ماء، تكتوي راحتاك القابضتان على معولك والضاربتان بإصرارٍ وعزيمةٍ لا تلين بحثاً عن الماء أو حرثاً لتربةٍ ربّما أسعفها المطر قبل أن تلج موسم الصحراء. ينحني ظهرك، تخور قواك وتخادعين نفسك... آن الأوان، بعد ثانيةٍ أو برهةٍ أو... ويتمطّى الدهر على كاهليك ضاحكاً؛ اعملي أيّتها العبدة وإلاّ فالويل لك! ربّما تحاولين الاستمرار والتواصل عبر طفليك، أما أنا، أفٍ لي. لم أقصد! ولكن تخيّلي كم سأكون أقوى وأقدر على البقاء والاستمرار وكم سيبدو العمر متّسعاً والأفق رحباً.

كأنّما تروم اعتذاراً عن ذنب لم تقترفه، راحت صفاء تحكي:

ـ وسيكون كذلك يا حنان. لقد كنتِ قدوةً لي، حين يطويني اليأس أمدّ يدي وأتسلق قامتك. فعلُك وإصرارُك وتحدّيك لجبروتهم سيعلّم أطفالاً كثيرين تكونين أكثر من أمٍّ لهم وسينتمون إليك كما أطفالك الآتين وأكثر. اطرحي أساك، أما قلتِ يوماً إنّ الإحساس بالغبن مدمّرٌ وعلينا أن نتعلّم ألاّ نسمح له بتحطيمنا عبر ملاحقتنا لمن تسبّب به لنا؟ دعينا نشرب شيئاً ثمّ نمضي سويّةً، فتقابلين الطفلين ونتابع حديثنا. ما رأيك؟

هدأت حنان، تخطّت واحدةً من أشدّ لحظات ضعفها غلبةً وقد وطأتها وأظهرت عريها للعيون. استشعرت راحةً بدت عزيزة. ما كانت عينا صفاء غريبتين، كانتا الأقرب بعد عيني رماح ولو أنّها على عكس رماح ظلّت نائية. أما كان في بُعدها خيرٌ كثيرٌ لها؟ أما حافظت على مكنون جوهرها نقيّاً لم تشبه شائبةٌ كما حصل معي، ولم يتلوّث مثلما حدث مع غيري؟

قفزت رماح واتّكأت على جفنيها ضاحكة..

ـ وفّري ضحكك الدائم لأيامٍ سعيدةٍ قادمةٍ كيلا ينضب!

تجيب رماح صادحةً غامزةً بمكر:

ـ لديّ مخزونٌ لا ينضب من الضحك. حتّى غددي الدمعيّة استبدلت الماء المالح بسائلٍ سحريٍّ يجري على سطح العينين فتضحكان دون ضحك. لا تخشي يا عزيزتي. ثم افترضي أنّني متّ فجأةً، ألن يذهب كلّ ذلك هدراً في التراب؟

يجيب غالب ساخراً:

ـ لا، ستفيد منه الديدان!

وتضحك هي الأخرى...

مضت الصور سراعاً.. نتفةٌ من هنا، نتفةٌ من هناك، ثم اختفت رماح، ابتلعتها هوّةٌ عميقةٌ بعد أن طُرِدت من منفىً إلى منفى ولم تخمد طاقة

الـ.حك والاندفاع الجامح في روحها المتوثّبة. أين أنتِ الآن يا رماح، وإلامَ مـ,ث في تلك اللحظة التي تغصّ الروح فيها فتبحث عن حبورٍ عابرٍ أو ..مىلف أو مدفونٍ في ذاكرةٍ طغى رماد حرائقها وابتردت، فلا تجد ما يضفي على الشفتين طيف ابتسامة؟

شربتا عصير الرمّان.. التف السائل الحامض على اللسان وداخل لذعُ ـمضه الأحشاء وأنعشت البرودة الدم المحرور.

في غبش الحافلة المكتظّة، تابعتا حديثاً مبهماً على إيقاع ارتطام كتفيهما المتلاصقتين مع ارتجاجاتها. تراجعت كلٌّ منهما إلى داخلها، عارضٌ من انفكاكٍ مؤقّتٍ عن الوقائع الشائكة والمشكلات العصيّة على الحلّ، برهة هدنةٍ مع عالمٍ جارحٍ وقاسٍ لا يبيح هدنةً لالتقاط الأنفاس، محاولةً لاسترداد النبض المتخامد واستعادة طاقة الجدل والبحث عمّا يمثّل معنىً في هذا الخضمّ الحافل بالغامض واللامسمّى والمخالف لأيّ منطقٍ على طول الخطّ.

ـ حنان، أما زلت تذكرين فاتن ونوال؟

أُخِذت حنان فارتعشت، أحسّت صبيباً بارداً ينثال فوق عمودها الفقريّ متحوّلاً لتيارٍ يسري داخله ويكاد يدفعها للانتفاض مع كلّ ومضةٍ من جريانه المتواتر. أيّ شيءٍ أيقظهما في ذاكرتها؟ أيّ تداعٍ استحضرهما من قاع سنواتٍ كبتْ شمسُها وما وجدت من يقيل عثرتها؟ حاولت الالتفاف على السؤال:

ـ لم تسألي عن أيمن.

لكنّها، وهي توالي هجراتها في وديانها المهجورة ومغارات الجرود التي قتلتها بحثاً وتنقيباً، كانت تصغي وتدرك مغزى التفاتة صفاء.

ـ أسأل عنهما وحسب!

حاولت صفاء ألاّ تكذب.

ـ بين حينٍ وآخر، كلّما عدتُ للخلف أو أعادني إليه تعبران بي، أسأل دوماً ولا أجد الإجابة؛ كيف ولماذا؟ تعلّق نصف عمري بعدهما بهذا السؤال فلم أخرج من حالاته ولربّما لن أخرج!

صمتت حنان مستغرقةً في خدر أحلامها التي أدمنت حفر أخاديدها بنصلٍ حادٍّ في تجويف قلبها، كلّما اخترقته التأم، لا تنضب ولا تستنفذ طاقاتها ولا تتوقّف. ولم تتوقّف صفاء:

ـ أسمعت جديداً عنهما؟

ـ ليس تماماً، ولكن كلّما تجمّعت المِزَق على فتراتٍ تتباعد أحياناً وتفصل بينها سنواتٌ تدافعت وخالطتني، أعملت فيّ فؤوسها حتّى أتمّت شطر حياتي؛ واحدٌ لهما، معهما وبهما يعيش، وآخر يحيا بمعزلٍ عنهما، ينشط ليعوّض غيابهما محاولاً الثأر له أو تعذيب الذات تكفيراً عن لامبالاته.

ـ ألا تضخّمين إحساسك بالذنب تجاه ما كنتِ ضحيّته أيضاً؟ أيعني الكثير كونك الكبرى؟ لا تبالغي في ذلك يا حنان. إن كنت مسؤولةً فكلّنا كذلك!

ـ حسنٌ، سآخذ كلامك على محمل الجدّ كما حاولت مراراً، فسّري لي إذن لمَ لا تتركاني أرتاح بينما تدعانك ولا تزورانك إلا لماماً.

حاذرت صفاء إضفاء مزيد من الأسى فأخفقت وعادت للبدايات:

ـ لا تنسي أنّهما شقيقتاك!

ـ هل أنسى؟ كيف تسوّغين إجابتك الأولى إذن؟ كيف تتساوى مسؤوليّاتنا وتتفاوت نسب اهتمامنا؟ إنّ للدم دوراً أعظم ممّا نظنّ. حاولتُ نفي الفكرة، وفعلاً تعادلت أحاسيسي تجاه ما يوجع أيّاً كان مصدره. خارج روابطي، أعيد بوضوحٍ الحالة إلى خلفيّتها الحقيقيّة، لا أستطيع فصلها عن

بؤسٍ عامٌّ يولّد المرارة في جزئيّاته المختلفة ولا أرى في مواجهتي له، مهما كانت محدودةً وبسيطةً، إلاّ شكلاً من أشكال مدّ يد العون لتلك الجزئيّات. ما فكّرتُ بإيجاد حلولٍ منفردةٍ لها لأني لا أملك خاتم سليمان أو مصباح علاء الدين! أقنعتُ نفسي أنّ حل المشكلات العامّة سيؤدّي بالضرورة لحلّ المشكلات الخاصّة كتحصيل حاصل. أمّا معهما، فما استطعتُ فعل ذلك أبداً، ظلّتا شوكتين تخزان حلقي، يتعمّق انغرازهما كلّما تنفّست. كان صعباً أن أفصل نفسي عنهما، وأتعامل معهما بحياديّةٍ تقارب تعاملي مع ما عداهما رغم انحيازي المفرط له. ثمّة ما يختلف! أرفضه، وأعجز عن تجنّبه.

أنصتت صفاء وتساءلت، كم تحمل تلك المخلوقة من أوجاعٍ وأعباء؟ حرمت نفسها من كلّ شيءٍ من أجل ما بدا يوماً صعباً لكنّه قريب المنال، ثمّ أوغل حتّى أمسى السراب أكثر واقعيةً منه! وحيدةٌ عزلاء إلاّ من تمرّدها ورفضها الانصياع لما لا يرتضيه الإنسان الكامن فيها. ودّت لو تسألها لكنّها آثرت الصمت. دعيها تطلق صرخاتها فقد تزيح بعض ما تضيق النفس به ويكاد يزهق الروح! ما يذهل هو قدرتها على إخفاء ذلك، لولا صدفةٌ حمقاء لما لمحتُ جانبها الخفيّ وأكاد أجزم أن أحداً غيري لم يعرفه. بالأمس بدت مندفعةً تستسهل صعاب الأمور وتستمرئ مواجهتها ضاحكةً؛ وما نفعنا إذن؟ كيف يكون لحياتنا معنىً إن لم نعانِ ونكافح لإزالة مسبّبات معاناتنا؟ صحيحٌ أنّ حزناً مُبهَماً يستوطن مقلتيها، لكنّ ومضاً متموّجاً يجعلك تحار بين حزنها وحبور انتصاراتها الصغرى واستهانتها بتحدّياتٍ تفرضها الأيّام وتزداد كثافةً وثِقَلاً. وفوق ذلك، تهزأ من الذين يديرون ظهورهم هرباً أو يغمضون عيونهم فزعاً أو يحنون رؤوسهم رهبةً أو تملّقاً، وترى أنّهم غير جديرين بما يميّزهم عن باقي الخلائق!

لم تغيّر لحظة وهنها من تقدير صفاء لها، بل زادته مثلما زادتها قرباً منها. أشاعوا عنها إيداعها لعواطفها وأحاسيسها في زجاجةٍ أغلقتها ورمتها في البحر. قال أحدهم ساخراً، من يجدها سيكون وافر الحظّ! واستحالت

دوافعها لمحرّضاتٍ للفعل والحركة. كان في ذلك القول إطراءٌ مشوباً بالحسد وبشيءٍ من الشفقة، آنها لم تأخذه صفاء على محمل الجدّ وامّحى من ذهنها بعد فراقٍ مديد. وإذ استعادته للتوّ، تيقّنت أنّها فعلت الصواب بعدم تصديقه. أطلّت من الشبّاك وصاحت:

ـ أيُعقل ذلك؟ فاتتنا محطّة نزولنا وتجاوزناها.

كذلك استفاقت حنان من تهويماتها:

ـ أحقّاً؟

غادرتا في المحطّة التالية وعادتا أدراجهما... كان الحيّ هادئاً والمارّة قلائل، نفذت من أجواء العتمة المختلطة بأنوار الشارع وأضواء النوافذ المفتوحة رائحةٌ أليفةٌ، مزيجٌ من أريج الأزاهير وعبق الأشجار وروائح غرف النوم وتعرّق الأولاد أثناء لعبهم.. لفّتهما نسائم المساء الخفيّة التي أزاحت حرّ النهار. تذكّرت صفاء شيئاً، تردّدت ثمّ:

ـ قد يكونون مواظبين على مراقبة البيت!

أجابت حنان بحزم:

ـ لا يهمّ، لا تكترثي بهم.. لا يستحون! أيّ بناء؟

أشارت صفاء برأسها إلى بناءٍ يحتلّ زاوية الشارع القصير ويطلّ على حديقةٍ فسيحةٍ في الجانب الآخر من تقاطع الطرق.

ـ الطابق الثالث.

مسحت حنان الموقع بحرصٍ حتّى بلغتا المدخل.

ـ ما من أحدٍ على ما أظنّ.

لم تجب صفاء. ولجتا المدخل، صعدتا سلّماً عريضاً، توقّفت صفاء في الطابق الثاني قارعةً جرساً.

ـ قلتِ في الثالث؟

ـ صحيح، سنأخذ الولدين من عند الجارة.

فُتِح الباب وهبّت الأصوات والأضواء والروائح... وقفت حنان مشدوهةً؛ صخب الأولاد وروائح المطبخ، صوت التلفاز، هدير الحياة كاملاً مخبّأً في علبةٍ إسمنتيّة. تململ قلبها فأقنعت نفسها، لا يزال في الحياة خيرٌ عميم رغم الفناء. انتبهت لوجهِ أنيسٍ متوهّجٍ، تنسدل ذؤابات شعر رأسه على كتفين غطّاهما ثوبٌ منزليٌّ تعانقت زهرات بنفسجٍ عملاقة على أرضيّة غيمه الناصع. أسرتها البساطة والابتسامة العفويّة المرحّبة.. كأنّها سمعت: أهلاً.. تفضّلوا. وحديثٌ سريعٌ عن الأولاد والصحّة واعتذارٌ عن الإزعاج. ألحّت الجارة، لكنّ صفاء اعتذرت برقّةٍ وهي تقبّل وجنتيها. تمنّت حنان لو أنّ الجارة تنزاح شبراً إلى هذا الجانب أو ذاك لتطلّ على كامل المشهد وتتملّى البهاء العجائبيّ الذي يمور داخله. اندفع طفلان من جانبي الجارة صائحين: ماما.. ماما.. أحاطا بها فانحنت فوقهما مقبّلةً ومداعِبة. ارتعش قلب حنان، ارتعش ثمّ تزلزل راجّاً كيانها من مبتداه إلى منتهاه!

ـ هيّا، قولا للخالة تصبحين على خيرٍ وسلّما على خالة حنان.

قبّلتهما الجارة بابتهاجٍ ولوّحت لحنان:

ـ يجب أن تزورينا.

ـ في مرّةٍ ثانيةٍ إنشاء الله.

خرجت الكلمات بآليّةٍ مكرورةٍ ولم يُخرِجها من سرنمتها إلاّ عناقٌ من الطفلين. ضحكت روحها وحملت الطفل وداعبته فداخلتها السكينة.

ـ تصير رفيقي؟

حدّق الصبيّ في وجهها، لسعته حرارة وجنتيها فأخفى رأسه في كتفها صائحاً:

ـ أي، إذا رضيت ماما!

ضحكوا جميعاً.. ارتقوا الدرجات المتبقّيات على مشهدٍ من الجارة التي

لم تُغلِق بابها إلى أن ابتعدوا عن ناظريها. فتحت صفاء الباب، مدّت يسراها فأضاء الصالّة الصغيرة نورٌ هادئٌ وهتفت جذلى:

ـ هيّا ادخلوا.. ألن تنزل وتريح خالة حنان؟

أجاب الصبي حرداً:

ـ لا، ماما، صارت رفيقتي.

ـ هيّا انزل، هدّيت حيلها!

أجابتها حنان مغتبطة:

ـ اتركيه يرتاح منك قليلاً.

لم تبصر حنان المكان، فقد شُغلت حواسّها بكتلة اللحم الخافق الملتصقة بصدرها وبطنها والتي تعانق ذراعاها رقبتها.

ـ طيّب، طيّب. ولكن اجلسي لترتاحي.

استجابت حنان بوداعة. لم تلحظ وجهتها، فما أرادت لعينيها أن تُبصِرا مرأىً مغايراً لوجه الطفل.. جلست على أوّل أريكةٍ صدمت ساقيها وراحت تداعبه وهو يُطلِق ضحكاته الرنانة.

في المطبخ، طوّقت هلا وسط أمها المشغولة بإعداد الطعام.

ـ ماما، من هي؟

ـ صديقتي يا حبيبتي، أعزّ صديقاتي.

ـ لأيّ شيءٍ ما زارتنا من قبل؟ سألت الطفلة مستغربةً.

لم تدر صفاء كيف تجيب، هل تكذب وتقول إنّها كانت مسافرة؟ لم تستسغ الفكرة.

ـ لأنّها لا تعرف بيتنا.

ازدادت دهشة الطفلة:

- كيف يا ماما؟ أما هي صديقتك؟

تركت صفاء ما يشغل يديها وانحنت على طفلتها معانقة:

- افترقنا منذ زمنٍ بعيدٍ والتقينا أخيراً!

ألحّت الطفلة:

- زعل؟

- لا يا حبيبتي.. كلّ واحدةٍ راحت في سبيلها ومشاغلها و...

- هل تعرف خالو جميل؟

- طبعاً وهي صديقته أيضاً.

- أروح لعندها؟

- ألن تساعديني؟

تردّدت الطفلة ثمّ:

- أحكي معها.. وأعود.

أفلتتها الأمّ، تابعت ركض ابنتها لثوانٍ ثمّ استقامت لإكمال عملها. كم هو غريبٌ ذلك الإنسان! تأتيه لحظاتٌ على غير موعد.. تلغي ذاكرة الوجع من روحه وتهدهده في أرجوحة المسرّات!

استعادت حنان صفاءها وحيويتها، توقّفت خفافيش الليل عن نهش قلبها فاستعاد عافيته، ولدت غمامةٌ ورديّةٌ وتطايرت ندف ثلجٍ زاد من لمعانها بريق نجومٍ انتثرت فوقها، قطيعةٌ حقيقيّةٌ مع لحظات بؤسٍ ولّت منذ حين، وانفكاكٌ مؤقّتٌ عن الهموم والغمّ الذي يطفئ العينين ويُطبِق على الصدر. ليلةٌ أسرويّةٌ حميميّةٌ لا ينغّصها طارئٌ ولا يشوبُها مكروهٌ ولا ينتابها هاجس غدٍ قد يكون مواتياً.. مضت العاصفة وانسابت الروح على خرير جدول.. ما أحلى العمر!

استأذنت حنان بعدما أوصلت الطفلين إلى سريريهما وسلّمتهما مفاتيح أحلامهما!

ـ أين ستمضين في هذا الليل؟ تأخّر الوقت، ستباتين هنا.

ببساطةٍ ومن غير تردّد، قرّرت حنان:

ـ سأبيت عندك.

أحس إبراهيم بعد رحيل فريال بانزياح عبءٍ ثقيلٍ عن كاهله. فتح شبابيكه، أراد تجديد الهواء ليملأ رئتيه بهواءٍ نقيّ. تكرهها؟ ربّما نعم وربّما لا، في الحقيقة أشفق عليها. من يدري إن لم نكن جميعاً ـ كما قالت ـ مثلها؟ أكره الظروف التي انعكست داخلها وتفاعلت على نحوٍ شوّهها بصورةٍ مريعة ولا أستطيع كراهية الجانب الذي لا تزال ترثيه وتندبه في أعماقها بطريقةٍ تخالف المألوف والاعتياديّ! ومع ذلك فهي لا تُحتَمل. حتى العاهرات اللواتي يؤنسن وحشة أيّامي ويدفئن صقيع لياليّ يظهرن ما يدفعك لاحترام شيءٍ ما، مهما بدا ضئيلاً، فيهنّ، أمّا معها، فتحار ولا تتبيّن إن كانت مومساً أم قوّادةً أم كائناً لم يطلَق عليه الاسم ولم يعمّد بعد! تلاحقها فراشةً وحين تمسك بها وتبسط لها راحتك لتتأمّلها عن قربٍ تراها تخلع ثوبها الفاتن وتبدو في عريها مجرّد عنكبةٍ سامّةٍ سوداء تسمّرك رؤيتها وتشوّش قدرتك على التفكير والحركة. أمّا السمّ الذي دسّته أو حقنته ومضت...!

استعاد حديثها، حاول أن يحسن الظنّ بها قدر استطاعته، تيقّن رغم ذلك أنّها تعمّدت ذكر أدهم. ما الذي رمت إليه؟ أتت لتنقل خبر اعتقاله وتذيع الرسالة التي تكمن خلفه؟ تلعب على المكشوف؟ ما الذي ستجنيه جراء ذلك؟ لكن الأكثر خطراً وإجحافاً هو جهلي! كيف لم أعرف؟ كيف رجع وأمضى أسبوعين قبل اقتناصه والكلّ جاهلٌ بذلك؟ أيمكن حدوث ذلك؟ ألم يخبر أحداً؟ ألم يتّصل بأحدٍ سوى بفريال؟ لماذا لم يخبرني من عرف أياً كان؟ منذ متى لم ألتق أحداً من الأصدقاء القدامى... منذ متى؟ شهر، ثلاثة، سنة، خمسة، عقد، قرن، دهر؟! تقطّعت بنا السبل وتناءت. ولكن أن تفقد الاهتمام بصديقك، ألا تطمئنّ عليه، تعرف أحواله، تسأل عن

صحته! فضيلة الصمت والعزلة والانكفاء على الذات وإهمال الآخر.. سيّان إن مات أو استمرّ على قيد الحياة!

تحفّزت حواسه واستوفزته الأعصاب الواخزة التي تلتف حواليه وتحزّ لحمه، توتّرت أصابعه وتجمّعت في نهاياتها الخلاصة المركّزة للتناقضات التي تعصف به وتدفعه للدوار، جاعلةً حياته جانحةً لا تنتمي لبرٍّ ولا تحتمي بيمّ، تجذبها قوىً متعارضة الاتّجاه ومتعادلة الشدّة فترتجّ، تتوقّع انهياراً يبدّدها في الجهات. اتّجه مسيّراً بإرادةٍ غامضةٍ نحو اللوحة المشدودة على صليبها المستطيل، المستندة إلى الحامل الخرافيّ المحتمل عبء كلّ مصلوبٍ يمرّ به، مبقياً صدى صراخه وآثار دمائه وعلامات موته الأخير ونبوءات قيامته التالية! سنواتٌ طويلةٌ وعشرات القتلى.. عشرات المذبوحين عطشاً والمشنوقين جوعاً والمدفونين في رمال الغربة الحارقة المتحرّكة من موضعٍ إلى آخر، مبتلعةً مزيداً من الضحايا والجلادين!

انتزع الكفن اللحظيّ، تأمّله لثوانٍ كأنّه يشتمّ ريح الموت في ثناياه ثمّ رماه فوق فراشه المبعثر حيث كان ينام ويحلم بما لا يحلم به، ويشتهي ما لا يشتهيه آن اليقظة! هنا طرح ثمل ليله السابق ويقظة غده الآمل ومات الميتة التي كان عليه أن يحياها قبل ألف عام... بصق على الفراش الرمس وتمنّى أن يصلّي...

اتّجه إلى مطبخه الخالي إلاّ من ماء حياته معبأً في زجاجاتٍ مختلفة الأشكال متباينة الأحجام والألوان! استلّ زجاجة عرق، فتح غطاءها المعدنيّ بأسنانه كمشرّدي الشوارع وعتّالة الأرصفة وماسحي أحذية الليل ومستبدلي سقط المتاع بأمتعةٍ بخسة الثمن والقيمة! جرع ما ملأ جوفه وهو يؤنّب نفسه؛ على لحم بطنك أيّها الحمار! ما كاد يكمل جملته حتى اشتعلت معدته وانطلق اللهب مخترقاً أنفه وعينيه ونهايات بداية يومه المنتزع من تقويمه قبل انقضاء ساعته.

عاد إلى لوحته.. تأمّلها عن بعد، أدار شريطاً لموسيقى شياطين الجحيم؛

كلّ الصخب والضجيج والضوضاء اللا متمايزة داخلتها ولفّتها من مبتداها حتى الختام، موجاتٌ هائجةٌ متلاحقةٌ تعلو وتهدر ثمّ تخمد، من صراخ يمشّط بسكاكينه سطح العين وخطوط الطول والعرض التي تعيّن مواقع تضاريس الجسد وانتماءاته المكانيّة والزمانيّة وجملة اتّصالاته الوسيطة. جرع وجرع دون النظر للزجاجة التي تناقصت سويّة سائلها الشفّاف شيئاً فشيئاً... أقعى على مؤخّرته وظلّت مقلتاه مسمّرتين على الخطوط البنفسجيّة الغامضة المحاصرة ببياضٍ جارف.. راح يستجلي تهيؤاتها، فضاءات نموّها وتلاحماتها القادمة، يلاحق تفاعلات تشكّلاتها وأخلاطها التي تتكاثف على هيئاتٍ مختلفة... لم ينتبه إلى التي وقفت مبهورةً حافيةً تتّكئ على جانب الباب نصف المفتوح مندغمةً مع الخشب الرماديّ متداخلةً معه كأنّها ضلعٌ نافرٌ نحته مجنونٌ على نحوٍ يلغي فيه نفع الباب؛ كأنّما رسم باباً على جدارٍ وحاول فتحه وولوجه لشدّة إتقان رسمه. ربّما كانت تتساءل عن الغضب الإلهيّ الذي أحاق بها فأرسلها إلى جحيمٍ لم تحلم به ولم يصوّره لها أحد، لا في اليقظة ولا في المنام.

خالت أنّ العناية الإلهيّة هيّأت لها مسكناً لروحها الضائعة مذ فرض عليها الهبوط من عدنها السماويّ إلى أرضها الجحيميّة.. الحكاية ذاتها؛ وضع متفجّراتٍ قاصمةٍ في مكمنين، البيت الذي نمت الروح في جوانبه فعلقته وصارت جزءاً منه وهجرته قسراً، والبدن الذي تهاجره الروح فراراً من خرابٍ أحاق به فتسحبه معها خارج المكان الذي كان جزءاً منه! خدعت إذن... أوحى لها الشيطان بذلك دون ريبٍ كيما تتخلّى بإرادتها عن نزوعها الاحتراسيّ وتستسلم لقدرٍ عني بتصويره فاستحال داخل عينيها رحمةً تغمّدتها بعد طول لعنةٍ لاحقتها ثم أطلقتها من إسارها. أيّة ارتباطاتٍ قامت بتفكيك ارتباطاتها بعوالمها التي ألفتها وكانت صهارة روحها؟ ما الذي تهدّم أولاً فأعلن القطيعة البدئيّة وأطلق إثرها تفاعلات التدمير المتبادل حتى نهاياتٍ أوصلتها إلى تسوّل أسرّة النوم في أخريات الليالي وبدّلت عوالمها وصبغتها بصبغة محتلّيها الجدد؟

أحدثت تلك التفاعلات باتجاهاتٍ معاكسة؟ وإن حدثت، فأيّة وسائط وأيّة شروطٍ تقلب ذلك التفاعل فتعكسه؟ تلك هي المعضلة الحقيقيّة! وهي ماتحتاج فعلاً لحلّ.. حلٌ من نوعٍ خاصّ، قبل أن يكون استقراءً يستدعي تعميماً، شيءٍ من معاينة الجزء قبل استكناه الكلّ، شكلٍ من أشكال قلب أدوات التفكير واستبدال وسائله... احتجاج ضدّ عادة الرؤية من منزلة اليقين ومقياس العقيدة التي لا يأتيها الباطل من أمامٍ ولا من خلفٍ ولا بين بين! تصدٌّ لحقائق بدت ثابتةً زمناً، دهراً.. حتى خال المرء أنّها قوانين تنظم الحياة وعلاقات الكائن بشروط عيشه والطبيعة التي تتجذّر فيه وتنفصل عنه في الآن نفسه. تخلّت عيناه عن اللوحة.. لم يتبيّن سوى الجدران ولم يدهش لاختفاء النوافذ منها، لم يسعَ لتغيير أثر الانطباع أو تصحيحه ولا يريد لشعوره أن يغريه بأنّها تؤويه أو يرغمه على تشخيصها على غير الصورة التي يراها بعين القلب. لتذهب عيناي إلى الجحيم! ما أراه هو الحقيقة، وعليّ مواصلة النظر من الداخل، إذ حالما أخرج ستعميني الخديعة من جديد فأرى بمنظارٍ يريدون لي أن أتطلّع منه، أو منظارٍ يحسب بحساسيّةٍ مفرطةٍ موازنات الربح والخسارة المتعلّقة باستمرار العيش! جرع الجرعة الأخيرة وعيناه تمسحان الجدران وتنتزعان قشورها؛ سوداء عارية، من حجارةٍ فجّةٍ غير مصقولةٍ أو مطليّةٍ تشفّ في بعض المواضع عن ضلوعٍ معدنيّةٍ صدئة، تعشعش في أجوافها أنواعٌ غريبةٌ من كائناتٍ تشكّلت في سلالم تطوّرٍ خاصّةٍ غير معروفةٍ في معادلات تطوّر الأنواع، هياكل من هوام كائناتٍ موصولةٍ بشكلٍ تعسّفيٍّ بأطراف زواحف خرافيّة الرؤوس لحيواناتٍ ما قبل تاريخيّةٍ وأذيال قوارض تنتهي بإبرٍ سامّةٍ لعقارب عملاقة.. تشكيلاتٌ وهيئاتٌ لا تخطر بخيال عالم ـ مهما جمح خياله واشتطّ ـ عاش عمره كله في المخابر وأمضاه في متاحف التاريخ الطبيعي ثم أصابه الهلع يوماً حين رأى الحيوانات جميعاً تهاجمه لأنّه يريد استكناه وقنونة علاقات القربى ودرجات الاتّصال الوراثيّ في ما بينها فجنّ جنونه ومضى راكضاً يتلفّت خلفه فيراها تلاحقه فاتحةً أشداقها عن

أنيابها المسنونة اللامعة، دافعةً مخالبها وأدوات قتالها، مطلقةً نحوه سمومها وأبخرة غازاتها الخانقة وفقاعاتٍ تتفجّر عن سوائل تحيل نهاره ليلاً عاتماً فيزداد رعبه وهو يحاول تنبيه الناس الناظرين إليه بدهشةٍ وشفقة أن يتعدوا عن دربها كي لا تفترسهم أو تطأهم بأخفافها وبطونها الزاحفة الضخمة أو تحطِّم عظامهم بهياكلها البارزة خارج جلودها... تجلّل تلك الجدران طبقاتٌ كثيفةٌ من نسيج عنكبوتٍ عاش دهراً يغزل ويغزل شباكه منتظراً فريسةً تقع داخلها عبثاً، عبثاً. كيف ذلك؟

ليس ثمّة أيّة هياكل ولا رم ولا بقايا عالقة بها! عصرٌ كاملٌ وهو يعمل بدأبٍ لا يعيقه جوعٌ ولا عطشٌ ولا مرور زمن، مواصلاً البحث والكمون انتظار فرصته وفريسته... ولكن ألستَ الفريسة؟ أوليست كلّ تلك الشباك أحابيل التفّت حولك وما عدتَ تبصرها لرقّة وشفافية خيوط الحرير التي تشكّل لحمتها وسداها؟ اضحك الآن على نفسك التي تعلم علم اليقين أنّها الضحية، وخمّن من يكون المضحي! صعب عليه في تلك اللحظة الرجوع لحالته الطبيعية التي يلحظ من خلالها الناس والأحجار، كانت شياطينه تلاحقه بدل العالم، ملتاثاً بفضول المعرفة واستشراف القادم، وتحكم عليه برهاب الاضطهاد ورعب الأماكن المفتوحة وشهوة اغتصاب الأموات! وكان عليه أن يهرب منها، فليست له قدرة مواجهتها في تلك اللحظة، لا عياناً ولا بواسطة أسلحته؛ فراشيه وألوانه وساحة قتاله الناصعة الوحيدة. كان عليه أن يغادر قبل أن تنال منه أو تعيده لأحلام يقظةٍ تجعله يشهد وقائع يومه على غير حقيقتها. رمى الزجاجة، فتناثرت شظايا حطامها فوق الأرض ولاحقها.. فوقعت عيناه عليها.

لمح تمثالها وحسب، كانت الحقيقيّ الوحيد في كلّ الزيف الذي يتنفّسه ويأكله ويشربه ويمارس شهوات الجسد خلاله يومياً. أراد إخراجها معه، خاف عليها هبوبات شياطينه ورغباتها بالاقتصاص منها ثأراً أو انتقاماً من هروبه، لكنّه رأى في صحّتها وثباتها قدرة مواجهةٍ افتقدها. تيقّن أنّهم لن

يقربوها رغم ظاهر هشاشتها، إذ سرعان ما سيدركون أنّ خلفها تتمترس صلابة التشبث بالأحلام! ألأنّها غضةٌ ويانعةٌ ولم يعضّها العمر بنابه ولم ينشب مخالبه في مقاتلها ويتركها تنزف ببطءٍ؟ تقدّم منها واقفاً بين يديها بخشوعٍ وتوسّل إليها ألاّ تمضي وأن تنتظر رجوعه، فهي المخوّلة بالدفاع عن بقائه والمؤهّلة لحراسة المكان في غيبته كيلا يحتلّه مطاردوه وينعموا برحابته بعد رميه في الشوارع!

- ابقي ودافعي عنه، من أجلي أولاً ومن أجلك ثانياً...

لم ينتظر موافقتها، خشي أن تقول ما يفقده الأمل بالعودة، أراد إبقاء أثر وجودها كيما يعود حين ينجلي ضباب منع الرؤية عن روحه. تلمّس دربه في العتمة وسأل: كيف سأخرج وما من بابٍ أو فوهة؟ تذكّر، يوماً ما رسم باباً على جدارٍ يواجه صعود الشمس مائلاً فأبقت ظلالها عليه، وعليه أن يتعرّف مكانه ويزيح عنه سجف العنكبوت وسخام الأيام وكلوحها، ثمّ يعبره من غير فتحة.. ثمة ما ينبئه أنّه لن يصطدم، لن يشجّ رأسه أو يسحج أصابعه أو يحطم أضلاعه... خرج، انتقل من الظلّ إلى بقع شمسٍ مسوّرةٍ بألف سياج، توقّف وعكس عينيه في الضوء المنعكس على خلاياها المشيميّة... تلفّت خلفه... كانوا هناك، أشباحه التي انقسمت، أدرك أنّ بعض من بقوا سيعملون على تغيير ملامح المكان كيلا يعرفه فتمنّى أن تمنعهم نوال من فعل ذلك. أمّا الآخرون فهم وراءه، يقفون على مبعدة لا يجرءون اقتراباً، إذ تحيط به شمسٌ حارقةٌ يخشون أن تبدّدهم وتعيدهم سيرتهم الأولى غباراً... وهباءً.

حدّد مفازة الشمس وسار وسطها، فلاحقوه على مبعدةٍ بمحاذاة الظلال التي تلقيها الأبنية وبقايا الأشجار، والبشر المسرعون لا يلتفتون إليه ولا يأبهون بعجزه ولا برعبه. هل قادته الشمس كنجمة الصباح أم أنّهم سعوا لدفعه حيث يشاءون فيحسب أنّه ضلّلهم لأنّه تبع خطاها؟ أحسّ أنّه خُدِع مرّةً أخرى وأنّهم يوجّهون خطوه عن بعد، حاول شقّ دربٍ مخالفةٍ تبعده عمّا خشي أنّه هاويةٌ ستبتلعه وتخفيه قبل أن يخبر أحداً أو يستنجد بأحد.

«الأصدقاء، ولا شيء سوى الأدغال» تذكّر بيتاً تفوح منه رائحة البنّ وغابات الأناناس والموز والأنهار الوحشيّة والبشر البدائيّين في قارة القتل المجاني حيث يمنح البشر سمة الشيء ولا يكونون سواه. وكيلا يضيعوا ويفنوا ويعاودوا البحث عن بعضهم، يلجأون لأنفسهم كيلا تمتصّهم الأدغال!

حنان... الأقرب إلى القلب، مؤنسة الروح ودافعة الشدّة... يخرج مشوهو رامبرانت ومسوخ غويا وضحاياه من مشهدٍ ليليٍّ مضاءٍ بالمشاعل.. تنفتح السهول على عذارى رفائيل وأطفال دوغا وملائكة كوريغيو مشيرةً ببنفسج الحقول المغزول من أفقٍ امتزجت فيه الزرقة بالخضرة فصار حدّاً سحرياً كلما دنت منه نأى، مضى قدماً... فقدت الشوارع ملامحها الخاصّة، تشابهت مثلما ضاعت ملامح الذين يذرعونها آلاف المرات كلّ يوم، تجلّت المعادلة من جديد؛ من يعكس نفسه على من؟ الأمكنة التي تتشوّه حتى تفقد تمايزها وتضغط حتى تعيد إنتاج تشوّهها في ملامح وأرواح قاطنيها، أم الناس الذين تاهت أرواحهم واغتربوا حتّى عن جحيمهم فشاهت قسماتهم وتماثلت وجوههم، ثم أعملوا فيها خرابهم ونشروه على سطوحها وأوغلوا حتى أدخلوا النخر إلى أساساتها التي تنهض متحدّيةً جهودهم لربط مصيرها بمصيرهم؟ لكنه رغم التيه لم يضلّ دربه، باءت كل توقّعاته وتقديراته بالفشل، فقد كان محمولاً على ريحٍ تنشد ضمّ وشائج قلبه ولمّ شتات روحه...

حين قرع باب القبو، توجّس من ولوج قبرٍ مثل قبره، تساءل منتظراً جواباً يوقف لهاثه؛ منذ متى لم أقرعه؟ كأنّ أزمنةً فصلته عن آخر لقاءٍ مع المرأة المتوحّدة التي تغلق بابها بعشرة أقفالٍ كيلا يقتحم وحدتها ما يلوّث ويفسد نقيّ فضائها ويعبث بالعزلة الطوعيّة التي أملاها انتشار العدوى!

فُتح الباب دون استفسارٍ عن الطارق، المرأة نفسها تنظر هادئةً كأنّها تعرف قاصدها، وطيف ابتسامةٍ تتّسع آن تتيقّن من حدسها وتستوثق من زائرها. كأنّها لم تولد بعد، كأنّ الزمن أجرى خيوله في مضامير أخرى لاتقاطع مضمارها ولا تحاكيه، كأنّ الوقت من عنبٍ لديها أو كأنّ له عمر

السفرجل... كاهنةٌ من عصرٍ سحيقٍ موغلٍ حتى بدايات الخليقة.. لا تهرم ولا تُهزَم، تحصّن روحها بضمور بدنها، مطواعةٌ للتشكيل وإعادة التشكيل وترمّم بازلتها الخاص من مصاهر براكينٍ خفيّةٍ لا تفنى أتوناتها ولا تستنفذ مصادر طاقات حممها المتجدّدة. كيف لم تتغيّر؟ تساءل قبل أن يحيّيها، أليس عجباً أن تبقى لملامحها خصوصيتها؟ وقفت مكان الباب لأنّ ولوج عالمها لا يتمّ إلا عبر بوابة الجسد فلا تأذن بالدخول إلاّ لمن يعرف أنّ في تمايزاته تكمن خصوصيات الروح.. ليس عتماً وليس نوراً، رطوبة الانقلاب لحظة تداخل الظلّ والنور. حيادٌ يزيح توق الروح جانباً ويتركها تنتظر لتتعلم أوان الحلم وبرهة اليقظة، يشعرها بغربتها عن ذاتها فتنزوي، تنتظر مرور ذرور الرماد المعدنيّ لتظهر لها اللحظة الآتية فتتقمصها على مقياس الشهوة واندفاع الجنون! كانت حاجزاً يفصل بينه وبينها وعليه أن يتخطّاه ويعرف إلى أيّ تخومٍ ستنحاز روحه ليسأل الحارس الزمانيّ للمكان، الذي استبدل مملكة الروح بما يمنح الطمأنينة وأمان استعادتها، إن كان يأذن له بالعبور...

خطا نحوها غاضّاً طرفه، ملقياً كلمة السرّ منكسراً، معايناً آثار احتكاكه المتعب. وصل إليها منهكاً فلملمت حطامه دون أن تصافحه... كان قد نسي مدّ ساعده ليودع بعضاً منه في راحتها مثلما نسي لسانه الذي اجتثّه أشباحٌ لم ينل منه سواها! أحسّ الجذع الأبنوسيّ المغطّى بأوراقه الخضراء اللامعة باقتدار الرسّام المتوزّع بين الماء والغيم، المتبدّد في الفراغ الفاصل بين المرء والمرء مانعاً الدنوّ والالتصاق. وفي الهاجرة التي أذهلت عقلَه شدّةُ حرّها فاءت عليه بظلالها، أحاطت عضديه بأملوديها اللدنين ودفعته بتؤدةٍ إلى جوف واحتها السرية. سارعت لإغلاق الباب وإحكام رتاجات أقفاله العشرة كيلا يتسرّب بعضٌ ممّا يفترَض بقاؤه خارج الحنين المعشّش في زواياه وأطرافه التي اتكأ بعضها على بعض.. قادته في دروب حديقتها الحصويّة وأجلسته تحت خميلةٍ فسكن وارتاح إليها وشرع موران روحه بالهمود.

جلست مواجِهةً له بينهما خوانٌ عزل ساقيها عن ساقيه، توسّطته كأس ماءٍ فصل بين فنجانيهما. ابتسمت فضمّخ عطرُها الفضاء، أحسّت رئتاه به هواءً نقياً أعاد النشاط لفصوص رئتيه الضامرة. سألت بحنوّ أمٍّ ورقّة حبيبة:

ـ كيف تذكّرت؟ مضى زمنٌ طويل!

على تموّجات صوتها استفاق، دارت عيناه الزرقاوان في محجريهما فمسحتا المكان بإتقان محترفٍ حاذق.

كان يخشى الجدران ذاتها لكنّه لم يبصرها، فما اهتمّ بتفاصيل الحيّز أو هيئة أثاثه؛ كان يشبه مصلى، محراباً في كهفٍ غائرٍ يمتاز بحسن الإضاءة والهواء المنعش وخريرِ ماءٍ يخترق الصخور في أنفاقٍ عميقةٍ ليست قصيّة. سأل أين شاهد ما ماثل ذلك أو أين أحسّ بما شابهه! لم تسعفه الذاكرة بما يوحي أنّ شيئاً محاكياً عبَر تخومها المترامية يوماً ما.... لكنّه واثق، ربّما أخفته وربما أحالته لسيّالات الأحلام.

ـ أين سرحت يا إبراهيم؟

تريد مقاربته من غير أن تنفّره... لمس الخطاب الحميميّ الساحر الذي أحاله شخصاً آخر فبدّده والتفت إليها:

ـ هنا، معك يا حنان. تساءلتُ وحسب لماذا وكيف أهملتُ الحضور زمناً؟ كيف استطعتُ الاختباء، ومن أملى عليّ بُعادي ونفاني؟ هل أجرؤ.. أسأل.. كيف حالك؟، لم تتغيّري! كنت أسأل نفسي لوهلةٍ خلت كيف استطعتِ ألاّ تكوني وألا تفعلي ما كنّاه وما فعلناه؟

ابتسمت حانيةً وطفحت الرقّة من خلاياها فأغرقته. خضع لسيطرتها فخسر قسوة دفاعاته، أشعرته أنّه بغير حاجةٍ إليها في مكانه الحالي فاندفعت طفولته لتحتلّ جميع المواقع والخطوط التي أخلتها أحداثٌ أزاحتها يوماً وراء يومٍ وسنةً وراء سنةٍ وكادت تنفي وجودها. لكنّ سحر حنان أحياها من جديد فأغفت على هدهدة بوحها.

ـ لست أدري! ربّما استطعتُ بطريقةٍ ما أن أحيد عن التيّار الجارف، أن أتمترس وراء أساساتٍ صلبة، لكنّه غمرني مثلما غمر الجميع. ربّما نجحتُ في إعادة تغذية أحلامي ومنعت عنها انكسارات الحرمان والإحباط، وربما لايعدو ذلك وهماً. أنت تعرف، كلٌّ يفسّر الحقائق الناتئة التي تخز الأعين بما يجعل ألمها أقلّ ووجعها أيسر تقبّلاً. أخبرني بالذي فعلته طوال غيبتك.

صمتت قليلاً، ثم استدركت وهي تحاول أن تستخلص من عينيه مالايجرؤ لسانه على قوله:

ـ أترى حضورك هذا؟ هو جزءٌ من تلك الأوهام أو الأحلام، كلّما اهترأت وتفكّكت عدت لترميمها وإعادة حياكتها، نسجتُها حول نفسي لتقيني آثار الحتّ والتعرية. في هذا لم أكن مخطئة! ألا ترى؟

تأمّلها عاجزاً عن مجاراتها، خال إيهاماتها تولّد عينين جديدتين لها وظلّ واثقاً أنّ المسافة التي تفصل بين فكرها وفعلها تعادل نبضتين متلاحقتين. لم يتغيّر يقينه يوماً، قالها جهاراً: سننهار جميعاً وتبقى حنان صامدةً، ربّما بغير فعل، لكنّها لن تملّ الانتظار.

وهاهي بعد موت الموتى تحاول مواساته ومنحه العزاء وهي أحقّ بهما، لكنّها تتجنّب السهل واليسير، تندفع بشهوةٍ نازفةٍ نحو الصعب والشاقّ! أما كان في تبنّيها دور الأمّ العظمى بأوسع معانيه إثباتاً كافياً لكلّ ذلك؟ أدخلها عينيه.. في ثوبها القطنيّ الأخضر الفضفاض يلفّ تربتها المتراصّة والمكتنزة قليلاً، ينسدل على قامتها فيضفي عليها حجماً أكبر من حجمها الطبيعيّ، كأنّما لمح تكوّراً في بطنها؛ أمٌّ حقيقيّةٌ وليست دعيّة.. تسيل ذراعاها بانسيابٍ وتنسكبان في حجرها وقد افترقت الأصابع باسترخاءٍ رضيّ.

سأل وهو يستعيد صوته المنسيّ في الزواريب والحارات المهملة وغير المطروقة:

ـ هل في قولك لومٌ وعتاب؟

فأجابت مبدّدةً لبساً غير متوقّع:

ـ لا، أبداً، أوضح وحسب، أسمّي ما أعتمد عليه في بقائي ولا أستطيع عنه فكاكاً. حالةٌ من حالاتٍ عديدة أنتظرها ساعةً إثر ساعة! كلّما تحقّقت إحداها ازددت تشبّثاً بكلّ الحالات مهما طال الزمن ومهما بدت شاسعة البون. لمَ فكّرتَ على ذلك النحو؟

حكت هادئةً مطمئنةً كأنّ أحداً لم يقتحم وحدتها ولم ينكأ جروحاً بدت ملتئمة الظاهر، ولم يعكّر نقاء فضائها الناصع!

ظلّ يسأل عمّا يخفيه سكونها الغامر الذي يحيط بها وتنطق به شفتاها من غير أن يشوب ابتسامتها عارضٌ أو يعكّر صفاءها.. والى استشفاف سماء ليل عينيها المشعّ بأقمارٍ زرقاء وأجاب:

ـ لا أدري، ربّما إحساسٌ ثقيلٌ بذنبٍ يوحي ويفسّر أيّة ملاحظةٍ ويبصرها إصبعَ اتّهامٍ يسأل عن ماضٍ خرج من طور المحاسبة والاقتصاص. بمعزلٍ عن أيّ شيءٍ آخر، أهملتُكِ زمناً طويلاً. ربما كان الأمر عاديّاً، محض صدفةٍ فرضتها قسوة الحياة وشظف العمر والتفاف كلّ واحدٍ على أناه ليتوهّم استقلالها وقدرتها على تحمّل مسؤولية عيشه وتطوّره رغم كلّ ما يؤكّد استحالة ذلك. لو تزامن ذلك مع فترة توقيفك لهان الأمر، حتى عدم زيارتك هناك، عدم الاطمئنان عليك والسؤال عن أحوالك يمكن أن يسوّغ كيلا أقول يعلّل بطريقةٍ ما، لن تكون مقنعةً ولو أنّها جديرةٌ بتخفيف حكم الإدانة. أمّا بعد خروجك، فليس ثمّة ما يدفع تهمة الجحود والنكران إلاّ الخوف والجبن، وهما الإدانة بعينها. خطرتِ على بالي كثيراً، بيني وبين نفسي وعلى مشهدٍ من حاضرين يذكرونك أقول: آن أوان رؤيتها.. ثمّ يأتي ما يلهي ويعيق ويبعد في نهاية المطاف. أسوّغ، أليس كذلك؟

على السؤال الأخير لم تجب حنان إلا باتّساع ابتسامتها تفهّماً أو تغاضياً أو لامبالاة، أمّا عن شقّ الكلام الأوّل فلم تصمت وحكت:

ـ أنت تعلم، لا تستطيع أن تعرض على أيّ امرئٍ ما يعتبره الناس واجباً! المسألة هنا تعتمد على معيارٍ ذاتيٍّ محضٍ ينتج عن درجة الاهتمام ووعي الالتزام الحقيقيّ والضروريّ بأساسيّات الحياة. لا أتقصّد الإساءة، أقرّر وحسب أنّ الشروط القاسية التي أوجزتُها لا يمكن أن تلغي قناعات الإنسان أو تستبدلها بنقائضها، هذا لا يعني لوماً بقدر ما هو توضيحٌ لازمٌ وضروريّ. وكيلا يحدث سوء فهم، ودون غبنٍ ولا ضغينة، أذكّرك بأنّنا اتّفقنا منذ زمنٍ بعيدٍ على استحالة ابتناء علاقةٍ عاطفيّة بيننا، كي تتأكّد أنّني أتكلّم من منطقٍ لا يرتبط بفهمٍ شخصيٍّ بقدر ما يتعلّق بحالةٍ ذات تاريخٍ خاصّ.

كان واثقاً أنّها غير مجاملة، ولا تسمح لنفسها بخلط الأمور عشوائيّاً، ولا تسكت عن حقٍّ تعرّض لاغتصابٍ أو جرفه الباطل. ومع ذلك فهي تجد عليه.. لو أنّه استطاع أن يبرأ منها كما برئت منه، أو كما ادّعت على الأقل، لتفهّم موقفها ولما نطقت شفتاه بالسؤال:

ـ لمَ جئتك أخيراً بحسب ظنك؟

أدركت أنّها لامست وتراً مرهفاً فأطلق أنينه... كان عليها تركه ساكناً فلا تحرّك مواجعه، لكنّها لا تستطيع مخالفة عاداتها ولا مخادعة نفسها، عليها أن تقول ما تراه صحيحاً وتصوّب ما هو خاطئ. لا تستطيع تغيير جلدها ولا اختلاق أقنعةٍ تخفي وجهها، ارتضت ذلك رغم الثمن الذي دفعته؛ قطيعة الناس. فكيف تستبدله الآن؟ ولماذا؟ إكراماً له؟ مراعاةً لشعوره؟ وأنا؟ ألم أتألّم بما فيه الكفاية؟ ألم أتقلّب على جمر وحدتي وأتجلّد في صقيع وحشتي؟ ألم أدفع غالياً كيلا أرتضي علاقةً عابرةً تبتني عمرها على هجمات حمّى الشهوة وتأجّجات الجسد؟ ألستُ أواصل دفع الثمن بحثاً عن علاقةٍ تكسر القيد وصولاً لتكافؤٍ متبادلٍ مبنيٍّ على حرّية الاختيار والقبول بشروط انعقاده كيلا تولّد قيوداً جديدةً وسجوناً ومقابر ومنافٍ؟ لماذا يستكثر على نفسه ما لم استكثره؟ مظهرٌ آخر من مظاهر الأنانيّة؟ أخذٌ دون مقابلٍ ضنّاً

بالعطاء؟ اشتطّت في تحيّزها، فليس لها أن تحاكم الظروف عبر محاكمته وتجيّر حكمها إدانةً له. أفلتت الكلمات من فيها رغماً عنها:

- ليس من أجل أن تكرّر عرضك! أنا واثقةٌ من ذلك ولست بحاجةٍ لبرهانك!

رمقها مستفسراً، لم يدرك مرماها، رغم افتراضها بحسب لهجتها أنّ وضوحها لا يترك مجالاً للبسٍ أو لافتراضٍ مغلّفٍ بالغموض! سأل مذهولاً:

- أيّ عرضٍ تقصدين؟

ارتعشت ابتسامتها جزءاً من ثانيةٍ ثم عادت مثلما كانت. أيكون ناسياً، أم أنّه يستغفلني؟ لكنّ دهشته تبدو صادقةً. كيف سمحتُ لنفسي بزلّةٍ عمّا افترضت نسيانه؟ حاولت التراجع حرصاً على عدم تجريحه:

- لا، ليس مهمّاً طالما نسيت، افترضت أنّك عدتَ لتؤكّد أنّ المرء لايتمكّن وحيداً من مواجهة عالمٍ متفوّقٍ وشرس، اتفق رغم فرقته على الاتحاد بغية إركاعه وتمريغ أنفه في الوحول حتى يستسلم ويصير بعضاً منه فلا يكون نشازاً يلفت الأنظار فيتّسع ويكبر.

أصغى شارداً ولم يتخلّ عن سؤاله:

- أرجوكِ، ذكّريني بما نسيته.

شابكت أصابعها واعتصرت كفّيها. لا مفرّ ولن أكذب:

- حسنٌ، مرّةً، منذ زمنٍ بعيد، وقد كنتُ في ضائقةٍ ماليّةٍ شديدةٍ وأنا أتابع دراستي وأعيل شقيقتيّ ووالدتي بعد وفاة أبي مباشرةً سألتك أن تبحث لي عن عملٍ و...

امتقع وجهه، ردّت الصاع صاعين، يذكر ذلك تماماً؛ كيف التجأت إليه كصديقٍ ربّما أبصرته مشروع محبٍّ آتٍ لكنّه خذلها، تطلّع من الثقب الضيّق لمصلحته الخاصّة ولم يشاهد شيئاً خارجه، عرض عليها ببساطة النذالة

أن تعمل موديلاً عارياً له ولزملائه بأجرٍ معقول يتناسب وساعات العرض، أي العمل!

ـ فوجئت يومها.. لم أتوقعه من غيرك، فكيف منك؟ ما وجدت في نفسي مبتذلاً يستحق أن يكون مباحاً مهاناً على تلك الصورة، فشكرتك معتذرةً. صحيحٌ أنّك اعتذرت فيما بعد وتأكدت أنا أنّها ما كانت سوى زلّة طيشٍ ورعونة أو فتنة بدايات الشباب، أو حتى محاولةً خرقاء لمساعدتي غير محسوبة النتائج والتفاعلات. لقد نسيت ذلك حقاً وقد قلت ما قلت لأؤكّد نسياني!

لكنّها عقدت لسانه. لقد أدرك يومها أو بعد أيام زلّته وما وجد تراجعاً إلا في الاعتذار وعرض عملٍ حقيقيٍّ لا ينطوي على أيّة مهانة. لكنّها أبت من غير إغفال تقديرها وشكرها، أحسّت يومها بوجود خطأٍ في طلب عونه وأنّ عليها الاكتفاء بفهمه وتصحيحه. اليوم هو الذي جاء ملتجئاً، لم تخطر بباله تلك الحادثة، وحين ذُكرت سأل نفسه كيف سيكون ردّ فعلها تجاه لجوئه إليها!

يدرك في أعماقه غباء سؤاله، كانت أكبر من ذلك كلّه... وبرغم حرصها أو فرط حساسيّتها أو بسببٍ منهما أفلت لسانها زلّةً مضمّخةً بدم جرحٍ واصل نزفه. لن يؤثّر ذلك على استقباله وتلبية حاجاته أيّاً كانت وأراد أن يطمئنّ:

ـ لن تقابليني بالمثل؟

غاضت ابتسامتها.. ثمّ استعادتها، أرخت جفنيها الثقيلين فبدت في لحظة وجدٍ وتوحّدٍ بالخليقة مياهٌ عذبةٌ على سفوح وجهها.. أشجارٌ ظليلةٌ نمت قرب عينيها ونهضت جبال ثلجٍ فوق جبهتها واتّخذت طيورٌ مهاجرةٌ مخابئها في انحناءات شفتيها، رجعت من حلم تواصلاتها ولقاح أزاهيرها وارتجاف الهواء على مرأىً من ارتعاشتها ثمّ توهّجت مشاعل ليلها:

ـ لست أنت من يظن فيّ ذلك، لكنّك تخشى نفسك. أوكنت قدمتَ لو لم تكن واثقاً من ثباتي؟ لو لم تكن، لواصلتَ هروبك منّي مثلما تفعل مع نفسك!

كانت تطالع في عينيه، فأغضى خشية افتضاحه.. ألا يظلمها؟ لم تحتج، لم يعتصر ألم الغبن صوتها.. رفقت به رغم طعنه، أراد عجم عودها قبل أن يختبرها، لكنّها لم تمهله:

ـ لقد تفككنا ورضخنا حفاظاً على ما توهمنا حيازته، وكلّما أوغلنا كلّما نأينا عن أنفسنا قبل نأينا عن بعضنا. لم تأتِ لمصالحتي، إن كان ثمّة مصالحة، أتيت لمصالحة نفسك!

داخل الإرهاق صوتها.. كأنّما تخاطب نفسها وتجلدها بسياطها قبل أن تفعل به ذلك. أمّا هو، فقد باتت انهياراته وشيكةً تحتفر ما تستجمع فيه ركامها. لم يكن واثقاً إن كان عليه أن يتحدّث أو ينصت لولا تذكّره:

. ـ حنان، أدهم هنا منذ أسبوعين! هل عرفت؟

صمتت ولم يفاجئها السؤال، حدست أنّ ما يوقف التهاوي صدمةً تأتي على غير موعدٍ فيضطرّ المرء للسؤال، أين أنا؟ يحاول في أسوأ الافتراضات أن يعلم كم من الزمن يفصله عن لحظة التحطّم فوق الصخور الغائرة بعيداً أو يحاول التمسّك بأيّ نافر؛ صخرةٍ، غصنٍ أو خيط عنكبوت ليفكّر في إمكانية التوقّف ومحاولة الصعود.

ـ نعم، أعلم.

سأل متلهّفاً، ناسياً سؤاله الأساسي:

ـ التقاك؟

انكسرت معه:

ـ لم يحدث ذلك.

فعاد لسؤاله الموجع:

ـ لماذا لم يخبرني أحدكم إذن؟ ألا أستحقّ؟ ألا يحقّ لي معرفة عودة صديقٍ قديمٍ ورؤيته؟ألا أؤتمن؟ أما عدتُ أهلاً للثقة؟ أأكون قد بعتُ نفسي من غير أنْ أدري؟ أم أنّك رأيتِ في عبثي وفوضى حياتي ولامبالاتي والانتحار البطيء الذي أواصله كمحاولةٍ أخيرة للدفاع عن آخر معاقلي المدمرة مادّةً خطرةً يحسن الابتعاد عنها؟ يمنعون روحي من الانطلاق وشقّ فضاءاتها والالتحام بها، وفوق ذلك يقومون بسدّ تلك الفضاءات بغابات إسمنتهم وحديدهم ليخنقوا روحي كي أرضخ في خاتمة المطاف. لم أحتمل الأولى ولم أرتض الثانية لنفسي فتهتُ، همّشت نفسي بنفسي وتركت أحلامي لتفقس فراخاً مشوّهةً تناسلت من روحٍ علقت بين حجري رحى، فلا هي تخرج مسحوقةً ولا تنبذ مع الشوائب ففقدت معالمها. أعلم ذلك كلّه، ربما تحاشيت التفكير خوف مواجهة حقائق تدفع للإقرار بعدم صلاحيتي مواصلة حياةٍ على هذا النحو المزري، لكنّ النزف البطيء تحوّل لفعلٍ فجائعيٍّ فاضح على الملأ... أحسّه وأعيشه وأسفحه كلّ يوم. لم أحتقر نفسي! صحيحٌ أنا أبدّدها، لكنّي لم أبعها أبداً بأيّ ثمن!

رقّت له دون أن تتخلّى عن حيادٍ يقتضيه إطلاق الأحكام. انتظرت قليلاً علّه يطلق آخر شحناته، ثمّ قالت:

ـ لم يقل أحدٌ ذلك! وأنت لا تفعل إلاّ أن تكون جلاّد نفسك. ببساطةٍ شديدة، كانت شروط الحياة قاسيةً وأخطأنا في مواجهتها مسلّحين بأمل اضمحلال قسوتها خضوعاً لشروطنا التي نسعى بها للتغيير، كمنت مأساتنا في إفراطنا في حسّ التفاؤل،ثمّ أتت المنعطفات الحاسمة والأكثر خطراً فأحسسنا باختلال التوازن، ليس بالعجز والضياع وحسب، بل بانعدام الأفق. ذهبت أساليب المقاومة جميعاً أدراج الريح أمام هجوم صاعقٍ سحق كلّ ما وكلّ من وقف في وجهه معاندةً أو مكابرةً أو مكاشفةً في أبسط الصيغ وأسهلها.. دارت إبر البوصلات على محاورها تحت وطأة الافتراس فتراجعنا بشكلٍ فوضويٍّ وراح كلٌّ يحاول الدفاع عن مقوّمات وجوده متنحّياً كرهاً

أو طواعيةً عن مواقعه التي أمّنت له حماية تلك المقوّمات فانسحب من حياته واستقال من أحلامه، كلّ بطريقةٍ يستطيع خلالها التعايش مع نفسه المهزومة والمهدورة باستمرار. آنيّاً كان ذلك طبيعيّاً، أمّا الاستمرار فهو غير طبيعيّ، ومثلما عدتُ لنفسي وحاربت استسلامها بكل ما أوتيت، ولن أخفيك أنّ ذلك لم يكن هيّناً، انتظرت أن يعود من لم يسلّم نفسه ويبعها، إن سمحت لي باستخدام تعبيرك!

أحسّ أنّها تحاول تعزيته لكنّها حقيقةً وواقعاً كانت تسترجعه. لم تكتشف بعد مدى ومقدار العطب المستشري داخل روحه قبل جسده، ففي تفاؤلها الإكراهيّ ودّت لو ترى الأمور بطريقةٍ تجد معها أن ثمّة ما لا يتغيّر في أعمق أعماق الإنسان.. جوهراً لا يمكن أن يزول أو يختفي مهما تراكمت فوقه انهدامات عمره واتّكأت عليه سوءاته الاضطرارية.

ـ قد أكون مخطئةً، ولكنّي أبصر ما كنتُ أمنّي النفس به، ولو أنّني توقّعت ألاّ أراك في حياتي! كما قلتَ، عاد أدهم، لم أخبرك أنا ومع ذلك علمتَ، أيّاً كان المصدر. كذلك عرفتُ أنا ولم ألقه بعد، وهاأنت تعود حتى لو كانت عودتك لمجرّد السؤال عنه!

أراد الدفاع عن نفسه، لكنه أدرك هشاشة ما يمكن أن يواجه به صفع الحقائق:

ـ لن أدّعي غير ذلك، لكنّ قدومي للسؤال عنه يحتوي ضمناً سؤالاً مزدوجاً؛ عني وعنك! حنان، هل أمسكوه حقّاً؟

استطاع خلخلة سكينتها، غاضت ابتسامتها، تطلّعت إليه غير مصدّقةٍ واندفع السؤال:

ـ من قال لك ذلك؟

تمهّل ليتيح لها تمالك انفعالها المعلن:

ـ فريال!

ـ من؟

سألت ممتعضةً، خثّر الاستهجان ملامحها ولم تخف اشمئزازها. لاحظ ذلك وحاول إعادة الاسم، فمنعته مزدريةً:

ـ أما زلت تقابلها؟

أجاب باستفزازٍ يداخله اعتذارٌ ضمنيٌ عن ذنبٍ مقترف:

ـ لم تتوقّف عن زيارتي والاطمئنان عليّ!

احتدّت:

ـ ما أدراك إن كانت كاذبة؟

استغرب صيغة السؤال وحاول أن يوضّح:

ـ إخباري سببٌ كافٍ، فهي تواصل ملاحقتي لأوقف عدواني على نفسي، حسب ادّعائها، وكراهيتي لمحيطي، وتفحّ في أذنيّ أنّ الأفق متّسِعٌ أمامي لأصير مشهوراً وأكسب الكثير. لاحظي، لم تخبرني حال وصوله بل انتظرت لحظة إمساكه وأبلغتني أنّه سلّم نفسه كما ادّعت. التقته منذ أسبوعين وأخفت ذلك! ألا يؤكّد هذا تقصدّها تحطيم دفاعاتي، هي التي تعرف الكثير عن صداقتنا؟

لم تنقشع ريبتها:

ـ لا يمنعها ذلك من الكذب!

ـ لا يا حنان، ليست غبيّة، لن تضع نفسها موضع شكٍّ ولن تقول إلاّ ما هو حقيقيٌّ كيلا يهتزّ المثال الذي تحاول إثبات صحّته. حين تريدين استجرار شخصٍ لصفّك أو لناحيتك فلا يمكن لك، ما لم تستمرّي بضخّ عددٍ لا متناهٍ من الأكاذيب المتلاحقة، ادّعاء ما يسهل كشفه في وقتٍ يسير. لا تنسي أنّ لاهتمامها ـ إضافةً لأشياء أخرى ـ طابعاً شخصيّاً واضحاً، تريد تبرئة نفسها بجرّ أكبر عددٍ ممكنٍ من البشر إلى مواقعها، لذا فهي تسعى لأن يكون إنجازها كاملاً! ولا تنسي أنّها موتورةٌ منه شخصيّاً وأحقادها عليه

بالذات تدفعها لتلويثه أو تشويهه أو حتى تصفيته ثأراً لنفسها منه.

بدا حديثهما محاولةً لإبعاد فكرة خروج أدهم من الذاكرة ودخوله سراديب النسيان، أكثر ممّا هو محاججةٌ لاستخلاص الحقيقة.

تغبرت حنان، لم تختف ابتسامتها ولو أنّها فقدت عذوبتها لكنّها بدت مصطنعةً أو بعضاً من عادةٍ مستحكِمَة. شحب وجهها، لاحت مكسورةً ومنهزمةً كأنّ زيت قنديلها نفذ وتعلم أنّها باقيةٌ في العتمة ما بقي الليل! لم تستطع تكذيب الخبر.. حاولت وفشلت، وآن أوان تقبّلها مالا تستطيع تقبّله. كابرت، أرادت أن تقول شيئاً عن الاستمرار بمعزلٍ عن التاريخ الشخصيّ للذين يواصلون الدرب... هم يمضون، أمّا هو فيتابع مساره ملحقاً به تواريخ مختلفةً تندمج وتلتحم في نهاية المطاف لتصير تاريخاً غير مرتبطٍ بأسماءٍ أو مواقع.. مجرّد ميلٍ يؤكّد استمرار تقدّمه وصعوده نحو شمسٍ لا تأفل. لكنّها تمتمت:

ـ لن يغيّر ذلك شيئاً. سواءٌ أفرطنا في تفاؤلنا أم أنّنا لم نخلق لزمنٍ مشابهٍ لهذا الزمن، حتى لو كنّا مخدوعين أو مخادعين، فتلك مرحلةٌ ستنقضي وتؤسّس لما بعدها.

اعتصرت رنّة أساها روحه، ضيّقت عليه الخناق. أعليه الآن مواساتها أم أنّه وصل متأخّراً جداً أو مبكّراً جداً أو أنّه ما عاد ثمّة معنىً أو ضرورةً لقدومه؟ لم يجد ما يقوله، أحسّ أنّ الوقت قد فاته مثلما هو العمر.. قام وأراد أن يقول وداعاً، لكنّها حالما لمحته وقفت، يفصل خوانٌ مهملٌ بينهما، مدّت ساعديها على طولهما وأمسكتْ عضديه وضغطت عليهما قائلةً:

ـ اجلس أرجوك، أين ستمضي؟ لم نتحدّث بعد!

شهد وهنها، فأبت أن يمضي وقد انطبعت صورة ضعفها في ذاكرته... تخيّلت نفسها مصلوبةً على قماش لوحته، تتوسّطها عاريةً على خلفيّةٍ زيتيّةٍ معتكرةٍ يزداد سوادها كلّما ابتعدت نحو الإطار، تأتيها إنارةٌ شاحبةٌ من الجانب الذي تستدير نحوه بجذعها ورقبتها ملوّحةً بساعدٍ يرتفع عالياً ووجهٍ

مكتسٍ بقنوطٍ موجع تريد البقاء لصيقة الضوء لولا قوّةٌ لا تقاوم تجذبها لتبتعد نحو العتم، شادّةً ذراعها الأخرى المشلولة والمرتمية بإهمالٍ على قبضةٍ وهميّةٍ تضغط عليها وتجذبها. ربّما كتب تحتها، آخر المنتظرين، يخطّ تاريخها وتوقيعه بنفس لون الأرضيّة الدامس... لا تريد ذلك ولا تحتمل رحيله، فقد آنس حضوره وحشتّها وهي تريد الاطمئنان عليه. تحكي.. وتصغي!

ـ عليّ أن أمضي يا حنان! ما عاد لي موضعٌ هنا، أما قلت لك إنّنا مرميّون على حدٍّ يفصل عن مجرى الإعصار المنتهك والمدمّر كلّ ما يظهر أمامه؟ ربما لا نحيا إلاّ لأنّ أجلنا لم يحن بعد أو لأنّنا لا نجرؤ على تحديد موعده. عليّ أن أبحث عنه، حتى لو أوصلني بحثي إلى حيث يستضاف الآن إن صدقت فريال!

في تلك اللحظة انزلقت راحتاها على ساعديه وأمسكتا بكفّيه الباردتين، اعتصرتهما دون أن تستشعر نبضاً في عروقهما، تشبّثت به، فقد صار لرحيله معنىً مخالفاً سيدخلها خواءً لا خروج منه.

ـ لن تذهب، إن لم تكن بحاجةٍ لوجودي، فأنا بحاجةٍ لحضورك! لايمكن لك أن تتركني وحيدة.

استجاب لها مكرهاً، عليه أن يجنّبها تسوّلاً يزيد آلامها ويكرهها على ازدراء نفسها. جلس مفلتاً كفّيه من قبضتيها، أشعل لفافةً ومضى حيث احترقت عيناه فما عاد يبصر، انقلب على نفسه وأسلم روحه للقيود. حاول تفريق المسارات المتقاطعة التي اخترقها وتاه فيها زمناً، حاسباً أنّه يدور في نفس المكان، توهّم أنّه نفسه لا يتغيّر.. وفجأةً أدرك؛ تغيّر المكان واستحال هو نفسه كائناً آخر!

ذلك ما حدث دون ريب!

أتاه ليله الاعتيادي، ليلٌ لا تصنعه غيبة شمسٍ ولا حلول ظلمةِ مكانَ

نور، ليلٌ يلي على مهل فيضطرّ باستمرارٍ لإمساك فرشاته وغطسها بلونٍ كثيفٍ يتشبّث بشعرها رافضاً مغادرته، يكلّس به الفجوات والفراغات التي تخيّلها أطيافاً رماديّةً خوف أن تتمدّد وتتقعّر فتعكس على مسامها اللامعة خياله المشوّه أو صورته الحقيقيّة التي لا تكشفها مرايا النهار. يحاول سدّ كلّ المنافذ التي يمكن أن يتسرّب من خلالها أيّ نورٍ مهما شحب أو خفت، فلطالما عرف أنّ تقصيره يودي به ويلحقه بنهايةٍ يخشاها. كان يلاحق أنفاسه قبل أن يداهمه النهار، يتمطّى في سكره، يخوّض به ويعوم، يرتفع مدّه ولا يغرق، يربط صخوراً بقدميه ويلفّها بسلاسل حديديّةٍ ثقيلةٍ ولا يغطس أو يرسو في قاع خافيته التي أنهكته مطالبها! يسأل قبل أن تشتعل مقلتاه، لماذا؟ ولا يجد الجواب، يدور في أعماقه كأنّما يلتفّ حول ذاته، يرى المشاهد حوله تتغيّر وتعود إلى البدايات، تستحيل شرخاً غير ملحوظ.. يدور مكرّراً جملةً تتّخذ مسار لحنٍ نمطيٍّ يتتابع دون توقّف، وفي تلاحقاته تضيع علاماته، يختفي قراره متجاوباً مع جوابه ويصير إلى خريرٍ اصطناعيٍّ تعتاده الأذن حتى تنسى وجوده. لكن لا ينسى نفسه أبداً ولا ينسى نزوعه الماحق لإشاحة وجهه. من كان ملتصقاً بالحياة، ومن كان منفكاً عنها، ومن هيمن في النهاية وكيف؟

يتزعزع أخريات الليالي، يترنح نائساً بين هذا وذاك، يضع كفّيه أمام عينيه ليمنع ظلمةً ما عادت أصابعه كافيةً لطمس انكشافها.

مضت معتذرةً لتعدّ قهوةً ثانية، كأنّما أرادت أن تلوذ بنفسها قليلاً، تستكشف المواقع التي انزلقت إليها، تسبر غورها وترى أمدية ارتيابها.. مكانها فيها ومكانها منها.. ربّما لتطرح سؤلاً هيّناً وحسب، كيف تداعت؟ أتستطيع استدعاء ذاتها كما كانت أم سيعسر ذلك عليها؟ حاول أن يلحق بها وودّ لو يستكشف الأرض الحياديّة التي ستفصلهما إن جمعهما حيّزٌ أضيق تطبق فيه الجدران وتتقدّم إلى حيث يقفان. تساءل، كيف سيكون ردّ

فعليهما وهما ينظران الجدران الأربعة تحاصرهما وتسحقهما معاً! تساءل: أتراها ستواجه الجدار المندفع نحو صدرها وذراعيها، أم أنّها ستدير له ظهرها وتكتفي بتلقّي دفعةٍ تلصقها بصدر من يدفعه جدارٌ آخر من خلف ظهره؟ هل سيكون عناقٌ آنها، حتى لو كان استقبالاً للموت أو وداعاً للحياة؟ لم يستطع القيام، فقد قدرة تحكّمه بهيكله وعضلاته ونسجه الرخوة، تخلّت عنه استجابات أعصابه الحركيّة، تركته رغباته يحتاجها ويستجديها عبثاً! غابت لتبعد عن ناظريه.. وتوارى لينأى بنفسه عن ناظريها. لم يمهل، حاول أن يقصي نفسه باللجوء لغابر الأزمنة، يوغل في ساحقها ويتيه في بدائيّتها المتوارثة من عصور، الماء الأوليّ والصخر القاعديّ... رائحة صباحاتٍ مضمّخةٍ بالضباب وأريج غاباتٍ بكرٍ تختبئ وراءها مستنقعاتٌ لا متناهيةٌ تخفي سماواتها تشابكات الأغصان والتفاف البردي والأقصاب. بعدت.. تلاشت جميعاً وسربلها صقيع الليل.. تغلغلت عتمته رويداً رويداً وأدلج فتخطى مراحل همجيّة الغرائز وحضورات العقل، وفي برهة تصدّع الليل تهاوى لحمه الفحميّ هباباً. لم يصلب العقل في تلك الجلجلة لأنّه تمجد وحسب، بل بات أضحيةً على مذبح الشهوات كي يريح الناس ويفتديهم من خطيئة حمله واستخدامه... عادت غرائزه لتمزّق السجف التي غلّفتها وحدّت من فاعلية نشاطاتها واستقطبت مرّةً أخرى في بؤرتها ماهيّة الكائن المسكين الذي حوّله تاريخ التطوّر الطبيعيّ لألعوبةٍ تلهو بها الأقدار.

أوَمن أجل ما كانه هذا؟ صحّح سؤاله متردّداً. هل انخلع الماضي عن الحاضر؟ كيف يتخلّى البشر عن ذاكرتهم؟ أتذوي أم أنّها تزول وتّمحي مع كلّ تحوّلٍ يجري داخل نفوسهم، عاكساً تناغماً مع التغيرات التي تصيب الأشياء فتعيد تشكيل تضاريسها وتراكم فوقها الكلس والغبار الرماديّ؟ يختفي عالم الماء والأشجار والعشب الغضّ عن أبصارهم ويخلي مكانه في أرواحهم للصلابة والقسوة والجنون! خواءٌ مسيطر.. تجدهم مع ذلك يحبّون ماضيهم، ليس في الحاضر تربةٌ تُسقى لتُثمر غراسها في سنواتٍ قادماتٍ حتّى لو كنّ شجيرات لوز! يحاولون ريّ ماضيهم ليستنبتوا شتلاتٍ ما، حتّى لو كنّ عوسجاً وأشواكاً في حاضرهم المكرور.. يختفون تبدو المدينة مسكونةً بهجرةٍ تدفع للخبل، كأنّ الحياة استحيت وغادرت إلى كوكبٍ آخر، ما من رائحةٍ لبشريّ، لكائنٍ يتنفّس سواءٌ أكان حيواناً، حشرةً أم نبتةً أم حتّى جرثومةً أم فطراً بدائيّاً يبدّل نسبة مكوّنات الهواء.. هباء ظلامٍ سرمديّ؛ يخرج الموتى من قبورهم متّكئين على أشلائهم، نافضين التراب ومزق ما دثّر موتهم، ساعين لترميم بقاياهم وتعويض الأجزاء التي افترستها الجرذان ونهشتها القوارض والديدان على مهلٍ متناسلةً متكاثرةً بغير حدود، عابرين الملكوت الموحش لعالمٍ فقد تمايزه معتذراً عن الوصف أو المقارنة!

كلّ خطوة تقربك منها تحسّها نأياً عن نفسك وعنها. المحتلّون يقتصّون من المكان بتدميره لأنّه يشكّل قاع الذاكرة الجمعيّة لسكّانه المستباحين فتضعف وشائجهم وتتفكّك روابطهم المنجدلة متراصّةً متداخلةً من مهدهم إلى لحدهم، يتمزّق نسيج حياتهم المشترك الذي يؤلّف الزمان سداته والمكان لحمته. أمّا الغزاة العابرون، فيحاكونهم في استعرار شهوة السلطة وغلمة المال

وضراوة الانتهاك، فيقضون على الألفة بين المكان وساكنه تمهيداً لاغتصابهما إلى يوم يقومون...

أوَمن أجل ما كانه هذا؟ ارتفع البناء، تضخّم، استحال عملاقاً يقزّم ما حوله ويهيمن من علوّه الشاهق، يسدّ الأفق وراءه ويحتلّ الفضاء. تقدّم بثبات، برد اللهب الذي أشعل ظاهر كفّه ودخلت الذاكرة قمقمها النحاسيّ المرميّ في مجاري المياه الآسنة. آنها، صلّى للمرّة الأولى في حياته متضرّعاً لولا ذراعٌ خشنةٌ خرجت من الخلاء قابضةً على صدره بعنفٍ وثبات.

- إلى أين؟

استفاق مرّةً واحدةً أو دخل حلم يقظةٍ إلى الأبد. استحال هلاماً رخواً، أمامه أحد خيارين، إمّا أن يبتدئ بالقبضة التي افتضحت خفايا مشاعره فيفتك بها ويثنّي بمن يقف خلفها أو أنّه سيتراجع نهائيّاً عن فكرته وعن إرادة إعادة المكان لسابق عهده فيستعيد الذاكرة المخنوقة وينشرها للمدى. لكنّه تخاذل، وباستكانةٍ تتعارض مع كلّ طباعه همس مبتسماً ومعتذراً بآن:

- أقصد موقف الباص، في الزاوية هناك!

أشار بسبابته، لكنّ عينين محتقنتين راقبتا سحنته بتمحّصٍ نزق، لم تحسبا حساباً لهامته المرعبة وهيكله المتين، استهانتا بكلّ ذلك. دفعته القبضة الشرسة:

- لا تمشِ على هذا الرصيف، هيّا انقلع!

اتسعت ابتسامته، استدار على جانبه الأيمن متّكئاً على صَغاره.. قطع الشارع الفرعيّ متّجهاً نحو الرصيف المقابل وقد انحنت هامته قوساً اختزل نصف طوله. استقام، تطلّع حواليه، ومن أقصى قوسه أبصر الناس مجدّداً ينبتون حوله، يمشون حواليه. عاد الضجيج المألوف ليملأ أذنيه، ارتفعت قامته، لكنّ عينيه استقرّتا عند سويّة باقي العيون التي تعبره بازدراء. أنت من تغيّر يا أدهم وليس المكان! هل تدّعي أنّ التبدّل الذي طرأ عليه انعكس

عليك فصرت مثلهم؟ عبثاً ستبحث عن نفسك.. فقدتَها مثلما فقدت بيتك القديم!

ركب أوّل سيارة أجرةٍ توقّفت له، وحالما استرخى على مقعده أشعل لفافته والتصق بجلده فتحرّكت السيارة.

- إلى أين؟

أجاب واجماً غير مبالٍ:

- أينما تشاء. تجوّل في المدينة!

أحسّ بالأمان.. هبّت نسماتٌ فتنفّس بعمق. إلى أين؟ هل أدري أنا إلى أين؟ دعني في زنزانتك المتحرّكة خيرٌ لي من زنزانةٍ ساكنة. قطع السائق تأمّلاته:

- الأخ غريب؟

الثرثرة المعتادة، لمَ حسبني غريباً؟ سحنتي، لكنة لساني أم انعدام الوجهة؟ ودون أن يتطلّع أجابه بجفاء:

- نعم.

حاول السائق من جديد:

- هل تبحث عن مكانٍ معيّن، شقّةٍ مريحة، خدمةٍ ممتازة؟

لم يمتعض. هل أوحى منظرك بامتلاء جيبك؟ أراد أن يتابع حتّى نهاية الشوط ويطلب إليه دون مواربةٍ أن يقوده إلى عاهراته. ربّما عندهنّ سأجد ما أضعتُه أو أكتشف خلاصي في حمأة عيشهن. لمَ لا أتمرغ في أوحالهنّ؟ لكنّه حافظ على صمته.

- نوعيّةٌ فاخرةٌ أستاذ، تنسيك همومك!

ألن يكفّ عن إلحاحه؟ كانت الطريقة الوحيدة للتخلّص منه تتلخّص في إلهائه:

- تابع الآن، سنرى فيما بعد.

ابتسم السائق، لن يضيع نهاره سدىً، يبدو محشواً بالعملة، لكنّ كلوحه ينبئ بـ.. ربّما يفضّل الغلمان!

ـ لا تخجل أستاذ، اطلب ما تشاء فكلّ ما تشتهيه متوفر!

قاطعه حانقاً:

ـ قلت لك امشِ الآن.

كبحت صرامتُه لجاجة السائق إلى حين. انسابت السيّارة من شارعٍ إلى شارع، لكنّ أدهماً كان يفتح نوافذه مستجلباً دواخله، وعلى إيقاع اهتزازاتها الوئيدة غار عميقاً حيث اصطدم بالطبقات الكتيمة فأخذ يُعمل أظافره حفراً وهدماً وتقطيعاً في الأكفان التي تكلّست طبقةً فوق طبقة. أراد أن يتيقّن إن كان ثمّة حياةٌ في الأعماق أم أنّ الموت أعمل أدواته وأحالها جثّةً هامدة.

تلك هي المدينة من جديد؛ غريبةٌ تستنزفك كلّما حاولتَ عبوراً على هوامشها، وحين أردت اختراقها يوماً لفظتك بعنفٍ وأعلنت عليك حرباً شعواء. لم تهادنك أبداً، حتّى حين توسّلتَ استرجاعها طفلةً أبت ذلك بدهشة استعادة الأشياء. صدّتك، وبقسوة اللوم رمتك. هربتَ، تركتني نهباً للعابرين فانتهكوني، كيف تريدني أن أعود كما كنتُ؟ آن تسكّعك ملأتُ الأرض صراخاً وعويلاً، استغثتُ واستصرخت من أصمّوا آذانهم وأداروا ظهورهم لما يربط الناس بالأشياء التي تعتقلهم داخلها فلا تفلتهم ولا هم يخرجون. لكنّك خرجت.. ركضت وراء حياتك وكان الخوف يطاردك بسياطه التي تصفر في أذنيك. لا يهمّ التعليل ولا التسويغ.. المهمّ الهروب! أتعود لتكفّر عن عصيانك؟ هل يعيد الغفران ما اجتُثّ منّي؟ تريدني طفلةً؟ خذ إذن أوجاع يفاعتي، ستلاحقك لعنةٌ أبديّةٌ تقطر في مقلتيك صهارةَ الحديد فتحرمك الحلم والنوم!

أحسّ قِدراً ضخماً تقترب منه، تخترق الزجاج أمامه، ترتفع فوق رأسه غير عابئةٍ بالسقف الذي تمزّق كورقٍ مقوّى ثمّ تميل عليه. اشتمّ رائحة الكبريت، أصابه طفل النار وراح السائل المشتعل ينسكب ببطءٍ فوقه، فتح فاه ليطلق الصرخة المعذّبة فانتهى السائل الحارق في حلقومه.. راح يزدرده مرغماً فينثال فيه من عنقه حتّى نهايات قدميه مرتدّاً ليطلق قذائفه وسط رأسه...

يُرهِف سمعه، يملأ دخانٌ كثيفٌ خيشومه منتقّلاً سريعاً إلى الدم، تدمع عيناه وتميد به الأرض. وسط النار هو.. منتظراً في كلّ ثانيةٍ صيحةً تأتيه من الأعلى لتكون برداً وسلاماً تبقيه وسطها ليكون برهاناً يُثبِت به بعد حينٍ للجمع المحتشد على شميم روائح احتراقه الأمثولة التي سيكونها والتي ستثبت لهم أنّ عيناً يمكن لها أن تقاوم مخرزاً، ولو أنّه يريد الخروج ليكون آيةً، وأنّ النار تطهّر دون أن تفحّم. إمّا سيخرج ويراقب مع المراقبين أو أنّه سيتلظّى في الداخل حتّى تلتهم لحمَه النيران.

يتملّى المكان جيّداً ليلاصق عينيه إلى يوم موته، يبصر المتّسخ والقاسي والمرعب والساحق وهو يتهاوى تحت لفح الألسنة التي تلعقه. يترد قلبه ويهتف.. سلاماً. تلك ناره التي أشعلها.

لكنّ أمّاً كانت تولول ـ حين خرج ـ باسم ابنها قصي! فوجئ، تملِك قلباً إذن؟! حسبتُها صخراً أصمّ وهي توزّع جبروت التسلّط والتملّك ونفوذ السيطرة على الجيران. لكنّ هشاشتها انكشفت، لم يرقّ قلبه لها، عليها أن تندب وتتوجّع كيما تعرف كيف ندب وتوجّع وتأوّه من عانى بطشها. ومع ذلك، أخضعه نداء الأمّ في أعماقها فلبّى صراخ الطفل المنسيّ في كهف الجحيم؛ بلّل سترته بما توفّر من ماء، غطّى رأسه واقتحم فوّهة الموت الحمراء.. دفعه زفير اللهب ومنع دخوله.. أصرّ وانحنى ليعبرها.. ارتقى الدرج وحطّم الباب حيث لم تكن النار قد هبّت بعد، لكنّ الطفل المسكون بهول الرعب وقف مشدوهاً وسط الدخان الذي أعماه وكاد أن يخنقه مستنداً إلى سريره لأنّ ساقيه المربوطتين بأحزمةٍ لم تقويا على حمله. تمنّى

وجود نافذة يقفز منها مهما كان ارتفاعها رغم إدراكه أن ليس ثمّة مفرٌّ من خوض المعمعة مرّةً أخرى ولربّما لن يتخطّاها هذه المرّة. فقد الطفل وعيه، انتظر طويلاً قبل أن يستسلم للفزع ويسقط في هوّته. لفّه بسترته، ملأ الدخان رئتيه وأعمت الحرارة بصره فانحنى مصغياً لما يتقصّف ويوشك على الانهيار... ملأ رئتيه بما حسبه هواءً وانطلق فما توقّف إلاّ في الشارع حيث وصلت سيارات الإسعاف والإطفاء والشرطة. سلّم الطفل لمسعفيه، سألوه أن يصعد معه السيّارة، أبى، نسي لسعاً يكوي ذراعيه وجبهته وتمنّى ألاّ يموت الطفل. تطلّع نحو العربة البيضاء التي انغلق بابها، وأخرس عينيه صراخ الأم وهي تؤلّب الشرطة عليه ونظرتها الناضحة حقداً وكراهية؛ هو الذي أشعل النار.. أمسكوه! لم يلتفت آنها أحدٌ إليها، حسبوها تُطلق اتّهاماتها تحت وطأة الصدمة، بل إنّ بعضهم صافحه مثنياً على شجاعته وإنقاذه الطفل المسكين. كان آخر ما سمعه همس أبيه الحانق والمزدري: حقّقتَ له مبتغاه دون أن تكبّده أي عناء! وما سمع صوته بعدها أبداً. أمره آنها؛ لا ترني وجهك بعد اليوم. أقال ذلك، أم أنّه نتاجات أعصابه المنهكة والمحمومة التي كادت تشوى داخل الأتون الذي أودعه أحلامه ورؤاه والذاكرة التي لم تفصد عنه بعد؟

تململ في مكانه، أحس اختناقاً حقيقيّاً فالتفت إلى السائق متوسّلاً:

ـ ألا تستطيع الخروج إلى البرّية؟ أريد استنشاق هواءٍ نقيّ.

سارع السائق الذي نسيه إلى حينٍ بعد أن لاحظ إغماض جفنيه:

ـ لأيّ شيءٍ لا؟ أستاذ، أنت تأمر وأنا خدّامك!

تمترس وراء جفنيه وانتظرت رئتاه ما يرطّب جفافهما. دفعته ارتجاجةٌ مزعجةٌ بعد حينٍ لفتح عينيه.. استقام الدرب وبدأت الأشجار بالظهور

متفرّقةً، ولو أنّ التربة البنّية لم تستحل عشباً. دنا من الشبّاك فلامس الهواء وجهه وتسارع هبوبه مع تسارع العربة. تراخى في مقعده أكثر، حاول بسط رجليه على طولهما فأخفق، سأل:

ـ زرتُ المدينة منذ سنواتٍ طويلة.. تغيّر فيها الكثير، أليس كذلك؟

تكلّم أخيراً! تأمّله السائق خلال المرآة العاكسة فرِحاً لولا صدمة السؤال. توجّس شرّاً، ما الذي يبغيه؟ سايِره قليلاً لتعرف، ثم عُدْ لحديثك إيّاه، ربّما تجاوب وأنهى مشواره سريعاً.

ـ ما من شيءٍ لا يتغيّر أستاذ، المدن والناس والدنيا. كلّ شيءٍ يتغيّر إلاّ شهوة الإنسان، تبقى صامدةً لا تتحوّل ولا تتبدّل. انظر إليّ أنا، أعمل في هذه المهنة من عشرين سنة، كنتُ أجيراً.. عملتُ وعملت، صار عندي سيّارتان غير هذه أؤجّرهما، ومازلت أعمل. هل تغيّر فيّ شيءٌ؟ أبداً. من بداية النهار أبحث عن واحدةٍ ولا ينقضي إلاّ وتكون في فراشي. هكذا الحياة أستاذ، فرصةٌ تأتيك، إذا لم تقتنصها راحت عليك وعضضت أصابعك ندماً. كُلْ واشرب وانبسط وابحث عمّن يؤنس وحدتك، والباقي كلّه هواءٌ بهواء.

استرسل السائق، وجد بعد لأيٍ متّسعاً ليحرّك لسانه المتيبّس من الصمت. أراد أن يبدّد ضجره أوّلاً ويقرّب صاحبه من غايته ثانياً، لكنّ أدهماً لم يمهله:

ـ إذا كنت أنتَ لم تتغيّر بحسب ما فهمت، فكيف تغيّر الناس وتغيّرت الأشياء؟

اطمأنّ السائق قليلاً، لا يبدو سيئ النيّة وما من شيءٍ فيه يوحي بالخبث، ولو أنّ منظره لا يريح. في أيّة لحظةٍ يمكن أن ينقضّ عليّ، ليس لسلبي، بل غضباً من خطأٍ أكون ارتكبته. تابع حديثه محترساً:

ـ مع عدم المؤاخذة يا أستاذ، أنا لم أقل إنّني لم أتغيّر. أما قلت كيف كنتُ وكيف صرت؟ حتّى المدينة.. في ذلك الوقت، ما كنتَ تغادر أطرافها

حتّى تدخل بساتينها، أما اليوم فكما شاهدتَ، قطعنا مسافةً طويلةً قبل أن ندخل بين الأشجار! سنتركها وراءنا بعد قليلٍ وتستقبلنا ضواحٍ سكنيّةٌ جديدةٌ وبعدها أرضٌ جرداء. لكن هل تغيّر شيء في طبعي؟ طبعاً لا، اختلفت المقادير والحسابات فقط. يا سيدي اسمع، في ذلك الوقت كنتَ تذبح نفسك لتجد امرأةً تلتقيها، فهي تختبئ وتحاول أن تخفي نفسها خشية عيون الناس. أمّا اليوم، فتلاقي أشكالاً وألواناً مختلفةً مرميّةً على الأرصفة مثل الفواكه الرخيصة، بعضها غالٍ مثل فاكهة المحلاّت. حطّ بالخرج، صرن أرخص من الفجل سيدي، اختر وانتقِ! انعدم الخجل، ما عاد أحدٌ يخاف الله أو ألسنة الناس! صارت الشغلة عاديّةً سيد رأسي، قبل الأكل والشرب. تحضّرنا أستاذ، أنا افتخر بعملي، لا أسوق لأنّي محتاج، اعتدتُ ذلك وهو يتيح لي صيدةً من هنا وصيدةً من هناك لا تخطر على بالي ولا أراها في منامي. اتركنا نرجع كرمى للنبيّ! والله سأنسيك همومك كلّها.

تمهّل الأستاذ قبل أن يجيب وقد أحسّ تجاوباً مع دعوة السائق المحترم. ربّما يبغي نسياناً سريعاً أو انفكاكاً عن هموم حدسها السائق، لكنّه تردد:

ـ تابع الآن وسنرى!

استطرد السائق:

ـ افتح عينيك يا أستاذ، خرجنا من المدينة.

ـ هل تستطيع الالتفاف حولها والوصول إلى المصائف الجبلية؟

ـ لعيونك أستاذ، سآخذك من طريقٍ لن تنساه في حياتك. تذكّر كلامي؛ لقمةٌ طيّبةٌ وجرعةٌ تكوي الأحشاء وتنعش الرأس، وحضنٌ حامٍ تذوب في لحمه وتسكِرك رائحتُه فتنسيك الدنيا وما فيها. وإن أحببتَ، أخذتُك لمكانٍ تجرّب فيه حظّك، تقامِر وتضاعِف مالك دون أن تخسر شيئاً.

كان الماكر يحاول إيقاعه في الفخّ على مهلٍ وبيراءةٍ تسهّل عليه التراجع عن كلامه إن حدث ما لا يرضيه. وحين لم يتلقّ جواباً، تابع:

ـ أسألك أستاذ ولا تزعل مني؟

ـ اسأل.

جاء الجواب جافّاً، لكنّ السائق الخبيث لم يأبه، فقد أعطاه الأمان.

ـ تشتهي النسوة، أم..؟

أتى الجواب بعد وهلةٍ جهيراً:

ـ أشتهي كل شيء.

صفّق السائق مسروراً وأطلق ضحكةً فاحشةً فنبّهه أدهم:

ـ ولكنّي لا أشتهي الموت!

فردّ السائق مبتهجاً:

ـ لا تخف أستاذي ولكن، بعض الحاجات غالية، بلا معلّميّة عليك!

ـ ليس مهمّاً.

. طرب السائق وخطّط على مهل، وقعتَ يا روح أمك! سيقنعه بارتياد مطعمٍ فخمٍ في مصيفٍ جميلٍ ثم يستأذنه بإحضار اثنتين أو من يرغب ويشاء، يملؤون بطونهم وعروقهم، يمرحون قليلاً ثم يأخذه إلى حيث يغرفان من اللذّة الحرام. وبعدها، يملأ جيبه من أوراقه الخضراء. خضراء، صفراء، سوداء، عليها اللعنة أيّاً كانت طالما تستطيع استبدالها بما تشتهي.

انعطفت العربة حول المدينة فوق جسرٍ مرتفع، انخفضت مرّةً أخرى وسارت في شارعٍ عريضٍ يحاذي أبنيةً حديثةً من جانبٍ وبقايا بساتين من الجانب الآخر. التفت السائق:

ـ لو رجعت بعد سنوات، يجوز بعد أشهر، لن تبصر هذه البساتين أيضاً، ستأكلها الجرّافات مثلما أكلت غيرها ومثلما بلعت البيوت القديمة وسط المدينة. أما لاحظت الأتوسترادات والأنفاق والجسور والأبنية الفخمة؟ هذا ما تغيّر. السؤال ـ نور عيني ـ هل تغيّر ساكنوها؟ نوّرني الله ينوّر عليك، أنا لا أفهم أستاذ وليست شغلتي، ولكن من زمان كنت تلاقي الفلاح يذبح

من يطلب شراء أرضه كأنّه اعتدى على شرف ابنته، مثلما كان ساكن الحارات القديمة. اليوم، بعضهم يملك شوارع كاملة.. ومستعدّون يا سيدي لبيعك بناتهم وأمّهاتهم، إن كان فيهنّ خير!

أطلق ضحكةً راعدةً أعقبها بشتيمةٍ مقذعةٍ طالتهم وطالت أمهاتهم وأخواتهم معهم تلتها بصقةٌ هائلةٌ أطلقها خارج شبّاكه.

ـ وأنت؟ سأل أدهم بسخريةٍ لاذعة.

ـ يا سيدي أنا أرذل وأوطأ منهم، لكنّ حظّي سيئ، الآدمي الذي بذرني في بطن أمي ما ترك لي شيئاً غير قعوده وحاجته لمن يقوم بخدمته بعدما ماتت المرحومة ـ الله يرحم أمواتك ـ التي كانت تنظّف تحته. أفكّر أن أجد له واحدةً مستورةً تتزوّجه وأرتاح من همّه. الله يسامحه لم يعلّمني البخل؛ ابني اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب. لكنّي أحسن منهم أستاذ، يتبجّحون بشرفهم وأخلاق عائلاتهم وحسبهم وأصلهم ويتركون نسوان بيوتهم نصف عارياتٍ في بيوتهم وعرايا في الشوارع. تفوه! يأكلون هواءً ويفعلون مثلي. بلا حكي فاضي، العماء يأخذهم! يفضحونك على عيب صغيرٍ ولا يتذكّرون عيباً من عيوبهم.

بدا مستثاراً مأفوناً، انبعثت على حين غرّةٍ أحقادٌ قديمةٌ مدفونةٌ وراء قناع الرضا والتملّق والنفاق واللامبالاة التي تغطّي وجهه. رفع أدهم جفنيه قليلاً ليبصر الوجه الغاضب، وإذ لمحه السائق عاد لإسدالهما.

ـ لا تؤاخذني أستاذ، الله يوفّقك.. والله يحرقون قلبي، يلجؤون إليك في مهنتك فيبوسون يدك لحاجتهم إليك أكثر من حاجتهم لحليب أمّهاتهم ثم يتكبّرون عليك، يعيّرونك، يتحاشونك علانيةً كأنّك ذبابٌ يأنفون أن يحطّ على أحذيتهم اللمّاعة!

قذف شتيمةً من عيارٍ ثقيل، أخرج علبة سجائره وقدّم واحدةً للّذي لم يوله أيّ اهتمامٍ ورفض سيجارته. أشعل واحدةً وأطلق نفثةً كثيفةً وتابع:

ـ قلت ما تغيّر! قل لي بربّك ما الذي لم يتغيّر؟ انقلبت الدنيا، افترض أن واحدةً جميلةً جالسةً محلّك، تطلّع إلى تلك العربة الواقفة هناك وبجانبها مسلّحون، يوقفوننا، يأخذونها ويفتعلون بها أمامك واحداً تلو الآخر ـ دنيا سائبة، تفوه! ـ أو يبقونها معهم حتّى المساء. والألعن، عليك أن تدفع لهم كرمى اللذة التي اغتصبوها مجّاناً وإلاّ فالويل لك، يلفّقون أيّة تهمةٍ لك ولها، ترتمي فترةً في السجن قبل أن تجد ابن حلالٍ تدفع له قرشين أو ترسل له واحدةً ترفع رجليها قدّام وجهه فيخرجك بسلام. وتبدأ من جديد.

أعمل مكابحه وتوقف، التفت وقال هامساً قبل أن يصلوا:

ـ هاهم أولاد الزنى، هل يعلم الرب مطلبهم؟

ـ نراك وحدك؟ قال أحدُهم وأردف ثانٍ غامزاً:

ـ وهذا الأستاذ؟

قال لهم منهياً الحديث:

ـ اليوم مساءً.

ـ أينك وأين المساء!

فقال على مضض:

ـ حسنٌ، بعد الظهر.

أدخل رئيسهم رأسه داخل الشبّاك:

ـ لا تعذّب حالك، هات المعلوم والله معك.

حوقل السائق، مدّ يده إلى جيبه وناوله رزمةً صغيرة.

ـ الله معكم.

ضرب صفيح السيّارة بيده كأنّها حيوان جرٌ سيستجيب لصفعته وينطلق، مثلما امتثل السائق وانطلق وهو يسبّ زمناً أتاح لأمثالهم التحكّم به وبرزقه وقطع الطريق عليه جهاراً دون رادعٍ أو خوف، قائلاً وهو يصرّ بأسنانه ويشتم آباءه الذين ولدوه ليعيش بين أولئك الحيوانات:

ـ الله لا يشبعكم، أما امتلأت كروشكم بعد؟ نشقى مثل الحمير ليلاً نهاراً ثمّ يأتي أحدهم وبكلّ بساطة، ـ هات! كأنّ أمّي تركتهم لي مع جهاز عرسها المنكود. وليتك تكتفي بواحد، فهنالك العشرات والمئات، شغلتهم أن يتجوّلوا بسيّاراتٍ لا يدفعون ثمن بنزينها، يقفون ويوقفون مَنْ غضب الله ووالداه عليه راكباً أو ماشياً. الخلاصة، عليك أن تدفع بالتي هي أحسن، وإلاّ وجدت نفسك في السجن معترِفاً بألف جريمةٍ ولا يعلم إلا الله موعد خروجك! أهي عيشة؟ كيف الله راضٍ عنها؟

تطلّع للأعلى وأفحش القول ثم استغفر ربه:

ـ اغفر لي يا ربّ، سيطيّرون عقلي.. تدفع للكبير مكرَهاً وللصغير هروباً من لجاجته وإلحاحه. والباقي لا يكفي ثمن تدخين نرجيلةٍ بجانب كأس عرق، دون مازةٍ حتّى!

كان أدهم يصغي بنصف فكره، أما النصف الآخر فقد شُغِل بالبحث عن ثقبٍ يلج من خلاله خفايا الذاكرة التي تنكّرت له وامتنعت عليه! أيّ أحمقٍ أنا لأتابع مع هذا الثرثار الغبيّ؟ ألا يجب أن أوقفه الآن وأنزل منهياً هذا التسكع المقرف، والهروب المثير للاشمئزاز؟ من سيصغي إليّ، ينظر جروحي التي مدّت الديدان رؤوسها منها واتّخذت ألواناً ورديّةً يشوبها سواد العفن وصفرة القيح وبياض المخاط ولا ينفر منها ولا من روائحها الكريهة ويجتثّ بمشرطه ما لا يصلح للرتق ويلئم بأصابعه ما يصلح للبقاء؟

ـ نمت أستاذ؟

ـ لا، أجاب مستنكراً.

ـ افتح جفنيك يا أستاذ، تفرج على هذه المناظر. تصدّق بالله؟ أنا أراها دوماً ولكنّي أنبسط كلّما رأيتها. وكلّما أصابتني الهموم وركبتني المصائب، أقف هنا، أكحّل عينيّ بزرقة السماء وأملأ صدري بهذا الهواء المنعش فترجع لي الروح. نتوقّف قليلاً؟

- قلتُ تابع ولا تتوقّف!

لم تردعه اللهجة الناهرة:

- طيّب، تفرج على الأقل!

طفح الكيل.

- تسكت أم أنزل؟

طأطأ السائق رأسه وتابع متمتماً في سرّه، كفرنا؟ أخطأنا في حقه؟ أقصّ يدي إن لم يكن هارباً من مشفى المجانين، لا ينقصني إلا هو! والله لو نزل لأسلب ماله وأرميه من جرفٍ عالٍ، جهنّم تأخذه. أعجبته الفكرة وراح يسلّي نفسه بكيفيّة تنفيذها، لكنّ ضخامة حجم راكبه عطّلت جزءاً مهمّاً من مخطّطه. ما صرف شيئاً من الصباح، مصروف نهاره كلّه في جيبه، بالنسبة لحجمه وكونه غريباً لن يقلّ عن عشرين أو ثلاثين ألفاً، من دون حساب ساعته ومحتوى جيوبه.

- قف عندك.

جاءه الأمر فصدع له دون أن يفكّر، انصاع وضغطت قدمُه على المكبح. صرّت العجلات وتوقّفت السيّارة، وعلى صوت الزعيق تنبّه متسائلاً؛ كيف توقّفتُ دون تفكيرٍ أو سؤال؟ توقّفت السيّارة عند مرتفعٍ ينهض فوقه جبلٌ عالٍ انتثرت أشجارٌ مزروعةٌ حديثاً صفوفاً صفوفاً حتّى قمّته عدا زنارٍ إسفلتيٍّ يلتفّ حوله كحلزونٍ يخترقه من أسفله لأعلاه، وإلى ميسرة الطريق ثمّة عتبةٌ متّسعةٌ من الحصى والرمال يحدّها جرفٌ صخريٌّ يطلّ على هوّةٍ تتوسّطها بساتين من الأشجار وبسطٌ خضراء تحاذي أطراف المدينة الغارقة في ضبابةٍ رماديّة. انتزعه من تأمّله صوت انطباق الباب، راعته القامة الضخمة والوجه العابس الذي رماه بنظرة مزدرية عبر الزجاج الأمامي ملتفّاً حول السيّارة ساعياً نحو بابه. سمّرته نظرة الأفعى الباردة، تذكّر أنّه لا يحمل مسدّساً فاعتصر معدته خوفٌ مفاجئ وتدفّق عرقٌ غزيرٌ من جسده الخائر. لم

أرعَ أبداً لمنظره، أيّ شرٍّ ينويه لي؟ لأيّ شيءٍ لا أندفع هارباً وأتركه ليسبّ حظه ويسبّني؟ تشنّجت أصابعه على المقود وجاءه الصوت الآمر:

ـ أطفئ المحرّك.

رضخ دون تفكيرٍ، استحال آلةً، كان الراكب قد وصل لنافذته وانحنى فوقها حدّق بعيني السائق كأنّه يريد أن يستل حنجرته من عنقه فجفّ حلق المسكين وسقط قلبُه في أحشائه مقرّراً على عجل؛ سأعطيه كلّ ما يطلب، ليترك لي حياتي فقط.

ـ انتظر قليلاً.

ابتعد عنه الراكب قليلاً، توقّف وباعد ساقيه. استردّ السائق أنفاسه. لعنة الله عليك، نشّفت دمي في عروقي! كلّ هذا من أجل مثانتك السافلة؟ عليك وعليها خراء الشياطين. استعاد رباطة جأشه، ترنّم بشيءٍ غير مفهوم، حرّك مفتاح المذياع وأدار الإبرة حتّى توقّفت عند أغنيةٍ خفيفة فراح يدندن معها مربتاً على المقود ساخراً من غبائه وفزعه. عاد الراكب إليه، تملاّه مجدّداً ثم دار أمام السيارة ليدخل من بابه:

ـ آسف على الإزعاج، هيّا انطلق، قالها ببساطةٍ لم ترطّب جفاف صوته.

ـ نحن بخدمتك أستاذ، لو عرفتُ لكنتُ اخترت لك مكاناً أحسن و...

ـ لا بأس، تفضّل.

أدار المحرك وانطلق، تطلّع بزاوية عينه قائلاً:

ـ أستاذ، مالك عليّ يمين، أرعبتني، حسبت أنّك ستسلبني وتتركني مرميّاً وتمضي.

حدجه الأستاذ بنظرةٍ ثاقبةٍ اخترقت جمجمته بعد أن انعكست عن المرآة:

ـ الظاهر أنّك كنت تفعل ذلك في شبابك؟

اندفع السائق محاولاً تبرئة نفسه:

ـ مرّةً واحدةً وحياة رأسك، أولاد الحلال ورّطوني وكنتُ غشيماً، دفعت الثمن أربع سنواتٍ من عمري ثمّ حرّمتُ بعدها. قلت: يا ولد، ليس لك إلا نفسك وسيّارةً تكون ملكك. ثمّ أتت ابنة الحلال واشترت لي واحدةً وآوتني في منزلها و...

ـ هل ستحكي لي قصّة حياتك؟ نهره الأستاذ وقد ملّ حديثه.

ـ لا تؤاخذني أستاذ، أحببت تسليتك، والله أنت ابن حلال، أحببتك من كلّ قلبي وأريد أن ننبسط مع بعضٍ على حسابي، ما عليك إلا مرافقتي.

ـ دعني بحالي وتابع سيرك.

لم يلحّ السائق هذه المرّة، خشي اندفاعة غضبٍ ربّما تكلّفه، كما تهيّأ له، حياته. ألن يتركني هذا التيس بحالي؟ لعنه الله، ألمحتُ قرنين يطلاّن من رأسه أم خيّل لي؟ أراد أن يفتح عينيه ويتأكد، بدل ذلك تخيّله خلف جفنيه المسدلين، اكتشف أنّه لم يلحظ ملامحه، ثمّ تذكر ما أطلّ عليه منذ قليلٍ عبر شبّاكه حين غادر السيارة؛ خرزتان زرقاوان صغيرتان تتراقصان في بحيرةٍ صفراء مكدّرةٍ بخيوطٍ ولطخٍ حمراء كامدة. كانتا عينيه المذعورتين، ما الذي أخافه؟ تذكّر كلماتٍ ما عن توقّع سلب السيّارة والقتل، ظهر الشاربان الضخمان المعقوفان اللذان اعترضا الوجه بصفرتهما الكهرمانيّة المحمرّة. هل هما تعويضٌ عن ذكورته المهانة؟ ربّما، أو أنّهما بديلان عن القرنين المعتادين! ارتفعت للأعلى جبهةٌ مفتوحةٌ دمويّة الأدمة كأنّما يرطّب جفاف بلعومه كلّ صباحٍ بجرعةٍ ضخمةٍ من خمرٍ رديئةٍ حالما يفتح عينيه.. جلحتان واسعتان وشعرٌ جعدٌ، تشبه صفرته أصابع خلّف التبغ عليها آثاره، استطال بسالفين عريضين يشبهان جزمةً خرافيّة، ذقنٌ عريضة، الأنف فقط له مظهرٌ جليل! اكتمل الوجه فاشمأزّت نفسه. ما الذي يدفعني لتذكّر قسماته الكريهة؟ لا.. فثمّة الكثير من الملامح المشتركة في المقت الذي يعنيه ذلك. ثمّ ما أدراك؟

لربّما عليك اعتياد وجههِ إن أردت أن تمضي معه إلى نهاية الشوط متعرّفاً على عاهراته وغلمانه الذين منّاك بهم ووعد أن يُخمِدوا نيرانك أيّاً كانت. أوَيمكنك المضيّ في ضيافته من غير أن تحبّب وجهه إليك وتألفه كيما تبتسم شاكراً وأنت تودّعه وتودِعه أجراً مضاعفاً لتمكينك من رؤية نفسك وكشف خوافيها؟ تقبّل إذن المسخ الكامن فيه فهو أبشع من ظاهره الدالّ على بعض باطنه، بعضه وحسب!

تطلّع من خلال عينيه وانظر كيف رآك؛ حسِبَك أوّلاً خليجيّاً أو شيئاً مشابهاً تسيل الشهوة لعاباً من عينيك وتستعر في ملامحك مثلما تمتلئ، كما ظنّ، جيوبك بمالٍ وفير. الوغد يريد إغرائي بالقمار أيضاً. ثم اختفى ذلك كلّه عن ناظريه واحتل محلّه قاطع الطرق المتوحّش الذي سيقتله ليحوز ماله وعربته، والأكثر طرافةً أنه استظرفك بعد أن اطمأنّ إليك ودعاك لصحبة متعةٍ وعلى حسابه. إذن من أنت وما بالك تشيح بوجهك عنه وتعرِض عن اعتياد وجهه وحديثه؟ ألم يجد فيك شيئاً قريباً منه فتخلّى عن طمعه وأراد إيثارك خلاًّ في شهواته الدنيئة؟ حاول أن تستملحه أنت أيضاً، فلربّما اكتشفت فيه بعضاً ممّا خفي منك عليك وفتح بوّاباتك المقفلة بأختام الرصاص، غير المستجيبة لمحاولاتك تحطيم أقفالها ولا تكسير أخشابها الصلدة.

اندفع تجاه المرآة التي تعكس خصماً وهميّاً، ومن غير أن ينظر، سأل بفجاجةٍ تقارب الوقاحة:

ـ أتشغّل امرأتك أيضاً؟

ابتسم السائق بخبث. هاقد دخلنا الجد!

ـ الحقيقة يا أستاذ أنا لا أشغّلها، أتركها لتعتني بالبنت. إن أعجبتك أكسر قاعدتي كرمى لعيونك. قلت لك؛ أحببتُك ودخلتَ قلبي، مُرْني ولن أعزّ عليك شيئاً.

ـ هل هي مسؤولةٌ عن تسهيل الشغل؟

ـ من بعيدٍ لبعيد... تخاف على البنت، أنتَ سيد العارفين!

ما باله يكرّر ذكر البنيّة؟ أيلوّح بها أم أنّه يحاول إظهار بقعة الضوء الوحيدة التي تنير بخفوتٍ ظلام حياته؟

ـ هل هي في المدرسة؟

نشط الخامد فيه، وتأكيداً على سروره وصداقته أخرج زجاجةً صغيرةً من ويسكي فاخرٍ وقدّمها:

ـ في صحّتك أستاذ.

يقوم برشوتي، النمس يريد إخفاء نتن روائحه بالتلويح بذيله. لكنّه يتعاطى أنواعاً ممتازةً، لا شكّ أنّ دخلَه يفوق ما توحي به هيئته. قرّر أخذ جرعةٍ كيلا يحبطه ويفقده اندفاعته للتحدّث.

ـ لا تخجّلني أستاذ، يرحم تراب أبيك.

تناول الزجاجة وسكب في جوفه قطراتٍ من السائل الذهبيّ اللاذع فكوتْ أحشاءه التي لم يدخلها شيءٌ منذ البارحة بعد أن قال: في صحّتك، وأعادها للسائق الذي كرع جرعةً كبيرةً ومسح شفتيه المكتنزتين بظاهر كفه ثمّ أغلق الزجاجة وأعادها للدرج.

ـ تصدّق يا أستاذ ما سأحكيه عنها؟

شابت صوتَه رقّةٌ توحي بصدقٍ فحاول أدهم تشجيعه:

ـ لِمَ لا أفعل؟

صمت السائق وتباطأت سرعته ثمّ قال:

ـ لأنّك... بصراحة أخذت فكرةً عنّي لن أحاول تغييرها، لكنّك ستلاقيها متعارضةً مع قولي وتحسب أنّني أكذب.

بنفس الرتابة، ولو أنّه حاول أن يضفي عليها قليلاً من الاهتمام، تابعه أدهم:

ـ إن لم يكن هنالك دافعٌ للكذب، فلن أجدك كاذباً.

- سأكون صادقاً معك كما لم أكن مع واحدٍ في حياتي. تنهّد بعمقٍ كأنّه أراد حسم تردّده ثمّ تابع:

- وشرفي يا أستاذ ما اخترت هذا الطريق الذي أوصلني هنا برغبتي. الزمن غدّارٌ ولا يتيح لك دوماً ما تتمنّاه وترغبه. بلا طول سيرة عليك، الحاجة دفعتني لهذا الكار، وأولاد الحلال! تسكّر الدنيا أبوابها في وجهك، تلاقي نفسك منبوذاً أو مكروهاً، تلجأ للنسيان قبل أن تكره نفسك بعدما كرهت الناس، لا يحنو عليك إلا أمثالك، معلومك، لا يحنّ على العود إلا قشره، يرجعون لك شعورك بقيمتك وقت يشفقون عليك ويقاسمونك زادهم القليل؛ كأسٌ من هنا، سيجارة حشيشٍ من هناك، لقمةٌ تسدّ جوعك وامرأةٌ تجد في حضنها الأمان الذي نسيته من يوم ودّعت أمّك! لعبة قمارٍ صغيرةٌ تبدأ كتسليةٍ ورغبةٍ بتمضية الوقت ثمّ طمعٌ بربحٍ قد يأتي وقد لايأتي! حسب حظك، يجيئك يوماً فيفلق الصخر ويعاندك يوماً فيجعلك تبكي وأنت تخسر كلّ مالك. المهم، استرخى محسوبك على هذه الحالة حتّى لاقيت بنت الحلال. كانت واحدةً منهنّ تبحث عمّن يحميها. فكّرتُ في البداية.. جمالها وشبابها سيعوّضان عليّ خسائري. ولكنّني اكتشفتُ حنانها، لم أهتمّ حقّاً بالذي دفعها لهذا الطريق، هنا تتشابه القصص، لولا أنّها كانت تنزعج من شيءٍ لا أفهمه بعد ذهاب الزبون. تطلّع عليّ شيطانها كأنني أجبرتها على فعلتها. مرّت عليّ يا أستاذ لحظات، داخل عليك لاتضحك عليّ، شعرت بغيرةٍ عليها. لا تصدقني؟ هذا ما حصل، جاء دوري في الغضب.. أصبّ شتائم لا تترك عليها ستراً مغطىً فتردّ عليّ بوقاحةٍ غريبة، أضربها فتصرخ وتقاوم، أشعر بقوّتها فيزداد غضبي وتشتعل شهوتي وشهوتها.. لا ينتهي عراكنا إلا ونحن منهكان فنرتمي على الفراش. ساعتها تكون امرأةً ليست كالنسوان!

صمت قليلاً، أخرج زجاجته وجرعا منها، تساءل أدهم؛ ما الذي أجده في تفاهاته تلك؟ كيف أستطيع الإصغاء؟ في واقع الأمر لم يكن يصغي، بل

كان يوالي تهويماته على وقع التلاوة الرتيبة للاعتراف الشفهيّ الذي يخفّف من ضغط الإحساس بالذنب أو الرغبة بالمشاركة والتفهّم عبر الإصغاء وحسب. الخنزير، تراه مع كم راكبٍ قام بتلك الألاعيب؟ رغم ذلك كان مدفوعاً للإصغاء. أكان يحرّر نفسه من قيودها عبر رؤيته أغلالاً تتحطّم أمام عينيه وعلى مسمع أذنيه، أم أنّه يعبئ نفسه بالأجواء التي يتوقّع أن ترتفع ستارة أسراره على أضوائها؟

ـ بنت الحرام قالت لي يوماً إنّها حاملٌ فركبتني الشياطين الزرق، في مهنتنا أستاذ لا يوجد حبل ولا ولادة ولا إنجاب، الطاسة ضائعة! وإذا عرفتَ الأمّ فمستحيلٌ أن تعرف الأب! أقمتُ الدنيا وأقعدتُها على رأسها، لم تردّ عليّ هذه المرة، كانت سعيدةً لا تشتكي ولا تحتجّ، كأنّ الحمل كان خلاصها. انهدّ حيلي من شدّة ضربها وأفهمتُها أنّها ستطرحه من أحشائها، لكنّها قاطعتني، أخيراً جاء ابنك! طاش صوابي مرّةً أخرى، ما تركتُ قبيحاً إلا وصفتها به، لم تتأثّر ولم تقل شيئاً.. ردّدت بإصرار، لن أطرحه. ابننا سيعيش! مللت منها، قلتُ، يا ولد طلّقها وارتح منها، لكنّي وهذا بيني وبينك، كنت أتطلّع إلى بطنها وهو ينتفخ يوماً بعد يوم وأزداد اهتماماً به وبالذي في جوفه. قلتُ، يا حمار، كيف تهتمّ به وأنت لا تعرف إن كان من صلبك أم لا؟ ما تجاوبت، ركبني شعورٌ أنّه ابني، ربّما بسبب إصرارها وتأكيدها أنّني من حبَلها، أو بسبب تقديري لها لأنّها ما عادت تستقبل أحداً رغم ضغوطي. وصل الأمر بها أنّها منعتني من الاقتراب منها. قلتُ هذا ما كان ينقصنا، ولو أنّني اقتنعت لحملتها على كفوفي ورعيتها بجفوني. بلساني ما قلت شيئاً، لكنّ اللعينة عرفت أنّها أسرتني وصيّرتني عبداً مطيعاً لها. ما انزعجت، انتظرت على نارٍ ولادة الصبي، متمسّكاً بأمل أنّه يشبهني. بغير ذلك لن أقبله! تسمعني أستاذ أم نمت؟

ما كان الأستاذ يصغي أبداً في حقيقة الأمر، كانت الكلمات تخترق أذنيه مع اهتزازات العربة وارتعاشاتُ صوت السائق الذي فقد قدرة تحكّمه

بنفسه، ما لم يكن ممثّلاً بارعاً، تسبح في فضاءات عقله الخاوي ويتردّد صداها منفردةً ومتداخلةً إلى حينٍ ثمّ متشظّيةً ومعاوِدةً تشكيل نفسها لتستحيل نفطاً مشتعلاً يلتهب على سطوح خلاياه سؤالاً، كيف أقيم من جديدٍ بناء هيكلٍ همتُ داخل أنقاضه.

ـ لا، أسمعك. تابع، تابع.

ـ طيّب، أين وصلنا؟

أجابه عجلاً كيما يتخلّص منه:

ـ تنتظر الولادة لتعرف إن كان الوليد يشبهك أم لا.

ـ عفارم عليك يا أستاذ. المهمّ جاءت أخيراً وكانت آيةً، فسمّيناها آية! ما شكّكتُ لحظةً واحدةً ومن أوّل نظرةٍ أنّها من غير صلبي ولحمي ودمي، نسخةٌ طبق الأصل عنّي، شكل الوجه، لون الشعر، وبعد فترة فتحت جفنيها عن عينين لونهما لون عينيّ، لا زيادةً ولا نقصاناً! الخبيثة أمّها همست، أما قلت لك؟ أمّا أنا فقلتُ في نفسي، ستكون شيئاً غير أبويها، عليها أن تمحو عارهما. اتّفقنا على ذلك وتعاهدنا أن نتوب بحسنة هذه الآية التي أرسلها الله نوراً وهداية.

ابتسم أدهم في سرّه وتمتم: وهكذا أوصلتكما توبتكما إليّ هنا، بعد كلّ تلك السنوات! ربّما أرسلني الله أيضاً ليختبركما وأكون آيةً جديدةً لكما.. ونوراً وهداية! إن صحّ ذلك، فهو يعني أنّ أجلكما قد حان! خشي أن تكون الابتسامة قد طفت على وجهه، تطلّع من شقّ جفنيه إلى المرآة فوجده كعهده به، كالحاً مغضباً تنزّ الشراسة من مساماته. هكذا أفضل، عزّى نفسه.

ـ وما حدث بعد ذلك؟

أشعل الرجل لفافته، ملأ رئتيه من دخانها وراح ينفثها على مهل:

ـ آه، هذا ما أريد الحديث عنه. كبرت البنت، عين الله عليها، وصارت

صبيّةٌ طاهرةٌ نقيّة، شعلة ذكاء، الأولى في صفها ومدرستها، ستقدّم هذا العام شهادة الكفاءة. صرتُ خائفاً عليها، تفتّح جسمها وفتّح عليها العيون. ماشاء الله! حوريّة، ملكة جمال، طولٌ وعرض، بياضٌ كالحليب، شعرٌ أشقر يغطّي ظهرها حتّى نهاياته، كاملةٌ مثل نقطةٍ في مصحف. وأنا يا أستاذ خائفٌ عليها أن تتبع خطوات أمّها و أبيها. تعرف، أولاد الحرام كثر!

قاطعه باستخفافٍ وسخرية:

ـ إذن لم يكتب الله لهما التوبة؟

احتدّ السائق:

ـ معاذ الله يا أستاذ، لا تقل ذلك، عالِم الغيوب وحده عالمٌ بالقلوب، أقول لك لا مثيل لها.. أخوها يعشقها!

قال أدهم في سريرته، وربّما أبوها أيضاً وأمّها. ثمّ سأل:

ـ ما هي المشكلة بالضبط؟

غمغم السائق بما لا يُفهَم ولاك كلماتٍ بين أسنانه قبل أن ينطق:

ـ أفكّر يا أستاذ بتزويجها. هذا هو الحلّ الوحيد الذي ينقذها من النتن الذي سترتمي فيه وتغرق اليوم أو في يومٍ قادم.

أهو بابٌ جديد؟ خاطب أدهم نفسه. ابن العواهر! أيحسبني خاطبةً أم يريد التخلّص منها بطريقةٍ ما ويلبسنيها؟ أجّلْ ذلك إلى حين، سأعرّفك قيمتك الحقيقيّة وألقّنك درساً لا تنساه ما حييت! انتظر.. وأمهلني فحسب، حتّى لو كان كلّ ما ذكرته من بنات أفكارك ونتاج مخيّلتك المريضة، سأجعلك تدفع الثمن!

ـ والمدرسة؟ ألا تريد لها إكمال تعليمها؟

ـ هنا حظّنا الجمّال! لا أخفي عليك، أحلم أن تصير طبيبة، لكنّ العين بصيرةٌ واليد قصيرة. صارت تكره مدرستها من ألسنة رفيقاتها، تعلم، حكي وكثرة كلام، خاصةً بعدما رأى الجميع أمّها وكيف عاملتها المديرة وأمينة

السر باحترامٍ وتبجيلٍ يليق بأميرة. أخاف يا أستاذ أن تترك المدرسة وتضيع أحلامي.

ـ وإذن تريد زوجا، وتريدها طبيبة؟

ـ يدي بزنارك يا أستاذ، يرحم والديك، يكون فضّل على طربوشي ولن أنسى جميله، أذكره أمام رب العالمين إن تزوّجها وتركها تكمل تعليمها!

هل سكر هذا المخبول؟ صفيحةٌ كاملةٌ من العرق لا تكفي لتطيح بالجاموس الذي يتقمّصه، وهاهو من جرعتين يلغو ويثرثر!

ـ وإن لم يرضَ؟

ـ أمر الله، المهم أن يسترها ويمتّعها بالعيش.

أراد استفزازه لدفعه للتصريح بما يسّره:

ـ يعني، هل هي حقاً...؟ قصدي أما زالت...؟

احتدم غضب السائق، ولو أنّ ردّ فعله كان أقلّ من المتوقع:

ـ عيب أستاذ، أقول لك ربّيناها كل شبرٍ بنذرٍ وعلى الغالي، سميناها آية.. وتجيء وتقول: هل هي! حرام عليك، نحن محافظون قبل أيّ شيءٍ آخر!

كادت الضحكة تنطلق من بين شفتي أدهم وتنفجر مجلجلةً على تلك النكتة السمجة التي أطلقها الديّوث، لكنّه خنقها في جوفه وتابع لعب دوره:

ـ ما قصدت! فقط للاطمئنان!

ـ اطمئن يا سيدي، اطمئن ولا تشغل بالك، ستتأكّد حين تراها. صحيح، أما قرّرت يا أستاذ وجهتنا؟ من الصباح الله الوكيل، على لحم بطني. خلّصنا، يستر على حريمك!

استرخى أدهم بعدما غادره توتّرٌ لم يدر سببه فأطلق شتائمه على الرجل وأسلافه ونسلهم الملعون من بابل حتّى سدوم وعمورة المعاصرتين، انتهت حكايته وتذكّر بطنه، وأنا بدأت معدتي تتلوّى مذكّرةً بوجودها.

ـ طيّب، اختر لنا مطعماً محترماً وليكن هادئاً ومنعزلاً.

تابع في سريرته، عساي أخلّف فيه عزلتي ووحدتي وألتقط عصى ترحالي وأمضي من جديد! لكنّ رحاب عادت إليه. حار كيف لم يستطع أن يجدها حتّى الآن، أنكر أهلُه معرفتهم بمحلّ إقامتها وتنكّر لها من التقاهم من أصدقاء مشتركين. تساءل، أيمكنه الانتظار أكثر؟ أعليه أن يُعنى بالبحث، عنها أم بإيجاد حلٍّ للمشكلة التي سبّبها لصفاء باختفاء جميل؟ وكيف؟ بالانتقام ممّن وشى به فتسبّب بذلك الوضع، أم باللوبان بحثاً عن ذاكرةٍ مفقودةٍ اتّخذت ظاهر البحث عن الذات في خفايا وأسرار حياة ذلك السائق؟ مزيدٌ من الامتهان، ردّد في نفسه، لكن كان عليّ أن أعود، أن استشعر صلابة أرضي، أخطو أو أقف فوقها ولو إلى حين. ما من مفرّ، ومع ذلك أتساءل بغباءٍ مُطلَق، ما الذي أعادني؟ كيف تحوّل الدافع الغامض لفعلٍ لم يثنني عنه شيء؟ قلت سأرجع.. ورجعت! حاولت تقصّي الدوافع، كانت شديدة الوضوح كما أحسّها وبالغة الغموض والتمويه في محاولة إدراكها وصياغتها. كيف أهملتَ قول رماح: «ما عدت تصلح للعودة يا أدهم، قدرك أن تبقى منفيّاً تدمّرت روابطك وانتهت، ببساطةٍ ما عدت تنتمي لوطن! ليس في قولي تعريضٌ بك، تعرف مقدار محبّتي وتقديري لك، لكنّ مواجهة الوقائع كما هي أمرٌ ضروريّ. حتّى ذاكرتك ما عادت تنتمي إلاّ للدمار، انتهى الزمن الصفاء الذي خِلتَ وجودَه يوماً في حياتك أو حلمت به! ربّما تحوّل لقادمٍ مجهولٍ وغامض، مجرّد حملٍ كاذب، أمّا كحنينٍ لماضٍ ولّى؟ اعذرني إن سميّته بالوهم المريض!» ودّ استحضار الحوار مرّةً أخرى، قراءته ومناقشته من موقعٍ آخر وعلى ضوء وقائع استجدّت وتحوّلت من كمون الفرض إلى فاعليةٌ التجربة والتحقّق. ربّما كان يكبح التذكّر ليمتنع عن التفكير؛ بدت الحكاية مجرّد نزوةٍ اتّخذت شكل نزهةٍ لإعادة اختبار الحواسّ ومحاولة وصلها بمصادرها الأوّلية والبدائيّة لمعرفة إن كانت قد تهمّشت أم أنّها تتواصل.. وقد لا تكون غير محاولةٍ لردّ الاعتبار! يريد جمع الحجج والتسويغات التي تلغي ارتباطه، تنهيه وتسمح له بالخروج

دون تأنيب ضمير.. رحيلاً دون عودة، وحين يُسأل سيقول: حاولتُ وفشلت! لكنّه من جانبٍ آخر رفض الاستسلام، ما كان من النوع الذي يرضخ لهزيمته بسهولةٍ ويتخلّى عن هدفه بيسر. كان مقاتلاً في روحه ولا يمكن له تخلية موقعه من غير استبسالٍ في الدفاع عنه.. وثمّة رحاب! الوحيدة التي قامر على قدرتها على استعادته وإعادة لحمه بالوشائج التي تملّص منها وما دري إن بقيت تحافظ على وجودها أم انتحرت! لكنّ شيئاً جديداً يُفرَض عليه اليوم، شيئاً لم يعهده ولم يختبره من قبل. في الميدان، كان يتّخذ موقعه ـ يحسب بدقّةٍ حدود مناورته، خطوط اندفاعاته التكتيكيّة ومرونة الانتقال دون فقدان عنصر المبادهة الذي كان بالنسبة له معادلاً للحياة وكان التخلّي عنه شرطاً أساسيّاً لموتٍ لا مفرّ منه، موتٍ بشعٍ لا ينتهي بطلقةٍ تجندله أرضاً معفّراً بترابه وعرقه ودمه الهتون، بل موتٍ يفترس روحه خليّةً خليّة ويتسلّق فضاءاتها فضاءً إثر فضاءٍ ويجعلها تعول ككلاب شاردةٍ تستثير متعة وسرور مغتصبها.. موتٍ ينحدر فيه ثانيةً ثانيةً، متحوّلاً من كينونته البشريّة إلى إرثه المتواصل من البراري حتّى الزرائب والقطعان الموسومة بحديدٍ محمّى ـ يعيّن بدقّةٍ خطوط نيران عدوّه الواقعيّة والمفترضة والأمدية المتاحة التي تجعله بمنأىً عن صلياتها، وقبل كلّ شيءٍ خطّ تراجعه، نقاط إسناده ومجموعة مخارج لا تجعله ينحصر كجرذٍ أبله عالقاً بفخٍّ أُعدّ له بغباء. كان ثعلباً يهيّئ أنفاقه بشكلٍ مسبقٍ ويموّه مداخلها ومخارجها بذكاء من يتعامل مع من يفوقه ذكاءً وحنكة، بدهيّات حروب الشوارع التي تنتهي دوماً نهاياتٍ مريرة؛ حفظ البقاء في حقول الألغام والعبوات المفخّخة ونيران القنّاصات التي تغربل الفضاء! كان ينهزم لكنّه لم ينهر يوماً، لم يستشعر دمار روحه أو بدنه، تعمّد مراراً بالدم والنار، زاده الأتون صلابةً وقسوةً ولم يفقده رقّته وحنّوه على رفاقه. أراد أن يفتتح لروحه نشيداً للصمود، معابر ينعشها فيستعيد ما يذكي روح المقاومة والإصرار في قاع اندحاره الآني. دوماً وحيداً.. واليوم أكثر من أيّ يومٍ مضى، يرى الجميع وقد تخلّوا عنه، تركوه وحيداً يندب ماضيه وينوح على مستقبلٍ بُتِر من مخيّلته وتوق إيمانه.. لم

يستنفذ قدرة القتال، ولو أنّ خدراً مؤقّتاً خبِره سابقاً غزاها، لكنّها آن الجدّ تهبّ إعصاراً يحطّم كلّ ما يعترضه ويعيقه ويكبحه. تعلو رماح مرّةً أخرى.. بعينين متوهّجتين تضيئان شمع وجهها الكابي وهي تقاوم خليّةً خليّةً أوجاعها، وموتاً يطوّقها ويُكرِهها على التخلّي طواعيةً عن تمسّكها بالحياة!

أتى الاكتشاف متأخّراً، ومع ذلك علينا أن نعيه تماماً؛ دُفعنا للفرار وأُكرهنا عليه لكنّه ساهم في ذاته بتصعيد حدّة الآليّات التي دفعت إليه ورسّختها ومنحتها سمة الشرعيّة! هانحن نموت هنا! لماذا لم نمت هناك إذن؟ هل ابتنى عمل كلّ تلك السنوات جداراً مانعاً للموت؟ أثمّة فارقٌ في تأخيره كلّ تلك الفترة؟

لئن استطعت تذكّر سؤالها، كلماتها أو ما يشبه كلماتِها، فقد خانك تذكّر جوابك أو شكل صمتك! لكنّك لا تنسى كيف كان الموت يتسلّل إلى خلاياها وقد التصق بها فتندفع لإخافته بما تبقى لها من قوّةٍ ملتحمةً بك، محاولةً دفعه بدفئك وإصرار المقاتل فيك على مواجهة موتٍ استهان بك مثلما استهان بها.. تركها تحارب وتحارب حتّى استهلك طاقاتها.. ورغم صمودها أكثر منك واحتفاظها بطزاجة ذاكرتها وحنينها الممضّ للعودة وندمٍ عميقٍ على فعل الهروب، فقد كان الموت أبطش منها، وهاهو يغزوها بصقيعه القطبيّ ويختزل خلاياها مخترِقاً جدرانها محتلاً نويّاتها وهادِماً شيفرة البقاء في مورّثاتها، لا يصدّه ولا يوقف تعرّضه الجبهيّ أيّ سلاح. رغم ذلك، تتشبّث، تتكّلب.. كنت حضنَها الأخير وخندقَ دفاعها المتبقّي.. سيتوقّفون أو سيعبرون فوق الجثث.. عبروا.. لم يتوقّفوا.. تبخّرت الجثث.. تشكّلت غيماً وهطلت بشراً وحقائب في المنافي.. نزفوا بقايا كرامتهم وشهادة موتهم المشرّف! استحالوا على مهلٍ رمماً مجهولة الهويّة تخضع لطقسٍ واحد؛ التعفّن والانتحار البطيء. أهو ما يحدث معك الآن؟ لكنّه عاد ليوقف

نزيفه.. يرمّم صدوعه ويعتلي مقصلةً أخرى تسطع كيلا يخبو على مهل! أيكتشف آخر فيه؟ تشتعل الحرائق تحت الجفنين مباشرةً. أكانت عودته مجرّد ردّة فعلٍ على موتها الفجائعيّ؟ وفاءً لعهد قطعه لها بإعادتها إلى مستراحها أو العودة إن فشل؟ في تربةٍ غريبةٍ واراها دون تكريم.. سلّمها للرطوبة والفناء خلسةً مثل لصوص الليل.. لم يستطع تكريم مثواها بوردةٍ وحيدة! عادها بعد يومين بزهرةٍ ودمعةٍ متحجّرةٍ انتزعها من محجره بفأسٍ صلدةٍ فتثلّمت. لم يتبيّن تربتها.. لعن نفسه وشياطينه ومن سلّموه لزمنٍ أنساه موضع دفن ضلعه بعد يومين! أنسيتَ أن تضع علامةً صغيرةً تُخبِر بأنّ ثمّة إنسانٌ تحت القدمين وتذكّر بموضع عظامها ولحمها الذي لم يترد بعد ودمع عينيها الذي لم يجفّ؟ مرّغ جبهته في التربة، عركها على لحاء الأشجار الخشن، مزّق أزهاره ونثرها على أفقٍ رماديّ...

أيّتها الأرض كوني كلّك مأوىً لها إن استطعت.. إن اتّسعت!

والآن يكتشف أنّه فقد مهارات القتال التي كانت غريزته الحقيقيّة. هاهم يحتلّون مواقعه، يسدّون منافذه كأنّهم يقلّدون فعل الموت معها؛ كلّ مجالٍ مفتوحٍ غير مغطّى بمواقع إطلاقٍ تسهل السيطرة عليها ليس سوى مجالٍ مفتوحٍ مستباحٍ يسهل احتلاله والهيمنة عليه، ومن خلاله على مواقع تتيح قدراً أوسع من حرّية الحركة، كل تخلٍّ عن موقعٍ يدعو الخصم بالضرورة لاحتلاله واستخدامه معبراً، بعد تأمينه وتطهيره وتغطيته، لمواقع أخرى ستخلّى وتفرغ بطبيعة الحال، بينما ينكمش ويتقلّص.. ينهار الجدار الذي يستند إليه وتحكم حلقة الحصار طوقها عليه. يكتشف متأخّراً أنّ أنفاق ثعالبه ومخارجها المموّهة بكلّ عنايةٍ قد تدمّرت أو تشابهت مع المخارج الزائفة فعاد مكشوفاً؛ لا ميتٌ فيبتسم.. ولا مقاتلٌ فيعض على نواجذه ويثبت في مكانه أو يتراجع متمنّياً فرصة استعادة موقعه. كيف حدث وفقد حواسّه

وعقله وروحه التي لا تخترَق دروعها مهما اشتدّت وطأة الهجوم أو ازدادت كثافة نيران التعرّض والتمهيد؟ يتنفّس الجرذ مجدداً، يجد في هواء المجارير الآسن ونتن المياه التي يخوض ويسبح فيها ملاذه الطبيعيّ وفضاءً خليقاً به.. المهمّ أن تبقى حيّاً، تتنفّس. تريد ذلك؟ إذن اتبع سائقك اللعين وتمرّغ على فخذي زوجته وابعث شهوتها المستقيلة وقدّم لها مهراً لبكارة الابنة التي قيل إنّها آيةٌ ستستحيل تحت همجيّة مخالبك وأنيابك لضحيّة، قربانٍ لاندحاراتك وخساراتك، منضمّةً فيما بعد لإرث الأسرة في إكرام الغرباء وشقّ الأنفاق لجيوبهم وإفراغها! دناءةٌ بدناءةٍ وقذارةٌ بقذارةٍ ولؤمٌ بلؤم. ضع يدك بين فخذيها وستضع يدها في جيبك. اغرف وستغرف، متعادلان، متساويان وندّان في السوقيّة والمجّانيّة والابتذال!

هل تسدّد الآن حسابك المتأخّر عن نارٍ أحرقتها وانطفأت جذوتها في دمائك؟ هل تحقّق نبوءة أبيك بأنّك سلّمت خصمك مبتغاه بأبخس الأثمان؟ لم تناقشه يومها، أنفتَ لأنّه كان يفكّر في الثمن ويحسب بميزان الربح والخسارة، بينما كنت تقيم ميزان عدالتك الخاصّ وتردّ على عدوانٍ تقصّد انتهاك جسدك وروحك وحرمة أهلك وناسك بعدوانٍ يذيق المعتدي طعم ظلمه ويكوي كفّه بنارٍ أشعلها. يأتي الجواب متأخّراً، يحطّ عليك مسمّراً أطرافك موقفاً زحفك بعد أن عجزت عن القفز. حتّى الزحف أضحى عسيراً عليك، كيف تتنفّس إذن؟ ما زال عليّ فعل الكثير الكثير؛ توديع رماح، ملاقاة رحاب، دفع العالم إلى شفير هاوية الجحيم رغم أنف غالب وتنظيراته التي ترى الزمن باعتباره دورة كواكب عملاقة لها توقيتاتٌ تلاقيها وعلينا انتظارها وحساب مواعيدها بدقّةٍ وتأنٍّ دون التخلّي عن الحذر والتأهّب! افعل ذلك وحدك أيّها الرأس المحشوّ بالكتب وأحلام قيامة فردوسٍ لا يمسّه ولا يطؤه إلاّ المطهّرون! دعني أنا لزرع ألغامي ولتنفجر حتّى لو كنتَ أنتَ صيدها الثمين، أو للانتظار على طريقتي الخاصّة؛ كلّما واتتني شهوة القتال قاتلت، وكلما دعتني شهوة الجسد انقدت إليها دون وازعٍ أو رادعٍ أو معيق!

في اختلاطاته وتخبّطاته أحسّ أنّه يُنتزَع بعنفٍ ويرمى في فضاءٍ مجهولٍ ليسقط فوق أرضٍ صلبةٍ تهشّمه صخورها المسنّنة فتتلوّن بدمائه ثمّ تعيدها إليه وتردّ له عافيته، ليُنتزع بقسوةٍ مرّةً أخرى ويُقذف بعنفٍ لمسافةٍ أبعد، فينتظر ارتطاماً وشيكاً عاجزاً عن صدّ آلامه ومنع أوجاعه فيتمنّى خفقة موت وقبل أن تأتي، تنتزع قبضةٌ أخرى أشلاءه.

ارتجّ في مقعده ففتح عينيه مجفلاً. ما الذي يحدث؟

- وصلنا أستاذ، تفضّل.

بقي برهةً يستعيد الصوت والصورة اللذين أفاق عليهما.. تذكّر ببطءٍ السيّارة والسائق والدرب النائية خارج المدينة.

- ماذا؟

آه معدته، سبّب له فراغها دواراً أرجحه في عوالم شطحاته المسكونة بالفناء. ترجّل مستسلماً لرضوضه غير المرئيّة ولدوارٍ يُميد الأرض تحت قدميه، توقّف أمام الباب، تنفّس بعمقٍ وعرك صدغيه وعينيه بأصابعه ثم أغلق الباب وتبع السائق.

لاحظ خلوّ المكان وحسب، أحسّ هدوءاً مريباً يجثم عليه لولا زقزقات عصافير محلّقةٍ وهسيس أوراق أشجارٍ تعبث بها النسائم فتحرّك ظلالاً تحت قدميه وخرير ماءٍ بعيدٍ بدّد الريبة والشكّ. لم يجسر على رفع بصره ولا معاينة المكان، لاحق ظلّ السائق حانياً رأسه ناظراً لمواقع قدميه.. ارتقى درجاً رخاميّاً عريضاً، داس درباً حصويّاً أبيض، أحسّ رطوبةً بثّها المحيط الأخضر وعبق أشجار عتيقة سمع خشخشة أوراقها تتعارك متكسّرةً على وقع تصادمها. درجٌ آخر أصغر، ممشى من الحشائش النديّة ثم طاولةٌ انتحت جانباً. جلس حيث وصلت قدماه، ترك المشهد خلفه وواجه سياجاً من أخشابٍ خضراء تتسلّقها نباتاتٌ متنوّعةٌ عديمة الأزهار ارتمت وراءها أسلاكٌ شائكةٌ ملفوفةٌ ضفائرَ ضفائر بعنايةٍ ورفق. رفع رأسه قليلاً، أبصر رجلاً يجلس بعد أن استوى على كرسيه. من هو؟ شاربان ضخمان، جبينٌ أجلح، عينان

ماكرتان.. السائق المحترم! نسي كلّ شيء، طلب وجبةً دسمةً ودعاه ليختار ما يشاء. رويداً رويداً استعاد إحساسه بجسده، عادت روحُه لتستريح في مستقرّها وانتظم عمل عقله...

رشف رشفةً من قهوته، تأمّل السائق الذي بان السرور على محيّاه من خلال دخان سيجارته وسأله بغير مبالاة:

- كم تحصل من عملك كسائقٍ في اليوم؟

ضحك السائق بمرح:

- مستورة أستاذ، الحمد لله، لكن بشرفي لا أعتمد بالمرّة على أجر نقل الركّاب.

قال أدهم دهشاً:

- لم أفهم.

رشف السائق من فنجانه ودفع سحباً من منخريه ثمّ قال متمهّلاً:

- قلت لك، أتسلّى وأتصيّد!

- أتعدّني صيداً؟

سارع للإجابة:

- معاذ الله يا أستاذ، لم أقصد، قصدي أنّني لا أهتمّ بالأجر.

قاطعه أدهم مسترخياً بنبرةٍ حياديّة:

- إن أردتُ استئجار سيّارتك ليومٍ كامل، كم يكلّفني ذلك؟

أجاب السائق مندفعاً:

- على حسابك أستاذ، أنت تاج رأسي، والله لا أطلب شيئاً لقاء صحبتك.

أصرّ أدهم:

- لن أقبل.

لان السائق وتملّق:

ـ لن نختلف، كلّ ما تدفعه خيرٌ وبركة.

ـ ألن تحدّد رقماً؟

ـ على راحتك أستاذ.

التفت أدهم صوب النادل المقترب، ناداه فأتى مهرولاً ثم وضع ورقة الحساب أمامه فاختطفها السائق:

ـ لا والله، خلّها علينا.

هتف أدهم بحزم:

ـ ضعها من يدك، لا أحبّ هذه الألاعيب!

دفع الحساب غير غافلٍ عن المبالغة في أرقامه، لكنّه لم يأبه. سيكفيه المبلغ الذي ادّخره زمناً طويلاً. غادرا وانطلق السائق. التقت أعينهما على زجاج المرآة فسأل أدهم:

ـ ألديك شقّةٌ صغيرةٌ ونظيفةٌ في موقعٍ ملائم؟

ابتسم السائق وغمز بعينيه:

ـ بخدمةٍ أم بغير خدمةٍ سيدي؟

نهره أدهم:

ـ أحكي جادّاً، أريدها لأسبوعٍ أو اثنين ريثما أنهي أعمالي. لنقل شهراً، تعرف الفنادق وقرفها.

ـ لعيونك أستاذ، أحلى شقّة، أريك أكثر من واحدةٍ واختر ما يعجبك.

ـ الآن؟

ـ مثلما تريد.

خطر له أن يتطلّع خارج نافذته لكنّه امتنع، فكلّما فتح عينيه انسدلت ستارةٌ من غشاوةٍ تمتصّ الضوء الخارجيّ وتعكسه للداخل حيث يجول على

غير هدىً ويبحث دون جدوى. فكّر، والعمل؟ هل سأبقى دون عمل؟ أمهل نفسه، لا يزال الوقت مبكّراً. دون استقرارٍ ووضوح رؤيةٍ وتأمين وضعٍ لن أعمل ولن أفكّر حتّى بإيجاد عمل، معي ما يكفيني إن اقتصدتُ قليلاً وأحسنتُ تدبّر أمري. لم يهتمّ يوماً بالنقود، كانت مجرّد وسيلةٍ لتأمين متطلّبات العيش، ما كانت مطالبه جمّةً ولا طموحاته كبيرةً، لم يطمع يوماً بما يفوق احتياجاته الطبيعيّة والأساسيّة ولم يفكّر بالمستقبل أو بيوم شيخوخته. كان يضحك من ذلك، من سيعيش حتّى ذلك الوقت؟ يستهلك النقود طالما كانت موجودةً ويعمل بجدٍّ لتأمين قوت يومه حين يكون مستقيلاً أو مسرّحاً من مهنته التي أُكره على امتهانها. حاول أن يحدّد أهدافه ويرتّبها بحسب أهمّيتها فاخترقت حدقتيه حروفٌ جارحةٌ جمعها على باطني مقلتيه وتلاها حرفاً حرفاً... رحاب!

لقاؤها سيحسم كلّ معلّقٍ ويعيّن الأفق التالي. قبل ذلك ومعه وخلاله، عليه أن يجد ما يعين على إنقاذ جميلٍ وتهدئة صفاء. تزعزعت حياتُها فجأةً وأتتها الزلزلة دون إمهالٍ فما وجدت وقتاً لتستعيد تماسكها وتتمكّن من استقبالها. وأخيراً الاقتصاص من الواشي. كلّ ذلك سيصيغ في النهاية أهمّ الأهداف وأشدّها إلحاحاً.. رفات رماح!!! هدأت روحه قليلاً وسكنت، تمالك نفسه وشرع يخطو نحو أهدافه بتحفّزٍ وإصرار.

ـ دخلنا المدينة أستاذ، قل لي بالله عليك، توجعك عيناك؟

أعاده الصوت لوضعه الراهن، أراد التخلّص من ثرثرة السائق الملحاح فسايره:

ـ نعم وقد نسيتُ نظّارتي.

تنبّه السائق للجرس المهادن، يحتاجني الآن.

ـ نذهب لإحضارها؟

ـ لا، دعنا ننهِ شغلة البيت.

ما أغباني، تابع في سريرته، نسيت مسألة تسجيل العقد وإمكانيّة أن يخبر الشرطة. لا بأس، أوراقي نظاميّة وليس ثمّة خطر. جميل؟ أثق به ثقةً عمياء، لن يبوح باسمي الزائف حتّى لو قطّعوا لحمه!

استعاد ثقته، خيّل إليه أنّه استعاد المبادهة وأضحى مهيّأً للعمل لولا وخزةٌ تحت ثديه الأيسر؛ صفاء والطفلان. رقّ حتّى اعتصرته أحاسيسه، أمسكت بعنقه وراحت تضغط. انكفأ دمعٌ وراء بازلت مؤقتيه فغصّ حلقه وانقبضت روحه.

خرجت لا يغطّي ثوبَ نومها إلاّ وشاحُ الليل.. انشطرت بين غضبها من الذين يدفعونها بشراسةٍ ويلكزونها كلّما تلكّأت ورغبتها بالصراخ وبصق شتائمها في وجوههم ولمّ الناس عليهم آن السحر، وبين الطفلين اللذين تشبثا بذيل ثوبها وتعثرا بالأقدام التي تحيط بأمّهما وتسيّج قامتها وندائهما السرّي الذي يدمي الأحجار ويصدع الحديد، ماما.. ماما. استطاعت في لحظة الفوضى أن تفلت يديها وتربّت على رأسيهما، لا تخافا.. عودا لعند خالة سعاد، سأرجع بعد قليل. لم يصغ الطفلان، ولربّما لم يسمعاها أصلاً، فهمسها المطمئِن ضاع في هدير الصياح والجلبة التي آثارها المداهمون. أُغلقت الأبواب وانطلقت السيارة التي أقلّت أمّهما.. لحقاها يسبقهما صراخهما وتلويحهما، توقّفا لاهثين باكيين وسط الإسفلت الأسود يجهشان وقد شرقا بدمعهما. عانقت هلا شقيقها، بقيت تضمّه برهةً حتّى امتصّت نشيجه وارتعاد أوصاله الذي استمرّ صداه يترجّع على هيئة ارتعاشةٍ عنيفةٍ تهزّه بين وهلةٍ وأخرى، ثمّ اندفاع الجارة الشجاعة التي لحظت دون ريبٍ بقاء سيّارةٍ مطفأة الأنوار وانحناؤها وحملهما معاً محاوِلةً تهدئة خاطريهما وبثّ أمانٍ مفقودٍ في قلبيهما. حالما ارتقت علوة الرصيف انطلقت قهقهاتٌ

شيطانيّةٌ رافقتها كلماتٌ لاذعةٌ ومنحطّةٌ جعلت المرأة المسكينة تقف مجفلةً ثمّ تركض فزعةً تترنح تحت ثقل حملها الغالي...

أراه السائق بيتين أو ثلاثةً فلم يبد إعجاباً بأيٍّ منها.

ـ أستاذ قل بالضبط، ما هو طلبك؟

حدّق في عيني السائق طويلاً ثم قال ببطء:

ـ بيتٌ صغيرٌ ململم في موقعٍ نظيف. هل فهمتني؟

ـ قل ذلك من الصبح يا أستاذ، طلبك عندي أنا، وتركتني أدور بك من مكانٍ إلى مكان! عليّ الطلاق إن لم يعجبك لأقص شاربيّ.

أعجبت الفكرة أدهماً، تخيّله بدون مقود الدرّاجة الأصهب الذي يعترض وجهه كشارتي استفهام متقابلتين ومتّصلتي الذنب.

ـ أتفعلها يا أبا...

سارع السائق للقول:

ـ محسوبك أبو الليل، أو إذا أحببت أبو آية، أفعلها وأفعل أباها.

هاقد عاد لآيته العجيبة، لعنة الله عليك وعلى أمّها! خاطب نفسه وهو يستمع لبقيّة الجملة.

ـ لا تعرفني أستاذ، ومع ذلك لن أضطرّ لفعلها. راح يعجبك.

للمرّة الأولى لاح شبح ابتسامةٍ خجلى على زاويتي شفتيه لم يغفل عنها السائق الفطن:

ـ فعلتها أستاذ، ابتسمت أخيراً.

عاد أدهم لعبوسه:

ـ هيّا، أسرع.

قاده مسرعاً إلى قلب المدينة. لم يبصر أدهم خلال الدرب إلاّ أخيلةً تصلّبت فكفّت عن الحركة واتّخذت أبعاداً أظهرتها حقيقيّةً وطبيعيّة؛ أبنيةٌ، بشرٌ وعرباتٌ وواجهات محلاّتٍ داخلها ضبابةٌ ثقيلةٌ رجراجةٌ سعفاء غيّبت الملامح ومحت الفوارق. رآها بعيني حسيرٍ فكفّ عن التطلّع... وصلا منطقةً تلاصق أحياء قديمةً منعزلةً وهادئة، دخلا شارعاً معترضاً ثمّ انعطفا إلى شارعٍ فرعيٍّ ارتصفت بيوت الطين والخشب إلى ميمنته، تخترق جدرانها العالية زواريب بقيت كذلك منذ مئات السنين، تسقف مداخلها أقواس حجريّةٌ تكاد أن تتهاوى فوق رؤوس عابريها، وعلى ميسرته اصطفّت أبنيةٌ طابقيّةٌ قديمةٌ أحاطت بها حدائق بسياجاتٍ حجريّةٍ علتها شبكاتٌ معدنيّةٌ تسلّقتها عرائش كثّة. تنفّس الصعداء، هاهو يستعيد عينيه وربّما ذاكرته قبيل أن تطلق شفتاه اسم المكان المألوف ووقفت السيارة.

ـ وصلنا.

صعدا بناءً من ثلاثة طوابق، فتح السائق باب سطحه، دخلا ممرّاً أفضى إلى غرفتين أُلحقتا بالبناء.

ـ ما قولك يا أستاذ؟ والله لا يدخله أحدٌ غيري، لا تعرفه حتّى زوجتي. وهو للصحبة الخاصّة، للبسط بعيداً عن النقّ ووجع الرأس. قالها السائق واثقاً منفعلاً بكشف سرّه الدفين وتابع:

ـ لن يعرف أحدٌ سواي بوجودك هنا، خذ راحتك. أرجوك فقط مراعاة خاطر الجيران. ادخل واخرج ليلاً، لا تترك أحدهم يشاهدك داخلاً بصحبة امرأة، كرمى لي يا أستاذ لا تفضحني، هنا المكان الوحيد الذي أكون فيه شخصاً محترماً. لم تقل لي رأيك؟

تلفّت أدهم متفقّداً الغرفتين والإطلالة على الجهات الأربع، كأنّه عرف مبتغاي، ما أحتاجه تماماً، لا أكثر ولا أقلّ.

ـ حسنٌ، لنقل إنّه مقبول. ما هو أجره؟

صاح السائق:

- أبوس يدك يا أستاذ، عاملني مرّةً واحدةً في حياتي مثل البني آدميّين، أقول لك بيتي ولا أسلّم مفتاحه لامرأتي، يمكن أن أعطيه لآية إن استعصت مشكلتها، ثمّ تسألني عن أجرته؟

أصرّ أدهم:

- لن أقبل أبداً. أدفع أو أمضي.

ضرب السائق كفّاً بكفٍّ راثياً حاله:

- لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، أشعرني بقيمتي يا أستاذ. لا تزعل، أنت تأمر ونحن نطيع، تريد أن تدفع؟ ادفع ما يطلع من خاطرك.

لحظتها مدّ أدهم يده إلى جيبه وأخرج رزمةً ضخمةً سحب قسماً منها، عدّه وقدّمه للسائق:

- ألن نوقّع عقداً؟

- عيب يا أستاذ، كلمتك عقد! قالها وهو يعدّ النقود، حاول أن يعيد نصفها متابعاً:

- والله كثير، لا تكلّف نفسك.

لكنّ أدهماً لم يقبل:

- لا، أتعبتك معي ولم أردّ لك جميلك بعد. أين المفتاح؟

انتزع السائق المفتاح من حلقته وقدّمه لأدهم الذي سأل:

- والنسخة الثانية؟

- في الخزانة هناك في الدرج العلويّ.

تطلّع أدهم إليه متفحّصاً.

- اطمئنّ أستاذ، لن يقطع خلوتك ابن امرأة، نعرف الأصول، ولا ندخل البيوت إلاّ بعد طرق أبوابها.

ـ حسنٌ، شكراً لك، تستطيع الذهاب. عندك هاتفٌ إن احتجتُك؟

أعطاه السائق الرقم وهو يودّعه:

ـ سأمرّ عليك في طريقي، ربّما احتجتَ شيئاً. ثمّ لا تنسى، العشاء اليوم عندي في منزلي لتتعرّف على أمّ آية و.. آية، السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام، مع السلامة.

خيّم السكون.. وبعضٌ من الأمان تسلّل، بقي واقفاً لهنيهةٍ، أدرك أنّ اللهاث الذي استمرّ متصاعداً منذ الفجر أخذ يتخامد أو يستجمع قواه لجولةٍ جديدةٍ ودّ لو تبعد قليلاً رغم تيقّنه من اقترابها وتسارعِ نبض تأهّبها. تلفّت حواليه.. أولى الباب ظهره وتطلّع إلى نافذةٍ واسعةٍ أُسدلت عليها ستائر شفوفةٌ خمريّة اللون، أي ذوق؟ تذكّر مشهداً خلفها أبصره من لحظاتٍ خلال الستائر؛ انبسطت البيوت العتيقة على امتداد بصره متتاليةً دون انقطاعٍ كأن ليس ثمّة أفقٌ يحدّها. تحت النافذة أريكةٌ وثيرة تصلح سريراً لاتّساعها، تحرسها مائدةٌ صغيرةٌ يستند إلى زجاجها الصقيل قنديلٌ متطاولٌ على هيئة زنجيّةٍ عاريةٍ تحمل بذراعيها الأملسين قبّةً شفّافةً تغطّي رأسها وتنثر نوراً رقيقاً على الجسد المتوتّر، على جانبيها تستقرّ منفضتا سجائر من حجرٍ زجاجيٍّ عاتم الخضرة. جلس واسترخى.. أمامه بمحاذاة الباب تنحشر في زاوية جانبه الأيسر خزانةٌ صغيرةٌ متطاولةٌ حملت تلفازاً مغطىً بشاشٍ أحمر مخرّم فوق فيديو حديث، وعلى الجدار تتّكئ خزانةٌ متوسّطةٌ مشغولةٌ من خشبٍ محفورٍ ومصدّفٍ بلون قهوةٍ محروقة، على بابها مرآتان تغطّيانها. في الجدار المقابل ثمّة سريرٌ مشغولٌ بنفس الطريقة غطّت وسائدَه وحشيّاته ملاءةٌ ناصعةٌ مطرّزةٌ بخيوطٍ زهريّةٍ تخز العين وترهق الأعصاب، وعلى جانب الباب الآخر طاولةٌ مطويّةٌ يحدّها كرسيّان من الخيزران، سجادةٌ مستطيلةٌ تكاد تصل بين الباب والأريكة ولا شيء غير ذلك إلاّ هدوءٌ يقرب حالةً هائمة. شهد ذلك وعاشه منذ أعوامٍ طويلة... الجدران الحاليّة رماديّةٌ لامعةٌ، أمّا القديمة فمطليّةٌ بكلسٍ طازجٍ ناصعٍ لا يعكس نوراً ولا يخدش بصراً رغم ندوبه وقروحه الظاهرة

بوضوح. ارتقى بصره نحو السقف وتوقّف عند ثريّا صغيرةٍ تدلّت منها ثمانية مصابيح أحاطت بها قطعٌ متعدّدة الأشكال والأحجام من بلّورٍ شفّافٍ ولامع. تعلّق بها، رغم نفورها واغترابها كلّيةً عن المكان، ببصره أولاً وبشغفٍ خفيٍّ غير معلّلٍ ثانياً. تحرّكت نسائم سحريّةٌ في الجوّ الظليل لامست القطع الزجاجيّة فتحرّكت وارتطمت ببعضها البعض، راحت اهتزازاتها تتوالد كأنّما انتظرت تلك الدفعة الأوّليّة لتحرّض شرارةً تحرّر طاقتها الكامنة. في البدء همس الرنين ثمّ دخل طور الخفوت وخلخل الصمت المترامي. ازدادت العتمة، استحال الزمن أجراساً بعيدةً تردّد صداها سهوبٌ ثلجيّةٌ مترامية الأطراف.. تضيء المصابيح نجوماً تسبح في لجّةٍ عميقةٍ فتتراقص أخيلتها.. يجرف الحنين، يكشط دون حذرٍ جدران تجويف القلب فيرتعش مستثيراً شجناً غامضاً عذباً ونديّاً، كأنّ القحط لم يمرّ في هذي البوادي.. يحمل على مويجاتٍ سانحةٍ تعلو وتنخفض وئيدةً فتنزلق اللحظة المترجرجة عليها وتنساب من بين الأصابع الرخوة فتتشنّج وينقبض القلب الملتاع. متى كان ذلك.. وأين؟؟ وكيف حدث؟ حلم طفولةٍ منسيٍّ أم لحظةٌ خاطفةٌ ومضت جزءاً متناهياً في الصغر من ثانيةٍ هاربةٍ، ثمّ في جوف الظلمة وتحت الجلاميد اجتماع الصباح في مدرسةٍ ابتدائيّةٍ عاديّة، مجموعاتٌ من أرتال متراصّة، رؤوسٌ مشرئبّةٌ فوق كتلها الكحليّة وحناجر تصدح بعذوبةٍ وحماسٍ نشيد العلم المنزّه عن الشرك واضحاً وجليّاً مثلما ألوان العلم المرتفع شبراً بعد شبر والأحداق تلاحق صعوده. كان الفتى الذي يعلو أطول أقرانه بمقدار رأسٍ يرتجف كلّ صباحٍ كأنّ لحمه يتشقّق فتخرج الألوان منه متسلّقةً السماء، سعيداً برؤية مكوّنات دمه تخفق في زرقةٍ بلّوريّة لصباحٍ طقسُه متغيّر! تختنق فرحته مستعيداً وقاراً وجديّةً فارق بهما أترابه. لم يألفهم، سيكتشف فيما بعد حين انتقاله لمدرسةٍ جديدةٍ اتّسعت لصفوف المرحلتين الإعداديّة والثانويّة أنّه يبحث عن أصدقاء يكبرونه بأربعة أو خمسة أو ستة أعوام، مكروهاً من زملائه بدعوى غروره وتكبّره ومن معلميه ومربّيه بدعوى

خشونته وقسوته. هل أحبّه بعضهم؟ ربّما أولئك الذين دافع عنهم ودفع أذىً وظلماً ما استطاعوا منعه. في البيت نفر من أمّه وضاق ذرعاً بشقيقاته الأكبر! وراء ذلك كمن سببٌ بسيط، لوم عيني أبيه، سوطاً ينهار على لحمه الأسمر الغضّ كلّما فاء لحنوّ أمّه واستمرأ رعاية وتدليل شقيقاته، لم يعاقبه قطّ مهما فدح ذنبه، لكنّ زجره وتقريعه كان أمرَّ وأمضى. مرّةً واحدةً نال صفعةً شرسةً رمته أرضاً، حين دفع صغرى شقيقاته دفعةً أوقعتها فانكشف ثوبها عن فخذيها أمام ناظريه، بمحض الصدفة كان الأب يرقبه ولو أنّه علم أنّ عيني أبيه ترصدانه لما فكّر بمجرّد الردّ عليها بلسانه، تطلّع مذهولاً دون قدرةٍ على تسويغ فعلته.. «البنت لا تُضرَب!» ثقبت الكلمتان أذنيه وما نسيهما قطّ. أيّة خرافاتٍ أخرى داخلت أذنيه فعلقت روحه حتّى رأى نفسه شيئاً متمايزاً منذوراً لما يعجز عنه الآخرون؟ أخفق أبوه بإفساده بعقليّة التاجر التي أراد أن يصيغ روحه وفقها بعد أن نجح في تضخيم ذاته الذكوريّة حتّى أقصى أمديتها، منضجاً فيه باكراً معالم رجولةٍ مستندةٍ إلى ثالوث القوّة والإرادة والشهامة؛ افعل ما تشاء ولكن حاسب نفسك! ثمّ جرّب عن غير قصدٍ إفراغ مفهوم الشهامة من كلّ معانيه حين حاول زرع مفهوم شطارة التجارة في نسيجه المتماسك. لكنّ الفتى رفض قلب المفاهيم وتمرّد علانيةً للمرّة الأولى حين أبى جهاراً وراثة مهنة أبيه. كان الثمن غالياً؛ وصمه بانعدام النخوة والعقوق ثمّ إخراجه من الحظيرة الأبويّة إلى يوم الدين. أعلن غضبه على الملأ وأشهد أمّه وشقيقاته عليه، ولولا شفاعة صغر سنّه لكان مرميّاً خارج أبواب بيته! من يومها أحسّ مسؤوليّته تجاه نفسه، لا يذكر أنّه أخذ قرشاً منه، رغم المحاولات المستميتة لدفع الأمّ لمنحه مصروفه اليوميّ. أبى رغم بكاء أمّه وشقيقاته، صار يعمل بجدٍّ في عطلة الصيف، يدّخر مصروفه وثمن ثيابه وحاجاته الأساسية. حاول في البدء أن يتناول طعامه خارج المنزل، لكنّه تحت إلحاح أمّه وشقيقاته استنكف واستمرّ في تناول طعامه معهنّ صامتاً شارداً دون حضور. لم تنقطع وشائجه، لكنّها تمايزت يوماً وراء يوم. بالنسبة

لهنّ، بات ظلّ أبيه. أمّا بالنسبة لأبيه، الذي أدرك بحسّه العمليّ استقلالية الفتى وشموسه وأنفته، وتوسّم فيه وريثاً حقيقيّاً بمعزلٍ عن لهفة الأجداد، فقد صار متّكأه وموضع سرّه.. ناصحاً ومشيراً. ارتأبت الصدوع وبقي جرحٌ لايلتئم.. لم يستطع أبداً أن يعلن لأمّه مقدار تعلّقه بها ولا أن يلمّح أو يشير. أقضّت مضجعه عيناها اللتان تبثّانه عبر ليلهما حزناً وحنيناً، توقاً طبيعياً لعناقه وتقبيله والعناية المفرطة به وخلخلته محاولاته المستميتة لتلبية حاجتها إليه وإشباع حاجاته إليها، ما استطاع أبداً، كلّما أقدم انكفأ وارتدّ في الثانية الأخيرة. شقيقاته ألفنه على ما هو عليه، عوّضهنّ بأمان قربه وعينه الحارسة الأمينة، مرّةً واحدة يذكر ملمس جسد أمّه، يوم وداعه. منذ متى منعها من ملامسته؟ كأنّما فعل ذلك دوماً، حسب أنّه آن إرضاعه كان يمدّ ذراعيه ليفصل جسدها عن جسده، مكتفياً بمدّ عنقه لتطال شفتاه حلمة الثدي ويتمّ رضاعه، ولربّما لم يلقم ثديها يوماً مكتفياً بثديٍ اصطناعيّ. آنها أدرك أنّه لم يبتعد مقدار شعرةٍ عن تماسّه والتصاقه بها عمراً كاملاً! كانت تنتفض بين ذراعيه، يخفق ثدياها على صدره، وإذ طوّق ذراعيها وهو يحضنها فما أتاح لها أن تعانقه. لم تجهش، لكنّ ينابيع مآقيها تفجّرت بعد طول احتباس. عجزت كلماته وتربيتاته وقبله عن تهدئة روحها الملتاعة والمقهورة منذ دهرٍ مديد، كاد يفقد سيطرته على نفسه وتنتقل عدواها إليه فتملّص منها بأن أجلسها على السرير. نفس السرير الذي غادرها قربه ولاقاها مسجّاةً عليه يوم أوبته. للمرّة الأولى قبّل شقيقاته اللواتي بكين بصمتٍ وأوصاهن خيراً بأمّهن وبالسلام على أبيهنّ. أبوه لم يودّعه، خشي تلك اللحظة وأصرّ على تجنّبها، غادر من غير مصافحةٍ أو كلمة وداع. يوم بلغه موتُه لم يشعر بحزن، أحسّ أن شيئاً هامّاً فُقد إلى الأبد دون إدراك ماهيّته، هدمٌ صغيرٌ بقي كلّ ما يحيط به على حاله مهدّداً في كلّ لحظةٍ بالتداعي والانهيار تحت ضغط الإحساس بوجود فراغ شكّل يوماً دعامةً أساسيّةً لما أحاط به وقام فوقه. حكت أخته الكبرى على الهاتف، أصغى لبكائها وحسب، لم يفهم كلمةً ممّا قالته وحين

أثقل عليه نشيجها أغلق الهاتف دون اعتذارٍ أو وداع. مشى ومشى مسافةً طويلة! ساعتين.. ثلاثاً.. لم يتهيّأ له قياس الزمن حتّى وصل البحر وأشرف من جرفٍ عالٍ وأمعن في أفقٍ بعيد. هناك يؤدّون طقوس حدادهم، يحزنون قليلاً ثم تلفّهم الحياة بأجنحتها ويعودون إلى تفاصيلها الملتصقة بهم وبأولادهم، معيشتهم، اهتماماتهم القيّمة أو التافهة، صغائرهم وهواجسهم التي تجسّد في النهاية خلاصات حيواتهم وآفاقهم. بعدها يتنازعون إرث أبيهم. الشقيقات اللائي كبرن وأمسين أمّهاتٍ ولربّما باتت إحداهنّ جَدّةً لم يكترث لهنّ، سيتدبّرن أمورهنّ. أقلقه حال أمّه. كيف ستحتمل الصدمة ومتى تتجاوزها؟ هي قويّةٌ لا شكّ في ذلك، رغم هشاشةِ صاغتها عقودٌ من العبوديّة واستنفار الحواسّ وعيش الخواء واللاجدوى! ودّ لحظتها لو تأتي إليه أو يأتي إليها، أحسّ الرعدة التي مسّته يوم الوداع كأنّها تستصرخ روحه وجذور أعصابه وكيانه المتضعضع أن عُدْ، فأنا بحاجةٍ إليك وما عاد لي سواك! قبيل ذلك خابرته، قالت ضاحكةً: تعال لأفرح بك، هيّأت لك عروساً لا مثيل لها بين النساء. أجابها ممازحاً: إذن هي شبيهتك! فقالت جادّةً وقد غصّت الكلمات في حنجرتها: هي كذلك، لكنّني أشترط ألاّ تعاملها كما عاملتني. لئن احتملت أنا، فلن تحتمل هي. حاول مجدّداً أن يعيدها لهزلٍ يخفّف حدّة قنوطها متعلّقاً على أسلاك النوى التي حرّرته من جمود الحضور ومسافته الكريهة، كيف يا أمّي؟ تختارينها ضعيفة؟ إن لم تحتمل القويّة الصلبة فكيف ستحتمل الضعيفة؟ أجابت: أحكي جدّاً؛ رقيقةٌ كياسمين الصباح وهشّةٌ كأجنحة الفراش، لكنّ قلبها يتّسع للدنيا ولا تسع الدنيا روحها. قال ضاحكاً: أمي أين وجدتها، هل آتي سريعاً؟ ولأنّها تعرف استحالة الحضور أجابت بحدّةٍ مفتعلة: لا، سأحضرها أنا، قل إنّك موافقٌ وسآتيك بها مع أوّل شمس. حسنٌ يا أمي، لكنّ الوقت مبكّر.. هل تنتظرني؟ - إن قلتَ نعم تنتظر العمر بطوله. - هكذا دون أن تعرفني؟ - لقد عرفتني أنا! أخرسه الجواب. - أمّي، هل تدعين لي؟ - في كلّ ساعةٍ يا عيون

أمّك. ـ قبّلي الجميع عنّي. ـ سأفعل، مع السلامة يا بني.

تطلع في البحر.. ناجى بُعدَها، أهتف لك يا أمّي؟ ما الذي سأقوله؟ آأستطيع تقديم العزاء برجلك الراحل؟ كيف أواسيك إذن؟ لن أستطيع. سامحيني يا أمّي، ستغفرين لي كعهدك غيابي عنك في أشدّ لحظات حاجتك إليّ. ليلتها وعلى شرفةٍ تطلّ على ذات الوجهة وذات البحر والمدى الليليّ المعتم رثى نفسه ورثاها، ورثى عالماً لم يؤبّن رحيل شمسه منذ قرونٍ مُبقياً على أمل اكتشافها درباً ضلّت عنه ذات دهر، فتعود سيرتها الأولى، جديدةً مع كلّ صباحٍ، تطرح أحلامها لتزهر آخذةً معها في غسقها مرّ الحصار وشهقة الإحباط. شرب حتّى سال الكحول من مقلتيه ومن مسامه صرفاً وبات زفيرَه الدائم. ودّ لو يفقد وعيه ثانيةً واحدةً وحسب؛ لا النوم وافاه ولا الإنهاك قاربَه ولا الثمل حدّق فيه بعينيه الدمويّتين، تجرّع آخر كأسٍ من عرقٍ محلّي. شهقةً واحدةً أتاه صوتُها مع انبلاج أوّل ضوء، كفاك ياولدي، اذهب إلى فراشك ونم قليلاً. امتثل دون تردّد، قلب كأسه، وقف كيْلا يتراجع ويعيد ضخّ مزيدٍ من النيران في جوفه. لامست جبهته نسمةٌ بحريّةٌ نديّةٌ فابتردت حبّات العرق التي احتفرت مجارٍ لها على سطح وجهه، سأله النادل: استدعي سيّارةً؟ أجابه: لا، شكراً لك. دفع حسابه مبالِغاً في إكرام النادل فمازحه الأخير، علينا فصدك كي نستعيد عرقنا. ابتسم ببلاهةٍ وسار بخطىً ثابتة. في غرفته استلقى على سريره بكامل ثيابه، بقيت عيناه مفتوحتين، تعال أيّها النوم! لم يطاوعه.. عدّ عشرة، مائة، ألفاً دون فائدة. لو تأتي يدان غريبتان فتطبقا جفنيه رغماً عنه! انقلب على بطنه، ضغط عينيه على سطح الوسادة الأملس الناعم. أحسّ برودتها وسرعان ما راحت تغلي رادّةً إليه عرقه لفحاتٍ ثقيلةً من بخارٍ حارق وأتت الأشباح؛ اختلط السواد بالبياض، الشهب بالفجوات السوداء التي لا قرار لها، أنهارٌ من دم وشلالات دمع، جبالٌ شاهقةٌ من جماجم مدّت ألسنتها من بين فكوكها العاريات من اللحم ووهادٌ من الأشلاء تنزف صديداً أصفر برائحةٍ منتنة، حرائق تطوّق الأفق يغطّي سواد دخانها رقعة سماءٍ تقبّبت فوقها وراحت تنأى هرباً من

النفثات الحارّة، غاباتٌ تغور في شقوقٍ تبتلعها ثمّ تلتئم جراح الأرض كأنّها لم تكن. أحرقته عيناه فراح يصرخ وينادي أمّه لتنقذه من الغيلان والمسوخ والشياطين التي أخذت تتخاطفه وتلاحقه لتمسك بتلابيبه وهو يركض لاهثاً منهكاً دون يأس. فجأةً غاب.. ابتلعته الأرض وانغلقت عليه بأثقالها ووقع الأقدام التي تلاحقه، ابتردت جبهته على التراب النديّ، ضاق صدره وفتح فاه طلباً للهواء ثم أغفى. في المساء التالي، تنكّرت له عضلاته، تيبّست وفقدت مفاصلُه مرونتها، أحسّ هيكلاً حجرياً يرتديه، يحسّ ولا يستجيب لنداء الحركة. يتذكّر، عليه إنجاز مقالته وردود بريد زاويته. تحرّك، وحالما لامست قدماه الأرض علقت بلزوجةٍ تكاد تجفّ، أصابته رائحة القيء الممزوج باليانسون بالغثيان. أتمت أخيراً؟ هذا ما قاله وهو يروّض عضلاته ومفاصله على الحركة. بعدها، كان يدهِش كل امرأة بسؤالٍ فجٍّ قبل أن يواقعها، هل فقدتِ أحداً من عهدٍ قريب؟ كانت ردود الفعل متباينةً، بعضهن يصبن بالوجوم، بعضهن يضحكن هازلاتٍ ويخترعن نكتةً تلائم الموقف الساخر والعجيب، بعضهنّ يستنكفن عن متابعة لعبة الجسد دون جوابٍ أو اعتذار. يتفحّص كلّ واحدةٍ على حدة قبل أن يدعوها خشية مشابهة وجهها لوجهٍ غائبٍ مهما ضؤل الشبه وتناهى في الصغر. ترعبه رؤية وجهها أو سماع وجيب قلبها آن يفتح عينيه على عينيها أو يلامس صدره ثدييها أو يعانق قامتها.. لكنّ الوجه الذي يغيب دوماً ولا يذكر أو يتحاشى ذكره ما كان سوى وجه رحاب، يقف حرّاسه على بوابات أحلامه ليمنعوها من العبور، تفلت دوماً من رقابةٍ فُرضت عليها وتخترق حصاراً يطوّق حضورها. يأتيه حين لا يتوقّعه.. وجهها.. وجه رحاب.

تكثّفت سنوات الوحدة ومضاضة الوحشة والخصام، تركّزت سهماً يخترق جمجمتها من القحف مواصلاً سيره حارقاً مزهقاً يومض في عينيها شهباً تسطع وتموت، نقلاتٌ مذهلة من العتمة والإشراق البارق تمترست داخل رغبتها ألاّ ينبلج الصباح فترتاح من عذابات إحساسها الفاصم بفقدان جنان... تضرّعت رحاب وصلّت أن يبتعد ولا يبشّر بأيّ نهار. لتكن ليلةً أخيرةً، سحَراً مستديماً يستنكف الزمن عنده ويستقيل معلناً نهايات النهارات... غربت شمسها وأُفْلَت نجومها وأمام الهاوية ابتهلت أن تبتلعها بصمت، تفكّكها، تحلّلها إلى عناصرها الأوّلية، تصيّرها جزءاً منها، بعضاً من لحمها الفحميّ وعروقها الرطبة المتماهية فيه، حيّزاً من الخواء الذي يعين فراغات امتداداتها اللانهائية. لم يكن الصباح مثل أيّ صباحٍ آخر! لم يكشف أيّ صباحٍ آخر عري ضعفها ولا افتضح عجزها ولا انتزع أقنعة صلابتها وتماسكها وعنفوان تمرّدها ولا عرّض هشاشتها المبطّنة للتهتّك مثلما فعل هذا الصباح!

أنفت في المكاره والملمّات طلب العون وأبت قبول المساعدة أنّى كانت وأيّاً كان مقدّمها. كانت تبعد الوجوه المألوفة التي تعترض حمم أفكارها لتساهم في مؤازرتها ومعاضدتها، تعيدها إلى قبورها أو منافيها أو صلبان عذاباتها، تريد تنحية الجميع والتصدّي وحدها لمعضلتها مهما عظمت واستعصت. لكنّها اليوم دمّرت طقوسها، حكمت بالموت على تقاليدها التي لم تسمح لها أن تحيد شعرةً عنها وجأرت طالبةً العون للبحث عن روحها التي انخلعت عنها وغادرتها إلى غير رجعةٍ وإيجادها حتّى لو كانت العفاريت قد اختطفتها وخبّأتها في مغائر سحرها الجهنميّ. توارت الوجوه جميعاً، اختفت، ابتلعتها دوامة الذاكرة المفلتة العقال فتشتّت واندثرت

مخالفةً عاداتها. توسّلت إليها أن تعود، تعلن حضورها وحسب لتمدّها بقوّة تساندها، تقيل عثرة فكرها المضطرب المتحلّل من ترابطه وآليّات عمله، تحفزّها، تهيب بها ألاّ تستلم يأساً وترضخ عجزاً، تحثّها على التحرّك وتمنحها ثقة وأمل ملاقاتها. لم يفدها ذلك كلّه، خُذلت حتّى فقدت الثّقة بأُصابعها وتخلّت عيناها عنها راميةً توقها في تهيّؤات أرض النسيان. حاولت أن تهدأ، أن تتمالك نفسها موقِفةً تيهانها. من القعر المتآكل لغبار ذكرياتها طفر وجهٌ غريبٌ لم تتبيّن ملامحَه، لكنّها استشعرت قوّة الحضور التي خلّفها تصاعده. هبّ من الواحة المدفونة تحت الكثبان، نفض الغبار عن نخيله المهمل وأفاء ظلاله عليها فنطقت عيناها قبل شفتيها.. أدهم. تدفّق الدم، انتظم النبض، ازداد وقعُه فامتلأ القاع، تمايزت الصورة، تشبّثت بها، سمّرتها ببقايا القوّة الكامنة في انهياراتها، حاولت انتزاعها من ذاكرة اللحم وتجسيدها مستقلّةً عنه.

قم الآن أعنّي. أحتاجك أكثر من أيّ وقتٍ مضى، أنبئني بما عليّ فعله أو دلّني على درب الوصول إليها! تجهل ذلك لأنك تجهلها، لكنّك تعرفني أيّها الغائب الذي طالت غيبته وطال انتظاري لعودته. لا تقل إنّها ستعود من تلقاء نفسها فلستَ تعزّي ولستَ تبحث عن سببٍ للعزاء. ارسم لي حلماً جميلاً آخر، جديداً راهناً. قل: ستلاقينها، ابحثي فلا يمكن لها أن تختفي. بعدها غِبْ مرّةً أخرى، انطلق في قفارك وقُدْ غيمك حيث تشاء ليمطر حسب مشيئتك، أعلن أنّ صباحي يفترق عن الصباحات. قُلْ: خوضي التجربة وانجي منها بإرادة الخلاص...

تنبّهت رحاب وقد عمّ نور الصباح. استيقظت على نجوى صلواتها فأفجعتها الصدمة.. كيف تهاويتُ إلى هذا الدرك؟ لكنّها أحست امتلاءها، تمخّض دم عروقها صباحاً لها؛ هي رحاب رحّال المنتدبة لمواجهة الوقائع المحطّمة حتّى نهاياتها القصوى، المدركة لمجانيّة الثمن الباهظ الذي ستؤدّيه والذي عليها ألاّ تسمح له بتجاوز قدرات احتمالها وبقائها! أتتها الصحوة

وبدأت تعمل من أجل ألاّ تضيع أحلامُها وتستحيل سراباً، محطّةً أخرى من محطّات العمر، مفترقاً آخر يدفعها للتحقّق من جدارتها وإثبات أنّ وجودها وحياتها ليسا عبثاً ولا باطلاً... هذا ما كانت تحتاجه لتخطو الخطوة الأولى؛ أن تواجّه بأنّها أبصرت ما لم تره، وتجابه بأنّها أعجز من أن تقاوم فكيف بالاقتحام، وأن يتلى عليها نبأ موتها الذي حدث منذ وقتٍ طويل...

دخلت حمامها لتغتسل تاركةً بابه مفتوحاً.. تعرّت بعجلةٍ وعصبيّةٍ وكبرٍ أورثها طرح ثيابها بعيداً بدل تعليقها أو لملمتها، تماماً مثلما فعلت بجسدها المتناثر حسب هواه. هطل رذاذٌ فوق رأسها أنعش لحمها، توتّرت عضلاتها فأحسّت صلابتها، تقبض جلدها واقشعرّ بدنها ثمّ جرفته سيول الماء التي صبّت إبرها سيّالاتٍ متناوبة من الصحو والغيبوبة.. رفعت ذراعيها وحلّت شعرها المعقوص ثمّ مرّت براحتيها على التمثال البرونزيّ الخارج من أتونه للتوّ.. دارت على تضاريسه خليّةً خليّة ورعشةً رعشة من رقبتها حتّى أصابع قدميها، لم تنسَ بقعة ولم تضيّع ثنيةً أو فوّهةً. لم تكن هي الباحثة، بل أصابعها التي فقدت الثّقة بوجود ما يصلها بعالم الأحياء فيجعلها تعاند الموت وتجادل الفناء. غافلتها عينان ترصدان بدنها فانكمشت وتطلّعت مذعورةً إلى جسدٍ عارٍ مواجهٍ ترقبها عيناه بحذرٍ وتوجّس، تروزانه كأنّما تختبران متانته وطزاجته، طاقات احتماله وتفجّرات رغائبه فغطّت ثدييها وعانتها بساعديها وكفّيها... باغتتها الحركة المتزامنة المتطابقة أمامها فأغمضت عينيها خجلاً، جمعت ملء كفّيها ماءً ورشقت الخيال الذي يحاكيها، نجحت حين أصابه رشاشها وفشل في إصابتها برشاشه. تابعت استحمامها، دعكت جسدها بمنشفةٍ بيضاء كبيرةٍ أطلّت على وجهها وقامتها فابتسم ثغرها لها. خرجت نصف عاريةٍ ملقيّةً منشفتها على كتفيها تاركةً على الأرض بقعاً تدلّ على آثار قدميها. في غرفتها، ارتدت على مهلٍ ثيابها مهمِلةً عادة انتقائها بعناية، كانت تحاول أن تعيّن سمتها واتجاه بحثها بهدوءٍ ورباطة جأش، بغير ذلك سأضيع قبل أن أفكّر بإيجادها، واجهت أسئلتها الأساسيّة، لمن ستلجأ جنان؟

أتبقى إلى حينٍ أم تسافر فوراً؟ ابتهلت ألاّ يصيبها مكروهٌ وستصل إليها، عاجلاً أو آجلاً! ظلّت واجمة، حاولت للمرّة الأخيرة أن تبسط أساريرها فأخفقت، لامست وجنتيها بما يموّه شحوبهما ولوّنت شفتيها بصبغٍ يشفّ عن لونهما الأصليّ، جمعت شعرها الأكرث وعقصته خلف رأسها فتخلّصت من ثقله وكفّ عن إحاطة وجهها بحداده المستديم. نهضت خفيفةً، أعدّت قهوتها، أشعلت لفافتها الأولى قبل رشف الرحيق الصباحيّ المرّ. الأقارب؟ لن يخطر ببالها أحدٌ كما لا يخطر ببالي، ما لم تكن قد سافرت فوراً ناسيةً جهلها لعنوانهم. أنهت قهوتها مطفِئةً لفافتها داخل فنجانها... حملت حقيبتها ومضت. بمن ستفكّر؟ تعلم أنّ عمّتها تقيم هنا، هل تتغلّب على كراهيتها وتلجأ إليها طلباً للعون أو سؤالاً عن العنوان؟ وكيف ستجدها؟ كم ألحّ على ذاكرة جنان أقاربها في الأسابيع الأخيرة! راحت تتحدث عنهم، توازن بين فضائلهم ومساوئهم بصوتٍ عالٍ، تحاول استرداد موقعٍ مندثرٍ لهم في قلبها. لم ألقّنها كراهيتهم أبداً رغم مشروعيّة ذلك بل حاولتُ إظهارهم، استجابةً لأسئلة طفولتها، حياديّين وغير مكترثين. حاولتُ كيما أبقي لهم مودّةً لا يستحقّونها في قلبها تبرير سلوكهم وتسويغ رفضهم لها بما لا يحمّلهم مسؤوليّة تنكّرهم. كلّ ذلك لتبقى صورة أبيها نقيّةً في ذاكرتها المدمّاة، لم تكن قد أبلت من جروحها المبكّرة إذ احتفرت كهوفاً عميقةً في أقاصي نفسها وارتسمت بغير إرادةٍ على ملامحها وطبعت عينيها بطابعهما الأثير، نسخةٌ طبق الأصل عن أمّها بلون بشرةٍ مختلفٍ وطبعٍ متباين. ورثت عنادها وتشبّثها برأيها ولم تماثلها في حدّة الطبع والاندفاع الأرعن وراء الرغبات! تظهر الآن حقائق جديدةٌ، فقد تغلّبت وراثتها على مجمل مكتسباتها وانفجرت مرّةً واحدةً ولربّما لن تتكرّر. ليس وقتَ التحليل والمقارنات أيّتها الغبيّة، لقد داهمك الوقت وعليك الإسراع. أربع ساعات مضين، أأستطيع اقتفاء آثارها؟

لم تختر رحاب وجهتها، لاحقت الشدّ الذي يتوتّر خارجاً من سرّتها

ليسحبها حيث لا تدري، غفلت عن حركةٍ تحيط بها ولربّما كانت الشوارع خاليةً، وربّما لا تحفّزها إلا رائحتها المبتعدة فلاحقتها كوعلةٍ ضلّت وليدها ودخلت مجاهل تختلف عن غاباتٍ ألفتها ورادتها. حاسّة الدم تقود.. تعمي البصر توقر السمع تزيح الحواسّ جميعاً وتذود عن حقّها في المتابعة حتّى القطرة الأخيرة... كأنّما تتبع الآثار، تلاحق الخطو وكأنّ النهار الذي نحّى العتمة لم ينحّ الشقّ الذي احتفره مسار الصبيّة داخلها. دخلت رحاب النفق المعتم والفضاء المنير يسيّجها، تُسارِع الخطو كلّما اشتدت الرائحة وتركّزت. كم كنتُ مخطئة، حسبتُ أنّني أضعتُها أو أنّها ضلّت وتاهت، ولكنّي أتابعها ظلاً بظلٍّ وقامةً بقامة. في عجلتها، واكب وجيبها المتسارع ازدياد شدّة الإضاءة التي فكّكت أطناب خيمة يأسٍ انتصبت فوقها، راحت تزيح جوانبها التي عبثت بها الريح وتقتلع حبالها فيرتج عمادها وتوشك أن تنهار. اطمئني، ستمشين ساعتين في طرقات المدينة ومنعطفاتها حتّى موضعٍ تستديرين حوله، تواصلين عودتك ساعتين أخريين في نفس الطريق أو طريقٍ غيره فتجدين نفسك أمام بابك، تدفعينه فينفتح للمستك، هل نسيتِ إقفاله؟ تغلقينه خلفك وحالما تدخلين غرفة جنان ستهبّ من السرير غاضّةً طرفها ثم تثب نحوك كفعلِ طفولتها حال ارتكابها أيّ ذنب لتعانقك دافنةً رأسها بين نهديك ذارفةً دمعاً شحيحاً ثمّ قبلةً في العنق تغني عن كلّ اعتذار. تصفحين كعادتك من غير سؤالٍ أو لوم، تكون علامة صفحك مداعبة أنفها بأنفك وعضّ شحمة أذنها. لن يطول الأمر إذن.

عثرت رحاب وكادت تقع، نظرت لما أعثرها فتمزّقت الغلالة النفقيّة التي سرت في جوفها ودخل الضوء عينيها فأعشيتا. أغمضتهما رافضةً أن ترى وتصدّق وتقرّ؛ حقيبة جنان مفتوحةٌ منثورة المحتوى. حاولت لملمة ما تبعثر من أشياء البنيّة الغالية خائفةً أن تلمس شيئاً من دمها، وضعت الحقيبة الصغيرة وما استطاعت جمعه في الحقيبة الكبيرة وتشنّجت يدُها على الهويّة المهملة. انتهت الرحلة هنا وتهيّأ لها أنّها ستفقد صوابها مرّةً أخرى. أوقفت

سيّارةً وعادت على عجل، دخلت غرفتها، وضعت الحقيبة فوق سريرها واتّكأت عليها مختلجةً في بحران نشيجها وقد تخلّت عن كلّ أمل. أتبحث الآن عن جثتها أم عن أشلائها في مشفى ما؟ جاء الرنين منذِراً... هبّت مذعورةً كأنّ ألف عقربٍ لسعتها في اللحظة نفسها، ركضت مترنّحةً نحو الهاتف، مدّت يدها فلم تطاوعها الكفّ على التقاط السماعة، توقّفت فوقها مبسوطةً لا هي تقبض عليها ولا هي تتراجع عنها. رنّةٌ أخرى وما احتملت، وضعتها على أذنها ويسراها على قلبها تريد إخماد وجيبه الهادر أو إمساكه خوف تحطّمه آن سماع النبأ. أصغت واجفة...

ـ رحاب صباح الخير!

لم يخفّف صوت وفيقة الأليف، الحامل ابتسامة صاحبته وعذوبة ملامحها على تموجات جرسه، اضطرابها وتلهّفها فأجابت نابرةً:

ـ أهلاً.

وصمتت.

ـ رحاب، ما بالك، هل من خطب، هل أنت وجنان بخير؟

تهالكت أخيراً، انهارت الروح من شدّة التوتّر فأجهش الجسد.

ـ رحاب، هل أصابها مكروه؟ أجيبيني.. لماذا أنت صامتة؟

لم تتمالك رحاب نفسها وتوالى نحيبها.

ـ حسنٌ، سأوافيك حالاً. انتظري ولا تغادري.

طال وجومها فخدرت يدها، أعادت السمّاعة لموضعها وانتظرت.. هشّةً تتراقص على هبوباتٍ تأتيها من جهاتٍ مجهولة. استنكفت عن التفكير، فأيّ تفكيرٍ سيؤدّي لتوقّع احتمال إصابة جنان أو حتى... لم تستطع ترديد الكلمة، تكون قد خسرت كلّ شيءٍ وما من شيءٍ يعوّض الفقدان. حاولت تمالك نفسها، آن أوان قيامتي، بحثتُ عنها حيّةً، آملةً أن أجدها هنا

بانتظاري، وعليّ الآن ملاحقة موتها وموافاته في موعده... لأنّها ستبقى بانتظاري!

المشافي أولاً، تبليغ الشرطة ثانياً. تمسّك بأمل وجودها حيّةً، قد تكون مصابةً لكنّها لم تفقد الروح بعد، انتظرت على مضض، ذرعت الغرفة بعد أن جفّ دمعها... فتحت الباب ظانّةً أنّها سترتمي في أحضان وفيقة لكنّها تسمّرت في مكانها فبادرتها الصديقة وأخذتها بين ذراعيها متملّيةً آثار دمعها... أغلقتا الباب، أوشكت أن تتداعى مرّةً أخرى فتشبثت بعنق من أتتها مواسيةً.

ـ ما الذي حدث؟ سألت المرأة الخارجة من عصورٍ قديمةٍ توسّطت بيوتها المدينة العتيقة ولم تغادر أسوارها منذ قرون. دع معارفها جانباً وانظر إليها من كلّ الجهات تجد أنّها بعضٌ صميميٌّ من عبق التاريخ... ما يداخل الخشب والطين عروقاً، مقرنصات أقواس الحجر التي تمنح أمناً وطمأنينة، عذوبة الماء الساكن في بحيرة تظلّلها أشجار النارنج والكبّاد والليمون ويفوح من جنباتها شذى الياسمين، شيءٌ من السؤال عن صحّة الجار وعيادته أثناء مرضه والوقوف إلى جانبه في الشدّة، وكثيرٌ ممّا فقد وامّحى وغيّرته أزمنة التحوّل والتبدّل دون أن يزول. معها تنسى ضرورة الحذر والاحتراس، تضع روحك على راحتها قائلاً هي لكِ، افعلي بها ما شئت. لا تتوجّس لأنّ اليقين يحالفك حين تعلم أنّها لن تفعل بها إلاّ كلّ خير! حتّى في عبوسها ثمّة رضىً يأسرك في ملامحها.. رقّةٌ تشدّك ولا تستطيع إلاّ أن تمتثل لمطالبها وأوامرها ونواهيها. تمحضك الأمان فترتمي في أحضانها، تصيخ السمع وأنت تجوس ظلالها فلا تحمل النسمات التي تحرّكها كفّاها إلاّ هديل يمامٍ بعيدٍ في عصر يومٍ قائظ... حنينٌ لاذعٌ لكلّ ما افتقدته ولكلّ ما تقت إليه، واضحاً كان أم غامضاً. تهبك الفرحة وسط الحداد!

جلستا.. حضورها وحده وهب روح رحاب سكينةً عزيزةً لولاها لانزلقت في متاهاتٍ لا خروج منها.

ـ جنان رحلت يا وفيقة!

صمتت، فحثّتها وفيقة:

ـ وبعد، ليست المشكلة هنا، أليس كذلك؟

ـ صحيح، فالمشكلة الحقيقيّة أنّني وجدت...

غصّت وكادت تجهش من جديد، لكنّها تماسكت أمام الحضور الطاغي لامرأةٍ منحتها في جنبات روحها ملاذاً فتابعت:

ـ وجدت حقيبتها منثورةً وسط الشارع. أيّ مكروهٍ أصابها؟

أجابت وفيقة برقّةٍ معهودةٍ وحزمٍ ضروريّ:

ـ علينا أن نعرف.. نمرّ على المشافي ونسأل الشرطة.

قامتا، وقبل أن تصلا الباب التفتت وفيقة كأنّما تركت قنبلتها لتلك اللحظة، استدارت، نظرت في عيني رحاب وأطلقت نبوءتها:

ـ عاد أدهم!

تسمّرت رحاب، أخرستها المفاجأة وما دريت في طربها أباكيةٌ هي أم ضاحكة. قاطعتها هجمتان؛ حمّى الإجهاش من جانبٍ وانفجار الحبور من جانبٍ آخر. أرادت أن تستوثق، لكن مع وفيقة لا يوجد إلاّ سؤال وحيد:

ـ أين هو؟ منذ متى؟ كيف لم يأت؟

حاولت وفيقة تهدئتها:

ـ خذيني بحلمك، سأحدّثك في الطريق.

ـ لا، قولي الآن قبل أن نتحرّك.

استجابت وفيقة للإلحاح مرغمةً، خافت عليها من صدمةٍ ثانيةٍ تودي بها وأملت أن تتوازن الصدمتان وتعيداها إلى توازنها:

ـ حسنٌ، وصل منذ أسبوعين، أمضى أيّاماً في منزل أهله ثم غادره. حاول أن يتّصل بالأصدقاء القدامى فلفظه من وجده منهم وتنكّر له رافضاً

إعطاءه عنوانك فاضطرّ للإقامة عند صفاء.

قاطعتها رحاب متوجّسةً:

ـ من صفاء؟

ـ ابنة الأستاذ فريد، أتذكرينها؟

انتفض شيءٌ في ذاكرتها ثمّ همد، لكنّ صداه استحال رجّةً زعزعت كيانها. ما الذي يحدث اليوم؟ هل هي القيامة؟ بعد هنيهةٍ أتى الصوت المهدّئ:

ـ نحن هنا! مضى ذلك الزمن، تغيّرت الدنيا وتغيّرت الأحوال والناس. مضى من مضى وراح من راح في دروبٍ شقّتها الحياة، حتّى نحن تغيّرنا. أعرف، ستقولين ثمّة ما لا يتغيّر، لكنّنا مضطرّون لإيهام أنفسنا بأنّنا نتحوّل جزئيّاً كي نواكب ما يتحرّك بعنفٍ وسرعةٍ ولا نلهث وراءه، أو أننا نحسّ تخلّفنا عنه وعجز اللحاق به، آنها نكون قد تغيّرنا حقّاً!

ظلّت رحاب صامتةً فأهابت بها وفيقة:

ـ علينا أن نجد جنان ثم نبحث في ذلك كلّه.

قاطعتها رحاب كأنّما تذكّرت:

ـ لكنّه سيساعدنا في البحث عنها، ما من أحدٍ غيره يستطيع ذلك.

طيّبت وفيقة خاطرها:

ـ سنسعى أوّلاً، ثمّ نجده بعد ذلك أو خلاله...

استغرق البحث في المشافي وقتاً وجهداً شاقّاً، صعوداً وهبوطاً في شدّات التوتّر وقلقِ الانتظار والترقّب. كان الأبشع والأقسى محاولة التعرّف على الجثث التي أُدخلت البرّادات خلال الساعات الفائتة ليتمّ تعيين هويّات أصحابها السابقين بعدما وحّدت هويّاتهم وهمومَهم تلك البرّادات وجمعتها تحت لافتة الخلاص وانتهاء العذاب!

لم يظهر لجنان أثر، تهيّأ لرحاب إلغاء فكرتي الموت والإصابة. ما الذي يتبقّى؟

دخلتا قسماً للشرطة، أبلغتا عن غيابها وملابساته، سجّلتا أوصافها ثم أخمدت البرودة لهفتهما وتلاشت اندفاعات الإلحاح أمام الصدود واللامبالاة.

ـ انتهينا، إذا بلغنا شيءٌ نخبركم.

ـ ألن تقوموا بالبحث عنها؟

ـ ألا تفهمون؟ تظنّون أن لا شغلة لدينا إلا البحث عن الخانم التي تهرب من بيتها بعد منتصف الليل! تريدوننا أن نبحث عنها أيضاً! حلّوا عنّا!

أما رئيس القسم الذي ألحّتا على مراجعته، فقد أطلّت من عينيه شهوةٌ عرّت رحاب من ثيابها. ودّت لو تنشب أظافرها في وجهه وتفقأ تلكما العينين أو تشتمه بعد تلميحاته القذرة، ثم حسم الموقف:

ـ إن أحببتما انتظراها هنا، لدينا أشغالٌ أخرى، حين نعرف نخبركم.

غادرتا قانطتين مودّعتين بابتسامةٍ غادرة؛ سأنال منك يوماً أيّتها العاهرة! في طريق العودة أصرّت وفيقة على اصطحاب رحاب:

ـ لا أستطيع التأخّر أكثر من ذلك، سيصل الأولاد من مدارسهم عمّا قريب، ستذهبين معي ونناقش هناك ما يمكن فعله. أولئك الأوباش لا يُعتَمد عليهم.

وافقتها رحاب صامتةً.. كانت تحسّ خواءً يتنامى داخلها، يكاد يمزّق السطح الذي يئّن تحت ضغطه:

ـ لا أستطيع الذهاب معك، عليّ أن أعود للبيت، ربّما اتّصلت أو اتّصل أحدهم، وعليّ أن أتّصل بصديقاتها وأعرف عنوان ذلك الخبيث مالك فهو وراء ذلك كلّه. لماذا لم نخبرهم عنه؟ ربّما وجدوه وربّما كانت عنده.

ـ اطمئنّي، ستتّصل بك إن كانت عنده، ليست حمقاء، ولن تغفل

القلق الذي يساورك! على أيّة حال، تبدو فكرتُك صائبة، ارتاحي قليلاً ثم اتّصلي بصديقاتها وحاولي معرفة عنوانه. خابريني.

ـ حسنٌ، إلى اللقاء، قالتها رحاب متعجّلةً عودة وفيقة لأولادها.

ـ لا، سأوصلك أولاً.

ـ ما من داعٍ لذلك، لا تشغلي بالك. صحيح... وأدهم؟

ـ لا عليك، سأتكفّل أنا بهذا، سأجده وأحضره بيديّ إليك.

تصافحتا ومضت كلّ واحدةٍ في طريقها. قرّرت رحاب، رغم إنهاكها، مواصلة السير مشياً لمنزلها رغم طول المسافة. هل أرادت الابتعاد عنه أم سعت لمواصلة متواليات أفكارها بعيداً عن حصارٍ ستفرضه جدرانه وخلوّه من جنان؟ أخجلتها محاولة إبعاد البنيّة لتتفرغ لأدهم. هل أتى حقّاً؟ كم تمنّت قدومه في وقتٍ آخر، لكانت ارتعدت كمراهقةٍ تلقّت أوّل قبلةٍ على شفتيها، ليس قبلةً بل لمسة أنامل انحدرت من تحت أذنها وحاذت فكّها وصولاً لنهايات عنقها، وبدل متابعة هبوطها صعدت لتلامس وجنتيها وزاوية عينها، متابعةً إيقاظ ذاكرةٍ خفيّةٍ تحت تضاريس وجهها تضرب عميقاً في أقاصي جذورها. لو أتى لصدحت أغاريدها التي عفا عليها الزمن وخلّفها داخل سياجات النسيان. أتي، وهي تحتاجه ولن تتمكّن أبداً من استشعار حاجته إليها، وهي التي تشكّل خلاصات أوبته.. كم من زمنٍ قد مضى! أخرجها إحساسها بالذنب تجاه جنان من حلم كاد أن يتمدّد مالئاً أفقها منعشاً بقايا روائحه العالقة في باطن منخريها وحلقها ورئتيها.. تستحيل الذاكرة ندىً ينعش ذبولها فتضحك، ثم تلسعها سياط الندم. كيف أفكّر بنفسي وأنساك؟ تداركت. لكنّني تذكّرته حين اشتد بي الكرب وتولاّني العجز، أما كانت استعادة وجهه حافز الركض وراءك والخروج من حمّى أذهلتني بسببك عنك؟ ما كانت استعادةً أبداً، داخلني حضوره معلناً نفسه من داخلي وعليّ الآن أن أراه. لن أسمح له هذه المرّة ـ طالما عاد طواعيةً ـ

بالتخلّي عنّي والتخلّص منّي ورميي كجيفةٍ تعافها الأنفس مهما كان التسويغ أو التعليل. لربّما سامحت مرّةً، ولكن أيمكن أن أصفح ثانيةً؟ أخذت جيشاناتها تتقاذفها كلّما بعدت عمّا يؤرّقها ويزعزعها وفاءت إلى ما يهبها السكينة، اختلط عليها الأمر حتّى كاد يلتبس؛ من الأهمّ والأولى بالبحث والملاقاة، جنان أم أدهم؟ وكيف حدث ودخلا بؤرةً واحدةً تجمّعت فيها كلّ الإشعاعات وراحت تتركّز وتتوالد حتّى برقت سطوعاً يغشي الأبصار؟

تلفتّت حواليها بحثاً عمّا يلهيها دون فائدة، اصطدمت ببعض المارّة ولم تهتمّ، ارتطمت بعمودٍ أو شجرةٍ فاعتذرت دون أن تتبيّن من تخاطب. تذكّرت وفيقة، الوحيدة الباقية على عهد تواصلها معها، الوحيدة التي لم تلتهمها وقائع حياتها الجديدة؛ زوجها وأطفالها وعملها والمعارك الصغيرة والكبيرة من أجل لقمة خبزٍ غير ملوّثة، من أجل إحساسٍ طبيعيٍّ أصيلٍ وعفويٍّ بإمكانيّة العيش دون الاضطرار لتغيير الجلد محاكاةً أو مراعاةً أو تلاؤماً مع انعطافاتٍ تُرغِم المرء أن يكون ما تريده ويمتثل لها دون نقاش، وإلاّ، فالجوع والتشرّد له ولأطفاله إن لم تكن العقوبة أشدّ وأعتى. يتردّد صدى كلماتها: لو تعلمين كم كنتُ محظوظةً باقتراني بكريم، تخيّلي ما كان قد حلّ بي لو لم نكن متطابقين! حين أراه غارقاً في يأسه، كافراً بكلّ القيم التي جعلته موطئاً لأقدام السادة ودريئةً يصوّبون عليها أو يصبّون جام غضبهم عليها ساعة يشاءون فيلج سبخات تنكّره لنفسه ولعنه زمناً جعله يرتضي المذلّة كرمى لأطفاله، أحسب أنّني أنا من يمنعه من اللحاق بالركب وسبق من يقلّون عنه بكلّ شيء رغم أنّهم لا يبصرونه إلا حشرةً نكراء وأفكّر: هل نحن مخطئون بحقّ أنفسنا وأطفالنا حين نعاند ما سيجرفنا في اللحظة التي نغمض أعيننا فيها ويحيلنا هباءً؟ لكنّني أصمد، أثير زوبعةً حتّى تخمد التنانين التي تلفظ نيرانها في دماغه ودمائه. نتعانق ونتّفق، كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام! أضعف أنا حيناً آخر فيثنيني عن الخضوع لوهنٍ يعتريني، ورغم ذلك أعيش خوفاً دائماً؛ ماذا لو حدث ما يقتلع الجذور

الصغيرة التي نحميها ونرعاها بعيوننا وأفئدتنا؟ ما الذي سيحلّ بنا؟ أنستطيع أن نقف على أقدامنا مرّةً أخرى؟

ما كان ثمة جواب، فالزمن يفرض على المرء أن يحارب نفسه والظرف والآخر، وهي معارك متكافئة الشروط في الحدّ الأدنى، لا يملك المرء تحويلها لصالحه. قاتلٌ أو مقتول، ولا حلول وسطى! فكيف يفعل إن اختلّت تلك الشروط وفرضت عليه هزيمةً نكراء؟ كيف يشكّل أو يرى خياراته؟ هل له فعل ذلك؟

كانت وفيقة وزوجها أحد الأجوبة المحتملة على ذلك السؤال الشائك، وقد رأت فيه رحاب تجسّداتها الخاصّة وشراكةً تؤكّد وجوده وإمكان تحقّقه رغم استحالة تواشجها مع حياة وفيقة الأسرويّة لسببٍ بسيط. تذهب خضوعاً لإلحاحها، تلاعب الأطفال وتشارك الأبوين مسرّاتهما الصغرى المتمثّلة في قدرتهما على الصمود والاستمرار رغم شراسةٍ أحاطت بهما آمرةً في كلّ يومٍ وساعةٍ وثانية، في اليقظة والنوم، باستسلامٍ غير مشروط، مستخدمةً وسائل متنوّعةً تنوس بين الترهيب والقمع والترغيب ومدائح التملّق، وفي رعاية الأطفال الذين صاروا شباباً وصبايا زُرعت أرضهم الخصبة بالبذور ذاتها انتظاراً لمواسم المطر العصيّ. شاركتهما أيضاً بعضاً من المشكلات التي تتناسل بإفراطٍ ويصعب حلّ بعضها إن لم يستحل! امتنعت عن الاندماج ليس لعلّةٍ فيهم، فكم أحبّت صحبتهم وكم أضحوا جزءاً منها وأضحت جزءاً منهم، بل لإحساسٍ ينتابها، نوعٌ من غربةٍ غامضةٍ وانقباضٍ مستتر، كلّما ملأ عينيها مشهد الأطفال وهم يكبرون وينمون متحوّلين من طورٍ إلى آخر تستشعر غصّةً في حلقها وحرقةً في مقلتيها وما يعتصر قلبها وهي تستمع لوفيقة عن حكايا معاناتها ومصاعبها في فهمهم ومحاولة الاقتراب من عوالمهم المتباينة والانتقال معهم من مرحلةٍ إلى أخرى... تحاول مشاركتها بكلّ جوارحها، لكنّ عيناً خفيّةً ترقبها بتقريعٍ ولوم، لمَ لستِ مثلها؟ كم كان مريعاً ظهور تلك العين وانكشاف ما حاولت تمويهه وإخفاءه

أمام وفيقة وزوجها! الأطفال ما كنت أخشاهم، لكنّها باتت تهاب عيونهم حالما كبروا وراحوا يراقبونها بنهم متزايدٍ يكشف أي تغيّر يطرأ عليها. ربّما نبّهتها حساسيّتها المفرطة ومعرفتها بخفاياي ومواطن أسراري فما عادت تلحّ، لكنّها استمرت تعودني وتدعوني بين وقتٍ وآخر، أصرّت فقط على زيارة جنان اليومية لبيتهم أو زيارة ابنتها منى لبيتنا. الوحيدة التي بقيت لصق الروح، والباقون مضوا! بعضهم يتذكّر حيناً فتسرقه الذكرى من معترك حياته فيأتيها، يبثّ أشجانه ويشكو أوقاتاً عصيبةً أكرهته على اعتزال العالم ودفعته حتّى لاعتزال نفسه فبات يكره عالماً استحال قناعاً يضحك لهزائمه ويسخر من انكساراته، يكره نفسه التي ارتضت انتهاكاً مزدوجاً صيّر العذابات التي أحالت الحياة إلى جحيمٍ متواصلٍ نكراناً لروحٍ دُفعت للتحمّل منذ البداية.

كانت وفيقة من الذين ارتضوا هذا الأتون طواعيةً وأصرّوا على عبوره حتّى النهاية، آملةً الانتصار على نفسها في ثبات محاربة عوامل الخضوع. ساهم ذلك في جعل الحياة أكثر قبولاً بالنسبة لرحاب، فقد حاربت نفسها أيضاً واضطرّت لقبول مهاناتها المتواصلة في العمل والطريق وعلاقات الناس وحتّى في بيتها كيلا ترتضي هروباً جديداً، وهماً لخلاص روحها وشفاء جسدها. وكما فعلت وفيقة، رفضت بإصرارٍ فرصةً سنحت لكريم للعمل في دولة خليجيّةٍ تهيئةً للانتقال لدولةٍ أوروبيّة. ناقشت من زاويتين، الأولى فكرة الهروب وتخلية المكان، والثانية فكرة الهزيمة داخليّاً والقدوة السيّئة خارجيّاً. كانت رحاب حاضرةً، انشطرت بين الاثنين، تارةً ترى وفيقة على حقٍّ وتارةً ترى زوجها يدافع عن رأيه بمنطقٍ صارمٍ لا يبيح لها إلاّ أن تقف إلى جانبه:

ـ انظري يا وفيقة واحكمي يا رحاب، لا تكفيهم محاربتنا في لقمة عيشنا وسويّة هذا العيش في حدوده الدنيا المتوافقة مع الكرامة البشريّة. هل نغيّر جلودنا ونمحو أرواحنا لنصوغها بطريقةٍ ترضيهم وتلائمهم أم ننسحق أكثر؟ أفهم أن نضحّي أنا وأنت بكلّ شيءٍ انسجاماً مع قناعاتنا، لكن ماذنب الأولاد يرون رفاقهم أفضل منهم من كلّ النواحي ويحرمون من الكثير؟ هل

سيطعمهم خبزاً ما نلقّنه لهم اليوم؟ قولي أنت يا رحاب، ما الذي كان سيحلّ بنا لولا صدفةٌ استثنائيّةٌ جعلتنا نأمن شرّ دفع أجر منزلٍ لا تحتمله ميزانيّتنا المحدودة؟ دعي هذه، لو أصيب أحدنا ـ لا قدّر الله ـ واحتاج عملاً جراحيّاً، هل نبيع البيت لتسديد فواتير المشفى؟ هل نملك ما يضمن يومنا حتّى نضمن غدنا؟ ألن تقودهم دوافع حاجاتٍ غير مشبعةٍ وخضوع عقولهم الغضّة لثقافةٍ استهلاكيّةٍ جانحةٍ تهاجمهم من كلّ الجهات إلى انحرافٍ يلجئ لألف وسيلةٍ تجعلهم يجارون أصدقاءهم؟ هل تضمنين أولادك؟ هذه منى، منذ متى تطلب ثوباً بدل ثوبها المهترئ؟ هل استطعنا شراءه رغم كلّ محاولاتنا لتوفير ثمنه؟ حسنٌ، تتاح لنا فرصةٌ لا تلزمنا بالتفريط بما لا نرتضيه فتأتي السيّدة المصون وتقول لا. دعينا نؤمّن مستقبل الأولاد.. ونعود بعدها.

ظلّت وفيقة تهزّ رأسها بإصرارٍ رافضةً كلّ حججه المنطقيّة والمشروعة مفنّدةً إياها واحدةً واحدة، كيما تصل في النهاية لنتيجةٍ مفرِطةٍ في البلاهة لأنّها تطابق الحقيقة وتخالف كلّ الوقائع!

ـ هذا يعني أنّني أخون نفسي ولن أقبل أن أكون قدوةً لأولادي ومثالاً يشرّع لهم القيام بما فعلت. ليقارنوا من زاويةٍ أخرى؛ لم يستسلم أبوانا في ظروفٍ أسوأ أو أفضل، فكيف نستسلم نحن؟

يوافقها، لكنّه يعود لتكرار ذات الشريط ونعاود الاستماع إليه كأنّنا نسمعه لأوّل مرّة، يطفح الكيل به وينفجر أخيراً:

ـ اشبعي فقراً ومذلّةً وفقدان أمان، عيشي أحلامك التافهة وكلي واشربي واكسي أولادك واشتري لهم كتبهم ودفاترهم من أوهامك الخرقاء. خطيئتهم في رقبتك، هل تفهمين.. هل تفهمين؟

مع صرختيه انتزع سترته المعلّقة على مسند كرسيٍّ خشبيٍّ حائل اللون وفتح الباب، وقبل أن يغلقه التفت إلى رحاب:

ـ املئي رأسها بحماقاتك السفيهة. طبعاً، لا ولدٌ ولا مسؤوليّة، ما الذي يهمّك أنت؟

صفق الباب صفقةً ارتجت لها جدران الغرفة، بقينا واجمتيْن برهةً لم ندرك مقدارها، وقف الأولاد أمام باب غرفتهم بعدما فتحوه ليعرفوا سبب الصراخ. بعدها ضحكنا جميعاً دون اتفاقٍ ودون معنىً... كان يمكن أن نبكي أو نصرخ أو نحطّم الأثاث المحيط أو نتعارك متقلّبين على الأرض، لكنّنا ببساطةٍ انفجرنا ضحكاً، ربّما لأنّنا انتصرنا على أنفسنا وربّما هزءاً من سخافاتنا، ما من أحدٍ ليحكم وما من مستقبلٍ مرئيٍّ لنحتكم إليه، فاحتكمنا لأحلامنا التي اجتاحتنا فيما بعد ودمّرتنا قبل أن تتبدّد وقبل أن نتيقّن أنّنا كنّا نحلم فعلاً أو نهرب من أحلامنا!

أنا ـ ربّما لأنني لم أعانِ بشدّةٍ ـ تمسّكت بأحلامي، غذّيتها ووفّرت لها أسباب العيش، لم أفكّر يوماً أنّني سأضطرّ لإحيائها بشكلٍ اصطناعيٍّ، فقد بقيت الوجوه التي علّمتني كيف ولماذا أحلم تعيش معي باستمرارٍ وتزوّدني بطاقات انتظارٍ لا تُستنفَذ. يجعلني وجه أدهم أمنّي النفس بأنّ انتظاري سينتهي يوماً ولن يزهق عبثاً، وسيحلّ حالما يعود الوجه الذي احتفرته الذاكرة على سطحها وجسّمته في أعمق أعماقها، مستعدّةً لنفخه روحاً يفتح بعدها نافذته ويخرج قائلاً: مرحباً، هاأنا قد عدت.

استمرّ ذلك طويلاً حتّى اكتشفت الحقيقة وعرفت أنّ أدهماً قد رجع، لكنّه عاد متأخّراً حتّى فقدت عودتُه معناها واستحال بهاؤها المشتهى شيئاً ممجوجاً بعدما أصبحتُ خالية الوفاض. لو بكّرتَ قليلاً! فقط لو بكّرت، ربّما لم تجد البنية مسوّغاً لضلالتها التي أودت بها مرّةً واحدةً ونهائيّة! أعدتَ لتساعد في البحث عن جثّتها، عن الرمّة التي صارتها؟ حتّى لو بقيت تسير على قدميها، أما زلتَ تملك عجائبك الشفائيّة التي ستقيمها من موتها أو تقيل عثرتها أو تحفظ روحها من أذىً يلازمها طوال العمر؟ أتستطيع لمسها بكفّك السحريّة، تقنعها أن تفني عمرها في انتظار قدومك الحتميّ أو قدوم أدهمها بعد عقدٍ أو عقدين أو قرن؟ أشكّ في ذلك! لقد هجرتَنا، لا لتعود حاملاً نجوماً تضيء لليالينا وتشعل نيراناً تاقت لشراراتك، هجرتنا كيما

تشهدنا ننتظر واجفين وجلين، مترقّبين انطفاء نجومنا وإعتام عيوننا لتعلن موتنا وتبيح - بإرادتك الملكيّة - مواراتنا قبورنا أو بيوتنا أو دفننا في أحذيتنا الخلقة التي غيّرت كثرة الخصف معالمها مثلما فعلت في ملامحنا! قل إذن، لمَ عدت؟ ليتك لم تفعل! ربّما... ربّما استطعنا العثور على عزاءٍ في مواصلة انتظارك يغنينا عن حدادٍ أبديٍّ ينفي أيّ زفاف! وقد انتظرته.. كذّبتهم جميعاً، القريبين والبعيدين، الذين أشفقوا أو تحسّروا والذين شمتوا وتغامزوا. قلت سيأتي وقالوا في سرائرهم سيأتي موتكِ قبل أن يأتي. ثم مضوا، أهملوني مثلما أهملوا أنفسهم ونسوني مثلما نسوها. أمّا أنا، فلم أهمل ولم أنسَ، لم أُغفِل ولم أغفُ.. طالت صحوتي وما أبهتُ لوسني وإرهاقي وما باليتُ. مسح الزمن قامتي بمياهه الجارية وجفّفتها الريح وسقاها الرمل ثم سفعتها الشمس لكنّي دفعت الزمان، أوليته ظهري وقلت: لن تنالني، سأحتفظ بما يلي جديداً لزمانك الآتي. استمرّ ذلك كلّه.. استمر حتّى لحظةٍ غافلتني كأنّي غفيتُ ثانية لأستجمع قواي فغمرتني، سحلني زماني فانسحب زمانك، ابتلعته الغمرة وطفوت فوقها. لا أريدك ولا أريد نفسي، أريد فقط إيصالها برّ الأمان وما وصلت، دخلت تيهها فأبصرت تيهي وافترقنا مرّةً أخرى.. بعدها ما من ملتقى!

قاربت بيتها محاذيةً تخم المدينة، تجاوزته وصولاً لملاذٍ اختارته كي تبقى ضمن المسافة، عينٌ لصق مجرى الماء وعينٌ على الإسمنت، والإسفلت المسيّج يخرق وحدتها ويحكم الطوق عليها من كلّ الجهات إلا جهة الماء. للتوّ اشتهته.. اشتهت أن تنزلق خلال تياره المتدافع، تقف على الحصى المستدير المتدحرج تحت ثقلها فلا تحتفظ بتوازنها، توالي تحريك قدميها لتحافظ على استقرارها، تفرد ساعديها وتعترض المجرى لتحسّ قوى دفع التيار، تُغطِس رأسها ليغمر الماء قسماتها ويشبع شعرها برائحة حشائشه النديّة ثمّ ترفع رأسها وترنو للزرقة، لا يقي كتفيها من لسع الشمس إلا شعرها الكثّ المتلبّد على جانبي وجهها والمائج على كتفيها مع انسراح الماء فوقهما.

تقف هكذا حتّى تحسّ خدر التجمّد يتصاعد من قدميها مرتقياً ساقيها ففخذيها وحقويها وصدرها حتّى عنقها، تغمض عينيها وتهمس للجسد، تكسّر الآن وامض مع الماء إلى حيث يعيد تجميعك آن يريد أو حين تستحقّ. بقدر ما اشتهته بقدر ما حرّمها عليه ولو أنّها أحسّته، اغتسلت به رغم أنفه وأدركت دون لبس أنّ عليها الاستعداد لمواجهة موت جنان بالبسالة التي ستستقبل بها موتها الوشيك. كأنّ الموت شريكٌ لا يقبل قسمةً ولا يسعى إلاّ وراء الكمال رغم أنّه لا يحوزه إلاّ مرّاتٍ معدودةً، لكنّها كافيةٌ لتضفي عليه معنىً مميّزاً، تنزع عنه العاديّ وتمنحه الاستثنائي. هكذا خيّل إليها، أمّا في واقع الأمر فما كانت تفعل سوى إيهام نفسها بأنّها رست على برٍّ محايدٍ يحميها لثوانٍ من الإعصار الذي يفصم وحدتها ويعيد اقتسامها كأنّ تناقضاتها عفت عنها وتركتها تستقرّ وتهدأ!

ولجت بابها ظاهرها الهدوء، كأنّ إحساس الموت هيمن بعد أن أزاح انفعال الصدمة وجرف تداعياتها محلاًّ وجوم الانتظار، ماذا لو كانت حيّةً تعاني ولا تجد في أوجاعها إلاّ أمل أن يبادر أحدهم لإنقاذها؟ من سيكون غير خالتها؟ رجعت زوبعة القلق وسحقها ندم تركها تمضي دون كلمة تحذير! جنحت نحو الذاكرة.. هل فعلت معي ما فعلتُه بخالتي؟ معي؟ ما كنت لها يوماً ما كانته خالتي بالنسبة لي! لم أعاملها أبداً ـ كما عوملت ـ على نحوٍ أتشفّى فيه خلالها من مواجدي على غيرها حتّى لو كان أمّها، أو من أحقادي التي استحالت ضغينةً على العالم بما فيه نفسي! ذاك ما كانته خالتي التي انقلبت كراهيّتها للعالم عدواناً قسريّاً وبطشاً لا يحدّه حدٌّ على نفسها وعلى أقرب الناس إليها حين أدركت عجزها عن رمي العالم به، نفس العالم الذي سخر منها وزاد ضغوطاته المدمّرة التي استهدفت روحها قبل أيّ بناءٍ آخر! رفضتُ وصايتها ووصاية أعمامي فتمنّوا جميعاً رؤيتي غائصةً في الوحل كيما ألتمس غفرانهم وأناشدهم عفواً وعوناً ليشمتوا وحسب، قائلين نلت ما تستحقّين.. فقد جنت يداك عليك. كنتُ عصيةً على مهانة

الاستسلام، قاتلتُ كيلا أسقط أوّلاً وأنا الواقفة وحيدةً معزولةً على خطّ النار وكيلا أرجو صفحهم وقبولهم عودتي مطأطئةً متسربلةً بالعار ومعجونةً بالندم. صمدت وما أردت لها أن تكون غير ما كنت رغم أنّها لم تتعرّض لما تعرّضتُ له ولا طولبت بالذي طولبت به، فلماذا انفكّت وأرادت إثبات قدرتها على الاستقلال، ليس برأيها ومواقفها وحسب، بل بحياتها وروحها أيضاً وأساساً؟ والنتيجة.. تجلّي انكساري الكامن وتجسّد هزائمي فيها وانفجار اعترافاتي في كيانها الغضّ... فكيف ستحتمل، كيف؟

أعادها رنين الهاتف الملحاح لوقتها، ولأنها دخلت بوّابات الختام لم تبالِ ولم تهبّ مسرعةً لتلقّي خبرٍ ما عادت تهتم بفحواه، فالأمر سيّان. مع ذلك، قامت:

ـ أهلاً وفيقة، هل من جديد؟

ـ نعم، منى أخبرتني أنّها تعرف صديقة جنان التي عرّفتها على مالك، وما من شكّ بمعرفتها عنوانه!

ـ ما هو عنوانها؟ سألت متلهّفةً وقد عادت لوضع مبالاتها الذي هجرها إلى حين، مخلياً مكانه لنصفِ ميّالٍ للاستسلام.

ـ ليس العنوان، رقم الهاتف. أحضري ورقة وقلماً.

ـ ثانيةً واحدةً وحسب.

سجّلت الرقم وسألت:

ـ وأيضاً؟

كانت تريده، تسأل ظهوره وحضوره وعونه. لم تتخلّ عنها فكرة التحامهما معاً، لم تتقبّل أو ترتضِ فكرة انفصالها عنه وانخلاعه عنها، ما عاد ثمّة ما يعيد اللحمة ويجدّد الصلة الغامضة.

ـ وأيضاً.. اتّصل عبد الصمد، تعلمين، يتّصل بين حينٍ وآخر ليعلن

وجوده وحسب، اتّصل ليعلن وجود صديقٍ قديم يبحث عن رحاب رحّال المعلّمة. حين سأله كريم عن اسمه قال أدهم، فكرّرها كريم بصوت مرتفع. قفزتُ، أخذتُ السمّاعة من يده، سألت عن مكانه فأجابني أنّه لا يعرف، لكنّه سيتّصل بعد ساعتين أو ثلاثٍ فطلبت منه، قولي أمرته ألاّ يغادر المنزل، رغم معرفتي باستحالة ذلك ما لم يرغمه إنهاكه على طرح تعبه وأرقه وضياعه فوق سريره، وأن يعطيه رقم هاتفي ليتّصل بي فوراً. حالما يتصل سأصحبه إليك.

ذهلت رحاب، بهذه السرعة.. خالت أن أسابيع ستفصلها عن موعد لقائها به. مع ذلك تمهّلت:

ـ لا، أعطِه موعداً في كافتيريا الحديقة ثم أخبريني. لا تنزعجي أرجوك، أريد رؤيته منفردةً أوّل مرة.

ـ مثلما تريدين. بعدها نلتقي معاً؟

ـ ... ...

ـ إلى اللقاء بعد ساعتين أو ثلاثٍ.

ـ مع السلامة.

وضعت السمّاعة وعاودها طيفه.. تساءلت عمّا سيقوله، كيف ستتلقّى ذلك؟ كيف ستقفز فوق الزمن مفترضةً أنّ شيئاً لم يكن وأن شيئاً لن يكون؟ ستطلب مباشرةً مساعدته في البحث عن جنان، وبعدها؟ تذكّرت زينة صديقة جنان، رفعت السمّاعة وطلبت الرقم... أجابها صوتٌ حادٌّ نزِقٌ يتيه دلالاً، قالت هي:

ـ مرحباً، زينة؟

ـ بعينها، مرحبتين، من يتكلّم؟

ـ أنا خالة جنان.

صمتت الفتاة قليلاً، ثم حكت وقد شاب صوتها حذرٌ خفيّ:

ـ أهلاً خالة، كيف حالك وكيف جنان؟

ـ اسمعي زينة، تعرفين كلّ شيءٍ وستخبرينني، كرمى لصديقتك على الأقل.

ـ عن أيّ شيءٍ يا خالة؟ لم أفهم قصدك! تلجلجت زينة.

وجدت رحاب سبباً وحيداً لذلك فشدّدت حصارها:

ـ وتعرفين أنّها غادرت فجر اليوم وتعلمين دون شكٍّ أين هي الآن. هل ستخبرينني؟

ـ والله يا خالة لا أعرف أين هي، لم تتّصل بي منذ يومين، كنت سأتّصل بها منذ قليل لكنّني انتظرت مبادرتها لأنّها طلبت مني عدم الاتصال إلاّ في أوقاتٍ معيّنة!

تلبّس الهلع صوت زينة لهفةً، بدت مصدومةً، لم تغب رنّة الصدق عن رحاب لكنّها تابعت مستغربةً:

ـ لماذا؟

ـ لن أكذب عليك يا خالتي، قالت إنّك لا ترتاحين لصديقاتها، بدت غير راغبة بتعريفي وتقديمي إليك! ما عرفت سبب تحفّظها ولو أنّني امتثلت لرغبتها.

ـ إذن لم تتّصل بك طوال اليوم؟

ـ أبداً وحياتك.

ـ هل تتوقّعين وجودها في مكانٍ ما؟

جاء السؤال مطرقة قاضٍ فرضت الصمت خشية تحوّل التهمة لأيٍّ من الحضور فيجد نفسه وقد انتقل فجأةً من مقعد المشاهد إلى منصّة الشاهد إلى قفص المتّهم!

ـ تحدّثي، لا تخشي شيئاً، أعرف أنّ ثمّة علاقةً تربطها بشخصٍ لا أعرفه يدعى مالكاً، تعرفينه؟

استطالت فترة الصمت، بدا تردّد زينة واضحاً، حتّى قالت:

ـ يجب أن تكون عنده!

ـ هل تعرفين عنوانه؟ لا تتردّدي، هي صديقتك!

سارعت زينة للإجابة:

ـ أعرف عنوان أهله، لكنّه يقيم وحده حاليّاً، لا أعلم أين.

انقبض قلب رحاب، وبعد؟ أما كفاني كلّ هذا الوقت الضائع؟ كلّما اكتشفتُ فرجةً وجدتُها تختفي بلقعاً وعتماً.

ـ ورقم هاتفه؟

ـ بلى.

سجّلت رحاب الرقم، رجتها أن تخبرها حالما تتّصل بها جنان. انتظرت برهةً لاستجماع قواها كي تستطيع إقناع مالك بضرورة لقائهما وإلزامه بإعلان عنوانه لتزوره. اتّصلت به.. كان الخطّ مشغولاً، أيحكي معها أم أنّ اللعينة زينة تخابره؟ ليت حديثها يسهّل مهمّتي ولا يزيدها صعوبةً.

ـ نعم؟ أتى الصوت صلفاً عدوانيّاً كأنّما ينهر أو يقرّع مخاطبه.

ـ أنت مالك؟

ـ أي نعم، من حضرتك؟

لم يحسن إخفاء اضطرابه فتأكّد لها أنّه ينتظر هاتفها.

ـ سواءٌ حادثتك زينة أم لم تحادثك، باختصارٍ قل لجنان أن تحادثني.

ـ من جنان؟ ومن أنت قبل أيّ شيء؟

حاولت منع الغضب من السيطرة عليها، عليّ اصطياده بدايةً وعدم

استفزازه، يبدو فارغاً أجوف وقادراً على ارتكاب كلّ الحماقات. تأكّدت أنّ انطباعها عنه لا يجافي الحقيقة، فقد وجّه جنان كيما تحكي عنه بابتسارٍ وترفض جمعهما معاً، إذ كان يعرف أنّها ستكشف سوءاته أمامها وخاف مغبّة ذلك. أجابت بحزم:

ـ اسمع، لا تتهابل، تعرف من أنا، قل لها أن تكلّمني وحسب!

تمهّل قليلاً، ثم أتى صوته فاقداً تيه اللامبالاة والاستعلاء الذي اصطنعه وما كان مقنعاً:

ـ الحقيقة، ليست هنا.

فأجابت محتدّةً:

ـ أين هي إذن؟

ـ لا أعرف!

ظلّ هادئاً، لكنّ شحوب صوته كشف ضعفه.

ـ من يعلم إذن؟ ستحكي أم أحضر الشرطة؟

أجاب مرتعداً:

ـ لا داعي لذلك، صدّقيني لا أعرف. أتت فجراً، حاولت إبقاءها، لكنها رفضت ومضت.

ـ لم جاءت إذن؟ وكيف كان حالها؟

كان الخوف قد سيطر عليه:

ـ سأخبرك، كانت مشوّشةً، كأنّها تعرّضت لصدمةٍ عنيفة، حسبتُ أنّ حادثاً قد اعترضها أو أنّ سيّارةً كادت تدهسها، المهمّ حاولت طمأنتها والترويح عنها.

عاود الصمت فلم تمهله:

ـ وبعد؟

ـ بعد ذلك اختلفنا.. انزعجت وأصرّت على الرحيل...

لمست بعضاً من الحقيقة في كلامه:

ـ ألم تقل أين؟

ـ لم تقل شيئاً بالمرّة!

هنا اندلع غضبها دفعةً واحدةً وصبّت حممه عليه:

ـ ماذا فعلتَ بها أيّها الشقي.. ماذا فعلت؟ والله لئن لم تظهر أو تبيّن أنّ مكروهاً قد أصابها لأجعلنّ أمّك تبكيك!

رمت السماعة بعنفٍ، خافت سيطرة غضب يمنعها عن التفكير وحسن التصرف فراحت تخطو على مهلٍ في الفراغ الذي تحاصره الجدران والأثاث، اتّخذت لنفسها مساراً بين زاويةٍ ومقابلتها مردّدة: عليكِ أن تهدئي حتّى تجديها. انغلق سحر الفجر عليها، ما عادت أيّة نهاراتٍ قادرةً على فضّ أختامه وما من شمسٍ تستطيع إزاحة الليل عن حدقتيها قبل أن تراها. ودّت ألاّ يأتي فجرٌ قبل معرفة مصيرها، حيّةً كانت أم ميّتة. لكنّها ورغم ذلك ستنساها إلى حين.. ستحاول عبر اكتشافها لأدهم وإعادة كشف نفسها عبره أن تتلمّس المجاهل التي انقضت على جنان فجر هذا اليوم وأدخلتها التجربة من أوسع وأخطر البوابات.

ركام

في هذا الفجر، تسلّق النور الشاحب عري جنان.. اخترق قيعانها الخفيّة فأظهرها دون ظلال.. اكتشفت كم كانت مخدوعةً وكم ضلّلت نفسها وضُلّلت. كانت في ريبةٍ من أمرها، لم يخلخل شكُّها اليقينَ الذي أفسحته رحاب فضاءً لروحها، لكنّها لم تلامسه، فانعدم الأمان. كانت تراه بعيني خالتها على الأقل، تشعر اطمئناناً سيحملها فوق راحتيه ويهدهدها حتى تغفو وتستيقظ لتجد أحلام خالتها وقد تجسّدت واقعاً وحقيقةً لا يمكن إنكارها كما تفعل في يقظتها ولحظات انحنائها أمام عجزها عن فهم ما لم تستطع رحاب تفسيره أو تقديم تعليلاتٍ مقنعةٍ عن مسبّباته وآليّات فعله. تمزّقت هويّتها، داستها الأقدام وعصرتها أغبرة الطريق! أمّا الأيدي التي استباحت جسدها مثلما فعلت بحقيبتها، فقد جرّتها من الخيوط المتشابكة التي شكّلت في تداخلاتها وتقاطعاتها وشائجها وارتباطاتها.. أحاسيسها المحيّرة والغامضة التي تعيّن انتماءً لمكانٍ ما تلفّه رائحةٌ مميّزةٌ ولا يخطئه القلب إن أخطأته الحواسّ رغم ضبابيّة حضوره في لحظات القنوط والاصطدام بما ينتزع منه سماته الأساسيّة. ورغم إنكار عقلها لإمكانيّة وجوده بله استمراره، فقد عاشته بحدوده الدنيا، انشطرت بين إملاءات عقلها بفقدانه أو انعدامه وبين الإيمان اليقينيّ المطمئن الذي ثابرت رحاب على ضخّه في خلاياها فصار صلتها بها مُزيحاً كلّ الصلات. ولأنّها أرادت أن تثبت لها أنّها تراه بعينها، قرّرت الابتعاد عنها كأنّما أرادت القول؛ أستطيع اكتشاف إيماني

بخصّني برؤيةٍ تميّزني بغير حاجةٍ ماسّةٍ لالتصاقي بلحمك واندماجي بظلالك المنتشرة واستعارتي لحواسّك كيما أعيشه من خلالها. قُضي الأمر الآن.. قُضيِ وما عاد ثمّة مرتجى. لكن التائه يبحث دوماً عن ملاذ، فكّرت وتذكّرت أنّ سريانها في آخر قطع الليل كان يدفعها نحوه، أو نحو ما مثّله بالنسبة لها. خافت أن تدخل بصورتها المشوّهة والمهزوزة كاللقيطات أو فتيات الشوارع الباحثات عن سقفٍ يأويهنّ آخر الليل بثمنٍ بخس! ما من مفرٍّ... عليها أن تلجأ إليه. ما من أحدٍ غيره يمكن أن تظهر نفسها أمامه كما هي الآن! أما قال يوماً، تعاملي معي باعتباري بعضاً منك وباعتبارك بعضاً مني؟ ولكن ماذا لو صغرتُ في عينيه؟ ماذا لو لمحت شفقةً فيهما أو رثاءً في لفتته؟ ألن يقيني ذلك دونه طوال العمر؟ لماذا يكون المحبّون محبّين إن لم يكونوا أحضاناً تتّكئ عليها الرؤوس المتعبة وإن لم يكونوا ملجأً للمطاردين وبلسماً للمجروحين؟ في تردّدها حثّ الضوء المنتشر خطاها نحوه. ليس ثمّة يقينٌ سوى انعدام الخيارات.. وقد فعلت كلّ ما فعلته تحت ضغط إلحاحه وإحساسها بنقصان ارتباطها بعالم يكرهها، لا تعلم سبباً لذلك ولا تدري طريقاً لتغيير موقفه منها. ما كان ذلك ممكناً ما لم تبتر حبل السرّة الذي منعها من التنفّس بمعزل عن رئتي رحاب...

أكرهتها أشياء كثيرةٌ على رفض وقائع الحياة التي أحاطت بها؛ تفتقد الأمان كلّما خرجت من البيت، تترقّب امتهاناً في كلّ لحظةٍ وتلاحَق بحيث لا يتاح لها الانحراف عن الدرب التي أخليت لها لأنّ من مهّده أبعد المخاطر وحشرها في دروبٍ أخرى...

خلّفت آخر درجات الأزرق المتفتّق عن تحوّلاتٍ فرضها امتزاجٌ متزايدٌ مع الأبيض المنسكب على مهلٍ من وعاءٍ ما، أرادت أن تلقي نظرةً على هندامها لكنّها امتنعت، فمجرد فعل ذلك سيدفعها للعودة أدراجها! ارتقت الدرجات قفزاً كيلا تتراجع أو تجد حجّةً تغيّر رأيها، حرّكها دافعٌ وحيدٌ أن تستر استباحتها عن أعين الناس لئلاّ يجعلوها تقيم في عارها طالما بقيت في

عالم الأحياء ـ بعدها ليفعلوا ما يشاؤون، أما الآن فيجب ألا أن تقع عليّ عين. ألم تقع عليك الأعين التي تلمّستك أصابعها وكمّت فاك راحتُها ونثرت قدرات تسلطها خزائنَ روحك على مشهدٍ من الليل والإسفلت وحجارة الأرصفة، أم أنّك أخرجتِها من حساباتك لمجرد أنّها لا تعرفك شخصاً ولا تعرفينها أشخاصاً؟ وإن حدث، فما الذي تخشينه؟ أما فعلوا ذلك مع كلّ من هم في مثل حالك، ومع كل الذين أقلّتهم نفس المركب مكبّلين في قاعها المعتم والقذر، مختلطين بمفرزاتهم توحّدهم أغلال عبوديّتهم التي ستصطبغ بشرعة القانون حال بيعهم كحيوانات الجرّ أو آلات الحرث سيّان!؟ الفارق الوحيد انعدام كلفتهم، فثمنهم أيّاً كان ليس سوى ربحٍ حلالٍ لبائعهم وكنزٍ لا يفنى قبل تسديد الثمن لشاريهم أضعافاً مضاعفةً حتّى آخر شهقةٍ وآخر قطرة!!

قرعت الباب، هاجمتها إثر فتحه ضبابةٌ كثيفة من دخان عطرٍ عبقت بروائح مختلطةٍ من مشروباتٍ كحوليّةٍ وعرق النزو والشهوات المحترقة. ارتمت على صدره وأجهشت، لم تستطع قول شيءٍ ولا فعل شيء. أمّا هو، مالك الذي ادّعى أنّه عبدُها وأسيرها، فقد أحاطها بذراعيه، انحدرت كفّاه فلامستا كفليها المرتجّين، ضغط عليهما قبل أن يشعلا حرائق ويسعراها في شرايينه التي التفّت حبالاً غليظةً والتصقت عليها كأذرع أخطبوطٍ جائعٍ انتظر طويلاً قبل أن تأتيه فريسته بكلّ غباء، معلنةً أنّها رهن إشارته، فإن شاء عفا عنها وإن شاء امتصّها إلى أن يلفظها شبعه. رفعها بساعدين فتيّين، أغلق بابه بقدمه، دخل بها مواربأ كيلا يراها صحبه الذين لم يقطع دخولها استرسال لهوهم ولعبهم بأوراقٍ كانت تنقل النقود من جيب أحدهم إلى جيب آخر بصدفةٍ مجنونة. التفت إليهم:

ـ أرجوكم تابعوا، سأرجع بعد قليل.

في غرفته مدّدها على سريره ثمّ مال عليها، مسح بأنامله دمعها،

ضمّها، ربّت على شعرها وكتفيها مقبّلاً وجنتيها وجبهتها حتّى استكانت وخفت نشيجها ثم أخذ تنفّسها ينتظم.

ـ ما الذي حدث يا جنان؟

بين دموعها وخجلها شدّته إليها، حاشرةً رأسها في الزاوية التي استقامت بين عنقها وكتفه الناهض، لم تلتفت للروائح التي يتحاشى في الظروف العاديّة تعريض أنفها لها لمعرفته بما تثيره عندها من اشمئزازٍ وقرف. أما وهي واقعةٌ تحت سطوته، فالأمر سيّان. سترضخ له كما هو، بلا أقنعةٍ ولا عطورٍ ولا مزيلات روائح ودون حاجةٍ لتقمّص روحٍ تعارض روحه الحقيقيّة. حكت له متلجلجةً، يقطع حديثها اختلاجٌ أو شهقةٌ تخرسها إلى حين.

ـ حسنٌ.. حسن. انسي ما حدث. سنكمل دربنا ونشرع بتنفيذ مشروعنا، ولو أنّ بعض تفاصيله ستتعرّض لتغيّرٍ طفيف!

قاطعته يائسةً:

ـ ولكنّي فقدت كلّ شيء! حتى هويّتي، وثائقي، كلّ شيء... كلّ شيء!

قبّلها على فمها ولم تمانع...

ـ لا تخشي شيئاً، سنتدبّر كلّ الأمور وستكون كما تشتهين. اهدئي فقط وارتاحي، لقد وصلتِ برّ أمانك. لا يمكن للشياطين أن تطاردك إلى هنا، حتّى لو قادتهم ملكتهم المقنّعة، أمّنا الغولة، سيّدتنا رحاب!

ارتعدت لظاهر الخطاب، خاصّةً حين اتّجه ناحية خالتها. لكنّها غضّت الطرف، فليست في وضع يسمح لها بالدفاع عنها. ستوضّح له الأمور فيما بعد وتحكي عنها وعمّا تمثّله لها وما يُفترض أن تمثّله له.

ـ سأتركك قليلاً، أرعى أصدقائي لدقائق تغسلين خلالها وجهك وتبدّلين ثوبك.

أغمضت عينيها على قبلته الثانية، أحست طعماً غريباً على شفتيها دفع أحشاءها للتلوّي لكنها سيطرت عليها كيلا تنتهي لحظة هدوئها سريعاً. داخلتها طمأنينةٌ مريبةٌ لم تشعرها بالأمان، أحسّت غربتها وتمنّت أن تفتح عينيها فتجد فضاء غرفتها ورحاب تنحني فوقها، ناشرةً نور ابتسامتها العذبة، مزيحةً ظلمة رعبٍ استولى عليها؛ اشربي قليلاً من الماء يا حبيبتي، ما كان سوى حلمٍ وقد استفقتِ منه الآن. لا تخافي، أنتِ قربي، اطمئنّي وارتاحي. رفعت ساعديها لتطوّق عنق خالتها وتجذبها لتغطّيها بدفئها وتمحو آثار الفزع الذي جعلها تصرخ رغم إرادتها. لكنّ ساعديها أطبقتا على فراغٍ فخفق قلبها وملأ صدى قرعه خلاءً محايداً ذكّرها بغربتها. فتحت عينيها وهي تنزل يديها، لم تعرف أنّ الكابوس الحقيقيّ لمّا يبدأ حتّى اللحظة...

. سترتجف وهي تذكر تلك التفاصيل وتتخلّص منها برفقة رحاب التي لن تشعر أمام عيونها المنفعلة والمتعاطفة بأيّ عار، تشقّ جسدها من حنجرتها حتّى ملتقى ساقيها وتشدّ جانبي الجلد بكلا كفّيها كاشفةً سوءاتها ومبرزةً عوراتها دون إخفاء شيء. كان فعل المكاشفة ذاك ضروريّاً.

ترتعد فرائصها وهي تستعرض أحداث ذلك الفجر؛ غضبها وحنقها، مرارة قهرها وازدراءها لنفسها ولغبائها الذي أعمى بصيرتها عن القذر الذي كانه مالك، عن الذي ربطت حياتها وعمرها ومستقبلها بظاهره المتألّق ولسانه الذلق المعسول؛ لا تذكر شيئاً من ذلك كلّه، فما يستولي عليها اللحظة إحساسٌ ممضٌّ بالذلّ ومهانة التمرّغ بوحلٍ قذفت نفسها داخله وهي تحسبه بحيرةً عكست صفاء السماء، مختزنةً عمقها في شفافيّة الماء النديّ...

أتى الكابوس بعد هنيهةٍ.. دخل على هيئة وحشٍ كاسر، حيوانٍ خرافيّ جمع في تفاصيل هيئته كلّ مرعبٍ ومخيف... لم يكن مالكاً الذي عهدته أنيساً ورقيقاً، مليئاً بأحلامٍ إن لم تجد فضاءاتها انكسرت وحطّمته معها؛

كراهيّته للمبتذل والسائد، طموحاته بحياةٍ كريمةٍ يتعادل فيها جهد الإنسان مع متع الحياة فيشعر بقيمته الحقيقيّة كإنسانٍ ويجعله يحسّ أماناً وأملاً ويطلق العنان لخياله كي يصوغ بيديه أرض أحلامه ورؤاه البعيدة عن الامتهان والتشوّه والالتحاق بقطيعٍ تهشّه عصا الراعي ويماشي عواء كلب حراسته ويسلّم رقبته راضياً مستكيناً لسكّين الجزّار، ولا لولباً في آلةٍ ضخمةٍ تستهلكه حتّى يفقد فاعليّته فترميه في المزابل مستبدَلاً بواحدٍ جديد. رنّت كلماته في أذنيها وهو يتقدّم نحوها لتستعيد صورته التي شاهت للتوّ وانمسخت؛ ليس هنا مكاننا يا جنان، لن نهدر العمر ونحن غير آمنين على أجسادنا وأرواحنا وأموالنا المهدّدة جميعاً في كلّ لحظةٍ وفي كلّ ثانية. مستقبلنا ليس هنا! ماالذي يربطنا بمكانٍ تكلّس الزمن عليه فصار جزءاً منه، لا المكان يتغيّر ولا الزمان يتحوّل؟ إن بقينا لن نكره بعضنا وحسب، بل سنمقت أنفسنا وتلاحقنا لعنة العقوق والجحود والندم فتحرقنا نيرانها، نترمّد قبل أن نضحك ضحكةً واحدة. دعي من يحبّون الموت يعيشونه صاغرين صابرين متوهّمين أنّهم يحيون طالما تنقلب نهاراتهم ليلاً، يرتضون أنفسهم عبيداً لمالكي نصفي يومهم، يأكلون ويشربون ويتناسلون ثمّ... «ربّنا هب لنا من أزواجنا وذرّيتنا قرّة أعينٍ واغفر لنا ذنوبنا وأدخلنا في عبادك الصالحين» ثمّ يصلّون ويسلّمون ويصفّقون لمن يدوسون رقابهم بنعالهم نهاراً ويطأون أزواجهم تحت سمعهم وبصرهم ليلاً، ما من شيءٍ يربطنا بهذا، ما من شيء. يحكي ويحكي ويحكي، فلا تجد في كلامه خطأً تنفذ منه، حتى مزّق روابطها وانتظر اللحظة المناسبة ليجتثّ حبل السرّة من الحصن الوحيد الذي لم يستطع هدمه، من سمّاه أمّنا الغولة، سيدتنا رحاب! ما الذي سنفعله؟ حسناً، سنرحل، نخرج من هذا اللحد قبل أن نتعفّن داخل جدرانه. سنعمل، نكمل دراستنا، نستقرّ ونعيش حياةً تليق بنا كبشرٍ يمتازون عن حيوانات غابةٍ تحكم وتفترس وحيوانات زريبةٍ تنصاع وتخنع. ما من حلٍ آخر! لا تقولي مغامرةً لأنني أقول مقامرةً تحوز احتمالاً مهما بدا ضئيلاً، سيكون خيراً من قدرٍ دُفعنا

فيه وانزلقنا في نفقه المسدود من كلّ الجهات والمفتوح من نهايته الوحيدة على هاويةٍ ستبتلعنا جميعاً!

لكن ذلك كلّه لم يغير من ملامح الوحش المتقدّم. حاول استعادة رقّته فتلعثم، عذرتُه، ربّما أفرط في شرابه. استلقى جانبي، حاول عناقي، خفته فأبعدت يديه عنّي. سألته أن ينام ونتحدّث في الغد لكنّه فاجأني، راح يبكي. لم أصدّق، دمعت العينان الدمويّتان وراح يجهش فرق له قلبي، عانقته، حاولت استعادته كما عرفته، كان عليّ أن أتمسّك بتلك الصورة ـ رغم شكوكي ـ كيلا أعترف بخسراني وعمائي ودمار ثقتي بنفسي التي سلّمته روحي بكلّ اطمئنان. حاول استثارة شفقتي، تمنّع خُبثاً عن إخباري بما ألمّ به ثمّ حكى:

ـ جنان، لقد خسرتُ للتوّ كلّ ما أملكه، وهو أساس الخطوة الأولى في تأمين مستقبلنا.

ـ وبعد؟

ـ ستتغيّر خططنا قليلاً...

حاول سبري ليتبيّن ردّ فعلي. لمّا صمتُّ، قام وملأ كأساً طلب مني شربه كي أحتمل حديثه. رفضتُ بشدّةٍ، فقد كنت بحاجةٍ لكامل وعيي لأستوعب هذه الغرائب التي تشابكت حولي وسدّت الأفق أمام عينيّ. لم يشرب، وضع كأسه حيث كان وعاد إليّ:

ـ قلتُ سنضطرّ لتغيير خططنا. ربّما نذهب لدولةٍ خليجيّةٍ، نعمل سنةً وندّخر ما يكفينا للسفر وبدء الدراسة حتّى نجد عملاً نعيش من دخله ونتابع دراستنا.

لمحتُ لعبةً بدأت للتوّ لم أدر كنهها. ثمّة ما يخفيه، وعليّ أن أناور حتّى أدفعه لقوله:

ـ وبعد ذلك؟ لا أرى مشكلة.

أجاب وقد أشعرتُه باستعادة هيمنته عليّ، وليس عليه سوى أن يطلب فألبّي كما فعل منذ قليلٍ ومثل فعله أمس وقبله؛ ارمي نفسك من شرفةٍ عاليةٍ، وسرعان ما أفعل.

ـ المشكلة تكمن هنا تماماً!

فأجبته مستغربةً وأنا أسحب جسدي وأسند ظهري على الوسائد وقد تيقّظت إرادتي لأدرك علامَ راهنت بحياتي:

ـ كيف؟

تمهّل وهو يتأمّلني بعينين متردّدتين شابهما خجلٌ موارب.

ـ سألتك كيف؟

ـ حسنٌ، أجاب متردّداً.

وكأنّه قرّر في اللحظة الأخيرة كشف سرّه، أردف قائلاً:

ـ لا تفهميني على نحوٍ خاطئ، الضيف الذي خسرت نقودي أمامه مستعدٌّ لإعادتها. ليس هذا وحسب، بل سيؤمّن لنا الإقامة والعمل في بلده!

فكّرت غضبى، هل يستغفلني؟ هل يستخفّ بي لدرجة استغبائي؟ بدت لعبته واضحةً... عاد لصورته الحقيقيّة التي لم ألحظها أبداً. لطالما رجتني رحاب أن أنظر وراء السطح البرّاق الذي يعمي بصري وأحاول اكتشاف المخفيّ والمستور خلفه، لكنّي رفضتُ اختباره، عنى ذلك امتهاناً لذاتي وقدراتي على الاختيار. كدتُ أدفعه بعيداً عنّي وأمضي بغير وداع، لم أفكر أبداً بالشوارع التي تنتظر شهود عاري وإشهاره، كان قد حسب ذلك، تأكّدت من مقامرته عليه حين أمهلته وأوهمته أنّني لم أفقه شيئاً:

ـ لقاء أيّ شيء؟

صمت مرّةً أخرى ثم راح يهدّد خفيةً ويلوّح بخطرٍ قادم:

ـ الأسوأ لم أقله بعد، إن لم ينقذنا على هذا النحو، سيرمينا في الشوارع ولربّما سلّمنا للشرطة، فهو يملك الكثير ضدنا.

حاولت استفزازه:

ـ ضدك وليس ضدي.

هنا كشّر عن أنيابه واستعادت عيناه دمويّتهما:

ـ لا، كلانا في نفس المغطس.

ـ حسنٌ، ما هو الثمن الذي يطلبه؟

لم يتردّد، تاخم وقاحته ورمى قنبلته:

ـ أنت!

ـ أنا؟!

ـ عشر دقائق يا جنان، ثم تنفتح الآفاق أمامنا دون حدود.

ضبطتُ أعصابي، أردت امتهانه مثلما امتهنني:

ـ ألا أساوي عندك أكثر من عشر دقائق؟

تملّقني:

ـ ما هذا الحديث يا جنان؟ تساوين عندي الدنيا بحالها، عمري وحياتي. فعلتُ ذلك من أجلك، لكنّنا في وضعٍ قد يقضي علينا.

قاطعته:

ـ دعنا نقتله إذن، ننهي تلك المشكلة ونمضي معاً!

كان ردّ فعله أبشع من فعله الأساسيّ:

ـ لا نستطيع يا جنان، ثمّة ثلاثة رجالٍ وامرأتان وراء ذلك الباب، جميعهم يسنّون سكاكينهم ليذبحونا معاً، أو يمنحونا فرصة العيش مرّةً أخرى.

انفجرتُ، صفعتُه وشتمتُه وأنشبتُ أظافري في وجهه.. كنت أقتصّ من نفسي ولم يجدِني ذلك نفعاً. طرحني أمامه:

ـ لستِ سوى عاهرةٍ مبتدئة، لماذا تثيرين كلّ هذه الضجّة؟ هل أتيتِ

لتصلّي الفجر في منزلي؟ سيدخل عليك الآن، لا، سيطأونك ثلاثتهم ثمّ أنا ثمّ الفتاتان كي تعرفي قيمتك الحقيقيّة يا بنت الشريفة وابنة أخت القوّادة!!

تركني ومضى.. احترتُ في ما أفعله، علقتُ في المصيدة وامتلأتُ رعباً، لم أستطع أن أتخيّل كيف سيتناوب على جسدي أربعة رجالٍ وامرأتان. التاث عقلي وبتّ كلبوةٍ جريحةٍ دون أن أعي ذلك أبداً، قفزتُ من السرير، فتحت باب الشرفة وتطلّعتُ للأسفل. بدا الشارع بعيداً لكنّي وجدتُه أرحم لجسدي وروحي ممّا سيحدث بعد قليل. فتّشت الدروج والخزائن كمجنونةٍ أبحث عن أيّ شيءٍ أدفع به الأذى عن نفسي فما وجدتُ سوى الزجاجة التي صبّ منها قبل قليل. وقفتُ التقط أنفاسي وراء الجدار، أحاول إخماد لهاث الخوف الذي يجتاح بدني ويهزّني بعنفٍ يكاد يخلّع أوصالي. مضى الوقت، تمنّيت أن يمتنع عن تنفيذ وعيده، حاولتُ الإصغاء فما فهمتُ شيئاً. كانت كلّ نأمةٍ تجعلني أتشنّج من رأسي لقدميّ وتشدّد أصابعي الضغط على عنق الزجاجة حتّى خِلتُ أنّها ستتحطم في أيّة لحظة. سمعت إطباق أبوابٍ فصلّيت كيما ينتهي الكابوس، تضرّعت أن توقظني خالتي قائلةً: لا تخافي، ليس سوى حلم كريهٍ وقد استيقظتِ منه، أشرب ماءها وأستكين على صدرها. لكنّ ذلك لم يحدث أبداً، وصل أذني وقعُ خطواتٍ تتّجه نحوي، التصقتُ بالجدار ورفعتُ الزجاجة عالياً، منتظرةً ظهور الرأس لأنهال بها عليه.. ظهر فعلاً، ما تبيّنتُ ملامحه فقد سقط أرضاً دون ضجّة. فتحتُ الباب، خطوتُ فوقه، سقطت الزجاجة فانكسرت وتشظّى الزجاج والصمت، ركضت صوب الباب الخارجيّ غير مصدّقةٍ خلوّ البهو، فتحته ونزلت الدرجات واثبةً. استقبل الشارع دموعي وضياعي. وجثّةٌ مجهولةٌ خلّفتها ورائي...

تحسّ أنّها تتهاوى، تخشى أن تتنبه فيعاود فاصلٍ اغتصابها الوشيك سحق أعصابها لكنّ ذراعين قويّتين تحيطان بكتفيها كلٍّ من ناحيتها وكفين حانيتين تمسكان كفّيها، تبثّانها أمناً كادت تنساه وكاد فقدانه يودي بعقلها.

وفي ذات الفجر، لم يعلم أحدٌ بالعصافير التي انطلقت من مخابئها في قلب جميل وحوّمت بحثاً عن فضاءاتها المستحيلة... لن يعلم أحدٌ بذلك حتى فاتك الذي تسبّب في خلع نوافذ القلب وبثّ الذعر في قلوب تلك العصافير. ربّما ستعرف الجدران التي شهدت ذلك والأرض الصلبة التي استقبلته وثقب المفتاح المفضي إلى فراغٍ تختفي وراءه سماءٌ محايدة، رغم أنّها غير محاطةٍ بالأسوار...

في ذلك الفجر، عرف جميل كم كان قريباً في نأيه وكم بات بعيداً في دنوّه حالما فُتّش جسده خليّةً خليّة.. انتُزع جلدُه ليتمّ التدقيق في بطانته، قُلعت أظافره واحداً واحداً ليُبحث في منابت جذورها عن الذي يخفيه ولا يصرّح لسانه به.. حُطّمت أضلاعه ضلعاً ضلعاً وتلمّست الأصابع الساديّة أحشاءه مغمسةً بالدماء وأحقادها الغبيّة، اعتصرتها جزءاً جزءاً وغاصت عميقاً في ما بينها، شقّتها وبضعتها وتسلّلت إلى أبعد ما استطاعت الوصول إليه عبثاً. اختبروا فوّهاته الظاهرة والباطنة.. هشّموا عظامه وعرّضوا نخاعها لإشعاعات مجاهرهم دون جدوى. لم يجدوا ذلك الوجع الذي يفوق كلّ ما سبّبوه من آلامٍ لم يأبه بها ولم تطلق رئتاه سوى صرخات احتجاجه الخاصّ وأوجاعه المستديمة التي لم يسبروا عمقها وما عرفوها. استعصت جمجمته عليهم.. نشروا عظامها المتلاحمة.. فكّكوا دروزها واقتلعوها قطعةً قطعة، نسفوا دماغه فلم يحصلوا إلاّ على نثاراتٍ بيضاء ورماديّةٍ مشوبةٍ بنزفٍ فاقع الحمرة. بقي قلبه.. لم يجرؤ أحدٌ على مسّه.. خشوا وجود عبوةٍ مفخّخةٍ قد تنفجر في وجوههم في أيّة لحظةٍ فانتظروا أمر رئيسهم.

لم يكن فاتك غبيّاً، كذلك لم يكن شديد الذكاء، لكنّ مهنته أكسبته حنكةً اعتاد استخدامها للإيقاع بمن يعتبرهم أعداء شخصيّين له. لم يكن

يرى فيهم بشراً لهم مواقف قد يختلف فيها معهم أو قد يتّفق، بل يهتمّ بأنّهم وقفوا في وجهه أو في وجه ما يمثّله. ساعتها، ينبذ ما تحويه رؤوسهم ويتّجه مباشرةً لأرواحهم وعناصر التمرّد في إراداتهم.. يلعب لعبته وقد استحالت المسألة برمّتها لقضيّةٍ شخصيّةٍ عليه تصفيتها بما يلائم هواه. ربّما كان ذلك واحداً من عوامل رفعت أسهمه وأوصلته لموضعٍ تحوّل بفعل مهارته والفوضى التي تلغي خوف المساءلة إلى مملكةٍ خاصّةٍ شُرّع له فيها أن يكون نصف إلهٍ أو إلهاً كاملاً في قطيع آلهةٍ تهشّها عصا واحدةٌ وتترك لها خيار تحديد مصائر بشرٍ أوقعهم حظّهم العاثر في حدود المملكة التي عبد رعاياها فرعونهم الصغير وسبّحوا بأمجاده وعظمته. في مركز عمليّاته المحصّن والمشيّد كبناءٍ ضخمٍ يفوق عدد طوابقه تحت الأرضيّة ظاهر طوابقه المرتفعة عالياً كمئذنةٍ تعلن وجودها على بعد كيلومترات، تدعو مصلّيها لتلبية نداء ربّهم بآذانٍ خفيٍّ يبدأ في منتصف الليل وينتهي في منتصفٍ تالٍ.. تسمعه الدماء وتشرئبّ له القلوب وجلةً، يملأ الأجواء ويخالط الهواء ويلاحق المرء أنّى ذهب وحيثما حلّ، تحوّل رجاله من أصغر حارسٍ وخفيرٍ يراقب بعينٍ يقظةٍ من موضعٍ سرّيٍّ دون أن يثير شبهة كونه حارساً، وحتّى أكبر أعوانه إلى مجرّد آلاتٍ صمّاء بكماء برمجت عناصرها الحركيّة بحيث تؤدّي ما يُطلَب منها بإذعانٍ وآليّةٍ مفرطة، بقي من آدميّتهم أو من عناصر ارتباطهم بالحياة نباتيّةً كانت أم حيوانيّةً أم بشريّةً شيءٌ وحيد؛ رعبٌ هائلٌ يولّده حضوره وخوفٌ متبطّنٌ يواصل شحنهم بالوجل خلال غيبته، لا يجدون مفرّاً من تخلّصهم من فائضه المتكاثر بواسطة طاقاتٍ مجهولةٍ إلاّ بتوزيعه وفرضه على كلّ من هو خارج أسوارهم الحصينة وعلى كلّ من تزلّ قدمه فيزور طوابقهم السفليّة، لا يستثنى من ذلك الأحياء ولا الأموات، فإن لم يفعلوا ذلك سيضيقون ذرعاً بأنفسهم وينقلبون عليها مدمّرين أجهزتها الداخليّة ناشرين الخراب والفساد في آلاتها لتعود سيرتها الأولى خاماً حياديّاً ينتظر كفّاً تصوغه وتشكّله ثم تنفخ فيه من روحها وتشويه في فرنها... ثم تسمه بميسمها البارز وتقول له: امضِ وكن من عبادي الصالحين!

كان أحد عناصر حيويّته، التي اكتشفها جميل دون أن يجرؤ على التصريح بها، قدرته الفذة على التذكّر، خاصّةً في ما يتعلّق بأحقاده الخاصّة، ما يمسّه شخصيّاً أو يلامس الدائرين في فلكه. لم يحتج ذلك برهاناً، فسوف يصرّح به بلسانه لجميل في جولةٍ قادمةٍ من مآدب الجدل التي يقيمها له كيما يبرهن له في نهاية المطاف أنّه ربّه كلّي المعرفة والقدرة وأنّه ما من مفرٍ لإقراره بذلك وتقديم فروض الطاعة والولاء وإخلاص التعبّد. وما سيفعله آجلاً أو عاجلاً، إيراد أمثلةٍ على رؤوسٍ تشابه رأسه في صلابتها، وكيف حطّمها بيديه أو دفع حامليها في نهاية الأمر لتحطيمها على الجدران أو بالمطارق والفؤوس التي نمت في أجوافها بدلاً من الكتلة الرخوة المقرفة التي يدعونها الدماغ كما يقول. لكنّ الذي أذهل جميلاً وجعله يتفكّر بشكلٍ جدّيٍ بوضعه ومصيره، رغم شكره لربّه على ما منحه من نعمة معرفة مصير حياته بشكلٍ مسبق، تلك القائمة الطويلة من الأسماء التي تلاها عن ظهر قلبٍ وأردفها بقائمةٍ تتبع نفس الترتيب الرقمي بمواجده عليها والإدانات التي ألصقها بها، ثمّ قائمة أخيرة بالعقوبات التي أوقعها وسيوقعها بأصحابها، اقشعرّ لها بدن جميل، رغم مصابه، حالما لامست أذنيه. رفع رأسه من مجثمه دون قدرةٍ على تحريك أيّ عضوٍ آخر من جسده الممزّق، ليس بسبب الأغلال التي تحزّ معصميه المضمومين وراء ظهره وعلى كاحليه، بل بسبب آلام لا تطاق آن يقوم بأيّة حركة! هل يعقل ذلك؟ لفت انتباهه اسم أدهم جبيلي وقد ورد قبل ثلاثة أسماءٍ انتهت بها القائمة، كما لحظ أنّ تعداد قائمة العقوبات ينقص أربعاً عن تعداد القائمتين السابقتين. استنتج مسروراً أنّ أربعةً على الأقلّ لا يزالون بعيدين عن متناول فاتك رغم جبروته واستطاعته الوصول حيث يشاء. وكأنّما لمح التماعة فرحٍ أو شماتةً في عينيه فزمجر:

- بقي أربعة، لا تحسبني عاجزاً عن إمساكهم، لا، لقد أحضرت خمسةً من خمس عواصم أجنبيّة، ناموا ولم يفتحوا أعينهم إلا أمام عينيّ، ولكنّي تركتُهم لأنّ العذاب الذي سيتجرّعونه على مهلٍ يفوق عذابات الباقين مجتمعين!

وأكّد أن شيئاً لن يشفع لهم، وأنّه سيلاحقهم حتّى بعد موته ليوقع قصاصه بهم ويحقّق عدالته فيهم. ثم تابع:

ـ وأنت باعتبارك أحبّهم إلى قلبي، وطالما تصرّ على كونك أدهم جبيلي، تكون قد جنيت على نفسك وستكون محطّةً نائيةً تحمل عنهم بعض ما عليهم إلى حين قدومهم.

ـ ولكنّ أبا أدهم صار صاحباً وشريكاً لك!

ـ هذا يحفّز شهيّتي أكثر، عقوقه لأبيه، وعصيانه لي! نبّهتني لما فاتني... ومع ذلك، فتلك الشراكات، سواءٌ استمرّت أم انتهت، لا تدخل في حساباتي الخاصّة أبداً. كلٌّ سيدفع دينه الخاصّ به دون شفاعةٍ ولا غفران!

كان يتحدّث ببساطة من يحكي عن صفقةٍ أو تجربةٍ مرّت في حياته، مستخلِصاً خبراته المتأتّية عنها. أدرك جميل أنّ كلّ ما يمكن أن يقوله سيؤوّل ضدّه فخلد إلى الصمت، ممّا زاد الوطأة عليه.

ـ أنت أدهم جبيلي؟

لم يستيقظ بعدُ من أثر صدمة توقيفه وجرجرته من طابقٍ لطابقٍ نزولاً إلى حيث لا يعلم. ما من معرفةٍ سوى إحساسه بثقل الهواء وارتفاع درجة الحرارة وهيمنة الصمت، كانت العصبة قد رفعت عن وجهه وضوءٌ شديدٌ يمزّق مقلتيه فلا يتيح له إبصار شيء.

ـ هل أنت أطرش؟

أتته لكمةٌ شديدة على معدته فترنّح متلوّياً من الألم ثمّ استقام، ودّ لو

يفهم ما يحدث. خاطب نفسه قائلاً: أدهم مطلوب، سأقول أنا هو فأتيح له فرصةً للتواري، ثمّ أصرّح بحقيقة نفسي وتنتهي المشكلة، أقنع نفسه، دون أن يدري أنّ الأمور ستتخذ منحنىً آخر، وقال بثبات:

ـ أنا هو.

ـ منذ متى أنت هنا؟

تفكّر قليلاً ثم أجاب:

ـ منذ أسبوعين.

ـ لماذا لا تقيم عند أهلك؟

ـ اختلفتُ معهم واضطررتُ لتركهم!

توالت الأسئلة على هذا المنوال والسائل يسجّل برتابةٍ مملّةٍ بعد أن اقتنع أنّ الماثل أمامه يصدقه القول:

ـ خذوه إلى تسعةٍ وخمسين!

ابتسم في سره، يعيدونني إلى مولدي!

هكذا بدأ فجره، بدا سعيداً رغم كلّ شيء. قدّر، يومان أو ثلاثة، أسبوعٌ كحدٍّ أقصى وأعود لصفاء والطفلين وأرتّب خطواتي على خلفيّة ماعرفت بحثاً عن مي! ذكرها فأتته، ولم يعلم أنّ قدره قاده إلى مكانه هذا ليلقاها. لن يعرف أبداً أنّه سيفشل تماماً في إيجادها خارج مكانه، حتّى لو ظلّ دهراً يواصل بحثه عنها دون كللٍ ولا ملل.

كانت تجربتَه الأولى. وإذ ألفها لكثرة ما سمع عن مثيلاتها، فما كانت غريبةً. ورغم ذلك، حافظت على فرادة طزاجتها، تجاوباً مع سخرية انعدام الحاجة لقوّةٍ تعاند البطش حمايةً لما يتوجّب الدفاع عنه. عاودته ذكرى القمرة البحريّة.. وجه أدهم العابس دون قنوط، لم يسألني لماذا عدت! ربّما لم يجد دافعاً لذلك وهو العارف بأنّني ما غادرت قسراً. تطاول السؤال

مجدّداً، هل وجهُه من دعاني أم وجه مي؟ ارتجف قلبُه. ستعاوده ذات الرجفة وسيتذكّرها غامضةً مبهمةً كأنّما انقضى عليها ألفُ عامٍ من تراكم الذكريات والأحداث وهو يبحث عن عصافيره التي فرّت وتاهت!

يتحامل على قدميه المكبّلتين في العتمة متدبّراً أمره، رغم الحطام الذي صاره، بالاستناد على منكبيه رغم غلّ معصميه وراء ظهره.. يقف أخيراً، يحاول اختراق العتمة بحثاً عن العصافير المهجّرة.. يتناهى إلى مسمعه أنينُها المكتوم وهي تستصرخه ليعيدها إلى عشّها. لم يتخيّل وجود عتمةٍ مشابهة، فقد تعلّم بالتجربة أنّه مهما احلولكت الظلمة وأطبقت فإنّ العين السليمة تعتادُها وتتلمّس دربها خلالها كأنّما تنير لنفسها بخفوت. يبدو الأمر مختلفاً هنا، ثمّة ما يوحي بإصابة عينيه أو مركز الإبصار على سطح دماغه بعطبٍ ما...

لكنّه في الحالين سيبصر قناديلها وهي توقد له ذبالاتها وتنشر طيف أنوارها لتبدّد ظلماته مثلما كانت تفعل نجمتُها التي تبعته في حلّه وترحاله حتى توقّفت مرّةً فتوقّف متوجّساً، تراجعت فاستدار متقدّماً نحوها، ظلّت تتراجع وهو يلاحقها إلى أن أوصلته إلى حيث هو الآن فاختفت حالما اقتُنصت سماؤه وأُبعد عنها! استمرّ يحلم بلقياها ولم يعلم أنّها ستتبرّأ منه أو أنّه سيتبرّأ منها حين ستفتّت صرخاته إسمنت الجدران وتعيده غباراً يملأ رئتيه فيختنق بهما!

استمرت مي طازجةً حاضرةً ملء راحتيه، يريد احتضانها ومخاطبتها وحسب! لم يكن جاهلاً بما سيقوله لها، لكنّه لم يعلنه حتّى لنفسه كيلا يكون مكروراً وذابلاً أمامها. تشبّع به وانتظر طقساً ملائماً كيما يهطل عليها قطرات ندى...

ينتظر متمهّلاً ما ستؤول إليه الأمور، يدعو في سريرته أن يسارع أدهم لإدراك ما حدث ويبادر للاختفاء. أثق بأنّه ليس غبيّاً ليوقعوا به. وحتّى لو لم يخطر بباله ارتباط غيابي به بالالتباس الحاصل في نظرهم، فستنبّهه صفاء

لذلك. يوجعه ما ستسبّبه غيبته لها من قلقٍ واضطراب، ألا تكفيها عذاباتها؟ والصغيران، ما ذنبهما أيضاً؟ المسكينة لم تكد تطمئنّ لوجودي قربها بعد سنوات الوحدة الطويلة حتى خذلتُها ونأيتُ مجدّداً. يتغلغل القلق رويداً رويداً فيطغى، يقاوم كيلا يجرفه تيّاره، لكنّ العزلة والسكون المطبق أوجفاه وما استطاع أن يتحرّر منهما. يسأل ببساطةٍ ودهشة، منذ متى أنا هنا؟ وهل أنا هنا فعلاً، أم أنّ حلماً يحاصرني ويقدّم لحواسّي متطلّبات إرضائها لتقنع عقلي بالواقع الذي تلمسه وتراه وتصغي إليه وتشمّه؟ في غمرة اضطرابه تُفتَح شرّاقة الباب بعنفٍ صاخب، يتبيّن ضوءاً كالحاً يقطعه خيال وجهٍ مبهم الملامح، يغدره على غفلةٍ منه نورٌ مبهرٌ يملأ عينيه فيغمضهما لوهلةٍ ثم يفتحهما على صوت الإطباق والشتائم التي انهالت على بعضهم دون أن يدرك سبباً لها، تغرقهما الظلمة، يتناهى إلى سمعه صدى كلماتٍ تجمّعت ويخالها جملةً لا يعي معناها.

ـ هاتوا العاهرة الأخرى!

من هي وأين هي؟ ولماذا يستدعيها في هذا الوقت عقب محاولة التعرّف عليه؟ قد لا تكون هنالك أيّة صلة، وما في تزامن ذينك الفعلين إلا مصادفةٌ محضة. لا يطمئنّ قلبه.. يحاول أن يحزر من تكون وما علاقتها به. هل وشت به إحداهنّ واتّهمته بما لم يفعل؟ يحاول تذكّر من التقاهم خلال الأيّام الماضية وما إذا تسبّب بأذىً لأحدٍ جعله يفتئ عليه بما هو غريبٌ عنه. لا تخطر صفاء على باله أبداً، يعتبرها خارج الدائرة بغير تفكّرٍ تقريباً، في الحقيقة ليست سوى شقيقةٍ لا تدخل ضمن دائرة العلاقات الأخرى. يسأل بإلحاح: من الذين التقيتهم مذ وصلت؟

أسبوعٌ واحدٌ حاول ألاّ يلتقي أحداً خلاله! أسبوعٌ واحدٌ لعينٌ هيّأ فيه ذهابه للبلدة التي احترثت لبدنها بساتين في الصحراء، نصفها رملٌ ونصفها شجر. أيّة بلاد؟ لا الشمس دفعت الصحراء للتقدّم مع كلّ شروقٍ ولا

البساتين تراجعت لتتمدّد فوق الرمل، واضعةً سعف النخل أمام عينيها لتتّقي وهج شمسٍ تميل نحو مغربها لولا معجزةُ الماء! لكنّ صفاء نصحته ألاّ يفعل، أن يتمهّل ويتعرّف على الأجواء بصورةٍ أفضل كيلا تصدمه صفعاتٌ كثيرةٌ ما كان له يوماً أن يتخيل انهيالها على صفحتي وجهه. لم يكن كلامها مقنِعاً، فالهاجس الذي أقض مضاجعه ودفعه لعتبات الهذيان هو جوهر دفاعه عن عودته. فكيف يتخلّى عن ذلك تحت ضغط وإلحاح شقيقته التي وجّهت الصفعة الأولى له؟

«لم تلفحك النيران ولم تجمّد أطرافك ريح الصقيع التي أعقبتها، في الأولى مقصومٌ وفي الثانية مقصومٌ ثم تتلفّت حولك، تخشى أن تكون وحيداً بعدما تلمّست آثار الجذام على جسدك ووجدت كم اجتُثّ منه، بل كم تبقى منه!»

علّلت ذلك وهي تضمّ كفّيه براحتيها، أحسّت أنّها تجرحه وتدينه من حيث تدري، لكنّها علمت ضرورة ذلك، فأن يتألّم منها وهي تحنو عليه خيرٌ من قدوم الصدمة من غريب، فتخلخل أسسه وتحضّه على الانهيار. لم تخفِ عنه ذلك:

«جميل، لم تعش هنا، كنت تسمع.. تحسّ ما تسمعه، تحلّل وتتخيّل، لكنّ ذلك لا يعادل الصورة الحقيقيّة التي لا تستطيع تلمّسها إن لم تكن جزءاً منها. لا يكفي أبداً أن تفكّر بها، فالمهمّ أن تعيش تفكيرك بها. ثمّ تكتشف أنّها دمجتك وسلختك عن نفسك، أو أنّك تعيش على الهامش معزولاً مضطهداً محاصراً في لقمة عيشك، فلا تعود بعدها لتفكّر، ولا لتعيش حتّى! تأكل وتشرب وتنام وتتناسل وتسأل السؤال الأبديّ، السؤال البدهيّ والمفرِط في النرجسيّة والغباء: كم بقي من العمر؟»

جعلته يتردّد، لكنّ مي كانت تختنق في سوائل أوردته وشرايينه، تتشهّى جرحاً فاغراً يدفع الدم كسيلٍ فتتنفّس قليلاً من السماء قبل أن تخيط

الجرح عليها. أصغى إليها وحاول ألاّ يثير قلقها وجزعها الغريزيّ عليه. كانت بنفسجةً غضّةً صمدت طويلاً في مواجهة الجفاف وعوامل الفناء.. استمرّت نديّةً فوّاحةً ومتوهّجةً كلؤلؤةٍ رأت الضوء لأوّل مرّةٍ خارج الماء. لكنّ ذلك كلّه كان نقطة ضعفها، استنزفت طاقات بقائها فأمست هشّةً؛ لمسةٌ، نسمةٌ، دمعةٌ يمكن أن تتسبّب في تلاشيها واندثارها. كان يربطها بالحياة خيطٌ وحيد لا يرتدّ النسغ فيه بل يتقدّم مندفعاً، مسبّباً جفافاً وذبولاً لما قبله. تعيش لولديها وحسب، تودّ أن تردّ عنهما غوائل ما أوصلها في النهاية لما هي عليه الآن! تكلح السماء فتُخرِج ألوانَها وتعيد صبغها بزرقةٍ رأتها روحها حينما حلّقت بعيداً عن عالمها الأرضيّ فأتت أكثر بهاءً وعلقت داخل مقل ولديها.. يجفّ العشب فتعتصر مواسيرها وعلى راحتيها تمزج نقائض الألوان فتختلط بأناملها وتلوّنه أنضر ما يكون، ويصطبغ اللون على تخوم روحيهما بعد عبوره نوافذ عينيهما. أبقت نجيعها لوناً أخيراً لأفقٍ سيخصب قفره ذات صباح...

داراها فما استطاع، أرادت أن تكون له أمّاً وهما يتيماها معاً! تلك التي كحّلت عيونهما بسواد الحداد عليها من بواكير ربيعها القصير، فصار لها ابناً ثالثاً، يحتجّ باستمرارٍ على رعايتها الفائقة التي ستثير غيرة صغيريها. لا تهتمّ لذلك، سيسعدهما. احتضنته هلا بستان نخيلٍ فاء عليه ظلالاً نديّةً وأمواهاً جلت صدأ روحه واستخرجت طفولته واصطفته رفيق براءتها. وجد فيه هاني كلّ ما افتقده في غياب أبيه. امتثل لها، لهما من غير تأجيل بحثه عن مي لحظةً واحدة، لكنّ ما دفعه للتأجيل حضور أدهم واستئذانه قضاء أيّامٍ قلائل ريثما يجد مكاناً يؤويه.

«لن أكذب عليك. بعد كلّ ما مضى أرفض الإقامة غريباً في غرفة فندقٍ أو منزلٍ لا أحسّ فيه برابطٍ يصلني به، أمضيتُ عمري على هذا النحو ولا أريد متابعة ذلك في مكانٍ قامرتُ عليه لإلغاء ما قبله! وتجيبه صفاء: بيتك وأهلك، إن لم يكن مسكن روحك هنا فما عاد لك سوى اللحد.»

هل كانت تتنبّأ؟ حدسها الملهم يُنطق لسانها دوماً.. وعلى وقع حديثه الذي لخّص خبرات أسبوعه أصابني بالإحباط. إن كان الذي أمضى عمره وراء متراسٍ لا يغادره إلا لساحة قتالٍ مكشوفةٍ سرعان ما يعود إليه استراحة محاربٍ مجهَدٍ أو ذوداً عنه تجاه احتلالٍ وشيكٍ يقول هذا، فكيف أنبش الأرض بحثاً عن ينابيع مي؟ حين تجنّبت صفاء الحديث عنها، لم أعارض رغبتها ولم استثر أحزانها، كنت أردّد كثيراً، لقد احتملتْ أكثر منّا جميعاً عذاباتها وعذاباتنا وبقيت تجرجر صليبها دون احتجاجٍ ولا شكوى. لم تجأر بطلب الصلب وإنهاء الجلجلة، فهي تعلم أن الدرب أطول من أن تختصره بصرخة يأسٍ واحدةٍ تطفئ نور العالم خارج جفنيها المطبقين، سواءً أمضت أم قامت بعد أيامٍ ثلاثةٍ، قرون ثلاثةٍ، أو حتّى دهور. كنت أعلم أنّ ما يعتمل في قلبها ويُثقِل عليه لا يمكن أن يبقى هناك ناخراً فيه، مداهماً أحلام نومها ويقظتها معاً. أنا الوحيد الذي يمكن لها أن تعتق نفسها أمامه من قيودها بعد رحيل أمّها! ستحكي لأنّها تعلم انتظاري لحكايتها، تعلم أنّني عدتُ لأستمع إلى ما ستقوله بلسانها. اختلطت الأمور حتّى ذلك الفجر، حين بدا أنّ أوان البحث عن مي قد حان!

مثلما يحين وقت إعادة حساباته حول طبيعة ومدى توقيفه. يوالي الإصغاء لصوته، محاولاً كما حسب استدعاء أسماء اللواتي التقاهنّ خلال أسبوعيه اليتيمين. ترجّ الجدران على صوت ارتطام المزلاج الذي فُتِح بغضب وعجلة، لا يمهلوه اعتياد التطلّع في الضوء، فتُعقَد العصبة على عينيه، يُرفَع ويُدفَع ثمّ يدور دورةً طويلةً قبل أن يُقرَع بابٌ ويُفتَح، يبقى برهةً ثمّ يُدفع داخل غرفة، يتركه حرّاسه ويغلقون الباب خلفهم. يسمع وقع خطىً يقترب منه، ينكمش حذر ما يمكن أن يحدث، تُنتزَع العصبة بشدّةٍ فتبين القاعة الضخمة رويداً رويداً. يتأمّل الوجه ويتساءل، أين رأيته؟

ـ إذن أنت أدهم جبيلي! أخيراً وقعت؟

تنطلق الجملة السؤال دفقة رصاصٍ مصهورٍ يعقبها انفجار قهقهةٍ غير متوقَّعةٍ من الوجه الصارم المترهّل. يرتعش جميل، يحار كيف يجيب، يلتمع فجأةً صدى الصوت في رأسه.. تغيّرت الملامح، تراجع الزمن عنها وأبعد تأثيراته العميقة عليها. يبحث عن الاسم الغامض المهوّم في موضعٍ ما داخل ظلام جمجمته. من... من؟ يتذكّر أخيراً: فاتك، البيت، رحلة الشقاء التي انتهت هنا. يا الله كم تغيّرت الدنيا! يتساءل بحيرةٍ إن كان قد ميّزه.

ـ نعم، يبدو ذلك، يجيب محاولاً تغيير جرس صوته علّه يموه شخصه.

ـ هكذا إذن! تقول إنّك هو؟

يحاكي صوتَه موالياً التحديق في عينيه مباشرةً، لا يرفّ جفنا جميل ولو أنّه تيقّن أنّ لعبته انكشفت.

ـ هذا ما أحسب أنّني قلتُه.

تأتي اللطمة فتلقيه أرضاً، يحسّ ملوحة الدم بين أسنانه. يا للكفّ المطرقة، يقول وهو يحاول النهوض مستمِعاً.

ـ هذه لتسمعني صوتك الحقيقي. تحسبني مغفّلاً أيّها الحمار الكبير؟

ابتدأت اللعبة الحقيقيّة، يخاطب جميل نفسه ثم يقول:

ـ أجبت على سؤالك وحسب.

لا تفوت فاتكاً عودة الصوت لطبيعته فيقول مصالِحاً:

ـ الآن بدأنا نتفاهم، ما من شيءٍ خافٍ، أنت تعلم أنّني أعرفه حق المعرفة، لربّما تستطيع خداع نفسك أمّا أن تخادعني فذاك صعب. كذلك يهيّأ لي أنّي أستعيد ملامحك مثلما استعدتَ ملامحي. من أجل تلك الأيّام، يُفترَض أن أعتذر منك وأسألك إن كنت تحتاج مساعدةً لأقدّمها إليك ثمّ أقول لك.. الله معك! أمّا إن ظللتَ مصرّاً على أنّك هو، فليس لديّ مانعٌ كذلك، لكنّك ستسدّد حساباته كاملةً. أستطيع إنهاء هذه اللعبة بثانيةٍ

واحدة، لن أعالج عنادك لأنّ رأسك ناشفةٌ مثل خشب جوزٍ عتيقٍ ويحتاج لتطويعه أو تحطيمه. لكنّي كما قلتُ لك أستطيع إنهاء ذلك من أجل مصلحتك بطرفة عين؛ شقيقتك المحترمة، نحضرها ونسألها إن كنت أنتَ هو الزائر الغريب الذي يبات في بيتها أم أنّك شخصٌ آخر ولدته أمّها ذات يوم. فإن كان الأخير، طلبنا منها اصطحابه معها ونصحناها بعرضه على طبيبٍ مختصٍّ بالأمراض العقليّة.

القذر يستسهل الأمور على نفسه! أهو على عجلةٍ من أمره؟ أيُعقل أن يحضرها؟ يتذكّر ما سمعه منذ قليل، معنى ذلك أنّها هي.

ـ أقول أنا هو، ما لم تطلب منّي تغيير هويّتي.

ـ لا.. معاذ الله، نحن من نغيّر هويّتنا ولا نتركك أبداً تغيّرها، ليس عندي أيّ اعتراض، أردت مساعدتك كرمى لأهلك فرفضتَ، ذنبك على جنبك، المهم ألاّ تحسب نفسك خادعي.

يرنّ جرساً، يدخل حارسٌ ضخم الجثّة فيأمره:

ـ خذه إلى الصالة. هل وصلت؟

يجيب الضخم بآليّةٍ محت صفات صوته:

ـ نعم سيّدي.

يطرق الأرض بقدمه، يُحكِم العصبة على عيني جميل ويجرّه معه إلى صالةٍ سيحيون فيها احتفالاً صباحيّاً صاخباً احتفاءً بقدومه الغالي. سيوليه صاحب الحصن كلّ عنايته ويشرّفه بحضوره الاستثنائيّ، مهنّئاً بسلامة الوصول، متمنّياً طيب الإقامة وحسن التمتّع!

كأنّ الصالة فارغة. تنتج عنها عتمةٌ ما، يحتبس الهواء داخلها ساكِناً غير متجدّد.

دفعته يدٌ ثقيلةٌ من صدره فاختلّ توازنه، كاد ينقلب على قفاه لولا

الجدار الذي تلقّاه فتداعى عليه. جلس طاوياً ركبتيه، تاركاً مسافةً بين جسمه والحائط ليريح ذراعيه المضمومين إلى ظهره، أسند إليه كتفيه وحسب وراح ينتظر.. سمع خطىً تروح وتجيء بغير انتظام، وأصواتاً خافتةً لا يبين كلامها... كأنّما أحسّ أنّ الباب أُبقيَ مفتوحاً، حدس؛ سيعرضونني عليها من خلاله، كيف أستطيع إخبارها بادّعائي كيما تؤكّده إلى حين؟ ما نفع ذلك؟ قد يستفزّه ذلك أيضاً ويأمر بتوقيفها معي! ألن يفضّل إبقاء حقيقة هويّتي سرّاً بيني وبينه؟ لن يرتضي لنفسه أن يتكشّف أمام زبانيته غبيّاً مثلهم. ارتاح للفكرة وهدأت روحه، تمنّى من كلّ قلبه ألاّ يطول انتظارها، ليس من أجلها وحسب، بل من أجل طفليها!

حاول أن يبتعد عن الجوّ، أن يعود إلى مرارة أيّام غربته.. إلى ما قبلها ليمحّص مرّةً أخرى في معقوليّة ما اعتبره ضروريّاً لتقرير رحيله، لمرحلةٍ قبل ذلك، حيث نضجت على مهلٍ ودون تدخّلٍ واعٍ منه ظروفٌ ستصير أسباباً تدفعه إلى الرحيل. أخفق، فحاول استحضار أدهم... أراد أن يتابع معه حواراً باشراه منذ زمنٍ طويل، حواراً كان فيه طرفاً وحيداً يناقش ويفترض إجابات خصمه وحججه التي بناها على تصوّر خلفيّةٍ شكّلت مرجعيّة سلوكه. لم ينته الحوار، رغم مواصلته جزئيّاً وعلى أرض واقعٍ غير مستقرّ ومتحرّكٍ في رحلة سفينةٍ عائدة إلى البرّ المصادَر... أو خلال الأوقات التي اقتنصاها عبر أسبوعٍ مضى. لم يجدِه كلّ ذلك نفعاً، إذ كان القلق على صفاء والصغيرين يمنع عنه التفكير. عدتُ لأكون قربهم، أرعاهم وأحاول تعويضهم بعض ما فات رغم أو بسبب بحثي المجنون الذي كان ذريعة عودتي، ومازال!

أخرجته من تأمّلاته همهماتٌ مبهمةٌ وصخبٌ غير مفهوم.. أحسّه قريباً... أوجف، هل وصلت؟ هل أحضروها؟ وماذا الآن؟ راح يتململ وقد ضاق ذرعاً بعصبةٍ صيّرته أعمى، حاول دون جدوى إزاحتها وأرهقه خدر ذراعيه الذي اعتصره ونشر شللاً معيقاً في أنحاء أطرافه. ازدادت الجلبة وعلا اللغط.. كأنّه عراكٌ صامتٌ يحتدم بخفوتٍ خشية لفت الأنظار... اشتدّ

توتّره، أراد تمييز صوتٍ ما يشبع فضولاً يعتمل في نفسه. ثم صفر في الهواء فحيحُ أفعى بذلت جهدها لتتجنّب معركةً كرهت خوضها فاضطرّت لتحذير خصمٍ لجوج، إرهابه عن بعد. أعقب الصفير صوت ارتطام السوط باللحم حادّاً مبعثراً يتضخّم على صوت تردّده داخل جوف الصدر، مال على ركبتيه يعدّ الخطوط التي تحزّ لحم ظهره وتهيّئه للدم.. لم يكمل عدّ أربعة سياطٍ حتى أتت الصرخة ثاقبةً حادّةً تخترق الفضاء وتمزّق لحم الجدران قبل أن تردّد صداها وينفتح جرحه... صفاء! سقط قلبه واحتزّ عنقَه خيط حرير.. ضغط وضغط حتى تيبّس الدم في رأسه فراح يبحث عن منافذ قبل أن يتفجّر في جوفه أو يفجّره في وجوههم أو ينزلق ببساطةٍ قاهرةٍ من مسارب عينيه وعلى وقع القطرات الصغيرة الثقيلة التي سقطت على الأرض، عمّ الصمت وماتت الحركة، أمعن في الإصغاء وأمعن في الشمّ، ما من شيء! كانت كلّ خلاياه متوفّزةً تترقّب الصراخ القادم ليعمل معاوله في عظامه وينشر يباباً في روحه التي بدأت ترقص على وقع المسّ القادم لا محالة!

لم تفته أيّة نأمة، غير أنّ الصمت المريب استطال شوكاً والخيوط توتّرت حتّى نهاياتها، وما لم يتوقّف الشدّ فستتقطّع فرادى أو تنبتّ معاً. وفي محاولة إيقاف الشدّ عند حدّه الحرج تساءل: أيُعقل أنّهم يلوّحون بوجودها وحسب؟ الأوباش يجلدونها من أجل أن تصرخ شفتاها صراخاً يعرّفها، أنا هنا، إن كان الأمر كذلك فهو هيّنٌ. لا بأس عليك يا صفاء، احتملي بعضاً من ضريبة الدم!

لكنّ الضريبة الحقيقيّة ستُسدّد للتوّ كاملةً دون نقصان... دخلوا، أحسّ بهم، لم يسمع همسةً ولا تردّد نَفَسٍ ولا وقع خطى. أدرك أنّهم ملؤوا الحيّز الذي يشغله، سيّجوه بأجسادهم واحتلّوا آخر فضاءاته التي وصلت شرايين قلبه بالسماء.. استمع فقط لزقو العصافير اليتيمة التي تقيم على مقربةٍ من رئته كأنّها تستصرخ أمّها لتأتي وتحطّ فوقها، تغطّيها وتخبّئها عن عيونٍ تسعى

لاقتناصها أو لإطلاقها بعيداً حيث تموت، تنشر عليها جناحيها فلا تسمع ولا ترى، تدفن في بطنها وصدرها الاضطرابات العنيفة التي باتت تزلزل عشّها الأثير. ودّ لو يهدّئها، يربّت عليها، يمنحها أماناً ألجأها إليه هروبها من الطلقات التي لاحقت سربها في مكانٍ ما، لكنّهم لم يمهلوه... تمنّى لو تأتي أمّها وتحملها إلى عشٍّ لم يُخترق أمانه ويُستبح. كان آخر ما يذكره أشياء ثلاثةٌ لم تغب عن ذاكرته أبداً كأنّ الزمان توقّف عندها؛ فكّ قيد معصميه، إصراره على الصمت وابتلاع صراخٍ سيسبّب مزيداً من الوجع لصفاء، وأصوات اللهاث والدمدمات التي لاحقته من كل الجهات!

أحاط عصافير قلبه براحتيه وغنّى لها فأغفت.. وأغفى!

ـ هل تعرّفت صوتَه؟

ـ لم تفعل سيّدي.

يقول ناهراً بحدّة:

ـ لماذا؟

متلكّئاً يجيب الصوت برتابةٍ انخفضت عن سويّتها المعتادة خوف العقاب المترتّب عن التقصير:

ـ لم يصرخ سيّدي.

ـ ماذا؟ ألم تستطع انتزاع آخٍ واحدةٍ أيّها الحيوان؟

مع الكلمة الأخيرة اندفعت منفضة سجائر حجريّةٌ ضخمةٌ نحو الوجه المسكون بالرعب، لكنّ الصدفة وحدها جعلتها تحيد عنه وتلامس الأذن اليمنى وحسب...

ـ اذهب فوراً وقدها إليه لتشاهده.

ـ أمرك سيّدي، يتردّد ثمّ يقول مندفعاً:

ـ لكنّه فاقد الوعي سيدي!

ـ انقلع وعُدْ حالاً.

الثعلب الخبيث، لم أتوقّعه هكذا، خلتُه ليّناً، طريّاً وسهلاً. عمَّ يدافع هذا الغبيّ؟ أقول له ارجع لعند شقيقتك، لا حاجة لي بك ولا مأرب، فيصرّ أن يكون بغيتي ومرادي... حسنٌ، سيكون لك ما تريد... لكنّك لن تجد متّسعاً من الوقت لتندم!

ـ هل عرفته؟

ـ كلاّ سيّدي، قالت إنّها لم تشاهده في حياتها.

الداعرة، سأجعلها تقبّل قدميّ من أجل رؤية من تدّعي عدم معرفته، وترفع ساقيها لتتعرّفه!

ـ أوصلوها لمنزلها وأحضروا طبيباً للحيوان الآخر. احذر أن يقترب أحدٌ منه، سأحمّلك المسؤوليّة كاملةً، هل فهمت؟

أمسك الربّ الصغير سمّاعة هاتفه، ابتسم في سريرته؛ شيطانٌ كامل... ومع ذلك لا تستطيع توسيع مملكة ربوبيّتك. تلفّت حواليه، ما هذا التخريف؟ أتأمن نفسك؟ امسح ذلك كلّه من رأسك، ما توفّر لك لن يناله أحدٌ بعدك، هل تريد زواله بلمح البصر؟ تنحنح وبقي ساهماً.. أطلق العنان لأفكاره بغير رقابةٍ كيلا يصادرها مباشرةً ويكتب تقريره اليومي موجزاً حالة الانحراف الخطيرة التي يعانيها والاتّساع المرضيّ لطموحاته التي توسوس له بالتطلّع نحو الأعلى حيث لا يفصل بينهما أيّ شخصٍ، لكنّه يعلم علم اليقين أنّ هنالك حلقة، يشكّل بنفسه أحد عناصرها، ارتقت هذا الموضع وفصلته عن كلّ المواقع والحلقات المتزايدة أسفله، وأنّ كلّ عنصرٍ من عناصر الحلقة يبذل أقصى جهوده ويجنّد كلّ طاقاته وإمكانات مملكته لتحصين موقعه وضعضعة مواقع باقي العناصر والإيقاع بها ليضمّها واحدةً واحدةً إلى

مملكته أو يهيمن عليها بطريقٍ غير مباشر. ثمّ هل يمتلك الجرأة أو الشجاعة ليفكّر على هذا النحو؟ عاود التلفّت حواليه، اخرس أيّها الجاحد ناكر الجميل! مُنحت كلّ ما طلبت والآن تسعى لسرّ الخلق كي تمارس التدمير وإفناء الكائنات على هواك، لأنّك تعلم باستطاعة استعادتها أو خلق غيرها لتظلّ مسبّحةً بملكوتك متوسّلةً رضاك! احرص على نفسك والتزم حدّك، فسرعان ما تجد نفسك في باطن الجحيم الذي ابتنيته أساساً لدورك مرهوب الجانب. تجد نفسك في رقم تسعةٍ وخمسين، أشنع الأمكنة التي تهيّأ لعقلٍ ممسوسٍ أن يجسّد فيها أبشع ما تخيّله الإنسان من فظاعات الجحيم وأدواته وزبانيته. فأنت لا تعلم رغم كلّ جبروتك ما يمكن أن يُحاك ضدّك وأيّة أفخاخٍ ومصائد تُزرَع خفيةً لتُطبق عليك دفعةً واحدة ويكون من نصيب غيرك ما رغبته نصيباً لك وحلمته قدَرك السعيد. طرد تلك الأفكار من رأسه، عليك أن تقنع بموقعك وتستقتل دفاعاً عنه. تذكّر الرقم وشاغله، تذكّر السبب الذي دفعه لرفع السمّاعة. طلب الرقم وأصغى.

ـ هل أنتِ نائمة؟

يجيب صوتٌ نسويٌّ حادٌّ مضمّخٌ بالخنوع والرهبة والتملّق:

ـ لا، أنتظر مترقّبةً.

يسألها هازئاً بصلف من يدرك أهميّة نفوذه وقدرة هيمنته:

ـ خائفة؟

تجيب بصدق:

ـ أنت تعرفه، مثل جنّيٍّ قد يأتيني في حلمي ويضغط بأصابعه على عنقي حتى يُخرِج عيني من رأسي وأقول على الدنيا السلام.

يقول مهدّئاً من غير أن تفارق رنّة السخرية المكشوفة كلماته:

ـ اطمئنّي، سيختفي من الأحلام والأوهام.. ستأتيك مكافأتك وكذلك

ترقيتك. هل يكفيك كرسيّ مدير دائرةٍ أم أنّك تتطلّعين لمكانٍ قريبٍ من الوزير؟! قالها ممعِناً في سخريته. لكنّها أخذت كلامه على محمل الجدّ:

ـ أنت كريم.. ونحن نستأهل! المهمّ، هل أستطيع نسيانه؟

ـ انسيه، قبل ذلك ذكّري الجميع أن ينسوه! اتّفقنا؟

تطمئنّ فتقول ضاحكةً:

ـ سأقيم له مناحةً لن ينساها، سأخصّ بالذكر أصدقاءه وأحبّته الذين ينتظرون أوبته كمهديٍّ مُنتَظر، لكنّهم سيكفرون به حال يعملون تحقّق موته وليس اختفاءه، وسيعرفون ساعتئذٍ كم كانوا مخدوعين.

يجيب بجفاف:

ـ افعلي ما يحلو لك، لا تنسي أهله.

تضحك بصفاقة:

ـ أهله؟ سيكونون أوّل الفرحين بعد البلبلة التي أثارها بينهم.

ـ لا بأس، مع السلامة.

ـ مع السلامة. بالمناسبة، هل أستطيع التفكير بإجازةٍ قصيرةٍ في الخارج؟

ـ بدأت تطمعين...

قالها زاجراً، ثمّ أردف ضاحكاً:

ـ لا بأس، أنت تستحقّين كلّ خير. ليتهم جميعاً مثلك، لا، سنبقى ساعتها دون عمل.

رمى شصّه وعلقت السمكة سريعاً. هذه الخبيثة تصلح للاستخدام في مواقع أخرى، ستصنع المعجزات التي أحتاجها في هذا الوقت أكثر من أيّ شيء آخر.

عاد إبراهيم ليصحو على أخريات ليل، يتسكّع متلكّئاً، يبحث بعين ذئبٍ سغبٍ عن فريسةٍ يطفئ بها حرائق نفطٍ سرى في أوردته وكاد أن ينزّ عرقاً من مسامه وهو يلاحق الغيبوبة التي ملّته ويئست من صحوه الممنوع! كان يحاول الابتعاد عن مسكنه ليقصّر ساعات مكوثه فيه ونومه، فما من كائنٍ يؤنس وحشته سوى الجدران والأرصفة وظلال أنوارٍ باهتةٍ تشاركه تنقيبه عن قطط الليل الهائمة والجرذان العمياء التي تغادر فوهات قساطل المجاري لتنقّب في المخلّفات وأكوامِ النفايات المتراكمة، منتظرةً نابشيها ومنتهبيها. أوجس حين استطال ظلٌّ أمامه وتحرّك خلف منعطف، خشي انطلاق أشباحه المحتبسة في مواسير ألوانه دفعةً واحدةً فتقتصّ من ساجنها! خاف الشياطين التي تروده عن نفسه وتحثّه على التخلّي عنها وتركها طليقةً يسلس قيادها ويسهل توجيهها فتنصاع صاغرةً لقدرها المشؤوم. لكنّه قرّر المغامرة.. رأى في ملاحقة الظلّ المسرع ستراً جديداً يساعد في إبقاء الليل المتلاشي والمتبدّد في الغبش الأخير. كان في كامل صحوته، لكنّ ظاهره لايلوّح إلا بإيماض السكر يشعّ من عينيه ويترجّح في مشيته. اختفى ظلّها تحت عمود النور ووقفت سامقةً تطاوله، من أنتِ يا ماحضة العتم ومجهضة النور؟ اجعلي جسدي لقدميك جسراً واعبريه رصيفاً إلى مفترقاتي وتجمّعي في ساحتي لتحميني من نجمةٍ تلوح داعيةً نومنا للقدوم...

كانت تبكي رعبها وعزلتها، أو انتهاكاً يجاهر باختراقها بعدما تخلّت عن مواقعها. كوني لي خيرٌ من أن تكوني لخنزيرٍ أسحم يلوكك ثم يرميك لبنات آوى تكمل نهش لحمك الغضّ، فأنا ما اعتدتُ رميَ فرائسي لأنّني لاأقتلها أبداً؛ أذيقُها موتاً لا يُزهق روحها، لا أُرغمها على البقاء ولا أدعوها

للرحيل، تبقى حتّى تجد فرصةً أفضل أو تملّ مقامها أو تجدَ في الشوارع التي انتُشلت منها مستقرّاً يفضُل يأسَ مكوثها.

كانت تبكي ولم تخدعني دموعها... رأيتُها مؤشّراً حسّياً يضفي جوّاً عاطفياً عديم المعنى. كلانا يفهم الآخر، فلمَ التمثيل ومحاكاة ما لا يحاكى والمعادلة بسيطةٌ ومحسوبة الكلفة والنتيجة؟ سقفٌ مقابل جسد! يا لسعر السوق ويا للأجساد كم بَخُس ثمنها! سخر من نفسه، في السوق لا تتعامل إلا وفق أسعارٍ سائدةٍ وموازين تزن البضائع برهافةٍ مرتجفة، لا درهماً أقلّ ولا درهماً أكثر، وربّما وصلت الحسابات للأجزاء والكسور حفاظاً على مظاهر احترام قيمة العملة وأمان الحلال والحرام.

وإذن أيّتها المنبوذة، هل تمضين لتؤوي روحك وتمتّعي جسدك بلقمةٍ طيبةٍ وشرابٍ سائغٍ وتطفئي شهواته على جمرات جسدٍ مضادّ؟ وإذ انعدمت الخيارات أمامها أو هكذا لاح لها أو أنّها اصطنعته، فقد سحبها من يدها، ساقَها دون أن تقول لا أو نعم فانقادت ملتحفةً ظلّه، مغموسيْن بليل الفتك القادم والأحبولة الحاضرة والرغبة المستقيلة. لم تعنِه برودة ساعدها، مع ذلك فقد منّى النفس بسعيرٍ يحرمه اليقظة ويمنعه النوم. سارع الخطو فقد كاد الوقود الذي يؤمّن طاقة دفعه أن ينفذ، كان عليه الوصول قبل تغيير رأيه وترك الحبل المشدود إليه ليسرح أو يتهاوى نحو حظيرةٍ أخرى. وصل لاهثاً وحار كيف يولج مفتاحه في قفل بابه بعد أن اختلطت عليه الأمور وتمادت حتى أتاهته. رجته أخيراً متلفّتةً خشية عينٍ فضوليّةٍ ترصّد فراغ الشوارع ونبض الأرصفة الخامد أن يدعها لتفتح بوّابة فجره الآفل. ترنّح قليلاً، كيف يدعها تتقدّم الآن؟ مكرَهٌ هو، فإمّا يبقيا معاً خارج الأسوار أو تدخل قبله. رضخ وقد أرهبه رحيل العتم المتهادي، قدّم المفتاح غاضباً بائساً وأحسّ أنّها انتصرت وكان دليل انتصارها وطأها هامته؛ استحالت المنبوذة الواجفة مستدرّة الشفقة ومستمطِرة اللعنة وملهِبة الشوق في إسارها وسلاسلها وأسلاكه الشائكة فاتحةً، ترفل بالبيارق متوّجةً بالغار تبسُم بتشفٍّ لمن كان لثوانٍ آسرها وسابيها.

عليّ ألاّ أجعلها تدخل قبلي، عليّ أن أسحبها للخلف حالما ينفتح الباب وأدخل قبلها... لم يدخل هذا الباب أحدٌ قبلي ولن أسمح لها أن تكون الأولى، وإلاّ تكون قد حكمت على نفسها بأنّها الأخيرة!

أيّ لونٍ ترميه الآن يا إبراهيم وفي أيّ وقتٍ تستجلي هواك؟ ففي الثانية التي مشى فيها خلف لونه وامتصّه هواه كانت قد دخلت فانحنى لها مرحّباً، رغم أنّ نصال غزوتها شقّت وتينه فجفّ فيه الماء. طُرِدت من فردوسي فكيف أعود إليه الآن؟ قرّر في دخيلته أن يثأر منها بأن يمتهنها ويُسقِط عنها عباءة الأرجوان ويعفّرها بالثرى. أيّها التراب كن لها كما كنت لي، شقّ رحمها وحسب، مطلِقاً من سودائها شعاعها اليتيم. كان لاهثاً ثائراً كثورٍ هائجٍ في أوج السفاد، لم يمهل نفسه ولم يمهلها. كان في الذروة وكانت جدًّ قريبة، لفحها لهاثه واندفاعات الدم المسعور لكنّ جليدها استعصى على النيران. دفعها حتّى غرفته فوقفت ذليلةً ذاويةً تكاد تموء لولا قشعريرة جَلَدٍ آتٍ لا ريب فيه. ارتدّ بخاره المنطلق من منخريه منعكساً على السطح الصقيْل فصدم وجهَه واستثاره أكثر من خنوعها فصفعها.. غاض لون وجهها ولم تحرّك ساكناً، زمجر متمنّياً أن تصرخ أو تستغيث أو تتوسّل وهي ترى البريق الأزرق يحاصر مقلتيها الكسيرتين وأصابعه الدقيقة تطوّق عنقها المنحنية استكانةً ورجاء خلاص، لم تفده محاولة إرهابها فتراجع، كان يمكن أن تتابع صمتها حتى النهاية آن تطلق صرختها وترى الموت يغشى عينيها ويخمد نبضها فتقاوم، تيقّن أنّها ستدافع عن حياتها دون صراخٍ ربّما، لكن بشراسةٍ تجعل جسدها ينتفض فيتجاوب مع اندفاعات جسده وتقصّفات أضلاعه وارتجاجات شرايينه.

كيف تراجعتُ آنها؟ ما الذي أكرهني على تركها؟ لكنّه أفلتها، غادرها هادراً يشتم نفسه ويشتمها ويشتم حضورها. من مطبخه تناول زجاجةً جديدةً، تجرّع حتى سال الشراب من شدقيه فمسحه بظاهر كفه. أخذه فواقٌ حادّ ثمّ ترنّح قليلاً وعاد إليها. قدّم الزجاجة فرفضتها وعاود سبّها، اقترب منها وأحاطها بذراعيه محاولاً اعتصارها فدفعته. تراجع قليلاً، حدّق فيها، لم

يرعبها إذن! وضع الزجاجة على خوانٍ منخفض، أشعل لفافةً واستلقى فوق سريره من غير خلع حذائه، ما كان يعرف بعد أنّه سيصير سريرها وسيصبح هو غريباً. تأمّلها خلال ضباب دخان لفافته؛ كانت تقف مرتخية الساعدين، لكنّ جسدها ما كان مستقرّاً، وفي حركة تدافعه توفّزت عضلات ساقيها. بدا هيكلها منحنياً يتوازن بعسرٍ مع القدمين المتراقصتين، تقدمت إحداهما متّكئةً على رؤوس أصابعها وكان ثمة ما ينقصها، لاحظ أنّها لا تحمل حقيبة؛ مجرّد شعرٍ فاحم كثٌّ متلبّدٍ فوق جبهتها متكسّرٍ على كتفيها الملفوفين بقميصٍ أصفر فضفاضٍ برز طرفه من طوق بنطالها ذي الزرقة البارشة الملتصق بحوضها والمبرز تفاصيل فخذيها وثنيتي ركبتيها وساقيها، فوق خفّين من قماشٍ أسود يغطّي قدميها، نحيلةٌ متوسّطة القدّ. لاح ذلك كلّه واختفت قسماتها وصدرها المهمل أمام ظهرها المتصلّب المائل قرب عينيه.. حاول مرّةً أخرى، أكثر هدوءاً، واثقاً أنّه لن يدفعها دفعاً للاستلقاء. كانت تخيّلاته المرَضيّة عن اغتصابٍ مفترضٍ محض أوهامٍ لا يجرؤ حتى على التفكير بتفاصيلها، لم ينحطَّ إلى هذا الدرك بعد! رمى لفافته وسحقها بعقب حذائه.. آن لها أن تنصاع بالحسنى هذه المرة...

قاربها من الخلف.. لم يطوّقها تماماً وحاذر أن يلتصق بها، مدّ كفّيه فحطّا على كتفيها وأعاد ظهرها لاستوائه. تدانت قدماها على نحوٍ آليّ، تماسكت ولم ترتجف، ربّما فكّرت هي الأخرى بأن تكون مطواعةً لتنهي هذا الموقف المزري. استكانت بين أصابعه فقدّر أنّها شرعت تستجيب لليونته أو أنّها تمثّل كي تنتهي وتأوي للفراش البديل. لم يهتم للأمر، كان المهمّ الوحيد أن يبدّد إخفاقاته على سطوح بدنها ويقوقع خواءه في فعل تملّكٍ ذكوريٍّ يُخضِع الأنثى باعتبارها عدوّاً عصيّاً استسلم أخيراً وآن أوان الانتقام منه بولوجه واستكناه خفاياه وأسراره. أدارها ببطءٍ شديدٍ نحوه، لم يتأمّل ملامحها بعد أن أعمى بصرَه ركضه المتواثب لنيلها واجتياحها طوعاً بعدما فشِل في فعل ذلك عنوة.. تحوّل أيضاً على مهلٍ مع تبدّل أساليبه، أخذ يفكّكها على مهل، هاجسه انتزاع ثيابها الرثّة المتّسخة ليغسل عنها الأدران

وروائح العرق العطن والمفرزات المتخمّرة وحموضة الجسم الذي جافاه الماء... بانت طوع يديه تمانع ممانعةً خفيّةً لا تلمسها إلاّ أكفٌّ خبيرةٌ تلحظ ارتعاش العضلات وتوفّز الأوتار ونفور العروق الصاخب قبل أن تصافحها اللمسة الغريبة فتنتفض بخفوتٍ وتتلكّأ بالاستجابة لتحريك الأعضاء تسهيلاً لانتزاع الثياب. كأنّما دخلت غيبوبةً لم تستوفِ شروط تمامها، ولا تلحظها إلا عينٌ حاذِقةٌ لا تفوتها إطراقة الرأس المحنية انتظار الخنق منذ لحظاتِ وباستسلام العجز تواً؛ تخلٍ عن أيّة مقاومةٍ ومقلتان هاربتان من اختراقات البصر المريب والغريب وجفنان مطرقان بخمود، كلّما ارتفعا أظهر حذراً وخشية...

في تحوّلاته تكشّفت له عن جديدٍ خارقٍ للمألوف والعادة.. استحالت الروائح الكريهة صباحات دفلى مشبعةٍ بملح البحر وفغم أعشابه وأشنياته التي تبخر لقاحاتها مع كلّ هبوب شمسٍ وإطفاء موج.. توقّفت كفّاه هنيهةً وتحت المصباح الخجول المنسكب على اللوحة تبدّل اللون المدهش للجسد المغموس بوهج البحار والتماعات الرمل المخترق المساحات كمسحوق عسجدٍ صرف؛ رغيفٌ معجونٌ من طحين حنطةٍ حافظت على ظاهر لونها ولم تصل إلى بياضه المألوف وزادت حرارة التنّور نضارته وتورّده، بعضٌ من غضارٍ يشعّ عقب إخراجه من فرنٍ ساطه لهبه طويلاً، شيءٌ من خليطةٍ معدنيّةٍ مجهولة التركيب ونسب مكونات المزج ممهورةٌ بالنار، تربةٌ نادرةٌ نديّةٌ ريّانةٌ ستنشقّ في أيّة لحظةٍ عن سويقاتٍ غضّةٍ ترجف الروح لاخضلال خضرتها. خرج من اختلاطات سكره، رفع ذقنها بسبّابته فارتفع رأسها وانفتح جفناها على رحب مقلتيها كأنّما اطمأنت لرحيل الذئب بجوعه ولهاث شهوته ودمويّة عينيه ولعاب أنيابه المخاطيّ المرعب فرأى غابةً بتولاً تستيقظ ذات خليقةٍ وتخرج من ضباب صباحٍ أوّل ما كان ثمّة فجرٌ قبله ولا شمسٌ بعده وليس وراءه صباحاتٌ ولا أمامه، تظهر في عينيّة منظاره مقرّبةً من مئات الفراسخ فتبهر العين وتوجف القلب...

القسم الثاني

سوافـــي

مرايا

في وحدتها اختلّ التوازن المبنيّ على حضور الآخر مهما كان غامضاً وغريباً وصعب المراس. كانت نوال قد استيقظت على المشادّة العنيفة والعبث الهستيريّ باللوحات المتلاصقة بعضها وراء بعضٍ بعنايةٍ وحرص، دفعها الفزع لإخفاء وجهها كيلا ترى شيئاً من الانفجارات القادمة التي أبصرت نذرها مبكّراً كأنّما في الأفق مقتلةً وشيكة. أدركت أنّها لم تخفِ سوى ذقنِها وأنّها رأت رغم جفنيها المطبقين! كرهت شيئاً وحيداً، المرأةَ المبتذلة والسوقيّة، هي التي حسبت أنّ امرأةً لا تصل مثل هذه الدركات.

انتظرت خروجها بفارغ الصبر، فقد أصابها الوجل حين لمحت في التماعة العينين شهوةً صريحة. أرادت أن تحادث إبراهيم بعد خروجها، أرادت اختصار المسافة لتخبره بصريح العبارة أنّها ليست مومساً ولا رغبة لديها بأن تصير كذلك. لن تتوسّل إليه، ستسأله تحمّل وجودها ريثما تجد عملاً مناسباً. لقاء ذلك وكيلا تبقى مدينةً له بشيءٍ إلا شهامته، ستعمل على خدمته وخدمة المنزل لقاء نومها وطعامها وستمتنع عن التدخين حتى تجد فائضاً من دخلها يسمح لها بتناوله. سترضى أن تعمل موديلاً، إن رغب بذلك، لكن دون ابتذالٍ ودون أن يعني ذلك خطوةً نحو جسدها.

ستكون فرصتّها الوحيدة والأخيرة بعد الخوض الاضطراريّ في المستنقعات التي قادتها إليه منذ ساعات. خشيت ابتدار الحديث، ربما رفض! وهو لم يتح لها فرصة المبادرة حين أصابه مسٌّ جعل خبل ثمله نوبةً عرضيّةً

عاديّةً أمام الهيجان العارم الذي اعتراه، لكنّ كلماته قبيل مغادرته كانت جواباً لسؤالٍ لم تستطع طرحه. لم تكمل نصف يومٍ في موطنها الجديد وهاهي تحسّ فراغ غيابه. رغم أنّ رعبها من صاحب المكان لا يزال يلازمها، لكنها حالما دخلت، أحسّت بالأمان... ربّما أوحى قربه الشديد من مكان ولادتها بألفته! تيقّنت من ذلك ولو أنّها ظلّت متردّدةً، سيقبل شروطها فتبقى أم أنّه سيفرض شروطه ويدفعها سريعاً للفرار؟ وإن كان ذلك ما سيحدث دون ريب، فلماذا تبقى؟ من أجل اختباره؟ وفيما كانت تحاول حزم أمرها، قرع الباب فهبّت واقفةً بآليّةٍ تكشف غربتها! تذكّرت كونها وحيدة وأنه ربّما توجّب عليها فتح الباب. ولكن، كيف وبأيّة صفةٍ تجيب الطارق أو السائل؟ أيكون هو وقد نسي مفتاحه؟ تعلّقت بأملٍ واهٍ ينقذها من ورطتها. وإن كانت هي، تلك المخلوقة المقيتة التي تثير زوبعةً من دخان احتراق أطمار باليةٍ رطبةٍ لم تُغسَل يوماً، ما الذي أستطيعه أمام عينيها ولسانها؟

. مع النداء التالي، اتّجهت نحو الباب ومدت يدها لمقبضه، لكنّ لسانها سبقها:

ـ من؟

بدا صوتها غريباً على أذنيها، نطقت بوثوق صاحب بيتٍ شرع يفتح بابه، لم تنتظر جواباً وفتحت.

انتصبت أمامها وفوقها قامةٌ عملاقةٌ بوجهٍ أسمر قاسي الملامح فكادت أن تطبق الباب وتختبئ خلفه، لكنّها اكتفت بالإطراق انتظاراً للسؤال.

ـ إبراهيم موجود؟

تطابق وقع الصوت مع حجم صاحبه، لم يهدر في أذنيها وحسب، بل طال جسدها كله فناست في موضعها قبل أن تجيب:

ـ لا، ليس هنا. سيحضر بعد قليل.

استغرب إطراقها، أفيه ما ينفّر إلى هذا الحد؟ لم يبالِ، بل حاول أن

يكون أكثر رقّةً، إذ عليه أن يدخل وينتظر فليس بوسعه التسكع في موضعٍ مريبٍ كهذا:

- تسمحين لي بانتظار عودته؟

تدارك حين لاحظ تلكؤها:

- ما لم يكن في بقائي إزعاجٌ ما!

لم تعِ ما قيل لها. من هي حتى يطلب منها ما طلب؟ يفترض أن يكون صديقاً لإبراهيم، لولا ذلك لما استأذن الدخول في غيابه، لكنّه ليس قريباً منه، إذ لا يعلم أنّه وحيدٌ وأنّ ثمّة امرأةً طارئةً تقيم في بيته أو ربّما اعتاد النسوة العارضات اللائي يعبرن كلّ يومٍ وكلّ ليلة! لم يخاطبها كواحدةٍ منهنّ وهو لا يجهل طريقة خطابهن! إذن ما العمل؟ حارت، تمنّت أن تغلق الباب في وجهه دون كلمة اعتذار، لكنّها قررت النظر إليه في الثانية الأخيرة ثمّ تقول نعم أو لا. عبرتها عيناه مباشرةً فأدخلتاها في مستراح إلفته... ما كان غريباً عنها.. ربّما عرفته يوماً أو أطلّ على أحلامها ذات ليل. غضت طرفها وأفسحت له.

- تفضل، آمل ألا يتأخر.

أغلقت الباب خلفه، وجدته واقفاً يتطلّع محتاراً، حدست بجهله بالمكان أو بمرور وقتٍ طويلٍ فصله عن دخوله الأخير، تأكّدت حين لمحت تطلّعه للغرفة الداخلية. يعرف الموقع إذن!

- تفضل.

جلس في ركنٍ يواجه باب غرفة النوم ويكشف زاوية السرير الداخليّة... لاحقت بصره وأنصتت لتنهّدٍ خافتٍ أفلتته شفتاه ولم تمنعه لفافته التي ضغطها بشدّة بينهما. أشار إليها، بعد أن فاته ذلك، إن كانت ترغب بواحدةٍ فأجابت نفياً بهزّاتٍ متواليةٍ كأنّما خشيت إلحاحاً اعتادته زمناً.

- هل أزعجك إن أشعلتها؟

ـ لا، أبداً، خذ راحتك!

لم تلتفت إليه، ظلّت تحدّق حيث ينظر. كيف فاتها ذلك؟ سألت بدهشة فضولٍ مستتر:

ـ هل تعرفه؟

أجاب بصوته الأجشّ الجافّ البطيء دون أن يلتفت إليها:

ـ إبراهيم؟ طبعاً، منذ زمن طويل، ربما يفوق عمرك أو يقلّ عنه قليلاً!

أَمعَن النظر فيّ إذن! متى حدث ذلك؟ حافظت على ظاهر برودها وتابعت بلامبالاة:

ـ لا، قصدت التمثال...

آنها لم يطق البقاء جالساً ـ نهض وسار إلى الغرفة من غير استئذانٍ كأنّما فقد سيطرته على نفسه واتّبع غريزته، بينما اندفعت للّحاق به بقوّة جذبٍ لم تدر كنهها. ترى لو كان في بيتي، أكنت سمحت له بالعبور؟ لم تجب، لأنّها كانت تقف إلى جانبه قرب مقدمة السرير وقد انحنى متأملاً شيئاً فوق خزانةٍ صغيرةٍ اتّكأت عليها قاعدةٌ مكعّبة الشكل محاطةٌ بسورٍ منخفضٍ من شيءٍ شبيهٍ بأسلاك شائكة، على سطحها غير المستوي نهضت ساقان وطرفان من البرونز العتيق الذي ارتفعت نسبة النحاس في خليطته فبدا ضارباً لخضرةٍ مسودّة... كيف لم تنتبه إليه؟ راحت تتفحّص التمثال على مستوى ارتفاع بصره المتسلق كأنّما يرتقي شاهقاً ما من قمةٍ تحدّه.. ارتفعت ساقا مقاتلٍ عنيدٍ نبَض المعدن على تفاصيله الدقيقة وتوتّره وإصراره الذي لا يلين، وطرفا ذئبٍ شرسٍ قرصه الجوع وسعّر غضبه تحدّي الكائن الأضعف فتسلّق جذعه على قائمتيه وعضّ ساعده الأيمن منشباً مخالب قائمته الأماميّة اليسرى في الصدر المتراجع مواربأ نحو الخلف بينما امتدّت المخالب اليمنى لتهاجم العينين اللتين ترصدانها بثباتٍ وقد انحنت الرقبة للخلف بأقصى ما تسمح لها عضلاتها وفقراتها.. كان الهيكل الجبّار للحيوان الضاري يميل

بكل فتكه ووزنه على الجسد المرتكز بثباتٍ على ساقيه وقد تباعدت قدماه وانطوت ركبته اليمنى قليلاً، متيحةً لجذعه مدىً أوسع للتراجع، وارتمى ثقله على ساقه اليسرى من غير أن توحي حركته بصغر حجمه أو تشي بعجزه عن مواجهة فتك الهجمة، فقد ارتفعت يسراه وكادت أن تسقط على الرأس الهائج بحجرٍ ثقيلٍ أمسكته القبضة بقوّة تكاد تفتّه رغم صلادته... كان المشهد مدهشاً، أمّا المفارق والملتبس، فما كان سوى هشاشة هيكل المقاتل وضعفه البيّن. ورغم ذلك، فقد تبدّت روحه القتاليّة وإرادة مقاومته شجاعةً من غير حدود، نطقت بها عيناه ورغبةٌ في الحياة لا تقاوم، نطقتها الخلايا التي غطّاها المعدن الكامد!

التقطت رعدةً حملها الهواء الفاصل بينهما، بينما كان رأس سبّابته يتحرّك بثباتٍ وهدوءٍ على طول الجسد الموشك على التمزق من شدّة توتره تحت ملمسها... لم تدرِ، أرجفةُ روحه أم ارتعاشة جسده هي التي خلخلت الهواء ورجّته. لاحظت سكون الجسد المتكئ على سبّابة كفّه فصاحت في تضاعيف روحها؛ هي الروح!

- تغيّر كلّ شيءٍ إلاّه!

حملت السكينة الصوتَ من مكانٍ ناءٍ، ما كان صوتَه، ليس أجش ولا هادراً ولا ممتدّاً آمراً، بل صدىً هادئاً متّصلاً على ذات التردّد من منبعه إلى عاكسه إلى متلقّيه وقد نقّاه طول المسار وصفّى ما علقه من تشويشٍ ونشاز...

- أيمكن ذلك؟ سألت هامسةً.

وكمن يمارس طقس عبادةٍ مجهولة، تابع تلمّس التمثال بنشوةٍ بعد أن انتقلت سبّابته لهامة الحيوان المتوثّب طلب الموت أو الحياة، أجابها غير مكترثٍ بالتطلّع إليها:

- من دون ريب! كلّ شيء.. نحن والعالم وما يربطنا به وما يصلنا بأنفسنا... كلّ شيءٍ إلاّه!

كأنّه يخاطب نفسه، أو أنّ صلاتَه دخلت طور الجهد بعد تلاوة الصمت. حاولت التأكّد:

ـ ألم تلمس فيه أيّ تغيّر؟ أما لعب الزمن لعبته معه.. وعليه؟

ـ أخبريني، أنت قرينته؟

فاجأها السؤال، فردّت بآليّةٍ عجِلة:

ـ قرينة من؟

تطلّعت إليه، وجدته للمرّة الأولى ملتفتاً نحوها، يتأمّلها وسبّابته لا تزال تجسّ العنق الضاجّ بالدماء والمائر بالعضلات المتوفّزة المستخفّة بصلابة المعدن... كأنّ سريان الدم تابع رحلته من عينيه إلى وجهها مروراً بجسده المنحني وعنقه المنفتلِ ورأسه المائلِ فوقها... أحسّت أنّ تمثالاً جديداً ينهض ولن يمهله الزمن إلاّ برهةً قصيرةً ليجمّده إلى الأبد على وضعيته الحميمة تلك. خافت ذلك، وقد أحسّته يسعى لكمال البقاء دون تغيّر، كأنّه يمتصّ من العنق المهاجِم بقسوةِ عناصرَ الخلود التي أطلقها عليه مفتوناً بها قبل أن يفتن به! أجابت بسرعةٍ لتتيح له التحرّك قبل أن تدهمه اللحظة التي أولع بها واشتهى تحققها:

ـ ليس تماماً!

تنبّهت أنّها تجيب نفسها، فهو لم يردّ على سؤالها بعد. أتكون عيناه باحتا بما لم يقله لسانه؟ تحرّك أخيراً.. استقام لافّاً جذعه نحوها دون أن تفارق عيناه عينيها، لاح لها أنّه يتقدّم ليلاصقها فتمنّت أن يحيط وجهها براحتيه قبل أن يعانقها، أو هكذا حدست. أحسّت أنّ جسده يلاصق جسدها رغم الفراغ الفاصل بينهما.. هبطت أنفاسه من علٍ، لكنّ الفراغ المليء بحنانها وتوقها بقي حيّزاً يشغله الهواء.

ـ أما رأيتكِ من قبل؟

كمسحورةٍ أجابت دون تردّدٍ أو تأنٍّ:

- بلى... وأنا أيضاً أعرفك.

تراخى ساعداها على جانبيها وما عادت ساقاها قادرتين على حمل جسدها المتداعي... سنونٌ طويلةٌ من الشقاء امّحت، ابتعدت الأنثى المهانة عن ناظريها، طال شعرها وانسدل مغطّياً كتفيها وظهرها... فاحت روائح ياسمينٍ تفتّح للتوّ من مسامها المحروقة بشمسٍ ليست كالشموس وغطّتها غلالةٌ بيضاء شابت نصاعتَها آثار قُبَلِ شفاهٍ قرمزيّة انطبعت عليها فحبست ماءها كيلا يهطل ملوّناً بشفقٍ أثيريّ... أحسّت أنّها تدخل غيبوبةً تدفعها في دهليزِ مضاءٍ بسطوعٍ قطبيّ، فمدّت يديها لتتّقي عثرتها الوشيكة... لكنّ راحتين سعفتين تلقّتا راحتيها القطاتين الهاربتين، ثم حضنتهما كفٌّ واحدةٌ والتف ساعد الأخرى مطوّقاً كتفيها... قادها إلى أكبر أريكةٍ في الصالة وجلسا معاً. بقيت كفّاها في كفّه الحاضنة ودفعت كتفها داخل أضلاع صدره. اتّكأت مستكينةً وهي تلاحق الطفلة السمراء بعينيها المشابهتين لعيون القطط السوداء الفاحمة كما قيل لها.. تأكّدت حين أمسكت يوماً قطيطةً بدت قطعةً من الليل بنجمتين فوسفوريّتين تشعّان أسفل جبهتها... صارت أثيرتها وتسمّت باسمها، نوال، وما عادت تزعل حين ينادونها بالقطّة السوداء. كانت تلعب بكرتها الملوّنة منفردةً لا تشاركها اللعب أيٌّ من لدّاتها. ابتعدت كرتها لثوان فالتقطها فتىً يكبرها وهرب بها قاطعاً الشارع فركضت وراءه وهي تموء بوحشيّة الفقدان وقد تطاير شعرها رفوفَ سنونو وراءها... تعثّرت فتلقّاها الإسفلت. لم تبكِ وجعَ الرضوض وحرق السحجات، بل حرقةً وقهراً وهي ترى الصبيّ السارق يضحك مستنداً إلى جذع شجرةٍ حاضناً كرتّها بكفّيه.. أقالتها يدٌ عطوفة وأحاط بعضديها كفّان رقيقان هدّأا روعها ومنحاها ما أعاد الطمأنينة لقلبها المفزوع. رافقت التربيتات كلماتٌ قليلةٌ لم تعِها، لكنّها ابتسمت دون إرادةٍ وعانقت الرقبة التي تعلو رأسها رغم أنّ صاحبها جلس القرفصاء قبالتها، وحالما طوّقته أبعدها

قليلاً وابتعد. خافت ألاّ يعود، لكنّه قطع الشارع نحو الرصيف المقابل حيث وقف الصبي يرقب المشهد... مدّ يده فأبى الصبيّ تلبية طلبه وحاول أن يهرب بغنيمته، فأمسكت كفّ كتفه وانتزعت الأخرى الكرة من بين يديه... ابتعد الصبيّ وهو يشتم أبا الذي أخذ الكرة منه ويتّهمه بالاستقواء على من هو أصغر منه... عاد إليها تتقدّمه الكرة، أمسكتها، داعب شعرها، صعدت بعينيها من كفّه إلى ساعده إلى كتفه إلى عنقه وقد أوجعها عنقها، تتلع لتبصر الوجه الترابيّ المشابه بُنّ وجهها قبل أن تقول، شكراً عمّو أدهم!

- أدهم!

فتحت عينيها فملأت قامتُه مقلتيها.

- ألست شقيقة حنان الصغرى؟

سأل وابتسامةٌ نديّةٌ من أسىً مجبولٍ بغبطةٍ تبدّد الحنين على ماء اللقاء، بدت رغم افتراقها عن القسمات الصارمة التي يداخلها الكِبَر والتجهّم صادقةً تمسّ شغاف الروح.

ازدادت التصاقاً به ثم أفلتت قطاتيها من عشّ كفّيه فطارتا وحطّتا على كتفيه وقد داهمتهما عاصفة نشيجٍ وفرحٍ مغموسٍ بوجع الفقدان. دفنت رأسها وكربها في صدره وهي تتمتم:

- بلى، بلى، لقد انتهى كل شيء.

ربّت على كتفيها.. أبعد رأسها قليلاً عن صدره ومسح دمعها:

- لماذا البكاء؟ أما في لقائي ما يفرح؟

ابتسمت خلال دموعها.. شرقت بإجهاشها وباحت بحبورٍ تلقائيٍّ:

- بلى.. أبكي من فرحتي، خلاصي من البؤس الذي تكلّب بي وغمرني باليأس. وفي لحظة تخلّي الأمل عنّي، أعاده إليّ لقاؤك المستحيل!

- أهنالك من يخطف طاباتك حتى الآن؟

حاولت الحفاظ على مرحٍ معجونٍ بالحزن، لكنّ المرارة غمست كلماتها بزيتها المقدّس:

ـ آه... خطفوا أكثر من ذلك، وما زالوا يحاولون خطف المزيد.

تأمّلها بتفحّصٍ حانٍ:

ـ وإبراهيم؟

رفعت بصرها بدهشةٍ متسائلة:

ـ من إبراهيم؟

هل أصابتها المفاجأة بالخبل؟ تساءل في سريرته. هل نسيت أنّها في بيته؟ قال مهدّئاً:

ـ إبراهيم الرسّام، الرسّام يا... اعذريني، نسيت اسمك!

ـ لا تقل ذلك! تتذكّر اسم أختي وتنساني؟

قال مداعباً:

ـ لم أنسك، كنتِ طفلةً صغيرة... وقد تغيّرت أنتِ أيضاً كثيراً. صحيحٌ أنّني تذكّرتك، لكنّ اسمك غاب مع أسماءٍ كثيرةٍ طوتها تلك السنوات الطوال. صرتِ صبيّةً رائعةً وأنا دخلتُ سني هرمي... أكاد أرجع عقدين للخلف لأحاول التقرّب منكِ، عساك تجدين فيّ فارس أحلامك!

ـ لا، فيك البركة.. لازلت شابّاً، وستفكّر نوال، عساك تكون فارس أحلامها!

قالتها ضاحكةً بينما أخذ يردّد بصوته المتدفّق الذي فشل في إبقائه خافتاً:

ـ نوال.. نوال.. كيف نسيت ذلك؟ قولي هل تذكّرتِ الذي تقيمين في بيته، أم أنّه غيّر منزله دون علمي؟ وأيضاً أخبريني عن حنان. كيف هي؟ ما الذي فعلته بها الأيام؟

أكملت ضحكتها المنطلقة زقزقةً بعد دهرٍ من الاحتباس والاختناق:

- طوّل بالك عليّ، تذكّرت، مازال هنا ومازلت أقيم في بيته ولم أطرده منه بعد! أمهلني قليلاً، دعني أحتفي بك أولاً ثم سأحكي... ما الذي سأقدّمه لك؟

أسعده حبورها، كان يحتاجه، أحسّ أنّها أفلتت من أسرٍ لا يدري كنهه ويجهل صانعيه.

- كما تشائين، سأنتظر قليلاً، ذلك الخبيث يخبّئ، كما عهدته في سالف الأيام، شراباً سحرياً ينتقيه بعنايةٍ ويطمره في مكان ولا يظهره إلاّ في مناسبةٍ تستدعي حضوره. عساك تجدينه، وإلاّ فكلّ ما تعدّه يداك سيكون ملائماً.

- وددتُ لو نخرج ونحتفل في مكانٍ عام، لكن علينا انتظاره. وحتّى ذلك الوقت، سأجود بالموجود.

مضت تتراقص جذلى... لقد هرمتَ حقاً يا أدهم. انظر إليها! جالت عيناه الجدران، أتبحث عن مرآةٍ لتكتشف ما حلّ بك بعدما اكتشفت شيئاً فشيئاً ما حلّ بهم؟ لطالما كرهتَ المرايا وبغضت النظر إليها وتحايلت لتتجنّبها؛ فتارةً تطليق لحيتك وشاربيك وشعرك، وطوراً تحلقها بطريقةٍ تعفيك من التطلّع إليها. ومتى اهتممت بذلك أصلاً؟ حتّى في أيّام مراهقتك لم تجد حاجةً للتأكّد من حسن مظهرك أو ملاحة وجهك.. كأنّما أدركتَ مبكّراً أن سوءهما لا يمكن إصلاحه أو تزيينه أو تمويهه فعففت عن ذلك كلّه حتّى نسيت شكل وجهك وقسماته وكيف غسله الزمن بمائه المرّ الكاوي. كأنّك تخشى ذلك كلّه وتتحاشاه كي تديم بقاء اللحظة التي سعيت لتكون وفيّاً لها... ولا تدري إن استطعتَ فعل ذلك أم أنّك أخفقت.

دخلت وقد علّقت بأصابعها ثلاث زجاجات تعرّقت سطوحها على السائل العنبريّ المرتجّ داخلها، وبكفّها الأخرى حملت صحناً بفستقٍ مملّح،

فقام ليجلب مائدةً صغيرةً يضعها قرب الأريكة كي يريحها من حملها، وحالما فعلت ذلك جلست لصقه:

ـ تفضل! يفي ذلك بالغرض؟

ـ بل أكثر. أنسيتِ المفتاح؟

بادرت للقيام فوضع كفّه على ركبتها مانعاً حركتها.

ـ لا عليك، سأتدبر أمرها.

انتزع الغطاء المعدنيّ على حافّة المائدة بمهارةٍ وقدّم لها الزجاجة قبل أن يفتح الثانية.

ـ في صحتك... قالتها قارعةً زجاجته بزجاجتها، ثم امتصّت منها ملء فمها. تأمّلته بمرح:

ـ هكذا، مثل سكارى آخر الليل... أحسن من كلّ ذلك التحضّر الغبيّ!

جاراها مزدرداً أكثر من نصف زجاجته، فتابعت وقد تورّدت سمرة وجنتيها بهجةً:

ـ على مهلك! لن يشاركك بها أو يخطفها منك أحد.

بدت أسنانه الكبيرة المصبوغة بصفرة دخان التبغ البنيّة وهو يكشّر مبتسماً:

ـ أما قلتِ على طريقة مشردي الليالي؟

امتقع وجهها ووجمت، لم يلحظها وهو يكرع جرعته الثانية التي أفرغت الزجاجة بالكامل، فتنبّه لصمتها وهو يفتح الثانية، لحظ وجومها وشحوب وجهها فارتدّ إليها مرتبكاً:

ـ أحدث ما أزعجك؟ قلتُ أو فعلت ما آثار حفيظتك؟ إن حصل ذلك عن غير قصدٍ فأرجوك أن تتقبّلي اعتذاري.

ردّت بعد حين:

ـ لا، ليس لك دخلٌ في ما حدث، تذكّرت شيئاً أثار حزني ونقمتي. أرجوك سامحني إن قطعت عليك سرورك.

ترك زجاجته ومال إليها.. استعار ينبوعاً ليرطّب جفافها.. استل غيمةً من أفقٍ قريبٍ ليظلّ هاجرتها العرضية.. استعاد خضرة عينيها ليبسط عشباً مخضلاً ويستنبت بستان ليمونٍ تعبق الأجواء بشذى أزاهيره المبكّرة. لمس وجنتيها براحتيه الحارستين تماماً مثلما تمنّت منذ قليلٍ فاتّكأت على القوس المقعّرة التي أسندت ذقنها. اغرورقت عيناها وانصدع فؤادها بتؤدة.. لم تتأوّه رغم انصهارها وإرهاصات إعصارٍ قادمٍ تغلغل على مهلٍ وأشرع النوافذَ للنواح والعويل...

ـ ابكي يا ابنتي ابكي.. لا بأس فالدمع لا يُخجل بل يغسل كدر الروح.

.كانت قد ارتمت على صدره ونشجت بحرقةٍ واختلجت بين ساعديه.. استشرت طيور الظلمة في صدرها تتعارك على فرائسها واصطخبت الأجواء باصطفاق أجنحتها وزعقاتها الحادّة، فما كان عليها إلا تركها لتكمل مناوشاتها الدموية حتى النهاية...

ـ لم أعرف إبراهيم إلا فجر اليوم حين اقتنصني كعاهرةٍ هاربةٍ تبحث عمّن يخفيها عن عين قوّادها لقاء أيّ شيء... التقطني مستغّلاً حاجتي لسريرٍ وسقفٍ كيلا أكمل ليلي في الزوايا الفاصلة بين الأرصفة والشوارع...

كان قد أغمض عينيه وهو يصغي إلى شكواها ونجواها وخلاصات جئيرها؛ دعواتٌ ولعنات.. ندبٌ ونواح.. لومٌ وعتابٌ وكفرٌ بكلّ شيءٍ وتسليمٌ دون شرطٍ وتخلٍّ دون حدّ. طوت ساقيها تحتها فالتصقت ركبتاها المضمومتان بظاهر فخذه الأيمن بينما استدار جذعها نحوه وألقت ذراعيها جانب كتفه راميةً رأسها عليه كأنّها تعترف دون كرسيٍّ ولا ساتر. استغرب أن تبدأ من النهاية وخشي أن تعود للبدايات الأولى التي كانت بداياته فتفتح

حينئذٍ جرحين يصعب إيقاف نزفهما. لكنّها وهي تحكي عن آخر التجارب القاسية فتنته؛ أحسّ أنّها تحملت أكثر مما تحمّل رغم محدوديّة تجربتها ووجدها تحمل أوجاعه وأوجاع غيره صليباً على كتفيها قبل تسميرها بما يمزّق اللحم والعظم والأعصاب، فتنفجر آنها آلامها وتطلق صراخ جسدها. لم يكن صعباً عليه تحمّل انفجاراتها، لكنّه انقبض، فما كانت أوجاعها تحاكي أوجاعه بقدر ما كانت تضخّمها، فلطالما حاول مواجهة مسبباتها ولطالما انقلبت النتائج رأساً على عقب! لم تكن غير ناجعةٍ وحسب، بل صبّت في مجرى حماية تلك المسبّبات وتأكيد ضرورتها ومشروعيّتها التي تبيح تدمير الكائن والوسط الذي يعيش ضمنه، بحجّة حمايته من غبائه وعدوانيّته المتوارثتين وتنزيهه عن الإشراك بأولياء نعمته وأربابه الذين يصوغون قدره ويرشدونه للصراط المستقيم.

كان ينصت وقد خيّم عليه إحساس توقّف الزمن هناك، وأنّ كلّ ماطرأ لا يعدو كونه إضافةً لا تزيد ولا تنقص، انقضاءً عبثياً للعمر... لم يتغير شيءٌ وفق ما اشتهى ووفق ما كان يفترض أن يكون ويصير!

- أوحى اقترابي من بيتي القديم بالاطمئنان.. لن يكون الجار، مهما كان، بنذالة الغرباء. نسيت ما فعله جارٌ آخر في زمنٍ مضى، لكنّي فكّرت على هذا النحو... لا أستطيع الدخول، وحسَم تردّدي خوفُ الليل! تمظهر الوحش في إبراهيم أولاً، ثم بدأ يرقّ حتّى شفّ عن الإنسان الكامن.. آنها تأوّهتُ وقلتُ: أتت برهة سلام. لا أخفي عليك، كان ممكناً ألاّ أصمد أمام إلحاحه ولجاجته وكدت أنساق لرغائبه قبل اللحظة الأخيرة، حين سقطت دمعتان وحيدتان من مقلتيّ. لم تكذّبني نفسي، كنتُ في جوار بيتي القديم وتيقّنت أنّ وجودي في حماه سيضفي عليّ حصانةً سقطت منذ دهر. طبعاً، لم أقل له شيئاً من هذا، وحقيقةً أنا لا أذكر أنّني عرفتُه يوماً، كأنّني ماشاهدته رغم قربه ومروره الدائم أمام بيتنا مثلما أتصوّر الحال والموقع حينها... كنتُ نصف معرّاةٍ حين ألقى قميصي على كتفي واصطحبني إلى الحمّام. خلافاً

للغرف أدهشتني رحابته، أوحى بابُه الصغير، بنصفه العلويّ الزجاجيّ المحزّز بدقّةٍ لا تسمح إلا بمشاهدة ظلال وأخيلة ما يتوارى خلفه، بصغر حجمه، لكنّه حالما انفتح بدى اتساعه... حتّى الجدران لاحت أعلى وأنصع، أو هكذا توهّمتُ. ألتفتُ لأرى إن كان يتبعني لكنّه اختفى وراء الباب الذي أغلقه على غفلةٍ منّي.. درتُ حول نفسي أرصد الجدران فوقعت عيناي على مرآةٍ ضخمةٍ تشغل حيّزاً كبيراً من الجدار. ومع ذلك، كابرتُ كيلا أبصر نفسي وأنا أبحث عن موضعٍ أعلّق ثيابي عليه. سمعت طرقاً خافتاً على الباب فانكمشتُ من جديدٍ ثمّ تقدّمتُ نحوه، فتحتُه على سعته فوجدتُ إبراهيم مطرِقاً يحمل برنساً أصفر كغبار الطلع، فوقه ثوبٌ قطنيٌّ أبيض مطبوعٍ بحلقاتٍ ورديّةٍ متداخلةٍ من قماشٍ فائق النعومة. لمحتُ وجهَه، فوجدتُه مغمض العينين، أردتُ شكره لولا أنّه دفع الثياب بين يديّ ومضى. أغلقتُ الباب ثمّ خلعت حذائي وتعرّيت... وحالما داخلتني ملامسة الماء وترقرقه بين أعضائي، تنفّست بعمقٍ وتمنّيت بعدها أن أغفو ولا أستيقظ أبداً. فتحتُ عينيّ على نفسي أمام المرآة؛ كنت أنا.. لم أتغيّر ولم أتلوث ولم أُبتذَل رغم كلّ ما حصل وما يمكن أن يحصل. استعدتُ لوني، وهاأنا ذي... عددتُ جروحي واحداً واحداً... تلمّست ندوبها وضغطتُها كي تؤلمني فلا أنساها... ليس لها أن تشوّهني. وبقيتُ مع ذلك خائفة؛ سقطتُ ويصعب النهوض من كبوةٍ كتلك! فكّرت أن أعود لثيابي... من السهل تغيير الجلد وتلوين العينين وتحوير الصوت، لكنّني رغبت لأوّل مرّةٍ منذ سنواتٍ أن يتملّكني شعور أنّني لا أزال أنا! ارتديت الثوب الأبيض فخلتُ أنّني عروسٌ طازجة ولم تطاوعني نفسي على الابتسام، فقد بات ذلك حلماً بعيد المنال.

خرجتُ.. أحسستُ أن عاراً تلبّسه فجعل تصرّفه أخرق، كأنّ عليه تقديم اعتذارٍ ولا يدري كيف! تناولنا طعامنا معاً ولم ننبس بحرف... آنها، مدّت الشمس ألحاظها من أعلى النوافذ لتبصرنا فابتسم لها قلبي... قادني لغرفته حيث التمثال الذي لم ألحظه ثمّ أشار إلى السرير ومضى مغلقاً الباب

وراءه. بعد زمنٍ لا أدريه، استيقظتُ على جلبةٍ وصراخٍ مريب؛ ثمة امرأةٌ شيطانةٌ تبحث عن لوحةٍ ما غير آبهة إن تمزّقت كلّ اللّوحات أو تحطّمت إطاراتها وهي تلقي خطاباً لم أفقه منه شيئاً سوى امتلائه بآلاف التعابير والألفاظ النابية والقبيحة. أرعبتني حين اعتقلتني عيناها... كدتُ أُخفي وجهي تحت الغطاء، ثمّ مضت وانقلب إبراهيم مرّةً أخرى... لا أدري ما الذي قالته فأصابه بمسٍّ مفاجئ؛ صار يخاطب نفسه هائماً مهتاجاً يبحث عن خلاصٍ من عقوبةٍ لا مناص منها ووددت من كلّ قلبي الوقوف إلى جانبه لتكون مشاركتي بعض ردّ جميل عنايته بي وحفاظه عليّ، لكنّي لم أستطع.. أخافتني تقلّباته وخشيتُ في لحظةٍ غادرةٍ عودة الذئب العاوي في جوفه لمهاجمة الأنثى المؤجّرة فيّ، مصرّاً على حقّه طالما دفع ما ترتّب عليه من ثمن. لزمت جانب الحذر فمضى بعد أن توسّل إليّ ألا أذهب وأن أحرس البيت في غيابه. قبيل أن تدقّ الباب، كنتُ أقرر ما عليّ فعله؛ البقاء أو الرحيل!

ـ أتذكرين شكلها؟

استيقظ أخيراً من سباته فأجابته:

ـ لا، لم أجرؤ على تأمّلها، خلتُها ستفترسني فاختبأتُ خلف جفنيّ، لكنّها صخّابةٌ سليطة اللسان، تحدثت عن أشياء كثيرة. تارة تحسّها خبيثةً في هدوئها وطوراً متوحّشةً في انفعالاتها... والأعجب من كلّ ذلك رضوخ إبراهيم لها ومحاولاته الدائمة لاسترضائها!

انعطف بالحديث مرّةً أخرى:

ـ إذن لم تعرفيه من قبل؟

أجابت مندهشة:

ـ من أين لي ذلك؟

تابع مصرّاً:

ـ وهو، ألم يعرف من أنت؟ اسمك؟ اسم عائلتك؟

ـ أبداً. لم نتبادل سوى كلمات معدودة.

ـ لا بأس. أخبريني الآن، كيف أحوال حنان، وأين أراضيها؟

صمتت ففتح عينيه واختلس نظرةً إليها... أحسّ أنّها ستُجهش من جديدٍ لكنّها تماسكت، كأنّها اعتادت احتمال مصائبها.

ـ لا أعرف!

ـ ماذا؟

ـ تلك قصّةٌ أطول ربّما كان عليّ البدء بها. أحكي أم نؤجّل ذلك لوقتٍ آخر؟

لم يكن يصغي... كان يتساءل، لو أنّه لم يفعل ما فعل، فكيف سيكون الحال طالما أنّ فعله لم يعِد الأمور إلى نصابها كما افترض أو يوصلها لما هو أفضل؟ وهاهو يكتشف أنّها ساءت بما فاق تقديراته.

لمَ حدث كل ذلك، لمَ؟ أرّقه السؤال وقد نسي سؤاله عن حنان، لاريب أنّها لا تعرف عنها شيئاً، فلا يمكن لحنان أن تسمح لأيّ ظرف أن يحوّل أختها لسلعةٍ تعرض تحت مصابيح الطرقات. وما أدراك أنّها سلكت الدرب نفسه؟ جمد السؤال في حلقه وتردّد صداه في أروقة دماغه يبحث عن مخرجٍ كيلا يواصل دورانه حول نفسه. ما بالك؟ هل جننت؟ شكّك بنفسك إن وصل الأمر لاتّهام حنان بما لا يمكن لها أن تفكّر به، فكيف بفعله؟ لكنّ الظروف تغيّر كلّ شيء. أليست فريال كائناً خضع لقسوة شروط حياتهِ فانقلب على نفسه وعاداها، مضمراً لها الدمار والفناء؟ ألا يمكن لحنان أن تخضع لنفس الآليّات التي أنجزت تحويل فريال؟ كلتاهما عاشتا تجربةً مشتركةً بحلوها ومرّها، بأحلامها وإحباطاتها والقسر الذي قيّد عنقيهما فقادهما كدابّتين معصوبتي الأعين حيث أراد الجزار أو النخّاس أو القوّاد سيان!

بينما كانت نوال تعتصر جبهتها على كتفه مسترجعةً فيه أباها الذي افتقدته طفلةً ولم يبرح خيالها باعتباره الرجل الذي استحقّ حبّها واحترامها، سمّرت كتفه الأيسر بجبهتها، فمدّ راحته وربّت على رأسها وشعرها. في سريرته سخر من نفسه على الموقف العاطفيّ الذي أقحم نفسه فيه.. حسب أنّ خطأً فادحاً يرتكب بإزهاق الوقت بسفاسف من ذلك النوع. لم أُخلق لهذا. لأيّ شيءٍ خلقتَ إذن أيّها الضخم؟ لمصارعة الثيران أم لبطولاتٍ لم تفرّخ في آخر المطاف سوى مسوخ تتوارى في شقوق الجدران وحفر الأرض خشية الضوء والهواء! دع ذلك كلّه الآن وقرّر مرّةً واحدة، هل ستستمع إليها أم تتركها وتمضي؟ لم يكن القرار هو المضحِك، بل صياغته على هذا النحو. وأين ستمضي؟ ألم تلجأ لإبراهيم لأنّه وحده القادر على إيصالك لبر رحاب؟

ـ أرجوك، دعينا نؤجّل ذلك لوقتٍ آخر. لن يطول الأمر، فعليّ الرحيل الآن إن أذنت لي. بلّغي إبراهيم تحيّاتي وقولي له إنّني سأوافيه مساء، أو غداً على أبعد حدّ. احكي له إنّك شقيقة حنان، وابقي هنا، لن تجدي خيراً من هذا الملجأ إلى أن تتدبّري أمرك. ارتاحي الآن وسنتابع حديثنا في لقاءٍ قريب. اتفقنا؟

ادهن بيلسمك العجائبي الشافي جراحَها وامسح بمعجزاته أحزانها وامضِ لتبحث عن ضحيّةٍ أخرى تواريها الثرى مدّعياً إحياءها! بالطبع، أنتَ أكبر من الوقوف عند الصغائر! لا تملك وقتاً تهدره من أجلها، ولا مشاعر زائفة لتقدّمها أو تشارك بها الآخرين! قدرات عقلك وروحك موجّهةٌ للإنجاز أيّاً كان! أليس كذلك؟ اللعنة! أما كان قرار العودة حماقةً لا تُغتفَر نتجت عن إحساسٍ غامرٍ بالضياع؟

كانت جبهتها المحرورة قد استحالت مسماراً ضخماً محمّى حتّى الاحمرار، انغمس عميقاً، بميلٍ يوصل للقلب. حالما أحسّ به هناك، انتفض ليبعده كيلا يوغل أبعد من السطح الذي فاحت روائح احتراقه فخرّشت

أنفه. لكنّها تمسّكت به.. تشبّثت خوف ابتعاده ورحيله دون أوبة، أحسّت أنّه بات على وشك التنكّر لها.

ـ لن تذهب أقلّه قبل أن أحكي لك، قلبي ينبئني أنّني لن أراك مرّةً أخرى. عليّ أن أتلو اعترافي أمامك، فلا أثق بغيرك ولن يفهمني سواك. لن أدعك تمضي ولن أطيل عليك. هيّا، قل نعم!

عادت طفلة. كان أكثر ما يكرهه أن يُفرض عليه ما لا يريده، لكن حنيناً غامضاً جعله يتراجع ويرضخ لإلحاحها، يحتمل النيران التي ستشعل ما بقي صالحاً للاحتراق في جوف قلبه وتبدّده رماداً لا تذروه ريح. أحسّ بطعمه القادم ولم يقاوم الإذعان له.. ولها.

ـ طيّب... تذكّري فقط أنّ لديّ عملاً هامّاً.

كانت ملاحظةً هامشيّةً عديمة المعنى بالنسبة لها... فهي لا تريد استدرار شفقته ولا ترغب بأخذ صك براءةٍ منه... تريد فقط أن تعرض موقفها أمام من تثق بأنّه سيتفهّمه أياً كانت النتيجة.

ـ سؤالكَ عن حنان سيرجعني سنواتٍ طوالاً للخلف ربّما قاربت أيام رحيلك المفاجئ.

تراخى مغمضاً عينيه وصارت كلماتها تعبره خلال نقطة اتّصال جبهتها بكتفه وتواصل رحلتها حيث لا يعلم تاركةً آثارها على درب يجهله.

ـ تذكر ذلك اليوم.. حين قاموا برمينا في الشارع حنان وأنا وفاتن وأيمن وأمّي وأبي وأغراضنا وثيابنا و... لم أستطع يومها فهم ما حدث ولا زلتُ أحاول حتّى اليوم أن أعرف لماذا حدث. أذكر شيئين؛ العيون الحاقدة والمنتشية لأولئك الذين دفعونا خارجاً وهم يرمون فوقنا متاع دنيانا، والعيونَ المشفِقةَ العاجزة التي أسِفت لحالنا من غير أن تستطيع فعل شيءٍ لنا. أهملتُ العيون الضائعة والغائمة التي غرقت في طوفان اليأس وفقدان الرجاء وبحثتُ عن عينٍ غاضبة، عينٍ وحيدةٍ تحتجّ على ما أحاق بنا من غبنٍ وتلتمع ببرقٍ تصعَق به ذات يومٍ من سبّب ذلك الغبن!

انتقلت اختلاجاتها إليه.. كانت تستعيد مشهداً ربما بقيت دهراً تمنع صعوده إلى سطح ذاكرتها كيلا تخضع لدماره مرّةً ثانيةً أو كيلا تجد نفسها ملاحقةً بذنب صمتها وعجزها عن تغيير ما حدث! أمّا هو، فلم يفارق المشهد عينيه أبداً.. وهي إذ تستعيده عبر عيني طفولتها، لا تفعل سوى تأجيج غضب دمائه التي لم يتوقف غليانها حتّى اللحظة. كان ذلك عبثاً.. باطلاً بعدما افترض أنّ الأمور ستتخذ مجرىً آخر كيلا تؤول إلى لحظةٍ تنسي ما قبلها وتغفل ما بعدها، لا يتمنى المرء فيها إلا الاستلقاء في الظلّ تحت شمسٍ محرِقةٍ تخمد كلّ خفقة.

ـ ابتدأت المصيبة هنا، وليتها توقّفت... تناسلت وما ظهر في أيّ أفقٍ نهايةٌ متوقَّعةٌ لها. حاول أبي لململة تشتتنا، لكنّ إعصار السموم فاق قدرات عاملِ نسيجٍ بسيطٍ يكدح باقي يومه كيلا لا يترك أطفاله للفاقة والحاجة. استطاع بعد لأيٍ تأمين حجرةٍ في ضاحيةٍ قريبةٍ من مكان عمله حُشرنا فيها وانقلبت حياتنا رأساً على عقب... كان قد تصدّع على رجع اهتزازات زلزالٍ لم يستطيع تجنّبه.. صمد وحاول أن يزرع من خلال إيثاره وحنوّه ومحاولاته الفاشلة لاستعادة مستوى معيشتنا السابق، متطلّعاً لغدٍ آمن أنّه لنا. لكن زرعه لم ينبت أبداً، أغرقته السوافي واكتشفنا أنّنا نخوض في وحول متحرّكةٍ اختفت حدودها في رمالها الغائرة... لم يحتمل أكثر، فانفجرت روحه قبل أن تنفجر شرايين قلبه. لم ينس أن يوصي، حاذروا البقاء في الوحول! عرف ذلك ورآه دون أن يصدّق أو يؤمن بوجوده... لم نستطع أن نوفيه ولو جزءاً بسيطاً من حقّه ولم نتمكّن حتّى من دفنه بشكلٍ لائق... رميناه في حفرةٍ كيفما اتّفق وأهلْنا فوقه التراب من غير تمييز موضعه فأضعناه إلى الأبد...

تذكر أمّي ولا شكّ... رغم طيبتها وتفانيها، ظلّت أعجز من مواجهة الاضطراب الذي عصف بنا وبها وآنف من قبول مساعدات الناس وتقبّل شفقتهم، فقرّرت العودة بنا إلى مسقط رأسها، ضيعتها الجبليّة المطلّة على

البحر من علٍ... كنا قد أحببناها، ولو أنّنا لم نشعر بأيّ انتماءٍ لها؛ ولدنا هنا... عشنا هنا وتنفّسنا هذا الهواء فصرنا بعضَه. لم تعجبنا الفكرة أبداً، خاصة حنان التي كانت في بداية سنوات دراستها الجامعيّة فرفضت الانصياع لرغبة أمّها التي آثرت ألاّ تدفن دفنةً مشينةً في تربةٍ مجهولةٍ كما حدث مع زوجها. كانت حنان مسؤولةً عملياً عنّا جميعاً... عرضت أن تترك دراستها وتعمل لتقوم بإعالتنا، شرط ألاّ نعود حيث أرادت أمي، لكنّ أيمناً في اندفاعات سني مراهقته لم يوافق وترك المدرسة فجأةً؛ سأعمل ونعيش وسنبقى هنا وستتابع حنان دراستها وسنجد في النهاية قبر أبينا وقبراً له... كأنّ المعجزة قد بدأت حين نهض رجلٌ بيننا مرّةً أخرى... خيمةٌ ترتفع على عمادٍ جديد. تنحّت أمّي مؤجّلةً موتها الوشيك، آمِلةً بإصلاح ما أفسده الدهر على يد رجلها الثاني. عشنا برهةً قصيرةً على هذا الأمل... طعمناه وشربناه وارتديناه دثاراً وتدفّأنا به. لكنّها فُجعت مرّةً أخرى، ارتدت عصبتها وتسربلت سوادها حين أتوا به مهشّماً. سُجّل الحادث قضاءاً وقدراً، فتىً في الخامسة عشر من عمره يعمل فوق سقالةٍ على ارتفاع اثني عشر طابقاً لاثنتي عشرة ساعةٍ يقوم بعدها بالعمل كنادلٍ في مطعم شعبيّ. لاشكَّ بأن سقوطه كان قضاءً رحيماً به وقدَراً مشفِقاً عليه. حزمتنا أمّنا جميعاً ولم نعترض بعدما انتهى أيمن مثلما انتهى أبوه في حفرةٍ مجانيّةٍ ربما نُبشت بعد زمنٍ ضئيل، حملتنا على كتفيها قائلةً: ما عاد لنا هنا مقام! فجأةً رفضت حنان، شاكست وعاندت، استعطفت وتوسّلت دون جدوى فتبرّأت منها أمّي؛ لستِ لحمي ولستُ أمّك ولن يكون لكِ أمٌّ بديلة ولن تكوني أمّاً، جأرت إلى الله مستمطرةً غضبه عليها رافعة الذراعين أن يحرِمها من سماع لفظة أمّي! آنها فقدناها، تواصلت فترةً ثم اختفت وأقسمت أمّي أنّها دفنتها بيديها في حفرةٍ قرب أخيها وأبيها...

أحسّ لهباً يندلع على كتفه، فتح عينيه؛ كان دمعها يغلي على قماش قميصه دون أن يتبخّر، محاصَراً بين جبهتها ولحم ساعده. تدفق دمعها من

غير نشيج.. مال إليها، خشي أن تحرق الحرارة المرتفعة جمجمتها وتحيل دماغها إلى جحيمٍ لا يُطاق. أخذ رأسها بين ذراعيه وضمّها إلى صدره:

- هوّني عليكِ، مضى ذلك، انقضى منذ دهر، سنبحث عنها معاً وسنجدها!

لم يكن في كلامه ما يواسي، وما احتاجت مواساته. تريده أن يعلم فقط أنّ هنالك من دفعها دفعاً لطريقٍ أوصلها للقائه على نحوٍ بائسٍ ومجحِف.

- ماتت ولم تنس، عينٌ على بحرٍ بعيدٍ وعين عليّ وعلى فاتن، لا تنسيا أختكما! نعجتان صغيرتان اعترضهما قطيع ذئاب، تلك حالنا مع الأقارب. لم تستسغ فاتن ذلك فتدبّرت أمر زواجها بطريقةٍ ما، سحبتني من ذراعي وعدنا من جديدٍ إلى هنا قبل أن نزور أمّي في ذكراها الأولى. كان الزوج المحترم مجرّد صعلوك، فسرعان ما استحال بيت الزوجية لبيت دعارةٍ مصغّر. فكّرت فاتن مليّاً واكتشفت درباً تستطيع خلاله إذلال من أذلّها وأهان موتاها. فرّطت بكلّ شيءٍ سواي، أرادتني استمراراً لهم ورأت نفسها معبراً أصل خلاله لما أرادته لنفسها. كبرت ودرست... لم أشعر بأيّ حرمان... على العكس عشتُ بحبوحةً أنستني فقر الأيّام الخوالي وبؤسها دون أن أسأل مرّةً عن مصدر الثروات التي تنهال على فاتن وزوجها، إلى أن عرفتُ يوماً فثارت براكيني! كانت خطيئتها؛ حقنتني بكلّ ما يناقض حياتها وكانت من الذكاء والحرص بحيث لم تتح لي الارتياب بطبيعة عملها فدفعت كلتانا الثمن. لن تتخيّل في أيّ يومٍ من أيّام حياتك شقيقتين تقتتلان كعدوّتين بضراوة حيوانات الغابة على مرأىً من زوجٍ لا مبالٍ وأطفالٍ مرعوبين! استطاعت تكبيلي إلى سريري بمساعدة زوجها وأقسمت ألاّ تفكّني إلا زوجةً لإنسانٍ قادرٍ على رعايتي وإبعادي عن حياتها إلى أبد الآبدين... لم تقل أبداً إنّها فعلت ما فعلته من أجلي ولأجلي لكنني عرفتُ ذلك وأحسسته دون أن يرغمني على مسامحتها. أمّا أنا، فقد ازددتُ شراسةً وأقسمت لأقتلنّها

وزوجَها وأقتل نفسي بعدهما، فقالت ساخرةً: وتتركين أبناء أختك للشوارع؟ بكيتُ قهراً وحزناً وعجزاً، لم أستطع مهادنتها ولا مساومتها وما كانت لتصدّق أيّة محاولةٍ لخداعها. بقيتُ في قيودي وظلّت تبحث على مهلٍ عن زوجٍ مناسب.

ارتعدت فضمّها بقوّةٍ كيلا تتخلّع أوصالها. لو أنّها حكت على مهلٍ وأغرقت في التفاصيل، فربّما تلهّت عن جوهر معاناتها وتحررت من ربقة اللحظات التي شكّلت انهيارات الآن فلم تبقِ ولم تذر.. أكوامٌ من الحطام والركام تحرّكت وماجت، مثيرةً عجاجةً ضخمةً من غبارٍ أعمى العينين وختم الأذنين وملأ الأنفين وسال على الشفاه... لكنّها لم تتوقّف، وجدتها فرصة للتخلص من أعبائها التي أناخت بأحمالها الثقيلة على كاهليها طوال العمر:

ـ ما من حلٍّ آخر. التمعت الفكرةُ في رأسي، كانت الأنثى الجسد هي من يفكّر ويسوّغ ويملي القرار... كان ثمن الخلاص مزهِقاً للروح، لكنّني قرّرتْ المقامرة. ما عادت الأمور الوسط تجدي ولا التطرّف الشديد، كلّ شيءٍ أو لاشيء البتّة! هذا ما أوهمتُ به نفسي واستطاع الجسد فرض إرادته. قلت ما لي سوى إغوائه! اغتنمتُ فرصة غياب فاتن، أحسستُ جوعَ نظرته منذ زمنٍ لكنّي لم آبه بها، وقد كانت هي له بالمرصاد، تلاحقه خطوةً بخطوة، نظرةً بنظرة وشهقةً بشهقة. كانت حارستي الحقيقيّة ولولاها... لكنّها غفِلت هذه المرة، أو أنّ تقديراتها ساءت، فقد دخل أثناء غيابها. وقف عند الباب الموارَب لا يُقدِم ولا يُحجِم، كان رعبه منها ومن هيمنتها يكبحه وكانت شهواته تدفعه. اغتنمتها فرصةً واستدرجته لفكّ وثاقي. وحالما فعل، ضربته بقسوةٍ بين ساقيه فسقط مغشيّاً عليه. ارتديتُ ثيابي على عجلٍ وغادرتُ، فتلقّتني شوارعُ همتُ فيها، تنقّلت من مستنقعٍ إلى مستنقعٍ حتى انتشلني إبراهيم فأوصلني إليك.

وما الذي يفيده ذلك كلّه؟ ما الذي أستطيعه لك؟ هل تعرفين؟ حتّى ذلك لن يفيدك بشيء؛ تلك حياتك أنت، وأنت من عليه انتزاع أشواكه

يديه، لا أنا ولا غيري يستطيع مدّ يد العون إليك ما لم تفعلي ذلك بنفسك. ربّما ستعرضين لأسوأ ممّا ذكرتِ... فهل ستستطيعين صموداً؟ ألن تجدي نفسك يوماً هاربةً وملتجئةً للكحول أو المخدّرات، أو مضطرّة لحزّ شرايينك والانتظار حتّى سقوط القطرة الأخيرة لتقولي لها وداعاً؟ سأمضي في غيبةٍ أخرى وآتي بعد عقدين.. ثلاثة وأراك مصادفةً أيضاً وأبصر ما فعل الزمان بك!

أحسّ همودها.. تردّد تنفّسها عميقاً هادئاً... بذلت جهداً خارقاً للتخلّص من كلّ ذلك. بات لزاماً عليكِ أن تنامي، ترتاحي لتري ما يمكن فعله من أجل غدٍ ربّما يكون لكِ وربّما لا يكون. انزاح بخفّةٍ عنها وتركها تستلقي منطويةً على نفسها، ضامّةً يديها إلى صدرها وركبتيها إلى بطنها؛ الاحتياج لرحمٍ حقيقيٍّ أرحم من الحياة! غادرها متمنّياً لها كلّ خير، ودّ لو طبع قبلةً على جبينها، لكنّه خشي ذلك.. تطيّر منه. أأودّع جثة؟

تنفّس تباشير مغيبٍ بدا بعيداً... لاتزال الشمس مرتفعةً كأنّها لا تتحرّك. أيّة مفاجآتٍ تنتظرك بعد، وأيّة مواعيد؟ إلى متى ستبقى وكم عليك أن تحتمل؟ هاجمت عينيه صورة الطفلين الواثبين خلف أمّهما؛ رحلة ضياعٍ أخرى.. عودتهما مكسورين مغمورين بحزنٍ سيصبح سمةً مميّزةً لحياتهما، هويّةً خاصّةً قبل أن تأخذ سماتٍ أخرى بُعيد اكتشاف الذات والآخر والعالم القميء الذي لا يبصرك إلا حشرةً وضيعةً ولا يعاملك إلاّ على هذا النحو فتبحث مضطراً في ممالك شقوق الأرض وتجاويف التربة عمّن يقبل بك عضواً في قبائل المهانين!

حالما أطلّ جميلٌ أبعده سريعاً؛ دعه ليرتاح الآن ويداوي جراحه قبل أن يعاود استلال الأوجاع والصرخات المخبولة منها. ما عاد ثمة وقتٌ يا رحاب. عليّ أن أجدك كيلا يفنى الأمل الأخير بلقياك.. رآها بعين خياله. عليّ قبل ذلك أن أنتهي ممّن جار على جميلٍ وأقحمه بتلك الفجاجة بقضيّةٍ تخصّني. تراكِ تغيّرت يا رحاب؟ ستكون تغيّرتْ، لكنّ ضحكة عينيها لا يمكن أن

تذوي أو تذوب، روحُها معلّقةٌ هنا، فحالما تختفي تلك الضحكة ستكون روحها قد مضت إلى مجاهلها، عوالمها الأصليّة القديمة أو عوالمها القادمة الغامضة المسالك... وقبل هذا وذاك، سأمسك رأسها براحتيّ وحين تعترض على طلبي أمنع «لا» شفتيها بقبلةٍ تمتصّها قبل أن تنطقها. استمعي يا رحاب، لقد مضى ذلك الوقت، لن نعود إليه، تنتظرنا أيامٌ طويلةٌ نصنع جمالها ونحوّلها لمثال حياةٍ حقيقيّة. لا تقولي: هنا ترابنا وهواؤنا وماؤنا وسماؤنا، انسي ذلك كلّه، فالإنسان يخلق فضاءه وروابطه حيث يقيم وحيث يشعر بانعتاقه وانطلاق طاقات روحه دون حدودٍ ولا قيود. لن نعيد تجربةً فاشلةً مرّةً أخرى كيلا نعلن تصالحنا مع غبائنا. كنّا مرّةً كذلك، فلمَ لا نكون دوماً؟ لن أسمع حجةً ولن أقبل تبريراً ولا تسويغاً. ستلمّين أغراضك وسأنتظرك في المطار ونغادر معاً كغريبين إلى أن ندخل الطائرة ونقلع... آنها نعود كلاً واحداً اضطُر للتجسّد على هيئة جزأين منفصلين.. نبدأ على نحوٍ بسيط؛ بيتٌ متواضعٌ تحيط به حديقةٌ صغيرةٌ نزرع فيها خضارنا وأزهارنا.. الجبال الخضراء خلفنا وبحرٌ أزرق عميقٌ يفصلنا عن برٍّ عادانا وطردنا. دعيهم يتمتّعون بسحق الناس وامتصاص دمائهم، ليشرعوا غابيتهم وليرتضيها الناس. نحن لسنا منهم، لو أنّنا مثلهم لبقينا معهم؛ أحنينا ظهورنا لنسهّل جلدها. ستكون تلك البداية وحسب، ثم بكدّنا وجهدنا سنزور العالم. لن نترك موقعاً مشتهىً إلا نزوره وكلّما مللنا نعود إلى ملاذنا، نرتاح قليلاً ثم نتابع تجوالنا. اتّفقنا إذن! ستوضّبين أغراضك وتوافينني إلى موعدنا.

استيقظ أيها الأحمق! أوغلتَ في سذاجتك، أهذا ما إلتَ إليه؟ انظر أين تقودك قدماك وإلى أيّ قدر.. إلى بداياتك التي عرفتَ منذ قليلٍ أنّها كانت بدايات المجهول القاسي والمجحف بحقّ نوال وبحقّ من لا تدري ممّن يشابهونها... لا زالوا يتربّعون على عروش ممالكهم ولا زالت ملكاً لمتسكّعي الطرقات.. من الطرقات الغريبة إلى الطرقات القريبة التي استحالت غريبةً هي الأخرى... والأحرى أنّك أنت الغريب هنا.. هناك.. وهنا مرة أخرى! والزمن لا يغيّر إلاّ ما هو قابلٌ للتغيير هنا يا رحاب!

توقّف أمام موقف الحافلات المطلّ على موقع البيت القديم حيث طُرِد منذ ساعات. هاهو يعود بقدميه.. هنا موعدنا غير المسجّل، موعدٌ لا يعرفه سوانا وما نطقتْه شفاهنا... هنا سألتقيكِ شئتِ ذلك أم أبيتِه. هنا كانت البداية وهنا ستكون النهاية ليكون ثمّة بداية جديدة. وقف واثقاً؛ ستأتي بغير موعد، تعلم روحها أنّني هنا ولن تطيل انتظاري. أيَّ مجنونٍ صرتَه! كيف يمكن لكائنٍ أيّاً كان أن يأتي لموافاتك وهو لا يعلم حتّى بوجودك، فكيف بمكانك المجهول حيث تنتظر وزمن انتظارك؟ لن يغيّر ذلك من الأمر شيئاً... ستحضر، وسألتقيها.

ومثل معجزةٍ في زمنٍ توقّفت فيه المعجزات، تحقّقت نبوءته؛ نهضت أمامه امرأةٌ بدا أنّها تتقصّده.. شامخةٌ متماسكةٌ صلبة. حدّقت في عينيه بثبات ولو لم يكن يفكّر فيها على هذا النحو الأخرق لعرفها فوراً كما عرفته... وكما مدّت يدها لتصافحه:

ـ أما عرفتني؟

ـ رحاب!!!

شدّ على كفّها بقوّةٍ تحمّلتها بغير تذمّرٍ ولا شكوى، واستفسر:

ـ ليست مصادفة؟

حلمٌ أم يقظة؟ قلتُ في نفسي إن كان يملك إرادة ملاقاتي فعليه أن يبحث وينتظر هنا... هو الوحيد الذي يعلم أنّ هذه البقعة محجّتي ومزاري.. انبعاثي ورمادي. إن التقاني هنا فثمة جسرٌ، وإن لم يفعل فليس ثمة الكثير. تنبّهت على السؤال وضغط الأصابع فقالت:

ـ ليس كذلك. قرّرتُ، وعرفتُ أين سأجدك. وهانحن ذا بعد كلّ ذلك الزمن ورغمه نلتقي.. وعلى غير موعد.

متسائلةً أين، غادرت رحاب الحديقة ملفوفةً بذراع أدهم وغبش المساء، منهكةً وقد تشطّرت أشطاراً ما عادت تملك قدرة لملمتها وأحسّت أنّ الأرض ستتلقّفها فور سحب ذراعه. كانت تتّكئ على فراغ وتخشى اللحظة التي ستنكشف ذراعها عنه، فتتهاوى! سرى في عروقها فقدان جنان التي أرادت تعويض عمرها من خلالها... تلمّست حقيقة ما انتظرته طويلاً وحين أهلّ، تبدّد كدخان المجامر بين كفّيها. بقي أملٌ وحيد، خاطبت نفسها كأنّما تريد، كمحاربٍ عنيدٍ أبت روحُه القتاليّة إلا أن تنتشل من برثن الموت ظَفَراً مهما ضؤل كيلا تلام، أن تستجمع شجاعتها لتجابه اليأس بطاقة الإرادة وحسب، علّها تدفع الدمار الجائع بعيداً عن آخر معاقل الروح وتذكي وهج الحلم رغم الصقيع ودامس الليل. آن تجدها حيّةً أو ميتةً سيّان، كيما تؤسّس على حضورها الوقتيّ جسراً تخاطب عبره وخلاله آثارها الدارسة، ربّما.. ربّما سيكون هنالك ما يكفّر به عن الغياب والفقدان والذوبان في لزوجةٍ تميّع المعالِم وتمحي التفاصيل. ربّما كان يفكّر بشكلٍ آخر ساعياً لنفس الهدف، بطريقةٍ أخرى صائبةً كانت أم خاطئة، ربّما نستطيع الالتقاء في موضعٍ ما... ربما!

خشيت أن تسقط في شقّ الوهم فتمدّدت على حبل التسكّع... تسللا إلى مهجورات المدينة كأنّما اتفقا على الابتعاد عن الأضواء والصخب وزيف الجديد. خفوت الضوء واشتداد الحلكة كانا يوجّهان خطوهما الصامت، كان كلٌّ يبحث عن العتبة التي يستطيعان معاً عندها التوقّف لتبادل المواقع والأفكار وتبيّن اتجاهٍ ملائمٍ وأرضٍ صلبةٍ يتابعان الرحلة فوقها. لكنّ وحشة الروح وازدياد الشقّة بينهما دفعتهما لأحشاء المدينة القديمة...

يخشى الناس العتمة والخلاء، ينمو خوفٌ غريزيٌّ من مجهولٍ ينقضّ

في أيّة لحظةٍ على هيئةٍ ما، تخطر أو لا تخطر على البال... أوغلا في باطنها، خليا إلى نفسيهما ولاذا بجدرانها التي انحنت عليهما وكادت أن تمسسهما فزادت احتكاكهما. تضخّم ما ينفّر فجعلهما ينأيان، لكنّ ضيق الحارات وتضامّ الأزقّة ألصق كتفيهما... سارا في متاهاتها وأضاعا الوجهة في تشابه التفاصيل الذي زاده العتم وشحوب الإنارة وتداخل ظلالهما بالظلال الساكنة للأقواس والأفاريز والمآذن الواطئة وأعمدة الكهرباء الخشبيّة المنخورة والمائلة تحت شدّ آلاف الأسلاك المتعدّدة الألوان والمتخالطة التي تراخى بعضها حتى كاد يلامس رؤوس المارة، والمشربيّات الخشبيّة النافرة لتكشف من وراء فرضات زخرف أخشابها الذاهبين والقادمين مخبّئةً عيوناً ترصدهم وتحرسهم.

هدوءٌ مطلَق، كأنّ البيوت وليست الحواري وحسب قد خلت من ساكنيها.. علا تنفّسهما متزامناً مع وقع خطوهما الذي يتوقف على ناصية منعطفٍ تعبره قطّةٌ غير مباليةٍ بهما فتجبرهما على الوقوف حتّى تكمل دربها ثم يتابعان السير وجلين من قطع دربٍ آخر. إلى أين أخيراً؟ سألت نفسها وقد أحسّت دورانها حول نفسها أكثر من تجولها في مكانٍ بدا شديد الألفة... وكأنّما أجابت بسؤالٍ آخر، لمَ يأوون إلى بيوتهم باكراً وتسكن حركتهم ويختفي صخبهم؟ ولماذا ينام أطفالهم ويلتحق الأزواج بحشيّاتهم؟ لن يؤدّي هذا التسكع إلاّ لاستجرار ذكرياتٍ تلهي عن لحظة الحقيقة التي تخطو معها خطوةً خطوة، سواءٌ أكانت مفرحةً أم محزنة، وتطيل أمد مواجهتها والخضوع لإملاءاتها التي تبدّد الحلم والوهم والأمان معاً. لا أريد الاستغراق في عزاءات الماضي ولا تمنية النفس بآمال كاذبةٍ عن آتٍ مغايرٍ ومخالف. أملك اللحظة، وعليّ معرفة كيفيّة تقمّصها قبل مراسم الدفن وطقوس الحداد. لن أرثي نفسي ولا غيري، فكلٌّ يدفع في النهاية ثمن اندفاعات البداية والوقت يلاحق بعزيمةٍ لا تفلّ ولا تغري بمحاولات التنكّر له أو إبطائه. في لحظاته تلك يتحكم فيّ، ولا أملك سوى الرضوخ. شعرت

وهما يعبران زقاقاً ضيّقاً طويلاً بالتصاق كتفيهما، متى أفلتت ذراعه كتفيّ؟ تساءلت بدهشة، وكيف واصلت السير دون أن أتعثّر وأقع؟ أفضى الزقاق إلى فوهةٍ مقوّسةٍ بأحجار مخرّشة رمتهما في حارةٍ عريضةٍ نبضت فيها الحياة من جديد. لم يختفوا بعد! الناس لم يموتوا! عبراها، ولجا قوساً مشابهةً مواجهةً فغشيهما العتم.. كان المعبر مسقوفاً ضيّقاً كنفقٍ بدت نهايته سراجاً يتراقص نوره الشاحب فأسرعا إليه وقد قرّرتْ أن توقف ذلك التسكّع وتعاود البحث عن جنان... وثمّ لكلّ حادثٍ حديث! لكنّ المفاجأة التي أنستها القرار وأعادتها لتيهها كانت ولوجهما أرض مقبرةٍ اتّصلت بدايات قبورها المتداعية مع البيوت المتهدّمة كأنّما انفتح عالم الأحياء على عالم الأموات تحت ضوءٍ محاقٍ أظهر القبور منبوشةً من الداخل منقوبةً ليخرج ساكنوها ويصافحوا المارّة ويدعوهم لقضاء أمسيةٍ في دورهم تخفّف وحشتهم وتمنحهم ما يحتملون به قسوة وحدتهم! تعلّقت بكلتا ذراعيها بساعده المتأرجح كجذعٍ آيلٍ للسقوط، كان ذلك ردّ فعلها الأوّليّ حالما اكتشفت أرض الصمت التي غافلتها. تشبّثت به وتوقفت هلعةً، ما الذي قادنا إلى هنا؟ خافت أن يكون الوصول نهاية الرحلة والإجابة الكاملة لفوضى أسئلتها غير المجابة. حاولت أن تستدير عائدةً وتديره معها فمانعها:

ـ هل أنت خائفة؟

ازدردت لعابها:

ـ ليس الخوف، رهبة الكشف ومفاجأة الوصول! من كان يحسب أنّ تلك وجهتنا؟

أحسّت صوتها يتضخّم ويحطّم السكون ويفزع النائمين رغم أنّها حكت بهمس.

ـ تلك نهاية رحلة كل كائن! ما الجديد؟ حكى بصوتٍ خافتٍ ليبدّد فزعها غير المعلّل.

ـ دعنا نرجع من حيث أتينا، قالتها متوسّلةً، فأنّبها:

ـ لم نسر كل تلك المسافة لنعود منها. وصلنا هنا وعلينا أن نقرّر الخروج أو البقاء!

خلّص ذراعه من ذراعيها، طوّقها فطوّقت بعفويّةٍ خاصرتيه واختبأت قرب أضلاعه متسائلةً عن اقتران رعبها بكيفيّة استغلاله له ليفرض عليها ما لا تريد. كان قد دفعها وسارا.. أغمضت عينيها؛ ليتني أحلم، وليكن حلمي في المقابر! سأستيقظ وأجدني في غرفتي أنادي جنان فتأتي مسرعةً، أضمّها هامسةً في شعرها الفوّاح؛ استيقظتُ على حلمٍ كريهٍ وأريد بلمسك التأكّد من رحيله. لكنّها هنا لن تستيقظ إلاّ على بيّنةٍ واحدة، اختيار مسكنٍ تحتمل نفقته شراءً أو استئجاراً والإقامة فيه إلى أن يتهالك وينهدم فوقها فتدفن تحت ركامه الطينيّ! لم أخشَ الموت يوماً فكيف خفتُه اللحظة، كيف انتشلتُ نفسي منه بالغوص في جسدٍ بات غريباً عنّي؟! حرنت فجأةً، انفكّت عن خاصرتيه وغادرت أضلاعه، أزاحت ساعده وواجهته، شاهدها الوحيد شواهد القبور والظلال المائلة مع الشحوب...

ـ ما الذي تبتغيه يا أدهم؟

أدرك أنها ازدردت لحظة ضعفها وعليه أن يستعدّ لقوّتها المعتادة:

ـ لا شيء، أودّ نسيان الماضي ومحاولة ارتياد دربٍ غير مطروقٍ حتّى لو شابه درباً سابقاً استحال مفازة صحراءٍ فقدت ملامحها.

هاقد عدنا مرةً أخرى، لا يملّ ولا ييأس!

ـ أما أخبرتك أنّ الماضي الذي تخارجتَ عنه فاستطعتَ نسيانه يختلف عن ذاك المتواصل معي مشكّلاً بعضاً من كياني الذي أرتعش الآن خشية أن يكون مدفوناً تحت واحدةٍ من الشواهد التي تطوّقنا؟ ربما ضجرتَ في لحظةٍ من غربتك فقلتَ: أعود مهما كان السبب ولن أعدم ما يشدّني لروابطي مرّةً أخرى. أمّا أنا فكنت أنتظر، مهتمّةً بتطوير روابطي وتوطيدها رغم كلّ ما

يسعى لتدميرها ويدفعني لتمزيقها والتنكّر لها. لم أضجر من ذلك ولم أيأس... والدليل اهتمامي بك لأنّك جزءٌ ممّا عشتُ على انتظاره، رغم انشغالي الشديد بفقدانٍ آخر أشدّ وطأةً لأنّه خالٍ من أمل اللقاء الذي يضفي على الانتظار معنىً. منحتُك وقتي، رغم حاجتي لكلّ ثانية، لأنّي أراك بعض وقتي المتواصل!

هذا الذي لم أحسب له حساباً، فكّر أدهم.

ـ حسناً، فلنتابع درب الخروج.

سارا... لم تتطلّع إليه ولم تتابع فأصغى لنفسه، كيف لم يخطر ببالي أنّ الطبيعيّ أن تعشق وترتبط؟ أيّة تصوّراتٍ مرضيّةٍ أوحت أنّها خُلِقت للانتظار وأنّها لا يمكن أن تدنّس جسدها بعلاقاتٍ عابرةٍ أو تأسر روحها بعلاقةٍ دائمة؟ أتذكّرتَ ذلك وأنت تحطّ متنقّلاً من جسدٍ إلى جسد بدعوى تعويض حرمانك من التربة التي أحببتها وكان عليك أن تزرع ما سوف تحصده عليها فاحترثت تربةً غريبة كيما تنسى تربتك؟

اخترقه إحساس أنّ زمنها افترق عن زمنه... كان قد عزل زمنها في مبرّدٍ ضخم خالَ بقاء محتوياته كما هي. وما كان غافلاً عما يدور حولها ويحيط بها، فقد كان أحد عوامل دفعته المرّة تلو المرّة لإعادة النظر في صحّة تصوراتٍ استحالت قناعاتٍ ترجَمَها بطرائق مختلفةٍ إلى واقعٍ ملموسٍ نسج من خلال أوهام الخلاص ولادة يومٍ ليس كالأيام يكون فاتحة عصرٍ يخرج للأبد من عصور التكوين!

كم كان غبيّاً أو مفرط الأنانيّة، أباح لنفسه كلّ شيء وحرمها من التفكير بشيءٍ وفوق ذلك يُكرِهُها على قبول أكذوبته الكبرى؛ لم يتغيّر شيءٌ بالنسبة لنا! لم يسألها سؤالاً واحداً عن حياتها الخاصّة، كان قد سمع عن عموميّات عمرها وشاركها عن بعدٍ ما عانته من مكاره وما دفعته من أثمانٍ كيلا تغيّر جلدها وتستبدله.

اقتربا من سور المقبرة لكنّهما انعطفا عنه بعد أن تبيّنا فرجةً في طينه توفّر عليهما عناء تسلّقه... وعلى فوهتها وقبيل أن تنحني لتعبرها، سألها:

ـ رحاب، نسيت أن أسأل، واعذري تطفلي، هل... هل تزوجت؟

ضحكت بمرارةٍ فصُدم، وهاهو يعيد اكتشافها بعد عمر، غابت المرأة القديمة. تساءل بمرارةٍ كيف احتفظت داخل دفء الذاكرة بكلّ نضارتها؛ امرأة لا تقاوَم، فتيّة لا يشتهيها الهرم، تطأ بقسوةٍ حدّ الفصل بين الذكورة والأنوثة فتحار في جنسها، تترك بصماتِها أينما حلّت وتعلن حضورها حين تغيب. ما الذي تغيّر فيها؟ وهل تستطيع حقّاً انتزاعها من حياتها وعالمها النائي عن عالمك، استعادتها وإقناعها بمشروعك العقيم الذي تتمنّاه خصيباً يتجدّد مع تجدّد الفصول ويستعير كامن طاقات الطبيعة؟ كانت المدينة الأخرى قد استعادتهما سريعاً وأدخلتهما رقمين مهمَلين في ملايين تحرّكهم آلاتُها وتضيئهم هالاتها...

ـ أسأل جادّاً يا رحاب، لم تمنحيني حتّى اللحظة فرصة معرفة تفاصيل حياتك!

رنت إليه متسائلةً: أما تأخّرت؟ كانت قد حسمت تردّدها وقرّرت أنّ عليه مساعدتها في إيجاد جنان... بعد ذلك ستفكّر بهدوءٍ في ما ستفعله حيال وضعهما المستجدّ.

ـ أدهم، لقد عدتَ، لن أخفي أنني انتظرت أوبتك طويلاً ورسمت معالم استقبالك في ظروفٍ اختلفت تماماً الآن...

صمتت تريد تكثيف حديثها كيلا يُهدَر في الهَذَر، لكنّه خاف إعلانها عن وجود هوّةٍ لا يمكن تخطّيها ولا عبورها، تمنّى ألا تصرّح بها وتمهله حتّى لحظة الرحيل، تدعه يجدّد روحه قربها فيمتلئ بها قبيل الذهاب.

ـ تذكر شقيقتي عتاب التي قُتِلت وزوجُها في ظروف الحرب القذرة، وتذكر كم حاولنا إيجاد ابنتها دون جدوى، لولاك. وبعدها احتضنتها كابنةٍ

لي فما بقي لي في الدنيا سواها. كبرت البنيّة وصارت صبيّة، حاولتُ أن أقدّم لها أمثولةً عن الحياة الحقيقيّة كما يُفترض أن تكون وتركتُها تحتكّ بوقائع الحياة كما هي فعلاً كيما تختبر وتقارن وتختار. لم أقسرها أبداً أو أكرهها على تبنّي ما لا تقتنع به أو ترغبه... لكنّني أعددتُها بحسب استطاعتي لمواجهة الشرور والبؤس بعقلٍ تستخدمه وبمنظومة القيم التي دمّرتها نقائضُها... كانت النتيجة فاجعةً.

ارتج صوتُها فتدانيا، كانت تحتاجه ليدعم قدراتها على إكمال رواية ماحدث، اتكأت على ما خالته صلابةً تقيها الانهيار:

ـ أحبّت شاباً يدعى مالكاً، لم أعترض إلاّ على عدم صلاحيّته، لم يخدعني أبداً، فكلّ ما حكته عنه وعلى لسانه جعلني على يقينٍ أنّه يلهو بها بل تأكّدتُ أنّه يحاول إفسادها. رفض مقابلتي رغم إلحاحي وقد مثّل في جوهره نقيض كلّ ما سهرتُ على غرسه في روح جنان، استطاع خداعها وأوهمها بأنّهما يملكان تصوّراً مشتركاً للحياة وموقفاً موحّداً منها. تركتُها على أمل أنّ التجربة ستمزّق أقنعته وأبديتُ احتراماً غير متحفّظٍ لخياراتها شرطَ أن تمتحنها على أرض الواقع. أردتُها أن تعرفه على حقيقته وتشكّل قناعاتها وتتّخذ مواقفها وهي على بيّنةٍ أنّ روابطنا باقيةٌ على حالها وأنّ تراجعها لو حصل لن يعني عاراً ولا مهانة. فجأةً، وعلى إيقاع إحباطات تماسّها بعالَم ظلّت بعيدةً عنه بحكم سنّها واهتماماتها ثمّ اضطرّت لاقتحامه مع بداية دراستها الجامعيّة فجرح كفّيها من المصافحة الأولى وسمل عينيها مشهدُه الشنيع، جاءها مسّ الاقتران به دون مقدّماتٍ ولا مسوّغات. حاولتُ امتصاص اندفاعتها، أصرّت، ناقشتُ وضعها ووضعه، متابعة دراستها وارتباط ذلك بمستقبلها. كانت في أسوأ حالات عنادها... تسوّغ وتبرّر وتدخلُكَ في متاهاتٍ لا تخرج منها إلا بنتيجةٍ واحدة، إمّا أنّها متورّطةٌ بما لا يمكنها التراجع عنه أو أنّ عماءً أصاب بصيرتها قبل بصرها. سأحكي لك التفاصيل فيما بعد ولن تصدّق، المهمّ أرهقتني وسدّت عليّ الدروب

وحاصرتني، حاولتُ ثنيها عن عزمها بشتّى الوسائل، خيّرتها بيني وبينه فاختارته بكلّ صفاقةٍ مدّعيةً أنّه زوجُها وواجبها يُملي عليها اتّباعه حيث يشاء... أفقدتني حماقتها صوابي وتخلّت عنّي قدراتي على التفكير والاحتمال فارتكبتُ غلطة العمر معها، الحماقةَ القاتلةَ التي لا تُغتفر؛ صفعتُها لأوّل مرّةٍ في حياتي وأهلتُ عليها تراكمات غضبي وفزعي وعمري المهدور والضائع فكان أن غادرت، مضت تحت بصري ولم أوقفها. وهاهي غائبةٌ منذ فجر اليوم!

- بحثتِ عند صديقاتها؟

- لم تتّصل بأيّهنّ. اتّصلتُ بالقذر مالك، حبيبها المزعوم، فأنكر وجودها. هدّدتُه فاعترف أنّها مرّت به واختلفا فغادرته. أيّ كاذبٍ هو؟ الأدهى أنّني تتبعت آثارها صباحاً فوجدتُ حقيبتها مرميةً على رصيفٍ منثورة المحتويات؛ ثيابها... حاجياتها... وحتى هويّتها! زرتُ المشافي وشهدت جثث البرادات، أبلغت الشرطة وما زلت أنتظر. فقدتُ رجاء إيجادها حيّةً وهاأنذا أسعى وراء جثّتها لأواريها...

كانت تنتفض لكنّها تماسكت فما أجهشت ولا بكت ولا ناحت... ليس لقوّةٍ خارقةٍ انتابتها ولا إظهاراً لصلابةٍ يقتضيها وجودُها أمامه. لا، ولكن لأنّها دخلت طور كسوفها الأخير، أحسّت أنّه ما عاد هنالك من شيءٍ ليُفقَد وليس ثمة ما يُحزَن عليه. انسحقت شهوة الحياة في أعمق أعماقها واستسلمت غرائزها لفناءٍ قادمٍ باتت تعمل للعودة إليه.. إلى الصورة البدائيّة، إلى ما قبلها حيث اللاتمايز واللاتشكّل واللاتعيين.. إلى الرماد، الرماد ولا شيء سواه...

لكنّ فجيعتها نقلت إليه دمارها.. أذهلته قدرتُها على الكتمان الذي يحيل آلاف الكيلو مترات من حبال الأعصاب لفتائل محشوّةٍ بمسحوقٍ صاعقٍ يحترق بسرعةٍ هائلة، تأتيه صدمة الإشعال فتدفع انفجاراتِه القاصمة في كلّ الاتجاهات مدمّرةً شبكات الأعصاب خلال ثوانٍ معدودة، ناسفةً

كلّ ما يحيط بها، مخلّفةً الشظايا والحرائق ومزق اللحم داخل الهيكل المتماسك ظاهرياً، خلف العينين اللامباليتين... وخلال ثوانٍ متساوية، تعيد الخلايا تشكّلها متراصِفةً مستعيدةً وظائفها لتكرّ السبحة من جديد.

خمس ساعات وهي تحكي عن كلّ شيء إلاّ مصابها المزلزل وفي نهاية المطاف تلخّص النتاجات الأساسيّة لنهاية عمرها بكلماتٍ قلائل كأنّها تحكي عن شخصٍ آخر وآلام لا تمسّها ولا تعرف صاحبها. امرأةٌ خرجت من باطن بركانٍ وابتردت على مهلٍ منغلقةً على صهاراتٍ تلاقحت في جوف الأتون الفائق الحرارة والضغط. لكنّ الذي أصابه بشرخٍ عميقٍ صمتُها رغم حاجتها إليه. لم تعلن ذلك، تكلّمت ولم تطلب منه يدَ العون، كأنّما تحمله مسؤولية كلّ ما حدث! وكأنّما يدرك أنّها محقّة. انتهى وقت الكلام وابتدأ زمن الفعل، سيؤجّل الحديث في كلّ ما هو ملحٌّ بالنسبة له ويعمل في ما هو هامٌّ وضروريٌّ لرحاب وصفاء، ويقتص ممّن وشى به. سيعيد لها أوّلاً جنانها، ميّتةً أو حيّة. يقنعها آنها كم ستكون الحماقة تامّةً إن لم يغادرا بأسرع ما يمكن، ثم ينجز مهامّه ويغادران إلى حيث لا رجعة ولا مفرّ. توقّف وسألها:

ـ أين يسكن... ما اسمه؟

ـ مالك، لا أدري، لكنّنا نستطيع معرفة ذلك.

ـ كيف؟

ـ عن طريق زينة صديقة جنان، فهي التي أعطتني رقم هاتفه.

ـ اتّصلي بها حالاً، سنزورها في منزلها.

كان الحوار سريعاً، طلقات رصاصٍ مركّزةً وسريعةً اتّجهت كلّها نحو هدفٍ واحدٍ وفشلت جميعاً في إصابته. حافظ أدهم على رباطة جأشه، كانت المسألة هيّنةً من وجهة نظره ولا تستدعي قلقاً، فالبنيّة ليست طفلة، قد تكون طائشةً قليلاً لكنّها ليست غبيّةً ولا عابثة! إذن لتجرّب وحالما تكتشف خطأها ستعود من تلقاء نفسها، ومن الغباء إدّعاء دمار حياتها ومستقبلها!

لايتعلم المرء إلاّ من تجاربه مهما كانت مرّةً وقاسية، يا للمفارقة المضحِكة! أنا الذي بقيتُ بعيداً طوال سنواتٍ استطعت خلال أيام إدراك جوهر التغيّرات العنيفة الحاصلة بينما المعلّمة لا تستطيع، رغم احتكاكها اليومي ومعرفتها بكلّ ما يحصل، أن تتعامل مع متغيّراته... تريد أن تفرض قوانينها المنقرضة منذ عقود. انسي ذلك، دعيها تُحرِق أصابعها قليلاً كيلا تحترق بكاملها بعد حينٍ يطول أو يقصر. محضتِها ثقتك، تركتِ لها حرّية التصرّف ودعمتِ استقلال شخصيّتها، اتركيها إذن لتختبر ذلك وتدرك قيمته الحقيقية! لا يمكن لك ممارسة وصايتك الأمومية عليها ومحضها ثقةً عمياء في ذات الآن. وما من داعٍ لكلّ ذلك الصخب، ستغيب يومين أو ثلاثة ثم تظهر متطهّرةً من آثامها، مدركةً رعونتها وتسرّعها. حتّى لو افترضنا مشروعيّة قلقك، فليس صعباً معرفة كلّ شيءٍ من ذاك القوّاد الغرّ، سيقرّ بما يعرفه رغم أنفه، سيدلّ عليها حتّى لو كان قد أوصلها لسابع أرض. المشكلة تكمن في رأب صدوع رحاب، غادرتُها أول مرة فامتصّت الصدمة وآمنت بعودتي الموعودة، والآن تغادرها ابنة أختها بطريقة أشنع... ستظنّ نفسها طاعوناً يتحاشاه الناس ويتجنبونه ويفرون منه. إيجاد جنان ضروريٌّ وملّحٌ، ليس من أجل الفتاة بل من أجل خالتها التي لن تستعيد توازنها بغيره. لا يعلم أحدٌ أين سيقودها ذلك؛ الجنون أو الانتحار! لا يريد لها مصيراً مشابهاً، انقبض صدره وهو يقرّر:

ـ هيا بنا، أعطني عنوانها...

استعادت حيويّتها، أبعدت فكرة موت جنان. إن لم تثق بأدهم، رغم كلّ ما حدث، فما من امرئٍ لتثق به حتّى نفسها. قال إنّه سيستعيدها وهو سيفعل، لاشكّ في ذلك. حشرت يدها في ثنية مرفقه وسارعا ليستقلاّ سيارة أجرة:

ـ ما هي خطتك؟

ـ سنعرف العنوان منها.

ـ لكنها لا تعرفه.

ـ ستعرفه، أما قلتِ إنها أخبرت مالكاً باتّصالك بها؟

ـ بلى... هل سترافقني إليها؟

ـ بالطبع. قولي عمّ جنان، خالها، اخترعي أيّ شيءٍ يبرّر وجودي معك...

استمرّ الحوار على ذات الوتيرة؛ محاولاتٌ لاهثةٌ مستمرّةٌ للوصول دون رغبةٍ بالراحة أو التوقّف أو الانتظار. أكانت رحاب تستعجل الوصول كأنّها ستجد جنان عند صديقتها؟ ما أروع ذلك، لو أنّه يحدث وحسب!

دخلا، فاقت فخامة الأثاث رقيّ الحيّ والبناء، لكنّ ذلك لم يبهرهما... رحّبت بهما الأمّ باعتبارهما خالة جنان وعمها وغادرت. ثمّ حادثت رحاب زينة بليونة، إلا أنّ أدهماً دخل على الخطّ بصوته الأجشّ:

ـ اسمعي، لا نريد منك شيئاً سوى عنوان مالك.

أجابت مسرعةً وقد تطيّرت من صوته بعد رهبة هيئته:

ـ والله لا أعرف، أخبرت الخالة بذلك، مشيرةً لرحاب. لكنه لم يمهلها:

ـ أعلم ذلك، ستتّصلين به وتخبرينه أن يمرّ عليك الآن لأمرٍ ضروريّ. تدبّري رأسك، وإن لم يقبل، فأقنعيه أن يعطيك عنوانه لتمرّي أنتِ به.

ارتعبت الصبيّة وهمست مرتعشة الصوت:

ـ وإن لم يقبل؟

ـ سيقبل وإلاّ سيحدث ما لا يسرّك ولا يسرّ أمك ولا أباك. هيّا قومي ولا ترجعي إلاّ والعنوان معك.

كان التهديد بليغاً وفعل فعله، غابت دقائق ورجعت بورقةٍ مطويّةٍ خبّأتها في باطن كفها:

ـ تفضّل.

ـ أما قلت لك بأنّ الأمر لن يكون صعباً؟ بالمناسبة، ما هي كنيته؟

سمع اللفظة وأشار لرحاب.

ـ إلى أين يا خالة؟ لم تشربوا قهوتكم بعد.

ـ مرّةً ثانية.

ـ ستزعل أمي...

ـ اعتذري منها، سأعود في مرّةٍ أخرى.

سبقها أدهم إلى الباب. وفي ليل الشارع وقف هنيهةً:

ـ سأوصلك ثم ألقاه.

ـ لا، سنذهب سويّةً إليه.

أجابها بحزمٍ لا يقبل جدلاً:

ـ هذه ليست شغلتك، لن تسرّك الطريقة التي سأعامله بها ولن ترتضيها!

تفكّرت قليلاً ثم قالت:

ـ حسن، اذهب إليه وسأعود إلى البيت وحيدةً وانتظرك.

ـ في هذا الوقت؟ لا، سأوصلك أولاً.

هل بدأ يمارس وصايته عليّ، أم أنّه يراني طفلةً يخشى عليها الضياع أو العدوان؟

ـ أدهم لا تنسَ نفسك!

تدارك الموقف سريعاً، لا يريد شجاراً الآن:

ـ حسن، لأستدلّ على البيت. كيف سأعود إليك؟

قبلت على مضض، ركبا سيارة أجرةٍ ومضت بهما بعيداً، وحين وصلا وأشارت إلى البيت المنعزل سألها:

ـ لماذا تخبئين نفسك هنا؟

ـ كيلا يستدلّ أحدٌ على مكان تواجدي! أجابت بمرارةٍ قاربت السخرية.

لكنّه تجاوز ذلك:

ـ لن أتأخّر، سأعود إليك بأخبار حسنة.

لكنّه في حقيقة الأمر يعرف أنّ ذلك لن يحدث فالسفيه لم يكذب عليها، وعلى أرجح الظن لا يعرف أين رحلت. يبدو أنه سارع لإظهار قذارته فلفظته وصعبت عليها العودة لبيتها في حالتها المزرية تلك فالتجأت لصديقةٍ ما أو قريبة، ويفترض في أسوأ الحالات أن تتّصل بخالتها ما لم تكن تعرّضت لمكرْوهٍ ما. ارتاحت نفسه للفكرة...

من أين أتت تلك الجنان؟ ستكون سبباً إضافياً لرفض رحاب الرحيل معي، كيف سأتصرّف حيال ذلك؟ إن استطعتَ إقناعها أولاً. تعرفُها، رأسُها أصلب من صخر. كيف؟ سأعرض على جنان أن ترافقنا وتكمل دراستها في الخارج، ربما أسعفني الحظّ من حيث لا أدري. ابتسم في سريرته، لا لن يعيقني ذلك، سيساعدني وضع جنان ومصابها وضرورة إبعادها عن الأجواء التي تذكّرها بانكسارها وربّما كانت تلك وسيلتي الوحيدة لإقناع رحاب. هيا اظهري يا جنان ودعينا ننهِ مرحلةً ونبتدئ أخرى.

أغمض عينيه لكنّ السائق نبّهه:

ـ أي شارع قلت لي يا أستاذ؟

فتح أدهم الورقة المطوية وتلا عليه العنوان كاملاً ثمّ أغمض عينيه متجنّباً ثرثرةً سقيمةً أخرى. لم يتوقّع أن تحتدم الأمور على هذا النحو؛ هارباً

نحو اللاشيء منذ الصباح الباكر، ثمّ فجأة تتعيّن مجموعة أهداف ينبغي إنجازها بأسرع ما يمكن. الصباح؟ كم يلوح بعيداً! كم يغرق الإنسان في البعد وعلى وتره الجارح تزداد حدة النغمة مقتربةً من ندوب الروح كلّما تدانى القرب! لكنّ المرء ينسى أو يوهم نفسه بالنسيان.. متى يرتاح من عمليات الخلق ومواجهات الخلق المضاد؟ متى يستريح المقاتل؟ في حفرته أم حين يُسأل عن سبب القتال ويدخل نزعه الأخير؟

يهجم جميل كريحٍ عاصفة.. أحقّاً كان في مركب يشقّ حيزومه فيروز الماء نحو الشمس وريحٌ رخيّةٌ تشعّث الشعر؟ هل رمى أسئلته ومضى دون انتظار الجواب؟ والأجوبة استقالت قبل أن تصاغ الأسئلة، يرتاح الآن من عبث بحثه وعذابات شكوكه حيث تصدمه الحقيقة الوحيدة فتسحقه؛ الموت المتخفّي في الجدران الراصدة، تخلّي الهواء عن الخلايا... أما كان خيراً لك أن تكون قد نلت منهم قبل أن ينالوا منك؟ لم تفهم المعادلة أبداً، ربما كانت الأمثولة مغلوطةً لكنّ الخيارات كانت محدودةً أيضاً... قاتلاً أم قتيلاً؟ لماذا أرهبتك ساعة القتل إذن إن اخترت أن تكون في صفّ القتلى في خلاء المستودع الحزين للضحايا الذين تشوّهت ملامح وجوههم وأجسادهم؟ لأنّ الذين كان عليهم أن يكونوا محلهم تحصّنوا في وكنات النسور أو جحور الأفاعي أو في سفنٍ تمخر عابرةً لا تلوح لها شواطئ. أردتَ ذلك لنفسك ونلته، لمَ لا تدعني لحالي؟ لم أدفعك لا للعودة ولا لصحبتي ولا لشهود نيراني وعاري ولا لحمل صليبي عنّي، فاحتمل قدرك بنفسك وادفع حساباتٍ لم تساهم بتراكمها ولكنّك ستسدّدها عن نفسك أوّلاً وعمّن قلت إنّك تحبّهم ثانياً. أثمة غبنٌ في ذلك؟ عدتَ لأنّك لم تجد أجوبة أسئلتك حيث همت على وجهك شريداً وغريباً ومحاصَراً ومتّهماً دوماً بمخالفة المألوف، وتخلّيت طواعيةً عن سكّينك لأنّك لا تحسن استخدامها أو لأنّك لا تؤمن باستخدامها أو في تبصّرات نبيٍّ يحرّم دماء البشر أنّ أوانها لم يحن بعدُ ولربّما لن يحين أبداً، فرميتها بين أقدامهم وقلت لن يجسروا على

استخدامها! فما الذي تقوله أيها النبيّ المدّعي وهم يشهرونها في وجهك؟ لعلّك ستشهر رؤاك وأحلامك وحوارك وجدلك ومنطق الحقّ وخلايا دماغك في وجوههم! لن يسعفك ذلك، إذ سيبدؤون بوجهك.. يسلخون جلده خليّةً خليّة.. يفقأون عينيك ويصلمون أذنيك ويجدعون أنفك ثم يجتثّون لسانك، سلاحك المقترح الوحيد! وبذات النصل يتابعون أوردتك وشرايينك.. يستلّون أعمق أعصابك وأخفاها ويعرّفونك بما لم تعرفه ولم تألفه من منظومتك العصبيّة حتى تجأر طالباً التخلّص من أسر الجسد! هل تجد الإجابة الآن؟ أعملتَ عقلك قروناً ولم تتوصّل لجوابٍ واحد... وهاهم خلال عقدٍ من الدقائق يجعلون الجواب يهدر في رأسك على صيغة سؤالٍ أضحت الإجابة عليه مستحيلةً وفوق طاقات احتمالك: كيف سلّمتهم سكيني؟ أما قلتَ إنّك ستدفع حياتك ثمناً لجواب سؤالٍ أعدتَ صياغته وأنّك ستدفعها مرّةً أخرى لقاء أن يعرف الناس تلك الإجابة؟ ادفع ذلك إذن مضاعفاً واهناً بمقتلتك الغبيّة والمجنونة!

فتح عينيه على عتمةٍ تقطعها أنفاقٌ من نورٍ مبهرٍ تتحرّك بسرعةٍ فائقة والغمّازات الحمراء المستديرة والمربّعة والمستطيلة تفضح المكتوم وتعلن دخول ساحات الخطر. ليست شماتةً بل تسميةٌ للأمور ووضعها في نصابها كما يقول من يريدون حماية أعينهم من أصابع الاتّهام. لكن مع جميل، اتّخذت المسألة سمة البشاعة. ثمة لؤمٌ في توصيف الحالة، لؤم المشارِك في ذنبٍ يريد التخلّص منه بإلقاء اللوم على الشريك أو الشركاء كأنّه فرح بوقوعهم في مصيدةٍ ساهم بنصب أحابيلها! لكنّ مثول الطفلين أمام عينيه استلّ أساه؛ لأبٍ وفي أيّة لحظةٍ قد يفقدون الأم! لن يكون بمقدورها احتمال غيبته النهائيّة وتملك فوق ذلك نزوعات عنفٍ مدمرٍ رغم كمونه، لكنّ إطلاقه سيكون بغير حسابٍ وخارج كل توقع. لن تجد أمامها إلاّ خيالها في مرآة روحها؛ ستكون هدف هجومها الأوّل... وربّما الأخير وللطفلين الشوارع... رحلة التشرد وتعلّم قسوة الحياة بأبشع الطرق. عدوّان جديدان حاقدان

ينضمان للأصفار المتنامية التي تنضح بالعدوان وشهوات الثأر والانتقام ممّن جعلوهم بعضَ حصى الطرقات وإسفلتها، بعد سحل أجسادهم ومحق أرواحهم... رقمان صغيران ينضمّان لقائمة الشحّاذين أو المجرمين أو المهمشين اليائسين من الشمس والتي استحالت وطاويط ليلٍ تبحث عن دماءٍ تمتصّها كيما تعيش حتى صباحٍ شمسُه سوداء. وإذن، إن لم ينقضّوا على مغتصبي حقهم بالعيش الكريم، فليتعفّنوا في أقذارهم وأسمالهم وتشوّه أرواحهم... ستعصف بهم يوماً ريحٌ صفراء أو تبتلعهم انفلاقات زلزال باطن الأرض أو ستحوّلهم ظلالاً محادلُ الطرقات وتسوّيهم بالأرض. وبعد؟ هل سيكون لهما ما يمتازان به عن أطفالٍ كثيرين غيرهم؟ هل سيغفر لهما أو يحصّنهما كونهما ابني صفاء أو ابني أخت جميل؟ أيّة ترهاتٍ وأيّ هذر؟ يجب أن تحرق تلك النار جميع الأصابع بالتساوي كيما تتعلم قيمة أن تتّحد لإطفائها مثلما جمعها تحمّل لسعها... توحّدت هويّاتهم في تحمّل الأذى وقبوله، فلماذا لا تتّحد في ردّه إلى نحور صانعيه ومستغلّيه؟ اعتصرت قبضته ظهر مقعده الذي أرخى ساعده عليه وكاد يمزّق الجلد والحشوة حين توقفت السيارة.

- تفضّل أستاذ... وصلنا.

دفع أجرة السائق دون نقاشٍ رغم يقينه أنّه قد استغفله.

كان مهيئاً للقتال، تمنّى ألا يعانده ذلك النذل كيلا يضطرّ لتهشيم حنجرته بأصابعه. لم يتبيّن دربه إلى البناء، حتّى ملامح الحي بدت غامضة. ضاحيةٌ جديدة.. أبنيةٌ حديثة، شوارع نظيفةٌ وإنارةٌ جيدة. لكنّ حسّاً غريزيّاً جعله يتلفّت حواليه ويلحظ ما يحيط به حفاظاً على خطّ رجعته إن حدث ما لا يقع في الحسبان. ارتقى الدرجات بعد ولوج مدخل البناء ووصل للطابق الثالث، ربّما كان الأخير، قال لنفسه. سدّ الباب بقامته وفكّر أن يدقّ بجماع قبضته بقوّةٍ وعنف، لكنّه تراجع خشية أن يتوجّس صاحب المنزل شرّاً فلا يفتح له. ضغط مفتاح الجرس وأطال، ثم أخذ يعدّ متمهّلاً، وحين

وصل للرقم عشرة كان الباب قد فُتح. واجهه شابٌ في بداية عشرينياته ولو أنّ طوله الفاره وجسده الرياضيّ المتين أوحيا بعمرٍ أكبر. لم يتطلّع إليه بل استرق نظرةً من وراء كتفيه فلمح صالةً صغيرةً ومائدةً التفّ حولها ثلاثةٌ بدا اثنان منهما معمّدين بالنفط بدل الماء! انحنت فوق ظهورهم ثلاث نسوةٍ نصف عارياتٍ تحمل كلٌّ منهنّ في كفّها كأساً مترعةً وينفخن غلالاتٍ سميكةً من دخان تبغهنّ الرماديّ فوق الرؤوس والمائدة فتلفّ الجميع بغيمٍ أرضيٍّ يهبط سريعاً ويرسب دون بخرٍ تالٍ. ابتسم في سرّه قبل تأمّل وجه مضيفه؛ سيسهّل الداعر الصغير الأمور عليّ، قوّادٌ مبتدئٌ ومنزلٌ صغيرٌ للدعارة ومستلزماتها. لا يضيع وقته وعمره عبثاً! يريد أن يصل سريعاً بأقصر الطرق وأيسرها، أيّة وقعةٍ وقعتها يا جنان؟

نظر إليه من علٍ:

ـ أنت مالك؟

أبدى الشاب جلَداً ولم ترهبه السحنة الكالحة ولا الحجم العملاق، فقد تأكّد له أنّ زائره ليس من الشرطة أو أشباههم ودليله أنّ أحداً لا يرافقه. أجاب بلامبالاةٍ واستخفافٍ تلبّسهما نهرٌ خفيّ الجرس تأكيداً على عدم الترحيب بزائرٍ غير منتظَرٍ ولا مرغوب، بعد أن حدّق طويلاً بأدهم:

ـ ما الذي تريده؟

اعتبر أدهم السؤال، على طريقته في فهم الأمور، ترحيباً به ودعوةً للدخول وأجاب بتقدّمه مادّاً ساعده لإزاحة من يسدّ طريقه. لكنّ الخبيث مالكاً تنبّه وحاول سريعاً إغلاق الباب وقد ارتكب خطيئته الأولى والأخيرة. أتته لطمةٌ خاطفة، لم ينتبه إلاّ وراحةٌ ضخمةٌ تندفع كمجذافٍ وتصدم صفحة وجهه فترجعه متراً إلى الخلف يكاد يعثر وأصابعه تتلمّس العلامات اللاذعة التي انطبعت على وجهه. دخل أدهم وأغلق الباب بنفس اللحظة التي أمسك فيها بيسراه عنق مالك الذي أفلت بأعجوبةٍ من أصابع كادت

تزهق أنفاسه. تراجع خطوتين واتّخذ وضعاً قتالياً، حسبه للوهلة الأولى بلطجياً أتى يطالب بحصّةٍ لقاء تقديم حمايةٍ مزعومةٍ فصرخ في وجهه:

ـ اخرج من هنا قبل أن تندم... لا احتاج حمايتك ولن أدفع أيّة خوّة!

كان يناور ليصل غرفة نومه ويخرج مسدّساً خبّأه لطارئٍ مثل هذا، بينما كانت المجموعة قد رمت الأوراق ووقفت مستفزّةً بعد سماع صراخ مضيفها. تجنون على أنفسكم أيّها الأغبياء، اجلسوا قبل أن تتسلّموا كدماتكم وتمسحوا نزف جروحكم وكسوركم، لستم مقصدي. تطلّع إلى مالك بثبات:

ـ أين جنان يا ابن السافلة؟

بهت مالك... تخلّت عنه شجاعته وتضاءل حتّى عاد لحجمه الطبيعي.

ـ هل أتّصل بالشرطة؟ صاح أحد الواقفين خلفه، فصرخ مالك من غير أن يلتفت:

ـ اخرس واجلس، تابعوا لعبكم... إنّه قريبي، سنناقش مسألةً ثم أعود إليكم.

سار أمام أدهم.. ولجا غرفة النوم وأُغلق الباب.

ـ لم تجبني بعد.

ومع السؤال اندفعت القبضة مطرقةً ثقيلةً دقّت صدر مالك ورمته فوق سريره فأجاب بجبنٍ محاذرٍ وقد جفّف الخوف طراوة صوته:

ـ أخبرت خالتها إنّني لا أعرف.

انهالت على وجنته صفعةٌ ردّدت الجدران صداها وأدمعت عينيه.

ـ لستُ خالتها يا ابن الكلب!

ـ أقسم لك بشرفي لا أعرف، قالها متوسّلاً واضعاً كفّه على وجنته المشتعلة وقد استحال فأراً وقع في مصيدةٍ أدرك أن لا فرار منها.

ـ أي شرفٍ يا ابن الزانية؟ تحكي وحدك أم أنتزع لسانك من فمك القبيح فيحكي وحده؟

أجاب الفأر صاغراً:

ـ سأحكي كلّ شيء.

ـ إيّاك والكذب!

حكى مالك كلّ شيء، وكان قريباً ممّا تخيّله أدهم... استفسر منه عن الأمكنة التي يمكن أن تلجأ إليها وتأكّد أنّه حكى ما يعرفه. ودّ أن يسحقه بقدمه كأيّة حشرةٍ ضارّة ومدّ يده مبتسماً مودّعاً، فنهض مالك من جلسته ليصافحه وقد استعاد بعض هدوئه وتخلّى عن حذره، لكنّ قبضةً فولاذيّةً أطبقت على كفّه بإحكام، لوت المعصم وأدارت الذراع وراء ظهر مالك المبهوت وتابعت ليّ مفصل المرفق بمهارةٍ وسرعةٍ فتزامن مع الصرخة الثاقبة صوت تحطّمه وتداعي الجسد مغشياً عليه. بصق أدهم عليه ومضى. على الباب كان الباقون واقفين مرعوبين فطمأنهم:

ـ لا تخافوا، سيعود إلى وعيه بعد قليل. أخبروه ألاّ ينسى جنان!

رماهم بنظرةٍ لا مباليةٍ ومضى.

راقب ظلّه... تارةً يتقدّمه وطوراً يتراجع رويداً رويداً إلى أن يصبح خلفه ثمّ ينمو من جديدٍ أمامه ويتمدّد ثم يتقاصر. ما هو الحجم الحقيقيّ للكائن؟ فعله أم انعكاسات فعله؟ كيف يتبيّن ذلك في حركات المدّ والجزر؟ بدت حياته متراقصةً متلونةً مثل ظلاله المهتزّة لا يكاد يعتمد وجهةً حتى يرى نفسه وقد انحرف عنها. أمل أن يعرف ما يوصله إلى جنان فلا يعود إلى رحاب إلاّ وهي بصحبته... لكنّ الوضع اختلف، فما لم تتّصل من تلقاء نفسها سيطول البحث عنها. تردّد، هل يعود إليها خائباً خالي الوفاض فيخيّب رجاءها أم ينتظر حتى الصباح فيعلمها تأخّره بإخفاقه في تحقيق وعده؟ أين سيمضي ليلته إذن؟ أيذهب ليطمئنّ على صفاء والصغيرين كما

وعدها أم يعاود المرور على إبراهيم أم يعود للمنزل الذي لم يألف جدرانه بعد أم يمضي ليلته بصحبة السائق وزوجته وداعراتهما؟ لكنّ رحاب ستظلّ منتظرةً ساهرة، وقد وعدها بالرجوع، أيخلف وعده معها مثلما فعل سابقاً ويثبت لها بما لا يدع موضعاً للشكّ خطيئة عمرها الكبرى؛ محضه ثقتها وإيلاءه ما لم توله لغيره؟ آن له أن يبرهن لها أنّ الظروف هي التي جعلت منه شيئاً مغايراً لما تصوّرته عنه.. سيعلن أنّها لم تغالط نفسها وهاهو يعود كما رأته وكما أرادته... وربّما كما ينبغي عليه أن يكون!

ألا تتجاوز إلى الشطط؟ أبقي ثمة ما يربطك بها؟ وما هو، بل قل ما الذي كانه؟ يرتدّ الزمن.. ينكشف الكامن والمستور.. تمرّ عليه أضواء الشموع مروراً سريعاً ثم تشتدّ الإضاءة وتبطؤ الحركة حتى تكاد تقف.. تشفّ الرؤية ثم يغشاها الضباب، يخشى الآن رؤيتها بوضوحٍ مثلما فعل في الماضي، أصابع كفّين من السنوات وهو يتنفّسها ليبقى حيّاً ويبعدها عن بصره كيلا يراها تنأى كلّما بهتت تفاصيلها الأثيرة وامحت. دعك من ذلك الآن وامضِ إليها.. اعترف أمامها أنّ قطيعةً حدثت مع الماضي ولأنّنا لا نستطيع ضمّ الوشائج علينا الاعتراف بذلك وعليه يمكن أن نبني أساساً لآتٍ يفترق عمّا توقّعناه لأنّه سيعبر بنا آفاقاً جديدةً وعوالم مختلفةً علينا إنشاء روابطنا بها بمعزلٍ عن أيّ انتماءٍ آخر! عليك أن تستعدّ لتفنيد كلّ الحجج المضادّة التي ستضعها لمواجهة أملك الأخير، مصدر تشبّثك بالحياة؛ أن تكونا معاً! هنا، لن يُسمح لكما بذلك، هي تدرك ذلك وتعي استحالته ومع ذلك تصرّ عليه! كيف يا رحاب؟ تصمت، ثم تؤكّد: نحن ننتمي إلى هذا المكان ومهما حاولوا ذبح ارتباطنا به فنجاحهم رهنٌ بإصغائنا لهم وخضوعنا لمطالبهم، سيسهّلونه لنا ويكافئوننا عليه بينما سيعاقبوننا لبقائنا ويقتصّون منّا شرّ اقتصاصٍ لو تحدّيناهم وبقينا. لكنّنا سنفقد كل شيء، ربّما حياتنا! ليكن ذلك، ثمة تربةٌ تأوي عظامنا ولا تقدّمها لأوّل عابر سبيل! حالما ينتهي النقاش إلى هذا المفترق يكون قد انتهى.. ونكون افترقنا، هذه المرّة إلى الأبد.

قبل ذلك كيف سيكون موقفها من الحالة التي وضعت بها جميلاً؟ أتوافقني أم أنّها ستتّخذ موقفاً متشنّجاً وتصبّ عليّ غضبها واتّهاماتها؟ لابأس، سأحاول قدر المستطاع إقناعها بتفهّم موقفي ثمّ... لا، لن أطلعها على المسألة، لن أضيف أسباباً جديدةً لشقاقٍ يبدأ ولا ينتهي. يكفي ما لديها ضدّي، هل أضيف ما ستُحسن استخدامه بحسب رغبتها؟

أمّا الرغبة الوحيدة التي تملّكت رحاب وهي تنتظر أوبة أدهم، فما كانت سوى سماع صوت جنان. ثمة ما يدفعها للوثوق به في ما يخصّ بحثه عنها، تيقّنت أنّه سيجدها ويعيدها.. حيّةً تنتفض تويجات أزهار المشمش البيضاء وتتساقط ملوّنةً الوريقات الخضراء الفتيّة التي غزت الغصون البنّية اللامعة فوشتها بلونٍ جديد ثم تتساقط ثلجاً أبيض يغسل الشوائب التي علقت جذعها مفتّقةً تحتها الثمرات الخضر الطازجة الزغِبة التي سرعان ماتنمو وتكبر مغيّرةً ألوانها وروائحها مئات المرّات قبل أن تلفحها الشمس فتهبها لونَها البرتقاليّ وتورّد حافّات خدودها وتزيد حلاوتها. أيّة ريحٍ مجنونةٍ اقتلعت غرستها الفتيّة من جذورها وأسلمتها للأعاصير؟ كانت تعدّ شهقات تنفسها وهي تتحسّس الوقت.. تراخت في العتمة، تذكّرت أنها حين أرادت الدخول لم تولج مفاتيحها... وجدت الباب مفتوحاً، ومن هواجس العزلة والبيت القصيّ أشرعت أمانيها؛ ليتهم سرقوا كلّ ما فيه! ودّت ألا تجد سوى الجدران عاريةً من الأثاث والذكرى.. ليتهم أشعلوا النار فيه فلا أعود ولا يعود.. ليتهم لغموه بقنبلةٍ موقوتة، أغمض عيني قربها ولا أبحث عنها وآن تنفجر لن أصرخ صرخةً واحدةً حتى لو أُمهِلتُ ثانية صراخ. ولجت كأنّ شيئاً لم يكن وكأنّ العتمة بدّدت أمانيها كما امتصّت الفوضى آثار القادمين. نسيتُ إقفال الباب في عجلتي، لكنّ شيئاً يقول لها إنّ أحداً دخل أثناء غيبتها. استيقظ الأمل الهاجع، أتكون قد عادت؟ سارعت الخطو نحو غرفة جنان وقبل أن تفتح الباب المغلق تلت صلاة شكرٍ وتوسّلٍ أن تجدها... لكنّ الأمنية صارت بعضاً من مهمل الأثاث... ما من أحد.. لمّا تعُد. تلمّست درب سريرها، جلست عليه ثمّ مالت بجذعها تجاه الوسادة وانحنت فوقها... لامست شعر جنان المنثور عسجداً على سمائها ثمّ غطّته بشعرها

وكادت تنشج غيابه... مرّت براحتيها على الجسد المستلقي غير آبهةٍ بالعيون التي ترقبه والأنامل التي تجسّه وتختبر شدّة تيار الحياة في مساريه ونواقل خلاياه... مسحته مسحاً فما وقعت يداها إلا على نعومة نسيج الغطاء البحريّ الذي سكن موجُه واختفى زبده. قامت مثقلةً، ألقت نظرةً على الصالة، ما الذي أوحى إليها بدخول غرباء إلى منزلها؟ أما تراها مخطئةً وقد كدّها الإجهاد وإرهاق البحث والقلق فأطلق عنان مخيّلتها؟

ودّت لو تعود بذاكرتها لطفولة جنان المبكّرة. كيف عاملتها، وهل نجحت حقاً في زرع بذور حرّيتها القادمة واستقلال شخصيتها؟ تاهت منها التفاصيل والأزمنة التي تشكّل محطّات تنقّلها مساراً فوق خارطةٍ محفورةٍ على سطح القلب، وهو المحطّة الأخطر والأصعب في المواجهة واكتشاف الحلول الملائمة التي تجعل الخسائر محدودة.

خرجت البنية من فوح دمها المسفوح بهيّةً نضرةً رغم الشحوب وبدأ أزيز دمها يصدح عالياً. انتفضت.. أكان ذلك رنين دمها؟ إشارة موتها أم... أم أنّه الهاتف؟ مع الرنين التالي قامت متردّدةً كأنّما ستنقل لها الأسلاك خبراً لا تريد سماعه لأنّها لن تصدّق حدوثه. أيّ شؤم ستنقله يا أدهم؟ رفعت سمّاعة الهاتف وتصاعدت دقّات قلبها فملأت أذنيها، خشيت أنّها لم تسمع.

- نعم؟

امتدّ الصمت فزاد توتّرها.. استندت بذراعها الأخرى على المنضدة خشية ألاّ تحملها ركبتاها وحاولت مرّةً ثانية:

- قل يا أدهم، لا تخف، هات أسوأ ما عندك فالأمر سيّان!

تهدّج صوتُها كأنّها تحتبس إجهاشاً ونحيباً قادمين لا محالة.

- ...

لم يتحول اضطرابها إلى انفعالٍ فتوسّلت:

ـ أرجوك قلْ وأرحني!

لكنّ صوتاً آخر جاء... خالف توقّعاتها فبهتت.

ـ هذه أنا يا خالتي!

كادت أن تتهاوى وتتداعى أرضاً... أذهلتها المفاجأة رغم أنّها تضرّعت لتحدث، لكنّها حين حصلت اتّخذت طابع معجزة. أصابتها خفّةٌ كأنّما فقدت اتّزانها... كادت أن تقهقه ضاحكةً وأن تعول وأن تبكي وأن تطلق صراخاً وحشياً يزيح الأعباء التي اختزنتها في كهوف خلاياها وكادت تطفح وتطيح بها. لم يجد لسانها إلاّ ما يؤكّد لها حقيقة ما تسمع وأنّه ليس وليد أوهامها وشطحات رؤاها.. سألت بهمسٍ مبحوحٍ لا يُسمع:

ـ من قلت؟

لم يتمهّل الصوت الآخر، إذ أجاب دامعاً يحطّمه الأسى والندم:

ـ جنان يا خالتي!

آنها تصدّعت المتجبّرة على نفسها، انزاحت قشرة الفولاذ اللامعة وتكشّفت الحنون... الأرقّ من نسمةٍ وغمامٍ أجهشت.. أجهشت وناحت.

ـ هوّني عليكِ يا خالتي... هوّني عليك.

تهدّج الصوت كأنّما سيتفجّر بين ثانيةٍ وأخرى. نطقت رحاب بعد برهةٍ بين دمعها الشارق وشهقاتها المترددة وصدى النحيب:

ـ أين أنت؟

ـ ...

ـ قولي أين أنت، أتريدين دفعي لقبري؟

ـ أنا في أمانٍ يا خالتي، صدّقيني! كنتُ خائفةً حتّى من الاتصال بك، لكنّهم أقنعوني لتطمئنّي، ما جرؤت فألحّوا وأكرهوني في نهاية الأمر.

ـ من هم أولاء؟

ـ أصدقائي يا أمي.. أرجوك صدقيني.

ألجمتها اللفظة التي ما عادت البنيّة تستعملها منذ أمدٍ بعيد، حين أعادت على مسامعها حكاية أمّها وأوضحت حقيقة العلاقة التي تربطهما. حينها أخبرتها جنان بمعرفتها بذلك، لكنّها ستبقى بالنسبة لها أمُّها الحاضرة بعد ما امتص الغياب أمَّها الراحلة. هدأت قليلاً وهي تحاول تمالك نفسها:

ـ أصدقك... متى ستعودين؟

بعد صمتٍ يسيرٍ أجابت جنان:

ـ أرجوكِ يا أمّي امنحيني فرصةً لمراجعة ما حدث. اطمئنّي، أنا بخيرٍ وسأعود حالما أجد نفسي مستعدّة. سأبقى على اتصالٍ بك... فقط تأكّدي أنّني بخير...

حاولت رحاب مجدّداً رغم إدراكها عبث محاولتها، تعرفها جيّداً، لن تتزحزح شبراً:

ـ عاد أدهم! ألا ترغبين برؤيته لحماً ودماً؟

أجابت البنية مرتبكة:

ـ حقاً؟ أشكر الله على عودته سالماً... لكنّني سأراه فيما بعد أيضاً، إن سمحت لي!

تجنّبت إلحاحاً مؤذياً لكلتيهما فسكتت.. عمّ الصمت وما عادت رحاب قادرةً على قول شيء. ودّت لو تستلقي وتستغرق في نومٍ عميق.

ـ أمّي، هل أنتِ معي؟

أجابتها ملهوفةً متنصّلةً من غيبوبتها:

ـ معك... اعتني بنفسك، لا تطيلي الغيبة وخابريني باستمرار.

استطال الوقت والبحث اتّخذ وجهةً أخرى. لم تشعر رحاب بالاطمئنان، فثمة أمانٌ فُقد مثلما فُقِدت جنان... ربّما لا يكون نهائياً كما خالت قبل حين، لكنّ قطيعةً قد حدثت، وصدعاً قد انشقّ. متى تتّصل ومتى سيرأب؟ ما عادت تعلم. تنفّست أخيراً حين سمعت صوتها... لكن الهواء الذي اشتاقته لم يصل باطن رئتيها... وقف في موضع ما بين منخريها ومدخل شعبتيها القصبيّتين! غصّت به... خلدت للسكينة مسترخيةً على أريكتها تتخلّص من أعبائها، تاركةً السؤال الذي أمسك بتلابيبها منذ الفجر؛ هل أسأت إليها وكيف؟ وكافّة ملحقاته التي تبدأ بكيفيّة محو الإساءة وعدم معاودتها. استرخى الزمن الآن وتمطّى... بات الهجوع حاجةً اتّخذت سمة الوسن ولم يتحوّل لنوم يجدّد النشاط ويستعيد طاقاتٍ هُدِرت وأحوالاً باتت أشباحاً تلوح عن بعدٍ مودّعةً تعتصرها ابتسامةٌ تترك ندوباً حيث تمسّ، في المقلتين وفي سويداء القلب وباطن الحنجرة وخلايا نفرت من قدرة التحكّم فتجاوبت بلا حدٍّ مع الألم مثيرةً أمواجاً تعلو وتهبط على هواها.. تستمرّ ولا تتوقّف إلاّ عند حيّز الدمع والدمعُ لا ينسرب. غاض.. تحسّه يتصاعد، يصل عتبة الذرف ويرجع فلا يغسل العين ولا يعفيها من التجفاف.

تنهّدت، انقضى العمر أم ثمة متّسع؟ تصاعدت موجة حنينٍ أغرقت اللحظة التي تحاول الإبقاء على يقظتها.. أعقبتها هبّة ريح قويّةٌ ضعضعت الألواح وخلخلت الهيكل وصفرت بين الحبال المشدودة فأنّت متسائلةً إن كانت ستصمد وقلوعها حتى شاطئ الأمان. اكتشفت خلال ساعات يومٍ مالم تكتشفه خلال سنوات فتضعضعت وانقلب عاليها سافلها وتشابهت الآفاق ورمدت السماء فامّحت نجومها.. لا الشمال شمالٌ ولا الشرق شرق، اختلطت الجهات وارتدّت عليها فداهمتها هجمات الحزن حمّىً يعقبها الصقيع.

خطر على بالها الذين أقلقتهم وشاركوها ألم الفقدان الذي وطأ كيانها فحوّلها امرأةً أخرى! هل العطب فيها أم في ابنة أختها أم في العلاقة التي جمعتهما؟ سالت أمام عينيها نصف المغمضتين ألوان مواسير ضخمةٍ لم تظهر

لعينيها لكنّها قدّرت حجمها من الأسطوانات الليّنة المتماسكة التي اندفعت ليس بفعل الجاذبيّة بل بضغط أصابع عملاقةٍ تعتصر الخليطة التي تحدّد اللون وطلاوته.. ارتعشت وهي ترى تدفّق الأزرق والأخضر والأصفر، ما كادت تتملّى رشحهما وهو يتخلّل مآقيها حتّى اندفعت من الطرف الأعلى لأولها اسطوانةٌ مائلةٌ شكّلت زاويةً حادّةً فاخترق السواد الخطوط والفراغات المحصورة بينها، فاقت سرعة تدفّقه تساقطها فسبقها، وفي ميلانه خضع جزئيّاً لفعل الجاذبية فتقوّس، وما كاد يصل الخطّ الأخير حتى وازاه فانهمر جانبه مختلطاً به. أمّا القوس، فسالت وراحت تمسح الخطوط الطولانيّة بهبوطها العرضانيّ تلاحقها نقطةً نقطة متغذّيةً من الاندفاع المستمرّ لانسياب الاسطوانة السوداء التي أضاعت ملامحها وهي تمسح المشهد مسيطرةً عليه... ودّت لو أنّ الأصابع اختارت ماسورةً بيضاء وضغطتها كيفما اتّفق كي تخفّف أو تعدّل أو تزهق هيمنة الأسود واستبداده! ما درت أنّ الأبيض قد جفّ وبخر زيته فاستحال حجراً لا يخرج ولا يتحطّم. أمسكت الأصابع المدرّبة والخبيرة أنبوباً يحوي أحمر قانياً اعتصرته بشدّةٍ وهي تلوّح به فيتساقط رشاشاً يملأ ساحة الإبصار بنجوم متوهّجةٍ من اللون النيئ. سمعت الصوت الخافت لوضع الأنبوبة على سطح صقيل... ثم هسيس مسح الأصابع بخرقةٍ خشنةٍ وصوت ممانعة الهواء لها وهي ترمى قبل ارتطامها بنفس السطح.. انتظرت وهلةً ثم أبصرت الأسود يتغشّى الألوان جميعاً ويلفّها بظلمته، حارساً مكانيّاً للعيون الفضوليّة المتملّية أفقاً غبشيّاً بقّعته رذاذاتٌ ورديّةٌ لشفقٍ توارى قبل أن يبين! قفزت ملدوغةً، وفيقة! سارعت للاتصال بها قائلةً إنّ جنان خابرتها رافضةً العودة في الوقت الحاضر.

ـ رائع، حمداً لسلامتها، كريم. متى اتّصلت جنان؟ رحاب، ما بالك؟ كأنّ اتّصالها لم يكف!

بدت رنّة صوتها مليئةً بغبطةٍ صادقةٍ وارتياح انزياح همٍّ أناخ على إكليل القلب طويلاً...

ـ لا أدري يا وفيقة، أحسّ أنّ ثمة انخلاعاً صدع العمر وأنّ شيئاً ولّى وما عاد يرجع أبداً.

أتى الصوت بعيداً تائهاً باحثاً عمّا يميّز نبرته، حيادياً حتّى الرماد، يُسمع صرير تجرجره بين ذرّات الهواء، فانقبضت وفيقة بعدما خدش بمخالبه الخلفيّة مواضع لم تتبيّن أماكنها فهمست بتعاطفٍ صميميّ:

ـ لا تخضعي لأحاسيس مبهمةٍ قد لا يكون لها أساسٌ من الصحّة. ارتاحي الآن ثمّ سنتحدّث عن كلّ ذلك غداً. تمرّين عليّ أم أعرّج عليك؟

صمت رحاب هنيهةً، ودّت لو تستطيع وفيقة تهدئتها، لكن:

ـ لا أدري يا وفيقة، صدّقيني لست أدري. نسيت إخبارك، التقيت أدهماً...

طربت وفيقة وصاحت بمن حولها مقاطعةً رحاب:

ـ حدثت المعجزة وظهر المهدي أخيراً والتقى التي أمضى العمر بحثاً عنها حتّى وجدها... ثم تحولت إلى رحاب:

ـ كلّ هذه الأنباء السارّة ولا تزال الكآبة تكتنفك وتخوضين في وحول رمالك المتحرّكة كأنّما تخشين إطباقها عليك؟ تمنّيت أن تتخلّل كلامَك زغرودةٌ أو طيورٌ تتراقص على جرسها.. و... حدّثيني، هيا!

أحسّت أنّها قاطعتها فتمهّلت وعادت لتصغي. لكنّ رحاب التزمت صمتاً مبهماً.

ـ ما بالك يا رحاب؟ لا زلت أصغي...

ـ حسنٌ، كيف سيجعلني أرقص فرحاً وأغنّي طرباً وهو من رماني دون إنذارٍ فوق تلك الرمال التي أحسّ قولاً وفعلاً أنّها تسحبني إصبعاً إصبعاً؟ على أيّة حالٍ أردتُ أن تطمئنّي، وكما قلتِ غداً نتّفق على لقاء، لا زلتُ أنتظر أوبته فهو يبحث عنها ولم يعلم أنّها ظهرت!

لم تستطع وفيقة إخفاء حبورها رغم الأسى النازّ من خلايا جرس صديقتها:

ـ لا بأس، لمَ لا تأتيان غداً؟ نتناول الغداء معاً، أعدّ لكما ما تلتهمان أصابعكما معه. ولكن لا تأتي عابسةً كالحة، كفانا حزناً وكرباً، دعونا ياجماعة نضحك خمس دقائق وحسب كلّ سنة ونمضي الباقي في الحداد! ضحكت ثم تابعت:

ـ هل اتفقنا؟ بعد الثانية. اتفقنا؟

اضطرّت رحاب على الموافقة مرغمةً:

ـ حسنٌ، إلى الغد و...

قاطعتها وفيقة:

ـ اسمعي، حتّى ذلك الوقت لا تمضي ليلتك على تلك الهيئة التي أراها عبر الأسلاك.. قليلٌ من التفاؤل والمرح وستكون الأمور على ما يرام. تمام؟ لن يمضي ذلك الانتظار عبثاً يا حبيبتي، صدّقيني، ثقي بصديقتك القديمة التي تعرفك أكثر من خطوط راحتها. استحمّي وأعدّي عشاءً دسماً، يكون قد أتى ثم ستجدان متسعاً من الوقت للحديث و...

ـ كفاكِ أيّتها الثرثارة، سلّمي على كريم والأولاد، تصبحين على خير.

سارعت لوضع السماعة قبل أن تواصل وفيقة خفّة ظلها في وقتٍ لا تكاد تحتمل فيه نفسها. في كلامها الكثير من الصحّة، ربما أحملّ الأمور أكثر ممّا تحتمل. عليّ أن أريح نفسي من تلك الساعات التي كادت تدمّر عقلي قبل أن تزهق روحي. أأستطيع وروحي محاصَرة تكاد تختنق بانسداد آفاقها وانضغاط فضاءاتها؟ لا أستطيع مغالطة نفسي، انقبضت دمائي وكاد جريانها يتوقّف مرتين؛ حال التقيتُه وحال سمعت صوتها. أيعقل ذلك؟ كانت تموج بحثاً عنها وتمور توقاً للقائه وحالما وجدتها والتقته همدت، فقدت رغبة المغامرة وسبر مزيدٍ من أغوار الحياة والبحث عن شواطئ غير

مأهولةٍ لا تزال غاباتها بكراً ومجاهلها عذراء. كيف يحدث ذلك، كيف؟ أأبحث عبثاً عن موتي خلف اندفاعات الحياة؟ المسألة هكذا! وكأنّها استفاقت... تخرج عتاب شقيقتها في الدم والروح والنزوع الأكثر تطرّفاً للتمرد وتصعيد التحدّي وصولاً للاستفزاز الذي لا يتيح للخصم فرصةً ليفكر مرّةً أو اثنتين قبل أن تضغط سبابته على الزناد ويطلق. ومن ضباب الدخان الأزرق المتلاشي تظهر بقعة الدم الحمراء.. تتّسع وتتّسع حتى تملأ الأفق أمامه.. فيضحك في سرّه، لقد أحسنت صنيعاً، كلّ هذا الدم كان كفيلاً بإغراقي قبل أن أفكر بالفرار، وإن حاولت، فليس ثمة مفرٌّ من السيل الذي يهبط من السماوات ويجعل الأرضين تفيض.. طوفانٌ نوحيٌّ جديدٌ ماؤه الدم وليس ثمة من يعرف أنّ الخليقة كلّها مهدّدةٌ بالانقراض والفناء فيستعدّ لما ينقذ به السلالات التي عاشت عليها طويلاً دون أن ينسى نفسه وذريّته؛ ما من سفينٍ ولا قبطان وليس ثمة غربانٌ ولا يمام.. قحلٌ مضرّجٌ بنبيذٍ معتّقٍ تحت أفقٍ يشقّه أزرق فولاذيٌّ كشرارات برقٍ في ليلٍ مدلهمّ تتمطّى قبل أن تكشف سوءاتها المغموسة بالنجيع... يظهر العنق المجتثّ من الوريد إلى الوريد محزوزاً حتّى عظم الفقرات بحربةٍ عسكريّةٍ أعملت فيه تمزيقاً كساطور جزّارٍ مبتدئٍ حاول أن يتعلّم بأعناق الناس قبل أن يدخل المهنة في أوج شهرته ويتعامل مع أعناق المواشي، كفٌّ مغطّاةٌ بقفازاتٍ شفّافةٍ تنهض الرأس مع الجذع المائل كيلا يعاود الدم المستنفَد دفقه فيغطّي العينين قبل أن يمنع رؤية خلفيّة الحرائق والانفجارات المجنونة التي ترجّ الأرض لها وتتداعى المباني مدكوكةً دكّاً فوقها ورشقات الرصاص من كافة الأعيرة والأسلحة.. سيمفونيّةٌ خارقةٌ لجحيمٍ أرضيٍّ لم يتَح لأكثر الأنبياء عبقريّةً ولأشدّ الشعراء جموح خيالٍ أن يصوّره آخرةً يرهب البشر بها كيما يكسب ولاءهم. يرتفع الجذع أكثر فينسكب الثديان على شبكةٍ من الخطوط الزرقاء والحمراء والسوداء المتشابكة على نحوٍ يصعب فصله أو تبيان شكله، وقد اجتثّت حلمتاهما ليس من أصلهما إنّما من الهالة القاتمة التي كانت تحيط بهما فتبين

بوضوح الفوهات المقطوعة للأوعية الدمويّة وأنابيب دفع الحليب. تتمنّى أن ينتهي المشهد عند هذا الحد فيعرض الجسد بقيّته سالمةً من الأذى والعدوان، لكنّ أحداً لا يمهلكِ ولا يصغي إلى توسّلاتكِ بالتوقّف. تشارك الكفّ الأخرى غير الظاهرة في رفع الجذع العاري فيظهر البطن المبقور، خطّان متصالبان هبطا بعمق وقوةٍ من جانبي الأضلاع واتّجها نحو عظم الحوض الناتئ تحت الخاصرة المقابلة.. وتأكيداً لفاعليّة السلاح المستخدم في التقطيع الوحشيّ يمتد شقٌّ عميقٌ يمرّ من مركز التصالب، مبتداه عظم القصّ ومنتهاه العانة؛ كانت أشلاء الجنين تنتفض طلباً لدم توقفت المشيمة عن ضخّه ولُحمةٍ تعاود وصل ما تمزّق منه.. لا يغيب عن الحياة وتكاد تغيب عن الموت والوعي، ينسحب فتدور الدوائر مثلما هي الدنيا عليكِ لكنّ الرائحة الواخزة لا تُمهلك، تفسّخ الجسد المستباح باكراً فلا حاجة لحفظه لوداعه.. ما من أحدٍ يريد توديع ما بقي من عتاب أو ما كانته. اعتذارٌ من حياةٍ تُكره المرء على المطالبة بردّ اعتبار الانتماء إليها بصيغتها البشريّة بعد أن احتجّت حيوانات الغابة على إلصاق سمة الوحشيّة والافتراس بها قرينةً على فعل البشر المجنونين بسفاح الموتى ومواقعة الجثث. بقيت أنملات قليلةٌ قبل افتراق الجذع إلى ما كان يدعى الساقين؛ فوهةٌ سوداء لا يمكن لأكثر الناس خبرةً ودرايةً أن يعيّنوا الأداة أو الجذوة التي سبّبتها. تحت ذلك لا شيء سوى عظامٍ كُشطت العضلات عنها؛ فدرات لحمٍ وهنانات شحمٍ ورمات أعصابٍ وعروقٍ بعدما دخلت خلايا الجسد ونسجُه في النسيان، حتّى الكاحلان المتّصلان بقدمين عاريتين أوحى استمرار اكتسائهما بلحمٍ وجلدٍ غير مشوّهين بأنّهما انتعلتا حذاءً من لحمٍ بشريّ! في أيّ عصرٍ مجنونٍ حدث هذا كلّه؟ قبل التاريخ أم قبل الخليقة أم في عصر استحالات الكائنات البشريّة لجنسٍ جديدٍ لم يصنّف في سلّم تطوّر الأنواع ويسلسل في التاريخ الطبيعيّ، ولم يحظَ عالمٌ بيولوجيٌّ بشرف الحدس به أو توقّعه لينال شهرةً تفوق شهرة مؤلّف أصل الأنواع الذي ثبت ثبوتاً لا يقبل الشك خطل رأيه وسذاجته حين

أعلن بكل بساطةٍ أنّ الإنسان كائنٌ تطوّر عن أصلٍ حيوانيٍّ سبقه في فروع وأغصان شجرة الحياة التي عمّرت الأرض منذ ملياراتٍ أربعةٍ من الأعوام متعامياً، ومغفلاً أصوله الشيطانيّة التي ستستمرّ في نسله لملياراتٍ أربعةٍ أخرى مثلما احتاج تفوّقه على نفسه وحسب لعددها! تمتدّ الذراعان اللتان أنقذتا من المجزرة بمعجزةٍ خارقةٍ تتضرّعان طلباً للماء وشهيقاً كموتٍ لا يأتي وتضعضعاً على جنينٍ لم ينزلق إلى العالم على نحوٍ طبيعيّ وتتسوّلان رعاية الابنة التي شهدت ذلك كلّه دون أن تصاب بعدوى تمنّي الموت اتقاءً لمصيرٍ مشابهٍ لمصير أمّها!

الدليل الوحيد على عدم استغراق رحاب في غيبوبة الهروب من المشهد المتّقد وراء العينين ورغم الجفنين المطبقين ارتعاشاتٌ ارتكاسيّةٌ تبدأ من أصابع قدميها وتنتهي في رأسها وتعيد تبديد وإخماد مويجاتها على الطريق المعاكس انتظاراً لدفقةٍ حركيّةٍ جديدةٍ ودفعٍ يمنع النزع من الوصول لغايته النهائيّة؛ الموت! قرعت اللفظة جمجمتها وانطلقت تتصادم بالجدران وترجّها كزلزلةٍ أمسكت بها وما انفكّت.

قطيعة الزمن، مولّدات اتجاهات الهروب ونزوعات التخلّي. أتنتهي الحكاية هنا أم تواصل رحلة الإعادة والتكرار بغير توقّفٍ ودون نهاية؟ هل كانت تتشبّث بموتٍ قريبٍ لصق نبضها يتاخم الحياة من أجل الصغيرة؟ ثمة الكثير من البؤس يحيا به المرء، يعيش عليه ويتنفّس أوجاعه. لن يكترث أحدٌ إن أغمض المرء جفنيه عليه، لكنّ كثيرين سيقاومون بشراسةٍ لمجرّد إحساسهم باحتجاجه عليه خارج نفسه! أيمكن للمرء أن يتخفّف من أحماله إن لم يصرخ ويعلنها ويعلن احتجاجه عليها ورفضه لها؟ هل يتركها تتضخّم حتى تقضي عليه يوماً قهراً.. وصمتاً؟

هل كنت أؤجّل لحظة الموت من أجلها بعدما اخترقتني واحتلّت خلاياي واحدةً بعد الأخرى وكمنت تنتظر آن الانقضاض الذي لا تنفع معه مقاومةٌ ولا تجدي مواجهة؟ ما عادت تحتمل مزيداً من الضغوط، استنفدت

طاقاتها وعليها الآن أن تستجدي راحةً تواصل بعدها صداماته مع نفسها ومع الآخر. لكنّها خافت النوم مثلما يئست اليقظة، هالتها أحلامٌ ستحطّم ماتبقّى من استقرارها وتخلخل بقايا اتّزانها فنهضت متحاملةً وعملت بنصيحة وفيقة رغم ارتيابها بفائدتها. قضت وقتاً في مطبخها الذي افتقدت أدواته لمس يديها منذ البارحة... أنهت إعداد عشاءٍ معقولٍ ثمّ جهزت المنضدة وتنفّست بعمق. كانت وفيقة محقّةً! وبرهن خروجها من حمّامها نصف ساهمةٍ نصف متجدّدةٍ على صحّة تقديرات صديقتها. كادت تسأل إن كانت تعذّب نفسها تكفيراً عن ذنب ارتكبته دون وعي. لكنّها امتنعت عن التلفّظ بما دار في خلدها بطرفة عينٍ وتطلّعت إلى مرآتها وهي جالسةً على كرسيّها المنخفض وقد أنارت غرفتها بكلّ أضوائها كي لا تعيدها أجواء الظلال لأرضٍ مشجّرةٍ بالكينا والزيزفون ومغطاةٍ بأوراق الشجر والرمل الطحينيّ الخشن... تعبق خليطة الروائح مالئةً منخريها من غير ضغطٍ على رئتيها فتتلفّت بحثاً عن من يؤنس وحشتها، طائراً كان أم حيواناً أم ماءً جارياً أو حتّى ساكناً، وحين تفقد أمل الإمساك بما يحرّك فيها خوافق الروح، تدرك أنّها واقفةٌ على أرض النسيان وربّما.. ربّما يقعي تحت كلّ شبرٍ من التربة الليّنة لحدٌ لجميع الأحياء تدوسه قدماها أنّى اتّجهت وأيّان وقفت. خطر لها خاطرٌ غريبٌ: إن كان جوف الأرض حفرةً ضخمةً أو فراغاً هائلاً يتّسع لجميع من غابوا، فأين توالي جذور الأشجار رحلة بحثها عن الماء؟

لا تزال ترتدي ثوباً بلون البحر من قماشٍ قطنيٍّ أنعم من فرو أرنب، متّسع الكمّين رحب حلقة الرقبة، يختلف عن أيّ قميص آخر بطوله النسبيّ إذ يغطي كفليها وبدايات فخذيها. أرادت انتزاع المنشفة الملفوفة حول رأسها كعمامةٍ من ثلجٍ قطبيّ، وحالما ارتفعت كفّاها لتحلا عقدتها قُرِع الباب فأجفلت. ودّت رؤية شعرها الأسود ينحدر حوالي رأسها لترقب تغيّر ملامحها حال استقراره. أربكها حضوره المبكّر، إذ كان عليها استبدال ثيابها واستكمال زينتها الفقيرة والبسيطة، لن يمهلني، سأظهر كما أنا عاريةً كاشفةً نفسي دون أقنعةٍ ورتوش. نهضت متّجهةً صوب الصالة منتعلةً خفّاً يكتم

وقع خطواتها ثمّ فتحت الباب فتملأّها ولم يخفِ دهشته:

ـ ما الذي فعلته بنفسك؟

ابتسمت تلقائيّاً وقد اتّسعت مقلتاها دهشةً وردّت هامسةً:

ـ لا شيء، لا شيء البتّة، خرجتُ للتوّ من حمّامي ولم يسعفني الوقت لتغيير ثيابي. تفضّل ريثما أقوم بذلك.

أوسعت له مع كلماتها الأخيرة فدخل مغلِقاً بقامته مجال رؤيتها.

ـ اتصلت جنان، أليس كذلك؟

اشتدّ عجبها، ما الذي يحصل هذه الليلة؟ وقفت مشرئبّةً إلى عينيه سائلةً:

ـ من أخبرك بربّك؟

كأنّما لمحت ابتسامةً على شفتيه سرعان ما اختفت وهو يقول:

ـ لم يخبرني أحدٌ سواكِ.. بالمناسبة، أكنتِ تبتسمين أم خيّل لي ذلك؟ إن حصل ذلك فسأعتبره بداية اللقاء.

أجابت بنزقٍ وهي تخطر أمامه مخفيّةً وجهها المتضرّج:

ـ لا، خيّل لك ذلك!

سار وراءها، وحالما توسّطا الصالة التفتت إليه:

ـ اجلس قليلاً ريثما أستبدل ثوبي.

فأجابها متلهّفاً:

ـ انتظري دقيقةً، هل هي بخير؟ هل أعلمتك أين هي؟ ثمّ ما من داعٍ لتغيير ثوبك، تبدين جميلةً داخله رغم أنّه يظهرك أكبر حجماً مما أنتِ وتمنحك تلك العمامة طولاً يقاربني...

هبط بنظره إلى قدميها ماسحاً قامتها:

ـ حسناً فعلتِ بعدم احتذائك كعباً عالياً، كنت تجاوزتني طولاً!

لم تجد ما يُضحك في قوله.. صمتت قليلاً ثم أجابت:

ـ تقول إنّها بخير، تقيم عند أصدقاء أجهلهم ولا رغبة لها الآن في العودة.. تنتظر إلى أن تستعدّ لها!

ـ ها، وما قلتِ لها؟

ـ لا شيء، سألتُها أن تعتني بنفسها وتبقى على اتصالٍ بي.

ـ إذن لم تنسَ قسوة ما حدث؟

أجابت حزينةً وهي شاخصةٌ إليه:

ـ من المهيأ لفعل ذلك أو القادر، أقلّه في الوقت الحاضر؟

همّت بالمضيّ فأحاط عضديها بكفّيه السعفتين.. اعتصرها كيما يهمي رطبه داخلهما فتوقّفت.. وكذلك فعلت رئتاها وقلبها، شاخصةً دون نأمة. أنّت عضلاتها وتخدّرت أعصابها. منذ متى لم تلامسها كفٌّ ذكورية؟ كانت الخطوة الأولى والنقلة الضروريّة نحو عناقٍ محال! عليها ألاّ تتهاوى في غيبوبةٍ مشتهاةٍ فنيَ الدمُ انتظاراً لها.. عليها أن لا تخرج عن تخم الوعي فتشبثت به:

ـ لم تقل لي، هل قابلت مالكاً؟

لكنّ همسها لم يُجدِ، لم تكن تسأل بقدر ما كانت تحرّك شفتيها لتدّعي أنّ عقلها يعمل ويسأل ويتحرّك، فارِضاً رقابته الصارمة عليها، ضابطاً انفعالاتها المستعرة في أحشائها والهادرة قرب روحها. بدأت لعبةٌ ما كان لعقليهما فيها أيّ دور، كان الجسد يمارس وصايته كاملةً على الحواسّ ويعلن غضبته من حرمانٍ مديد!

راحت مقلتاه تسبران وعورة الأرض لإيجاد مواقع أقدام الخطوة التالية خشية انفجار لغمٍ منسيّ من عهد التكوين، من خلال مقياسٍ ترتعش إبرته فوق مقلتيها.. تراقص إنسانا عينيها وأومضا. حانت الخطوة التالية حين التقطت راحتاه رعدةً خفيّةً سرت تحتهما. أما هي، فقد ارتجفت، تراقص

قلبها وطار فراشةً اخترقت الأضلاع صوب نور مصباحه و..، لكنّها صمدت، لم يحن ذلك بعد، لا تستطيع تلبية نداء الجسد ما لم تدرك الروح لماذا هُجرت وجحدت فهامت تبحث عن سبب تخلّيه عنها! أمسكت مرفقيه بأصابع ثابتة وقالت:

ـ لازال الوقت مبكّراً، ثمة كثيرٌ ليقال وغامضٌ ليوضّح وشوطٌ ليقطع. علينا الانتظار!

تراخت قبضتاه سريعاً.. يعرفها، لا سبيل لثنيها عمّا تريد، أما كفاه أنّها لم تصدّه ولم تنفر منه؟ أسدل ذراعاً وضمّ كتفيها بالأخرى متسائلاً بقلق، هل ستسمح لي بالمبيت إذن؟ تحاشى إظهار انكساره وعطب إحباطه وهمس في أذنها:

ـ لازلتِ جميلةً!

لكنّها أصرّت:

ـ ليس هو المهم الآن!

ثمّ حاولت التملّص:

ـ ألم يقرصك الجوع بعد؟

فاستجاب لمحاولتها:

ـ رائع! أكاد أموت من الجوع... لنرى إن كنتِ لا تزالين طاهيةً ماهرة...

ـ مثلما كنت... مملكة أيّة ربّة بيتٍ مطبخُها، أمّا أنا فقد أسقطني رعاياي!

ـ إذن دعينا نختبر دعواكِ.

دفعها تجاه المائدة المعدّة بإتقان.

ـ انتظر، عليّ استبدال ثوبي.

لم يأبه لقولها... اعتصر كتفها ودفعها دفعاً للمائدة قائلاً:

ـ ما عاد ذلك مهماً، قُضي الأمر... حين أرى الطعام تعجز أيّة قوة عن إيقافي!

مع هذه التقلّبات المفاجئة انزاحت أثقالُها وتوقّفت عن ملاحقتها أشباحٌ عدت وراءها عاويةً بكلّ قواها على بعد نابٍ من ظهرها العاري إلاّ من ندوب السياط، أرادت أن تنساها لثانيةٍ ولتفعل بعدها ما تشاء. أظهرت استعداداً لمرحٍ لا يطول أكثر من هنيهةٍ تكفيها لاستعادة توازنها... جلست قبالته، لا تشرب عادةً لكنّها فتحت زجاجةً من نبيذٍ فرنسيٍّ قانٍ، وقام بإتراع كأسين من بلّورٍ برقّة تويجات زهرة بنفسجةٍ ثمّ رفع كأسه. تبلبل فكرها في محاولة أن تحزر النخب الذي سيقترحه.

ـ من أجل غدٍ يكون لنا معاً، تبقين فيه وعلةً فتيّةً لا تعرف غير فضاء غاباتها وأصقاعها الجليديّة المترامية...

رشفت رشفةً صغيرة، تخضّبت شفتاها ولفّ السائل اللاذع جوف فمها، وحالما انساب السائل السحريّ وجال في معدتها أحسّته يرتدّ فيتصاعد من وجهها ويضرّجه بوهجٍ أزاح شحوبه. تلمّست بلسانها باطن فمها وميّزت برأسه تفاصيله فأحسّت زفيف أفراخٍ في داخلها تنتظر أمّها لترمي نفسها في فضاءٍ مجهول. لمحت كأسه وقد أفرغت جرعتُه نصفها. يشرب كمن يشرب الماء، لا ريب أنّ عشر زجاجاتٍ لن تصيبه حتّى بالنعاس. جرعت جرعةً ملأت فمها وأحسّت بخرها يعبر فوهتي أنفها ويلذع باطن جفنيها، تورّد خدّاها وحاكيا لون السائل الذي شاركها دمها. يحكي عن غدٍ! كيف أفهمه أنّ غدي الوحيد المتبقي ليس سوى جنان العاقّة الجاحدة ناكرة الجميل؟ أمّا غده، فليس معزولاً عن جذرٍ يربطه بماضٍ كان يُفترض أن يصير إلى غدٍ مختلفٍ عن مطالبه وإعلانه الحاليّ!

كان يحدّق فيها ويمناه تمسك الزجاجة وقد مالت عنقها على كأسه الفارغة... تحرّكت مقلتاها صعوداً وهبوطاً بين كأسه وعينيه ثمّ جرعت بقيّة كأسها، أحسّت ناراً هادئةً تدغدغ بلعومها وتقرقر غاليةً في معدتها، ترشق

شررها على جدرانٍ تعجن ما بداخلها بحركةٍ دؤوب. اندفعت يدها لتضع الكأس بقوّةٍ كادت تحطّمه قرب كأسه المنتظر، حسبت أنّه ينظر شزراً إليها فحدجته غاضبةً وقد رأته يملأ نصف كأسها ثم يترع كأسه.

- املأها! قالت آمرةً، فلامها بصوتٍ حنونٍ غريبٍ عن طبعه وخلقه:

- أحسب ذلك كافياً، لا تشربين عادةً!

فأجابت مستفزّةً:

- وما الفارق؟ ثم ما دخلك أنت؟

أحسّت خدراً يتسلّق متمهّلاً فيحيط شفتيها ويغزوهما وناراً تشتعل في صدغيها وشمساً تكوي وجهها. ملأ كأسها وقدّمها:

- حسنٌ، كما تشائين، كلي بضع لقماتٍ واشربي على مهلٍ أرجوك!

فكّرت أن تقترح نخباً، احتارت ولم تدرِ كيف ومن أين واتتها الفكرة:

- ليومٍ ينتظره عاشقان عرساً ويكون حداداً. لا، أقصد فلا يكون حداداً...

رشفت ملء فمها ووضعت الكأس أمامها ورأسُها بين كفّيها تتفحّصه وهو يأكل وقد فقد مرَحاً ابتدأ به جلسته. ابتلّت عروقها ونضح عرقٌ تلألأ على جبهتها وسال على عنقها، أحسّته ينحدر بين ثدييها ويحفر مجاريه هابطاً تحت إبطيها حتى خاصرتيها... دخلت بوماتها أعشاشها وزحفت أفاعيها نحو أوكارها، زقزقت عصافير من غير أن تبصر تباشير الفجر، رأته يستحيل زرافةً تحني عنقها لتناول أعشاب الأرض بدل أن تتطاول لتقطف برؤوس شفاهها الأوراق الغضّة، رأته جالساً على مؤخرته وقائمتاه الأماميّتان متّكئتان أمامه وقرنان صغيران يبرزان أكثر كلّما حنى رأسه ليلقم لقمةً وقد استحالت سمرته خطوطاً بنّيةً على أدمةٍ شهباء. لم تستطع كتمان ضحكتها فانطلقت بصخبٍ أجفلها، تلفّتت حواليها بحثاً عمّن يشاركهما الطعام. رمقها مستغرباً:

ـ رحاب، كُلي قليلاً، لم تشربي منذ زمن طويل؟

أومأت برأسها أن نعم ولم تستطع إيقاف ضحكتها.

ـ تخيّل أنّك زرافة، وتأكل مثل البشر!

فهقهت موهمةً نفسها بوجود ما يضحك.. لكنّ أدهماً لم يضحك بل تابع تناول طعامه صامتاً رانياً إليها بين حينٍ وحين. فاضت أوجاعها وصار لزاماً عليها أن تخترع ما يجعلها تطفو فوقها قبل أن تغرقها وتفرط في خنق روحها الموءودة، توقّفت عن محاولات قيامها بدور المهرّج، أكلت بصمتٍ وما عادت تقرب كأسها إلى أن سألته:

ـ تحدث عن النساء اللواتي عشقتهن طوال تلك السنوات.

آنها عادت لارتشاف كأسها على مهل.. أشعل سيجارةً وقدم لها واحدةً رفضتها بإشارة من أصابعها المحيطة بالكأس وقد أسندت مرفقيها إلى المائدة وراحت ترقبه عبر كأسها كأنّما تخفي عينيها أو تشاهد وجهه مشوّهاً ومشوباً بشفق السائل المنعكس على قسماته. تأمّلها طويلاً، أمست تبحث عن شجارٍ يسهّل عليها استفزازي لكنّني لن أمتّعها بذلك. دعها إذن ترضي نفسها بممارسة دور المحقّق. أجابها غير مبالٍ ومن غير أن يرفع بصره عن وجهها المختبئ وراء الكأس المتناقصة:

ـ لم أعشق أيّة واحدة!

اندفعت محتدّةً وقد توتّرت على حين غرة:

ـ تكذب، ولا واحدة صحيح، لأنّني أجزم أنّهنّ كثيرات!

ابتدأت، لن تمرّ هذه الليلة على خير، عليك أن تحتال لتجد طريقةً تجعلها تأوي باكراً لسريرها وفي الغد ستصبح الأمور أفضل:

ـ لقد صدقتك القول، لم أعشق واحدةً، لن يبدّل تصديقك أو تكذيبك تلك الحقيقة... لكنّ هذا ـ وكيما ترتاحي ـ لا يعني أنّني لم أعاشر أيّة امرأة!

ـ لا أقصد أولاء، أقصد واحدةً بعينها عشقتَها لذاتها وليس إشباعاً لشهواتك!

أكّد بهدوء:

ـ قلت لك ولا واحدة، ثمّ دعينا من ذلك الحديث، لمَ تسعين لتكدير نفسك؟

أفرغت حثالة كأسها وقدّمتها له فلوّح بالزجاجة الفارغة. قامت متثاقلةً واتّجهت نحو المطبخ متهاديةً، ترمي جسدها رمياً فيرتج كفلاها ويتطوّح ذراعاها كأنّها تعوم في الماء.

لماذا لا أغادر الآن وأنهي الأمسية دون إزعاج؟ ويلك ما تقول، لئن فعلتها لترجمنّك بالحجارة هذه المرة. دخلتْ تؤرجِح بيسراها زجاجةً أمسكت عنقها بين سبابتها ووسطاها كسكّيرةٍ أصيلة... مشهدٌ رأته في فيلم فعلق ذاكرتها وشخّصته في لحظةٍ غائمة. وقفت وراءه، أحاطت عنقه بذراعيها ولوّحت بالزجاجة تحت ذقنه:

ـ هل نشرب نخب عاشق النساء؟

بدأ يضيق ذرعاً فنهرها بلين:

ـ ليست رحاب التي تتصرّف على هذا النحو!

أطربتها الجملة فضحكت:

ـ ما الذي بقي من رحاب؟ طبعاً ليست هي، هل أبقيت أنت لها شيئاً لتكونه؟ أما كفى أنّ الزمن جار عليها فتجور أنت؟

أطلق قليلٌ من النبيذ لسانَها من عقاله، فكم سيستخرج من تحت أنقاضها؟

ـ أراك صمتّ، ألا تجيب؟

وقف، راح يجمع بقايا المائدة قائلاً:

ـ دعينا نُزِل بقايانا أوّلاً وبعدها نتابع حديثنا.

لكنّها وقفت وراءه معيقةً حركته:

ـ أما زلنا نملك بقايانا؟

نجحت باستفزازه، تحفّزت حواسّه ومع ذلك تمالك نفسه:

ـ أرجوك يا رحاب... دعيني أنجز عملي، ليتك تستلقين دقائق على سريرك. سأعود إليك حالما أنتهي وأستطيع...

وأخيراً أتت الصحوة، أكنتَ بحاجةٍ لكلّ تلك الثرثرة كي تصل مبتغاك وتوصلني إليه؟ قلها من البداية وأرحني... قلها وأرحني. تركت الزجاجة تسقط بعنفٍ على الأرض وراحت تصرخ كمجنونة:

ـ اخرج من بيتي.. اخرج من مدينتي.. اخرج.. اخرج..

كانت كمن أصابه مسٌّ فلا تدري أهو الشراب الذي أودى بعقلها أم الضغوط التي أطبقت عليها منذ سنواتٍ وحاولت التخلّص منها فأخفقت أيما إخفاق، أم اغتمامها من الحياة وعزوفها عنها بعدما أبت أن تقدّم لها أيّة مسرّةٍ رغم وعودٍ أطلقتها جزافاً؟ فكّر أدهم بكلّ ذلك وهو يطوّقها بقوّةٍ ويمتصّ انتفاضات بدنها بساعديه إلى أن تخامدت حركتُها رويداً رويداً وارتفع نشيجها. راحت تجهش فوق صدره مدمّاةً مفجوعةً محتضِرة.. بكت كما لم تبكِ يوماً.. بكتهم جميعاً أكثر ممّا بكت نفسها.. رثت حالها فيهم فهمت دموعها على كل ما حسبتها عنه. حاذرت تلك الديمةُ طويلاً تقلّبات الطقس وحفظت ماءها ففاض بها وطفح فهتنته رغماً عنها. أرهقها ماكابدته فعادت طفلةً صغيرة ترنو بعد كلّ ذلك لصدر أمّها الحاني، تزرع فيه دمعها وتستمدّ منه ما يجدّده. مشيا الهوينى.. ما كانت ترى ولا تسمع ولا تحسّ، فتح باباً فملأ شذاها رئتيه وقال غرفتها! أدخلها، جلسا على حافّة السرير متعانقيْن. كان يسندها بينما تشبثت به بقوّة من يخاف أن يُترَك وحيداً... رفع وجهها، تأمّل أخاديد سيول دمعها. ما كنت أخالُها ضعيفةً إلى هذا

الحدّ! كم يغيّر الزمن! تراني تغيّرت كذلك، انقلبتُ على نفسي دون أن أدري؟ وهل سيأتي من يقول لي أو لنفسه، كم تغيرت؟

رآها كما لم يرها من قبل، طازجةً يانعةً عبرت مطهرها واستعدّت لدخول فردوسها الذي تحملت عذاب الجحيم لتصل إليه. أثمة خطوةٌ ثانية؟ صرخت كلّ خليّةٍ في جسده باسمها ونادتها لكنها لم تأتِ ولم يغفر لنفسه اضطراره لاحترام رغبتها. انتزع المرأة الناضجة من مقلتيه واستبدلها بطفلةٍ تحتاج رعايةً وحناناً ومواساة، مدّدها على سريرها بعدما انتزع ملاءته الرقيقة وغطّاها بأوراق زيتونٍ غسلها مطرٌ ولم تجفّفها شمسٌ ولا ريح. داخله القنوط وقد رآها تفزع لأحلامها بعدما استهلكتها أوهامها واستنفذت عصارات حياتها. لم تغفر لي وربما لن تغفر! لكنّ الطفل يستيقظ ناسياً ما ألجأه لنومٍ في غير موعده، فهل تنسى؟ أحسّ مهانة تداعيه وترك قلبه مشروخاً تحت وسادتها. هل عدتُ عبثاً؟ هل سأبقى كيلا تبقى عودتي عبثاً؟ أأمضي مرّةً أخرى لتكون كذلك؟ نوءٌ شديدٌ جعل وجهتَه مبهمةً في طقسٍ لم يعتده فاستنكر؛ أيعقل أنّهم نجحوا في إدخالي تيهاً احترستُ دوماً منه، أم أنّ مدارهم اقتنصني أخيراً ورحت أدور فيه مسبّحاً بمجد الكوكب الذي جذبتني قواه إلى فلكه في نهاية المطاف؟

تلألأت جبهتُها بلؤلؤٍ قصير العمر تجمّع في عقدة حاجبيها رغم ابتسامةٍ لاحت غائمةً كأنّها منسيّةٌ من زمنٍ موغِلٍ في القدم فوق شفتيها. أكانت ترحيباً.. أم أنّها وداع؟

شظايا

حالما أنهى اتّصاله مع فريال تراخى فاتك على مقعده الوثير وأشعل سيجاراً ضخماً. طُرق الباب ودخل شابٌّ رخوٌ يتمايل وبيده صحفةٌ عليها فنجان قهوةٍ وكأس ماء، وضعها صامتاً وانحنى انحناءةً ليّنةً ثم مضى دون أن ينبس بحرف. ابتسم فاتك، لقد ضبطتُهم كساعاتٍ دقيقةٍ فباتوا يعرفون رغباتي قبل أن أنطق بها. نفث ضبابةً ضخمةً.. تأمّلها، ما الذي بقي عليّ اليوم؟ تذكّر موعداً عليه اللحاق به؛ نصف سهرة لهوٍ ونصف جلسة عملٍ سيحقّق فيها ضربةً مع بضعة تجّارٍ يريدون توريد صفقة أغذيةٍ تحتكر السوق لحسابهم وسيعمل هو على إغراق منافسيهم أو إحراقهم إن لزم الأمر وتأمين تسهيلاتٍ تتعلّق بعملهم لقاء نسبةٍ مئويّةٍ وعمولةٍ كبيرتين. بات يكره لقاءاتٍ كتلك يضطرّ أثناءها للتصاغر أمامهم والانحناء لسطوة المال، صحيحٌ أنّه يملك الكثير ولو أنّه لا يحسن استثماره وتنميته فيضطر للاعتماد على شركاء يحسنون فعل ذلك. في البداية يتزلّفونه ويتملّقونه بما يرضي غروره، يتطامنون ليشعروه بسيادته، يحقّقون مصالحهم ويدفعون ثمن خدماته مضاعفاً؛ خدماتٍ تصل لحدود تسخير جهازه لتأمين أعمالهم وإنجازها، ثمّ شيئاً فشيئاً يبدأ بالتبسّط معهم، ومع انسكاب مزيدٍ من الأموال في حساباته المصرفيّة الخارجيّة يبدأون بالتطاول حتى يشعر أنّهم أنداد فيقبل صاغراً إلى أن تتحوّل طلبات بعضهم إلى أوامر يملونها وما عليه إلاّ تنفيذها بغير نقاش. يحتمل فترةً ثم يطفح الكيل به فيهيّئ أحدهم للذبح كبش فداءٍ في محرقةٍ تروّعهم

جميعاً فيعودون كسالف عهدهم... ليعيدوا الكرّة من جديد. يودّ لو يستطيع ممارسة سطوة سلطته متضافرةً مع سطوة ماله، لكن أنّى له ذلك؟ فلئن تصلّب أكثر واستمرّ بمعاملتهم كخدمٍ وعبيدٍ لانقلبوا ضدّه وتحالفوا مع غيره جاعلينهم شركاء يؤلّبونهم عليه فيضعف مركز قوّته ويضطرّ للصراع على أكثر من جبهةٍ ولا يكون أمامه إلاّ التفرّغ للبعض للقضاء على بعضٍ آخر. لايزال الوقت مبكّراً ليمحو آثارهم، تجّار البضائع الفاسدة أولئك المتاجرون بقوت الشعب ومحتكروه.. الأدوات المحلّية المباشرة لتنفيذ مؤامرةٍ خارجيّةٍ تسعى لتدمير مقدرات الشعب والوطن ولن يطول الوقت حتى يضربهم بيدٍ من حديد. قبل ذلك عليه استنزافُهم أكثرَ وأكثرَ حتى تأتي الضربة متزامنةً مع الاستيلاء على أكبر قدرٍ من مدّخراتهم. متى بدأ ذلك وكيف؟ يداهمه انقباض من لم يثأر لنفسه من مهانةٍ لحقت به، تتسلّق الركامَ الناتجَ عن هجماتها الهمجية قامةٌ عملاقة.. فتىً يافعٌ لم يطر شاربه بعد، لكن من يبصره يحسبه ملاكماً بالغاً محترفاً. كذلك كان هو في البدايات، إذ لم تثقل كتفه نجومٌ تهبها السماء قدَرَ الهيمنة والسيطرة على من دونها رغم أنّ حمله الجبروت وعنفوان الاستيلاء على مقدّرات الناس دفعاه للتطلّع لأعلى المراتب. ومثلما كان يدير بعنايةٍ ودقّةٍ آليات الصراع والتنافس بين زملائه مستفيداً من تناقضاتهم ليضرب بعضهم بالبعض الآخر متّخذاً دور الحكَم الذي سيصغي الجميع إليه ويأتمرون بأمره، ويحيك المؤامرات الرخيصة للإيقاع بمن يتمرّد عليه ولا يذعن له فيزيحه من منصبه أو من الوجود، مثلما كان يفعل ذلك كلّه كان يحاول أيضاً أن يمدّ خيوطه ليقيم تحالفاتٍ مع أصحاب رؤوس المال وعليّة القوم المبهوتين أمام همجيةٍ اكتسحتهم وتركتهم مالكين بغير قرار. كان أبو أدهم أوّلهم باعتباره جاراً وقاصداً يتوسّل تأمين موقعٍ مريحٍ لأخيه في خدمته الإلزاميّة. تطوّرت الأمور رويداً رويداً حتّى أتاه يوماً بمشروعٍ مغرٍ؛ منطقة سكنهم خاضعةٌ لإعادة التنظيم، والفكرة بسيطةٌ، يشترون بيوتاً عتيقةً بأثمان بخسةٍ ويبيعونها أراضٍ بأعلى الأسعار بُعَيد إعلان

مخطّطات التنظيم أو يقومون حتّى بتعهّدات إنشاء الأبنية الحديثة على أنقاض القديمة ويحقّقون كذلك أرباحاً خياليّة، خاصّةً إن استطاع فاتك تأمين مستلزماتٍ ضروريّة تخفض التكاليف! كانت الفكرة مغريةً لفاتك إذ سترفعه، إن تحقّقت، من الصفر إلى مرتبةٍ يستطيع خلالها وبضربات معلّم أن يتسلّق الريح. لم تكن صفقات تهريب البضائع والسيّارات والأسلحة والمخدّرات وسرقتها ثم إعادة بيعها قد ظهرت بعد، كان عليه انتظار وقتٍ سيطول قبل أن تسهل الأمور عليه ويحسن إدارة عمليّاتها بصورةٍ تحقّق له أكبر المكاسب، لكنّه وضع قدماً على الدرب. لم يوافقه أبو أدهم في البداية على أساليبه في إكراه الناس على بيع بيوتهم أو التخلّي عن حقوقهم كمستأجرين، فهم جيرانه وناسه. أمره أن يتمهّل قليلاً، لكنّ هجوم منافسين آخرين وعرضهم إغراءاتٍ تدفع الناس للتخلّي عن تمسّكهم بانتمائهم لمكانٍ ولدوا وعاشوا فيه وأضحوا جزءاً منه دفعه لأن يقترح عليه استخدام وسائل تكرّه الناس ببيوتهم وتجعلهم يتنكّرون لها ويتمنّون خلاصاً منها. كان الخبيث يعرف ما يوجعهم فبدأ بالتدريج.. أكثر ما أرّقه بيتٌ ضخمٌ مؤجّرٌ لأسر عديدةٍ، كان مجرّد الاستيلاء عليه، بحكم توسّط موقعه، يعني هدم ما حوله، وعليه ركّز جهوده. لم يعدم وسيلةً، من تخريب خدمات شبكة المياه الصالحة للشرب والمجاري والكهرباء إلى رمي الأقذار ومراكمتها قرب مدخله وعلى درب الوصول إليه إلى نشر حرّاسٍ سكارى ليعاكسوا الفتيات من غير قدرةٍ على ردعهم أو إيقافهم عند حدّ. ومع ذلك صمد السكّان، كانوا مُكرَهين فليس ثمة بيوتٌ يحتملون أجرها إلا الطرقات.

يضحك دون إرادة، لكنّ الشيطان المسمى أبا أدهم أوحى إليك بفكرةٍ جهنميّةٍ حين طلب منك أن تُحضِر مستأجرين لغرفةٍ أو غرفتين خاليتين. قال بوضوحٍ: مومسات مع قوّاديهنّ و... زبائنهنّ! اللعين، كأنّما كان يخبّئ الفكرة لأيّام الضيق فلم يطلقها إلاّ حين أعلمته أنّ منافسيه يعملون بدأبٍ للوصول قبلنا. وصلن؛ ثلاث عاهراتٍ لا يخبّئن مهنتهنّ، اتّفقن على السعر

ودفعن بعد معاينة المكان. غبنَ وقتاً وعدنَ بصحبة رجلٍ كثور مخصيٍّ يرافق عربة نقلٍ ضخمة، أنزل الحمّالون الأثاث المتميّز وقامت قائمة سكّان البيت والحيّ، لكنّ سورات غضبهم لم تتحوّل أبداً لفعلٍ مجدٍ. قامر أبو أدهم بكلّ شيءٍ لدفعهم للفرار بتلك الطريقة، تحوّل البيت لماخورٍ فعليّ بحيث ما عاد المرء يميّز بين عاهراته ونسائه. سرعان ما أبدى ضيقه تجاه تأخّر نتائج فعلته إذ كانت الحالة تناقض عاداته وتقاليده وظاهر أخلاقه، لكنّه ارتضاها ليحقّق مآربه وحسب، وحين وجد أنّ الاستجابة الحقيقيّة لم تظهر غسل يديه أمامك طالباً منك ممارسة وسائلك مقرّاً بفشل وسائله. كنتَ تنتظر ذلك.. تفحّصتَ سكّان البيوت الصغيرة الملاصقة للبيت الكبير واخترتَ بيتاً تقطنه أسرةٌ مؤلفة من أبٍ كبير السنّ يعمل في معمل نسيجٍ ضخمٍ في ضاحية المدينة الشماليّة.. يخرج صباحاً ولا يعود إلاّ في المساء. لديه ثلاث فتياتٍ وصبيٌّ وزوجةٌ هرِمةٌ بسيطةٌ للغاية.. تردّدتَ في البداية فهم قادمون من قريةٍ تجاور قريتك وهم بذلك محسوبون عليك ولا يحقّ لك، أو هذا ما يُفترَض، أن تؤذيهم. حاولت التقرّب منهم ودفعت زوجتك لمساعدتك رغم معارضتها، إذ اعتبرتهم أدنى من مستواها، وإن كان لقاؤهم أمراً لابدّ منه بحكم الجيرة والانتماء لمنطقةٍ واحدة وشراكة الغربة، فعليهم هم أن يقوموا بزيارتها... أرغمتها على زيارتهم ومع ذلك تنكّروا لكما، حتّى الصبيّ أظهر عداءً شديداً نحوك! احتمِلوا إذن أيّها الجاحدون! أمرتَ أحد عناصرك أن يحمل زوجته وأطفاله وعفش بيته في شاحنةٍ وينزلهم أمام البيت ترافقه سيارةٌ محشوّةٌ بالعناصر... دخلوا البيت وأفرغوه من كلّ محتوياته ورموها خارجه بين صراخ ونواح النسوة والفتيات فتجمّع الجيران ولم يجرؤ أحد على طرح السؤال: لماذا؟ خلال دقائق رُميتْ أسرةٌ بكاملها ومحتويات عمرها على رصيف الشارع ودخلت أسرةٌ أخرى حوليّات البيت الصامت. أرغى التاجر المحترَم وأزبد معلناً رفضه لأسلوب رمي الأطفال والنسوة في الشارع فأجبتَه ضاحكاً:

ـ وماذا تفعل يا طيّب القلب، ألن ترمي كلّ من ستشتري منه بيتَه في الشوارع؟ هل ستشتري لهم منازل أخرى أم تقدّمها هبةً لوجه الله؟

أجاب محتداً:

ـ ليس بهذه الطريقة المتوحّشة!

ـ النتيجة واحدةٌ يا عمّنا أبا أدهم... صدّقني، في كل الحالات لن تؤويهم إلاّ الطرقات.

ـ ومع ذلك لا تجوز تلك الطريقة، الله لا يرضاها... فكيف رضيتَها وهم من أهل منطقتك؟

ـ هل ترى؟ أهالي منطقتي ولم أنزعج مثل انزعاجك. سترى الآن أنّ أحداً لن يعارض... سيقبلون بأيِّ مبلغٍ تعرضه كيلا يتعرضوا لحالةٍ مزريةٍ مشابهة.

صمت العجوز أخيراً لكنّ السيّد أدهم ابنه لم يسكت، أكثر من ذلك حاول ضربك بعد ملاسنةٍ حادّةٍ مهدداً بقتلك وترميل زوجتك وتيتيم أطفالك.. كان بمقدورك الردّ عليه سريعاً وإعطاؤه درساً لا ينساه برميه حطاماً للجرذان في تابوتٍ محكَم الإغلاق لن تفلت روحه من أيّ شقٍّ فيه مهما حاول أو حاولت... فيستمرّ لا هو حيٌّ فيعيش ولا هو ميتٌ فيفنى. لكنّك اضطررت لإكرام أبيه فعفوت عنه.. رغم استهانته بك وبما تمثّله، ودفع زوجتك لاتّهامك بالجبن. لم يكتف اللعين بذلك، فقد أحرق منزلك بمن فيه ثم قام بدور البطل فأنقذ قصياً ابنك الذي كان يتماثل للشفاء من شلله الجزئي، فأصابته الصدمة بانتكاسةٍ لم يُجدِ معها بعد ذلك أيّ علاجٍ وحمل تشوّهه ما بقي حيّاً. وهاهو رغم كلّ ما يتوفر له ويستطيعه يعاني مهانة إشفاق الناس عليه وقد تحوّلت لمقتٍ وضغينةٍ تلبّستا سوء طبعه وشراسة خلقه. كم كان وديعاً في طفولته وكم تطرّف الآن في جبروته وقسوته! ابن أبيه! لن يكون خيراً منك، ومثلما تُبهجُك رؤية الدم وسماع أصوات الصراخ

والأنين فتقوم على خلفيّتها بتناول طعامك وشرابك وربّما مضاجعة إحداهن على وقع النزيف والتأوّهات، يبتهج مثلك ولو أنّه تفوّق عليك كثيراً حتّى تكاد تحس أنّك حَمَلٌ تجاهه.

فُتح الباب فجأةً دون قرعٍ أو استئذان، لكنّ فاتكاً ظلّ يتفحّص مجموعة الأوراق المرميّة أمامه بحرصٍ رغم شروده وغوصه في ذاكرته القريبة والبعيدة ولم يرفع رأسه عنها. لابدّ أنّه قصي، إذ لا يجرؤ أيٌّ غيره على الدخول عليه بتلك الطريقة. كم حاول إفهامه بالحسنى أو بالقسر ألاّ يفعل ذلك، دون فائدة. عنيدٌ أكثر من أبيه، أضيق أفقاً وأقصر نظراً وأشدّ قسوةً وأعتى تسلّطاً. كان الأميرَ غير المنازَع في المملكة وكانوا يخشونه أكثر من أبيه. حتّى مرافقوه الذين يُفترض به أن يكون ليّناً معهم يرتجفون لسماع صوته... ورغم إغداقه عليهم بغير حساب، فهو لا يتسامح مع هفواتهم ويجعل من المخطئ أمثولةً لغيره. يخال الناسَ جميعاً بمن فيهم أباه مجرّد حيواناتٍ يملكها وعليها أن تطيعه وتلبّي رغائبه أياً كانت.

ـ نعم سيّد فاتك؟

قالها فاتك ساخراً وهو يرسم ملامح تعجّبٍ على وجهه. بات يخشاه هو الآخر، لكنّ الأخير لم يأبه به:

ـ لم أصره بعد، لكنّني سأفعل قريباً، ظننتُك مضيتَ فجئتُ لقضاء أشغالك!

ـ ألا تستطيع فعل ذلك في مكتبك؟

ـ لا، فأنت تعلم أنّه مشغولٌ دوماً!

ـ إذن تحتلّ مكاني؟

ـ لم لا؟ ألن يؤول لي يوماً ما؟

وربّما كان القبر مكانَك أيّها المغرور الكبير! طبعاً سيقول ذلك، فهو لم

يتعب بشيء، فتح عينيه فوجد كلّ شيءٍ جاهزاً وما عاد يدرك أهميّة الحفاظ عليه وعدم التفريط به. لكنّه سيتعلّم يوماً كيف يمسك عصاه من الوسط، ومتى يشدّ الشعرة ومتى يرخيها!

ـ أفهم أنّك تطالبني بالرحيل؟

ـ لا، أُخبركَ أنّ موعدك قد حان!

دهش فاتك، فموعده سرّيٌّ للغاية ويُفترَض ألاّ يعرف به إلاّ مدير مكتبه. النذل أصبح عيناً عليّ! لم لا إن كان فوق رأسه وحشٌ مثل قصي؟

ـ حسنٌ، سأمضي ولكنّني أطالبك للمرّة الأخيرة بأن تلزَم حدودك، معي على أقلّ تقدير!

لم تجب الآلة التي تحمل اسم إنسان، فقد تعلّم أن يفعل أكثر ممّا يقول، وهاهو يفعل، يتقدّم نحو طرف المكتب ويقرع جرساً، ينفتح الباب إثره وتضرب الأرضَ قدمٌ ضخمةٌ بقوّةٍ ترجّها.

ـ جهّزوا السيّارات، سيذهب المعلم.

المنحطّ، يطردني فعلاً! أحَسِبَ أنّه سيّد المكان حقّاً؟ آن أوان تلقينه درساً يذكّره بموضعه وحجمه. لكنّك بتّ تخاف ذلك، لأنّك تهاب من اكتشاف عقوق ابنك وانقلابه عليك بعدما جنّد كلّ مساعديك وحراسك لخدمة أغراضه بحيث أصبحوا يتذمّرون منك وربّما يتنكّرون لوجودك! لن يطول الوقت حتى يحتلّ مكاني فعلاً وليس قولاً. قام على مهلٍ، ارتدى سترته المعلّقة على مشجبٍ قريبٍ ورمى قصياً بنظرةٍ شزراء:

ـ لا تتصرف بحماقة!

تصنّع قصي صمماً وخاطب السائق:

ـ هيّا انطلق، ألم تسمع؟

أتت الخبطة من جديدٍ لساناً يعلِن الامتثال.

بعد خروج فاتك، أوقفه طبيبٌ أخصائيٌ وقدّم له مغلّفاً بنّياً يحوي بضع أوراق.

ـ كيف حالته؟

أجاب الطبيب متجهّماً:

ـ ميؤوسٌ منها!

ـ ما قصدك؟ سأل فاتك دهِشاً فأجاب الطبيب:

ـ ورمٌ خبيث، وقد قصّر التعذيب عمرَه المتاحَ من أشهرٍ إلى أيّامٍ وربّما ساعات!

صاح فاتك يائساً:

ـ هل أنت متأكّد؟ أتظنّه عارفاً أم أنّ الأمر سيفاجئه؟

لكنّ الطبيب حافظ على هدوئه:

ـ دون شكّ، كلّ شيءٍ مثبَتٌ في التقارير التي بيدكم، لا ريب أنّه يعرف، لا يمكن للإصابة أن تصل لهذا الحدّ دون علمه.

عاد مندفعاً إلى مكتبه.. دفع بابَه وقفز نحو مقعده الذي احتلّه قصي وهو يتطلّع إلى النافذة كمن يترقّب شيئاً أو شخصاً. دفعه فاتك دفعةً كادت توقعه ثمّ أمسك سمّاعة الهاتف وطلب رقماً لمحه في واحدةٍ من الأوراق كان يطالعها منذ قليل. انتظر برهةً ثم قال:

ـ اسمعي، أخوك عنده سرطانٌ في عموده الفقري، لقد أنكرتِهِ فجر اليوم. سأسألك الآن، إن كان الأمر يهمّك، هل من رأيتِه اليوم أدهم أم شخصٌ آخر؟

صرخت من الطرف الآخر:

ـ لا أعرفه.. لا أعرفه.. لا أعرفه!

أطبق السمّاعة على صراخها فقد تحقّق مراده وهاهو ينطلق مرحاً نحو لقائه الذي ربّما أعقبته لذائذ شتّى أرادها استثنائيّةً الليلة لم يعرفها أحدٌ قبله ولن يعرفها أحدٌ بعده...

ستركعين تحت قدميّ وستعرضين جسدك وتتضرعين كيما أعيده لك.. أو لمجرد السماح برؤيته. لن يطول تنكّرك فقد انتزعتُ جفنيك للتوّ؛ لا الكرى سيأتي ولا العتمة. ستزحفين زحفاً وتصلين معفّرةً فاقدةً كلّ رجاء، طالبةً الرحمة والغفران وحسن الختام!

لم ينتظر قصي التأكّد من رحيل أبيه وقرع جرساً سرّياً، فأتاه على عجلٍ أحد مرافقيه الخصوصيّين؛ شخصٌ عجائبيٌّ لا يُعرَف لأيّ جنسٍ ينتمي، عملاقٌ يتجاوز المترين ولا يدخل الباب إلا مواربةً، حليق الرأس كهرمانيّ اللون بعينين صفراوين لزجتين، يتحرّك بحيث يبدو مخلّع الأوصال لا يربط أطرافه إلى جذعه إلا طبقة الجلد الرقيقة.

ـ أحضره حالاً!

تطلّع المشوّه ببلاهةٍ ثمّ استدرك:

ـ تسع وخمسون؟

ـ هيّا، لدينا مأدبةٌ فاخرة.

مضى الأقرع وسرعان ما عاد:

ـ لم يسمحوا لي!

ـ ماذا؟ من؟ أيّ كلب؟ لماذا لم تقتله فوراً؟

لم ينتظر سماع الأجوبة فاندفع مسرعاً والمرافق المتوحّش يسعى خلفه. حال وصوله لطابق القبو الرابع قرع الباب الحديديّ الضخم شاتماً بكلّ بذاءات الأرض. فُتِح الباب فتلقّى الوجه الذي أطلّ لكمتين رمتاه أرضاً وراح

قصي بعدها يركله بقسوةٍ ويقفز فوقه بوحشيّةٍ وقد وقف بقيّة العناصر ممتقعين ينتظرون دورهم. شهر مسدّسه وصوّبه لرأسه قائلاً:

ـ قم حالاً وأخرجه!

قفز المسؤول على قدميه وتوجّه حيث أُمِر وهو يتمتم:

ـ لكن المعلم منعنا يا سيّدي.

ـ اخرس، يمنع الجميع إلاّي!

ـ والطبيب كذلك سيّدي، أوصى ألاّ يمسّه أحد!

انطلقت رصاصةٌ حاذت أذنه:

ـ قلت لك اخرس.

دار المفتاح في قفله ولم تخرج القرقعة جميلاً من سباته. أشار قصي لمرافقه فاندفع نحو جميلٍ لينتزعه انتزاعاً من نومه لكنّه فشل في إعادته إلى وعيه، فأشار قصي ملوّحاً بمسدّسه:

ـ احمله.

دفع قصي الحارس وأقفل الباب عليه:

ـ لنرى من سيتذكّرك يا ابن الزانية! ستتعفّن حتى الموت.

ثمّ التفت للبقيّة:

ـ أخبروا أحداً بما حدث فتنضمّون إلى زميلكم.

وخاطب أحدهم:

ـ أرسل الطبيب لمكتبي فوراً.

ـ أمرك سيّدي!

انطلق كإعصارٍ يعصف بكلّ ما يعترضه فيزعزعه وحالما وصل اتّخذ

مجلسه فوق مقعد أبيه... بينما ألقي جميل فوق الأرض كجثةٍ هامدةٍ لولا ارتعاداتٍ تصيبه بين حينٍ وحينٍ فيتقوقع على نفسه أو ينصلب على فراغٍ متشنّج الأطراف. قُرِع الباب فوثب المرافق لفتحه ثمّ التفت إلى سيّده:

ـ الطبيب.

ـ أدخله.

دخل الطبيب والرعب بادٍ على محيّاه.

ـ أمرك سيّدي.

حدّق قصي بثباتٍ في عينيه:

ـ أيقظه ولا تقل إنّه لا يحتمل، ليس مهماً إن مات!

تمتم الطبيب:

ـ ربّما لا أستطيع إيقاظه، فقد أعطيتُه جرعةً كبيرةً من المورفين!

وثب قصي إليه ولطمه لطمةً أزاحته عن موضعه:

ـ من سمح لك بذلك؟ من استشرت؟

أجاب الطبيب خانعاً:

ـ المعلّم أمر...

ـ لقد أمرك أن تبقيه يقظاً يتمتّع بأوجاعه لا أن تريحه بالنوم و...، انقلع من وجهي! هرول الطبيب صوب الباب لكنّ الصوت الهادر أوقفه:

ـ انتظر، متى سيستيقظ؟

ـ ثلاث أو أربع ساعات.

ـ انصرف، يلعن...

أرسل قصي وراء الطبيب رشقة شتائم لا تحتملها البهائم العجماء ثمّ التفت إلى المرافق:

ـ أعده لمكانه وأخرج الحيوان، تمرّن معه قليلاً دون أن تؤذيه، لقّنه درساً وحاذر أن تمسّ وجهه.

كان قصي يعاني ضغط مشكلةٍ لم يستطع حلّها فصارت أزمةً أرّقته. مع ذلك وجد في وقته متّسعاً، بانتظار أحد شركائه الذي عليه حلّ تلك المشكلة قبل أن تدمّرهما معاً، ليصفّي حساباته مع أدهم الذي أنقذه يوماً وهو طفلٌ من حريق كاد يودي به. لم يفكّر أبداً أنّه أنقذ حياته وأنّه مدينٌ له بها! على عكس ذلك، عبّأه أبوه ضدّه. حتّى أمّه أوصته ألا ينساه وأن يحرقه حيّاً كما كاد أن يحترق يوماً. لا يدري كيف رسخ في ذهنه أنّ أدهماً هو من تسبّب بآفة ساقه وتشوّهها الظاهر الذي يجعله يميل عليها بثقلٍ يشي بإعاقته. لم يكتف بحفظ وصيّة أمّه وحسب، بل آلى أن يذيقه عذاباتٍ أشدّ، يجعله يرى بعينيه ويسمع بأذنيه ويحسّ بروحه آلام أقرب الناس إليه، زوجته وأولاده وهم يحتسون كؤوس جهنّم قبل أن يلفظوا آخر أنفاسهم قرب وجهه بعدما يمنحه هديته الخاصّة. ودّ لو أتيحت له معرفة أصدقائه ليسدّدوا عنه بعض حساباته لولا أن وقف أبوه له بالمرصاد؛ منعه من مسّ أقاربه ولم يطلعه على أسماء أصدقائه، إذ خشي تهوّره لأنّ إطلاق الرصاص أهون عليه من شرب الماء، ولربّما عجز آنها عن حمايته.

أما وقد علم بوقوع أدهم وسقوطه في الفخ المعدّ منذ سنواتٍ لاستقباله، فقد ثارت شهيّته من جديدٍ وتفجّرت دماملُ ضغائنه، نازّةً قيحاً لا يُزيله إلا تحقيق أحلامه وتخيّلاته القديمة، مقترنةً بوصايا أمه وتوجيهات أبيه، وعليه أن ينتظر الآن يقظته لينتزع من لسانه الحربائيّ أسماء أصدقائه ومحبّيه فيحضرهم واحداً واحداً بغير علم أبيه، جاهلاً أنّ أباه يقوم بالعمل نفسه بأعصاب حديديّةٍ وعقلٍ جليديٍّ متبصّرٍ لا يعرف أيُّ امرئٍ أو يتوقّع ما يدور داخل الجمجمة التي تحويه. لم يعرف أنّ هاجس أبيه يفترق جزئيّاً عن هاجسه، إذ لا يرتبط فقط بعنصر الثأر، بل يتعلّق أساساً بتوجّهٍ جوهريٍّ يشكّل قانوناً لا يقبل معارضةً ولا احتجاجاً؛ على الجميع أن يخنعوا لذلّهم ويصغروا لهوانهم

ويقرّوا جهاراً بامّحاء عقولهم وعدم جدارتهم بكرامةٍ مُنحت لهم عن طريق الخطأ! ليس هذا وحسب، بل عليهم أن يفرحوا لذلك ويهلّلوا لمن يتوّجون رؤوسهم به. وعليهم قبل أيّ شيءٍ آخر أن يجاهروا بحمدهم للّذي منحهم نعمة الراحة من التفكير طالما يفكّر عنهم وبامتنانهم لمن يصونون كرامتهم وحريّتهم وغذَهم ويحفظونها لهم دون أن يتكبّدوا مشاقّ البحث عنها وتحقيقها!

دفعهم يوماً وراء أقدارهم المجنونة صاغرين، لكنّ كثيرين استمرءوا جحودهم، لم يهلّلوا ولم يعلنوا ولاءهم الأعمى ولم يقرّوا بجميل من دمّر حيواتهم وجعلهم أعداء لبعضهم أولاً ولأنفسهم ثانياً. سيظلّ وراءهم إلى أن يرتضوا طواعيةً انتماءهم لحظيرة فصيلتهم دون أن يحلموا مجرّد حلم بإمكانيّة خروجهم منها أو تغيير جلودهم للإيهام بالانتماء لفصيلةٍ أخرى ليدافعوا عن رقعةٍ صغيرةٍ تشكّل الحدود التي تلبّي مطالبهم وحاجاتهم الأساسيّة الطبيعيّة وغير الطبيعيّة فوق رقعتها.

لم يخطر ذلك كلّه ببال قصي، إذ لم يدخله أبوه حتّى اللحظة إلى الصفّ الأكاديميّ الأعلى لنخبةٍ تسوس ضمن خططٍ بعيدة المدى لا تتأثّر أبداً بالمقاييس التي تحسب بدقّةٍ درجات الحرارة التي تلفحهم وأمدية الضغط التي يتعرّضون لها كي يتحوّلوا في أفران الصهر العالي لجواهر ودررٍ تعجز الطبيعة نفسها عن إنتاجها في أفضل مختبراتها تحت الأرضيّة.

سرعان ما عاد قصي لأجواء الخطر المحدِق به، إذ يتوجّب إيجاد حلٍّ لمشكلة نبيل التي صارت مشكلته بالذات بعد أن صارا شريكين كاملين. قرع الهاتف فرفع السمّاعة وأصغى ثمّ قال:

ـ أدخلوه فوراً.

دخل نبيل بوجهٍ محتقنٍ ومعالم شبابٍ لا تزول رغم تقدّمه في العمر؛ جسدٌ رياضيٌّ متناسقٌ، وجهٌ مليحٌ بعيون ضبابيّة الزرقة حادّة النظر وقسماتٌ

رومانيّة خالصة. لا يكذب العرق أبداً! ابن الزنا.. لم يمضِ الرومان أو الأتراك دون إبقاء آثارهم في أنسالٍ هجينةٍ وسلالاتٍ تحمل ضغائن أسلافهم ورغبات انتقامهم! لكنّك عندي أيّها اللعوب، أنا الذي سيفعل بك ما يشاء ولست أنت! اتجه نبيل متجهّماً بخطىً واسعةٍ نحو المكتب وقد مدّ ذراعه قبل خطوةٍ منه. صافحه قصي جالساً وسأله ملوّحاً أن يجلس:

- ما هي آخر الأخبار؟

- لست أدري! أستطيع التخلص منهم بسهولة، لكنّني أخاف وجود وثائق بحوزتهم تودي بي وبك!

ثار قصي سريعاً وهو يرى أباه يطلق شرر عينيه في وجهه قبل أن يودِع رصاصةً في قلبه؛ سأرديك قبل أن تجعلني مضغةً في الأفواه يا ابن الكلاب! أما وجدت خيراً من المخدّرات لتسطو على أسواقها؟ أتحسب نفسك وحيداً أيّها الأبله؟ سيقطّعونك إرباً ويسلخون جلدك قبل أن تتنفّس لأنّهم سيأتونك من حيث لا تدري! أتحسب نفسك شاطراً ووحيداً في اختراق صفقاتهم وفوق ذلك لا تريد ترك شيءٍ لأحد، تريد التهام الجميع؟ أنا الذي سأجعل الديدان تلتهم لحمك الأجرب قبل أن تودي بي.

- بك وحدك! ما دخلي أنا بصفقاتك القديمة؟

- ليست القديمة فقط، فهنالك وثائق فُقدت من المكتب ولا أعلم من سرّبها لهم وفيها لوائح تضمّ اسمك مع شركاء آخرين، أحصر شكوكي بين سكرتيرتي وزوجتي السابقة ريمة، الأولى يكونون اشتروها بمبلغ مغرٍ فخانتني، أمّا الثانية فتسعى للانتقام وحماية نفسها من محاولتي لاستعادة بعض أملاكي التي سلبتْها وادّعتْها لنفسها.

امتقع وجه قصي، ما كان يخشى أحداً في الوجود إلاّ أباه، يستطيع تدبّر أمره في أيّ موضعٍ ومع أيٍّ كان باللغة التي يفهمها، أمّا مع أبيه فليس ثمة خطابٌ ولا تفاهم... ليس إلاّ طلقةٌ صغيرةٌ تنغرس في القلب ولا

تتزحزح حتى تسقط وحدها بعد تآكل اللحم وتفتّت العظام!

من ذاك الحصار اندفع قصي وراء حماقته، ظانّاً أنّه، بسلطة أبيه، يستطيع فعل ما يشاء:

- ما هو عنوان سكرتيرتك، والسيّدة زوجتك السابقة؟

دهش نبيل:

- ما الذي ستفعله بربّك؟

احتدّ قصي أكثر:

- ما الذي سأفعله؟ سأحاول أن أمنع بالقوّة الأخطار التي تسبّب بها غباؤك، سأستدعيهما لنعرف من منهما الفاعلة ولصالح من تعمل، كي نحدّد كيفيّة تحرّكنا التالي واتّجاهه.

- ليس بهذه الطريقة، سنغري من يحاول تطويقنا بسرعة التحرّك فنفقد حرّية المناورة، يجب أن نعمل ونفكّر بهدوءٍ واتّزان.

- ستفقدني عقلي، تقول إنّهم حصلوا على وثائق تديننا وتريدني أن أتمهّل! إلى متى؟ إلى أن يعلم أبي؟ هل تريد إنهاء حياتي قبل أن أعرف أنّ حياتك انتهت؟

حاول نبيل تهدئته، فهو يعرف أنّ الخطر الناجم عن اندفاعات غضبه وتهوّره سيودي بهما معاً.

- أرح نفسك أنت، دعني أتابع العمل وفق ما أرى، وحين أحتاج مساعدةً سأطلبها منك وعليك أن تؤدّيها بحذافيرها دون زيادةٍ ولا نقصان ومن غير نقاش!

لم يرق قصي للهجة نبيل، أحسّ أنّه يستخفّ به، لكنّه جاراه:

- وما هي الضمانة، إن كنتَ بكلّ خبثك ودهائك قد خُدِعت وسُرِقتْ وثائقك التي تدينني أيضاً؟

تردّد نبيل قليلاً ثمّ همس:

- هي لا تدينك تماماً.. لكنّها تمسّك، أي أنّ خطرها يكمن باكتشافاتٍ أخرى هي ما يجب أن نسعى لمنعها، وهي تتعلّق أساساً بملفّات الجمارك حيث كنت أعمل!

شرع عقل قصي يعمل... هذا القوّاد يريد إغراقي كي يرغمني على مساعدته وانتشاله. يهدّدني بشكلٍ خفيّ، إن كنتَ تلعب بذيلك أيّها الثعلب فاقرأ الفاتحة على روحك، مللتُ منك ومن ألاعيبك ولا يرغمني على احتمالك إلاّ خوفي من وجود ما يشكّل خطراً عليّ لديك.

- حسنٌ، دعني أفترض أنّنا نستطيع إتلاف ما يمسّك هناك، ما الذي سيبقى؟

ابتسم نبيل في سريرته، وقع في الفخّ! في البداية لم يكن مبالياً طالما هو بعيدٌ وتأتيه أرباحُه وفوائده وعمولته وفوق كلّ ذلك سهراته ولهوه وزناه، وحالما أحسّ الآن باقتراب النار منه، بدأ يتحرّك ويهيّئ ذيله للانقضاض واللدغ، العقرب الخبيث، إن لم تنتشلني لأغرقنّك معي حتّى أذنيك، تريد رمي عظاماً بعدما التهمتني لحماً؟ لم تحزر ذلك أبداً!

- سيبقى تقرير الرقابة، هنالك تلميحٌ بسيطٌ لضلوعي باختلاساتٍ ضخمة ما عاد ممكناً إزالته، لكنّنا نستطيع تجييره لصالحنا.

حكى قصي بهدوءٍ وعيناه تتمحّصان نبيلاً بعنايةٍ مفرطة:

- ليست مشكلة، نحوّل التحقيق إلى هنا، نعدّ اعترافات الموقوفين على هوانا بحيث نبعدها تماماً عنك، لكنّني أحتاج شخصاً نستطيع إلباسه القضيّة برمّتها من غير أن تكون له قدرة حماية نفسه أو إثارة الشكّ بغيره.

سارع نبيل للقول:

- طلبك موجود، موظّفٌ مشهودٌ له بالكفاءة والنزاهة لكنّه من

المغضوب عليهم، محسوبٌ على وسطٍ يساري لا يجرؤ أحدٌ على مدّ يد العون له وليس صعباً تلفيق أيّ شيءٍ ضدّه!

- عظيم، ما اسمه؟ دعنا نباشر بتلك، ثمّ نعود للقضيّة السابقة. صحيح، ما هو دور زوجتك السابقة في إثارة تلك الزوابع حولك؟ ثمّ هل من شيءٍ آخر؟

أشعل نبيل سيجارة. قُضي الأمر على أفضل وجه!

- الموظف اسمه كريم عطا، أمّا دور زوجتي فدعه الآن وسأطلعك على كلّ شيءٍ حالما أجعلها تركض في الشوارع مثل المجانين وتمتهن الدعارة كيما تجد ما تأكله. أخيراً إن انتهينا من هاتين المشكلتين نكون قد بدأنا صفحةً جديدةً نظيفة.

- هل أعتمد عليك في كل هذا؟ سأل وهو يسجّل الاسم. انتهى عمرك يا نبيل صدّقني، فقط أمّ لي التأكّد من كون اسمي بعيداً عن قضاياك القذرة التي ستستغلّها أيّة جهةٍ لتشويه سمعة أبي قبل الانقضاض عليه.

أمّا نبيل فقد قال مطمئِناً من غير أن يفقد حذره:

- ضع يديك ورجليك في ماءٍ بارد، سيكون كلّ شيء على ما يرام. كن مستعدّاً فقط حين أطلب منك التحرك.

تراخى قصي أو أظهر تراخيه وبدا ضجِراً:

- أين سنسهر اليوم؟

سارع نبيل للإجابة:

- اطلب وتمنّى، أينما تريد، وإن أحببت نعمل سهرةً على هواك في منزلي.

- لا ، نبدأ أوّلاً في مكانٍ عامٍّ ثم نتابع في منزلك. ما رأيك أن تقوم بجولةٍ معي قبل أن نمضي؟

أجاب نبيل مستاءً:

ـ لا، اعفني من أمراضك وهلوساتك ، سأنتظرك هنا. أو ما قولك أن تلغي جولتك الليلة؟

حدّق قصي فيه بارتيابٍ ظاهر:

ـ تعلم أنّني لا أستطيع، أموت إن لم أقم بها، أمرض حقيقةً ولا أتمتّع بملذّات الحياة!

ـ حسنٌ، سأنتظرك.

ـ لا ستقوم معي وتشهد فعلي كيما نتمتّع معاً!

حاول نبيل التملّص:

ـ لست لي رغبة، دعني أرتح قليلاً ريثما تعود.

صعّد قصي لهجته حتّى الأمر:

ـ ستقوم معي، هيّا!

استسلم نبيل خائفاً، قام على مضضٍ ومضيا في جولة الأقبية حيث يمارس قصي هوايته اليوميّة التي لا يشبع ولا يكلّ ولا يملّ منها في تعذيب بعض من لا يعجبه شكلهم أو الذين يتعشّم أن يقدّموا له رشوةً دسمةً ينهي لهم بها قضيّتهم، وهو الدافع الثاني الذي يملي عليه جولته اليوميّة. أما دافعه الأوّل، فما كان غير إشباع عقد نقصه وعجزه بالتلذّذ بسماع صراخ أوجاع الآخرين وتضرّعاتهم وتوسّلاتهم، وإحساسه بامتلاك أرواحهم وأجسادهم وقدرته الفعليّة على إطالة أمد عذاباتهم أو إيقافها نهائيّاً ساعة يشاء.

في نهاية الجولة الدمويّة تذكر قصي شيئاً:

ـ ألم يخرج ابنك قيس من السجن؟

أجابه نبيل لا مبالياً:

ـ لا أعلم، لكنّني لا أظنّ!

ـ وهل ترغب بإخراجه؟

تردّد نبيل:

ـ أفضّل أن يتأدّب قليلاً، سيستاء من أمّه لأنّها لا تزوره، ساعتها سيعود إليّ صاغراً بعد أن يكون قد تنكّر لها وفقدتْ تأثيرها عليه.

ـ كما تشاء!

أحياناً يحسّه مثله تماماً، لا عاطفة له. لكنّه في أحيانٍ أخرى يراه مجتاحاً بعواطف لا يدري كنهها ولا يجد تفسيراً لها. كم يشبهني هذا النبيل وكم يختلف عني، كأنّنا نكمل بعضينا، لكن ما لا أفهمه تناقض موقفه تجاه ابنه، تراه أحياناً ملهوفاً عليه مستعداً لبذل كلّ ما يستطيعه لمساعدته وضمّه إليه وفي أحيانٍ أخرى يعامله كأنّه ليس ابنه، بل ربّما تعامل مع أبناء الغرباء بصورةٍ أفضل. هذا الفتى سيكون نموذجاً فريداً... متمزقاً بين أمّه وأبيه ولا يعرف لأيٍّ منهما ينتمي. سيدرك في النهاية أنّه لا ينتمي إلا لنفسه، ساعتها سيكون ذا نفعٍ لنفسه ولي!

في حالاتٍ مماثلةٍ كان قصي ينحو منحى أبيه ويقاربه في طرائق تفكيره، ينظر للمدى الأبعد وكيف يستغلّ المتاح الذي لا يبدي أيّة فائدةٍ آنيّةٍ ويستثمره في اللحظة التي تقتضيها الضرورة ويكون بأمسّ الحاجة إليها فيجدها جاهزةً تنتظر قائلةً: أنا في خدمتك. استخدم أبوه ذلك أكثر ما استخدمه مع الناس، يعدّهم ويهيّئهم على مهلٍ حتى ينضج أوان استخدامهم فيجدهم مستعدّين لأداء الأدوار التي أناطها بهم وإنجاز المهامّ التي أُعدّوا لتنفيذها. لربّما كان هو أحد صنائع أبيه، فهو لا يذكر أنّه عمل يوماً أو خطّط أو فكّر ليكون ما هو عليه الآن! الفارق الوحيد أنّه يجسر في بعض اللحظات على التمرّد والاعتراض على أوامره... ولكن ليس دائماً ولا في كلّ الأمور.

يشعر الآن أنّه أداةٌ مسخّرةٌ لخدمة أمرٍ ما! كانت تصوّراته أنّه هو من

يسخّر الآخرين أدواتٍ لخدمة مصالحه محضَ وهم تراءى له أنّه خادع نفسه به طويلاً! تُراه يعمل في خدمة من، ولتحقيق أغراض من؟ لم يكن وحدَه الذي فكّر على هذا النحو، فقد مرّ أبوه بنفس التجربة قبله، لكنّ عقله الذرائعيّ الذي تحرّكه عتلةٌ أساسيّةٌ هي منفعته الخاصّة رفض أن يستهلك طاقاتِه ويستنزفَها في بحثٍ مشابهٍ لا طائل منه. فهِم درسَه جيّداً وأدرك أنّ استمرار بحثه عن القوى التي تحرّكه وتهيمن على مصيره بالتالي، مثلما يفعل هو مع من دونه، لن يوصله لشيء، بل ربّما ساهم بتدمير مكتسباته لأنّه سيطمح دون شكٍّ إلى توسيع دائرة نفوذه والانتقال لحلقةٍ أعلى وأضيق بالضرورة، يعرف أنّ مجرّد التفكير بها سيورده موارد الهلاك. لذلك اعتبر أنّ الطبيعيّ اقتران هيمنته بخضوعه، وسيبدو الأمر مضحكاً لو نظر إليه من زاوية كونه مجرّد وسيطٍ بين من يعلوه وبين من يتفوّق عليهم! لكنّ معركة تحطيم العظم تلك لم تجابه قصياً حتّى اللحظة، وسيحتاج وقتاً ليتعلّم كيف يوازن بين قدراته غير المحدودة وسقفٍ يحدّها. كان ضروريّاً إذن أن تتأزّم الأمور مع نبيل على نحوٍ يشعره بالهلع من شيءٍ لا يزال غامضاً، لكنّه واضحٌ بما يكفي لإدراك خطرٍ داهمٍ قد يقضي على حياته وليس على نفوذه وحسب!

عليه الآن أن يأخذ قسطاً من الراحة كيما يجدّد قواه ويتفرّغ لبحث المسألة استناداً لمراقبته لأبيه. لن يجرؤ أبداً على سؤاله، بل سيكتفي برصد ردود أفعاله على حالاتٍ مشابهةٍ ليستنتج منها ما يمكن أن يشكّل تصوّراً في ذهنه للحالة التي تقاطع دربه للمرّة الأولى في حياته.

سيذكر تلك اللحظات فيما بعد حين سيرشده أبوه لما عليه فعله لإنهاء مشكلته بطريقةٍ تصير عنده خبرةً لا تثمّن ومفتاحاً جديداً من مفاتيح قدرته على استغلال موقع أبيه تحت تاج مملكته إلى أقصى الحدود، ورسم صورةٍ لمملكةٍ بديلة يستقلّ بها لنفسه إن أخفق في وراثة عرش أبيه. لاحظ ذلك وهو يرقب بعينٍ لا تخطئ أنّ قوّة المال تستمرّ، بينما قوّة التسلّط مؤقّتةٌ وزائلةٌ وقابلةٌ للتغيير في أيّة لحظة... ذلك ما سيكونه درسه الحقيقيّ وعليه سيرسم

ويوطّد مخطط حياته في كيفيّة التعامل مع الناس والأشياء في سبيل تقوية وتوسيع سلطة ماله التي ستفوق وتتغلّب على أيّة سلطةٍ أخرى إن استطاع تجييرها لصالحه بطريقةٍ متميّزة.

حين غادر برفقة نبيل، كان ذلك كلّه قد تبخّر من رأسه.. كان عليه أن يلهو كما يحلو له ويستغلّ ما يحاول صاحبه إرضاءه به لأقصى درجات الاستغلال... ولئن كان ذلك يفرح الأخير لأنّه يدرك أنّها الطريقة الوحيدة التي تلزِم قصياً بعدم الاستغناء عنه، ولئن استغنى عن الفوائد المادّية التي يسهّلها له خوف أذىً يلحقه منها، فهو لن يستغني أبداً عن المتع الجسديّة التي يقدّمها له مهما حاول ومهما فعل. شيئاً فشيئاً سأحكم الطوق عليه بزيادة اعتياده على مخدّرٍ سيكون إدمانه عليه مفتاحَ ولوج كلّ الأبواب.

لكنّ حسابات نبيل على الحقل لن تأتي مطابقةً لحساباته الأسوأ على أرض البيدر الصلبة التي تُفرَز فيها الحنطة الصرفة عن قشورها وشائبات سويقاتٍ جافّةٍ أمدّتها يوميّاً بالحياة، وهاهي تتحوّل لهشيمٍ مدمّى على ذهب قشٍّ لفحته شموس حزيران!

كذلك كانت فريال تبحث عن لهوها الخاصّ... تريد أن تنشر في ليل عتمتها شموساً مشابهةً لتوهم نفسها أنّها تعيش نهاراتها. بينها وبين نفسها، كانت تستشعر خواءها وتهرب منه، مثلما هربت من خذلانها، حطّمتها معرفتها بزواج سامي من نادية وساهمت بشكلٍ فعليٍّ في انكسارها وطلبها الخلاص بأيّة صورةٍ حالما نفذت الطعنة في خاصرتها وذكّرتها بعمرٍ يمضي هباءً وهدراً. هل تشكره لأنّه خلّصها من سجنها؟ أتحقد عليه لأنّه ورّطها بطريقةٍ ما واضعاً قدميها على بداية دربٍ أوصلتها للسجن بينما بقي هو يتابع تعريض عري جسده العاجي للشمس والبحر ونظرات النساء اللاتي يلتهمنه دون شفقة؟ استغلّت نادية غيابها فأطبقت على عنكبها الأثير بينما تحوّلت فريال لأرملةٍ سوداء تبحث عن زوجٍ تلتهم عينيه أوّل ما تلتهم ليلة زفافها!

مضى على ذلك زمنٌ طويلٌ مع أنّ عمرَه الحقيقيّ لا يعدو سنواتٍ قلائل. أيكون هو من سلّمني؟ آنها قامت بمراجعات طويلةٍ، لم تفدها التعازي التي قُدِّمت لها، لم تواسها أجواء المرح المصطَنَع الذي أحيطت به حرصاً على عدم انهيارها الذي لم تدرك أيٌّ من رفيقاتها أنّه وشيكٌ جدّاً. فكّكت علاقتها به في وحدتها وداخل العزلة القسرية التي أبعدتها عن الأخريات.. في نهايات الليل وحين ينمن جميعاً تنهض باحثةً عن نافذةٍ تطلّ منها على السماء وتلتمس نجمةً أو شعاع قمرٍ يساعد على كشف الغامض والمستور الذي أربكها وجعلها تدخل تيهاً ولجته بيقين أنّه هو من وشى بها وأنّه أبعد نادية عن الوقوع معها رغم أنّها صديقتُها الأثيرة وما من شخصٍ إلاّ ويعلم مدى عمق صداقتهما... وتوغل فيه بخروجها المدوّي خلافاً لكلّ التوقعات التي أجمعت أنّ خروجها رهنٌ بخروج الجميع قبلها، إذ أنّها رفضت بحزمٍ أيّة مساومة ودافعت بشراسةٍ عن موقف اللواتي التصقن بها تجاه أولاء اللواتي

أصررن على خلاصهنّ الفرديّ بأسرع وقتٍ ممكن مهما كانت النتائج ومهما بلغ الثمن!

لكنّها الآن تضحك لذلك.. جميعهم مشوّهون من غير أن يدركوا شوهاتهم أو يقرّوا بها. لذلك تراها ترثي لهم أكثر من رثائها لذاتها، لأنها تعلم ما فعلت ولماذا فعلته وكيف! أما هم، فيمارسون أبشع من ممارستها غارقين في أوهام أنّهم لائذون بأنفسهم. لا ريب أنّهم جميعاً يعتبرونني المزبلة التي يستطيعون رمي أوساخهم داخلها دون أن يتّهمهم أحدٌ بالتلوّث طالما أنّ شخصاً ما قبِل أن يتلوّث عنهم علانيةً وبسفورٍ لا يقبل الشكّ! أضحكتها الفكرة، لم تكن جديدةً، إذ طالما عانت منها وطالما رغبت بإنشاب أظافرها في وجوه من تلتقيهم ويعرضون عنها ازوراراً أو ازدراءً فتصرخ فيهم أن انظروا في أنفسكم! ألستم جميعاً في دواخلكم مثلي، اشتريتم وتشترون راحة أعماركم بأثمانٍ بخسة؟ ألست أشجعكم إذ أنّني نلت الربح الأعظم لأنّني فِقتُكم صراحةً وحسب؟ أمّا فجيعة حياتها الخاصّة فما كانت سوى عزلتها؛ لا أصدقاء ولا أهل. ماتت أمّها أثناء وجودها في السجن وتزوّجت شقيقتها قبل أن تخرج، ولو أنّها لم تنتقل لبيتها الزوجيّ إلا عقب خروجها. وما بقي لها غير جدران المنزل الذي أزالت معالمه القديمة كي تُحكِم قطيعتها مع ماضٍ لا يريد مفارقتها رغم سعيها الدؤوب لمحو آثاره أياً كانت. وهاهي ذي يقتلها السأم، تنتقل من موضعٍ لآخر لا تدري كيف تقطع عتبة إيصالها للنوم. هل أخرج بحثاً عن متعةٍ عابرة، لهوٍ يجعل مرور الوقت أقلّ وطأةً؟ ليست لي رغبة بذلك. هل أتّصل ببعضهم فنخرج قليلاً ثم نسقط في سبات الكحول؟

تاقت لضبابه الأثيريّ، لكنّها لم ترتح لفكرة صخبٍ ليست مهيّأةً لتحمّله. تودّ صحبةً هادئةً تنسيها الحاضر والآنيّ إن استطاعت خلاصاً من ماضٍ يتربّص بها أينما تطلّعت. فكّرت أن تشرب وحيدةً، لكنّها استنكفت وقضت الأمر بتناول حبّةٍ مهدّئة، سأتراخى قليلاً.. ورويداً رويداً يأتي النوم فينهي ليلتي الموحشة.

اتّجهت نحو الهاتف من غير تفكّرٍ أو تدبّر واتصلت بشقيقتها، دار حوارٌ قصيرٌ حول الأطفال والزوج وتمنيّات أن تزورهم قريباً، ودّت لو طلبت منها أن تأتي وتسهر معهم.. لكنّ ذلك لم يخطر على بال الشقيقة، فلديها مايكفيها ليشغل فكرها. تذكر بأسىً كم كانت صلاتهما حميميةً... كانت لها في سجنها أمّاً وأباً وزوجاً وتدبّرت أمورها بحيث تكفيها عناء مصروفها كيلا تحتاج أحداً أو تشعر بنقصٍ يهدّد استقرارها فيلجئها لما لا ترضاه لها! ودّعتها على أمل لقاءٍ قريب ثمّ عادت لتستلقي على سريرها مهمَلَةً منبوذة. هكذا أحسّت وحدتها... ما درت كيف خطر ببالها بوذا، فقراء الهندوس، أيّهم أُشبِه؟ لم تستطع أن تحزر، لكنّ ما تيقّنته أنّها أشبه بأرملةٍ هندوسيّةٍ رفضت أن تُحرَق أو تُدفَن حيّةً مع رماد زوجها فهامت على وجهها. لا بابٌ يُفتَح لها ولا صديقٌ يردّ ابتسامتها ولا يدٌ حانيةٌ تسقيها فتبلّ جفاف عروقها!

وفي هيماناتها التي تسلّقتها كأعشاب برّيةٍ التفتت حولها فظهر إبراهيم، لا أستطيع أن أكرهه وكل ما فيه يدفعني لذلك. أودّه، ربّما لأنّني أجد نفسي فيه أكثر ممّا أجدها في أيّ امرئٍ آخر وما يصفح له عندي أنّه انسحب باكراً وانزوى، لم ينقلب على نفسه ولم ينسجم معها كذلك! وجد ضالّته في فرشاته وألوانه فأنسته العالم ونفسه، وكيلا يرى خارج إطار لوحته أغرق نفسه في خموره وعربداته ونسوةٍ ساقطاتٍ يمسحن غبار سوافيه ويبرّدن لفحها فيرسمهنّ عارياتٍ أو يقاربهنّ. لكنّه لم يتبجّح مثل الباقين ولم يرمِ اتّهاماته ذات الشمال وذات اليمين.. والأهمّ أنّه لم يصق عليّ ولم يقلْ لا في لسانه ولا في عينيه.. خائنة! لا مكان لي عنده الليلة فثمة من ستؤنس وحشته، وهي فتيّةٌ وليست عجوزاً مثلي مضى زمانها فباتت تتسول العابرين قبلةً أو نظرة اهتمامٍ أو لمسة حنان أو مداعبةً تُشعِرها ببقايا الأنثى التي لاتستطيع الإقرار بأنّها ما عادت كذلك! وفي الختام لا تنال غير رجلٍ تلتقطه من الطرقات كأيّة مومس، الفارق الوحيد أنّها لا تأخذ أجراً.. بل ربّما أعطته أجراً إن أرضاها وأروى عطشها. لكن أيّهم يُرضي؟ إن كانوا جميعاً

يحضرون أجسادهم وعقولهم وأرواحهم، حاملين نزعةً وحيدة، الهيمنة والسيطرة بعيداً عن فهم الاتّحاد والانصهار؛ لا شيء سوى مفهوم الاغتصاب والانتهاك الذي يُشبع دافع تفوّق الذكورة في رؤوسهم وربما بين أفخاذهم.. مفهوم السيّد والعبد المخلوق لإشباع حاجات سيّده ونزواته، حسّ التملّك المطلق الذي يبيح التعامل مع جسد الآخر كأيّة سلعةٍ أو أداة ملكيّةٍ خاصّةٍ مع الاحتفاظ بمفهوم الاحتكار تحت لافتةٍ عريضةٍ، الشرف والعرض، تُستَباح رجولتهم فلا يجدون ما يعوّضون به انتقاصها إلا بتصعيدٍ دونيٍّ يُعنى بقدرة الانتصاب وافتضاض البكارات والولوج.. تعويضٌ وحيدٌ عن كرامةٍ مهدورةٍ ومسفوحة. ولماذا هم فقط؟ لماذا لا نقوم نحن بفعلٍ مماثل؟ نوع من تخيّل الإخصاء لهم والتحوّل من دور المفعول إلى دور الفاعل معهم. كفاكِ فلسفةً زائدةً فما أنتِ سوى امرأةٍ تحنّ لجسدٍ يغطّي جسدها!

.كانت تحاول التخلّص من شهوةٍ اجتاحتها والهروب منها عبر اللجوء لأوهام إمكان إضفاء سيادةٍ أنثويّةٍ لها طابعٌ ذكوريٌّ تمارس تفوّقها على قطيع الذكور أو الإناث سيان. كانت تهرب من جسدها النازّ شوقاً لجسدٍ يحيطه ويستقطر ملذّاتها ويوصلها ذروة نشوتها فترتعش مئات المرّات دون التوقّف ثانيةً واحدةً لنيل قسطٍ من الراحة أو لتجديد القوى. لكنّ ذلك اتّخذ في المحصّلة مناحٍ أخرى؛ جرّبت ممارسة الجنس مع امرأةٍ مثلها، ولكن من مواقع متكافئة ومتبادلة، استحصال اللذة لكلتيهما. عرفت حالاتٍ مشابهةً لكنّ أخيلتها المريضة تصعّد الحالة لديها، تفترض الآن أن تكون في مواقع القوّة والهيمنة بل أكثر، تستشعر دافعاً قويّاً للقيام بفعل اغتصابٍ حقيقيٍّ يجابَه بمقاومةٍ شديدةٍ تُرضي نزوعها لاستخدام البطش وإخماد تلك المقاومة وتحطيمها ونيل المشتهى قهراً وغصباً.. وصولاً للإيلاج!

التمعت الفكرة في رأسها، ريمة! لم خطرت ببالي؟ أأريدها لإذلالها بالكامل أم لنيل ثأرٍ قديمٍ منها واقتصاصاً متأخّراً من هزيمةٍ لم استطع أبداً تحويلها لنصر؟

كانت كلّ خليّةٍ فيها الآن تطلبها شهوةً وغضباً وضغينةً ورغبةً مستعرةً بانتقامٍ ممض، يجب أن تكون لي برضاها أو رغماً عنها. قامت من استلقائها، تناولتْ حبّةً أخرى وازدردتها دون ماءٍ ثمّ اتّجهت نحو الهاتف.

ـ مساء الخير، فريال تحكي معك.

ـ أهلا بك، كان يُفترَض أن أتّصل أنا. حكى معك إبراهيم، أليس كذلك؟

ـ بلى، أنا آسفة فالوقت متأخر، لكن إن أحببت القدوم، نستطيع التحدث على هوانا.

بعد انتظارٍ قصير، جاء الصوت واثقاً:

ـ سأوافيك. تعطيني العنوان؟

وضعت السمّاعة وابتسمت بقسوة. ستأتي الغبيّة بقدميها ولا تدري ماأعددتُه لها! والت هلوساتها.. قرّرت احتياطاً في حال ممانعة ريمة الشديدة وعجزها عن التغلب عليها جسدياً أن تسعى لتخديرها أو إسكارها. هيّأت غرفة الجلوس ورتبت غرفة نومها ونظّفت حمّامها ومطبخها ثمّ استحمّت وارتدت ثوباً فاضحاً بعدما تزيّنت بفحشٍ ظاهر. ما كادت تنتهي حتى قُرِع بابها فنهضت متمهّلةً لتفتحه وتستقبل زائرتها بابتسامةٍ عريضةٍ مرحّبة.

تصافحتا.. بدت ريمة فتاةً لم تتجاوز عقدها الثاني مع أنّها جاوزت منتصف الثالث. تأمّلتها بشغف؛ امرأةٌ كاملة، شقراء جميلةٌ بتقاطيع مليحةٍ وذهبٌ يتموّج على كتفيها، يلفّها بنطالٌ أبيض وسترةٌ بلونه تغطّي قميصاً أزرق مكشوف الصدر. كانت مفرطة الأناقة، غير متكلّفة، خُلِقت لتكون متميّزةً وذات حضورٍ خاصّ، لا تسعى لعرض نفسها لأنّها بغير حاجة لذلك! حتى ابتسامتها التلقائيّة تأسر قبل أن تهمس شفتاها: مرحباً.

دخلتا صامتتين تشعر إحداهما أنّها نقيضٌ تامٌّ للأخرى، ومع ذلك تحتاج إحداهما الأخرى وتعرف الثانية كيف تُحسِن استغلال ذلك!

ـ مضى زمن طويل! منذ متى لم نلتق؟ بادرت فريال حرصاً على تملّك زمام الحديث من البداية انطلاقاً من تعالٍ منحه كونها ملاذ وملجأ ريمة.

لكنّ ذلك لم يفعل بالأخيرة التي تعرف قدرها وقيمتها وأنّ حاجتها لاتفرض عليها تملّقاً ولا تزلّفاً كأيّ صاحب حاجة، فأجابت بمرحٍ متقصّد:

ـ أوه.. زمنٌ طويل، أليس كذلك؟ صار عمر قيس ابني ستّة عشر عاماً. ما هي أخبارك؟ لازلتِ شابّةً ربّما أكثر مني! أما زلت عزباء؟

أفلتت المبادرة من يد فريال بعد رشّاش الأسئلة البريئة ظاهريّاً والمتضمّنة تعريضاً وسخريةً خفيّين، كان دليلَ ذلك انفعالُها السريع:

ـ بلى، لم تضيّعي خمس سنواتٍ من عمرِك هدراً في السجن، تزوّجتِ من أحببتِ وأنجبتِ صبيّاً صار شابّاً واستطعتِ تأمين مستقبلك مادّياً، عكسي تماماً أنا التي أبدو كأرملةٍ اتّشحت بسوادٍ مبكّرٍ بدّد عمرَها ولم يترك لها زوجها المرحوم غير ديونه، وفوق ذلك تشقى لتعيش مثل باقي الناس. هذه هي أخباري!

ـ لم أقل ما يزعجك، أردت الاطمئنان عليك وحسب، وإن قلتُ مايزعج عن غير قصدٍ فإنّني أعتذر منك!

أثارت اللباقة المصطنعة حنقَ فريال فتابعت من حيث قوطعت:

ـ مع ذلك فأنتِ من تسعين إليّ لحاجتها ولست أنا!

أظهرت ريمة دهشتها وبعض الألم:

ـ من قال غير ذلك؟ أنا احتاجك فعلاً بل أكثر من ذلك، أطلب عونك ومساندتك، طبعاً ليس دون مقابل.. تعرفين، في هذه الأيام لا يخدم الأخ أخاه مجاناً! و...

قاطعتها فريال محتدّةً:

ـ أعرف ذلك، وأنا التي ستحدّد ثمن خدمتها ولست أنت!

وقفت فجأةً وحاولت تمالك نفسها. ستغادر ريمة سريعاً إن واصلتُ هذه الحدّة، عليّ أن أكون أكثر ليناً وطواعيةً، استطاعت اللعينة استثارتي وأطلقتْ لساني دون ضوابط. سألتها ريمة:

- إلى أين؟

أجابت برقّةٍ متكلّفة:

- يظهر أن أعصابي تالفةٌ حقّاً. أرجوك اعذريني، سأعدّ فنجاني قهوة وأعود إليك حالاً. كيف تحبينها؟

- وسط من فضلك.

- حسنٌ، لن أتأخّر.

دخلت غرفة نومها أوّلاً وابتلعت حبّتين معاً. سأخرّب مخططي، فإمّا سنختلف سريعاً أو أنّنا سنتّفق سريعاً... وفي الحالين سترحل من غير أن تتاح لي فرصة جرّها لسريري. اهدئي أيّتها الجاحدة، أخفي مشاعرك الحقيقيّة وأحقادك، لا تظهريها على الأقل! في المطبخ حاولت جاهدةً إقناع نفسها بالركون إلى الهدوء والسكينة، لكنّها كانت تزداد اهتياجاً واحتقاناً.. ومن البخار الصاعد تحت عينيها مختلطاً برائحة الهال لمحت نفسها تهاجمها دون مقدّمات؛ تحتضنها وتحاول تقبيلها فتمانع ريمة وتحاول التملّص من بين يديها راميةً إيّاها بالجنون والفساد. إلا أنّها تقهقه وهي تبصرها تتراخى بين يديها لكنّها تصحو على حين غرّةٍ فتعود لتقاوم بشراسةٍ فتلطمها على وجهها وتلكمها على بطنها وتعتصر ساقيها بين فخذيها، وحين تبادر بالصراخ تكمّ فاها وتضغط على عنقها بأصابعها حتى تستكين فاقدةً الوعي... تنبّهت على انسكاب القهوة فوق النار ورائحة البنّ المحترق تخرّش أنفها فأفاقت من هلوساتها ولاحظت، لحسن حظها، أنّ القدر الأعظم من هيجانها قد تلاشى مع البخار المتصاعد. حملت الفنجانين ودخلت واثقةً بنفسها، قدّمت فنجان ضيفتها وجلست قبالتها ثمّ سألت:

ـ إذن ما هي المشكلة بالضبط، وكيف أستطيع مساعدتك؟

رشفت ريمة قهوتها ثمّ أخرجت علبة سجائرها من حقيبة يدها الكحليّة، قدمت واحدةً لفريال وأشعلتها بقدّاحتها الذهبيّة ثم أشعلت واحدةً لنفسها. تمهّلت وكأنّها تحدّد ما عليها قوله بشكلٍ مسبَق.

ـ لا أدري إن كان إبراهيم قد أعطاك فكرة. على أية حال، لقد اختلفتُ مع نبيل ووصل الأمر للطلاق، وهو الآن يحاول ابتزازي لسلب بعض ممتلكاتي وربما معظمها. هذا أولاً. وثانياً أحتاج عونك في تسويق أفلام الدعاية التي أقوم بإنتاجها وفي استقطاب المعلنين. عرضي هو التالي: بالنسبة لإنهاء مشكلتي مع نبيل، سأدخلك شريكةً بنسبة الربع. وبالنسبة للأفلام سأقدم عمولة ثلاثين بالمائة من قيمة التسويق الفعليّ. ما رأيك؟

أصغت فريال باهتمام. المسألة جدّيةٌ إذن، لولا أنّه يهدد بابتلاعها بالكامل وإشهار إفلاسها لما عرضت تلك النسبة المرتفعة. هي في ورطةٍ حقيقيّةٍ لا ريب، وعليّ اعتصارها حتى آخر قطرة. ودّت لو تكون حازمةً وواضحةً مثلها لكنّها أخفقت.

ـ ندخل في التفاصيل مباشرةً أم...

قاطعتها ريمة بسرعة:

ـ التفاصيل غير مهمّةٍ فالمسألة محسوبةٌ بالكامل. أنا أعرف إمكانيّاتك وقدرتك على إنقاذ وضعي المنهار، ولأنّني واثقةٌ من ذلك سارعتُ لطرح عرضي الذي أعتبره نهائيّاً.

ـ لكنّ تعيين قدرتي على إيجاد حلّ المشكلة الأولى، التي تبدو أساسيّةً، غير ممكنٍ دون معرفة التفاصيل.

أجابت ريمة بحزمٍ ظاهر:

ـ أقول لك تستطيعين. السؤال أتقبلين أم لا؟

أحسّت فريال أنّ الطوق أُحكِم حولها. لا تسمح لي بفرض رأيي، ولن تفعل ذلك بالمرّة. تعرفها من زمنٍ طويل.. لا ترتضي أنصاف الحلول، ولطالما ردّدت: لا أقبل الفتات.. كلّ شيءٍ أو لاشيء! علّمها الزمن أن تتواضع قليلاً وتكون أكثر مرونةً وتساوم على القليل، لكنّها لم تتخلَّ عن عقليتها. ومهما حاولتُ فلن أزحزحها عن موقعها، لا تتيح لي إلاّ الوقوف بحزمٍ وثباتٍ مثلها، وإنّما على مسافة خطوة، فإما تتنازل أو ترفض!

ـ في حال إصرارك على سماع رأيي من غير أن أعرف حقيقة الأمر، سيختلف الحال. عرضي شراكة بنسبة النصف ومثلها للعمولة، خمسون بالمائة!

تأمّلتها ريمة بعينٍ متفحّصة. تغيّرتْ أكثر مما قدّرتُ، لكنّي لم أحسب أنّها فقدت ذكاءها. عرضتُ عليها عرضاً مجزياً لأوفّر على نفسي المساومة لكنّها طمعت، وعليّ أن أختار بين الرفض وتعريض نفسي للدمار أو الموافقة على عرضها المجحِف، أو الدخول في مساومةٍ لا أمقتُ شيئاً قدرَ مقتي لها. لقد نمّرتها الحياة وحوّلتها لقانص فرص. قالت ببرود:

ـ خمس وثلاثون للأولى، خمسون للثانية، لا أحبّ المساومة. اقبلي أو ارفضي.

تفكّرت فريال؛ العرض مُغرٍ وسيؤمّن لي حياةً رغدةً دون تعب، لكنّني راغبةٌ في إذلالها وعليها أن تتضرّع لي وتتملّقني حتى أوافق. لكنّ ذلك لن يحدث، لم تتغيّر كثيراً... وربّما لن تتغير أبداً! هل تغيرت أنا؟ وأخيراً نطقت:

ـ حسن ما عدا تكاليف إنجاز الأمر.

وافقتها ريمة:

ـ ما عدا التكاليف.

ـ اتفقنا إذن؟

ـ اتفقنا.

مع كلمتها الأخيرة وقفت ريمة، فتحت حقيبة يدها واستلّت بطاقةً صغيرة:

ـ اسمحي لي إذن، غداً في السادسة، أرجوكِ أن تمرّي على العنوان المدوّن هنا. سأطلعك على التفاصيل ونتّفق على كلّ شيء!

مدّت يدها لتصافح فريال التي أدهشها انتهاء اللقاء بهذه السرعة. امتلأت إحباطاً من النهاية غير المتوقّعة لمحاولتها إذلال ريمة وفق ما خطّطت:

ـ إلى أين؟ لا يمكن أن تذهبي الآن، سنتناول عشاءنا معاً أولاً ثم...

لم تتركها ريمة تكمل فقالت مبتسمة:

ـ هذه المرة شكراً. الأيّام قادمةٌ وسنلتقي كثيراً ونتناول وجباتٍ كثيرةً معاً. تصبحين على خير!

اضطرّت فريال لمدّ يدها آسفةً على إخفاق محاولتها، معزيةً نفسها بأمل تنفيذها في مرّةٍ قادمة.

ـ وأنتِ بخير، مع السلامة.

أغلقت الباب على نفسها وانكساراتها. حتى في هذه لم أنجح، تعاملت معي تعامل أستاذةٍ مع تلميذتها، والأسوأ أنّها هي التي أشعرتني بمهانة احتياجي لنقودها. يا لخيبتك يا فريال! حدث ذلك وأنت تملكين قدرة تحطيمها باعترافها هي، ليست ريمة هي التي ستأتي لطلب عوني ما لم تكن الأبواب جميعاً قد أغلقت في وجهها. ومع ذلك أتت بتكبّرٍ وعجرفةٍ وجعلتني أوافق رغم أنفي. لم تقامر أبداً على رفضي، كأنّما تعرف بدقّةٍ ثمن شرائي فدفعته واثقةً بقبولي، وكان لي أن أدفعها للتسوّل مع ابنها. اعتصرها وجعٌ دفين.. أما كان يُفترض أن يكون ابني أنا؟ لا أريد ثروتها ولا جمالها ولا قوّة شخصيّتها، كنتُ ارتضيتُ بالكفاف، فقط لو أنّ لي ابناً أحتضنه الآن! أصغي لهمومه وأطلب عونه في حلّ مشاكلي وأعانقه ليلاً لأبعد وحشة لياليّ وبرودتها بدفئه وحنانه. يا ويلتي ما الذي فعلتُه بنفسي وإلى أيّ

دركٍ انحدرت! تتمتّع هي بكلّ شيء، وأفتقر أنا إلى كلّ شيء! فارغةٌ حتّى التلاشي، فاقدةٌ لذاتي، متدلّيةٌ بمحاذاة مزرابٍ لا أسقط مع مائه ولا أرقى ارتفاعه. كيف حدث ما حدث؟ أما كان يمكن أن أكون أفضل ممّا أنا عليه الآن؟ لا، لم تكن أمامي خيارات، إذ كان عليّ أن أحيا أو أرتدي كفني وأنتظر إطلالة الموت البهيّة التي ستأتي سريعاً أو تتركني أنطرها زمناً يطول أو يقصر حسبما يقرّر! مع ذلك، لن أستسلم أو أتنازل عمّا اخترته أو اختارني، لن أصغي لا لنفسي ولا لهم. إلام سيصيرون؟ سيكتشف كلّ واحدٍ منهم أنّ العمر انثال من يديه وتبعثر دون قدرة تجميعه على نحوٍ يمنحه معنىً أو شكلاً أو حتى رائحةً تميّزه عن رائحةٍ تسود الحظائر والمستنقعات، ومجرّد اعترافه ذاك يعني تساويه معي ووقوفه في نفس الموقع الذي أُدان أنا منه الآن. ليذهبوا جميعاً إلى جهنم.. لم يبق من العمر إلا سنوات عليّ التمتّع بها إن لم أستطع إيجاد من يقبلني زوجةً يمكن أن تصير أمّاً! لن أتراجع مهما حدث، سأمضي حتى نهاية الشوط. خلتُ يوماً أنّني سأكون إنساناً آخر في مجتمعٍ جديد وبدا السراب أقرب من حلمي، عليّ أن أكون ذلك الإنسان أيّاً كان في مجتمعٍ لا يريد أن يتزحزح محافظاً على ثباته واستقراره ولربّما متراجعاً عقوداً للخلف أو قروناً دون أن يشعر امرؤٌ بذلك حيث يطغى إحساس القفز في الفراغ ومواجهة المجهول.

بقيت منكمشةً على نفسها حاشرةً جسدها في زاوية أريكتها.. معانقةً ركبتيها ضاغطةً جبهتها على صلابة سطحيهما.. تحتاج ما تستمدّ منه قوّةً تؤازرها في بحثها المضني عمّا يثبت لها أنّها على قيد الحياة... لا يكفي التأكّد من كونها تتنفّس وأنّ بدنها يقوم بجميع وظائفه ويتعضّى مع وسطه... كان عليها التأكّد أنّها لا تزال طافيةً على السطح ولم تبتلعها الدوّامة وتخف آثارها ولا تبقي منها إلا فقاعات تختلط بزبد الماء أو تتناثر بين جزيئات الأثير. لكنّ لهيباً ينتشر فوق يباب صحاريها ويصليها بنيرانه... آن تُلقى فوق مفازةٍ تملأ رمال الريح رئتيها فيتوقّف تنفّسها وتغيب في صمت

الهجير.. يلحّ الجسد على إطلاق شرارةٍ تصله بعالم الحسّ، تتحرّك وقد عمّ الخدر جذور أعصابها، تمشي على جمرٍ أو شوكٍ لا يتكسّر، يلتهب دماغها فتبصر هاويةً تدعوها لتتأرجح على حافّتها. تقف أمام مرآتها، لم تضئ مصباحاً لكنّ نفقاً من نورٍ باهتٍ شقّ دربه عبر الباب المفتوح أتاح لظلالها أن تتشكّل على مرآتها خيال مآتةٍ غير واضح المعالم.. هذا ما كانت تحتاجه، رؤية خيالٍ تظنّه نفسها ولا يعترف بانتمائه لانكسار الضوء على قامتها المتراخية. كانت تنحلّ في أعضائها وتذوب في مفاصلها بكل تؤدة، مفكّكةً، مخلّعة الأوصال، تميس كأفعىً جائعةٍ لظتها ظهيرةٌ كاويةٌ وهي تنوس على نهاية ذيلها المستند إلى رمضاء الرمل.

حلت روابط ثوبها وأزاحت كتفيه عن كتفيها فانزلق على مهلٍ مولّداً أمواجاً من الارتعاشات في كلّ خليّةٍ احتكّ بها... جُنّت بجسدٍ يلتصق بها من الخلف، بساعدين يطوّقانها وراحتين تمرّان بخفّةٍ على مقدّم عنقها و... واستسلمت على مهلٍ ملتجئةً لتفاصيل جسدها، حقيقتها الوحيدة المتبقية التي لا تخذلها ولا تهجرها، عازفةً عمّا عداها، كأنّما تستعيد في إحياء مواته عن الخواء والهجران. هل تستسقي تربتها طلّه؟

حالما تلقّفتها الأرض راحت تتلوّى عليها محاولةً الاحتكاك بكلّ المساحات المتاحة لتنضح عرقها الحارّ على برودتها... استلقت على ظهرها، ثنت ركبتيها ثمّ أغمضت عينيها وصاحت...

أتى الجواب قرعاً خافتاً على بابها الخشبي. من يكون؟ حاولت إبعاد السؤال وتابعت أين أنت؟ تعال وأسرع وعجّل. عاد الطرق مستجيباً لنداء الجسد المنبوذ والمستنزف فنهضت متلهّفةً، تودّ ألاّ تفتح عينيها إلا على طارق بابها وملبّي ندائها... وفي عجلتها عثرت، وفي سقطتها أبصرت عريها فعادت أدراجها مسرعةً وهي تصيح: أنا قادمة.. انتظر دقيقة...

ألقت على جذعها ما يستر عريها وأحكمت رباط وسطه وكان حريره يناكد جلدها ويشاكسه فيقشعرّ ويتوفّز مبرزاً الزغب والشعيرات الناعمة.

فتحت الباب ولم تحن لها فرصة تبيّن زائرها، لأنّ كفّاً ضخمةً اندفعت نحو وجهها ولم تمهلها لتعلن رعبها بصرخةٍ تمنع العتم المحمول على أجنحةٍ مهيضة. أطبقت الراحة على فمها والتفّت الأصابع منغرزةً في خدّها الأيمن وأنشب الإبهام ظفره عميقاً في خدّها الأيسر... ثمّ دفعتها قوةٌ خارقةٌ للخلف فتراجعت، مادّةً ذراعيها للأمام لإبعاد ماردٍ خرج من أحلامها بعدما أغفى ألف عام، لكنّ الكفّ الأخرى أمسكت عضدها الأيسر بثباتٍ يبقيها واقفةً حتى لو أغمي عليها. أمّا الشبح الغامض، فقد أغلق الباب بقدمه ودفعها أمامه حتى انكشف تحت ضوء الصالة الساطع، وحالما رأته ضاق بؤبؤا عينيها وتراقصا على ألحان فالس النهاية. لكنّ الرجل المستعجل لم يتوقّف، أدخلها في نفق الضوء الذي يقود إلى غرفتها حيث استحال عتماً بعد إغلاق الباب.. بعد أن تبيّنت العينان المتفحصتان ببرق شهوة الانتقام موضع السرير، سألها وهو يخفّف ضغط قبضته عن فكّيها:

ـ أين مفتاح النور؟

أجابت هلعةً بفحيحٍ هامس:

ـ على يسار الباب.

مدّ يده بعد أن أفلت ذراعها وضغط فانتشر ضوء حليبيٌّ غطّى غرفةً ودّعتها الظلال... ثمّ دفعها بقسوةٍ نحو السرير فسقطت فوقه وقد انكشفت ساقاها حتى جذورهما... لم تأبه بإسدال عباءتها عليهما إذ تراجعت بعدما تمالكت نفسها قليلاً، دفعتها غريزتها للالتصاق بالزاوية التي تصل الحائط بطرف السرير، تقوقعت على نفسها وقد ملأ الرعب عينيها المتّسعتين بضبابٍ عاتم.

ـ ظننتِ أنني وقعت؟

اعتقل الخوف لسانها وأغلق حلقها فانفتح فمها على فراغ لم يحمل جوفُه أيّ تردّدٍ أو صوت سوى هسيس لهاثها المكتوم قانطةً مستسلمةً لا عزاء

لها ولا سلوى، فراحت تهزّ رأسها أن لا، غير مقرّةٍ بهزيمتها قط!

ـ كنتُ عند إبراهيم منذ قليل وأخبرني بكلّ شيء! أثمة ما تدافعين به عن نفسك؟

وجدت لسانها أخيراً تحت ضغط انصباب عينيه الذي سمّرها في مكانها، كاشفاً سوءتها كاملةً دون زيفٍ فتضرّعت:

ـ ليس بإرادتي يا أدهم... صدّقني ليس بإرادتي.. بقائي واستمرار حياتي رهنٌ بذلك... لست مذنبةً، لا أستطيع إلا الامتثال لهم وإلاّ تركوني أتعفّن بين جدرانٍ لا تشهد ضوءاً ولا هواءً. لو أنّهم يريحونني فيقتلونني لهان الأمر.. لكنّني سأحتاج قبل الوصول لذلك لألف روحٍ تواصل رحلتها فيّ كيما أحتمل عذاباتهم! أرجوك افهمني. أريد أن أرتاح وأنال خلاصي أنا الأخرى!

كان صوتها شاحباً مثل وجهها، ترمي كلماتها بين خفقات لهاثها فتبدو مثل كلمات متقاطعةٍ رُتّبت على عجلٍ قبل أن تنسّق وتتّخذ شكلها النهائيّ. لكنّه مع الجملة الأخيرة اتّخذ معالم قوّةٍ أنبتتها روحٌ أدركت أنّها تعاني حصارها الأخير:

ـ لماذا عدت؟ إنّها خطيئتك. مضيتَ وارتحتَ من كلّ ذلك ثمّ عدتَ وأنت تعلم أنّ ثمن رجوعك يفوق طاقة احتمالك، لأنّك لو كنتَ قادراً على الاحتمال لما هربتَ من البداية واختبأت مثل أرانب مطارَدة!

لعلع الصوت الهادر فأعاد الهلع إلى قلبها:

ـ اخرسي!

ـ ولكن...

ـ قلت لك اخرسي.

ابتلعت لسانها على مضضٍ وتلفّتت تبحث عن مهربٍ أو أداةٍ تدافع

بها عن نفسها. وحال انتبهت لساقيها العاريتين وتذكّرت تجرّدها ومض في عينيها برقٌ مفاجئ؛ أدهم مهووسٌ بالنسوة، الجميع أشاع ذلك عنه وأنا أعرف ذلك عن خبرةٍ أستطيع الآن تجريبها مجدداً. تيقّنت أنّ ذلك لن يجدي.. لكنّها كغريقٍ لم يجد ما يتعلّق به فتعلّق بموج الماء. استغلّت فرصةً ضغط فيها صدغيه بأصابعه واختفت عيناه، فحلّت رباط وسطها وصار رداؤها حُرّاً ينزلق كيفما تحرّكت. أزاح كفّه وحدّق بها ببرودٍ يشي بحريقٍ قادم:

ـ لن تبرري وشايتك بتلك الطريقة الساقطة مثلك، أنت نفسك غير مقتنعة بها!

أصبتُ وتره الحسّاس، إنّ أملي ليزداد الآن.. ربّما، ربّما. تنحنحت بخفوتٍ وهمست:

ـ نحن بشرٌ يا أدهم ولسنا أنصاف آلهةٍ ولكلّ طاقة احتمالٍ لا يستطيع تجاوزها خاصّةً إن وجد الآفاق جميعاً مغلقةً أمام وجهه و...

قاطعها قائلاً بمرارة:

ـ ولسنا حيوانات كذلك!

تلمّست تراجع غضبه. ليته يحتكم لعقله فقط، ما أغباني! حسبتُه قادماً لقتلي.. هو مكلومٌ ومسحوقٌ ربّما أكثر منّي وخلف صلابته الظاهرة ثمة كثيرٌ من الهشاشة وشظايا الحطام الذي لا يستطيع إلاّ الخضوع لزعزع الريح التي تثيره غباراً لا يجد مفرّاً من الهمود بعد مرورها. استحال همسها بوحاً:

ـ بل نحن كذلك فعلاً وقولاً لانعدام الشروط الأساسيّة والضروريّة لعيشنا كبشر! ما الذي فعلناه جميعاً حيال ذلك الاكتشاف؟ انكفأنا لنجترّ أحزاننا أو أحلامنا أو أوهامنا، فقدنا صلتنا بالعيش الحقيقيّ واختفى توقُ أن نكون بشراً أسوياء. لكنّ كلّ واحدٍ مارس انكفاءه على نفسه بطريقته الخاصّة، حسب ظروفه وحسب مكوّناته وقدراته على الصمود أو الانهزام.

كلّه هروبٌ يا أدهم! تتنوّع مظاهره وأشكاله، يتّخذ مسمّياتٍ كثيرةً لا تعبّر إلاّ عن دلالةٍ وحيدةٍ جوهرها الهروب من حصارٍ يضغط الروح حتى ترجو الفناء و...

قاطعها مجدداً:

- لستِ سوى منافقةٍ كبيرة!

قالها بصوتٍ ليس صوتَه، صوتٍ يحمل نبرة الشكّ بكلام صاحبه قبل الشكّ بكلام مخاطبه.

لحظت ذلك أيضاً. نحن متعادلان الآن، اطمأنّت لذلك لكنّها لم تتخلَّ عن حذرها وفزعها الفطريّ، ظلّت تحيطه بعينيها راصدةً أيّ ردّ فعلٍ يظهر أو ينقل الهواء آثاره إن لم يظهر:

- ربّما... كلّها وسائط لنسوّغ لأنفسنا ما نفعله ونحن ننكره وندينه في ذات الآن! منافقة؟ نعم. كائنٌ حيواني؟ نعم أيضاً. سأبرهن لك الآن، قل لي بربّك ما تفعل حين يلفحك نداء الجسد ولا تجد شريكاً تجيبان معاً على أسئلته الملتاعة؟ ربّما تلتقط أول امرأةٍ في الطريق، تقول لها هيّا دون أن تتّفقا حتّى على السعر. تبقيها ساعةً لتنقدها أجرها ثم تلفظها، تنبذها بعدما أشبعت رغبتك منها! ما الذي ستفعله هي ؟ كيف سيكون وقع ذلك عليها؟ حاول لمرّةٍ واحدةٍ استبدال موقعك بموقعها وسترى العجائب! وما الذي أستطيع فعله أنا؟ هل أستطيع التقاط أيّ رجلٍ من الشارع؟ تعال نم معي وخذ أجرك مثل أيّة عاهرةٍ تتسكّع على الأرصفة أو داخل البارات والملاهي والفنادق!! لا أستطيع، لم أجد حلاً سوى استخدام جسدي لجسدي لإطفاء شهوةٍ استعرت في خلاياه! كدت أمارس الاستمناء قبيل دخولك بثوانٍ وحين استيقظتُ على وقع قرعك، قلتُ: جاء من سيحفظ لي شيئاً من إنسانيتي، أيّاً كان!

مع كلماتها الأخيرة كانت تزحف نحو طرف السرير، وفي حركتها

البطيئة انكشف رداؤها عن نهديها وبطنها وعوراتها جميعاً واستمرّت ترمقه بعينٍ استعادت النداء الذي صرخه لسانها وردّدته شفتاها منذ قليلٍ وراح جفناها يردّدان صداه المتأخر وتعيد عيناها عكسه ليصدم محجري عيني أدهم دون أن يفتتاهما بعد. لكنه أنبأها باستحالة ذلك:

ـ أضيفي لقائمة مسمّياتك لفظة عاهرةٍ أيضاً، ولا أدري إن كان الأصح.. قوّادة! قالها بفجاجةٍ فلم تمهله:

ـ لا تكن غبيّاً وسوقيّاً مبتذلاً! أنا لا أعرض نفسي في الطرقات، ولا أفتح ساقيّ لأوّل عابر سبيلٍ لقاء أجر. رفضتُ عروضاً مغريةً كيلا أهين جسدي وأجعله مستباحاً لمن يرغب، لكنّني بشرٌ أيضاً، لي دوافع وحاجاتٌ تحتاج إشباعاً كي أحافظ على توازني واستقراري، إن بقي منهما شيءٌ حتى هذه اللحظة! فقدنا أرواحنا بعد أن دفنوا أحلامنا في مدافن مجهولةٍ كنفايات سامّةٍ وما أبقوا لنا سوى تلك الأجساد. لم لا نمنحها حقّها بعد طول حرمان؟ قل لي بالله عليك، أبقي لنا غيرها؟

لم يجبها، راغباً عن نقاشٍ لن يكون إلا سفاسف تسوّغ في نهاية المطاف العجز! لكنّها وقفت بعد انزلاقها عن السرير مصطنعةً إصلاح وضع ثوبها ليستر ما انكشف من جسدها بينما كانت تُظهر المزيد بطريقةٍ تدفع حواسّ المرء للجنون. تقدّمت نحوه متراخيةً وفي كلّ خطوةٍ يبرز موضعٌ ويختفي آخر من جسدها المعروض... تجاوزته وتابعت مشيها حتى المرآة حيث وقفت منذ لحظات. أخذت تعرك وجنتيها برؤوس أصابعها لتعيد إليهما دماً مسفوحاً، ثمّ سوّت شعرها وهي ترنو إليه. يقترب منها على مهل! نجحت أخيراً، ستكون ليلتك الأخيرة يا أدهم وغداً سأفرح بك حقاً.. سأضحك لموتك لو طلع عليّ نور الصباح. يدنو أكثر.. يلامسها، يلاصقها.. تنشط تخيّلاتها السابقة وتستحيل حقيقةً واقعةً تحسّها أنفاساً حارّةً تنسكب على شعرها ومؤخر عنقها! وبدفء الرجل وضوع ذكورته الفوّاحة التي أيقظت جسدها وجعلته يتوفّز منتظراً لمس الراحتين والأصابع التي ستبدأ للتوّ

رحلة اكتشاف المجاهل وضغط الصلابة الذي سيخز مؤخّرتها، استعادت توهماتها لتوالي رحلة التواصل مع جسدها والذوبان في تأوّهاته وارتعاشاته صاعداً شاهقاً يوصل لقمّةٍ يطلّ منها على الأكوان!

فقدت حذرها ثانيةً واحدةً حال أغمضت عينيها، وحالما فتحتهما وجدت أصابعه السميكة والقاسية كقبضات المطارق تحيطان بعنقها بينما أطبقت راحة الكفّ الثانية على فمها... ما من لمساتٍ ولا تصلّبٍ ولا ذروةٍ تبترد في فردوسها المحرّم وتئنّ شوقاً لذروةٍ أخرى!

ـ هل تعرفين ما فعلت أيتها الساقطة؟ أوديتِ بجميلٍ وما عاد هنالك من قوّةٍ تطلقه إلاّ الموت. لقد قضيتِ عليه قضاءً مُبرَماً!

امتقعت وتخلت ركبتاها عنها، فقدت حتّى رغبة الصراخ لكنّها نازعت:

ـ رُحْ سلّم نفسك، وسيخرجونه. لا حاجة لهم به!!!

ـ هذا ما تتمنينه يا ابنة الزنا، أليس كذلك؟

ـ لا، هذا ما يريدونه هم!

ـ سأفعل ذلك، وقبله لديّ واجبٌ مهمٌّ نحو البشر الذين كنتِ نقيضاً لهم على طول الخطّ. عليّ إزاحتك كنموذجٍ ومثال! هل تعين قولي؟

هزّت رأسها موافقةً وقالت في محاولةٍ أخيرةٍ لمجابهته، طفح الكيل بها وقد رأت أنّها ما عادت تملك ما تخسره:

ـ أنت آخر من يحقّ له التكلّم، عليك أن ترحل مثلما هربت خائفاً فيما مضى! ما الذي أتيتَ لتفعله الآن؟ أتريد أن تثبت أنّك صمدتَ وحدك في حين انهزمنا جميعاً، أم تريد إيقاظ الأموات؟ أنسيت أنّ الموتى لا يوقظون موتاهم؟ لئن متنا نحن بعدما دفنّا أحياء فلقد متَّ قبلنا بزمنٍ طويلٍ حينما جبنت عن الوقوف والمواجهة إلى جانبنا في نفس الخندق!!!

وعبر المرآة، حدّق في عينيها وراحته تحكم إغلاق فمها فتمنعها القول... لم يظهر في التماعة بؤبؤيها الأسودين الصقيلين إلاّ حقيبةٌ كبيرة، بندقيةٌ وجعبة مخازن، بزّةٌ مرقّطةٌ وحذاءٌ عسكريٌّ ثقيل والكوفيّة العتيدة! ووجهه الحليق رغم كلّ شيء، وتلك الابتسامة التي تنهض كشفقٍ خلف جبال وعرةٍ من الآلام.

أمّا هي، فقد حاولت مخادعة نفسها؛ يا لمزاحه السخيف! أيّة لعبةٍ يلعبها؟ علّها تطمئنّ قبل أن يقضي عليها الهلع. أوسع لها فنطقت:

ـ خلتك يوماً كائناً جديراً بلفظة إنسان، أما وأنّك لست سوى عنكبٍ ضئيل الحجم عظيم الأذى، فلن تنال إلا ما تناله العناكب: سحقٌ بعقب القدم، سحقٌ بعقب القدم! ليس من أجلي، بل من أجل كلّ الذين قبضت ثمن أرواحهم بما هو أرخص من روحك الملعونة!!

مع الكلمات الأخيرة راحت أصابعه تضغط بتؤدةٍ ودون رحمةٍ على العنق المستسلمة... ملأ الدم الوجهَ هنيهةً ثم انسحب، تلوّت الأطراف، والجذع تشنّج دون جدوى، أطبقت الأصابع وما من قوّةٍ ستفكّها إلاّ خمود الجسد. راقبها وهي تتخبّط وقد جحظت مقلتاها من محجريهما ليس فيهما إلاّ الفزع.. لا ضراعة ولا توسّل رحمةٍ أو شفقة، رعبٌ خالِصٌ يندفع من زرقةٍ خالصة استحالت إثمداً أسود. رويداً رويداً خمدت الحركة وتراخى الجسد.. تهدّل الثوب ساتراً العورات لآخر مرّة، فقد آن أوان انكشافه على عورته الكبرى.. وعرضه على الديدان وجرذان القبور!

تساءل أدهم وهو يغادر، أكانت تلك معركتي الأخيرة؟ أكان موتها ضرورياً؟ في وضع آخر ما كنت لأسأل سؤالاً مشابهاً! ولكن، الآن وفي هذا الوضع! لماذا تضخّم الأمور على هذا النحو وتبالغ؟ أتريد تعويض مركّبات النقص التي ضاق بها جوفك منذ توقّفتَ عن القتال الحقيقي؟ أيّ قتالٍ وأيّة معارك؟ اصحَ يا أدهم، استيقظ! هل فاض بك الخواء لدرجة اختلاق معركةٍ كاملةٍ من حادث قتلٍ اعتياديٍّ يحدث آلاف المرّات كلّ يوم؟ ألا تظنّه عملاً بطولياً أيضاً عليك تسجيله في موسوعة أمجادك وسجلّ خلود بطولاتك؟ كفاك، اعترف الآن بأنّك فقدت سمة المقاتل وخصائصه الأساسيّة وانسحبتَ من معاركك جميعاً منذ اللحظة التي وجب عليك أن تموت فيها ففضّلت الانسحاب على الموت! انسحاباً ليس لمعاودة القتال بل استقالةً كاملةً منه، خروجاً من جبهته الرحبة ودخولاً في ضيق المنافي؛ من شاطئٍ لشاطئ.. من مرسىً لمرسىً ومن مطارٍ لمطار. هناك انتهت معركتك، خلتَ نفسَك تواصل خوضها بوسائل قتالٍ مستحدثةٍ كأنّك نسيت بدهيّات العلم العسكريّ. حيث لا يوجد ميدانٌ فليس ثمّة وسائط قتال! وحيث لا قتال فليس ثمّة مقاتل! أم أنّك الآن في تنظيراتك الجديدة التي حاولتَ فيها التأثير على غالب بصفتك خبيراً عسكرياً يجد ضرورةً لتحليل الوقائع من منظار خلفيّاته الميدانيّة؟ لكنّك دخلتَ وكدت تدخله في متاهةٍ لم تكن لتنتهي لولا إسدائه نصيحةً لك سألك أن تقبلها بصدرٍ رحب؛ أدهم، اسمعني أرجوك، مع احترامي لآرائك ومحاولات تحليلك للوقائع على أرضيّة عبقريّتك الميدانية والنظريّة، فليس لك حقّ التطاول على شتى المحاولات النظريّة التي تنطّعتْ لعرض معضلةٍ حقيقيّةٍ وهي من صلب الواقع وليست من نسج الخيال، لماذا فشلت كلّ محاولات تشكيل الخلايا القادرة على الصمود والاستمرار

ونجحت في المقابل كلّ محاولات خنق أو ذبح أو إجهاض الأجنّة التي أصرّت أن تلِد ولادةً طبيعيّةً أو قسريّةً وتحافظ على نموّها إلى أن يحين فطامها؟ الأفضل أن تستخدم قدراتك التحليليّة في قراءة الأوضاع الميدانيّة وأن تقوم بمطالعات موسّعة حول التكتيك والاستراتيجية! واكتفى غالب بذلك يومها وأصرّ على عدم الإصغاء لأيٍّ من السذاجات والوقاحات التي عُرضت بصفة وثائق للنقاش، حيث جزمتَ يومها أنّ فيها لفتاتٍ ساطعةً تحتاج عقولاً استوعبت ما حدث وتصرّ على تمثّله جنباً إلى جنبٍ مع فهم الوقائع والمعطيات المستجدّة والمستقبليّة على أرضيّة فسخ عقد التراضي مع الزمن الماضي الذي أصيب بالنخر والتهرّؤ. في تلك المقدّمات والمحاولات تمّت القطيعة الفعليّة مع زمنك المضيء أو الذي خلتَه وحسبوه مضيئاً ودخلتَ دورةً فلكيّةً جديدةً لم تنفصل عن مدارك السابق ولم تتّخذ سمات مدارٍ جديدٍ تَعيّن مساره حول كوكبٍ محدّد! كانت حالةً من إعادة التشكيل لها مزاياها وتحمل آفاقها أيضاً! وكانت تلك الآفاق مسدودةً بحسب أشدّ التوقّعات تفاؤلاً، وهذا ما دفعك في نهاية المطاف للعودة.

كان تقبّلك للغربة وتحمّلك لآثارها المدمّرة للروح والجسد هدنةً مؤقّتةً تستجمع فيها قواك لمعركةٍ قادمةٍ أشدّ وأضرى. هذا ما أقنعتَ نفسَك به رغم تصوّراتك المناقضة، لكنّك بقيت متماسكاً، ترى حلماً يصعب الإمساك به وملاحقته، ولو أنّه بدا واضحاً في البعد أنّه ليس بعيد المنال، يحتاج دفعةً أولى وحسب توقظ عصافير الأرض، وبعدها يواصل حركته اعتماداً على ما يكتنفه من عوامل احتقانٍ وقهرٍ ستتّخذ صفات قوّةٍ جبّارةٍ حالما تُطلَق من عقالها وينفكّ السحر الأسود الذي كبّلها.

لكنّ الحقيقيّ الذي لا جدال فيه أنّك سئمت، أسقمك النأي، رغبتَ موتاً سريعاً مجزياً وناجزاً وإن كانت طقوس توديع الجدث تثير الرثاء. ليس مهمّاً طالما بقي من يمسك حفنة ترابٍ ويهيلها على الجسد المعفّر بالكبريت والمحشوّ بالفوسفور الذي طال انتظاره لاحتكاكٍ ضئيلٍ أو شرارةٍ صغيرةٍ

تنسلّ، رغم الرقابة المحكمة، فتشعل المزيج المتفجّر وتلهب الأجواء بشهبٍ بيضاء وضبابٍ كثيفٍ من أكاسيد الكبريت تمنع الرؤية وتخرّش الأنوف فتعزل الموقع وتحصّنه من مسافات بعيدة.

سأمك هو الذي قادك بعدما حشوته بآلاف المسوّغات والحجج التي لايقبلها عقل. لم تستطع أن تكون بسيطاً وتقول، اشتقتُ وعليّ العودة وحسب، بل رحتَ تصنع جسماً صلباً من التبريرات المرتبطة بمنطقٍ مجهول. لا تهرب، كان السأم واحداً من دوافع عودتك. أمّا اليأس، فكان دافعاً أساسيّاً آخر! تنهار أحلامُك من علٍ.. خلاصات نصف قرنٍ شُحنتَ بها وضقتَ ذرعاً من عذاب حملها والتجوال بها.. أشياءُ بسيطةٌ عن الوطن والناس والشمس، خبزٌ طازجٌ يحمل رائحة تنانير قديمةٍ يشتعل حطب الغابات في باطنها. تطوّر ذلك كلّه. من إباء الظلم وصولاً للتطلّع إلى الخلاص من صانعيه ودفنهم تحت تلال جورهم. مضى ذلك كلّه وانقضى؛ الأناشيد والنياشين، أشجار الليمون والبرتقال والأسلاك الشائكة، عساكر يتجوّلون قرب ضفاف الأنهار فيعكّرون ماءها ويلوّثونه، أحلام الطفولة والموت العذب المشتهى الذي يخطّ درباً نحو شمسٍ لا تعرف أفولاً بعد سطوع صباح... كلّ ذلك مضى.. أضغاث أحلام.. لا شيء، لا شيء إلاّ الخواء. تبصر الدمار يتنزّل جحيماً من السماء ويصعد من الأرض والبحر؛ شعبٌ قدّم ذبيحةً لإعلان همجيّة العقد الأخير من القرن العشرين... اختلطت المياه العذبة والنخيل المشرئبّ بالجثث والدماء الطافية والمعادن المنصهرة لآلات حربٍ دفعها مهووسٌ بالربوبيّة إلى غير مواقعها ليصعد نجماً جديداً في سماء القوميّة التي أفلت شموسها إلى يوم الدين! محاولةً للاستعاضة والتعويض عن انهدام وتصدّع أفلاك السماء الثانية التي حلم السارحون بزرقتها بخبزهم وعشقهم ومستقبل أطفالهم. انهار كلّ شيء واتّسعت شقة السماء الثالثة الساعية لربط عالم الغيب بعالم الشهادة الكاذب الذي تجري حوادثه البائسة تحت سمعها وبصرها، وتأسيس مملكة اللحى

وتسويد الرجل ومحق المرأة وذبح الصوت الآخر. عودةٌ مرَضيّةٌ للعصور الوسطى فرضها فراغٌ لم تستطع أحلام القرن العتيد إلاّ أن تكون سراباً في هاجرته الأبدية.

هل سلّمت سلاحك وخلعت بزّتك في تلك اللحظة وأنت تبصر ذلك كلّه على شاشتك الصغيرة الموصولة بالأقمار الاصطناعيّة التي تقيم للعالم أجمع ميزان عدالةٍ جديداً ممثّلاً بالطاقات الجبّارة لقوّة البطش والتدمير التي تنتزع المبادهة من الخصم وتلزمه بالموت من غير أن تتكبّد خسائر بالأرواح وبخسائر دنيا في أدوات ووسائط القتال؟ فرضيّة سيادةٍ جديدةٍ على الكرة الأرضيّة تستعيد أمجاد الإمبراطوريّة الرومانيّة على الجانب الآخر لبحر الظلمات.

أكانت هي اللحظة التي صادرت عمرك أم أنّها توازعتك واحتلّت خلاياك منذ أقلّ من عقد؟ يوم حملت حقيبتك وسلاحك الفرديّ ودمك المحرور وجسداً معفّراً بالذلّ والعار، عجزت شواطئ المتوسط اللازوردية كلّها عن غسلك من آثارها واستطاعت خمورُها أن تنسيك مهانتك إلى أن اختلقت موعداً تشهر فيه إفلاسك بعد عقدٍ من معاناة النزع والاحتضار الطويل. أعدت لتعلن توبتك، أم لترى في ماضيك بقعة الضوء الوحيدة التي أنارت ذاكرة أيامك؟ النجمة التي هدَتْ على البعد خطوتك والواحة التي حمتك من السوافي؟ كلّ ذلك... كلّ ذلك... لا، فأنتَ ما عدتَ أنت! وماضيك اتّخذ صوراً مخالفةً لحقيقةٍ تلبّستك فخلتَها هي، وما كانت هي، باتت شيئاً مخالِفاً، شيئاً ينزع الآن لأن يوحي بأنّك افترقت عن نفسك لحظاتٍ وهاأنت تعود إليها! ويميل للتضحية بوعيك على محرقة أنّك لم تتغيّر وأنّ سوء فهم شديدٍ وقع وعليك العودة إليها الآن. من الكاذب منكما ومن الصادق؟ وإنْ كنت أنتَ فلماذا تسعى الآن للرجوع عن قرارك بالعودة؟ لماذا ترى فيه خطأً لا يُغتفَر وتعلن أنّ موعدها لم يحن بعد وأنّك كدت تجهضه في تلك العودة المبكرة؟ ولكن، أتقوى على غير ذلك؟ هل تنتحر لتثبت أنّك

منسجمٌ مع نفسك وحسب؟ أيّ منطقٍ يسوّغ تضحيةً مجّانيّةً لا تفيد ولا تنفع؟ من أجل ماذا؟ كيما يؤكّدوا للخليقة أنّهم على صوابٍ وأنّ كلّ من قال لهم لا أو لم يرضخ وينخدع بأكاذيبهم عائدٌ لا محالة تائباً أو ميتاً، سيّان! لماذا تمنحهم تلك الفرصة ليستخدموك أمثولة؟ لا، لن تكون لقمتُهم سائغة، هو زمنهم فليعيشوه، لكنّي لن أسمح لهم بمصادرة زمني، تقاعدتُ عن زمنهم وأريد تعويض بعضٍ من سنواتٍ عجفاء نكراء مضت هدراً وصبّت في جيوبهم وجيوب الفاتحين!

إذن لماذا قتلتها؟ قل الآن ما الفارق بينك وبينها، بين القاتل والقتيل؟ فعل القتل، أم لأنّك تستطيع المغادرة بينما هي تضطرّ للبقاء وثمن البقاء فادحٌ ولا يستطيعه إلاّ كلّ قادر؟ المتاح الوحيد لها ليس سوى الموت، وقد رفضتَه أنت منذ قليل فلماذا قدّمتَه لها مجاناً؟ أكان قصاصاً؟ إن كان كذلك فاقتصّ من نفسك مثلما اقتصصت منها فتكون قد عدت، لكنّك لن تفعل لأنّك تبصر نفسك من منظارٍ آخر تُلزِم الآخرين بالنظر خلاله.. لا يشاهدون إلا المقروء والمسموع منك، أمّا الخافي والباطن والمستور فهو مباحٌ لك محرّمٌ على غيرك!

كيف أبقى وما من رابطٍ يشدّني لأيّ شيء؟ لا الحجارة تعرّفتني ولا الأشجار ولا الماء ولا الناس. تنكّروا لي جميعاً حتّى التي عدت كرمى لعينيها، الوشيجة الوحيدة الباقية التي حلمتُ أن يبعث خصبُها رمادي سخّرتني للبحث عن ابنة أختها مؤجّلةً البحث في علاقتنا إلى أجلٍ غير مسمّى! تنكّرت دون أن يقول لسانها ذلك... بل قاله جسدها... ولفظته روحها! من؟ حتّى أمّي التي أرادت أن تضمّني ضمّةً واحدةً قبل أن يسلموها للتراب لم تحتمل انتظاري، وصلتُ.. وكانت مسجّاة! لم أستطع أن أبكي غيابي في حضرتها.. لم أفعل سوى توسيدها الثرى وإهالة التراب فوقها، لكنّ ما أهال التراب عليّ الشقاق والتنازع الحاقد على بقاياها الزائلة؛ اجتمعوا كلّهم، ليس لتوديعها بل لتقاسم لحمها على مرأىً ومسمعٍ منها

وهي تحتضر.. وهي تلفظ آخر أنفاسها، تنتظر كفّاً تودّعها وتهبها شجاعة استقبال الخلاء والعدم. لم يلتفت أيّهم إليها، تركوها ليتشاجروا على ملابسها وحليّها وعيونُها لا تزال شاخصةً ترقبهم برعبٍ متسائل، أيّة كائناتٍ ولدت، وأيّ زرعٍ حصدت؟ ولأنّهم وجدوا في عودتي شريكاً غير متوقّعٍ في قسمة إرثهم الموعود حاربوني، تحالفوا رغم خلافهم واتّفقوا على طردي شرّ طردة.. قرفتهم ولعنت الساعة التي أخرجني فيها إلى الدنيا نفس الرحم الذي أطلقهم بقماءتهم وكلّ قبحهم. من المسؤول عن كلّ ذلك؟ الأب؟ الأمّ؟ ابتعادي ونأيي، أم ظروفهم التي دفعتهم لأكل لحوم بعضهم كيلا يأكلوا لحوم أنفسهم؟ أيّة قذارةٍ تلك؟ وأيّ عيشٍ وأيّ موضعٍ لي داخلها؟

لكنّ ذلك كلّه بقي بعضاً من شروط عودتي احتملتُه بصبر. حتّى الخيانة التي أودت بجميل لم تكن في حكم الشاذ والنادر وكذلك إيقاع العقوبة بالفاعل، لكنّ الذي أدماني وأفقدني اتّزاني وأرهق طاقات صبري موقف رحاب! ما الذي تريده بعد؟ أتيتُها بقدميّ، أما كفى ذلك تكفيراً واعتذاراً؟ لا يمكن لنا البقاء هنا يا رحاب، بل يجب. كيف؟ هل تريدين لنا أن نتلوّث مثلهم؟ نتلوّث مثلهم ومعهم خيرٌ من أن نتلوّث وحدنا! لن يتركونا بحالنا يا رحاب. فعلوا ذلك دوماً يا أدهم، لم يختلف الوضع ولم يتغيّر، لكنك لم تعشه لأنّك هربت بجلدك فما مسّك لظاه! لم يبق من العمر الكثير يا رحاب. على العكس، ثمّة متّسعٌ رحبٌ إن بقينا على حالنا ولم نتخلَّ عن أنفسنا! لا تفهمي أبداً، كلانا يختلف عن الغنم وراعيه ولا يمكن أن نكون أحدهما. نسيتَ الذئاب وكلاب الحراسة! لماذا تشاكسين يا رحاب؟ لأنّك تريد إزالة إدانتي لك عن طريق دفعي لفعل ما فعلتَه أنت! أتقولين ذلك الآن؟ بالطبع أقوله الآن فهو لم يخطر ببالي يوماً لأنّي انتظرتُك دوماً، وما حسبتُ أنّك ستأتي يوماً لتقول: شدّي رحالَك، ما من موضعٍ لنا هنا! هل أنت مقتنعةٌ أنّ موضعنا هنا؟ مثلما اقتنعتُ وحلمتُ وتيقّنتُ من عودتك، ولكن على غير هذه الصورة! إذن تقولين إنّه ما كان علي أن أعود؟

أقول، صار لزاماً عليك أن تتغيّر! أتعنين أنّ عطبي كان جوهريّاً؟ يبدو الأمر هكذا، وعلينا مواجهته كما هو! أنتِ لست ديّانة عمري. بلى لأنّك كنت ديّان عمري، حكمتَ عليّ بانتظارك الموعود ثم أخلفتَ عهودك ومواعيدك! ولكنّني رجعت. لستَ أنت من رجع، ليس من انتظرتُه على الأقلّ! ما عاد لنا غير هذه الفرصة يا رحاب. إذن لنستغنِ عنها، لا أحتاج فرصةً تلحق بي العار وأنقله لأولادي! أيّ عارٍ أيّتها الجاحدة المجنونة؟ الحلم بعيشٍ يُشعرِنا بأنّنا كائناتٌ بشريّةٌ أضحى مثلبةً تُلحِق العار؟ لا تماحك بالألفاظ يا أدهم، تغالط نفسك قبل أن تغالطني، تعلم أنّني أتحدّث عن شيءٍ مخالِف! أيّ شيءٍ مخالف؟ هل طلبتُ أكثر من الرحيل إلى حيث نحيا كبشرٍ أسوياء؟ ظننتكَ تعلّمتَ درساً مفيداً من غيبتك، حسبتُ أنّك أبصرتَ روحك وهي تهلَك فعدت كيلا تتركها للفناء، حفظتْ غيبتك جسدك فما الذي فعلته بروحك؟! لكن بقاءكِ أورثكِ انتهاك الجسد والروح وشماً لن يزول، سيرثه أولادك ويورثونه لأولادهم نسلاً ملعوناً إلى نهاية العالم والدنيا. فقط لأنّني رفضت الامتثال لرغبتك بفرارٍ مجّانيٍّ جديد؟! ليس لهذا، بل لأنّك تريدين البقاء حيث تُهدَر كرامَتك مائة مرّةٍ في الساعة الواحدة من غير أن تجرؤي على الاعتراض أو الاحتجاج أو إبداء الاستياء حتّى.. كانوا يقولون، اليد التي لا تقدر عليها قبّلْها وادعُ عليها بالكسر، اختلف الحال فباتوا يردّدون، قبّلها وادعُ أن تظلّ فوقك ترعاك. إذن ابقَ، علّمني أن أستاء وأحتجّ وأعترض وأغضب وأحاول كسرها من غير أن أقبّلها! انتحارٌ مزدوج، ظللنا ننتحر ببطءٍ شديدٍ على مدار العمر يا رحاب، لا الموت أتانا ولم ترضَ بنا الحياة، دعينا نحاول طريقاً أخرى. كان انتحاراً يطلب الحياة في الموت ومنه وخلاله، لكنّك تطلب لجوءاً للحياة في ظلّ موتٍ سقيم، تطلب عقماً يجعلك تحيا وأطلب خصباً يمنح الحياة استمراراً بعدي. ألا ترى الفارق؟! هل تركتِ لي عينين لأبصر؟ تريدين أن أسلّم عنقي للذبح وحالما يجري دمي وأتخبّط فيه بحثاً عن رأسي المقطوع تقولين انظر، تلك هي شهوة الحياة. لا سيّدتي،

لا أريد حياةً كتلك. أريد رأسي فوق كتفيّ وأريد قبضتي لأستخدمها دفاعاً عن نفسي، وإن لم أستطع أبحث عن المكان الذي سيسمح لعقلي أو ساعدي بالذود عن كرامتي والحفاظ على تمايزي عن عالم الحيوان. إذن سيّدي، ستعود إلى حيث كنتَ وحيداً، لا مكان لي في رحلتك السردابيّة تلك فقد كرهتُ الأنفاق والمغائر المعتمة ورفيف أجنحة الخفافيش وضباح نبات آوى داخلها.. ما تقبّلتها يوماً ولن أتقبّلها الآن. أريد شمساً، حتى لو كانت متشرنقةً بأسلاك شائكة، أستطيع رؤيتها على الأقلّ، أحزن لها وأدعو للتخلّص من سببها! موتي إذن وأنت تنتظرين استجابة دعائك واكتبي على شاهدة قبرك: «سمعت وأبصرت وانتصرت». كوني قيصراً آخر دون أمجادٍ سوى ظلال الزيزفون على قبورٍ دائرة، ولتشرق الشمس إن استطاعت شعاعاتها اختراق شرنقتها ولتمسح عظامك بدفئها. كم أخطأتُ بمقامرتي عليك، قلت الموت في جانب ورحاب في الجانب الآخر! أبيت الإصغاء لندائه ولبّيت نداءك طائعاً مختاراً لأكتشف أنّني مجرّد غبيٍّ عمي بصره وبصيرته فظنّك نجمةً وما كنتِ غير شرارةٍ خامدةٍ في بهيم الليل. حسنٌ إذن، تعامل مع ما سمّيته غباءك، حاذر مرّة أخرى الشرارات المنطفئة! لماذا يحدث ذلك يا رحاب؟ كيف نكون قريبين حدّ الالتصاق ونصير نائيين نأي الشمس عن الأرض؟ لأنّنا ببساطةٍ فشلنا في فهم شروط حياتنا وعجزْنا عن إيجاد دورٍ لنا فيها، لا يؤكّد ذلك إلا أنّ المرء لا يتعلم إلاّ من تجربته الخاصّة! وبعد، أما من أمل؟ في حالتنا ليس ثمة آمل! أقول وداعاً؟ لا تتعب نفسك، قلتَها منذ أمدٍ بعيد! وأنتِ؟ أنا؟ دعك منّي الآن وحاول أن تتدبّر أمورك، سأتعلّم أنا أيضاً، ربّما ما كان عليّ انتظار أحدٍ غير نفسي!! ألا نحاول مرّةً أخرى؟ دعنا نعترف، ما من حدٍّ أدنى يؤهّلنا لإجراء نقاشٍ عاديٍّ، فكيف بحوارٍ مصيريّ؟ تظلمينني وتظلمين نفسك. ما من أحدٍ يظلم أحداً، يتصرّف المرء أحياناً بحماقةٍ ويسوّغ حماقته بالادّعاء بأنّه خاضعٌ لظلمٍ أو اضطهادٍ أمليا عليه مواقفه التي لم يرتضها لنفسه يوماً!!!

أيّة حماقة؟ أليست الحماقة افتراض أنّني سأرجع إليها فأجدها كعهدي بها مثلما افترضت أنّها ستجدني كذلك؟ كيف أغفلتُ حقيقة أنّ العالم كلّه انقلب رأساً على عقب وأعفيتُ نفسي وأعفيتُها من ذلك الانقلاب؟ لم أفكّر حتّى في إمكانيّة التغيّر. أيُّ صبيٍّ كنتُه؟ وأيّ طفلٍ أردتُ العودة إليه وأيُّ زمانٍ أحاجني للّجوء إليه؟ الحقيقيّ الذي لا لبس فيه وحدتي مع الليل مرّةً أخرى.. هاربٌ مطارَدٌ منبوذٌ ومحكومٌ بموتٍ مؤجّلٍ أضحى الآن بحكم المعجّل. ولأنّني لا أريده الآن، أهرب من ملاحقته اللاهثة.

يتطلّع حواليه... تخلو الشوارع وتركض ظلالُه حوله، تسبقه حيناً وتتأخّر عنه أحياناً، تجانبه لكنّها لا تفارقه كأنّما تذكّره بقدَرٍ ملتصقٍ به لن ينفكّ عنه طالما استمرّ على قيد الحياة. وهو يريد أن يحيا بغير ظلّ!

عاوده القنوط.. سال كقطرانٍ ساخنٍ في تجاويفه. لو أُحسّ بما يربطني بأيّ شيءٍ مهما صغر وتفه لقلتُ إذن: مت هنا! لكن ما من شيء. تذكّر جميلاً لكنه أبعده عن ذهنه دون تعليقٍ ولا تعقيب. أين سأمضي؟ تردّد السؤال صدىً محمولاً منذ البدايات البعيدة تحت جفنيه. متى يتوقّف ذلك السؤال؟ لن يتوقّف إلاّ حين تصطدم بوطنٍ يكون مهداً ولحداً وفي كليهما يكون انتماؤك فتدافع بشراسةٍ عن ذلك الانتماء!

ما من مفرّ... ستنتظر قليلاً ثمّ تنهي ذلك الحوار الشاقّ والحاسم مع رحاب. وبعدها.. يكون الأفق قد اقترب بحيث لا تحتاج إلا لقفزةٍ صغيرةٍ تدخلك مداه...

القسم الثالث

«تــأبــيــر»

[illegible]

[illegible]

حنين

وفي الأحلام تبزغ مدائن أخرى، تنهض شموسٌ مغايرةٌ تبدّل ألوانَها وشدّة إشعاعها وتسير في مداراتٍ استقلّت بها تصعد متى تشاء وتسقط وقتما ترغب، شموس مغايرةٌ تعني عوالم مغايرة، ما من وقتٍ يزامن صباحاتها ولا أفق يوقّت مواعيد مساراتها. تسعى، رغم مفارقاتها، لتكون عيداً متجدّداً لا يتّصل بذكرى ولا يوقظه فصل.. عيدٌ لذاته ومن ذاته، فيه وعبره تخلق اللذّات المحرمات التي غادرت أسوار ألفتها فصارت طريدة الذئاب وصائدي الجوائز! أيّة مدينةٍ تلك؟ وأيُّ عصرٍ كارثيٍّ خيّم على بيوتها فطوى معالمها وباتت نسخةً مكرورةً فقدت امتياز اختلافها وافتراقها باللون! والليل موعد، دربٌ يمهّد لتقاطع دروب تتوازى نهاراً وتبحث عن صلاتها ليلاً...

هل افترقنا دهراً هروباً من هاجس بحثٍ بات أثقل من أن يُحتَمل ثم التقينا عند بوّابة السؤال بعدما صار احتمال الثقل أهون من تلقّي الموت معلّباً ومغلّفاً بألوان زاهيةٍ وشرائط حريريّةٍ فاقعة؟ فكّرت صفاء وهي تستبدل ثوبها في غرفة نومها من غير أن ترفع عينيها عن جسد حنان الملفوح بشمسٍ نحاسيّةٍ وقد لفّته نضارة خُضرَة ثوب نومٍ لم يغادره ندى الصباح. انبسط الجسد واسترخى داخل الثوب الفضفاض بعدما تخلّص من أسر السروال والقميص الضيّقين. بدت فتيّةً مثل روحها، لا يمكن لجسدها عبور الهرم من غير أن يدخل توأمه في بوّابة التحوّل ذاتها! لكنّ كلاً يصرّ على الاحتفاظ

بطفولته الخاصّة فتراهما يتنافسان دوماً كأنّ أحدهما يأنف أن يكون سبب تغيّر الآخر وتحوّله. كم يبدو ثوبي أجمل عليها كأنّه يخصّ جسدها مذ التحمت أعشابه!

ـ هل أبدو جميلةً؟ سألت حنان متطلّعةً عبر المرآة إلى عيني صفاء الدهشتين إثر انكشاف فضولهما، فأجابت صفاء معتذرةً:

ـ كنت أردّد ذلك في صمتي، قلتُ إنّك منحتِ الثوب روعةً كان يفتقدها.

ضحكت حنان قائلةً:

ـ كفاكِ أيّتها الشقيّة، الله يجبر بخاطرك، لكن لا تبالغي فتجعليني أُفتَن بنفسي. إنّ أكثر ما يأسر فيك وداعتك وصراحتك فلا تفسديهما بمحاولة إرضائي.

تشربت وجنتا صفاء بحمرةٍ قانية وهمست:

ـ لا وحياة الرب، أحكي جدّاً ما أحسّه، كدتُ أحسدك، هنالك ما يعزّي إذن في فضاء العزوبية.

تابعت حنان ضحكتها الرقراقة كماء الغدران وهي تعقد شعرها عند منتصف عنقها وقد ارتفع الثوب كاشفاً انسياب فخذيها على انحدار ركبتيها:

ـ لا تصدّقي ذلك أبداً، سأستبدل بغير تردّدٍ ودون ندمٍ كلّ بشعٍ بكلّ ما ترينه جميلاً لقاء طفلٍ أضمّه إلى صدري وأشمّ أريج لحمه الزهريّ العطِر.

واصلت صفاء ارتداء ثوب نومها الأبيض، بدت عروساً نسيت في عينيها آثار حدادٍ قديم، أسى إغلاق الأبواب والنوافذ على أول عشقٍ بين كتب المدرسة ودفاترها، في الأوراق الملوّنة التي تحوي كلماتٍ قلائل وكثيراً من رسومات العصافير والأزهار وقلوباً مدمّاةً وسفائن تُشرع قلوعها ونجماتٍ

في ليلٍ بنفسجيٍّ تشعّ متوهّجةً كأضواء الإعلانات في أوّل المساء، عاشت عليه طويلاً وهاهي تودّعه لآخر مرّةٍ فما عاد لقلبها أن يصرّح به وعليها أن تقفل عليه بمفاتيح لحمها حتّى آخر الدهور. اصطفاها الأسى ملكةً للحزانى فما استطاعت شيئاً من أجلهم، كان يمكن أن تحزن حتّى الموت، لكنّها لا تستطيع شيئاً حيال منع الموت أو إلغائه أو حتّى تخفيف وطأته. وهاهي أشباح الوجع تلاقيها في منتصف الدرب فلا تدعها تعبر ولا تبيح لها الرجوع!

ـ حنان، ما الذي يفرّقنا ويدفعنا للنأي؟ تخيّم علينا لحظاتٌ نكره فيها أنفسنا لأنّنا نكره الذين أحببناهم يوماً ثم افترقنا عنهم. ثمّة ما يحدث ولا نتبيّنه رغم أنّه يعزلنا وتزيدنا المصاعب عزلةً بدل أن تقرّبنا لتزداد قدرات تحمّلنا، شيءٌ يخالف المعقول ويناقض المنطقيّ، ثمّ فجأةً يحدث ما لا يخطر ببال، يقرّبنا ويدفعنا لاقتحام حيوات بعضنا كغرباء قبل أن نستعيد ألفتنا أو نرسّخ غربتنا. هل نحن من يتغيّر أم الزمن يتقلّب فيدفعنا للانقلاب على أنفسنا؟ لا، ليس الزمن! أنتغيّر لأنّ الطبيعيّ أن نفعل ذلك أم أنّ هنالك من يدفعنا لنتغيّر على هذا النحو وليس غيره؟ المفترض أن يتغيّر كلٌّ على شاكلةٍ مختلفة.

أحسّت حنان أن صفاء تسعى للهروب من مشكلةٍ دخلت طور الأزمة بتغيير اسمها، وأنّها تخاطب نفسها أو تسألها بصوتٍ مرتفع، فحاولت أن تكون عوناً وليس عبئاً:

ـ الزمن لا ينقلب على نفسه، نحن من نراه هكذا لأنّنا انقلبنا على أنفسنا أو أنّنا نرى انقلاب الناس على أنفسهم. علّمونا أنّ ظروف الحياة هي التي تصنع الفرد... لكنّ ذلك لا يحدث على نحوٍ آليّ، فهنالك تعقيداتٌ شتّى ومتغيّراتٌ كثيرةٌ تلعب دوراً حاسماً.

لكنّ صفاء لم تكن تصغي.. كانت تتّكئ على الصدى، تحاول أن تعيد تساؤلاتها إلى جذورِ منحتها شكلاً مستقّلاً وربّما مختلفاً.. تصاعدت أوجاعها المتراكمة على مهلٍ مزيحةً ركام النسيان الذي خفّف ظاهريّاً ثقل

وطأتها وتحرّكت مقلقلةً الاستقرار النسبيّ الظاهر، غير راغبةٍ في الآن نفسه في جعل مشاكلها محوراً لاهتمامٍ يبعدها ويعمي بصرها عمّا يعانيه الآخرون ويقاسونه. أشارت إليها مياهٌ سوداء عميقة الغور فحاذرت وحاولت مرّةً أخرى:

ـ نحن مختلفون بالأساس يا حنان، وهذا ما يدفعنا للالتقاء عند حدٍّ أدنى نستطيع المشاركة فيه، الآلام.. الضغوطات.. القهر المسلَّط علينا دون شفقةٍ وأحلامنا بعالمٍ أقلّ قسوةً. وحالما نعاني أكثر تدمينا وقائع الحياة وتشعرنا بعجزنا عن مواجهتها فينكفئ كلٌّ على ذاته محاولاً أن يسأل؛ ما الذي يبدّد الأحلام؟ ما الذي يجعل اليقظة أشدّ وطأةً من الكوابيس التي تداهم النوم؟ أنعذّب أنفسنا بطرقٍ مختلفةٍ أم نعاقبها لأنّها أخفقت بالدفاع عن نفسها أمام قوىً غامضةٍ تدفع المرء حيث تريد وتصيغه على هواها فيمقت نفسه قبل أن يزدريها؟ ننشطر أكثر، نكاد نصبح آلافاً في واحد، فكيف لا يكره المرء أشطار نفسه وكيف لا يكره أشطار أنفس الآخرين؟ وتلفّك الحيرة، فالذي يفرّق هو نفسه ما يجمع في نهاية المطاف. كيف وعلام؟ سيبقى ذلك خارج المعقول!

لكن حنان لم تستسلم، كان على إحداهما أن تظلّ واقفةً على «ناصية الحلم» كيلا تسقطا معاً في هاوية اليأس، وربّما الخبل أيضاً:

ـ ما يهمّ فعلاً ليس سوى اللقاء الموعود.. لأنّ الذين يريدون افتراقنا واختلافنا ويسعون لتصعيد ميول العدوان التي نواجه بعضنا البعض بها لا يفعلون سوى حماية أنفسهم وتأجيل مواجهةٍ محتّمةٍ مع الذين اعتُصروا حتّى آخر أرماقهم فاضطروا للصمت يوماً إلا أنّهم لن يسكتوا أبد الدهر. أنتِ نفسك تضطرّين للصمت والانزواء حرصاً على نفسك، ولكن حين ترين أنّ ذلك سيودي بها ستتوقفين عن ذلك حتماً، تهمسين أوّلاً ثم يعلو صوتُك ثانياً وإن وجدتِ مستمِعاً فسيرتفع صراخك في وجهه و...

قاطعتها صفاء:

ـ نفعل ذلك لنثبت لأنفسنا أنّنا نحيا في الوقت الذي نحتضر فيه دون لبس. سأكون صريحةً معك، تحكين عنّي أنا؟ لا بأس، لأكن مثالاً، هل تظنّين أنّني أستطيع احتمال حياتي ثانيةً واحدةً لولا الطفلان؟

سارعت حنان نحوها وهي تجيب:

ـ أظن أنّك ستفعلين، ليس الطفلان إلاّ التعليل المشخص لدافع الحياة لديك، وليس إحساساً بالمسؤوليّة تجاههما وحسب. لا يستسلم المرء بسهولة، هذا ما أعرفه وأحسّه بنفسي على الأقل و...

لم تحتمل صفاء أيضاً، فقد أضيئت الأنوار كلُّها وانكشفت اللوحة الملقاة في قاع بئر:

ـ ولكن لم يبق لي غيره يا حنان، الوحيد الذي أستطيع ائتمانه على الطفلين مضى وأنا مجتثّة الجذور والأغصان. ما إن استشعرتُ أمان حضوره حتّى غاب!

ـ جميعنا هكذا يا صفاء، ما من أحدٍ لأحدٍ في هذا الزمان. أما كفى ذلك تعزيةً؟

ـ تهاووا جميعاً.. واحداً إثر واحد.. تركوني عزلاء وحيدةً ومضوا.

جلست حنان قربها على طرف السرير، طوّقتها واحتضنت رأسها.. كان النشيج يدنو شاقّاً طريقه عبر زحمةٍ غامضة. ثمّ قبّلت رأسها مواسيةً:

ـ ألستُ قريبةً بما يكفي؟ لو استطعتُ لحملت معك صليب آلامك وسرت معك حتّى آخر الجلجلة و...

ـ وأنتِ؟ من سيكون قربك؟ من سيمسح جراحك ويواسي أوجاعك؟

جذبتها حنان أكثر نحو قلبها:

ـ ألا تقومين أنت بذلك؟

تبدّد النشيج، انسرب الدمع حارقاً كاوياً.. مطراً يهمي وما من تربةٍ تستقبل خصبه.

ـ لا أستطيع يا حنان.. لا أستطيع! كلّما أغمضت عينيّ وجدتهما أمامي؛ جائعيْن شاحبيْن، مرتجفيْن في صقيع يخترق العظام والأسمال! بتُّ أخاف على نفسي وأحرص عليها خوف أن يؤولا إلى ما أراهما عليه.

ـ لا تخشي شيئاً، ستظلّين قربهما حتّى تشتد سواعدهما و...

ابتعدت صفاء قليلاً، رفعت وجهها المحفور الوجنتين بحمضٍ كاوٍ يخترق العظم:

ـ تقولين، عليّ التخلي عنه؟

ـ بالتأكيد لا! ليس ثمّة خيارٌ ملزِم، هما أو هو. لماذا تحمّلين نفسَك ذنباً لم تقترفيه؟

ـ كيف لا؟ أما كنتُ أنا التي ألحّت عليه بالعودة؟ سألتُه ذلك ليس من أجل شقيقته، أنا، بل من أجل ابنيْ شقيقته. وما هي النتيجة؟

ـ النتيجة ليست من صنع يديك، أنت تعلمين ذلك تماماً فلماذا؟

ـ أنا أعرف شيئاً واحداً، أنّني بيديّ سبّبتُ ضياعه!

آنها رنّ جرس الهاتف فصمتت كلتاهما.. توجّستا، أيّ نذيرٍ في منتصف ليل؟ نهضت صفاء وسارعت لإيقاف الرنين المتواصل، أمّا حنان فما وجدت إلا نفسها وخيالها في المرآة. استلقت على السرير منهكةً وقد طُحنت بين حجري رحى، صفاء وإبراهيم. اختفى إبراهيم مرّةً أخرى، وعدني أن يبحث عن أدهم ويحضر إلى هنا ليصحبني إلى منزلي إن لم يجدني فيه. أما آن أوان إخبار صفاء بادّعاءات فريال؟ هل سيخفّف عنها ويهبها أمل لقاءٍ جميل؟ هل سيزيد أساها ويفاقم إحساسها الممضّ بذنبٍ لم ترتكبه؟ أكان عليّ أن أبات عندها؟ ألا تفوق حاجتي لقربها حاجتها لوجودي قربها؟ ربّما كلتانا بحاجةٍ لتحطيم العزلة التي تستنبت الأشباح وتوقظ الموتى فيمتلئ وقتك وتدخلين عوالمهم التي لن تستطيعي منها فكاكاً بعد ذلك! لا يصلح الاستمرار على هذا النحو.. وإن لم يأتِ إبراهيم بخبرٍ

يقين سنضطرّ كلتانا لأخذ إجازةٍ من الزمن والمضي إلى رحاب، ومعها ـ إن لم تكن قد التقته ـ سنجده رغم كلّ شيء!

أطبقت جفنيها وحاولت أن تحلم بيومٍ آخر، يتخلّى الناس فيه عن تفاهتهم، بشاعتهم، نذالتهم ودناءتهم، يدركون فيه بشكلٍ صحّي مدى احتياجهم لبعضهم البعض وتوقّف وجودهم على إشباع تلك الحاجة. لكنّ ذلك كلّه استعصى على عينيها، كأنّ الماء قد جفّ واختفى لون السماء... نادت إبراهيم أن ابسط وقتك وقماش لوحتك! شدّه واختر أزهى الألوان وانشرها يومي الموعود.. ارسم قوس الغمام يا إبراهيم وشدّني إليه وأطلقني!

داخَل صدى ندائها وقعُ خطىً خافتةٍ تكاد أقدامها تزحف فلا ترقى الأرض.. فتحت جفنيها وأبصرتها تفاحةً باح شحوبها بتهالكها، لا تقوى ساقاها على حملها، فوثبت إليها عارية القدمين. أحاطت بها تكاد تحملها كيلا تتهاوى فتعفّرها الأرض.. قادتها إلى سريرها متسائلةً، أيّة فجيعةٍ أخرى داهمتها؟ حاولت دفعها للاستلقاء لكنّ صفاء تصلّبت.. شخصت في مرآتها وتيهها فتساءلت خوف سقوطها الأخير:

ـ ألا تقولي يا صفاء؟

أحسّت رعدةً خفيفةً تمسك الجسد وترجّه بين ساعديها فاعتصرته ونضح الهمس ملتاثاً.

ـ لقد عاد وهو يحمل نعشه على كتفيه!

أتى الصوت من وادٍ سحيق، لم يكن صوتَها.. جرسٌ محايدٌ غائرٌ قطع مسافاتٍ شاسعةً قبل أن يتلاشى على شفتيها. سألت حنان ملهوفةً:

ـ من هو؟ ومن الذي تكلّم معك؟

ـ جميل. ومن استضافه!

سجا صمتٌ مريبٌ لم تحتمل حنان استمراره فقالت:

ـ أخبريني بربّك، ما الذي قالوه؟

ازدردت صفاء جفاف حلقها.. تجرّحت غضاريفه فبحّ صوتها:

- ادّعوا وجود ورمٍ خبيثٍ في ظهره. اشترطوا عليّ التعرّف عليه إن رغبت في استعادته!

فوجئت حنان، ما من قولٍ ليقال، انتقلت إليها عدوى الوجوم وكان عليها أن تقول أو تفعل ما يعيد السكينة لروح صفاء. همست في أذنها:

- استلقي قليلاً، لم يسعفها القول فاعتذرت:

- ريثما أعدّ لك فنجان قهوة!

انسحبت.. في البعد تستعيد النفس تماسكها وهدوءها. فوق اللهب الأزرق النافث تساءلت بحرقة؛ لمَ تتركنا أمّهاتنا قبل فطامنا؟ وبكت، بكت لوعة الفقدان والغياب ومرارة الوحدة القسريّة.. بكت غياب الأب والأم والأشقّاء والأصدقاء والحبيب.. أرخت العنان لنفسها وما لم تفرغ شحناتها المتراكمة سيحدث الانفجار! وما لم تغسل روحها فلن تستطيع مساندة صفاء والوقوف إلى جانبها في محنتها. اثنتان ضعيفتان ستزيدان الوضع سوءاً ولابد لإحداهما على الأقل أن تتمتّع بقدرٍ من الصلابة يقي ويتيح للأخرى أن تستند إليه من غير خوف انهياره! بكت زمناً تجدُ فيه الناس جميعاً - وليس أعداءك وحسب - ضدّك لأنك تحبّهم وتريد لهم أن يكونوا خيراً ممّا هم عليه! يَسمونك بشتّى النعوت، يعيّرونك بما لم تفعل، يطعنون في صدق انحيازك لهم ويشكّكون في وفائك وإيثارك وخوفك عليهم فيضحك الجميع عليك؛ الأصدقاء والأعداء.. المحبّون والكارهون.. المسامحون والحاقدون.. المظلومون والظالمون. ينقلبون جميعاً عليك فتصبح هدفاً مباشراً وسهلاً لهم أجمعين. يتفقون عليك، ينفقون مالهم وعرقهم للقضاء عليك لأنّك تخالف الأوّلين وموضع خوف الثانين من فضحهم وتعرية سوءاتهم أمام الأوّلين. وفوق هذا وذاك تفرّد وحيداً كمصابٍ بطاعونٍ أو جذامٍ يضطرّك حجرك الصحيّ لاحتمال محنتك وملمّاتك وحيداً ملعوناً محروماً من حلم المشاركة

والمواساة! وذاك لا يصيب البعض بل كلَّ من يأبى الانضواء تحت راية الركب، يحتفظ بمسافةٍ ـ مهما ضؤلت ـ تقيه عدوى الاندماج بهم، يؤمن بزوال ذلك كلّه ولو أنّه لا يعرف متى، ولا يجرؤ على محاولة العمل على زواله، لكنّه لا يستطيع أن يكون بعضاً منه طواعيةً. قسراً، يختلف الأمر، فلن تكون أكثر من نملةٍ في عشّ نملٍ كبيرٍ يخضع أعضاؤه لمنظومةٍ من الأوامر والتعليمات يسهر على حراستها وحسن تنفيذها أفرادٌ كانوا الأسوأ في التحوّل لجنس الآلات الصمّاء؛ لا يفقهون شيئاً ولا يحسنون سوى الإصغاء وتطبيق أوامر صانعيهم بحذافيرها. نقصانٌ، لا! زيادة، لا بأس! يتقنون معاداة من لا ينتمي لأسيادهم.. خدمٌ حقيقيّون فقدوا ارتباطاتهم بالكائنات البشريّة، أقلّه وهم بعيدون عن أسرهم وأطفالهم إن كان لهم أسر وأطفال! الفارق الوحيد أنّ البعض قد سلّم روحَه طواعيةً أو كراهيةً فتقمّص الجسد الذي مُنِح له، بينما لم يرضخ البعض الآخر في العمق رغم ظاهر تقمّصه، فصار الجميع يراقب الجميع ويرصدهم خوف أن يكون أيّهم مرصوداً أو مراقباً وعليه أن يَسبق قبل أن يُسبق. ثم يكتشفون في النهاية انكفاءهم وانطواءهم على أنفسهم، يخشونها أكثر من خشية أنفس الآخرين.. يسكبون أحقادهم عليها لأنّها خنعت بدل أن يصبّروها على من دفعهم للخنوع. هذا ما كان عليّ قوله لها وهذا ما يدفع أولئك البعض ممّن لم تتشوه أرواحهم ولم تتشيّأ نفوسهم ولم يتحولوا لكائناتٍ أدنى، أولئك من سيلتقون مجدّداً لأن ميولاً حقيقيّةً تعبّر عن جوهر توقهم الإنسانيّ ستدفعهم للقاءٍ هو خلاصهم الوحيد والبديل الحقيقيّ لخروجهم من نزع احتضارهم الأبديّ. لكنّني الآن ما عدتُ قادرةً على ذلك، ما عدتُ قادرةً على فعل ذلك.

غلت القهوة فانسكب السائل البنّي وسال منحدراً حتّى لامس اللهب فاحترق وأطلق دخاناً نبّهها فملأت فنجانين واتّجهت نحو غرفة نوم صفاء... دخلت فلم تجدها، دهمها فزعٌ مُبهم.. خاطرٌ غامضٌ بأنّها لم تحتمل الصدمة وأنّها ستؤذي نفسها انتقاماً ممّا سببته لشقيقها من شقاء. سارعت الخطو نحو

غرفة الطفلين متضرّعة أن تجدها هناك تستمدّ قوّةً من وجودهما وضرورة رعايتهما إلى أن يكبرا، فتحت الباب وتلمّست الجدار ثم ضغطت المفتاح متغلّبةً على خشية إيقاظهما؛ ما من أحدٍ غير النوم وطفلين.. أغلقت الباب بتؤدةٍ بعد إطفاء النور ثم جالت أنحاء البيت الغريب كمجنونةٍ تبحث عن ضحيّةٍ تقتلها غيلةً وغدراً... لمحت باباً متطرّفاً، أملها الوحيد بعد أن اضطرّت لتفتيش الحمّام والمطبخ وسقيفة تسلّقت الجدار إليها. تفحّصت مزلاج الباب الخارجيّ وتأكّدت أنّه لم يُفتح فاتّجهت عجلى متوتّرةً نحو الباب المفضي لأمل لقياها، وضعت كفّها على قبضته وابتهلت، ليتها هنا! فتحته على مهلٍ خوف اصطدام عينيها بما تكره رؤيتَه؛ غيابها! لكنّ رطوبةً معتّقةً فغمت أنفها وتعشّقت رئتيها قبل أن تبصر عيناها شيئاً. خالتها مستودعاً أُقفل ولم يُفتح منذ دهر، أطلّت برأسها وتلمّست اتّساعاً تلفّه الظلال؛ في الزاوية اليمنى البعيدة انسكب ضوءٌ برتقاليٌّ كمخروطٍ اقتطع لنفسه حجماً في الفراغ وانصبّ على رأسٍ مشوّش الشعر انحنى فوق طاولةٍ خشبيّة ولولا الثوبُ الأبيضُ الأليفُ لتساءلت؛ شبح من هذا؟ همست قبل أن تخطو الخطوة الأولى وقبل أن تعتاد عيناها العتمة المشوبة بأطياف ضوءٍ شاحب همست:

- صفاء ... صفاء...

أتى الجواب صدى صوتها بعدما جال الخلاء مصطدماً بالجدران باحثاً عن أذنٍ تمتصّ رنينه عبثاً فعاد لأذنيها محبَطاً واهناً بعد أن اختلط بأجواء المكان. أقبرٌ سرّيٌ أم غرفةٌ خفيّةٌ في هرمٍ لم يُكتَشف بعد؟ مسّتها رعدةٌ وسّعت مقلتيها وأسمعتها وجيب قلبها، هل أحلم؟ وضعت القدم الأولى وعاودت الهمس:

- صفاء أجيبيني... لماذا لا تردّين؟

لكنّ الشبح المستغرِق في عمله الغامض لم يلتفت إليها بل أشار بيده يدعوها للّحاق به. لم تطمئنّ، أرادت أن تسمع صوتها كي ما تتأكّد أنّها هي. فكّرت أن تتراجع، تغلق الباب وتنتظر خروجها لكنّها ضحكت من

نفسها. أبتِّ تخشين عفاريت الليل وجنّه في آخر عمرك أيّتها البلهاء؟ سارت إليها وأحسّت أن قدميها تغوصان في أعشاب لزجةٍ تمتصّ وقعهما وتعيق تحرّكهما كأنّما لاصِقاً علقهما ومنعهما من التنقّل. أخلع خفّيَّ إذن، وما أفعل إن التصقت قدماي؟ أقطعهما ناحية الكاحلين! وكيف أمشي بعدها إذن؟ تابعت سيرها، وقفت وراءها، لمستها برؤوس أنامل كفّها وحالما أحسّت حرارة دمها قالت ملهوفةً:

ـ ما الذي تفعلينه هنا يا صفاء؟

تطلّعت من فوق كتفيها فرأت ألبوماً مفتوحاً على صورةٍ ميّزت فيها امرأةً ريفيّةً تلفّعت السواد وعصبت رأسها به.. تستطلع ساهمةً في الفراغ ومن خلفها بدت الطبيعة جرداء ماحلةً كأن قحطاً أصاب الأرض وساكنيها!

أتى صوت المرأة مبحوحاً تلبّس حنجرة صفاء التي باحت بنجواها:

ـ أبحث عمّن أضعتُهم، عمّن تركوني ومضوا كأنّني مدانةٌ دوماً بالجحود والنكران فترينهم يبعدون عني. أقول، لا تبعدوا! لكنّهم ينأون، تأخذهم الظلال إليها ويغيبون في غياهبها.

ـ حسنٌ، قومي نشرب قهوتنا وبعدها نعود إليهم.

توسّلت حنان... فناحت صفاء ملتاعةً...

ـ لا أستطيع يا حبيبتي، لقد دعوني وما عدتُ قادرةً على عدم تلبية ندائهم.. ما عدتُ.. ما عدت!

أُرتِج عليها فتسمّرت نصفٌ تحت الضوء ونصفٌ في الظلال؛ تمثالٌ من شمعٍ تضفي عليه الأنوار يقين الموت وتمنحه العتمة ارتيابَ الحياة!

ـ بلى تستطيعين، حاولي فقط. سنعود معاً بعد قليل... أو لنأخذ هذا الألبوم معنا ونتصفّحه هناك في غرفتك.

ـ هناك اثنان غيره!

ـ نأخذها جميعاً و...

لكنّ صفاء قاطعتها:

ـ أخاف عليهم أن يختفوا أيضاً. احتفظتُ بهم طويلاً ومنعتُ نفسي، حرمتُها من مشاهدتهم زمناً طويلاً لأنّني أردت أن تلتقي عيناي وعيناه على صفحاتهم... لكنّ عينيه ستستحيلان فراغاً معتِماً يملأ محجرين من العظم لا أجرؤ على دفع إصبعيّ داخلهما للتأكد من خلوّهما من ومض مقلتيه وبلل دمعه المحتَبس في غوريهما!

بدا لحنان أنّ صفاء لم تحتمل الصدمة وأنّها وطأت أرض الغياب والنسيان بعدما انهارت. لكنّها كانت واهمةً لأنّ صفاء في تلك اللحظات كانت تستعيد على نحوٍ غريبٍ وغير مألوفٍ ولا يدخل في نطاق أيّ منطقٍ صفاءها الحقيقي وعلائقها مع الزمان والمكان اللذين أضحيا شيئاً خارجاً عنها وعن إرادتها ووعيها. أمّا الآن فهي تعيدهما إلى موضعهما كما تعيد الأمور إلى نصابها.. علاقتها مع نفسها وعلاقتها مع العالم. تعيد تأسيس ذلك كلّه على أرضيّةٍ بدت لها صلبة، لم يُشِع الموت المتأرجح فوقها الفناء في وشائجها بقدر ما أيقظها من سباتها ونفض الغبار عنها فاستفاق النيّر والساطع وتمطّى الكالح والعاتم.. المسار الذي يتّخذ سمة الكابوس حيناً وسمة حلم جميلٍ حيناً آخر!! الخليط العجائبيّ الذي يشكّل في نتائجه الختاميّة خلاصة محتويات الحياة. كانت أقرب لالتقاط حقائقَ غابت عنها زمناً ثم اكتشفتها مصادفةً وفي محاولةٍ لتأكيد ذلك استقامت، واجهت حنان متداخلةً بالضوء الساقط، ناشرةً ظلالَها الخاصّة على ملامحها. أزاحتها ثم خطت نحو جانب الباب فدخلت الظلال ثمّ انتشر الضوء فعمّ المكان... غشيت عينا حنان لثوانٍ ثم اعتادتا الضوء وانكشفت الفسحة التي لاذت بالعتمة. أدار رأسَها امتلاء الجدران بلوحاتٍ من مختلف الأحجام حتّى أنّها أخفت وراءها لون الحوائط وشكلها. بدت الغرفة مغارةً سحريّة؛ جدرانها صندوق فرجةٍ انتُزعت نوافذه وجدرانه واختصّ بلوحاتٍ أجمعت خلفياتها على أفقٍ واحد.. تدرّجات البنفسجيّ في شتى تبايناته حتّى كاد يطغى على الأطر

الخشبيّة البنّية. على تلك الأرضيّات ظهرت وجوهٌ وأجسادٌ ورؤىً غامضةٌ تنسج طبيعةً خاصّةً تخالف المألوف، تعرفها وتحسّها لكن يستحيل عليك تعيين مكانها. حتّى الوجوه، تدفعك للجزم بأنّ لكلّ واحدٍ منها معك قصّة ما في زمنٍ ما خارج المكان وجد يوماً ثم امّحى من ذاكرتك لولا أنّ انطباعاته لا زالت قويّةً تدفعك لتقول له: مرحباً، ألم أرك البارحة؟ هل تذكر أين؟ والعلاقة المميّزة الأخرى.. خطوطٌ سوداء عريضةٌ تتداخل مع كلّ لوحةٍ باعتبارها كتلةً تشكيليّةً أساسيّةً لا تستطيع أيّ عينٍ إلاّ أن تراها جزءاً جوهريّاً وطبيعيّاً من اللوحة لكنّها تتبدّى وهي تجمع اللوحات جميعاً وتصبغها بصبغةٍ خاصّةٍ كعلاقةٍ تعيّن المشترَك والجامع بينها كما هو التوقيع المرافِق لزاوية كلّ لوحة. في اجتماعها وتفاصيل التقائها توحي بحدادٍ مستمرٍّ وقائم في كلّ لحظةٍ رغم بهجةٍ تتخطّف ألوان السماء والأفق المنحني على الحقول وأزهار عبّاد الشمس. حتّى في السهوب القاحلة التي شقّق تربتَها انحباسُ المطر تجد في زاويةٍ متطرّفةٍ ما يوحي أنّه قادمٌ لا محالة على غير موعدٍ وبعيداً عن أيّ توقّع.

لم تُخرِج حنان من دهشتها إلا يدُ صفاء وهي تمسك رسغها وتجول معها الجدران واحداً تلو الآخر إلى أن توقّفت في الزاوية المناظرة لتلك التي وقفتا عندها في البدء حيث انتصب حاملٌ استندت إليه لوحةٌ غير مكتمِلةٍ تنضح بفوح الزيت وطزاجة الألوان كأنّما مرّت الفرشاة عليها بالأمس فقط. لا تستطيع العين تمييز محتوياتها للوهلة الأولى؛ كتلةٌ هائلةٌ من سوادٍ تباينت تدرّجات شدّته على كتلٍ متلاصقةٍ لا يفصل بينها خطٌّ حادٌّ ولا منحنٍ وفي أعلى الوسط قريباً ممّا يُفترَض أن يكون خطّ أفق اللوحة انفرجت فوهةٌ بنفسجيّةٌ تحمل عبق فجرٍ سحريٍّ لا يُرى إلاّ في الأحلام.. اللحظة الأكثر إبهاراً لانبلاج الفجر وتفتّق الحقيقة على ضوءٍ لا يزال يُصنَع ويُشكَّل على مهلٍ كي ينهض في التوقيت المحدّد، لا ثانيةٌ أقلّ ولا ثانيةٌ أكثر تميّز العين خلاله كتلتين لخيالي امرأةٍ ورجلٍ يصعدان بصعوبةٍ تجاه كتلة الضوء الوحيدة

التي تنير اللوحة على سعتها باعتبارها مصدر النور الوحيد. تحار العين! أثمّة كهفٌ ضخمٌ يتطلّع المرء وهو يستند إلى قاع جوفه نحو فوهته البعيدة أم أنّه في فضاءٍ مفتوحٍ يختنق في بؤرةٍ قد تشكّل بوّابة عبورٍ نحو عالم الضياء؟ تلتقط الروح الرسالة دون قدرةٍ على تسمية محتواها.. يصل الخطاب دون أن تدرك كنهه رغم إحساسٍ عارمٍ وطفليٍّ بأنّ هنالك ما ينقص لتكمل اللوحة استحواذها الأخّاذ واستيلاءها على رائيها. عينٌ بصيرة.. أصابع مرهفةٌ ويدٌ حاذقةٌ وروحٌ معذّبةٌ تحيا في شقاءٍ أبديٍّ دون الخضوع أو التذلّل لجبروته فتنطّع لاستخراج فرحٍ غامضٍ منه وفيه.

كان ذلك معبدها المقدس الذي بنته من بقايا وآثار أبيها. سألتها حنان مسحورةً:

ـ ما هذا؟

لكنّ صفاء لم تجب بل قادتها إلى جانب الباب... على الأرضيّة وفي أطرٍ أبنوسيّةٍ لامعةٍ استقرّت مجموعةٌ من الوجوه تفصلها حواجزها السوداء؛ وجه امرأةٍ ترتدي ثوباً أسود، قالت حنان في سريرتها، أعرفها، أعرفها. وحين التفتت إلى صفاء لتسأل اكتشفت أنّ الوجه يطابق وجهها، نسخةٌ أصليّةٌ لا زيف فيها. الاستثناء الوحيد ابتسامة المحيّا التي تمنع حياديّة الأبيض والأسود من ممارسة دورهما في إضفاء إحساسٍ بزمنٍ منقضٍ، فتشرق مانحةً الوجه ألوانه الطبيعيّة، بينما يغرق كلوح وجه صفاء بالأسود والأبيض رغم ألوانه البادية بوضوحٍ تحت سطوع الإنارة. بعدها صورة رجلٍ يرتدي قميصاً أبيض مطويّ الأكمام فوق سروالٍ أسود، يتقدّم نحوك على مهل ملوّحاً مبتسماً خارجاً من غابةٍ نشرت شذاها فتقدّمه على حصىً أبيض شكل درب قدميه فتقول بعد هنيهةٍ في نفسك: لقد وصل، وعليّ أن أبادر وأمدّ يدي لمصافحته. وفي الإطار الثالث وجه رجلٍ حزينٍ يتطلّع بأسىً نحوك كأنّما يرثيك أو يواسيك. وفي الإطار الأخير مشهدٌ أخّاذ.. صورةٌ بالأبيض والأسود لسهولٍ واسعةٍ تحدّها في الأفق جبالٌ غطّتها جميعاً غلالةٌ سميكةٌ

من ثلجٍ هشٍّ لا تخدش نصاعتَه إلا سكّةٌ حديديةٌ ضيّقةٌ تتلوّى فوق الأرض السهلةِ صاعدةً الجبال يلتمع فولاذ معدنها كأنّما خُطَّ بقلم طافحٍ بفضّةٍ مُذابةٍ حزّت الثلج، وعلى الميمنة وفي مستوىً قريبٍ مؤخّرةٌ ضخمةٌ لقاطرةٍ مهجورةٍ ظهرت بوضوحٍ سلاسلها وأخشابها وعوارضها الحديديّة وعجلاتها الفولاذيّة التي تشرّبت لون السكّة لكثرة احتكاكها بها، جاهزةً للانطلاق حالما يقرع ناقوسٌ ظهر جانبها مستنداً إلى عمودٍ خشبيٍّ حاذى رصيفاً نهض إلى جانبه الجدار الحجريّ الأماميّ لمبنى المحطّة الصغيرة ذات السقف القرميديّ المائل فوق عمود الجرس. أمّا عمدان خطوط الكهرباء أو الهاتف فقد بدت فاحمةً وما من كائنٍ بشري! أين اختفوا في ضباب الصباح الباكر ذاك؟ ألاذوا بالمحطّة التماساً للدفء أم اكتظّت بهم القاطرة استعداداً لنقلهم للجبال أو ما وراءها؟ أم أنّهم ببساطةٍ بقوا في بيوتهم تجنّباً لطقسٍ رديء؟

حين تساءلت حنان عن معنى ذلك كلّه انحنت صفاء على الأرض، فكّت الإطار ومن تحت صورة القاطرة استخرجت صورةً مكبّرةً لشابٍّ طويلٍ كثّ اللحية والشعر يبتسم بمرحٍ وهو يخاطب مضيفةً أرضيّةً في مطارٍ مجهولٍ ملوّحاً أمامها بتذكرته وجواز سفره. التفتت إلى حنان دون أن تقف:

ـ آن أوان إخراجها، أليس كذلك؟

لم تفه حنان بحرف، ابتلعت غصّتها وأوحت لنفسها أنّها لا تفقه شيئاً ممّا يدور حولها. أدركت وحسبُ أنّ المكلومة التي تجثو أمامها تبحث عن سلوى ولا تجدها وأنّ عليها ألاّ تتيح لروحها فرصة خذلانها فتتهاويا معاً. أخذتها من كتفها وأنهضتها:

ـ هيّا، لقد بردت القهوة!

أطاعتها صفاء، مضت نحو ضوء المكتب فأطفأته ثم أطفأت الأنوار وهما تغادران. تذكّرت حنان أنّها أغفلت التطلّع إلى السقف، أثمّة عجائب أخرى تهطل منه؟ ودّت لو تبقى برهةً أخرى وتطلب من صفاء نثر أضوائها

ثانيةً لتلقي نظرةً سريعةً عليه، لكنّها تعجّلت خروج صديقتها من مغارتها لتحاول إعادة اللُّحمة إليها وحملها على لمّ شتاتها الذي توزّع في أنحاءٍ شتى.

انطفأ ألق وجهها وفي جوفيْ حدقتيها المعتمتين تراكم غمامٌ هتون.. هناك في أعماقها تراكم ما يعتصرها على مهلٍ ويتركها نهباً للسوافي تُعمِل في جفافها أخاديد وحزوزاً عميقةً تشبه عمر الجبال! أمّا حنان، فقد حارت في ما تفعله! حاولت دون أن تتقصّى ردود فعل صفاء التي أمسكت فنجانها واستغرقت في اختراق سطحه البنّي لتلمس قاعه البعيد:

ـ نسيت أخبارك، قيل إنّهم أمسكوا أدهماً! لكنّي لا أصدق ذلك!

انتفضت صفاء، تمزّقت بين فرحة نجاة جميل وحزن استبداله بأدهم:

ـ من أخبرك؟ ولماذا أخفيتِ ذلك طوال الوقت؟

ارتبكت حنان، إذ لم تتوقّع السؤال:

ـ صديقٌ لي يدعى إبراهيم، لكنّني لا أثق بمن نقل الخبر إليه وافترضتُه كاذباً فلم أخبرك.

تملّت صفاء وجهها ثم قالت ببطء من يتراجع خائباً:

ـ محض افتراء! لو أنّ الأمر كما قيل لكان جميل بيننا الآن.

ـ هذا ما قلتُه لنفسي أيضاً، لكنّ احتمال احتفاظهم به لفترةٍ أطول يظلّ ممكناً.

حاولت ألاّ تُزهِق أملاً باهتاً، لكنّ صفاء استدركت:

ـ لا، لن يبقوه ثانيةً واحدة، سيعاقبونه على ادّعائه الكاذب ثم يرجعونه.

ـ لا يبقى لنا إذن إلاّ البحث عنه و...

قاطعتها صفاء مستنكرةً:

ـ من أجل ماذا؟

تمهّلت حنان، إذ كان عليها قول ما لا يقال، ارتابت بأنّهما استبدلتا المواقع، ومع ذلك فقد صار واجباً أن يُذكَر ويُقال. تساءلت في سريرتها، أتراه يعرف أنّ جميلاً محكومٌ بموتٍ معجّل؟ وإن كان يعرف، فكيف فكّر؟ أما قال إنّ عمره انقضى ولن يغيّر في الأمر شيئاً تألّمه أيّاماً قلائل في نهايات عمره أم أنّه يفكّر حقّاً بإنقاذه؟؟ من يتوقّع شكل استجابتك يا أدهم؟! ومع ذلك فإنّني أجزم أنّك لن تتخلّى عنه، لن تدعه لقدرٍ مشؤومٍ هيّأ له موتاً في الغربة فغافله وعاد ليتوارى قرب أمّه وأبيه، فكيف ترتضي أن تتضاعف عذابات احتضاره بتسويغ هروبه من غربةٍ إلى غربة وخضوعه لمصيرٍ لا مفرّ منه؟ قد تقول: ليست المشكلة في كيفيّة الموت بل في الجدوى المستخلصة منه، إن كان سيموت لا محالة فما الفارق بين أن يموت مستمدّاً شجاعة غيابه من عيني شقيقته وأصدقائه أو متطلّعاً في جدران قبره غيرِ المعَدّ أو في عيني حارس بوّابة جسده المصادَر؟ ستكون الطامة الكبرى لو فكّر على هذا النحو، سيكون ذلك في صلب المنطق والمعقوليّة لو فعل ذلك وهو يرى أنّ بقاءه في موقع الفعل والحركة خيرٌ من تبادل الأماكن مع الموتى. أمّا حيث الخمود والخدر الذي لا ينتهي، فسيبدو منطقاً سقيماً ومعقوليّةً عقيمة! قامرت على خياره المنسجم مع القيمة الحقيقيّة لجوهر نظرته للحياة وموقفه من معناها وقالت:

ـ من أجل أن نخبره بوضع جميل، لن يرتضي تركه وحيداً على تلك الحالة.

بُهتت صفاء:

ـ كان لك موقفٌ مغايرٌ منذ زمنٍ يسير!

سارعت حنان:

ـ لأنّ الوضع تغاير خلال نفس الزمن...

لامتها صفاء وهي تحدّق في عينيها:

ـ تعلمين أنّني أرفض الإشفاق عليه أو عليّ أيّاً كان مصدره.

ـ ومن يفعل ذلك؟

ـ أنتِ وانقلاب موقفك!

كيف تهيّأ لها ذلك، تساءلت حنان، هل فعلتُ ذلك حقّاً؟ لا، أبداً، لقد عاد ليموت قريراً فبأيّ مسوّغ ترتضي له أن يموت غريباً؟ تنبّهت لنفسها؛ أتعامل مع موته كأنّه حقيقةٌ واقعة، أرثيه وأتبنّى موقفي بناءً على ذلك! كيف تحسب تلك المفرطة الحساسيّة أنّني أتعامل معها أو معه بعواطفي؟ ألا ترى أنّني أبعد ما أكون عن ذلك؟ كان يحسُن ابتعادُها عن نقاشٍ سيحتدّ وتفجّره احتداماتهما معاً:

ـ حسنٌ، انقلاب موقفي لا يتعلق بشفقتي عليه بل بمحبتي له. ألا تشربين قهوتك؟

صمتت صفاء وغضّت طرفها، رشفت من فنجانها ثم قالت على حين غرةٍ وبصوتٍ متهدّج:

ـ سأتحدّث إليه، أوضح له الموقف، لكنّني لن أطلب منه أو أسأله شيئاً، كذلك ستفعلين أنت!

انزاح ثقلٌ عن صدر حنان، تجاوبت أخيراً معها فعملت على استمرار تواصلهما دون تنغيص:

ـ أعدك بذلك.

ـ من أين سنبدأ إذن؟

اطمأنّت حنان واستعادت حيويّتها، لقد وضعت قدمها على الدرب الصحيح وليتها تستمرّ. لم تكن تعلم حتّى اللحظة أنّ تلك البداية بالذات هي التي ستوصلها للنهاية المفجعة التي ستؤول إليها، ولو أنّها علمت لحاربت بشراسةٍ لمنعها.

ـ من حيث يُفترَض أن يتواجد!

ـ ما قصدك؟

ـ سأقول، لم يرجع أدهم لأنّ أسباب مغادرته قد زالت، ولم يأت لتغييرها لأنّه يعلم أنّ الأوان لم يحن بعدُ لفعل ذلك. لم يأت إذن إلا بحثاً عن ماضيه المفقود، فردوسه الذي تخلّى عنه قسراً تحت دعاوى شتّى. عاد من أجل رحاب، أؤكّد لك أنّه ما كان ليرجع لو أنّها لم تعد موجودة!

ـ من رحاب تلك؟

ـ ألا تذكرينها؟ كلتاكما رسّامتان ومدرّستا رسم! لابدّ أنّك تعرفينها، سبق وأخبرتْني أنّها تعرف جميلاً عن قربٍ كما أنّها تعرف أباك و...

ـ لا تقولي إنّها رحاب رحّال! قالتها وانسحب وهج وجهها واستحالت قسماتُه رخاماً شاحباً.

ـ بلى، ومن غيرها؟ أي نعم، رحاب رحّال مدرّسة الرسم التي أشرعت بوابات أرواح تلاميذها على الطبيعة، رافضةً إغلاقها على الإسمنت والمعادن التي تبتدئ بالسلاسل وتنتهي بالبنادق. تعرفينها إذن. ولكن ما الذي دهاك؟

ابتسمت صفاء للمرّة الأولى بمرارةٍ وأسىً، قالت وشيءٌ من سخريةٍ لاذعةٍ يترجّع في جرس صوتها:

ـ لا أعرف غيرها!

تصاعد فضول حنان:

ـ وبعد؟

هزّت صفاء رأسها:

ـ ثمّة حكايةٌ طويلةٌ سأرويها لك فيما بعد. إذن هي ضالّتنا؟

ـ هكذا أفترض، أجابت حنان متردّدة.

ـ نبدأ صباح الغد؟ سألتها صفاء مستفسرةً. بات الوقت مسألةً ملحّة، ليس مهمّاً إن كان جميل يتعرّض لتعذيبٍ مستمرّ، المهمّ الوحيد أنّ حياته باتت متأرجحةً وستتهاوى في أيّة لحظةٍ من عليائها وتُسحق سحقاً فوق الإسمنت.

أجابتها حنان:

ـ بالتأكيد، غداً صباحاً سنمضي إليها مباشرةً بعد أخذي إجازةً من عملي.

ـ ننام إذن؟ قالتها صفاء منهكةً، ولو أنّ قلقها الذي يتآكلها هو من أشار عليها بذلك، فقد احتاجت أن تنفرد بنفسها لتستطيع مناقشة الأمر برمّته وحيدةً كعهدها دوماً. لم يفت ذلك حنان فقالت:

ـ أمتأكّدةٌ أنّ النوم لن يجافيك؟ أستطيع أن أسهر معك إلى ما شئت.

رنت صفاء إليها ممتنّةً عاجزةً عن شكرها:

ـ أظن ذلك، علينا أن نرتاح قليلاً من أجل الغد.

ـ هيا إذن.

ـ دقيقةً واحدة لأطمئنّ على هلا وهاني.

سارعت حنان للوقوف:

ـ أنا من سيفعل ذلك.

مضت... أطلّت على الولدين؛ كانا مستغرقيْن في النوم، غادرتهما الكوابيس وأحلام الفجر المفزِعة التي تنتزع الطمأنينة من النفوس وتدمّر سكينة الأرواح مثلما تنتزع الأمّهات والآباء من أحضان أطفالهم فتتركهم موزّعين مشطورين لآلاف الشرائح التي تتداخل وتتهاوى وتعصف بها ريحٌ هوجاء تُفقدها ارتباطها بما يضفي عليها الاستقرار والأمان. سيكون فجراً هادئاً ولن تضطرّ للالتجاء للجارة الصديقة. أمّكما ستبقى قربكما... وغداً أو

بعد غدٍ ستقفان على عتبة فقدانٍ مروّع، ستُخرجان من ذاكرة الوجود خالكما وتلحقانه بتجاربكما الأولى مع الصدوع التي تخلّفها تقوّضات الرحيل الذي ما بعده رجوع. ناما إذن استعداداً لسهادٍ قد يطول أياماً فلن يأتيكما النوم طالما سيجافي أمّكما ليالٍ طوالاً. أغلقت الباب بخفوتٍ ومشت على رؤوس أصابع قدميها، لمحت غرفة النوم مطفأة الأنوار ومن جوفها أتاها صوتٌ هامس:

ـ أرجوك أطفئي نور الصالة، المفتاح على كتف الباب الأيمن.

ضغطته فهطل العتم وداخله نورٌ أخضر خافتٌ أعانها تلمّس الدرب إلى أن وصلت السرير وتحت آثار الطيف الزمرّدي تبيّنت الجسد الملفوف بالأبيض ملتصقاً بالحائط مستلقياً على ظهره ضامّاً ذراعيه تحت رأسه.

ـ هل أغفيت؟

ـ لا ليس بعد!

بات خفوت الجرس نسيماً حمل حنان إلى حافّة السرير.. وعلى سرير الزوجيّة السابق استلقت امرأتان فاتّسعت الوهدة بين التلعتين الخضراء والبيضاء. همست الأولى:

ـ لا تقلقي يا صفاء، سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام.

أجابتها الثانية متردّدةً:

ـ دعينا نتمنّى ذلك!

ـ لا تقنطي يا صفاء، نحن نحيا وحسب على ذلك الضوء الخفيّ الذي لا نبصره إلاّ في أحلامنا فيعيننا على تلمّس درب ليلنا. صدّقيني، ليس ما يحدث غير عاديٍّ أو استثنائيّ، أما انقضى عمرنا ـ باستثناء لحظاتٍ قصارٍ أثبتن القاعدة ـ على نحوٍ مشابه؟

تنهّدت صفاء:

ـ بلى، بلى. ولكن إلامَ ستحتمل أرواحنا؟ ألا تحتاج وشلاً من ماءٍ تتّكئ عليه كيلا يكسرها الجفاف؟ صدئنا وتحطّم صدأنا، انهارت عقولنا لعجزها عن استيعاب ما يحدث وعن فهم كيفيّة تحوّلنا نقائضَ لأنفسنا ونحن نبحث عن خبزنا ومائنا وثيابٍ ودفءٍ لأطفالنا وكرامةٍ تقيهم مذلّة السؤال وعار سبي أرواحهم. لو أنّني بعتُ روحي أو أجّرتها مذ عُرِض عليّ ذلك ورفضتُ فدفعتُ غالياً ثمن رفضي لما صرتُ موضع نقمة الجميع ولستُ سوى معلّمة رسم تخلّت طوعاً أو كراهيةً عن فنّها كما تراه هي وليس كما يفرضونه عليها، تُمنَع عني أبسط حقوقي في المدرسة وفي النقابة وأُحرَم منها لأنّني لا أُحسن الإلحاح والتوسّل والانحناء والتملّق والنفاق ولا أؤدّي ما عليّ من واجبات الولاء وإظهار الطاعة والتعبير عن حسن النيّة بهديّةٍ أو وليمةٍ أو ليلة سرير! ولأنّني رفضتُ إلاّ أن أفتح أبصار تلامذتي وأوجّه ذوائقهم وأنمّي أحاسيسهم بالجمال الحقيقيّ لتستطيع أرواحُهم التمييز بين الغثّ والسمين، بين الحقيقيّ والزائف، بين المشتهى الواقعيّ ووهم الخرافة! أسأل دوماً كأنّني أحسد نفسي؛ لولا البيت الذي تركه لنا المرحوم أبي بكدّه وشقائه، بوسائله المشروعة أو غير المشروعة، كيف كان حالي والطفلين؟ هل أستطيع تأمين ما يسدّ رمقيهما ويستر جسديهما ويتيح لهما الذهاب إلى المدرسة؟ لقد انتقم أعمامي منه وحقّقوا ثأره فينا فابتلعوا حصّته الصغيرة من إرث أبيه وأورثونا الإهمال والنسيان. كلّ ذلك لأنّه لم يخضع لهم وتزوّج المرأة التي أحبّها رغماً عنهم فاقتصّوا منه شرّ اقتصاص، اجتثّوه من عالمهم ووصموه بالعقوق والإباق!

حاولت حنان التخفيف عنها:

ـ مضى ذلك وانقضى، دعينا للحظتنا، ألا تكفي لتلهينا عن سواها؟

ـ ما من شيءٍ ينقضي يا حنان، أنت تعلمين ذلك وتهربين منه كيلا يزداد حجم معاناتك. نحن ملاحقون بماضينا.. ندفع الآن ثمن ذاكرتنا الخاصّة وذاكرتنا الموروثة. ثمّة من يستغلّ ذلك ويستخدمه لتدميرنا فكيف

ننكر ذلك ونحن نكتوي بلهيبه؟ أما دفعتِ ولا زلت تدفعين ثمناً لما ليس لك به علاقةٌ لكنّه يمسّك ويلقي على عاتقك مسؤوليّةً كبرى تجاهه؟ أما كان سؤالك عن شقيقتك بعضَ ذلك؟ وفوقه سندفع ما يترتّب على سلبيّتنا وصمتنا وخجلنا من عار تقبّل العيش صاغرين داخل جلده دون أن نفكّر بخدشه أو تمزيقه. هنا لا أحكي عنكِ فأنت حاولتِ وفعلتِ لكنّكِ حوربت طويلاً كيما تذَلّي وتُقهَري، لم تستسلمي لكنّك اضطررتِ أن تنأي بنفسك. آسفة، لم تفعلي ذلك، لكنّ الجميع انفضّوا عنك، بعدوا كيلا يطالهم أذى الاقتراب منك وشروره، فهل بقي لك إلاّ الالتجاء لمراياك الخاصّة انتظاراً لأزمنة تحوّلاتها فتنكشف على الآخر وتتقاطع في حقول التماسّ؟!

ومجدداً حاولت حنان، كانت في موقعٍ دقيقٍ وحسّاسٍ وكان عليها أن تذود عن موقفها وتحدّ في الآن نفسه من آثار تطرّفه المدمّرة!

ـ ما أقصده أنّنا حين نعمل في أفق حلّ مشاكلنا من جذورها والتعرض جبهيّاً لجوهر أعطابها دون امتلاك القدرة والإمكانيّة فإنّما نسعى عبثاً. أمّا تجزئتها ومنحها درجاتٍ متفاوتةً من الأهميّة بحسب أولويّاتها فيمنحنا فرصةً أكبر لإيجاد حلولٍ معقولةٍ لها.

ـ لا يا حنان، لستِ أنتِ من يقول ذلك، لو كان في قولك شيءٌ من الصحّة لما انكفأنا جميعاً على أنفسنا ولما اتّخذ كلّ واحدٍ مساره الخاص متقصّداً ألاّ يتقاطع مع مسار الآخر. فكّرتُ حيناً أنّنا نخجل من تصفّح وجوه بعضنا كيلا يفتضح ما يُشهِر عارَنا عالياً، ثمّ أرى أنّ المسألة باتت أعقد من ذلك، باتت رؤية وجه الآخر بعضاً من النظر إلى الذات المكروهة فتتحوّل تلك الكراهية لعدوانٍ صريحٍ على الآخر، عدوانٍ يسعى لتدمير المشوّه الذي لا يريد أن يكونه، ولعجزه عن الانقضاض عليه في داخله ترينه يندفع لدحره في الآخر.. الصورة الندّ الأخرى والوجه المثيل المقابل! من يصدّق أنّنا ـ أنتِ وأنا ـ افترقنا منذ سنواتٍ ونأينا دون سبب؟ كنّا لصيقتين وما كنّا لنفترق.

حتّى خلال فترة توقيفك لم نبتعد عن بعضنا، كيف حدث وتخلّينا عن نفسينا؟ فقدنا الاهتمام حتّى بالاطمئنان على بعضنا، كأنّنا غرباء!

ـ حسنٌ، كلّ ذلك صحيح ولكنّ الصحيح أيضاً...

قاطعتها صفاء كأنّما لا تصغي:

ـ الخوف الحقيقيّ أن نكون في طريقنا لاستبدال عزلتنا الداخليّة الفرديّة بعزلةٍ خارجيّةٍ جماعيّة. معنى ذلك أنّنا نسهّل عمل من يدفعنا لذلك من غير فعل مقاومةٍ يكبح أو يلجُم مخطّطاته.

كانت المسافة بينهما تقلّ تدريجياً، والوهدة الفاصلة تضيق حتّى تكاد تنتفي، وما إن مالت كلٌّ واحدةٍ على جانبها حتّى تلاصق الأبيض والأخضر فاختلطا... وحال تعانقتا كانت كلٌّ واحدةٍ منهما ترتجف برداً ووحشةً وتوقاً للمجهول! حشرت صفاء جسدها في أحضان حنان.. كأنّما عادت طفلةً تلوذ بأمّها وتستجلب اندغاماً رحمياً يعوّضها عن رغبةٍ أثيرةٍ وولعٍ غريزيٍّ بالولوج إلى الداخل هرباً من قسوة وعنف وعسف العالم!

ـ حنان، منذ سنواتٍ طويلةٍ لم يلامس جسدي سوى جسدي طفليّ، أتطلّع في فراغ الغرفة فتنهشني مع الليل كلُّ خليّةٍ مستصرخةً وطالبةً لمسة جسدٍ آخر، نيرانٌ حارقةٌ تدفع للتلوّي وتودي للجنون... تتكرّر كلّ ليلة، لا يمنعها حرٌّ ولا قرٌّ ولا يعيقها فصلٌ ولا طقس... ثمّ تطفئ الجمرات لظاها فيّ واحدةً إثر أخرى فأصاب بحروق شتّى لا تلتئم لأنّها تتجدّد يوماً وراء يوم. قلتُ لا يمكن ذلك، سأصاب في النهاية بسعارٍ لا يتوقّف إلاّ وأنا أدور في الشوارع كقطّةٍ أفقدتها رغبتها واندفاعة غريزتها كلّ حذرٍ فراحت تحتكّك بالأرصفة وجذوع الأشجار وتخدش بمخالبها الإسفلت والحجارة متلوّيةً لا يُخفي مواؤها الموجع مطالبَ جسدها اللاهث. أتزوّج؟ لم أستطع ابتلاع الفكرة، اقشعرّ بدني لمجرّد التفكير برجلٍ غير يوسف في فراشي وأبٍ بديلٍ لطفليّ. وهل أستطيع مواصلة رعايتهما والاهتمام بهما كما أفعل؟

لكنّنا نحتاج لموردٍ إضافيٍّ يغطّي التكاليف غير المحتملة للعيش. تخلّيت عن الفكرة نهائيّاً، ليس قبل أن يكبر الطفلان ويستطيعا رعاية نفسيهما، أوف كم يبدو ذلك بعيداً وكم سيستغرق من زمنٍ ربّما لا أستطيع احتماله. قلت أختارُ حلاً أسهل، علاقةً عابرةً مع من يستطيع تفهّم وضعي والتجاوب مع مطالبي فرفض جسدي الفكرة، قرّر التموّت خوف الاستجابة.. زوجان من العيون سيرقبان ذلك.. وزوجٌ آخر سيطلّ من الغياب ليرقب آسفاً ما يحدث!

ارتعدت صفاء فشدّتها حنان إليها لتمتصّ ارتجاجاتها:

- كلّ ذلك طبيعيٌّ يا صفاء، جزءٌ من التوحّد والعزلة والوحشة التي تلعق أجسادنا وتلتهم أرواحنا. لا تستطيعين أبداً ممارسة ما لا ينسجم مع نفسك، حاولتُ أنا أيضاً مراراً، وفي كلّ مرّةٍ لا أجدني أدفع ثمن إشباع حاجاتي إلا مهانتي ومزيداً من الإذلال والرضوخ لسيادة الذكورة التي لا ترى في المرأة إلاّ جسداً تطفئ في أنهاره حرائق شهواتها ثم ترميه وتلفظه كعقب سيجارة...

- ولكن ألا نُلفَظ جميعاً على هذا النحو المهين؟ ألا نساط جميعاً بنفس السياط ونخضع دون تمييزٍ لنفس الجور والانتهاك والاستباحة؟ ما لم تكن معي فأنت عليّ، إن لم يكن اليوم فغداً، وعلى هذا سأعاملك كعدوٍّ في حالة كمون، أحطّمك وأسبيك قبل أن تنقلب عليّ! أيفسَّر كلّ ما يحدث بغير ذلك؟ نتساوى أمام المسألة الأهمّ ثمّ تنشطر المساواة فنخضَع نحن لها بشكلٍ مضاعف، لا يرحمكِ أحدٌ لا الأهلُ ولا الأصدقاء ولا الأعداء ولا الناس ولا أولياء أمرهم. حتّى الله يتخلّى عنك، يجابهونك جميعاً ويضغطون عليك من كلّ الجهات حتّى يحطّموك أو تستسلمين لهم وتعلنين بالصوت الملآن أنّك رهن إشارتهم وطوع إرادتهم.. كيف استطعنا تحمّل ذلك كلّه.. كيف؟

ومن جديدٍ حاولت حنان أن تجعل من جسدها درعاً يقي صفاء التفتّت وخندقاً يمنعها من الانهيار. كذلك تمسّكت بها جذعاً ينقذها من الغرق بعدما طمت اللجّة وكادت تغمرها. امرأتان وحيدتان تعتصران روحيهما

كيما تستخرجا بقايا النسغ لتتنفّسا منه معاً بعد عصف الموت، تتعضّيان على شراكة الجسد بعد أن فقد صلته بالحياة ومرّت فوقه سحابةٌ صفراء وريحٌ سمومٌ تستنفذ احتراقاتُها محتوى الرئات من الماء والهواء!

آنها تراكم غيمٌ رماديٌّ كثيفٌ طبقةً فوق طبقة.. تداخل واندمج حتّى وصل الأرض بالسماء واستقرّ فلا ريحٌ تزحزحه ولا شمسٌ تبدده.. ودون برقٍ ولا رعدٍ تداعت الغيوم، تفجّرت من جوفها وهمت.. همت كما لم تهمِ يوماً. انتحبت صفاء وناحت مكلومةً وملتاعة، مضى زمن هتك ثوبها وتمزيق شعرها وتعفيره بالتراب والرماد.. ارتاعت وانزاحت سكينتها وما عاد لها إلا النواح:

ـ رحلوا.. رحلوا جميعاً وتركوني، سامحتُهم لأنّهم خلّفوا وراءهم جميلاً. انتظرته، يئسوا من عودته ولم أيأس، طالبوا بإلغائه وضمّه إليهم كأنّما يستعجلون حضوري فقلتُ تمهّلوا، حالما يأتي أترك الطفلين وديعةً لديه ـ فليس لي غيره ـ وألتحق بكم، ليس شوقاً بل خضوعاً لإلحاحكم طالما ترون الطائر الأسود ينتدبني وهو يحوّم فوقي وينذُرني لكم بعدما نذركم للأبديّة وكرّسكم للفناء! لكنّهم ضحكوا سخريةً، لا تتكبّدي عناء الانتظار. ستأتين صاغرةً ولن تجدي من يحتفظ لك بهما إلى يوم لقائك الموعود! لماذا فعلتم ذلك بي، لماذا؟

علا نحيبها وصار صراخاً يثقب جوف الليل بأنينه الجارح والمفزِع، خشيت حنان استيقاظ الطفلين على صراخ أمهما ودفعت رأس صفاء في صدرها فشقّته بقايا صراخها وأعلنت عليه الحرب والحصار. حاولت بكلّ ما أوتيت أن تروّح عنها عبثاً، فات الأوان وعليها أن تهدر الآن في وجه الكون المحتبَس والمغتصَب في باطن روحها.

ـ لم أر تلك القرية إلاّ في الأحلام، وحين أبصرتُ تكرارها على لوحاته أدركتُ أنّها تخصّني مثلما تخصّه رغم أنّني لم أستطع الانتماء إليها يوماً، كأنّما خُلِعتُ عنها أو كأنّما وئدتُ في طينها دون أن يعترف أحدٌ أو يقرّ

بذلك! نبذته العشيرة كلُّها لأنّه استبدل رسم الأرض بزراعتها ورسم حقولها وبيوتها ونسوتها الحزانى وأسوارها الدائرة وحيواناتها وبشرها. كانت تلك قطيعته الأولى التي أورثنيها كاملةً غير منتقصةٍ دون أن يحكي الحكاية. اختلط الأمر عليّ من بدايات الطفولة وحالما أمسكتُ ألواني وأقلامي قلّدته. لكنّ قريته وشخوصها كانت تستحيل عبر أصابعي - حتّى في اللحظات التي كنتُ أقلّد فيها وأنقل - إلى مدينةٍ مسوّرةٍ تكثُر فيها حيواناتٌ خرافيّةٌ دون زرائب! إسفلتٌ بلون التراب وزجاجٌ بلون النيران.. كلُّ شيءٍ مخالِفٌ عدا لون السماء! عرفتُ فيما بعد أيَّ هاجسٍ كان يلاحقه وهو يصرّ على تشخيصها وأيّة محاولاتٍ مضنيةٍ بذلها للحفاظ على وشائج الذاكرة بعد فقدان روابط التاريخ وصلات الجغرافية، مثلما أفهم الآن وأعي ما كنت أفعله سوى أنّني كنتُ طفلةً حقيقيّةً وكان طفلاً كبيراً يرفض هجران تخم الطفولة لأنّ نيرانها ظلّت تطاله وتلاحقه بألسنتها حين اكتملت قطيعته عنها وتمّت حال اختار امرأةً أحبّها وباع دنياه وآخرته لقاء ضحكة عينيها. ظلّ ذلك الشرخ خفيّاً إلى أن تكشّف مع غياب الأم؛ في صيفٍ بعيدٍ بعيد، ثمّة طفلةٌ في العاشرة ترتدي ثوب الحداد وتقف بين أبيها وأخيها المسربلين بالسواد يودعان الحفرةَ الفاغرةَ تابوتَ أمّها قبل إهالة التراب عليه فينهار قلبُها معه، يحتبس دمعها، تغور مياهه وتنسدّ أقنيته فتلتمع العينان دون ماء. من فعل ذلك بأمّها؟ رويداً رويداً أجبتُ، اكتملت الصورة ولم أستطع تغيير الإجابة. حاولتُ أن أكون حياديّةً لكن دمها الذي لا يجفّ لم يسمح لي بذلك أبداً. اقترنت صورة الدم المتخثّر فوق رسغين مشقوقين، بعدما شكّل دائرةً حول جسدٍ ملقىً بإهمالٍ لامرأةٍ أدماها انهيار أحلامها قبل نزف جرحيها، بوجهٍ ضاحكٍ يأسر بمودّته وقدرته على جذبك وتقريبك من صاحبه. يهتزّ شعر رأسه الفاحم القصير مع التفاتاته الكثيرة وهو يعلو جسداً ضخماً لسبّاحةٍ أولمبيّةٍ أو لاعبة كرة سلّةٍ محترفةٍ لا تزال ترتدي زيّ مدرستها الثانويّة العسكريّ، كانت تلك رحاب رحال التلميذة المتميّزة في كلّ شيءٍ والتي

ترسم الوجوه بلمحةٍ واحدة، تتطلّع إليك ضاحكةً ثم تخطّ خطوطاً سريعةً ومركّزةً على رقاع الورق التي تحملها باستمرار وخلال وهلةٍ قصيرةٍ تمدّ يدها، ألا تشبهك؟ لم تكن الصورة تشبه بقدر ما كانت مرآةً نقلت أدقّ التفاصيل! طار لبّ الأستاذ بتلميذته، بدا كأنّما رأى روحه التي رسفت في أغلال العبوديّة تنطلق من أسرها عبرها وعلى خفق جناحيها، كأنّما أرادها صورته التي مُسخت وقُزّمت تحت ضغوط إعالة أسرته الصغيرة مع أنّ ذلك كان متاحاً بيسرٍ آنها. كان يدرّس نهاراً ويعمل في استوديو للتصوير استأجر آلاته وافتتحه في حيٍّ متطرّفٍ جنوبيّ المدينة، يرسم في باقي الأوقات ويرعى شؤون أسرته وينظم شعراً يلقيه على الأصدقاء والمرأة التي كانت زوجته وأقسما معاً يمين الولاء والوفاء والبقاء في السرّاء والضرّاء. بدا الحيّ السكنيّ الجديد لعينيّ؛ شارعٌ رئيسٌ عريضٌ ترتصف على جانبيه أبنيةٌ متوسّطةٌ جُهّزت واجهاتُ طوابقها الأرضيّة المطلّة على الشارع لتكون محلاّتٍ تشكّل في مجموعها نوعاً من سوقٍ تجاريّ. في زاوية المساحة المسوّرة الفارغة الفاصلة بين الرصيف وواجهة المحل - الاستوديو - الزجاجيّة، كنت ألوذ بشجرة زنزلخت يشتدّ عودها على مهلٍ مثلي، ومثلي انزوت فيما جميل يحادث أولاداً من الجوار مستندين إلى سيارةٍ توقّفت بمحاذاة الرصيف. أتى خريفٌ مبكّر، والشمس تغادر الأفق تاركةً بقايا شعاعاتها الباهتة فوق رؤوس الأشجار وأسطحة الأبنية. في ذلك الحين، كان ثمّة الكثير من الأشجار وكان بعضها عملاقاً يكاد يطاول الأبنية إن نظرت إليها من بعد. صدّقيني لستُ أبالغ.

كانت حنان تصغي مسحورةً، ما الذي يحرّك كلّ تلك الذكريات ويجعلها تطفو طازجةً كأنّك تشاهدها للمرّة الأولى؟ لكنّها سكتت بعد انقضاء الموجات الأولى العنيفة لزحف صفاء الذي تكسّرت هجماته المتوالية على نهديها وتلاشت مخترقةً صدرها وبطنها وفخذيها وذراعيها. كانت تحسّ ببقاياها تتردّد صدىً متخامِداً أسفل عمودها الفقريّ. لم تسمحا للهواء

بالفصل بين بدنيهما، بل كادتا تصيران إلى بعضٍ واحدٍ نسي شطريه فتداخل حتّى صعب فصل كتله وخطوطه وألوانه وروائحه. كأنّه توأمٌ رجع لتلاحمه القديم!

ـ هناك شاهدتُها أوّل مرة. كانت تزوره يومياً في محله وكان يضطرّ لأخذها معه، فقد أكثرت أمّي غيباتها، إذ كانت تلجأ لأمّها أيضاً هروباً من المشاحنات والشجارات اليوميّة التي صارت شقاقاً احتدم بسبب التلميذة النجيبة، ولم يفدهما الحرص على إخفاء ذلك كلّه فقد تمّ على مشهدٍ منّي ومن جميل. أحببتُها حالما وقع بصري عليها، وقد كلّفتني تلك المحبة ثمناً باهظاً حالما استحالت بُغضاً مفرطاً ومُقتاً شديداً. وقفت أمامي، داعبت شعري وسألتني إن كنت صفاء فقلت نعم، انحنت وقبّلتني فغطّتني ظلالُها.. بدت امرأةً كاملةً لولا شقاوة الطفولة في لفتات مرحها وعبثها اللاهي. في ذلك اليوم مضينا إلى المعرض، كنتُ سعيدةً بين الناس والأضواء الملوّنة والماء وصوت فيروز، كانا سعيدين كطفلين يلهوان في مكانٍ غريب. الوحيد الذي بدا منقبضاً وكارهاً للنزهة برمّتها حتّى أنّه ثابر على نهري ومنعي من الاقتراب منهما كان جميل الذي أحسّ وقتها أنّها تحاول احتلال مكان أمّه وأنّها سبب ابتعادها وحرَدها في بيت جده. تعامل معها بحساسيةٍ مفرطةٍ وصلت حدّ الخشونة والعدوان ممّا دفع أباه لتأنيبه وتقريعه بقسوةٍ من غير أن يرعوي أو يمتنع. ربّما كان فهمه المبكر وردّ فعله الطبيعيّ قد حرّراه مستقبلاً من منعكساته فتعامل بشكلٍ صحّي ومنفتحٍ مع من اعتبرتُها أنا قاتلة أمّي، أنا التي فهمت الأمور على نحوٍ مغلوطٍ وحين اكتشفتُ حقائقها لم أستطع أبداً تغيير موقفي. حسبتُ فيما بعد أن أمّي تعاملت مع الأمر باعتباره نزوةً ستمضي وتنقضي سريعاً، لكنّ ظنّها خاب وكان الذي أطاش صوابها أنّ الفتاة التي تنافسها على قلب زوجها وروحه وجسده ليست إلاّ صبيّةً لا تكبر ابنها إلاّ بأعوام معدودة. وآن أحسّت أنّها ستفقده إلى الأبد، قرّرت ألاّ تسمح له بذلك وكان لها ما أرادت. كان خيارها المتاح هو الحلّ الوحيد

الممكن لعدم التفريط به وإلزامه بعدم التخلّي عن طفليه. كرهتُها ولم أكرهه، لم أفكّر يوماً بأنّه خان أمّي أو كاد يفعل. سوّغتُ له الكثير، وفيما بعد غضضتُ الطرف كي أمنحه راحة النسيان، لكنّه لم ينسَ أبداً؛ اشتهيتُ رؤية ابتسامته مرّةً واحدةً بعد رحيلها ولم أظفر بها، تمنّيت لو ترجع رحاب وتعيد البسمة لشفتيه كما فعلتْ ذات مغيبٍ حين قبّلتني للمرة الأولى، إذن لكنتُ غفرتُ لها. لكنّها لم تفعل ولم يتكرّر ذلك المشهد، أذكره بوضوح، أراه، كان لحظتها كارهاً لنفسه وقد أمرني بالخروج من المحلّ بعدما نهرني وأبدى استياءه من وجودي دون مواربة، لكنّه ما إن رآها تقبّلني حتّى ترك عمله الذي استغرق حواسّه وهو يضع الرتوش على مسودات صور الوجوه المتراكمة أمامه بقلمه وهو يعرضها على بؤرة ضوءٍ شديدٍ تُبرز ملامحها وما شوّهته فيها انكسارات الإضاءة وتداخلات الظلال، فخرج هاشاً باشّاً ومرحّباً بها دون أن يلتفت إليّ أو يأبه بوجودي أنا التي أثارت حفيظته باكتشافها مجموعة صورٍ لعارياتٍ بأوضاعٍ مختلفةٍ وسألته عنها فما كان منه إلاّ أن عنّفني وطردني، ثم عرفتُ فيما بعد أنها كانت بعض وسائل عيشه التي أُرغِم عليها كيلا يتركنا للفاقة والحرمان أو ليُنفق منها على الحبيبة كما صوّرت لي مخيلتي لاحقاً. لكنّها لم ترجع ولم يسترجع طبيعته، حلّ محلّ كلوح وجهه حزنٌ عميقٌ ينطلق من عينيه كلّما أبصرني أنمو وأكبر. أفلتت شفتاه اسمها ذات ليلةٍ، وحين التفتُّ إليه مستغربةً أخفى وجهه بين راحتيه ثم جرع كأس ليلته الافتتاحيّ ليبدأ غيبوبةً لا تنتهي إلاّ صباح اليوم التالي. لقد أعلنت أمي موته فامتثل لها. كنت أرى تهاويه وتداعي بنيانه لبنةً لبنة لبنة واصل الرسم إلاّ أنّه مارس ساديّةً مفرطةً في تعذيب نفسه وحمّلها فوق طاقتها. آمن أنّ دمها في عنقه فثأر لها من نفسه، أفرط في إهمال جميل واختلفا مبكّراً. ومع أنّ جميلاً كان أكثرنا تفهّماً لانتحار أمه، إلاّ أنّه اتُّهم ظلماً بأنّه أدان أباه باعتباره قاتلها، ولو أنّه لم يفكّر في ذلك البتّة. أمّا الأب، فأرادني أن أكبر بسرعةٍ بحيث ينتهي دماره ويتقوّض نهائيّاً مع انتهاء دراستي الثانوية. لم

يحتمل جميل جحيماً حُشِر فيه، مشهد أبيه وهو يتلظّى متنقّلاً من طورٍ إلى طورٍ في محاولات نسيان عشقه الفتيّ والمذبحة التي تسبّب بها عبر تنفيذ حكم إعدامٍ بطيءٍ ومتمهّلٍ يكمل إنهاء حياته في لحظةٍ اختارها وأعدّ لها بعنايةٍ شديدة. لم يرحم أحداً حتّى نفسه، الوحيدة التي أعفاها من هبوبات جنونه ولوثات ثمله المستمرّ كانت أنا؛ يخمد سعار غضبه ويتلاشى آن يلحظني، ينظر إليّ ملء عينيه بحزنٍ يذيب الصفا فيُسبل جفنيه ويهمي.. كأنّما يعتذر عمّا فات وعمّا سيأتي! وحالما أغيب عن ناظريه، يعود مسُّه إليه أشدّ ضراوةً.. يُجهر باندفاعاته صوب هاويةٍ يقف على شفيرها الفاغر. لم يصطبر جميل فجابهه بقسوةٍ وصلت حدود الاتّهام بأنّه يسعى لتدمير حياة ولديه من خلال الانحدار الذي يتردّى فيه. حاول منعه من الشراب ووضع حدٍّ لإهماله دروسه وتلاميذه ومحل تصويره دون جدوى... فشل في ذلك كلّه، وما كان استمرار أبيه في الرسم نجاحاً بقدر ما كان قوّة البقاء الوحيدة التي جعلت فريداً يستمرّ إلى اللحظة التي قال فيها وداعاً...

ـ هل كان ذلك سبب مغادرة جميل؟ قاطعتها حنان محاولةً إخراجها من أسر ذاكرتها.

لكنّ صفاء لم تلتفت إليها بل تابعت:

ـ دون أن يترك وصيّةً، وحقّاً من غير وداع! جميل؟ المسكين، كانت تلك واحدةً من أشدّ أزماته التي ضيّقت الخناق عليه وما تركت له أفقاً يرنو إليه. المثال والقدوة بالنسبة له تحطما وصارا غباراً وما خلّفا إلاّ الخواء. كنت أراه يتضعضع من الداخل، لا يُظهر ذلك، لكن انفجاراته على أبيه دلّت على اجتياحات العنف التي كانت تمور وتدوّي داخله. معي، كان أرقّ من نسمةٍ كأنّما نذر نفسه لي أماً وصديقاً، حتّى أنّني ضقت ذرعاً بشدّة اهتمامه ومحاولاته المستميتة لمنحي حناناً ومحبّةً مفقودين. وقتها كنتُ متعلّقةً به كظلّه، حقيقةً ما كان لي غيره، فالشبح الذي يلوح أمامي لم يكن موجوداً كأبٍ حقيقيٍّ، كإنسانٍ يساهم في صياغة روحي. أمّا تعلّقي بجميل، فقد

استحال ولعاً حسبتُه حيناً وبعيد مراهقتي غير طبيعيّ! تبادلنا الموقع حين فرضتُ عليه وصايةً غير محتملةٍ حتّى أنّه كان يتذمّر مازحاً، لا الأم ولا الزوجة تفعلان بالابن أو الزوج ما تفعلينه بي! كأنّني حدست بمصيبةٍ ستحطّ على رأسه وتدمّر طاقات احتماله دافعةً به إلى المجهول. كان رحيل مي المفجع هو الذي دمّر روابطه وأطلقه من عقاله فمضى باكياً... لأوّل مرّةٍ رأيت دمع عينيه. تمزّق بين اضطراره القسريّ للرحيل وضرورة بقائه إلى جانبي، ثمّ أنقذه ظهور يوسف واطمئنانه أنّه لا يتخلّى عنّي بل يأتمن صديقه عليّ. ماكان يعلم أنّ حضور يوسف لن يطول، وأنّ موته المجانيّ في حربٍ قذرةٍ أمل أن يكون في خندق ما رآه حقاً، مضحّياً بكلّ شيءٍ ليساهم في محو بشاعاتٍ رآها بأمّ عينيه. ربّما لو عرف وقتها بالذي سيحدث فيما بعد لما وجد مبرّراً لتلك التضحية! وجد جميل في يوسف الذريعة التي حسمت موقفه دون أن تحسم موقفي أبداً، رفضت رحيله وهدّدت بترك يوسف إن أصرّ عليه، لكنّه لم يصغ، وكذلك لم يصغ حين سألتُه العودة لوداع أبيه. قال: ودّعيه عنّي وليساعدك الرب! ألححت عليه قبيل موت يوسف وبعده أن يعود، لكنّه كان يرفض متعلّلاً بشتى الأسباب، يكتفي بإرسال ما يستطيع توفيره من نقودٍ بين حينٍ وآخر، ويصرّ على إرسال هداياه لي وللطفلين في كلّ عيد. كان ينتظر وكنت أنتظر، وآن انتهى زمن الانتظار دخلنا ضباب الغياب بدل زمن الحضور! تلك هي الوحشة التي أسلموني لها وألقوني في بواديها عزلاء دون ماء. كيف أستطيع الصمود وحيدةً دفاعاً عن الطفلين وإيصالهما برّ الأمان؟ لمن سأتركهما إن حدث لي مكروه، ومن الذي سيؤويهما ويرعاهما بعدي؟

اعتصرتها حنان وهمست:

ـ لا تفكّري على هذا النحو ولا تقلقي، ستبقين معهما ولن يرعاهما سواك. عليك إراحة نفسك قليلاً وعدم التفريط بتماسكك واتّزانك، من أجلهما ومن أجله.

باحت صفاء على وجيب تنهّداتها:

- أودعني أبي يا حنان أمانةً، طلب منّي إن لم استخدمها أن أسلّمها لابنتي و...

أجهشت كأنّها ما عادت تحتمل:

- بتّ أخشى ألاّ أستطيع تأديتها والوفاء بها!

همست حنان مشجّعةً:

- هوّني عليك يا حبيبتي، ستؤدّين أماناتك كلّها، حاولي فقط أن تهدأي كيما نتجاوز تلك الأزمة. جميعنا نمرّ بظروفٍ قاسيةٍ قد تتمركز على حين غرّة فنشعر أمامها بعجزٍ كامل، ومع ذلك فينبغي ألا نرضخ لإحساسنا بالعجز أو نستسلم له و...

لكنّ صفاء تلاشت، باتت تنتمي لعالمٍ آخر وتتوازعها الجهات، احتاجت شيئاً آخر غير التعاطف والحميمية اللتين أشاعتهما حنان في أعطافها، تاقت لما يجدّد ثقتها بنفسها ويعيد إليها ما تبدّد منها وتلاشى. ومع ذلك تشبثت بحنان وتداخلت في حناياها، أرادت أن تبقيا معاً على تلك الصورة إلى زمنٍ لا ينتهي إلاّ وقد أعادها طفلةً قبل ثوب الحداد. أغفت وقد غادرتها هموم العيش اليومي والتدخّلات القسرية في حياتها العلنيّة والسرّية التي أوصلتها تخوم الجنون!

أمّا حنان، فقد اصطلت جهنّم، اكتوى جسدها وتلظّت روحها بلهيبٍ ضارٍ لعق خلاياها وحواسّها وأضرم نيرانه بين جوانحها. وعلى خلفيّة إحساسها بعبث ما يدور حولها ومعها، استعادت دورة عمرها وأحصت حصيلة بيادرها وحصيلة سنوات القحط؛ كانت المعادلة مختلفةً والميزان يميل ناحية اليأس. التجأت إلى روحها بعدما خذلها عقلها وتخلّى عنها جسدها كما تخلّت عنه، بات سغباً وصادياً للمسة طفل.. رجلٍ أو حتّى امرأة، فأعفتها من السؤال وأرحبت لها فضاءاتٍ قصيّةً تشعّ في مساءاتها نجماتٌ

همسن لها أن ثمّة في الحياة متّسعٌ للعيش وعليك أن تعيشيه! كادت عيناها تغفوان حين قرع الجرس فانتفضت صفاء ين يديها وهبّتا معاً، متوجّستين كأنّما انهمر عليهما ضوءٌ ساطعٌ فكشف عري التصاقهما. تطلّعتا في مرآتيهما مفزوعتين مشدوهتين! مع القرعة الثانية تنبّهت حنان فأنزلت ساقيها إلى الأرض، لكنّ صفاء تعلّقت بكتفها وأشارت بحاجبيها أن لا تذهبي.

- لا تخشي، سأرى من القارع، ربما تكون حالة طارئة!

- لا تذهبي، ربما أحضروا جميلاً!

- أرجوك اهدئي يا صفاء ودعيني أرَ القادم وحسب.

تملّصت منها بصعوبةٍ ومضت حافيةً إلى الباب. سهت عن إنارة الصالة فوصلت إليه متعثّرةً لاهثةً يخفق قلبها بقوّةٍ فاقت رنيناً غاص عميقاً في دهاليز أذنيها.. سألت عن القادم قبل أن تفتح فأتى الجواب:

- أنا إبراهيم، افتحي!

فتحت سريعاً وقد أزاحت لهفتُها الذعر بعيداً:

- إبراهيم! ما الذي أتى بك في مثل هذا الوقت؟

- ألا تقولي تفضّل أولاً؟ أما طلبتِ منّي الحضور لاصطحابك إلى المنزل؟

رائحته وتلجلجه يقولان إنّه ثمل، لكنّ ثمِلاً لا يقود معه شخصاً آخر لمحته في العتمة خلفه. مدّت يدها وبلمسةٍ واحدةٍ أشاعت ضوءاً متلألئاً وأفسحت درباً ليمرّا منه. عبر إبراهيم أولاً ولم تتطلّع إليه، فقد أثار فضولها معرفة صاحبه. لكنّ الفتاة التي اتّبعت خطى إبراهيم لم تلتفت إليها، إذ تعلّق بصرُها بامرأةٍ تقف وراء بابٍ مواربٍ في آخر الصالة منكمشةً على نفسها تكاد تختبئ في ثوبها الأبيض. كأنّما تتبين ملامحها... لكنّ صوتاً أتى من ميمنتها مع إطباقة الباب أوقفها وجعلها تتطلّع مذعورةً.

ـ نوال!

اندفعت الفتاة والمرأة وتصادمتا في منتصف المسافة، يحجز بينهما شلال دمعٍ وارتجاجات زلزلةٍ مفاجئة. وفي عناقهما الذي لم يكتمل أسرعت نحوهما صاحبة الثوب الأبيض غير مصدّقةٍ وكادت تصدم إبراهيم الذي اعترض دربها إليهما. وقفت كأنّما تريد مشاركتهما عناقهما أو حمايته من انخلاعٍ وشيك!!

احتارت رحاب، من أين سأبدأ؟ ما الأمثولة في قصّةٍ مكرورةٍ مئات المرّات ومألوفةٍ لدرجة الاعتياد؟ مع ذلك هي قصّتنا جميعاً.. قصّة هزائمنا وانكساراتنا وضياعنا في زمنٍ اعتبرناه زمناً ليس لنا! زمنٍ غدَرَنا، دُفعنا للإيمان والتعلّق به ثم لفظنا كأيّة نفايةٍ لا قيمة لها!

من غير أن تفكّر، أغمضت عينيها واستسلمت لسردٍ اعتباطيٍّ لايحكمه ترابطٌ أو تسلسل. أطلقت لسانها دون تحفّظٍ ومن غير قيد:

ـ حدث ذلك منذ زمنٍ بعيد... لم أتخيّل وقتها، حتّى في أشنع كوابيسي، أن تؤول حالي لما آلت إليه! كان ذنبي الوحيد أنّني حلمتُ أكثر ممّا ينبغي وأطلقت لأحلامي العنان ففاقت قدراتي، ولو أنّها انسجمت مع مكوّناتٍ صاغتني فيما بعد على نحوٍ قادني إلى هذا المكان الموحش؛ معزولةً.. متوحّدةً لا تجد صديقاً إلا ظلّها إن استطاعت لقاءه أو إمساكه. لم يكن ذلك كلّه وارداً في الحسبان.. كان العالم أرحب والأفق أوسع وأعمق وثمّة في الغد ـ كما صوّرته الرؤى ـ ما يستحقّ أن يُنتظر ويكون إرهاصاً للشوق. لم تظهر في الأفق بعدُ تباشير جرحين سيتركان ندبتيهما راعفتين وملاحقتين حتّى نهاية العمر. اتّخذ الأوّل صفةً شخصيّةً محضةً وتلبّس اسم فريد، أمّا الثاني فقد اتّخذ طابعاً عمومياً، إذ اتصل بي وبآخرين، تجاوز أسرتي وأهلي وضمّ جيراني وأصدقائي، تقمّص وشم بيتٍ طُردنا منه وتركناه لقمةً سائغةً للذين اغتصبوه بعد أن استباحونا وأدخلونا السبي. ذلك جوهر ما حدث بغضّ النظر عن المسمّيات العديدة التي أُطلقت عليه، ثم استحال في ذاكرتي لغائبٍ منتظَرٍ يدعى أدهم!

تلجلج صوتُها وتهدّج وهي تُشرِع قلوع مركب ذاكرتها وتدفع فيها

الريح لتغادر ميناءها الآمن وتلج لجّة البحر متعرضةً للعواصف والأنواء. توقفتْ قليلاً ثم تابعت وقد استحالت العودة واندفعت حيث الصقيع والملوحة والزرقة والريح:

ـ كانت سنوات دراستي الثانوية كافيةً ليكون أستاذي عالَمي الذي تُهت عنه طويلاً وفردوساً منقذاً من جحيم تمزّقاتي وفقدان الأمان وحصانة الانتماء التي عاثت في روحي وأشاعت فيها تخلخلاً رغم ظاهري المعاكس. فبقدر ما عاش والداي في وئام ومحبّة، بقدر ما عانينا نحن أطفالهما من تصدّعات زواج تمّ بالإكراه ولمْ يعترف به أو يرضَ عنه لا أهل الزوج ولا أهل الزوجة؛ طائفتان مختلفتان وبيئتان متباينتان! منحني ذلك إحساساً غامراً باستقلاليّتي ونزوعاً لعدم الانقياد، وأورثني قلقاً دائماً تمثّل برفض أقاربي لي. فتاةٌ لا يقبلها أحدٌ من ذويها غير والديها، تعاملا معها، باعتبارها الثمرة الأولى لعشقهما المنفيّ والمنبوذ وبسبب شقاوتها المبكّرة وهيكلها الذكوري وعنادها الذي لا يطاق، كصبيّ الأسرة الأوّل تماماً. أخطأنا بتسميتك رحاب أبتها «الزعرة» الصغيرة! ما عاد أحدٌ يناقش سلوكي الصبيانيّ، وقد أرضاني ذلك إلى حين. ومع نموّي وتميّزي كأنثى بكّرت طلائع ربيعها فزقّت العصافير براعمها قبل أوانها، أرّخت لعقربين أدارا ساعات زمني القادم؛ حساسيّةٌ مفرطةٌ لأيّ غبنٍ يلحق بي أو بمن قربي، صقلها ودرّبها أبي بأحاديثه ووقته وكتبه التي فتحت نوافذي على مجاهل غابت عن بصري، واستجابةٌ لا تشبع ولا ترتوي لتحوّلات الطقس على تضاريس الطبيعة وتقلّبات النفس على تضاريس الوجوه! لم أكن أصدّق نفسي، لكنّني اعتدتها؛ موهبةٌ فريدةٌ في تلقائيّة ودقّة نقل ما تبصره العين على الأوراق التي لم تفارقني مذ افترقت عن الصِبية والتحقت بأمّي التي أخذت بيدي وجالت بي في عوالمها المرهَفة، ممرّنةً أصابعي على أوتار كمانها وقوسِه الذي صار جزءاً مني، أحنو عليه وأعانقه كلّما اشتقت عناقها. وهبتني أدواتٍ أساسيّةً أكسبها الخبرة والمهارة أستاذي فريد، ذاك الذي مسّ روحي ونفخ فيها من جديدٍ على هواه! منقذي، نجمي الهادي وبرّ الأمان. أعمتني اللحظة التي رسمت فيها وجهه

في أوّل حصّةٍ دراسيّةٍ مدّ روحه خلالها جسراً نعبر إليه إلى عالم لا تدركه أعمارنا الغضة. ما كان مهمّاً أنّه أستاذي،. في عمر أبي، زوجٌ وأبٌ لطفلين يصغرانني أعواماً. لم آبه بذلك كلّه، فقد مسّتني الزلزلة وألبستني رداء المجانين! فقدت الحياة معناها خارج حضوره، حاول برهافته الاحتفاظ بالمسافة الفاصلة بين الأستاذ وتلميذته، راهن على ابتعادي قبل البوح بالسرّ المقدّس، لكنّني التصقت بمرسم المدرسة. لم تثر الشبهات حولي لأنّني رفدت معرض المدرسة السنوي بكمٍّ هائلٍ من اللوحات منحني العذر. ومع انتفاضات جسدي، تحطّمت الحواجز وتفتّت تحفّظاته. بدا الأمر مريباً، لكنّ نجاحي ودخولي كلّية الفنون حطّم آخر المواقع فاختفت محرّمات عشق التلميذة للأستاذ! سنتها شاهدنا فيلم ـ الموت حبّاً ـ كانت الحالة معكوسةً، تلميذٌ وأستاذته، يحاربان الجميع وينهي الموت المعركة. لم نتّعظ، بل ضحكنا وقرّرنا الدفاع عن حبنا... لكنّنا لم نصمد طويلاً، هُزمنا وسرعان ما دهمنا دمارٌ فشلنا في منعه أو الهروب منه. كانت الحصيلة انتحار زوجته وانهياره الذي أودى بحياته بعد سنواتٍ قلائل وتصدّعاً ظلّ يعمل فيّ حتّى اللحظة.

آنها غصّت، اعترضت الكلمات حلقها وصارت شوكاً لا تستطيع لفظه ولا ابتلاعه، أرتج عليها وتساءلت قبل أن تختنق، ما الذي يدفعني للإدلاء باعترافي أمامها كأنّها كاهن اعترافٍ ينتظر خطاياي ليمنحني غفراناً محالاً... توبةً لا أستحقّها ولا أجرؤ عليها؟ لأنّ ما أحتاجُه لا يعدو عقاباً مستمرّاً أكفّر به عن ذنوبي قبل تطهّري بالجحيم السماويّ. كيف سمحتُ لنفسي بالوقوف أمامها على هذا النحو؟ هل انتظرت العمر لأعلن آثامي عليها؟

أسعفتها جنان بجرعة ماءٍ تيسّر تنفّسها وتشقّ الطريق أمام مزيدٍ من الاعترافات الحميمة وهمست في أذنها:

ـ ما من داعٍ لتجريح نفسك، لن تتغيّري بالنسبة لي مهما حاولت تشويهها... أرجوكِ... أرجوك ارحميني وارحمي نفسك!

أكملت رحاب شرب مائها واعتصرت الكأس بكفّيها... أغرقتهما بضباب عينيها وتابعت رحلتها مع نفسها ومع الزمن الجارح الذي مزّقها مراراً وأخفق دوماً في سحل فؤادها وإيقاف نبضه.

لكن نبض جنان قادها لمجاهل أخرى... شقّ ذاكرتها من أضعف النقاط؛ من منّا ولد ونشأ دون ألم؟

تمالكت رحاب نفسها، ازدردت أساها وتابعت:

ـ لكنّني لم أحفظ درسي البتّة، كان عليّ أن أهرب كيما أتعلّم عدميّة الفرار وكيما أراه موتاً حقيقياً وليس مجازياً، وأنّ موتاً فعليّاً في المواجهة لا يعدو إغفاءةً قصيرةً قبيل الاستيقاظ. ما عاد يمكن لي أن أبقى.. صارت الطرقات والجدران والنوافذ وفرجة السماء وظلال الأزهار والنباتات المتسلّقة وعيون الناس حراباً تنغرس عميقاً في أحشائي، عدتُ في انغلاقي على نفسي إلى مسرحيتي تشيخوف «بستان الكرز» و«الخال فانيا» اللتين قرأناهما معاً وشاهدنا الأخيرةَ فيلماً أخّاذاً لم يتوقّف آن خرجنا من الصالة المعتمة بل استمرّ معنا طوال الليل ونحن نذرع الشوارع في محاولةٍ دؤوبة للتخلّص من عصارته العذبة السامة التي استوطنت روحينا. أتت الفرصة التي رفضتها منذ عام؛ تخلّيت عن الكلّية والتحقت بمنحةٍ عرضها أبي عليّ مجدّداً بعدما أبصر آثار الإنهاك والدمار اللذين صلباني على جدار غرفتي، رافضةً الليل والنهار، منزويةً في حالة تترجرج بينهما. لم أتردّد أبداً، حطّمت أقلامي الملوّنة واعتصرت المواسير الحبلى بالأصبغة المائيّة والزيتيّة فوق باليت خلط الألوان... مسحت بها ملاءات سريري ومدّدت عليها الحامل الخشبيّ الذي أرعبته وحشيّتي فامتثل دون احتجاجٍ وقلتُ وداعاً للأحلام! عليّ أن أقرأ تشيخوف بلغته الأصليّة. غالطتُ نفسي وخادعتُها كيلا تستجيب لتحدّي البقاء، وليتها فعلت! لم يستمرّ وهم الغربة طويلاً، لم تمنع آلاف الأميال أشعة الصباح الأولى عن عيني ولم يعزل البرد القارس والثلج المطهّر أوجاع قلبي وحنيني، لم يمنع ملح البحر من إيقاظ جروحي.. حاولتُ جاهدةً أن أختلق

عالماً مؤقّتاً يعوّضني عالمي الأثير فأخفقت. احتجتُ سنةً واحدة كيما أجدَ ذريعةً لعودتي، أنا التي أقسمت ألاّ تدوس قدماها ذاك التراب ولا تتنفّس رئتاها ذاك الهواء ولا يلامس شفتيها ذاك الماء. حزمت حقيبتي ووافيت أمّاً تودّع عمراً قاسياً ونكوداً، حلّفتني بحليبها أن أرجع وأودّعها الوداع الأخير... مع زوجها الذي بات غريباً بعدما فارقتهما ابنتاهما. أين عتاب إذن؟ يأتي الجواب تالياً... العاقّة التي عصت والديها وما امتثلت لنصحهما هربت مع من اختارته زوجاً! متى كبرت وشقّت ثوب طفولتها لترتدي ثوب زفافٍ أسود نحر أولى سعاداتها؟ كيف أهملتُها ولم أبصر تحوّلات جسدها؟ أيُّ عمىً أصابني فتركتُ عواطفها تجتاحها مثلما اجتاحتني عواطفي؟ ربما اختارت قدرها بطريقةٍ تميّزت عن خياري وربّما كانت خيراً من طريقتي.. لكنّني فقدتها! قالت الخالة أنّها دفعت ثمن جحودها وجحود أمها مضاعفاً مئات المرات وقد أبصرتُ ذلك بعينيّ حين اصطدمتا بجثّتها الشوهاء التي مُثّل بها أشنع تمثيل! هربت لتحتضن الأمان والهواء والشمس في بلدٍ مجاورٍ أدخلها مجزرة حرب أهاليها وانتزع جلدَها حيّةً وهي تستصرخ موتاً تمهّل طويلاً حتّى أتاها وقد فقدت كلّ إحساسٍ وكادت تنساه بعدما تضرّعت قدومه! عدتُ سريعاً وحلفتُ مرّةً أخرى حالما وطأت روحي وحل بلادي ألاّ أغادرها، ثم حمّلتني أمي وصيّتها؛ اعتني بشقيقتك وابنتها! لم تر الابنة الحفيدةَ ولم تعلم أنّ حفيدها الثاني ستمزّقه إرباً حربةٌ عسكريّةٌ وهي تبقر بطن أمه!

كانت رحاب تستحيل تمثالاً شمعيّاً باهتاً، توقّفت عن الحياة لولا سيول عرقٍ تصبّب من منابت شعرها وسال على سطوح جسدها المرتجف من برودة بخرٍ صار زبداً يغطّيها ويمنع عنها الرؤية. حاولت جنان أن تنطلق نحوها وتساندها قبل أن تذيب حرائقُها شمعَها الحائل صفرةً فتحيلها بقعةً زيتيّةً تتجمّع عند حذائيها الغائضين شمعاً سائلاً يغلي... ابتلعت صرخة الألم وهي ترى شفتي رحاب تعاودان التمتمة كمسرنمةٍ تستريح في غيبوبتها قبل أن تعود لذكرياتها التي تضعضع كيانها:

ـ إلاّ أنّ الحربة اللعينة ـ رغم كلّ ما حدث ـ لم تخترق رحم أحلامي. كان في أوج إخصابه وكنت أصرخ باحثةً عن لقاحاتٍ تنتش في جدرانه لتنزرع أجنّةً من الرؤى. ثمّة خطأ في العالم علينا اكتشافه ومنع استمراره! عدتُ مجدّداً لكلّيتي وكان عليّ أن أبدأ من حطامي لأبني عليه، ساندني أبي بكلّ ما أوتي من قوةٍ أوهنتها خلاصات عمره المهدور. انطلقتُ، عدتُ أقوى، دفنت عواطفي في رمس أمّي وغطّيت بها بقايا شقيقتي وما عاد فيّ ما يهدأ، لا عقلي ولا لساني ولا جسدي، فقد أضحت ساعات النوم عذاباً مبكّراً لموتٍ بتّ لا أخشاه لكنّني أتحاشاه مدركةً أنّه يلاحقني ويبحث عنّي ويكاد يقتنصني!

صعد أدهم من الغبار نجماً ورصاصاً انطلق عنّا وباسمنا تجاه من أرادوا سلب بيوت آبائنا وخلعنا عن وشائجنا بها وبهم! كان ثمة ما يريب، يحدث تحت أبصارنا وعلى مسامعنا دون أن ندرك كنهه. لم يتصوّر أحدٌ يوماً أنّ ماحدث كان متعمّداً وقد خطّط له داهيةٌ كان أبعد الناس عن الشبهات. ثمة ما يتغيّر لكنّ أحداً لم يحسب أنّ شخصاً أو قوّةً تحاول تأليب الناس على بعضهم وزرع كراهية الحياة ومقت مساكن الأرواح في أفئدتهم! ألهتنا بشاعة ما يحدث عن التفكير فيمن يسعى إليه ويديره ولم ندرك آنها أنّنا تعرّضنا للبيع والشراء كعبيدٍ وجوارٍ في سوق نخاسةٍ علنيٍّ كنّا الوحيدين الذين خلناه ذكرى من الماضي. لم يرتب أحدٌ يومها مجرّد ارتيابٍ أنّ الوقور الطاهر أبا أدهم يعرضنا في مزادٍ علنيٍّ مع الشريك الفاضل، جاره فاتك الذي عرض خدماته على جيرانه وأورثهم الشك بحسن نواياه. ولأنّه لم يكن بارعاً في حسن إظهارها، تحاشاه الجميع خشية مكائده الخفيّة والظاهرة باستثناء العمّ البارّ الذي وجد فيه حليفاً قوياً في الخفاء. جاهر علناً بحرصه على الدفاع عن الناس ومصالحهم وعدم السماح لفاتك بالإيقاع بهم... بدأت الإزعاجات بوسائل صبيانيّةٍ اتّسمت بالقذارة والسفالة لصدورها عن بالغين؛ الأوساخ والمياه القذرة والتعدّي على حقوق الجيرة وقضمها شبراً وراء شبر.

خضعنا صابرين، اتّفقنا ألاّ نستجيب للاستفزاز فندفع غالياً ثمن ردود فعلنا. قلنا هو الغريب، فإن تشبثّنا بجذورنا وأعرضنا عن قباحاته وسوئه سيملّ في النهاية ويرحل. كم كنّا واهمين وقتها! وكم كان علينا أن نقاوم بشراسةٍ كيلا نُرمى فيما بعد ونعامَل ككلابٍ شاردة! ازدادت المصائب وازدادت جرأته، أطلق كلاب حراسته ليتعرّضوا للأطفال والفتيات والعجائز ولم تنفع الشكاوى، بل زادت الحالة سوءاً. انتقل من التعريض الخفيّ إلى المجاهرة؛ لاأريدكم هنا، خذوا ثمن بيوتكم العفنة وارحلوا! وددنا لو فعلنا ذلك قبل أن نُدفع إلى العذاب، لكن إلى أين؟ اضطررنا للبقاء صاغرين، ما عاد مهمّاً إرث آبائنا، صار همّنا سقفٌ يؤوينا ويقينا غائلة التشرّد وفقدان المسكن. لكنّه لم يتوقّف، حوّل مجموعة غرفٍ كان قد استأجرها أيام فقره ومسكنته، وهي جزءٌ من دارٍ كبيرةٍ تضمّ غرفها أسراً عديدةً ادّعى صاحبها أنّه يؤجّرها لأسر الفقراء احتساباً لثواب الله، إلى مبغىً حقيقيٍّ بعدما منحها لقوادةٍ مع عواهرها وقوّاديها وحواشيهم، وصار الزائرون طالبو اللذّة والمتعة المتعتعون ثملاً والذاهلون تخديراً يخلطون بين نسوة الحي وفتياته وبين عاهراته. بلغ السيل الزبى، بدأ الناس يتململون ولم يتحول الغضب إلى فعلٍ بعدما عاد بعض الشبان الذين دفعتهم حميّتهم للدفاع عن شقيقاتهم أو زوجاتهم محمولين على نقالات الإسعاف تغطّيهم الضمادات ولفائف الجبس. ومن داخل الركام والغبار المتصاعد، استلّ أدهم مشعلاً وأحرق بيت فاتك بعدما شاهد زبانيته يرمون عائلةً كاملةً، الأب والأم والأولاد والأثاث، وسط الشارع بغير اعتراضٍ أو احتجاجٍ على المحترم الذي سبق شاحنةً ضخمةً نقلت أثاثه وأدخله جندٌ صغار السنّ إلى البيت المخلي بالقوّة، فصار أدهم طريد الله والناس وأولياء أمرهم ونعمتهم. حلّت النقمة عليه وما بارحته وكنت أولى ضحاياها! منذ متى وكيف؟ بقي الأمر غامضاً ومجهولاً لكنّنا اكتشفنا أنّنا عاشقان من أيّام آدم وحوّاء، وربّما كنّاهما معاً بثيابٍ عصريّة. لم ينس شقيقتي عتاب، وخلال هروبه والملاحقات العنيفة التي طاردته أرسل إليّ يوماً

أن تعالي، أحضرتُ لك هدية الزفاف! ومن بين رماد الحرائق وبقايا هدير الانفجارات التي أعلنت هدنةً مؤقتةً قبل جولة جنونٍ جديدة، قدّم لي طفلةً صغيرةً جداً، في عينيها رعبٌ غامضٌ استوطنهما. كنتِ أنتِ، ابنة عتاب، كان احتمال إيجادك معدوماً بعد أن اعتبرك ذوو أبيك ابنة زنىً. ومع ذلك فعل المستحيل وقدمك هديّة عرسٍ لم يتحقّق يوماً!

كانت الصحراء قد امتطت صوتها فراحت تلهث وقد التصق لسانها بسقف حلقها. رجتها جنان أن تتوقف لترتاح قليلاً، لكن رحاب هزت رأسها بيأسٍ وهمست:

ـ أخشى موتاً يحوم حولي.

ثمّ تابعت:

ـ كنت أولى الضحايا كما قلت. قبلها أو بعدها، ما عدت أذكر، داهموه وكان في غرفتي. ساطني الندم لأنني دعوته وأكّدت له أنّ المكان آمن، خلعت ثوبي وتعرّيت في محاولةٍ أخيرةٍ لمنعهم من الدخول إلى غرفتي صارخةً بأعلى صوتي لمنحه ثانيتين اخترق أثناءهما زجاج نافذةٍ مغلقة، فتسمّروا ثانيةً واحدةً قبل أن يطلقوا نيراناً غزيرةً حالما خدشت أسماعهم أصوات تحطّم الزجاج.. اخترقت رصاصاتٌ عدّةٌ ساقي، مزّقت اللحم وفتّتت العظم، فحملوني معهم ووطؤوني بأقدامهم وسياطهم وما أفلتوني إلا وهم على يقينٍ بجهلي مكانه. وقعتُ أسيرة جسدي، وللمرّة الثانية لم أتعلّم درسي، فقد مضى دون أن يقول وداعاً. كنت أسمع أنّه يأتي سرّاً، لكنه لم يكلف نفسه عناء السؤال عني! وضعت أدواتي وكماني وأحلامي جانباً، رأبتُ صدوعي ولملمت تداعياتي وخِطتُ جروحي وضمّدتها بيدي. أكملت دراستي وامتنعت عن الرسم، ولو أنّني واصلت تعليمه ورحت أنتظر وأنتظر.. لا تخبو أحلامي ولا تنطفئ قناديلي. ولم يتركوني، كانوا واثقين أنّني لم أقرّ لهم بشرعية استيلائهم على بيت أبي فراحوا يضيّقون الخناق عليّ يوماً وراء يوم وسنةً إثر أخرى، يمهلون ولا يهملون، كأنّ وأدَ انتظاري شهادةُ انتمائي

إليهم وإقرارٌ بانتفاء صِلاتي التي سبقت اجتياحهم حياتي من أضيق المنافذ وأكثرها اتساعاً!

تنفّست بعمقٍ متمنّيةً ألاّ تخذلها رئتاها قبل إتمام اعترافاتها التي سارعت بإلقائها دون حرصٍ ومن غير عنايةٍ بالتفاصيل لتصل إلى حيث يتوجب عليها الوصول:

ـ وبعد سنواتٍ طوالٍ عاد.. كان هنا قبل أن تصلي، أيّة عودةٍ، وأيّ انتظار؟

أجهشت أخيراً وانتحبت، طفح بها الكيل وعجزت عن إمساك دمعها. قامت جنان واتجهت نحوها، لكنّ طرقاً عنيفاً على الباب ارتجّت الجدران لقوته أوقفها في منتصف الدرب وقد امتلأت عيناها فزعاً. أمّا رحاب، فقد تراخت في مقعدها ولم تكترث بالقادمين، أبصرت الموت وراء بابها فسألته بلا مبالاةٍ ولا تردد: أما تأخّرت؟!

تكوين أول

بدا المدى أبعد من أن تطاله يداك ولا تكفي تلك القفزة للوصول.. منبوذٌ وملاحَقٌ ومدان، الأصدقاء أولاً ثم الأعداء. غطاؤك الليل، عظاءة عتم تستحيل خفّاشاً في النهارات، وسريرُك حقيبةٌ فقدتَها على قارعة فرارك فاكتشفت ضياع بوصلتك؛ ملّتك بقدر ما رافقتك، أضلّتك وما مللتها! تجرجر أذيال خيبتك وتسأل: ما فعلت؟ فيأتي الصدى هزيمَ غضبٍ واستياء؛ تنكّر الأصدقاء واتّحد الأعداء، وعلى صراخهم حامت اللعنة فوق رأسك. المطوّق المرميّ في فراغ الزمن أضحى منفيّاً، مطلوباً من موتٍ لا اسم له ولا عنوان! تتشهى أن تنشقّ الأرض وتبتلعك بعدما أنف الموت ريحك فجافاك.. أما من مؤنسٍ يبدّد وحشة الليل وغربةً صارت جلداً آخر لك؟ سؤال مستقبليّ يقطر حنيناً لبرهةٍ احتكّت بجارتها فأطلقت شرارةً أورت ناراً حملته على ألسنتها، ينعي غيبتك الخرابُ أم أوبَتك اليبابُ أم هروبَك السراب؟ قاطع طريقٍ مطاردٌ أم نبيٌّ مهجورٌ تخلّى الصحب عنه فأنكروه ورجموه مع الراجمين؟ ليتك يا رحاب تكونين العلامة أو الشهادة أو القيامة! إذن أستيقظ من جديد، أنفض الأكفان، أنهض من غبارٍ وأستعير استراحة المحارب ثم آتي ملء دمك الشهي فتورق أوراقك الغضّة فوق أغصانٍ فتيّةٍ، تتفتّق براعمك النديّة كرمةً تتسلق أصابع كفيّ. قوليها، قولي نعملكِ القاتلة والمحيية وابدئيني عمراً جديداً! هيت لك! واحة في البيداء! والليل الصديق المطمئن، الحضن الرحيم، يصير عدوّاً يستخفّ بحيطتك، يهزأ من حذرك ويكمن لك حيث

لا تخشى ليقنصك أعزل فتكون فريسةً. الوحشة والظلام صنوان يواكبانك كملاكيك الحارسين، يمتطيان كتفيك، يسجّلان وعيد آثامك ووعد حسناتك. أمّا الآن، فقد أناخا عليك، محققاك بظلّك، ملاكُ وسئما السهر على يقظتك ومنامك!

تحملك خطاك لمنزلٍ خلته ملاذَك المؤقّت بين هجرتين.. تستشعر برودَته تسري في عظامك فتدفع في جسدك رعدة التفرّد. أتحتاج عشيرتك أيّها الذئب المتوحّد؟ أتتوق لدفء كهفك حيث الذئبة تنتظر أوبتك جارّاً فريسةً تملأ ضروعها لتطعِم جراءها التي ستلتفّ حولك التماس الدفء؟ جولةٌ طويلةٌ وجريٌ سريع ستشمّه خياشيمك، لكن حرامٌ على عينيك إبصاره! اعلم ذلك إذن علم اليقين واعتده بغير تذمّرٍ ولا احتجاج؛ ستمضي هكذا حتّى يعجزك الهرم فتضحك منك طرائدك.

غلى دم العروق واستحالت الرائحة الآن عطر يانسون يملأ الهواء بعبقٍ لا يخطئه الأنف ويستدعي خدراً يداعب الشفاه قبل أن يبلّلها السائل الحليبيّ اللاذع، وحالما تنساب حممه في الأوعية ينزاح ليفسح المدى لهبوبات جسد الأنثى ومفرزاته المُسْكِرة... شميمُ إبطين لامرأةٍ ناضجةٍ تعرف قيمة جسدها وتُحسن الالتحام بجسدٍ غريبٍ يبحث عن الأمان.. كائناتٌ خفيّةٌ تسعى لمن يروي عطشها بأيّة طريقةٍ حتّى بتسخير الموت واستبدال الجثث بالأجسام!

تذكّر أدهم السائق الخليع والفتاة البكر بحسب رواية أبيها والأم الطاهرة المقدسة! انقبضت أحشاؤه وانتابه غثيانٌ ممجوجٌ خالطه اشمئزازٌ أطلق بصاقاً ثقيلاً من بين شفتيه ملتصقاً بشتيمةٍ مُقذِعةٍ تناثرت مع رشقه. قلب شفتيه، لكنّه ردّد هامساً، ما من أحدٍ غيرهم. لقد كُتب عليّ تمضية بقيّة ليلتي في ماخورهم منذ آلاف السنين، وكما قُدِّرت عليّ الآثام قُدّرت عليّ التوبة والإنابة. ومن سيعلم أين سأمضي ليلتي، بل من سيكترث؟ ستشيع رحاب أنّني غادرتُها منهَكاً نهب مشاغل وهمومٍ شتّى ستدفعني لنومٍ عميقٍ

يؤجّل اتّصالي بها للصباح أو الظهيرة! ممَّ تخشى إذن؟ امضِ، اتّصل به وسيصحبك إلى منزله. وإن أبى، فإلى أيّة علبة ليلٍ تسفح فيها صحوتك وتقودك إلى غيبوبةٍ لا تستيقظ منها إلاّ على جوابٍ وحيدٍ يفترّ عنه ثغر رحاب، كلمتين وحسب، هيا بنا. ساعتها ستغسل رأسك، تصلّي في سرك وتعلن أنّ أحداً سواها لن يكون شريكاً لجسدك ولا خلاًّ لروحك! أتُصدِق نفسَك القول؟ أتستطيع حقّاً الاكتفاء بامرأةٍ واحدةٍ لفراشك؟ تعلم أنّك تكذب وتعلم أنّها لن تسمح لك بذلك، وإن شهدتْ بطلانك لتنتزعنّ مقلتيك بغير شفقةٍ ولتمزقنّ أحشاء المسكينة التي أوقعها سوء طالعها على فراشك دون رحمةٍ خشية حملٍ يستبق أمومتها المشتهاة! لكنّ رحاب أبعد ما تكون عن راحتيك، إلامَ انتهى تنقيبك عنها؟ نبشتَ الماضي، أخرجتَها من رماله ورماده، ابتنيت على أساسه عالماً من أوهامٍ كيما تحافظ على اتّزانك وكيلا يجرفك تيّار الموت أبعد من رؤاك.. على نسجها الحيّة ودمائها الحارّة واصلتَ دورة حياتك، فهل توقّف قلبك حين مسّتها راحتاك؟ كيف خِلتَ أنّك لن تكترث إن نقض عناقُها هيكل أحلامك؟ ألن تبالي وهي تنثال من بين أصابعك كماء البحر الذي دفعك موجُهُ إليها؟ اعترف الآن أنّها كانت وهمَك العقيم وأنّك بثثت الحياة في أوصالك المتآكلة حين أبقيتَها حيّةً كما كانت في ذكراك ومنفاك! علامَ تطالب بالرحيل إذن، من أجلها كما تدّعي أم من أجل متابعة رصف أحلامك المغتالة؟ لمَ أتعجّل؟ لم تقل كلمتها بعد، وإلى أن تقولها ثمّة متّسعٌ وخطوةٌ قبل الهروب الأخير. قفزةٌ في فراغٍ مجهولٍ ستقفزها شئتَ أم أبيت طالما ناداك الجسد وما اعتدت ولا استطعت التنكّر لندائه. تعال أيّها السائق، أقِل عثرتي وامنحني وصاياك لأهب جسدي لأيّة امرأةٍ لا تبكيني بعدما غادرتني النساء!

قرب الملاذ العرضيّ توقّف السائق، كان الثمل قد طوّح به وأطلق لسانه الذرب ومخض المرح ليجلو آثام روحه، فقال وهو يمدّ رأسه من نافذة سيارته:

ـ والله يا أستاذ حظّك من السماء، لا أنهي عملي عادةً قبل الفجر لكنّني اشتقت الليلة لامرأتي وابنتي فقلتُ كفاها المولى وإلى بيتك أيّها العجوز. كأنّ هاتفاً أوحى لي أنّك بانتظاري.

دار أدهم حول السيّارة ثمّ فتح الباب وجلس قربه:

ـ يبدو أنك أكثرت من الشراب، أما قلتَ إنّك ستتّصل بي؟

ـ صدّقني يا أستاذ نسيت، ابتلاني الله بواحدةٍ نشّفت دمي وأبت أن تبلّ حلقي وترطّبه بريقها العذب، جريتُ وراءها من منزلٍ إلى منزلٍ ككلبٍ ذليلٍ لكنّها رفضت أن تتطلّع إليّ كرجل، كنتُ سائقاً تمنحه أجره وعليه أن يمضي.

ضحك أدهم ساخراً:

ـ سامحها بأجرك، ربّما كافأتك بهديةٍ ما!

فأجابه السائق غنجاً:

ـ لم ترض يا أستاذ، وعرضِك حلفتُ لها أن أسخّر سيّارتي لخدمتها كلّ ليلةٍ، فهدّدتني بإيداعي أنا وسيارتي في السجن!

تابع أدهم هزءه:

ـ أخافتك؟ يبدو أن يدها طائلة، أما استطعت تقليم أظافرها؟

فتابعه السائق مبتهجاً كأنّه يرتجل حديثه:

ـ حاولت يا أستاذ، تصوّر أشهرت عليّ مسدساً، الزانية، وقالت أنزلني حالاً، فرضخت حامداً الله أنّ القصّة انتهت هنا!

ـ أرعبتك؟

ـ سيد رأسي، الدنيا ما فيها أمان. عليك المحافظة على رزقك وأسرتك!

واصل أدهم محاولة استفزازه ملاحظاً أنّهما يخترقان وسط المدينة:

ـ لكنها امرأة، مجرد...

قاطعه السائق سريعاً:

ـ الحجر الذي لا يعجبك يفجّك، وأين رائح أستاذ، امرأة أو رجل، حطّ بالخرج، أما قلتُ لك إنّني دخلتُ السجن مرّةً وحلفتُ ألاّ أعود إليه؟

لم يستسلم أدهم:

ـ وشارباك؟ ثمّ أنّك مهدّدٌ بالسجن في كلّ لحظةٍ بحسب قولك!

ابتسم السائق، أبعد كفّه عن عجلة القيادة وحرّك أصابعه كمن يعدّ نقوداً:

ـ اعرف كيف أملّص نفسي!

أقرّ أدهم بعجزه:

ـ غلبتَني.. لكنّك لن تُفلت أيّها الماكر!

ضحك السائق وردّد شيئاً لم يسمعه أدهم، إذ راح يبحث عن سببٍ يعلّل عودة الانقباض إليه... أعاد الحديث من أوّله واستوقفته اللفظة الأخيرة، غلبتني، غلب، غلبة، غالب! ظهر غالب فجأةً وراح يرمقه بأسىً؛ منهكٌ مكدودٌ كعادته، بارز شعر اللحية التي شابها البياض، شعِثٌ غير مهتمٍّ بهندامه يمجّ نفثاتٍ ضخمةً من سيجارته الرخيصة ويطلقها سحباً تحجب مخاطبه. التفت أدهم إلى السائق فوجده يقود غير مكترث. لم يلحظه إذن رغم أنّه توسّط بينهما وراح ينوس ذات اليمين وذات الشمال مصطِدماً بعضد كلٍّ منهما.

ـ ما الذي أحضرك وما الذي تبغيه؟ قال أدهم هامساً.

فأجابه غالب بصوته الجهوريّ الخشن المحمول على فظاظةٍ لا تخطئها الأذن:

ـ ما بالك تهمس، هل أنت وجل؟

ـ أنا؟ ممَّ أخاف؟ إن كان ثمة ما يخيف فعلاً! أجابه أدهم مستذكِراً أنّ آخر اتّصالٍ جرى بينهما كان عقب موت رماح.

ـ إلى أين تذهب؟

فوجئ أدهم. لم يرتح للسؤال ولا للطريقة التي طُرِح بها، فانبرى يشاكس:

ـ وما دخلك أنت؟

ضحك غالب بتشفٍّ:

ـ الآن ما دخلي؟ لماذا استشرتني إذن بخصوص عودتك؟

ـ لا يمنحك ذلك حق الوصاية وحشر أنفك، افترض أنني ذاهبٌ بمهمةٍ ملحة!

تطلع غالب صوب السائق وأشار إليه بطرفه غامزاً من قناته:

ـ تبدو مشوّقةً جدّاً مهمّتك تلك، أليس كذلك؟

ـ قلتُ لا دخل لك، ارحل واتركني بحالي.

احتدّ غالب:

ـ لم استدعيتني إذن؟

فصاح أدهم مصعوقاً:

ـ من استدعاك ويحك؟

صمت غالب وتأمل عيني أدهم مليّاً كأنّما يستكشف ما يدور خلفهما أو يروز سلامته العقليّة، ثمّ عاد لهدوئه وبرودته التي تستثير أدهم أكثر من انفعاله:

ـ من غيرك؟ أصرت نسّاءً أيضاً؟

غضّ أدهم طرفه واستطرد:

ـ ما كانت مشورتك يومها؟

ابتسم غالب، نفث في وجه أدهم سحابةً فاضطرّ للتلويح بكفّه لإبعادها عن وجهه:

ـ قلت لك، ما عاد هنالك ما تعود لأجله، كما أنّه لا يوجد في منفاك ما تبقى لأجله! أخبرتك باختصارٍ شديدٍ أن تستقيل من رؤاك. ابحث عن شغلةٍ أخرى وابدأ من جديد!

ـ لكنّني رجعت.

ـ كأنّك تسعى لعقاب نفسك بإشهار سوءاتك على الملأ؟

فقال أدهم حاسباً أن غالباً قد ابتلع طعمه:

ـ وما اعتراضك على ذلك؟

لم يأبه غالب بالفخّ فأجاب ببساطةٍ وعفويّة:

ـ خشيتي عليك، لا أريدك أن تتلوّث في أنظارهم، طالما بقيتَ في نأيك ستظلّ ضوءاً يدفع بهم للتشبث بأملٍ ما، فلا يستسلمون بشكل نهائيّ.

فقال أدهم وقد أمسكه بالجرم المشهود:

ـ تسعى لمصلحتك إذن، لن تخدعني!

ـ لمصلحتنا جميعاً، الإصرار على استمرار وجود ما يشعر بالانتماء لفضاءٍ تعانقت فيه الجغرافية والتاريخ كيلا ندخل تيهنا الأبدي!

ـ اطلع من هذه الأبواب، تريد أن تبقى بطلاً ومثالاً.. حتّى عن طريق تكريس الوهم!

ـ وليكن، ما العيب في ذلك؟

ـ العيب؟ ليس ثمّة عيب، ثمّة غباءٌ وعماءٌ مطلقان، ثمة خطيئةٌ قاتلةٌ وعطبٌ جوهريّ. استيقظ، فما عاد أحدٌ يذكرك أو يهتمّ بوجودك!

ـ ليس الأمر على ما تحسب، انس ذلك، أما زلت تحيا؟

تطلّع أدهم بغضبٍ وأمسك غالباً من خناقه ثمّ رفع جسمه الضئيل بذراعيه وأخرجه من نافذة السيارة قائلاً له قبل أن يفلته ليتدحرج فوق الإسفلت:

ـ عليّ التخلّص منك كيما أبقى حياً، لا أريد لعدواك أن تصيبني،

سأظلّ حيّاً طالما واصلتُ دربي إلى حيث أمضي.

لم يلتفت أدهم خلفه، وحين سمع صوت الارتطام، حاول تمييز صرخة احتجاجٍ أو رعبٍ أو ألمٍ أو حتّى شتيمة. لكنّه لم يظفر إلا بصمتٍ قاطعه السائق:

ـ أي، ما قلت لي أين نروح؟

عليك المواظبة على الحديث كيلا يغافلك أحدهم ويجلس بيني وبينك.

ـ اسمع، لست سوى اسفنجةٍ جافّةٍ وزنها مائة وخمسة كيلو غرامات، لم أشرب شيئاً منذ يومين. ابحث لي عن مغطسٍ من العرق حتّى يخرج من عينيّ، وعن فرسٍ تعدو بي وسط الغابات.

أجاب السائق مرحاً:

ـ عندي في البيت أستاذ، قل نعم ولن تندم و...

قاطعه الأستاذ محتجّاً ومتمنّياً في الآن نفسه ألاّ يصغي إليه:

ـ ألا يشكّل ذلك إحراجاً في مثل هذا الوقت؟ دعنا نذهب إلى مكانٍ عامّ!

فكان السائق عند حسن ظنه:

ـ أيّ إحراجٍ يا أستاذ؟ عيب، إن لم أفتح بيتي وقلبي لك فلمن أفتحهما؟ ليس الوقت مشكلةً، أشر بإصبعك فقط وأنا خادمك المطيع.

مانع أدهم ممانعةً مصطنَعَةً أخيرة:

ـ ولكن...

فبادر السائق:

ـ لا لكن ولا أيّ شيءٍ آخر، سنكمل ليلتنا في منزلي وستذكرني عند رب العالمين.

عمّ يحكي هذا الحمار؟ أيظنّني غفلاً لم أقضِ أيّة سهرةٍ خاصّةٍ في حياتي، أم أنّه يحسب نفسه رسولاً سيدخلني في واحدةٍ من ليالي شهرزاد؟

وفي طريقه لليلته الموعودة باشر بطرد أشباحه المحوّمة أمام عينيه وخلفهما.. بدأ برماح وغالب وانتهى برحاب مروراً بكثيرين توسّطهم جميل الذي تطلّع إليه دهِشاً وقد فارقته نظرة الإكبار التي تلبّست عينيه مذ كانا صاحبي سفرٍ في سفينةٍ قادت كلاًّ منهما إلى برّه الخاص.

ـ أين تمضي وتتركني وحيداً؟

حاول أدهم أن يتملّص منه بسرعةٍ فأجابه نزقاً:

ـ وهل كنت يوماً إلا وحيداً؟

اتّسعت عينا جميلٍ دهشةً واستنكاراً:

ـ لكنّني انتظرتُك ذات فجر، وحين لم تأت ذهبتُ بدلاً عنك!

فسأل أدهم مستاءً:

ـ ومن طلب منك؟

ـ أيّ ممّن كان ينتظرك!

ـ إذن اسأله أن يكون مؤنسك.

فسأل جميل متلهفاً:

ـ وأنت؟

ـ أنا؟ نسيتكم جميعاً، وبالأحرى هل عرفتكم يوماً؟ افترضوا أنّني متّ أو ما عدت!

ـ لكنك هنا!

ـ لا، لست هنا، ولست هناك، لا تعتمد على ذلك... ولا تعتمد عليّ.

ـ هل أنت أدهم؟

ـ لا، إن كان ذلك يرضيك ويبعدك عني. هيا ارحل قبل أن أرميك وسط الشارع!

تنحّى جميل والحزن يعتصره.. ابتعد متّئداً وهو يهزّ رأسه متمتماً:

ـ ليتك لم تعد... ليتك لم تعد!!

تنفّس أدهم الصعداء والسيارة تقف، أبعدتُهم جميعاً وخلوت إلى نفسي.

ـ وصلنا أستاذ، الحمد لله على السلامة، تفضل...

هبطا ثمّ أقفل السائق باب سيارته ودفع أدهماً أمامه مرحّباً. لم يلتفت أدهم ليعرف الموضع الذي وطأه، الشيطان الذي يحرسه سيحرسني معه ويحميني. لاحظ وحسب أنّ المنزل محاطٌ بحديقةٍ صغيرةٍ كأيٍّ من المساكن غير الطابقيّة لذوي الدخل المحدود، وأنّ السكون يحيط به من جهاته الأربع. حاول طرد الوحشة التي غزت قلبه، ما الذي أتيتَ لتفعله هنا بحقّ الجحيم؟ لكنّ الجواب أتى تريثةً وئيدةً على ظهره فتقدّم نحو الباب الداخليّ. فغمت أنفَه روائح أزهارٍ غامضةٍ، هل مررتُ من هنا يوماً؟ أحس أنّه يعرف المكان وأنّه ارتاده من قبلُ ويستطيع أن يدلّ على معالمه ومجاهله معاً. سمع خشخشة المفاتيح وأحدها يبحث عن ثقبٍ يلجه. خال نفسه مفتاحاً من لحم يشقّ طريقه في لحمٍ آخر فتتداعى أقفاله واحداً إثر الآخر. سطع نورٌ أبهرَ عينيه. فتح جفنيه مع إطباقة الباب خلفه على قاعةٍ متوسّطة؛ أرائك كثيرةٌ تتوسّطها منضدةٌ ضخمةٌ، تحيط بها كراسٍ من خشبٍ محفورٍ ومزركش!

ـ تفضّل أستاذ، اعتبر نفسَك في بيتك وأعزّ.

قصد أدهم أريكةً ليسترخي عليها ويستعيد نفسه من ضياعه اللحظي. أيّ حلم؟ تلاشى الحلم على هدير الصوت الجهوريّ:

ـ أمّ آية، أمّ آية لدينا ضيف، الأستاذ ما غيره!

تبدّدت أحلام الشرق من رأسه واختفى هارون الرشيد، نأت المرايا الفاخرة والوسائد والفرش الوثيرة، انطفأت قناديلُ تضيء أعمالاً زخرفيّةً لا تليق إلاّ بالأمراء.. حتّى الحرّاس الملتحفون بخوذهم المعدنيّة المدبّبة ورماحهم

وسيوفهم مضوا، لا جاريات ولا غلمانٌ ولا موائد عامرةٌ يحيط بها العازفون والقيان. أعتم سحر المصباح فبدت الدار عاديّةً؛ أسرةٌ صغيرةٌ تريد العيش ولا تحرم نفسها من متاع الدنيا المتاح، أبٌ يأتي في هزيع الليل يسعى لما يطمئن روحه ويمنحه قوّة مقارعة بطش العيش، يعانق زوجته وأطفاله نادماً على إيقاظهم وما باليد حيلةٌ، إن لم يبصرهم في تلك اللحظة فلن يشاهدهم أبداً. لماذا جئتَ؟ لتبذر فيهم دمك الفاسد؟ دعهم يحيون على هامش الحلم قبل أن يذوي وينكمش كما آل حلمك. هل آذوك لتسبّب لهم أذىً؟ هيمن عليه إحساسٌ غامرٌ بأنّ المكان ليس مطلَبه وأنّه أخطأ العنوان! تململ في جلسته وهو يستدعي طريقةً ملائمةً للمغادرة، لكنّ ضحكةً صاخبةً أشبه بزغرودةٍ ثبّتته في مكانه وأشاعت الفوضى في مشاعره، بدت منتميةً لعالمٍ آخر مخالفٍ للعالم الذي رفض تلويث طهره وتدنيس براءته، وعلى امتداد حبل الزغرودة، أتت كلماتٌ ثاقبة:

ـ أهلاً وسهلاً، شرّفتنا أستاذ، انتظرناك طويلاً حتّى حسبنا أنّك لن تأتي فأغفينا، لا تؤاخذنا!

تخيل امرأةً نحيلةً وطويلةً بملامح عجفاء ترتدي عباءةً ضيّقةً ولا تزيّن وجهها إلا بكحلٍ أسود يحيط بعينيها وقد ضفرت شعرها الفاحم جديلةً واحدةً طوقت جبهتها فبدت عصبةً سوداء سميكة، لكنّه أبصر امرأةً ربعةً تخطر بدلالٍ نحوه مرتدية ثوب نومٍ أحمر فضفاضاً. لم تكن مسفّةً، بل كانت على سجيّتها فما نفرت عيناه منها. على عكس ذلك، أشبعتهما من طلّتها المحبّبة وقد تهادى شعرها الذهبي على كتفيها. بدت أليفةً وهي تمدّ كفّها الرخصة، فوقف ماداً يده، وحالما لامس أصابعها، مسّته رعدةٌ خفيّة. تملّى وجهها.. حلاوة عينيها وصفاء زرقتهما وملاحة ثغرها الضاحك. لو تحسن الكلام لكانت إذن امرأةً كاملة! لحق الزوج بها بعدما تخلّص من ثياب عمله وارتدى جلباباً ناصعاً ضاعف حجمه، وقال:

ـ هيّا... أعدّي لنا ما يُنسي الأستاذ هموم دنياه. ما بالك يا امرأة؟

تحرّكي، أيقظي آية لتتعرّف على ضيفنا الغالي، نريد أن نفرح قليلاً ونغسل قلوبنا من الغمّ والنكد.

صفعها على كفلها فالتفتت إليه ضاحكةً:

ـ لقد قصّرتَ ولم توفِه حقّه من الوصف.

فحاكى ضحكتها مردّداً:

ـ من يرضيك يا ابنة الأبالسة!

ثمّ تابع ملتفتاً لأدهم الواقف:

ـ ارتح يا أستاذ، خذ راحتك، تبدّل ثيابك؟

أومأ أدهم أن لا، وجلس على مقعده فتابع الزوج بعد اختفاء الزوجة:

ـ تلك هي ابنة الحلال، زوجتي على سنّة الله ورسوله، بالله عليك قُل لي ألا أُحسد عليها؟

أومأ أدهم مرّةً أخرى موافِقاً ومجامِلاً. بدا مأخوذاً وقد تبلبل فكره، أيّ منزلٍ هذا؟

وتابع الزوج:

ـ صدّقني لو لم يكن والداي ـ الله يرحمهما ويرحم أمواتك ـ قد رضيا عنّي بعد رضا الله لما رزقني بها لتستر شيبتي وتعين شيخوختي. والله لا أبيع أظفرها بكومة نساء! صدّقني، هي تستأهل كلّ خير.

استعاد أدهم نفسه فضحك باستخفافٍ وقال غامزاً:

ـ والتي دوّختك من منزلٍ إلى منزلٍ وأماتتك رعباً في الختام؟

علت قهقهة السائق فارتجّ الهواء:

ـ يا أستاذ، ساعةٌ لربّك وساعةٌ لزوجتك وساعةٌ لروحك، ألا تنسى شيئاً؟

علا صوتها من الداخل:

ـ على أي شيء تضحكان؟ انتظراني قليلاً وسآتي.

استدرك السائق هامساً:

ـ يدي بزنّارك يا أستاذ، لا تحكِ لها، ستفضحني وتقلب ليلتنا عراضةً، وربّما طردتنا معاً. لن تخبرها؟

ابتسم أدهم بخبث:

ـ الذي أوّله شرطٌ آخره سلامة.

ـ عبدك يا أستاذ!

ـ لن تزعجني بحكاياتك الطويلة؟

هتف السائق متصنّعاً اللهفة:

ـ أعدك بأن أخرس، دع ليلتنا تمضي على خيرٍ كرمى للنبيّ! والله صرت أشتهي قضاء ليلةٍ بلا ملاسنةٍ وسباب. من غير حلفان، حظّك يفلق الصخر لأننا وجدناها على هذه الحالة!

تابع أدهم استخفافه:

ـ لقد فلقه من ساعة صادفتك، وكاد يفلقني لأنّ أمي كانت تقول عن رأسي أنّه مثل الصخر.

ـ سيلين رأسك، سيدي، هذه الليلة، لن تراك أمك ـ إن أبصرتك ـ إلا حملاً وديعاً. قالها ضاحكاً فسأل أدهم مخاتلاً:

ـ ستسحرني أيّها النمس؟

واصل السائق ضحكه كأنّه خشي نضوبه:

ـ انتظر وسترى، هاقد جاءت الساحرة الحقيقيّة.

دخلت مرّةً أخرى باشّةً، وقد ضرّج وجهها جهدٌ بذلته أو انفعالٌ تحاول إخفاءه، ثمّ هتفت:

ـ تفضّلا!

قاما يتبعان رائحة عطرها الثقيل. ستقودني الساحرة إلى الجحيم حقاً، وسأخرج في النهاية مسخاً نصفه خنزيرٌ ونصفه قردٌ إن اضطررت لمقاربتها على مشهدٍ منه!

فتحت باباً ودعتهما للدخول، وبسحرها انقلب المنزل الأليف إلى مبغىً حقيقيّ! كم كنتُ مغفّلاً، صفر أدهم، ليلةٌ معاصرةٌ من ألف ليلة. صاح رغماً عنه:

ـ ما هذا؟ أين نحن؟

ضجّ السكون بضحكتين صاخبتين من صاحبي الدار وهتفا معاً:

ـ لم تر شيئاً بعد!

تابع الزوج:

ـ أما قلتُ لك؟ انتظر وسترى سحراً حقيقيّاً! أكذبت عليك؟

لكنّ جنون السحر لم يبتدئ بعد. التفت الزوج صاحب القرنين للزوجة اللعوب من غير انتظار جواب سؤاله:

ـ تشقّقت حلوقنا يا امرأة، أما من شيءٍ يبلّها ويرطّبها؟

انحنت فوقه، بعد أن علّقت سترة أدهم في ركن الغرفة، وقرصت وجنته:

ـ دائماً مستعجل، هل لي ألف ذراع؟

ـ أين آية إذن؟

رشقته بنظرةٍ حادّةٍ وأجابت ممتعضةً:

ـ تعدّ الطعام، لقد أيقظتُها من نومها!

ـ ليست مشكلةً، دعيها تمرح قليلاً!

لكزته بجماع قبضتها واستدارت متّجهة نحو البار المجانب، سحبت من برّادٍ غير ظاهرٍ بضع علبٍ من البيرة.. وضعتها على صحفةٍ فضّيةٍ مستديرةٍ توسّطها صحنٌ طافحٌ بالمكسرات.

أخيراً، قالها أدهم في نفسه وهو يرمق الثديين اللذين يكادان يطفران أمام عينيه... ملأ رئتيه بالريح الموعودة وتناول علبةً فتحها بسرعة.

ـ في صحتكم!

لم ينتظر أحداً، وضعها على فمه ولم يرفعها إلاّ وهي فارغة.

ـ عشت يا أستاذ، شرّيب أصيل! قال الزوج على وقع قهقهات الزوجة وقد جلست قبالة أدهم طاويةً فخذيها تحتها وقد التمعت ركبتاها الزهراوان، فكانتا يشباً خالصاً منحوتاً منذ آلاف السنين. قالت خلال ضحكتها المرنان:

ـ صاحبكَ ميتٌ من العطش!

حمل أدهم علبته الثانية وقال متلمّظاً:

ـ ومن الجوع أيضاً.

صأصأ الزوج لامزاً:

ـ سترتوي وتشبع من كلّ شيء!

ثمّ التفت إلى الزوجة:

ـ أسمعينا شيئاً يا امرأة. وتابع مخاطباً أدهماً:

ـ خذ راحتك أستاذ، لا تتحرّج، نحن أخوان!

في سريرته هتف أدهم، ابحث عن قوادٍ مثلك تؤاخيه يا ابن العاهرات! ممّ أتحرّج؟ هل أبقيتما محلاً لخجلي؟

ـ طيّب، دعونا نطرب قليلاً، هل سنبقى صامتين كأنّنا في مأتم؟

علا صوتٌ من وراء الباب:

ـ ماما..

مضت الأمّ نحو الباب وفتحته على سعته فأطلّت صحفةٌ ضخمةٌ مليئةٌ بصحونٍ كثيرةٍ أثقلت كاهل حاملتها التي وضعتها أمام أدهم بأناةٍ ورويّةٍ خشية أن يخلّ الثقل بتوازنها فتقع.

ظهرت البنيّة حانية الرأس فهلّل لها الأب وقدّمها لضيفه:

ـ هذه آيتنا يا أستاذ، حلّفتك بالله أليست نعمةً من نعمه؟

لم يكذب خبراً، ولم يبالغ؛ تحفةٌ حقيقيّة نضج جسدها ولمّا تمّحي ملامح الطفولة عن وجهها. ثمة ابنةٌ حقيقيّةٌ إذن! تملاّها أدهم وتنبّه على صوت الأب:

ـ سلّمي على الأستاذ.

أشارت برأسها وهمست شفتاها مرحباً خافتةً، ثم استدرك الأب:

ـ لماذا لم تستبدلي ثوبك؟

حاولت الأمّ إسعاف الابنة المضطربة بلومٍ مبطّن:

ـ لقد أيقظتها من نومها وعليها أن تعود إليه الآن.

فنهرها الأب:

ـ ستسهر معنا وترتدي ثياباً لائقة.

أحسّ أدهم بعاصفةٍ تدقّ الأبواب، جرع كأسه مدارياً حرج عدم تدخّله، حسِب أنّ سطوة الأمّ هي الغالبة، لكنّها لم تعترض:

ـ هيا اذهبي، البسي وتزيني!

ودّ أدهم لو يعترض ويسألهما أن يدَعاها تكمل نومها، فما حاجته لامرأةٍ لها وجه طفلة! لكنّه أحجم. وسرعان ما استعاد الزوجان مرحهما وأغدقا على ضيفهما كرماً لا متناهياً آل إلى إشعال النرجيلة بعد كؤوسٍ عديدة. تساءل الزوج مستحيياً إن كان الضيف يرغب بتدخين تنباكٍ عجميٍّ ملغومٍ فأسعده الضيف بعدم رفضه. خلف غلالةٍ بيضاء نشرها الدخان العابق

برائحة بخورٍ مميّزة، وضعت الزوجة شريطاً صاخباً وراحت تتلوى على إيقاعه العنيف، رقصت بجدارة راقصةٍ محترفة فأطارت لبّ أدهم. وبين الضباب الذي تعشّق كريّات دمه وأبخرة الكحول التي تصعّدت وصدمت قحفه والضحكات والقفشات التافهة والجسد البهيميّ، دخل أدهم تيه النسيان؛ خال أنّ ذاكرته أقصيت ودُفنت في مجاهل نائية، فتخلّى عن كلّ تحفّظاته ووقف بتشجيع من الزوج الذي أخذه الطرب فراح يصفّق ويترنّم بعدما سبح دماغه وطفا على خليط الكحول والحشيش. راح أدهم يتمايل هائجاً كثورٍ لاهثٍ أمام وخلف وعلى جانبي الطيف الأحمر المستثار بالالتصاقات الحميميّة مع الجسد المتقافز حواليه... لم يثمل، بل ضحك في سريرته، يا لتوبتها التي أنعم الله بها عليها! لم يوقظه إلاّ صوتها:

ـ ادخلي...

دخلت الابنة غاضّةً طرفها، تحاشى أدهم التطلّع إلى وجهها لكنّ حواسّه استغرقت في هيكلها. كانت قد ارتدت فستان سهرةٍ لامع السواد يلفّ جسدها من أعلى ثدييها حتّى أخمصيها. بدت أميرةً بحقٍّ، ورغماً عنه ارتقى وجهها، لم تغيّر المساحيق الكثيفة براءةً سالت على وجنتيها وأطلّت من اتّساع بحيرتي عينيها!

ـ تعالي يا ابنتي، اجلسي بيني وبين الأستاذ. انبسطي معناً قليلاً!

كان الأب قد استقام من ضجعته والتفت إلى أدهم سائلاً بعد أن جرع من كأسه:

ـ شهيّةٌ وطازجةٌ مثل تين البراري الناضج المنتظر لفحة شمس ليتشقّق، خمّن يا أستاذ كم يساوي مهرها؟

ارتعد أدهم للسؤال، أيساومني على ثمن بكارتها؟

همس الأب شيئاً في أذن ابنته، تردّدت، إلاّ أنّه ربّت على ردفها مشجّعاً فانطلقت نحو آلة التسجيل. سرعان ما داخل أذني أدهم لحنٌ قديمٌ

جدّاً اعتادت راقصات الشرق العتيد هز أردافهنّ على إيقاعه، التفت نحو مصدر الصوت موشِكاً على إطباق جفنيه ليصغي، أنىّ له ذلك وقد باشرت الابنة الرقص؟ بدت غرّةً، كأنّها تحاول تقليد كبار الراقصات للمرّة الأولى ورويداً رويداً أثبتت العكس، إذ كلّما نأى الخجل عنها كلّما ازدادت ثقتها بنفسها وبدت كراقصات معابد نُذرن للرقص منذ ولادتهن، وتحولت الابنة من تلميذة مدرسةٍ إلى غانيةٍ خليعة، بينما راحت الأمّ تلتصق به وتحتك بجلده كهرر الليل. استشرت الشهوة في خلاياها فما عادت تأبه بالأب أو بالابنة. وتحت إلحاحها المستمرّ، استسلم أدهم فأخذت تفكّ أزرار قميصه واحداً واحداً حتّى انتزعته فبات نصف عار. انتهى الشريط، فعادت الابنة وقد تخلّت عن حذرها وحشرت نفسها بينه وبين أبيها لاهثةً مغتسلةً بعرقها. تناولت طواعيةً جرعةً من كأسٍ وجدته أمامها، غاصت ملامحها كأنّها تريد الهرب هي الأخرى إلى خدرٍ سريع يزهق وعيها! لم يجد أدهم مفراً من الاستدارة ناحية الابنة تخلّصاً من لجاجة الأمّ وتكالبها، لمح الأبَ وقد اتّكأ على مرفقه مسنِداً فكّه على راحته شاخصاً في الفراغ. عانق أدهم الابنة وضمّها فحشرت وجهها في صدره كأنّها تلوذ به. ردّد في نفسه، عليّ حمايتها وتجنيبها قذارات أبويها، إن كانا كذلك حقاً! لكنّ كفّيه كانتا تجوسان ظهرها وخاصرتيها.

تكوين ثانٍ

في موضع آخر... وعلى نفس نسيج الزمن المتّصل بخيوطٍ غير مرئيّةٍ كانت العدّة تُعدّ لإيقاد نيران مآدب متباينة!

صرخ جميل بكلّ ما أوتي من قوّةٍ حين أيقظته سكينٌ أغمدت نصلها في نهايات نخاعه الشوكيّ وانتشرت ببطءٍ وثباتٍ حتّى قحفه، ناقلةً وجع التمزّق عبر أشفاع حبال الأعصاب المنطلقة من عموده الفقري إلى كلّ خليّةٍ وصلتها النهايات الدقيقة لخلاياه العصبية. حاول أن يقف، فنسفه الألم مرّةً أخرى وتلاشى إحساسه بكتلة بدنه كأنّها صارت نثاراتٍ تخلّت عنه وانطلقت بعيداً ثم عادت، وفي التحام تجمّعها أطلقت طاقة إشعاع هائلةً أفلتت صرخةً أشدّ وأقسى. تحامل على نفسه، لا يحقّ له أن يُعلِن على الملأ هيجانات آلامه.. أحسّ ضباباً يتسربل دماغه تمايز عن عتمةٍ تحيط به، لم يكرّر خطأ محاولة إضاءة ما حسبَه غرفته كما حدث فجر أمس، يعرف الآن أين هو وإلى أين سيمضي! أمّا الكابوس الذي انتهى برأس مي المقطوع فقد استحال فجراً ليوم واقعيّ، وبدا أن حنجرة رأسه المقطوع هي التي ستعوي صراخاً قبل أن تطلق أسئلتها على المدى وتعلن حاجتها للإجابة أكثر من حاجتها للهواء!

استعاد إحساسه وتلاشى على مهلٍ ما أفقده الصلة ببدنه وأوصاله. حقنوني بمخدّرٍ قويّ، إذن لقد عرفوا، وما عاد إخفاء ذلك مهمّاً. لكنّ ما أثار تعجّبه سماح فاتك لهم بتخفيف آلامه أو منع إحساسه بها، ما الذي تغير

فيه؟ لن أصدّق أنّه أشفق عليّ أو أن رحمةً انتابته فقرّر ألاّ يتلذّذ بآلامي ويمارس ساديّته عليّ رأفةً بموتي الوشيك! أدركني الموت وعجّلوا قدومه. تذكّر آخر مرّةٍ شاهد فيها الطبيب.

كان صريحاً لأبعد الحدود: عليك أن تستعدّ، ليس أمامك إلا أسابيع، إن طالت لن تتجاوز عدد أصابعك وليس أمامنا إلاّ تخفيف أوجاعك. كن شجاعاً!

حسناً أيّها النطاسيّ الحكيم، سأكون شجاعاً ولكن قُلْ لي بربّك ما الذي أستطيع فعله بأسابيعك الشحيحة؟ هل تكفي لإنجاز أيّ فعل؟ تكفي لفعل الكثير.. التمعت الفكرة في لحظة صحو، ستكفي للبحث عن مي.. مشروع العمر المؤجّل، وقد آن أوان تنفيذه بعدما كاد الأجل ينتهي!

ـ سأعود.

ـ لا لن تفعل، ستبقى بيننا، وما الذي ستفعله بعودتك؟

ـ أنجِز ما أجّلته طويلاً، ما هربتُ منه طويلاً، أنحّي غربتي وآوي إلى ترابٍ أليف!

ـ لن تجد هناك من يهتمّ بك، سيكون الإهمال أشدّ من الغربة.

ـ سيّان، لا تنسوا عندي صفاء ومي!!

ـ حسنٌ كما تشاء. لن تنسنا، أليس كذلك؟

ـ إن نسيتُ نفسي!

أما قلتُ لكم؟ أتذكّركم في موضعٍ لا يتذكّر الإنسان فيه نفسه، وأكاد

أنسى فيه ما عدت لأجله! لا لم تنس، لكنّهم لم يمهلوك. أما تذكر؟ البارحة فقط استطعتَ اقتناص فرصة البدء، كان عليك أن تلتقط بحذرٍ المفاصل الأساسيّة التي تقاطع عبرها زمانٌ ومكانٌ شقّا عمراً هوت في فراغه مي واختفت! تعاندك صورتها، تحاول لمس ملامحها لأول مرّةٍ.. قسماتها العذبة الحزينة والعنفوان المندفع من عينيها والمتسلّق خصلات شعرها المتمردة دوماً والمعارضة لمتجهات خطوط حقل شعرها الخرنوبيّ كأنّ ريحين متعاكسين اصطدمتا عنده. تذكر وحسب جبهةً عنيدة، شفتين مطبقتين تضفيان وقاراً لا يلائم طالبة السنة الإعدادية في كلية الطب بردائها الأبيض المعهود وكومة كتبها ودفاترها التي تنوء بحملها. لماذا تغيبين الآن؟ تستعيضين حضورك الضروري بآثارك المندثرة وظلالٍ خلفتها خطواتك الراسخة! تأتي نوبةٌ أخرى من الوجع الساحق، تتلوّى الأطراف وتتقلّص قسمات الوجه وتدمى الشفتان في محاولة خنق الصرخة التي أرعبت عصافير القلب الشاردة التي نأت! تبحث بعينيك عن نافذة القمرة الوحيدة التي تحصر في استدارتها حيّز الأفق المقسوم بين زرقتين؛ قمرة لا تلاقيها الشمس لا في مشرقها ولا مغربها ولا توسّطها.. تصدم حيزوم سفينتها في باكر الصباحات وتضيء دفّتها سقطات أفولها. كان يريد تأجيل أفوله الأخير حتّى اللحظة التي يضع فيها إصبعه على الجرح فيعترض شرايينه المقطوعة أو يوسّع فوّهاتها حتّى تفرغ باقي النجيع! لكنّك الآن اختصرت الرحلة، قصّروا الطريق وصار عليك أن تعدّ قطرات دمك فتعادل بها ما تبقّى من نبض قلبك! لأيامٍ طويلةٍ فشلت في تعيين موضع مي وكانت الآفاق مفتوحةً أمامك، فكيف تفعل الآن وقد أطبق الدم عليك وسُدّت بجدرانٍ كتيمة؟ كيف تخرجها من الأحياء أو تبعثها من الأموات؟!

أضاءت شموعٌ عملاقةٌ ورمت ظلالها على الجدران السوداء.. مدّ أصابعه ليعدّها أو يتبيّن مواضعها، بحث في ظاهر كفه عن وشومٍ قديمةٍ تخلّفت عن أزمنةٍ مضت، نبتت منها يوماً ضحكاتٌ تفرّدت في عصور

الدموع التي تلت. سأل: هل من موتٍ جميل؟ ابتسم للمفارقة التي ذكرته باسمه الضائع في ملفّات الذاكرة والموضوع الآن على طاولة من يريدون استخدامه للبرهنة على قدرتهم على تغيير هويّة المرء، إعطائه رقماً يدل على لون عينيه وصفاء حنجرته وتغريد قلبه! خطرت على باله حياةٌ حسب يوماً أنها ستكون كذلك جميلةً ورغب أن يحياها بكلّ خفقة. أين مضى ذلك كله؟ موتٌ جميل، حياةٌ جميلة!! يا للمعادلة الصعبة والعصيّة! زحف إلى عمودٍ ضخمٍ استند إلى شمعه الأبيض وتحت الضوء المنتشر من ذبالته الساكنة اللهب عدّ أصابعه، اكتشف أو قرأ على ندوب سطوحها أنّ العمر برجوعه لم يضع سدىً.. كان عليه أن يكتب أكثر ويترك بصماته على مواضع أكثر تخبر عن دربٍ قطعه. حزن قليلاً لترك شقيقته وحيدةً، لكنّ شجاعتها عزّته وشحذ استمرارُها في طفليها عزيمته. ساءل الأصابع المشرعة أمام عينيه وقرب قامته، أتجدين الوقت لإمساك مي؟ قولي نعم كيلا تخبو شعاعتها.. النجمةُ الوحيدة التي لم تطفئها رياح اللعنة ولوثانات التسلط! من أحلامها سيوقظها لتعلّمهم أنّ الفناء الذي رغبوه لا قدرة له على غزو الجسد إن فشل في تطويع الروح! قبضةٌ من غبارٍ ناعمٍ وحسب، نسيجٌ هشٌّ لعنكبوتٍ منع هجمات الحشرات وغزو النمل واجتياح الديدان، ستجدينها وتطلقينها في وجوههم صرخةً تفهمهم أنّهم بقدر ما نجحوا، بقدر ما فشلوا! آهٍ، منذ متى بدأ ذلك؟ صرخت روحه جائرةً وجع جسدها وآلام مخاض الإجابة. متى كانت البدايات وكيف تفكّكت فاستلهمت طرقاً مختلفة؟ تباعدت وغابت، افترقت مع من عبروا ساحةً يوماً وتوقّفوا.. مضوا على أمل لقاءِ ذات شمسٍ ليعرفوا أين مضى العمر بهم. كيف رصفوا دروب أحلامهم وإلام آلو؟ أما آن لتلك الطرق أن تلتقي وتصبّ في ساحتها المعهودة؟ يلتقون مجدّداً، محبطين وخائفين، مشوّهين، نصف أموات ونصف أحياء لم يتعارفوا إلا من خلال روائحهم وخافوا أن تتخالط روائحهم فيسألوا يوماً، من أين أتت الرائحة المخالفة؟ حكّوا جلودهم لتتبدّد الرائحة المشتركة التي شكّلت ماء عمادتهم وطقس انتمائهم لتظهر روائحهم الأصليّة التي باتوا

يخشونها مثلما يخشون بعضهم. التقت الدروب وصبّت في ساحةٍ ما، قديمةٍ أم جديدةٍ سيّان! ثمّة ما أوحى بمسارٍ مشترك؛ ضوءٌ خفيٌّ قادهم إلى حيث وصلوا! استعرض الأموات والأحياء، لم يولوه انتباههم. ما بالكم؟ أما عرفتموني؟ أما اعتنقنا يوماً وتواعدنا على لقاء؟ أما جمعتنا هنيهات فرحٍ ولحظات إثمٍ وبرهات عذاب؟ انتظروا ثوانٍ، قولوا إنّكم بخير، لوّحوا كي أطمئنّ عليكم وحسب، انتظروا... تمهّلوا، لا تركضوا!! لكنّهم غابوا.. هاربين من جذامٍ أو جنون، أي إيمانٍ هذا؟ أثمّة جحيمٌ أكثر من أن تهملٍ وتلقى على حد الصحارى لتدخل التيه والنسيان ثمّ تعوي في وحشتك حنيناً لكائنٍ يسمعك وتصغي إليه؟ زمنٌ مبدَّدٌ داخل الشتات، أما تراه يواصل في العمق دورةً لا فكاك منها؟ فزع منهم؛ ارتصفوا كمحنّطاتٍ في واجهات زجاج المتاحف.. الأصدقاء والأقارب والغرباء تقاسموه وكلٌّ أخذ حصّته غير منتقصة، الذين فقدوا الصلة بالحاضر ولاذوا بالماضي بحثاً عن مشتهىً غاب أو غُيّب، الواجدون في أسر الماضي آن الحاضر دماراً للروح فلجأوا لحلم المستقبل ولم يستطيعوا إقطاعه لحظة الحاضر التي شكّلت قطيعةً مزدوجةً بين الأمس والغد! عبروا جميعاً دون أن يتصادموا، أحالوا جسمه ظلاً ملتصقاً بالأرض.. أتوا من جهاتٍ مختلفةٍ قاصدين الجهات المعاكسة، ضياع من وجد نفسه في مياهٍ مجهولةٍ ولمّا يتعلّم العوم بعد! قولوا ما بالكم، أيّها المعلّمون والتلاميذ والأتراب؟ تردّد الجدران صدى قهقهةٍ شامتة: ابحث عن مائك أيّها الغبيّ المطرود من العصور! من؟ من منكم المتكلّم؟ يعلو الصوتُ الهادر على سؤاله: خُدِعتم أم خادعتم أنفسكم سيّان، علقتم في شباك أوهامكم مهما أطلقتم عليها من صفات، تدركون ذلك لكنّكم لا تعترفون كيلا تتنكروا لأنفسكم... نصف قرن؟ قرنين؟ أين أنتم الآن؟ تراوحون في أماكنكم. لقد قدّرتكم أكثر ممّا تستحقّون! ألم تعودوا قروناً للخلف؟ أليس ذلك ما تحاولون الهروب منه تحت شتّى المسميات والتسويغات؟ افتحوا أعينكم، انظروا الديدان تأكل من محاولة إخراج أنفسكم من حظائر العبودية وتنهش من جهود انعتاقكم المنشود! كلوا من ديدانكم كيما تعيدوا تناسلها

وتمنحوها فرصة التكاثر إلى ما لانهاية. أيّ هراءٍ ذاك؟ عمّ يتحدث الصوت المريب؟ ما الذي يسعى إليه؟ يختفي الصوت وتبقى السخرية لتضفي جوّاً من المرارة وتكيد لمحاولات التخلص منها!

يُحشَرون في نأيهم خلف جدارٍ يفصلهم عن المتن، يدخلهم نوله وينسجهم على هواه! لحمةٌ من انمحاء الوعي وسداةٌ من التدمير المنتظم لقدرات الإنسان الذي وجد نفسه دون إرادةٍ ودون أملٍ بين الرحيين وصياصي النول تخترقه جيئةً وذهاباً وهي توحده بإرادتها وتعزله وتقزّمه رغم إرادته. إلى متى؟ تضرّع صوتٌ من أرض النسيان.. وقف غرابٌ أسود على قمّة الشمعة يلعق بلسانه الوردي برتقال اللهب وينتش بمنقاره الفتيل الفاحم ثم ينعب: إلى أن يشاء معدّ الأدوار ويفصح عن فصل الختام! أيّ ختام؟ تساءل جميل وقد انطفأت الشموع وخيّم الصمت. حاول أن يتحرّك فلم يستطع بعد أن تجمّد الشمع السائل فوقه فعلق بأسره. عادت العتمة تغزو عينيه كغيومٍ من جراد.. من ينتظر من؟ ومن يبحث عن من؟ ومن يملك جرأة حفر نفقٍ يصل الناس مخترقاً الكثبان التي تعزلهم في بواديهم وكهوفهم العارية؟

اختلطت الأمور عليه.. هيمنت عليه لحظة موجٍ في قمرة رحلةٍ قصيرة كأنّما تعلّق بها من الخارج وراح يختلس النظر لمسافرَيْن يتبادلان الأنخاب صعب التمييز بينهما أو هكذا خيّل إليه. غطّاه ملح البحر وتبلور على حوافّ النافذة المستديرة، حاول أن يرى خلف تباينهما واختلافهما الظاهريّ تقارباً بيّناً؛ كانا عائدين بعد نفيٍ قسريٍّ وطوعيّ، هل يبدو ذلك حقيقيّاً الآن؟ كأنّ نقاشاً احتدم بينهما وما من سبيلٍ لسماع فحواه فالزجاج السميك يحجب الأصوات المتردّدة وراءه. أيستطيع معاندة اكتواء جفنيه وقراءة حركة شفاههما؟ حاول ذلك فاختفت ملامحهما معاً، اعترضت الشفتان الوجهَ كله واتّسعتا حتّى ملأتا ساحته. سأل الفم الأوّل فتجمّعت حركات الشفتين حروفاً مشكّلةً اسماً.. وفعلاً.

ـ لماذا عدت؟

ـ لا أدري! كان اتّخاذ القرار خطيراً، أما الأخطر فكان تحوّله ـ من مجرّد صراخ في وجوه الآخرين وفي وجه الجثّة المتحركة التي دُعيت أدهم جبيلي وما عاد فيها إلاّ بقايا صوتٍ وحيدٍ غنّى دوماً على وتره المنفرد وما استطاع الآخرون سماعه ولا استحوا من التشنيع به وإحاطته بشتّى التهم الباطلة والحقيقيّة التي أناخت فوقه جبلاً من غبارٍ تكفي نفخةٌ صغيرةٌ لجعله يتناثر معكّراً شعاع الشمس الوالج ثقب بابٍ أُغلق وانتُزع مفتاح قفله ـ إلى فعلٍ اتّخذ صفة الانتقال من طور التردّد إلى الحسم!

ـ وإذن؟

ـ ليس واضحاً بعدُ إن كنتُ سأسلّم نفسي طواعيةً أو أواجه الموت إن تحلّلتْ وشائج ارتباطي بالحياة!

ـ ماذا؟

ـ كما أقول لك! حاولت رماح المستحيل لتثنيني، تركت وسادتها، التي وضعت رأسها عليها لآخر مرة، قرب وسادتي لتستطيع مخاطبتي كل ليلةٍ حتّى الفجر. لكنّها تنبأت حين أخفقت محاولتُها بأنّني أحمل نعشي تحت جلدي!

ـ وهل صدّقتها؟

ـ لم تعتد الكذب، قُل هل صدقت نبوءتها؟ فأجيب: لا أعرف! لكنّني لم أسع لحتفي؛ غادرتُ بجواز سفرٍ مزوّر! ما قولك أنت؟

ـ أخشى أنّك تسعى لاكتشاف آتٍ غامضٍ مجهولٍ ومليءٍ بالعقم!

ـ لماذا؟

ـ لا يتقاطع زمانك الخاص والزمان العام في نقطةٍ واحدة. لقد فقد حاضرُك قيمته لأنّه صودر، وعبثاً ستبحث عن ماضٍ أسير! أثمّة وجهةٌ أخرى

للبحث؟

ـ لا أدري! ربما وُجد احتمالٌ آخر؛ بحثٌ عن كائنٍ محدّدٍ يكتشف شروط عيشه ويكشف بالمقابل شروط عيشك والظروف التي أملت عليه صيرورته. تتباين تلك الشروط باختلاف الحالات واستعدادات الشخوص وتباين بنياتها.. لا أدري! وأنت تعود؟

ـ رحلة ماءٍ لا تستغرق وقتاً طويلاً. انظر.. الجبال في البعد هي الشاهد على أنّ الوشائج لا تتمزّق لمجرّد أنّ الزمن يريد لها ذلك!

ـ أيّ هراء؟

ـ حسنٌ، في الزرقة تكتشف ماهيّات حلمٍ مضيّعٍ عبر محاولات تجسيده سواءً أغاب الشريك أو حضر!

ـ وأية ألغاز؟

ـ أما سعينا وراء حتفنا؟ كلّما أوغلنا كلما تبيّن لنا أنّنا نوهم أنفسنا ببحثٍ عن المراد وقد كان المراد المُشتهى أبداً موتاً مؤجّلاً!

ـ لكنّك لا تنتظر موتاً حقيقياً!

ـ من يعلم؟ عطب الروح أعتى من انتظار موتٍ مؤكّد! ربما لا يتّجه البحث نحو شخصٍ ما كما افترضت، لكن بحثاً عن بصيص أملٍ لتوديع ماضٍ سلمت نفسك منه باعتباره موتاً مؤجلاً!

ـ ولكنك قرأت وكتبت... أما فعلت شيئاً لإبعاده أو إزاحته؟

ـ أدركتُ بعد لأي أنّ صمتي وحيادي وفراري زاد الخراب وكان البرهان المعاكس محالاً! أكان لبقائك وبوحك وانحيازك أن يقلّل الدمار ولو بحدودٍ دنيا؟ هل تستطيع استنتاج ذلك وحدك، أم أنّك ستضطرّ للانتظار حتى يعلن ذلك عليك بضوءٍ يلقيه على آتٍ هو حاضرٌ بالنسبة إليه مثلما هو مستقبلٌ مجهولٌ بالنسبة إليك؟

ـ ما فائدة ذلك كله؟ أيكون غير ثرثرةٍ عديمة المعنى؟

- ربّما، ربّما ستفعل ما تظنّ أنّه سيمنع الهوان عن أطفالك! ولكن إن حدث كاحتمالٍ - مجرد احتمال - وأدّت محاولتك لهوانهم، ألن يأتوك سائلين متّهمين، حيّاً كنت أم ميتاً؟

- فهمت، تبحث إذن عن موت مقرّرٍ تكفيراً عن هروبك واستغفاراً عن خطأ الابتعاد. ألأنّك أبعدت معصميك عن القيد؟

- سنموت مرّةً واحدة، لمَ نؤجّل ذلك؟ لمَ نلوّث موتنا بتأخيره؟

تختفي القمرة، يسيل الزجاج ويختلط بعتمة موجٍ لا تضيء تكسّرات ترنّحاته نجومٌ ولا قمر.. وفي اللزوجة العابقة باليود تظهر منارةٌ بعيدة. يبتسم جميل رغم الأسنّة التي تتدفّق من نهايات عموده الفقري وتنتشر في أنحاء جسمه المغدور، تلتمع مقلتاه عاكسةً الضوء المتقطّع الذي يُعلِن عن شاطئ مي. هي في البرّ إذن وليست في البحر! تفاجئ تردّدات صحوه وغيبوبته راحتان دافئتان تغطّيان عينيه؛ حارسة الروح.. زارعة تدرّجات الزرقة فوق أغبرة الصحارى وصفرة رمالها الباهتة لتستودع سرّ البذرة التي تنام ألف عامٍ وتستيقظ في لحظةٍ خارجةٍ عن أيّ حساب!

- مي؟

تناجيه قرب قلبه، ما من شفاهٍ لتحكي من خلالها فتنقل نبضها أو خفق فضائها:

- من سيفكّر بصنع إسورةٍ إن لم يكن هنالك معصمٌ يحتمل إطباقها على شرايينه؟ ستراهم مرّةً أخرى.. سيعبرون بك للمرّة الأخيرة قبل أن تتّخذ سمتك نحوي، يستقلّون طريق الفناء انتحاراً ونحراً للأبناء الذين تابعوا درب الصمت الذي أزهق أرواح آبائهم! ستقول آثار أقدامهم وتدلّ - رغم إنكار الألسنة - أنّ العجز لا يُسوّغ، ثمّة عطبٌ في الأعماق يدع مناجل حادّةً

تجتثّ الألسنة وحموضٌ كاويةٌ تغسل العقول.. ستقول العيون الكسيرة ليتنا فعلنا شيئاً غير التصفيق أو الابتهال أو الانتظار!!!

ابتعدت راحتاها.. عبثاً حاول ملاحقة رائحتها.. لا تبعدي يا مي.. لاتبعدي!

رماه العويل ومرّغ جبهته على البلاط العاري. لا تفعلي بي مثلما فعلوا، لا تتركيني وتغادري.. مشيتُ إليك على حبل الوريد فلا تبتريه قبيل الوصول لنافذتي عينيك، قبيل ملامسة راحتيك ولا تغلقي الإسمنت خلفك وتتركيني للصدأ!

لملمت حطامَه قرقعةُ القفل المنتهية بصرير الباب الثقيل.. اندفعت كتلة ضوءٍ بيضاء على سعة الباب فأعشته... دخلوا سريعاً، قيّدوه وعصبوا عينيه واقتادوه إلى حيث لا يدري. ألا ينامون؟! ولكن هل تعرف الوقت حتّى تفترض أنّه وقت نوم؟ ما عاد يقوى على السير، فجرجره اثنان وهما يجذبان إبطيه بفولاذ أصابعهم. ربما آن الأوان وعليّ أن أتهيّأ للضحك! خلال سحبه من قاع قبره، أحسّ أنّه يرتقي صاعداً سطح الأرض.. آلمه الاستهتار البادي في طريقة دفعه وأغضبه جهله للوقت.

تكوين أخير

وفي تزامنٍ مدروسٍ اندفعوا نحو البيوت والمساكن.. انقضّوا على أبوابها كجند الغزو في ليلٍ محاق.. هبّوا إعصاراً واجتاحوا ما يعيقهم كأنّ رعباً يسوطهم من ورائهم فيفرّون منه حيث يقودهم؛ البنادق في الأيادي، الأقنعة تغطّي الرؤوس والأغلالُ معلّقةٌ في أحزمة الخصور. لم يميّزوا بين الأطفال والبالغين، بين النسوة والرجال، بين الكهول والشباب. الجميع مطلوبون وعليهم الخضوع حالاً لاختبارات تعيين الولاء وماهيّة الانتماء وصدق الالتزام!

فصلت فوّهتا بندقيّتين بين حنان ونوال وانغرست في صدغ كلّ واحدةٍ منهما، بينما حاصرت فوّهاتٌ أخرى قلبي إبراهيم وصفاء. وقفوا جميعاً مذهولين، أرعدتهم صرخاتٌ انطلقت من غرفة الطفلين. انتفضت صفاء وحاولت أن تركض نحوهما، لكنّ المعدن البارد أوجع ثديها وشلّت قدميها صرخة: لا تتحرّكي!

ـ اتركوهما، سأضعهما عند جارتي! تضرّعت وهي تراهما محمولين تحيط بهما أذرع حارسين من حرّاس هولاكو، لكنّ سيّدهم نهرها:

ـ اخرسي، سيصحبونك هذه المرّة في رحلةٍ ستطول أكثر ممّا تحسبين، ولا تعيدي الحديث عن جارتك لئلاّ أجعلها ترافقك مع زوجها وأولادها. اقلبوا البيت رأساً على عقب!

خلال دقائق استحال البيت ركاماً وحطاماً لا أصل له. ليت أبصارهم تعمى عنها! خاب رجاؤها، إذ استحالت غرفة أبيها، متحفها، أوابدَ سيُعاد اكتشافُها بعد قرون. تمنّت ألاّ تكون وديعته قد أصيبت بالأذى وأن يتاح لها تأدية الأمانات لأصحابها!

استشرت الريح الصفراء في أمكنةٍ أخرى، جرفت قيودُها وعصباتُها رحاب وجنان ووفيقة وكريم والأطفال... امتلأت بهم السيّارات المجهّزة بأحدث التقنيّات. كانت واحدةً من حملاتٍ باتت نادرة، وكيلا يجد سائقو السيّارات وصحبهم أنفسهم بلا عملٍ التجأوا لقطع الطرقات؛ حواجز ثابتةٌ وطيّارةٌ لتحصيل الرسوم والخوّات أو التحكّم بالأرواح.

وحتّى اللحظة التي كان جميل فيها يعبر آخر الممرّات ليُعرَض تحت أشعّةٍ كاشفةٍ في محاولةٍ أخيرةٍ لسبر أغوار روحه وتعيين هويّته الحقيقيّة، كان مصيرهم جميعاً أفضل بكثيرٍ من مصير نبيل! لأنّه حالما أوصل قصياً إلى سيّارته بعد سهرةٍ عامرةٍ في منزله خرجا منها مترنّحين واستدار ليعود، برزت من العتمة أربعة هياكل لأشباحٍ تفرّعت عن هبوبات ذات الريح وقد اتّخذت أشكالاً أخرى. حمله اثنان إلى الرصيف المقابل فصرخ مستنجداً بقصي الذي سارع إليه مع سائقه ومرافقه، إلاّ أنّ وجهين مألوفين اعترضا دربه، كان الأول ساعد أبيه الأيمن:

- أرجوك يا معلّم، لا تقحم نفسك في ذلك!

جنّ جنون قصي:

- ماذا تقول يا ابن الكلاب؟ ألا تعرف أنّه صديقي؟

إلاّ أنّ الساعد الآلة لم يتزحزح قيد أنملة:

- سيدي إنّها أوامر المعلّم الكبير، لا نستطيع لا أنا ولا أنت مخالفتها!

فعل الصوت الهادئ والحازم فعله فبقي قصي جامداً تصل إلى أذنيه استغاثات نبيل التي تخامدت مع تخامد حركاته. لكنّ اللذين أخرجاه سريعاً

من دائرة ردّ الفعل لم يكتفيا بذلك، فقد بدا أنهما يسعيان لأكثر منه. بعدما أنهت القبضات والأقدام عملها في إشباع الجسد ما لم يستطع تحمّله، جاء وقت الدم... استلّ أحدهم من مكانٍ ما ساطور جزّارٍ ثقيلٍ وراح يسقطه بهدوءٍ فوق مواضع محدّدةٍ من الجسم الذي استحال جذع شجرةٍ مجتثاً من جذوره لولا اختلاجاتٍ تواترت مع تأوّهاتٍ بعيدةٍ مكتومةٍ مع كلّ ضربة. أعمل الساطور حدّه في الأطراف بحرفيّةٍ عاليةٍ كأنّما يقسم ذبيحةً طازجةً لأقسامٍ حدّدتها رغبة زبونٍ ثريّ؛ هشّمت ضربتان ثقيلتان بعرض الساطور الركبتين فأتت صحوةٌ مفاجئةٌ لجسدٍ استحال جثّةً قبل أن يخطف الموت أنفاسه ويمتص إسفلت الشارع دمَه المراق وسألت العينان المرعوبتان: لماذا؟ أتى الجواب سريعاً:

ـ أرسلنا الله لنثأر للّذين خدعتهم منذ عقد، استوليت على بضاعتهم وسلّمتهم للسجن تأكلهم ديدانه بينما تنعّمت أنت بأموالهم. أترى؟ يمهل ولا يهمل... ومثلما تدين تدان!

ابتسم رغم أوجاعه، القوّادون يكذبون، يدّعون غير ما يضمرون، ما من فائدة، لقد سبقتني يا قصي! التفت برأسه وتيقّن أنّه هو حين لمحه واقفاً مستنداً إلى باب سيارته لا يحرّك ساكناً. سبقتني، الحقّ معك، كانت المسألة مسألة وقت، ومن يسبق ينال البندق، وهاقد سبقت، ربّما لو سبقتُك لكنتُ أرحم منك، ربّما وفّرتُ كلّ عذابك بطلقةٍ واحدةٍ أو بتسليمك متلبّساً بحيث لا يمكن لك أن تخرج. وإن استطعت، فستعرّض مركز أبيك للخطر. صرخ بما تبقى من هواءٍ في رئتيه:

ـ كفى يا قصي، قل لهم أن يريحوني!

خرجت الكلمات ممتزجةً بالزبد والدم وفقاعات الهواء... اقشعرّ بدن قصي، لم تكن المرّة الأولى التي يشاهد فيها أوضاعاً مماثلة، فقد رأى أسوأ من ذلك ومارس أبشع، لكنّه الآن أحسّ خوَراً، هشاشةً لم يعهدها إلا في طفولته رغم كراهيّته وحقده على أترابه لأنّهم أصحّاء بينما تعيقه ساقه اللعينة عن

اللحاق بهم، فقد كان ودوداً يتألّم لألمهم ويفرح لفرحهم ولو أنّهم لم يبادلوه ذات الشعور، إذ كان الكائنَ الذي أرسلته الحياة ليسخروا منه ويفرغوا خلاله شحنات غضبهم وإحباطهم. انقبض صدره، أحسّ بما يمسك خناقه ويضغط آمراً عينيه أن تبكيا. استلّ مسدسه وصوب نحو رأس نبيل.

ـ هيا يا قصي افعلها وأرحني!

لكنّ يداً أقسى أنزلت يده وسألته أن يتفرّج وحسب!

انتظر نبيل الطلقة مطبق الجفنين... مرت في ثانيةٍ واحدة مفاصل حياته، أسرته، مدرسته، وظيفته في الجمارك وارتقاؤه السريع، امتلأ حتّى التخمة في بضع سنين، ولو لم يضطرّ لمشاركة الكثيرين في جنيه لما فاقه أحدٌ ثراءً. لكنّه بين مدٍّ وجزرٍ فرّط بالكثير على موائد القمار وملذّاته الشخصيّة. لم يندم على شيءٍ أبداً باستثناء... أتى الوجه دون طلبٍ واحتلّ نصف ثانية، ريمة، لقد ربحتِ الكثير أيضاً، لكنّني أقامر على قيس فهو لن يغفر لك، ولو أنني من أجل اللحظات الطيّبة التي عشناها معاً آمل وأرجو أن يسامحك وألاّ تكون نهايتك شبيهةً بنهايتي! تداعى وجهها، تخلّى عن أنوثته وأخلى مكانه لوجه ابنها.. ابنه قيس. أحسّ الآن أنّه يدفع ثمناً غالياً جداً لإهماله ونبذه واستخدامه ورقةً يضغط بها على الزوجة الجاحدة التي أرادت أن ترثه حيّاً وتلتهم لحمه نيّئاً دون ذبح. لا بأس، لا بأس، لو أنّ قيساً هنا لدافع عنّي، لما سمح لهم أن يمثّلوا بي على هذا النحو. دون حزنٍ ودون وجلٍ أقنع نفسه في نهاية الثانية أنّ أوان الحصاد قد حان وأنّه ينال أخيراً ما زرعته كفّاه! لم تأت الطلقة ولم ينتهِ العذاب، جاء دور الذراعين، فتصبّب عرقُه من وطأة الحدّ الذي انغرس في لحم عضده ومضى بعيداً في غيابات العظم والنخاع فأفقده وعيه... وفي الضباب الذي يلفّ صحوه المؤقّت على أوجاع المزيد من التشويه والتمثيل، رأى قيساً ينتقم له شرّ انتقام من قصي وأبيه ومن الذين استخدماهم لتجريعه عذابات الاحتضار. رآه أيضاً يستخفّ بتوسّلاته كي يسامح أمّه ويغفر لها فيقوم بعكس ذلك، لكنه يهيب به في نزعه الأخير أن

يسامحه ويسامحها على الدم الفاسد الذي ملآ به عروقه. سيظلّ جاهلاً أنّ البذرة الفاسدة ليست في دمه ولا في دمها، فهما مجرد مرآتين عكستا وضعاً يسود كما هو دون زيادةٍ ولا نقصان، وأنّها ستكون لقاحهما.. نتيجة التحام أوتار مورّثاته بأوتار مورّثاتها.. النتيجة الطبيعية للتشوّه الولاديّ الحامل أعطاب عصرٍ كاملٍ من تدمير الذات والآخر في سبيل الحفاظ على مكاسب آنيةٍ بأيّة صورةٍ وعبر أيّة وسيلةٍ كانت!

أمّا قصي، فقد كان عليه ـ بعد تلقّي الرشاش المنطلق من شقٍّ مريعٍ قسم الوجه والجمجمة لقسمين متعادلين ـ أن يتلقّى رشاشاً أقسى وأشنع من أبيه...

ـ أيها الحمار الكبير! تظنّ نفسك ذكيّاً، تتجسّس على أبيك وتنسى مراقبة نفسك وحذر غباءك واحتراسك من إحساسك بالقوّة المطلقة. لم تصرْ ربّاً بعدُ أيّها العبد الذليل، فالأربابُ لا يرتكبون أخطاءً شنيعةً تجعل البشر تستخفّ بهم وتصوّر لهم إمكانيّة خداع أربابهم وابتزازهم. تذكّر دوماً ألاّ تُبعد يدك عن مسدسك، ولا تُبعد حذاءك عن أعناقهم، ولا تدعهم ينسون أنّك سيّدهم ومالكهم وأنّك تملك قدرة محقهم قبل أن يسألوا لماذا! ظننتَ نفسك تفوّقتَ على أبيك؟ كدت تتهاوى في قبرٍ حفرته بيديك! سأترك لك ريمة لتتعلّم كيف تتخلّص منها في الوقت المناسب، دعني أرَ إن كنتَ قد تعلّمت درسك أم لا!

أثناء انتظاره قدوم جميل، أعدّ فاتك نفسه لاستقبال ابنه بجملته الطويلة وهو يتخيّل النهاية المضحكة التي حلّت بنبيل على مرأى من قصي. عليّ التخلّص منكم جميعاً، فلن أُمضي العمر وأنا أراقبكم وألاحقكم وأعيد فحص دمائكم العفنة. منحتُكم وقتاً أكثر مما تستحقّون وعلينا الآن تصفية حساباتنا مرّةً واحدةً ونهائيّة. رنّ جرسه وهو ينشر سحب دخان سيجاره من

فيه ومنخريه فدخل الحارس ضارباً الأرض بعقب قدمه تسبقه رائحة خوفه التي تفغم أنف فاتك فتشيع فيه إحساساً بالأمان.

ـ أحضر الطبيب، هل وصلوا؟

ـ ليس بعد سيدي.

ـ بلّغني فور قدومهم!

ـ أمرك سيدي.

ـ انصرف وأرسل لي...

لم يكمل، فقد دخل الشاب الليّن العريكة يحمل قهوة سيّده مطأطئاً يترنّح من شدّة النعاس.

ـ ضعها جانباً، واملأ لي كأساً مزدوجاً من الويسكي. بل أحضر الزجاجة، سأكرع منها مباشرةً!

ازدرد فاتك جرعةً من السائل الذهبيّ، اندفع البخار الحارّ إلى عينيه فأحرقهما، وعلى السائل المترقرق فيهما انعكست صورة أدهم. أين أنت الآن يا ابن الكلاب؟ دوّختني وحالما صرت في مركز دريئتي لم تمهلني تملّي وجهك القذر قبل أن أرديك فهربت كعادتك مخلّفاً وراءك ضحيةً تجعلني دوماً جلاّدها! إلامَ ستظلّ هارباً أيّها العبد الآبق؟ أما زلت هنا أم غادرتَ ككلّ الجبناء بوثيقةٍ مزوّرةٍ لتذهب حيث يمنحونك منبراً ومكبّر صوتٍ تملأه بجعيرك وجعجعتك الفارغة؟ تبغي إرباكي والتشويش عليّ؟ خسئت! سيثيرون صخباً قليلاً ثم يجرون وراء مصالحهم، يلوّحون بفزّاعاتهم لترتاح ضمائرُهم ثم ينقادون لغريزة الربح فيلهثون وراءه أيّاً كان مصدره. عميٌ، صمٌّ لكنّهم يتكلّمون، يساومون ويبتزّون ويدفعون لسماسرةٍ كثيرين إلى أن يحقّقوا مآربهم وينسوك مثلما ينسون زوجاتهم في أسرّة العاشقين. سأريحهم منك وأريحك منهم ولربّما ارتحتُ أنا منكم جميعاً رغم ارتيابي بقدرتي على نسيانك ما لم ألعق دمَك بلساني الخدر هذا. آهٍ كم ستكون رائحته مُسكِرة! ما الذي تفعله الآن أيّها الثعلب الماكر؟ أتعلم؟ لو أنّك تأتي من تلقاء نفسك،

تمتلك شجاعة مواجهتي طواعيةً وتبصر معي مشهدهم وهم ينعونك ويستغفرون لك ما تقدّم وما تأخّر من ذنبك أو يلعنونك ملء أفواههم، إذن لعفوت عنك! لجعلتك مرافقي الخاص وتركتك تحيا في نعيمي، وإن لم ترغب بذلك فسأطلقك لتفعل ما تشاء! تعال فقط... تعال، أرهقتني وأنا ألاحقك مثل هرّ يسعى عبثاً وراء فأر، أرح نفسك وأرحني. لكنّني أعرفك أكثر من أمك التي زنت بك، وهذا أمرٌ آخذه على عاتقي الشخصيّ إذ لا يمكن أبداً أن تكون ابناً لأبيك الملقّب بالحاج، صحيحٌ أنّكما تشتركان في صفاتٍ كثيرةٍ لكنّ الصحيح أيضاً اختلافُكما الجوهريّ، هذا ما أراه لأنّك أقذر وأحط منه، ولو أنّ جلدك يوحي للناس بطهرك ونبلك. لكنك لن تخدعني أنا، أقصّ ذراعي إن لم تكن الآن مرتمياً بين فخذي عاهرةٍ جميلةٍ وأراهن بكلّ ما تشاء إن كنت لا تتمنى التمتّع بحالي ونفوذي وسلطتي لتهدر ذلك كلّه في احتفالٍ ماجنٍ تُجاهر فيه بعهرك! أشعر أحياناً أنّنا جدّ متشابهين، الفارق الوحيد بيننا إعلاني الصريح عن رغائبي مهما كانت قذرةً ودنيئةً واستحياؤك من إعلان ذلك، مما يلجئك للعتمة فتفعل ما يحلو لك بعيداً عن أعين الرقباء! لو يأتيني أحدُهم بعنوانك في هذه اللحظة لبرهنتُ لك أنّني لا أقول إلا الحق، رغم أنّ أيّاً ممّن سيشرّفونني بزيارتهم لن يصدّق حرفاً منه. قل لي أيّها الخبيث، كيف خدعتهم على هذا النحو وصوّرت لهم نفسك قدّيساً طاهراً لا تغرّه مفاتن الدنيا وهو يسعى جاهداً لصوغ الفردوس حتّى لو عبر أرض الجحيم؟ بأيّ سحرٍ سحرتهم، وأيّ شيطانٍ ساعدك على فعله؟

وعلى برق خاصرتيها، لاحت هزيمته. أغمض عينيه والتصقت البنيّة به... تلامسا خليّةً خليّةً واندلعت شراراتٌ قصيرةٌ تتوهّج في مواقع التماسّ. وفي محاولة تخفيف لسعها، استحضر أدهم عقله، لكنّها لاحقته على نفس

المسافة ودخلت صدره لسند رأسها على قلبه التالف! سيتهاوى رأسك أيّتها الصغيرة، فليس هنالك ما تتّكئين عليه إلا الخواء! أما كان على رحاب أن تكون بين ذراعيّ بعد كلّ ما حصل؟ ما الذي يحدث الآن؟ ارحلي يا رحاب، ليس لعينيك موضعٌ هنا.. ليس لك أن تبصري مشهداً سيصيبك بجنون القتل، فإن فشلتْ سكّينك في احتزاز عنقي فستكملُ رحلتها لتستقرّ عميقاً في تجاويف قلبك! أعفيني من المشهديْن، كلاهما صعبٌ ولن أسمح بأيٍّ منهما. وكيما يطردها، فتح عينيه... كانت المرأة قد عرّت الزوج وراحت تستحثّ هموده بكلّ ما أوتيت من فنونٍ دون جدوى... أبعد عينيه، تطلّع في وجه البنيّة المتقمع، تساءل عمّا يدور خلف الجفنين المطبَقين فقرّب وجهه.. لامس شفتيها فأحسّ ارتعاشهما ثم انفراجهما الليّن.. أخذهما بقوّةٍ فأحس ضربات قلبها تخترق لحم ثديه وتقرع صدره. كانت تتداعى.. خمّن أنّها تجربتها الأولى، من يدري؟ أيكون افتضاض بكارتها عملاً مشابهاً لهدم بيتٍ وطرد ساكنيه؟! بدت الرحلة طويلةً.. امتدّت الدرب من أقاصي الأرض من لحظة انتقامه وثأره للذين شرّدوا بإحراق بيت مغتصبيهم حتى أقاصي الأرض الأخرى، إلى اللحظة التي سيغتصب هو الآخر فيها طفلةً غرّةً ألقتها الصدفة بين ذراعيه. ألن يكون مصيراً مشابهاً؟ ألست أُلحِقُها بدرب أمّها؟ ارتعدت فرائصه وذهل للمفاجأة. أيكون الآن أداةً تُكمِل فعل الاغتصاب ذاك بعد دورة عصور؟ ترنّح رغم استلقائه على جانبه وأعول صوتٌ في داخله، هل انقلبتَ على نفسك تثأر منها على طريقتهم؟ أم تثأر من عجزك ومهانة منفاك وعزلتك؟ أم من أولئك الذين لم يستجيبوا لدعوتك لهم كي ينفضوا أكفانهم ويحطموا أصفادهم وينطلقوا خلفك للوثب على مستعبديهم ؟ أترى نفسك متفرّداً عنهم حتّى تمتلك حقّ الوصاية عليهم، تماماً مثل الذين اغتصبوا حقوقهم واستباحوا حرماتهم وتحكّموا بمصائرهم باسم السماء حيناً وباسم البطش حيناً آخر أو باسم ربوبيةٍ احتكروها لأنفسهم في كلّ الأحيان؟ أتكون مثلَهم أيضاً، تبحث عن رعيتك

الخاصة، عبيدك المخلصين المسبّحين بمجدك وتعاليك؟ ما الذي كنت تملكه أنت؟ أغير روحك القتاليّة التي كانتك يوم كنتَ بعضهم قبل ركضك وراء نجاتك والفوز بحياتك.. الغربة والمنفى والقتل والتدمير لبناء أساسٍ مغايرٍ لعالم جديد؟! أين مضى ذلك كلّه، أين مضى؟ وما كان دورك فيه؟ كيف تحوّلتَ دون أن تُبصِر أو تُدرِك إلى مخلبٍ متقدّمٍ لهم؟ أحس أظافرها تنغرس في لحمه فنأى، كأنّما خاف اكتشافها لانطفاء شهوته! أمسك معصميها، لكنّ فمها أعمل أسنانه بقسوةٍ في لحمه فصرخ وأطلقهما، وعرّته كفّاها حتّى ركبتيه.

وعلى ركبتيه سقط جميل أمام فاتك فغاصتا في أوبار السجادة الكثيفة وانحنى على فخذيه وذراعاه المكبّلتان تطوّقان جانبي ظهره. تنفّس بعمقٍ واشتمّ رائحة السيجار فأحسّ بالاختناق. فُكّت عصبته وأُطلق ساعداه من أسر قيد معصميه، لم يأبه بهما ولو أنّه سرّ لاستعادة الرؤية. حافظ على وضعيّته ورفع رأسه ببطءٍ فلمحه يطلّ من وراء مكتبه باستعلاء. ابتسم في سريرته، ألا ينام ربّنا الصغير؟ طرِب للفكرة، أُراهن بعمري أنّه لا يفكّر إلاّ على هذا النحو، وإن حلف أحدُهم أمامه بربّه لاستاء منه خشية الإشراك وأمره أن يحلف بحياته، ورغم دهائه فقد أومض جنون العظمة جمراً أحمر من عينيه. أُراهن أيضاً بأنّه يتمنّى أن تدور الكرة الأرضيّة بشكلٍ معاكسٍ ثلاثين أو أربعين قرناً لينصّب نفسه فرعوناً حقيقياً، ولن يكون مهمّاً وقتها تعدّد الآلهة أو المعابد أو الكهّان طالما سيأتمر الجميع بأمره ويقرّون بزعامة ربوبيّته أياً كانت أوهامهم والخرافات التي تعشّش في عقولهم الساذجة؛ الفاتك بأمر الله، بل الفرعون فاتك الثالث! كاد يضحك وهو يراه يأمر مئات الألوف من العبيد وعمال السخرة كيما يسارعوا ببناء هرمه الخاص الذي

سيعلو جميع الأهرامات، ثمّ وهو يجتمع بمجمع كهنته وحكمائه ونطاسييه ويهدّدهم بأشنع أنواع العذاب إن لم يجدوا له أكسيراً سحرياً يتغلّب فيه على الموت، إذ عليه أن يظلّ حيّاً طالما بقيت حياةٌ وأحياءٌ على وجه البسيطة! راح يقنعهم.. انظروا كم ستخلد الإمبراطورية بخلودي، تخيّلوا البشريّة جمعاء تركع لي وتصبّ في خزائني ثرواتها وأملاكها وتمتلئ قصوري بسباياها. سيكون لكم نصف ذلك، قسمة عدلٍ إن استحصلتم على دوائي الفريد!

ـ كأنك متعب؟

تساقط الصوت المغترّ بصاحبه وسطوته كأحجارٍ فوق رأس جميل، حكى أبو الهول أخيراً وانهارت أساسات أهرامه فتداعت صخوره. تحامل جميل حتّى استقام من انحناءته لكنّه لم يستطع الاستواء على رجليه أو حلّ عقدة جثوته وتطلّع إلى فاتك بصمت.

ـ هل طلبت شيئاً في ركوعك ولم أسمعه؟ اسأل ما تشاء فاليوم يوم سعدك!

أراد جميل أن يبصق عليه، لكنّ جفاف حلقه والتصاق شفتيه منعاه من تحقيق رغبته فنظر شزراً.

ـ هل أصابك الخرس أم أنّ الورم انتقل إلى لسانك فأثقله؟

ظلّ جميل صامتاً فضحك فاتك مقهقهاً:

ـ لا تحسب أنّك ستستفزّني بمثل تلك السهولة... لدينا وقتٌ طويل، لازلنا في بداية الفجر وستنال ما تشتهي كاملاً قبل أن تنطق به.

أيبقى ساهراً من أجلي، أم أنّه يخشى النوم ليلاً فيتركه لعمله؟ هل أنا آخر أعماله لهذا الليل؟ تنبّه لأمرٍ آخر؛ لماذا لا يكلّف أحد مساعديه بإنجاز مهمّته معي؟ لماذا يصرّ هو بالذات على مقابلتي؟ بدا السؤال نافلاً، ففي الموقع الذي يتعطّل فيه العقل ويحكم الأمور ما لا ينطبق على أيّ منطق، يصبح

البحث عن منطقٍ عاديٍّ محض عبثٍ وهراء. دعك من ذلك، فالمهمّ أنّه على عجلةٍ من أمره! فجر أمس.. وفجر اليوم! لم يُمهلني أبداً، ما الذي يبغيه أكثر من موتي وهو يعلم أنّه بات قرب وريدي؟ ما الدافع للعجلة إذن؟

بدت عجلى... كأنّما تتقلّب على جمر. أغمض عينيه وما استطاع أن يقاوم، لكنّ ذكورته غدرته فتضاءل، ودّ لو يتلاشى ويختفي.

لماذا عدت... لماذا عدت؟ أيّ عام مجنونٍ دفعني للعودة؟ لا، ليست رحاب، فقد بقيت معي عمراً قرب ذاكرتي يعبرها وجيب قلبي، أفتح جفنيّ عليها في الصباحات وتبيت خلفهما في الليالي، لا تطلق رأسي في يقظةٍ ولا في نوم... لماذا أدّعي أنّها دعتني وألحفت فلبّيتُها؟ أما ظلّت سنواتٍ طوالاً تستصرخني، تستغيثني ولا ألتفت إليها في أيّ عام؟ لكنّ ذلك العام ليس ككلّ الأعوام! لم ينس الناس جوعهم يوم اعتصرهم رعبٌ اتخذ اسم جمال باشا... باعوا بناتهم ونسوتهم، أجّروا أطفالهم وتخلّصوا منهم، استفتوا الشيطان في كيفيّة البقاء على قيد الحياة دون جدوى. لكنّهم نجوا.. مرّت العاصفة الغضبى بكلّ ما حملته وكلّ ما خلّفته ولم تمحهم عن وجه البسيطة. قاوموا، تشبّثوا بجذورهم كأشجارٍ قصمت القنابل معظمَ جذوعها ولم تُفنِها فأنبتت أغصاناً جديدةً حيثما بقيت قشرةٌ من الجذوع تنقل النسغ وتوالي الإنبات! كانت الشرور التي تمضي رغم كلّ ما تولّده من يأسٍ وبؤسٍ أقلّ وطأةً من الشرور التي تأتي وتجعل الأخلاف يستنطقون ذاكرة أسلافهم فتخبرهم أنّ ما سيأتي أسوأ... أضاءت شوارعَهم جحافل غزوٍ جديدٍ عبّدت طرقَهم، أعادت هندسة مدنهم وعقولهم وأرواحهم وأفئدتهم... سحلتهم، وظلّوا رغم ذلك يتنفّسون... أتتهم آخر الحملات الصليبيّة، سرقت فرحة استقلالهم ووضعتهم بين فكّي الجوع والموت وما أبهوا. والت حياتُهم دورتها؛ يحلمون بكواكب تشرق وتهبهم انتمائهم لجنس البشر وإحساس

استقلالهم عن أسلافهم سكّان الغابات والصحارى. ثمّ دخلوا عصراً جديداً؛ عبوديّةٌ منتقاةٌ من أفظع النماذج التي أنبتها التاريخ. لمعت الأسماء وأضاءت كنجوم؛ أبو العبّاس السفّاح، هولاكو، الباشوات الدمويون، غورو وقادة جيوش الشرق، الدوتشي والفوهرر وكلّ الزعماء الباقين والغائبين في ذاكرة الفناء أنتشوا واستصلحوا نسلهم الخليق بالخلود على حطام الكوكب المنطفئ إلى حين! أتت الحروب فرسّخت أقدامَهم ودعّمت عروشهم وعمّمت سطوتهم، أضحوا سادة الأرض وخلفاء الله عليها ثمّ ورثته ثمّ بدائله الشرعيّين في مملكة أرضه التي تخلّى عنها للشياطين! لم تفعل المعارك الآتية مع مدّ البحر سوى اقتطاع مزيدٍ من الأراضي واجتثاث ما تبقّى من ألسنةٍ وترسيخ الاحتلالات جميعاً بحكم السيف وانتفاء البديل! لكنّ الحلم كان بسعة الأفق قبل أن يُصادَر.. أتى مع شعاعات الشمس الأولى واستولد لنفسه سلّة نجماتٍ أضأن ليالي الشرق الحزينة فصلّت لها الأرامل والثكالى وتطلّع نحوها الكهول بحنينٍ وغنّاها الصبية حتّى بحت حلوقهم.. انتصاراتٌ في الجبهات، كرنفالٌ دائمٌ وأعياد ميلادٍ مستمرةٌ وبدايات أعوامٍ تُقطع رؤوسها فتستمر في أذنابها. لماذا صفّقتم لها إذن؟ أمّكم الحنون التي أعانتكم على أوصيائكم وحماتكم السابقين بعدما هتفتم للضحايا التي شوّهتها غارات طائراتها عليهم وصبّت عليهم جحيماً تستحي السماء من حدوثه في تخومها الموعودة! صرختم غضباً في وجهها وهي تحاول خداعكم، لكنّ البشريّ لا تخدعه صور الهاربين عراةً مصابين بمسّ الرعب، وحتّى إن خدعته أحاسيسه فلا يمكن أن تخدعه الصليات التي تطاله وتجعله يتيه في البوادي هرباً من الحرائق والسبي. كلّ ذلك لم يطفئ الحلم، حتّى وحشية الذين جمعوا الألوف في ملاعب كرة القدم وذبحوها كالنعاج لم تكن سوى كابوسٍ آمن الجميع بزواله يوماً على أصوات نواقيس يقترب صداها يوماً وراء يوم. ثم جاء عصر الهزائم الكبرى والانهيارات التي عمّت المعمورة وغيّرت معادلات استقرار الكون! انكشف أمام قوّةٍ لم يسجل التاريخ لها مثيلاً في جبروتها

وتفرّدها فاندلعت الحرائق الصغيرة التي حُسبَت وبُرمِجت في أكثر الحواسب تطوّراً؛ شراراتٌ صغيرةٌ تعيد الإنسان لعصره الحجري، خرابٌ قليلٌ وأنهار دم، فواجع لا تصنعها إلاّ الأوبئة التي لم تعيَّن مسبّباتها ولم تُحضَّر لقاحاتُها ومضادّاتُها وعلاجاتها؛ عاد عصر القوميّات والعروق والأجناس والقبائل والعشائر والمناطق والأديان والطوائف والمذاهب والأسر وحتّى الأفراد! ما عاد مستغرَباً أن يحاول امرؤٌ أن يصنع في بيته دولةً بعلم ونشيدٍ وحرسٍ ومالٍ خاصّ! خلع البشر جلد تحضّرهم حيث أريد لهم أن يكونوا حيوانات مختبراتٍ تتفاعل في الطبيعة مباشرةً لتعيين أفضل الشروط لنزع جلد التحضر والتأنسن عن هيكل الكائن الذي افترق منذ نيّفٍ ومائة ألف عامٍ عن السلالات ما قبل البشريّة.. ورغم ذلك كان ذلك العام بيّن الاختلاف عن كلّ الأعوام؛ عاش الناس كوابيس الحرب أو احتمال نشوبها زمناً طويلاً حتّى ألفوها، صارت بعضاً من طبيعة الأشياء كلازمةٍ تتعلّق بجزءٍ حيويٍّ من خصائص حيواتهم، مثلها في ذلك مثل حالة الطوارئ التي ابتدأت استثنائيّةً منذ نصف قرنٍ واستمرّت دون توقّف. لكنّ الاستثنائيّ الحقيقيّ لم يظهر إلاّ فيما بعد، كانت إرهاصاته تعتمل وتوحي به لكنّها لم تظهر بعدُ على السطح. ستأتي اللحظة التي تباشر الإقلاع بحالة الانفصام القطعيّ بين المرء وسماته الأساسيّة متمثّلةً بذاته والآخر والعالم الصغير الذي يحيط به مطوَّقاً بأسلاك شائكةٍ وبالسواد! استحالت الحقائق أكاذيب، وانتعلت الأكاذيب أحذية الحقيقة وسارت بها جهاراً فصارت حقيقةَ الحقائق لا تدحضها أيّة حجّة. بدا العام مختلفاً؛ قيل إنّ المجاعة عند كثيرين لم تكن أبداً ادّعاءً مبالغاً ومهولاً فيه خدمةً لأغراضٍ دعائيّة، فقد اتّخذت وجهاً حقيقيّاً تعقر أنيابه وتنخر خياشيمه. وعلى تلك الأرضيّة، اكتشف الناس في تصاعد احتمالات الحرب أمرين جديدين، ما اعتادوا انتظار الخطر من الشرق ولم يحسبوا يوماً أنهم سيضطرون لاستخدام أقنعةٍ تقي من غازاتٍ سامّةٍ ستهبط من السماء. أين ومتى؟ بقي ذلك في علم الغيب وفي خرائط العمليّات المحفوظة في

خزائن أقبية هيئات الأركان العامة لجيشٍ استُخدم لتحطيم مواطنيه وإرهابهم، لم يتورّع عن تجربة غازاته التي ضاعت روائحها وامتصّها الأثير، لم ينج من آثارها لا الأطفال ولا النساء ولا الشيوخ! لم يفكّر مجنونٌ من قبل في تجربتها على ناسه ليقيم ميزاناً دقيقاً لحسابات الربح والخسارة إن اضطرّ يوماً لاستخدامها على نطاقٍ واسع.

خرج أدهم من تهويماته التي أوصلته حدود الهلوسة. إن كانوا جميعاً فقدوا الأمل وأغرقتهم كثبان رمال اليأس وابتلعتهم، فهل فقدت عقلك لتعود؟ لكنّه لم يحتمل رؤية الحرائق والإصغاء لأصوات الانفجارات ومشاهدة الجثث من وراء زجاجٍ محايد، كان دمه يصرخ طلباً للفح هوائها وما استطاع مقاومته، لكنّه وصل متأخّراً وكان أصحاب الميت قد قمّصوه الكفن وواروه الثرى!

استفاق على اندفاعاتها المحمومة وهي تحاول ضخّ دماءٍ في عروقه الجافة، فأهاب ببراكينه الخامدة أن تثور وتثأر لكرامته المهدورة والمستباحة. وساعدها... أضحت معركتَه قبل أن تكون معركتها، لم يُهزم يوماً ولن يُهزم اليوم. هكذا أوحى لنفسه واستجابت كفّاه بغلظةٍ وخشونةٍ فهبطتا إلى حقويها.

دُفِعوا بشدّةٍ كحيوانات جرّ، لا يُعامَل بشريٌّ على هذا النحو ما لم يكن عبداً، وحتّى العبيد لا يُعاملون على مثل هذا النحو حفاظاً على بقائهم! دُفِعوا جميعاً.. كلّ الذين يبحثون عن أنفسهم أو يتنفّسون بقايا أحلامهم أو يتشبّثون بما لم يتلوث بعد من دمائهم.. الذين أضاعهم الحنين فتاهوا في دوامات رهاب الذات ورهاب الآخر. معصوبي الأعين، مكبّلي المعاصم، دخلوا سراديب التيه. البعض يعرف تفاصيل الرحلة، دروبها، مصاعبها وآفاقها، فيرتعب أو يتأهّب، والبعض الآخر لا يعرف شيئاً فيتلبّسه حسّ

انتظار المجهول! دخلوا، أحسّوا أنّ البوّابات أُغلقت خلفهم، وقبل أن تعتم أبصارهم أحسّوا بوجود بعضهم فأدركوا أنّهم سيقفون وجهاً لوجهٍ أمام البطش الغاشم الذي فصم وصدّع وخلع روابطهم. استغربوا كيف أنّ البؤرة التي فرقتهم تعاود تجميعهم! أيّة مفارقةٍ تلك؟ سأل الحالمون. ما الذي يريدونه الآن؟ سأل الذين دخلوا المعترك مرّةً ونجوا أو هكذا خيّل لهم! وفي نهاية المطاف وبعد انعطافاتٍ وصعودٍ وهبوطٍ حُشروا في حيّزٍ ضيّقٍ استشعروا ضغط هوائه وارتفاع حرارته. أُطبق الباب بصخب ودار مفتاح قفله ثمّ خيم الصمت... لم يجرؤ أحدهم على التفوّه بحرف، فقد كانوا يستعيدون سكينتهم ويسيطرون على قلقهم كيلا يُفقدَهم الخوف عقولهم! ثمّة درجاتٌ من الخوف، إذن ومهما خضع المرء لأيٍّ من سويّاته المنخفضة أو المرتفعة، فلا يمكن له أبداً أن يألفها ولا يستطيع التعامل معها باعتبارها إحدى ميّزات حياته الطبيعيّة!

لكنّ هلا التي لم يجدوا وقتاً لتقييدها انتزعت عصبتَها وسرعان ما ألفت عيناها العتمة الهياكل المنزوية كأشباحٍ جمّدتها مفاجأةٌ فشلّت حركتها.

- ماما! رحلوا، سكّروا الباب.

كأنّما استيقظت لهفة الأم فسألت:

- هاني، قريبٌ منك يا ماما؟

تلفّتت الطفلة حولها واكتشفته مرمياً مهمَلاً وقد انطوى على نفسه مغطّياً وجهه بكفّيه فاندفعت نحوه هاتفةً:

- وجدته يا ماما، هاني.. هاني!

كان الطفل مذهولاً، وحالما سمع نداء أخته صاح مختنقاً بنشيجه المكتوم:

- ماما... ماما...

اندفعت الأمّ نحو الصوت وبدأ الجميع رحلة الخروج من الصمت. بدأت الهمهمات فكأنّهم خرجوا من ذواتهم واتّجهوا نحو بعضهم. تابعت الأم:

ـ هلا، انزعي العصبة عن عينيّ.

امتثلت الطفلة وثنّت بفك عصبة أخيها الذي ما إن وجد نفسه قرب أمّه المنحنية فوقه حتّى نهض واندفع لعناقها، فجثت ورسغاها مضمومان خلفها. افتقد الصبيّ ساعديها فصرخ:

ـ ماما، عانقيني!

امتلأت صفاء قهراً وكادت تتهاوى لكنّها تماسكت:

ـ بعد قليلٍ يا عيون ماما، حالما يفكّون يديّ عن بعضهما.

ـ لا، لن أنتظر، سأفكّهما أنا.

استدار حولها وراح يعبث بالحلقتين اللامعتين دون جدوى، بينما دمعت عينا أمه أسىً وإشفاقاً.

ـ وأين المفتاح يا ماما؟

ـ سيحضرونه بعد قليل!

ـ لماذا أحضرونا يا ماما؟

احتارت صفاء في ما تجيب:

ـ سيسألوننا سؤالاً ثم نرجع للبيت!

هل سيحدث ذلك فعلاً أم أنّهم دخلوا ولن يبصروا نور الشمس إلاّ بعد سنواتٍ طوال... إن حصل وأبصروها؟

آنها انتهت هلا من انتزاع عصب الباقين فأبصروا بعضهم، بينما رجعت لأخذ هاني وإراحة أمها من أسئلته.

ـ تعال معي، لا تضايق أمك!

همست الأمّ:

ـ اتركيه يا هلا، سيخاف من جديد إن ابتعد عني!

أجابت الطفلة:

ـ لكنه يضايقك يا ماما، اجلسي لترتاحي!

اقتربت منها وهمست في أذنها كأنّها تفشي سرّاً:

ـ ماما، عمو أدهم ما هو موجود هنا!

تنهّدت الأمّ قائلةً وهي تبحث عن حنان:

ـ نشكر الله، اذهبي لخالة حنان وأحضريها...

ـ طيب ماما، قولي لي، خالو هنا؟

تردّدت الأمّ.. ثم همست:

ـ أي ماما، لكن في غرفةٍ ثانية.

سألت الطفلة متوجسة:

ـ هل وضعوه وحده، غطّوا عينيه وربطوا يديه؟

هزّت الأم رأسها مؤكّدةً:

ـ تماماً... هذا ما فعلوه.

ـ حرامٌ عليهم، لم يعمل شيئاً... ليتني معه، كنت رفعت غطاء عينيه وسلّيته، هتفت الطفلة مستنكرةً وهي تتّجه نحو حنان.

تجمّعوا أزواجاً وجماعاتٍ، بدأ حديثهم همساً تحوّل إلى لغطٍ ارتفع وصار صخباً، تحررت ألسنتهم رغم قيود معاصمهم! تساءلوا عمّا هيئ لهم وإلى أين يمضون الآن. تحرّروا رويداً رويداً من كوابيس ألّمت بهم دهراً واستيقظوا ليكتشفوا أنفسهم في عيون بعضهم التي اتّسعت حدقاتُها حتّى استولت على مقلها لتستكشف مهتديةً بنور بصيرتها. اقتربت حنان من صفاء وانحنت فوقها، جثت وقبّلت وجنتها ومسحت بجبهتها ملح عينيها

المحتقنتين:

- لا تبكي يا صفاء... لا تسمحي لهم بمشاهدة ذلك، سيفسّرونه ضعفاً ويحاولون استغلاله بأيّة وسيلة.

- لا أبكي يا حنان على نفسي ولا على جميل، بل إشفاقاً على الطفلين... أيّ دمارٍ سيبقى وشماً في روحيهما؟

- على العكس يا صديقة، سيفتح ذلك أعينهما بشكلٍ مبكّرٍ على مانحاول إطباق أجفاننا عليه الآن!

- ما الذي يريدونه؟ سألت صفاء متلهّفةً، فأجابتها حنان محاولةً تهدئتها:

- لا أدري، لكنّني واثقةٌ أنّ أدهماً لا يزال خارج قبضتهم... وأنّ جميلاً حيٌّ وقد شاكسهم بطريقةٍ أثارتهم فدفعتهم لجمعنا معاً على تلك الصورة. الغالب في حالاتٍ مشابهةٍ أن يعزلوا كلّاً واحدٍ على حدةٍ ليستفردوا به ويحطّموا قدراته على مهل، يساعدهم في ذلك إحساسه بالعزلة وتخلّي الباقين عنه. العكس الذي يحدث الآن شديدُ الغرابة ويستثير كثيراً من الأسئلة... تصفّحي الوجوه التي تعرفينها والتي لا تعرفينها، ثمّة عاملٌ مشتركٌ يجمعها وعواملُ كثيرةٌ فرّقتها، ورغم ذلك فهي هنا معاً، تنتظر ما تجهله!

تلفّتت صفاء حواليها، حاولت قراءة وجوهٍ يشوبها القلق وتصرخ أنّها غير جاهلةٍ بما ينتظرها بل تدركه تماماً، لأنّ حيّزاً من الأرواح لمّا يصادَر بعد وهي مطالبةٌ بإعلان الاستسلام المطلق لما قُدّر لها وتسليم العقول والتسبيح بحمد من أعفى من التفكير ووهب نعمة العيش دون عناء!

حطّت عيناها على قامةٍ ضخمةٍ فهبط قلبها، ازدردت لعابها سائلةً محاولةً تكذيب عينيها.

- حنان، أليست تلك رحاب؟

تطلّعت حنان حيث أشارت صفاء برأسها وأجابت:

ـ أكيدٌ أنّها هي، أتستغربين وجودها؟ الغريب ألاّ تكون هنا معنا!

ـ لا، لكنّني فوجئت، كنّا نسعى إليها وهاهي ذي هنا. ما يثير الغرابة أنّني ما عدت أنفر منها بل أحاول تقبّلها، كأنّ جميلاً يتقمّصني الآن! ثمّة ما يتغيّر الآن!

ـ إنّ الكراهية يا صفاء تولّد شعوراً بانعدام الأمان. حسِبنا أنّ العزلة ستعوّض ذاك الشعور وتخفّف منه، لكنّ صقيع الوحشة فاقمه... نحن مضطرّون ولسنا مرغمين على اللّجوء إلى طبيعتنا قبل أن تُشوّه وتلقائيتنا قبل أن تُدمّر!

هتفت صفاء منفعلةً:

ـ انظري إليهم، حاولي الإصغاء للغطهم... كأنّهم غير مهتمّين بمصائرهم المجهولة التي أُقفلت البوابات عليها قدرَ اهتمامهم بالسؤال والاستفسار عن أحوالهم وأمور عيشهم ومحاولة رأب صدع الذكريات المشتركة والضائعة!

أكدت لها حنان هامسةً:

ـ تيقّني من ذلك، تذكّري ما فعلناه وقلناه أمس، لا يختلف الوضع هنا... لا تنفي الرهبة والرعب حميميّة وشائج تستيقظ فجأةً مهما طال سباتها.

فهمست صفاء باطمئنان:

ـ لا يبدو الوضع سيّئاً، إن كانت البداية على هذا النحو!

صادقت حنان:

ـ وكيما تطمئنّي أكثر انظري هناك في الزاوية المقابلة، ثمّة أولادٌ آخرون!

ـ حقّاً؟ أولاد من؟

ـ أولاد وفيقة. لا تعرفينها، لكنّها صديقة رحاب الأثيرة، وأنا واثقةٌ كذلك أنّهما ما افترقتا حتّى اللحظة ولم تتخلّ إحداهما عن الأخرى رغم افتراقنا جميعاً ورغم تخلّينا وتخاذلنا!

فاستدركت صفاء:

ـ رغماً عنّا يا حنان، رغماً عنّا، لم يكن الأمر طوع إرادتنا.

لكنّ حنان أصرّت:

ـ صحيح، ولو أنه لا ينفي مسؤوليّتنا!

ـ لا أخالفك، ولكن ينبغي ألاّ نجور على أنفسنا...

صمتت حنان قليلاً ثم قالت:

ـ أن نجور قليلاً على أنفسنا خيرٌ من أن نتهاون معها!

• صاح صوتٌ حانقٌ من العمق:

ـ لا يمكن ذلك، نحن بشرٌ ولسنا حيواناتٍ لنُزرب في حظيرة.

كان صوت إبراهيم يلعلع وقد احتدّ خلال نقاشه مع كريم. أنصت الجميع قليلاً ثم عادت الجلبة.

ـ اهدأ، يبدو أنّك تعيش في قارّةٍ أخرى! لا تنتظر معاملةً أفضل!

حاول كريم تهدئته رغم اضطرابه الشديد، لو أنّ الأمر اقتصر عليه أو على وفيقة أو عليهما معاً لهان، لكنّ الحالة ما عادت تُطاق فعلاً، فما ذنب الأولاد؟ كاد يبوح بذلك، وكأنّما عرفت وفيقة ما يدور في خلده فقالت:

ـ لا بأس...لا بأس، دعهم يتعلّمون منذ الآن في أي الأوطان يعيشون!

شُدِه كريم وقال مستفزاً:

ـ لكنك تعلّمينهم أشياء مخالفة!

ابتسمت وفيقة بأسى:

ـ أعرّفهم على وطنٍ يحلمون به ليصنعوه ويحافظوا عليه!

ـ والذي يحصل الآن؟

ـ هو ما عليهم تغييره وألاّ يسمحوا بتكراره!

التفت نحو إبراهيم:

ـ تفضل! الفيلسوفة الصغيرة لا تنسى فلسفتها حتى في أسوأ المواضع!

قهقه إبراهيم هازئاً كأنّه يزيح غضبه:

ـ ستأكلها الديدان وتأكل أولادها وأحفادها وأولادهم قبل أن يعوا ما قالته!

فأجابته وفيقة ساخرة:

ـ ارسم ذلك رسماً، ستفهمه أكثر، وسيكون مغايراً لما تلفظه شفتاك!

تابع هزأه دون قدرةٍ على إخفاء مرارته:

ـ سأرسمكم جميعاً هذه المرّة معلّقين فوق خوازيق، فالصلبان ما عادت تُرهبكم ولا تغويكم. عزيزتي وفيقة، لا يوجد قيامة بعد الخازوق!

خفض صوته وهمس بينهما:

ـ يدخل من قفاك ويصطدم بقحفك، ليست مجرّد مسامير تدقّ في الأطراف تعقبها صرخة استغاثةٍ ترتدّ بعد أن تخترق السماوات فتوقظ الجسد النائم بعد أيامٍ ثلاثة. سيّدتنا، موتٌ بلا قيامة، افهميها وأريحيني!

ضحكت وفيقة:

ـ ارسم ذلك... وأنا واثقةٌ من التقاط علامات القيامة في تضاعيف لوحتك. أراهنك أنّك لا تستطيع إغفالها ولا إخفاءها!

أجابها مغتاظاً:

ـ ستخسرين، لا تحرقي أعصاب زوجك، سنخسر جميعاً، حتّى لو خرجنا من سرداب الغيبة هذا!

سألت نوال بصوتٍ خافتٍ ومرتعد:

ـ والأولاد؟

تنبّه إبراهيم للذعر الذي نشره دون قصد:

ـ لا، أنا أمزح يا نوال، أحاول إغاظة السيّدة وفيقة، سنخرج جميعاً وبأسرع وقتٍ حالما نعرف ما يريدونه منا.

هتف أحدهم:

ـ وهل هي مسألةٌ صعبة؟ يريدون أن يعرفوا إن كان ثمّة من سيحتجّ على المعاملة القميئة التي عوملنا بها... مجرد اختبارٍ لتعيين درجة اقتناعنا بدونيّتنا وإقرارنا بانعدام قيمتنا كبشر. قدّموا ولاءكم واعتذروا عن شبهة تمسّككم بإنسانيّتكم وانحيازكم لأرواحكم واحترامكم لذواتكم وسيقولون لكم مع السلامة، حسبناكم متمرّدين أو جاحدين! استغفروا لهم عن أنفسكم وامدحوا عنايتهم بكم واهتمامهم بخلاص أرواحكم وراحة نفوسكم في حياتكم قبل موتكم وسيوصلونكم إلى بيوتكم مثلما أخذوكم منها معزّزين مكرّمين! حاذروا فقط إبداء أيّ استياءٍ أو امتعاض!

لفّ الصمت الجمع مرّةً أخرى وتوقّفت خليّة النحل الناشطة عن الأزيز كأنّها تستمع لملكتها.

ـ وإن لم يقتنعوا؟ سأل أحدهم.

ـ اطمئن، لا يهتمون بقناعتهم، ما يهمّهم إقرارك العلنيّ على مسمعٍ من صحبك، المهمّ هو تحطيم كبريائك وتنظيف الأرض بهامتك وكرامتك، يريدون مشاهدة فزعك وحسب!

استطرد أحدهم:

ـ الأكثر أهميّةً تغييب استقلال شخصيتك، انمحاء عقلك وتوقّفك عن التفكير. يحاولون بدايةً إلهاءك بقوت يومك وخبز عيالك، فلا يسعك التفكير بغيرهما. وحين تعجز عن تأمين متطلّباتهما يُسنِحون لك فرص الانحراف والفساد. وإن أدرت رأسك يسعون لتعريضك للانتهاك لتنسى

حصانتك الطبيعيّة وحرمة حياتك ومالك وعرضك... ساعتها تكون جاهزاً للتسليم بعجزك والسماح له بنخرك من الداخل حتّى تفقد هويّتك وبعض وجودك!!

ثم تابعت إحداهنّ:

- لن تكفيهم رؤية خوفك، بل يريدون رؤية عجزك وتسليمك وقد هيمنا عليك، ليضمنوا أنّك استحلتَ عدوّاً لنفسك ولأقرب المقرّبين إليك... أطفالك وأهلك. يريدون لك التمتّع بمذلّتك كما يتمتّعون هم بها، فإحساسك بالمهانة ينبغي ألاّ يكون أمراً طبيعياً وحسب، بل يثير البهجة والسرور في روحك، وعليك أن تعلنه على الملأ.

استطرد آخر، اعترضت أخرى... عاد الأزيز واستحال ضجيجاً يصدع الرؤوس وما عاد أحدٌ يميّز أيّاً من المتكلّمين كأنّ الجدران الكثيرة التي حبست أصواتهم وأنفاسهم وتناسلت مع مشاعرهم وحيرتهم وصارت المتحدث الوحيد أجرت حواراً غامضاً وغريباً ردّد صداه السقف وتلقّفته بلاطات الأرض فأذاعته نيابةً عن أصحابه؛ لن تنالوا خلاصكم إلا إن استفقتم من الأحلام الغبيّة التي صارت أصناماً تتعبّدونها وهي توحي لكم بأنّكم عائدون يوماً إلى بيوتكم وإلى ما كنتم عليه، أو راحلون إن تمترس ماضيكم داخل خنادق النسيان. هزيمتُكم ليست غير مشروطة، عليكم التصفيق والتلويح لغزاة بيوتكم وآسري أرواحكم، والإقرار العلنيّ بالخنوع لهم ولأنسالهم وأسلافهم!

- استمع، أنا ما عدتُ مهتمّاً بذلك القوّاد أدهم جبيلي، ليس سوى خيال مآتةٍ حسِب يوماً أنّه يقوم بفعلٍ بطوليّ ثم انكشفت ورقة التوت التي جفّت وتكسّرت عن عوراتٍ سترتها طويلاً... ما عاد سوى داعرٍ يُمضي أيّامَه

جائلاً بين الحانات والمواخير، لا يفعل غير شرب أنخاب بطولاته الخائبة وقطف ثمار انتصاراته المزعومة، ما عاد سوى حشرةٍ تدبّ ولا تؤذي ولو أنّ منظرها يوحي للأغنياء بالرهبة. ما عاد بغيتي، وسواءٌ بقي أم عاود هروبه فلن يثير ذلك اهتمامي، ولو أنّ لي في ذمّته حساباً غير مسدّدٍ أرّقني سنواتٍ وتناسيته إلى حينٍ لكنك تصرّ على تذكيري به! ولأنّك تدّعي بطولةً فضفاضةً عليك بإصرارك على ادّعاء أنّك هو، فإنّني أخرجتُه من ذاكرتي ليحترق في أية جهنم أو ليتابع نزواتِه المفضّلة التي ربّما يمارسها الآن مع شقيقتك مستغلاً غيابَك!

أوقف فاتك إلقاء محاضرته وهو يحدّق من عليائه بجميل الذي لم يبدِ أيَ ردّ فعل. ظلّ يصغي صامتاً دون أن يحني رأسه أو يغضّ طرفه أو يسمح لقسمات وجهه أن تتغيّر. أمام ثباته، هزّ فاتك رأسه وتابع سارحاً بعينيه في ضباب سيجاره كأنّه يقرأ في سطوره كلاماً تدفّق من فيه دون توقّفٍ من غير أن يغفل تعمّد استفزاز جميل وإثارة سخطه أو الهزء به.

ـ هوّن عليك، مالك تتململ؟ تحسبه خيراً من ذلك؟ ستكون مخطئاً إذن وتجعلني أعيد النظر في تقديري لذكائك. هو أحطّ وأقذر وأكثر نذالةً ممّا تظنّ وتتوقّع! ليس مهمّاً، المهمّ تبجّحك بالادّعاء أنّك هو، فحقّ عليك إذن تسديد حسابه كاملاً. أليس في ذلك كلّ العدل؟ وفوقه فائدةٌ إضافية... ثمن كذبك المتعمد ومحاولتك إنقاذه ومنحه مهلةً ليُفلِت ويهرب من جديد. لن ترتاح سريعاً كما تظنّ وتحسب، أنت تفهمني أليس كذلك؟ سأجعلك تعرف جهنّم قبل أن تطأها قدماك. صدّقني لا أكذب عليك أبداً، سأبدأ حالاً. استمع لنشيد البطولة الذي سيطرب أذنيك!

ارتعد جميل، هاله أن يكون دور صفاء قد جاء، توسّل للموت أن يأتيه سريعاً ليوفّر عليها عذاباً وشقاءً غير محتملين. لاحظ فاتك ذلك فلم يمهله:

ـ لا تحسب أنّني أفكّر بك، أنت الأكثر منالاً بالنسبة لي، وأنت خير من يعلم! سأفتعل بك وبأختك وطفليها وأمّك وأبيك وسط قبريهما!

أتت دفقة وجع فكتم جميل الصرخة التي تفجّرت في رئتيه، لكنّه عجز عن منع نفسه من التلوّي وتمريغ رأسه فوق الأرض. تطلّع بأسىً نحو ديّانه المبتسم سخريةً وتشفّياً، ودّ لو يستطيع أن يبصق في وجهه ويرميه بسيلٍ من أقذع الشتائم لكنّه لم يستطع، ولم يحتج فاتك لتعذيبه كيما يجعل روحه تعوي وتتلوّى على طول جسده وعرضه، إذ صار مجرّد إيقاف أوجاعه كافياً لاستثارة لذّة الجلاّد الساديّة التي أصابت أعماقه بجذامٍ لا شفاء منه...

ـ أما قلتُ إنّك صرت في قبضتي، صرصاراً عفناً أدوسه بحذائي ساعة أشاء؟ سأكون أفضل منك وأمنحك فرصة أخرى كرمى للجيرة القديمة. الرب يمنحك الحياة ويستلّها الموت منك! أنا الآن في وضعٍ أفضل، عليك أن تقرّ بذلك، ما من أحدٍ يستطيع إيقاف عذاب أوجاعك إلاّي!

آنها قرع فاتك جرسه السرّي فدخل الطبيب الذليل وبيده حقنةٌ مملوءةٌ بسائلٍ شفّاف. تطلّع جميل إلى اليد فازدادت آلامه رغماً عنه وتعلّقت عيناه بالسائل المرتجى.

ـ اعترف الآن بأنّي ربك، فأمنحك راحة جسدك ثم نتّفق على كيفيّة تخليص روحك ومنحها الراحة الأبديّة...

يا للعرض المغري! أجنّ الرجل أم أنّه يدرك ما يفعله ويقوله؟ ولكن.. ألا يوجد في كلامه شيءٌ من الحقيقة؟ أيّ شيءٍ لا يستطيعه؟ لا ريب أنّه يهزل ولا يعدو غرضه السخريةَ منّي ودفعي للتطامن أمامه. غامت العينان من جديد.. ابتعدت الصور وامتنعت الألفاظ عن صياغة فكرةٍ تعبّر عن سؤالٍ وتقترح إجابةً ما.. يسقط العالم في هوّةٍ لا تظهر في ظلمتها إلاّ يدٌ تمسك حقنةً تلتمع إبرتها الفولاذية ويرجّ سائلها الشفاف، تقترب رويداً رويداً، تمسّ وريداً نافراً وتخترقه بوخزةٍ هيّنةٍ ثم يسري السائل، ينتشر على مهلٍ ويمتصّ بتؤدةٍ عذابات الجسد المتآكل. ينفض جميل رأسه، أين هي؟ يتطلّع، لا تزال مستقرّةً بين أصابع الطبيب الواقف كصنم. يزدرد فاتك جرعةً أخرى من سائله الذهبيّ ويكرّر عرضه بكسلٍ ولامبالاة:

ـ ما تقول؟ ألا تقرّ وتريح نفسك؟

يهبط الخط البيانيّ للوجع استعداداً لقفزةٍ جديدة. إلامَ ستستمرّ هذه اللعبة وإلامَ سأحتمل؟ لو أنّ ازدياد الألم يقود مباشرةً لبوابة الموت لهان الأمر، ولكن متى؟ افترّ ثغره عن ابتسامةٍ واهيةٍ لم تفت فاتكاً حين اخترقت تصلّب وجهه والتواء عضلاته. ما أغباه وأسخفه! ما الذي سيفيده إقراري بربوبيته؟ لن أخسر شيئاً إن أقررتُ له بها ولن يغيّر ذلك في الأكذوبة التي يعرفها أكثر مني، ما لم يكن قد جنّ وتلبّسته الفكرة بالفعل. أيّة مصيبةٍ ستحلّ آنها؟ تمهّل، فلن تكون أكبر ولا أشدّ من المصائب المخيّمة الآن. ربما جنح للتطرّف أكثر... لكن ثمّة سقفٌ لا يستطيع تجاوزه لا هو ولا غيره. لماذا لا أخدعه وأمنحه الهبة التي استشرس على نوالها؟ لكنه تراجع سريعاً، فكّر من جانبٍ آخر، ربما صدّق كذبته إن امتثلتُ له! ألن يؤول إلى ما آل إليه جحا حين تخلّص من إلحاح جوع أولاده باختلاق كذبة أنّ أحدهم يوزّع في ساحة المدينة رغيفاً وواحدةً من الكوسا المحشيّة لكلّ جائعٍ فاندفعوا جميعاً نحو الساحة، أولاده ورفاق حارتهم، وحين رآهم راكضين قال لنفسه، ربما كان ذلك صحيحاً فانطلق خلفهم! ابتسم مرّةً أخرى فجنّ جنون فاتك، كاد يطلق صواعق غضبه عليه لولا إبصاره الابتسامة وهي تغور.. يتقلّص الوجه من جديدٍ وتحتدم معركة خنق الصرخات وتصفية التضرّعات والابتهالات.

ابتسم جميل مرّتين، لكنّ حزناً دفيناً استيقظ داخل حدقتيه وهو يرى عصافيره تتنكّر له.. تحوم حوله لكنّها لا تستطيع الاهتداء لعشّها الذي كاد يتحوّل مقبرةً لها، وكلّما اقتربت من الروائح المألوفة أفزعتها صرخات الوجع الوحشيّ فنفرت متردّدةً محتارة!

ـ حسنٌ... حسن، سأعفيك من ذلك، ليس شفقةً عليك وإنّما رغبةً بعدم استغلال آلامٍ لم أتسبّب بها... سأعود لذلك حين سأطلق صراخك بيديّ هاتين ولن يوقفه آنها إلاّ إقرارُك.

فتح فاتك ملفّاً أمامه ثمّ قلّب أوراقه وسحب مجموعةً منها وتابع:

ـ وقبل حساب أدهم الذي ستدفعه حتّى آخر قرش، ثمّة حساباتٌ متعلّقةٌ بك أنت بالذات. كنتُ طويتُ صفحَتَها وأغفلتُها لو أنّك تجاوبت معي، لكنّني ـ وأمام عنادك ـ سأضطرّ لفتحها.

ما الذي سيخرج من جعبة الوحش الآن؟ ما الذي يعدّه أكثر من ذلك؟ تساءل جميل وقد مضت موجةٌ جديدةٌ من وجعٍ لا يُطاق! تحامل على نفسه وتكلّم للمرّة الأولى:

ـ أيّة صفحةٍ وأيّة حسابات؟

أعرض فاتك عن ملاحظة أنّ جميلاً تكلّم للمرّة الأولى، وتابع كأنّ سؤالاً لم يُطرَح:

ـ سنعيد فتح دفاترك القديمة...

قلّب الأوراق وأعاد ترتيبها، ما الذي يبغيه؟ أما من عملٍ يشغله ويمنعه عن التسلية باستخراج حكايا وقصصٍ قديمةٍ لا يدري إلا الشياطين ما هي؟ تطلّع فاتك ناحيته ثم تلا ببطء:

ـ اسمع ما يقوله أصدقاؤك الخلّص... «يتّصل بالجبناء والغادرين الذين يعارضون في النوادي الليليّة والمطاعم والمباغي..» وأيضاً... «يكتب في صحفٍ ومجلاّتٍ تشتمنا وتهزأ بنا وتختلق الأكاذيب عنّا..» اسمع هذه أيضاً.. «يدلي بشهادةٍ أمام لجنةٍ لحقوق الإنسان لا يُعرف محتواها».. ثم عودتك السرّية كأيّ لصّ، وإيواؤك في بيت شقيقتك شخصاً تعلم أنّه مطلوبٌ حيّاً أو ميتاً!

توقّف فاتك وحدّق بعينيه راصداً ردود فعل جميل، مشيراً بطرفه للطبيب الأبله أن يجلس، بينما شرع جميل بإعادة حساباته، أما آن أوان إيقاف تلك اللعبة المفضوحة فأعترف بأنّني جميل ولست أدهماً؟ سيكون قد اختفى دون ريبٍ فينتهي ذلك كلّه. كلّ ما يفعله ويحاوله لا يعدو ضغطاً ليعيدني إلى نقطة الصفر، لا يملك شيئاً ضدي، ولم يثر ضغينته إلاّ إحساسه

باستغفالي له وسيمحوها تراجعي واعتذاري!! وإن لم يفعل؟ لن يكون ثمّة خسارة، أدّيت واجبي تجاه أدهم وعليّ الآن القيام بواجبي تجاه وصفاء والولدين!

قاطع تأمّلاته صوتٌ هادئٌ قلب حسابات جميل رأساً على عقب:

ـ قل لي، إشباعاً لفضولي، ما هي علاقتك بموتها؟

أُخذ جميل على حين غرّةٍ فسأل وقد تملّكته الدهشة:

ـ من هي؟

انخفض جرس صوت فاتك وتابع:

ـ تتغافل؟ أم أنّك نسيت؟

. احتدّ جميل:

ـ عمّن تتكلم؟

جأر الثعلب الذي مال بجذعه على مكتبه حتّى كاد يغطّيه:

ـ مي نجّار، لا تقل إنّك لا تعرفها!

انفجر جميل:

ـ وما دخلك أنت بذلك؟ هل تدخل المسائل الشخصيّة في نطاق عملك أيضاً؟

أخيراً عرفنا نقطة ضعفك أيّها المخنّث المحكوم حيّاً بالموت! الأحياء لايهمّونك إذن، فأنت تعيش مع الأموات الذين ستلحق بهم سريعاً... لنرى أين ستوصلك غضبتك تلك! ردّ فاتك بصوتٍ هادئ:

ـ اعلم أنّه ما من شيءٍ لا دخل لي به، إن سألتُك كيف تضاجع زوجتك عليك أن تجيب! يحقّ لي التدخل في أخصّ خصوصيّاتك. مسألتك شخصيّة؟ نعم، لكنّ ما تجهله أنّ أساس عملي هو ملاحقة حياتك ومساءلتك

عن تفاصيلها! هل سأكون عادلاً في حكمي عليك إن لم أفعل ذلك؟

السافل يريد استحضارها ليلوّثها بأكاذيبه وقذاراته... كيف أخلّصها منه؟ ما عاد خلاصي مهمّاً ولا إنهاء أوجاعي ولا حتّى موتي المرتجى، كلّ ذلك يمكن أن يؤجّل، أمّا أمر مي فلا يحتمل التأجيل!

تذكّرها... وتيقّن أن إيجادها لن يكون إلاّ هنا حيث يُحاصَر ويطوَّق.. تلألأ نجمها وسط ليله فأضاء الغموض الذي يكتنفه وبدّد عتمةً تحيط به... تمزّق بين حاجته لإظهارها وضرورة إبقائها بعيداً عن عينيه!

قُرِع الباب، ثمّ دخل أحدهم وهتف بعد أن رجّ الأرض بقدمه فارتجّ كيان جميل:

ـ وصلوا جميعاً سيدي!

فسأل فاتك:

ـ هل جاء قصي؟

أجاب الرجل بجسارةٍ بدت لجميلٍ متجاوزةً الحد:

ـ لا سيدي، شاهد العرض كاملاً... ومضى إلى المنزل.

ـ هل كان ممتعاً؟ سأل فاتك، ودون أن ينتظر جواباً قال وهو يشير إلى جميل:

ـ فك قيده...

أحسّ جميل بتحرّر رسغيه، لكنّه عجز عن تحريك ساعديه، باتا خدرتين كأنّما فقدا اتّصالهما به. حاول فكّ الألغاز التي سمعها وحدس أنّها تتعلّق به وهو يتابع قول فاتك.

ـ دعهم يرتاحون في الصالة الصغيرة المجاورة!

ـ أمرك سيدي!

أُغلق الباب وعمّ السكون لكنّ فاتكاً لم يتوقف:

ـ لم تجبني على سؤالي! سأكون أكرم منك وأهبك قليلاً من الراحة المؤقّتة. حكيم، أعطه قليلاً ممّا يخفف أوجاعه.

لم يدر ما حلّ به! كيف حدث هذا؟ ما الذي يرعبني ويجعلني فاقداً الصلة بحواسّي؟ هل أخشى بكارتها؟ منذ متى؟ كم من البكارات افتضضتُ؟! لكنّها طفلةٌ يا أدهم! لستُ أنا من اختارها، هم دفعوني نحوها. وهي؟ كانت خائفةً في البدء، مرتبكةً، ثم استشرت شهوة الأبالسة فيها فأماتت شهوتي كأنّها سلبتها مني! ما الذي ستفعله الآن أيها الخائب؟ أحاول من جديد... كاد يبكي عجزه، ودّ لو يملك جرأة اختراقها بإصبعه القاسي ثأراً وتشفياً من خصيه المفاجئ لكنّه أحجم. عليه الانتقام بشكلٍ فعّال! عاودته العينان المنفتحتان رعباً على الفراغ والليل الذي هاجم البشرة فطفا على سطحه زبد شفتيها الخاثر.. هل هو ثأرك يا فريال؟ أهكذا انتقمتِ منّي؟ أيمكن ذلك؟ أخصيتني لتضحكي شامتةً من ذكورتي المبتورة؟ أكان عليّ خنقك لحظة ولوج أحشائك؟ أهذا ما تشهّيته، موتاً في ذروة اللذة؟ تطوف به جثثٌ وأشلاء ممزّقةٌ ورممٌ متفحّمة.. أنواعٌ شتّى من الموت.. يبحث عن وجه رماح الباسم، الوجه الوحيد الذي لم يستطع الموت تشويه ملامحه.

ـ هيا انهضي... أعرف أنك مستيقظة.

هززتها قليلاً، ربما تبتسم في أحلامها... أخذتَ تتملّى سماحة وجهها وسكينةً أشبعها فرحٌ غامضٌ فسمّر شفتيها على ابتسامةٍ مجفِلةٍ لا تدري أتستمرّ أم تتوقف!

ـ كفاك كسلاً... قومي وانظري السماء، لم تكن زرقتها يوماً بمثل هذا الصفاء والعمق!

يغيب الوجه حين تذكر أنّ الموت مرّ به ولم ينسك فذكّرك بأشنع

صوره... لا تحزني يا فريال، كلّنا سيموت. عجّلتُ بموتك حقاً، ولكن أكنت تنتظرين فرحاً حرمتُك منه؟ أما كان إدخالك عالم النسيان رحمةً بك ورأفة؟ كنّا أصدقاء، تذكرين ذلك وما فعلتُ سوى تخليصك من جانبك الرديء والساقط!! لكنّ العينين اللتين وجّهتا اتّهاماً مبطناً لم تسدلا جفنيهما اقتناعاً أو استسلاماً بل واصلتا التحديق. غاب الوجه.. اتّسعت العينان حتّى ملأتا فراغه، غمرتاه وضجت أذناه بضحكاتٍ مجنونة.

ابتعدي، لستِ الأولى ولن تكوني الأخيرة. لربّما ظلمتُك، لكنّك ظلمتِ نفسك وحكمتِ عليها قبل أن أنفّذ حكمك بيديّ. إن كان لابدّ من اللوم فوجّهيه لنفسك أولاً، امضي قبل أن أفقأ عينيك بإصبعي هذا!

تنبّه لسبابته المنتصبة التي استهدفت بكارة الابنة فطواها وخبّأها في كفّه خشية أن تغافله وتنغرس في لحم البنيّة. كاد ينشج... أوّاه يا رحاب، لم تركتِني؟ أما كان الأولى أن تبقيني قربك، ألاّ تنفري مني، أن تؤجّلي محاكمتي التي أرى نتائجها مذ رفضتِ عناقي وأبيتِ اقترابي؟ لا، لم تكن المشكلة جنان، ما كانت سوى ذريعتك. أمّا الحقيقة فهي رفضك لي، انعدام قدرتك على نسيان الأذى والألم والأسى! حتّى لو ادّعيتِ غيرَ ذلك، حتّى لو قبلت عرضك وقرّرت البقاء معك هنا، فلن نتمكّن من العودة كما كنّا! سأدع ما مضى.. سأنساه وتنسينه. حسناً، لن نغادر، ولن نبقى كذلك، بل سنمضي معاً لجبالك التي أحببتِ غاباتها وثلوجاً تعزلها عن العالم نصف عام؛ نبني بيتاً ونزرع حديقة، نعمل بصمتٍ ونحاول تعويض ما فات، نحاول أن نصنع لأطفالنا ما عجزنا عن صنعه لأنفسنا. ألا يرضيك هذا؟ سنخلط بأسي بأملِك لننظر معاً ما يحمله غدٌ ربّما أشرقت فيه شمس أبنائنا! المهم أن تنسي وأن تنزعي من رأسك فكرة تنكّري لكِ وإهمالك وتركك للخواء. صدّقيني.. ثمّة الكثير لنصنعه معاً، لا تكترثي لنزواتي واندفاعاتي الخرقاء فأنا، إن أحسنت فهمي، لست سوى طفلٍ لم يكبر بعد، وقف الزمن

عند وجه أمه التي ماتت وتركته للغرباء. عشتُ غريباً بين غرباء وتمنّيت يوماً أن أشعر أنّني بين أهل، أنّني أنتمي لحيٍّ أو عشيرة. كنت كوباءٍ لا يرتضي أحدٌ تلويث أجوائه به.. رفضني الذين حاربتُ لأجلهم ولفظوني، والأدهى أنّهم اتّهموني بتسبيب ما يكفي من الأذى لتدمير حياتهم وحياة أولادهم. كيف تلومين كراهيتي لأولئك الجاحدين؟ مالي غيرك صدّقيني، أتوسّل الآن أن تقولي نعم وتنقذيني ممّا أنا فيه. عادت رحاب صبيّةً نضرةً تصهل اشتهاءات الحياة الأولى في اندفاعها.. تضحك كعادتها قبل تعلّم العبوس فتضحك الشمس والأشجار والأنهار معها، لكنّها تدير وجهها وتمضي ملوّحة.. تمتصّها الخضرة اليانعة وتستحيل بعضاً منها. رحاب! تنشقّ الأرض حيث يقف، تسحبه ببطءٍ، وحالما تبتلعه تُطبِق عليه وتضغط حافّتي الشقّ على صدغيه...

سأل أين أنا؟ كانت آية قد أغفت، سحب رأسه، التفت فأبصر الزوجة وقد استطاعت أخيراً إخراج الزوج من سباته... آنها أحسّ أن طبيعته ترجع إليه. اللعنة عليك! الآن؟ اندفع نحو الزوجة ونزا عليها كأيّ حيوانٍ في غابة...

قادوهم إلى الصالة الصغيرة وعلى بابها فكّوا قيودَهم واحداً واحداً قبل ولوجها. أرائك مريحةٌ حول سجّادةٍ وثيرةٍ تغطّي أرضَها وستائرٌ سوداء سميكةٌ تنسدل على جدرانها وسط إضاءةٍ حسنةٍ تنتشر في أجوائها المنعشة. أخرست المفاجأة ألسنتهم فاتّجه كلّ واحدٍ إلى أريكةٍ ارتاح إلى نفسه عليها. لم يتوقّع أحدٌ تبدّل المعاملة على هذا النحو، توقّعوا الأسوأ وخالوا حين فُتح الباب أنّهم مُقدِمون على تجربةٍ لا نجاة منها فانتفضت قلوبهم كطيورٍ فاجأها صقيعٌ داخل الأقفاص. ثم هاهم الآن هنا؛ تراخى الذين لم يكتووا بنيرانٍ

مشابهة، تفاءلوا واقنعوا أنفسهم بوجود خطإٍ سرعان ما سيُصحّح ليعودوا سريعاً إلى بيوتهم. أما الذين وشمت روحَهم تجارب مماثلةٌ، فقد توجّسوا وراحت عقولهم تعمل بغير توقّف!

ـ ما الذي يحدث يا حنان؟ القصّة مرتبطةٌ أولاً وأخيراً بأدهم، هل يظنّوننا عارفين بمكانه؟ سألت رحاب هامسةً.

ـ لا أحسب ذلك، ما كانوا ليجمعونا معاً. ولكن تنبّهي للوجوه، ما يجمع أغلَبها صلةٌ تربط بالحيّ القديم.. البيت الذي صودر وهُدِم علينا وهُجّرنا منه. هنا تأتي الصلة بأدهم، فهو الوحيد الذي قام بفعلٍ حقيقيٍّ حاول من خلاله منع ما حدث فيما بعد!

التفتت وفيقة، وقد توسّطت رحاب بينها وبين حنان، قائلة:

ـ الغريب حقاً أنّ أولئك جميعاً افترقت سبلهم، نسوا بعضهم بعدما تخالعوا، طواعيةً أو إكراهاً. لماذا يعاودون لمّ شملهم؟ أما كان الهدف تفريقهم وزرع بذور العداوة والشقاق والشكّ بينهم؟ ما الذي يحدث الآن؟

ـ أيمكن إبقاؤنا رهائن حتّى يسلم نفسه؟ سأل إبراهيم كريماً فأجاب:

ـ لا، لو أرادوا ذلك لفعلوه مع أهله، لا تعدو المسألة بحسب تقديري إزعاجاً وتذكيراً بأنّ شيئاً لا يفوتهم!

ـ ولكن ما دخلي أنا؟ ما دخل الأولاد؟ سألت جنان مستاءةً وقد حمل تهدّج صوتها قلقها الدفين.

فأجاب إبراهيم:

ـ ما من أحدٍ له دخلٌ بكلّ ذلك، لكنّ ذنب الجميع أنّهم يعيشون هنا وهو ما يعرّضهم دوماً للمساءلة، للاطمئنان على صمتهم وولائهم... حتّى لو أخفوا أنفسهم في بيوتهم وأغلقوا أبوابها عليهم!

بدا أن أعصابه قد هدأت وأنّه امتصّ غضبته الطائشة مرغماً فاسترخى، ثمّ همس في إذن كريم:

ـ لو يوزّعوا علينا قليلاً من الخمرة! تعطيني حصتك، أليس كذلك؟ انظر، المسكينة لا تعرف كيف تخفي نفسها، كأنّ العيون مسلطةٌ عليها.

أشار برأسه نحو نوال التي كانت تصغي لمنى ابنة وفيقة دون أن تفقه شيئاً من همسها.

ـ ستعتاد ذلك، مثلما اعتدناه. من كثرة العيون التي ترقبك تحسب أنّ هنالك خطأً في هيئتك أو أنّك عارٍ فتلمس ثيابك خشية أن تكون قد سقطت دون علمك. وقبل ذلك لا تحلم حتّى بتقديم جرعة ماء! اضحك بعبّك إن عفوك من فنجان قهوتهم المعتاد!

ـ دعك من ذلك... أخبرني كيف هي أحوالك؟ سأل إبراهيم فأجاب كريم ضاحكاً:

. ـ نحيا كما يحيا بقية الناس، ربّما من قلّة الموت كما يقولون، صدّقني لا أعرف كيف أتدبّر أموري لولا وفيقة، خلّها لربك يا رجل، لن تيأس إن لم تجد نفسك وحيداً. قل لي: أما تزوّجتَ بعد؟

ـ أمجنون أنت، تخالني أعمى فلا أبصرك وأبصر أمثالك؟ لم أُصَب بالخبل بعد حتّى أقلّدكم!

ضحك كريم مجدّداً وقال:

ـ قل: أيّة مجنونةٍ ستقبل بك وبفوضى حياتك؟

ـ مثيلات وفيقة كثيراتٌ يا بعلها المحترم!

في أحاديثهم المتفرّقة اكتشفوا كم ارتفعت الأسوار بينهم.. سنواتٌ طوالٌ فصلتهم عن بعضهم وربّما عن أنفسهم.. أقرب الناس وأكثرهم التصاقاً يجهلون حيوات بعضهم.. وحتّى عناوينهم. عرضتهم ذات القوّة التي أبعدتهم لعيون بعضهم البعض، ربّما مضطرّةً... وربّما متقصّدة، لكنّهم وفي لحظات ترقّبهم أعادوا مدّ خيوطهم، أحسّوا أنّ خوفهم من أنفسهم ومن بعضهم غير مسوّغ. رمّموا جسورهم المهجورة، تعرّفوا عناوينهم، هويّاتهم،

وتمنّوا لقاءً آخر! حال افتراقهم سيتلمّسون الأعطاب التي فتكت بهم والخواء الذي استبطنهم فأودى بعقولهم واستنزف انفعالاتهم دون جدوى. كان ما حدث لهم فظيعاً، هدّد بتحويلهم إلى ما يشبه مصارعي الرومان الأسرى والعبيد الذين يشترون حيواتهم وحريّتهم بقتالٍ حتّى الموت! قد يكون خصومهم الأبناء أو الآباء أو الأشقّاء سيّان، آنها سينسون كلّ شيءٍ ويبصرون بقاءهم ووهم انعتاقهم وحسب!

بدت جنان غير مطمئنةٍ، خشيت أن تودي الهزة التي تعرضت لها بكل البناء الذي أقامته رحاب لبنةً لبنة. تبصرهم؛ هاهم أمامي، أزمنة غابرة تواصل العبور. أين أنا منهم؟ وما هي الخيوط الخفية التي تربطني بهم ثم تجعلني صلة وصلهم بمن يليني؟ وهاهي رحاب التي حضّنتني تتداعى.. تتمزق كنسيج عنكبوتٍ وتتبدى وهماً محضاً. كم تبدو منفصلةً عن الحالة وكم تبدو متصلةً بها! لست مسؤولةً عما حدث ولا علاقة لي به، لكنني أسدد حسابي دون مسوّغٍ ولا مبرر! هل أستطيع اليوم أو غداً أن أعرف لماذا؟

وفي الزمن الظلامي الذي يتكثّف بين المرء وعينيه يعلو قمر حنان.. يسأل بلهفةٍ متى يكون محاقها وإلى متى يستمر اختلافها؟ راهبةٌ استحالت واحةً في بيداء لا نهائية، أتبقى أملاً عذباً مشتهىً في عالم التشوّه والتشيئ؟ ودّ إبراهيم لو يبقى نورها، وتمنّى أن تنقشع حجبٌ تمنعه عن الانتشار...

انتشرت الجرعة في أوردته وأحسّ باختفاء آلامه قبل وصول الدواء إلى خلاياه.

- كنت ستحكي عن علاقتك بموتها... أقصد بمي!

تردّد جميل، لم تؤثر به محاولة اللطف التي اصطنعها فاتك بقوله، لكنّه رغب ألاّ يكون جاحداً لمن منحه ما خفّف آلامه دون مقابل، ظاهرياً على

الأقلّ، ووجد من جانبٍ آخر أنّه لن يتخلّص من إلحاح فاتك على إقحام مي إلاّ إن حكى عنها قليلاً وأبعدها عن قضيّته الحالية. سأله بتسليم:

ـ هل المسألة هامّةٌ فعلاً؟ مضى وقتٌ طويل!

ـ لا، كما سبق وقلت، مجرّد فضولٍ لم يُشبَع منذ وقتٍ طويلٍ أيضاً.

أجاب فاتك في محاولة بائسةٍ لاستجرار جميل وكسب ثقته، فقد أخفقت وسائله الأخرى، ولا يريد أن يقال عنه إنّه أخفق.

أمّا بالنسبة لجميل، فقد كان الوقت هدنةً عليه استغلالها لأبعد مدىً لأنه يدرك أنّ الوجه الحقيقيّ سيبرز في أيّة لحظة... فحكى:

ـ أنت تعرف تقاليد منطقتها وعاداتها... كانت قد استعدت أسرتها عليها حين أصرّت على دراسة الطبّ في المدينة بمؤازرة أبويها فسكت الباقون على مضض... أمّا حين أعلنت أنّنا سنتزوّج، وقف أهلها قبل عشيرتها في وجهها؛ خيّروها بين الموت أو إلغاء الفكرة، ما من حلٍّ وسط. ثم انقطعت أخبارها!

استفسر فاتك بلين:

ـ وأنت، ما كان موقفك؟

تردّد جميل... ثم هتف:

ـ وضّحتُ لها أنّنا يجب ألاّ نخضع لشروطهم، كما أنّنا لا نملك حالياً قدرة مواجهتهم و...

فقاطعه فاتك:

ـ سألتَها أن تبتعد قليلاً حتّى تهدأ الأوضاع و...

أوقفه جميل مستثاراً:

ـ لا، قلتُ يجب أن نوقف علاقتنا إلى حين، ثم نختار نحن توقيت ومكان مجابهتنا لهم.

ـ وما كان موقفها هي؟

صمت جميل.. تصبّب عرقٌ غزيرٌ من جبهته.. تنفّس بعمقٍ كأنّه استهلك أوكسجين الهواء، فاستحثّه فاتك قبل أن يسيطر الانفعال عليه أو تُفقِدَه حقنة المخدر قدرة سَيطرته على نفسه:

ـ كان رأيها معاكساً لرأيك؟

صاح جميل مغتاظاً:

ـ لم يكن رأياً، بل كان جنوناً مطلقاً!

يعود صوتها كأنّها تقول الآن:

استمع! أنا أكره تلك المواقف المائعة والرخوة، ما من حلولٍ وسطٍ أمامنا وليس متاحاً لنا كسب وقتٍ نعدّ أنفسنا أثناءه. ما من مواجهةٍ صحيحةٍ تهرب من خياريهم المشروطين، لأنّهم لم يطرحوا ما يُناقَش. علينا أن نختار، أتفهم؟

فيجيب إجابته السابقة بصوت مرتفع:

ـ أجبتها متسرّعاً نختار الحياة إذن! و...

لم يمهله فاتك، فما عاد يحتاج أكثر ممّا قيل. قال لامزاً:

ـ إذن هي التي اختارت موتها؟ لم تدفعها إليه دفعاً؟

تطلّع جميل إليه مشدوهاً وسأل بصوتٍ أبحّ:

ـ ما الذي ترمي إليه؟

استرخى فاتك في كرسيه وتطلّع نحو السقف ملاحقاً دخان سيجاره ببرودةٍ ثمّ أجاب بصوتٍ أجشّ:

ـ لقد عرضت عليك أن تتزوّجا فوراً وتواجها معاً خيار الموت أو الحياة!

ذهل جميل، كيف استطاع فاتك معرفة ذلك؟ كنتُ وإيّاها وحيديْن لا ثالث معنا! أنا لم أخبر أحداً... وهي... فمن أين عرف؟ حاول:

ـ ما الذي صوّر لك ذلك؟

ـ تقصد من الذي، ليس مهمّاً، المهمّ أنّك تقرّ به! أجابه فاتك مستعيداً خشونته الطبيعية، فسأل جميل متوسّلاً وقد أثقله العجز:

ـ أقرّ بماذا؟

انفجر فاتك هادراً:

ـ بأنك دفعتها للموت، بأنّك قاتلها! أنت أنذل منه ولو لم تكن كذلك لما ادّعيت أنّك هو لمجرد أن تمنحه فرصة الهرب. لستما إلاّ جبانيْن مدعييّ بطولةٍ تفرّان حالما تشتمّان رائحة الخطر، تورّطان بنات الناس وتتركوهنّ لمصائرهنّ البائسة! لا أظلمكما إن اتّهمتكما بالخيانة، فقد بدأتماها ومارستماها مع أقرب الناس إليكما!

كان الربّ يطلق اتّهاماتِه وإداناته جهاراً كيما يقيم عدالته التي فُتِن بإحقاقها. انهار جميل من غير أن يتنبّه أنّ حكم الخيانة الوحيد لا يتعدى الموت شنقاً أو رمياً بالرصاص أو إغراقاً بالفتن أو إحراقاً بنيران التشويه أو صلباً على بوّابات المدن ونقاط العبور شاهداً ومثلةً تقوّض العالم.. تزلزل الكون!! انهار كلّ شيءٍ عليه، بقيت النيران تلتهب قرب جفنيه وهزيم الإدانات يرعد في أذنيه. ظهرت أخيراً، لم يستطع إخفاءها عنه ووفّر عليه مشقّة إظهارها. مدّ يده إلى قبّعة الساحر السوداء المستطيلة وسحبها بكفّيه المستورين بقفّازين أبيضين ورماها في وجهه خفاشاً أسود غرز مخالبه في وجنتيه وراح يفتح عينيه ليمتصّ بأسنانه رؤاهما!!

هل عبرت البحر لألقاكِ هنا؟ هل دارت بي دورات الزمن وعصفت الفصول لينفض الغبار عنّي هنا.. ليصار لتمزيق أكفاني على يديك؟ تزيح

الأنقاض وتمرّ.. حيّةً، ولكن بإرادةٍ لا تلين، تمرّ براحتيها.. تجثو، تزيح الركام الذي غطّاه بتؤدة عالم آثارٍ يبحث عن لقيته، وتجذبه، ترفعه، تجلس على تلّةٍ وتضعه في حجرها.. تداعب شعره، تمسح جراحاته وتداوي أوجاعه ببلاسم ابتسامتها:

- لا عليك... وصلت برّك الآمن... أنا القادمة لأحييك!

- مي، يقولون إنّي قاتلك؟ همس ملتاعاً، فأجابته مطمئِنةً:

- لا تحتكم إلاّ لنفسك، المهمّ أنّك عدتَ والتجربة التي فررت منها دهراً أعادتك إليها وهي التي أيقظتك من موتك، فأذنت بقدومي. ارتح الآن واهدأ، إذ ينتظرك الكثير!

- أهنالك أقسى وأشدّ من ذلك؟

يعيده الصوت الغاضب إلى اللحظة المتخثّرة في زمنٍ متلوٍّ لينتزعه من رؤاه وتهويماته والكوابيس التي تلاحق يقظته بعدما انهدم سياج نومه:

- انظر الآن إلى نفسك جيّداً... ألا تتبيّن أنّك لا تستحقّ أيّ تعاطف؟ مجرّد ذئبٍ مختبئٍ في جلد حَمل. تريد أن تكون بطلاً وتضحّي بحياتك من أجل صديقك، لكنّ من يريد التضحية بشيءٍ عليه أن يملكه أولاً... ويحرص على عدم تلويثه ثانياً! وأنت فاقد الاثنين معاً، حاولتُ مساعدتك وإعادتك إلى حيث يجب أن تكون، لكنّك لا تستحقّ أكثر من رميك في مزبلةٍ وطمرك بالأوساخ التي ستحتجّ على تلويثها بك! ما عدتُ أريد منك شيئاً، نفسُك ستحاسب نفسَك وتثأر لضحيتها، وربما لضحاياك الذين خدعتهم وكذبت عليهم وغرّرت بهم وكنت في عيونهم قدّيساً يريد أن يطوّب شهيداً!

ويستيقظ.. أكان يبحث عن الحياة في تضاعيف الموت وثناياه، أم أنّه

يستكنه لغز الموت في حياةٍ أقرب إليه؟ ارتفع السؤال حادّاً مسلّطاً فوق رأسه، أيمكن أن تحيا وأنت ترى الموت يحيط بك ويحيق بمقلتيك؟ تردّد؛ الحالمون بيقظةٍ حقيقيّةٍ ماتوا! والذين عاشوا إمكانيّة تحققها سُحلوا تحت وطأة تشبثهم بسفينةٍ غارقةٍ لا محالة. أمّا الذين فكّروا بها كماضٍ لا بدّ أن يحضر، فقد نبذوها على مشهدٍ من الضحايا التي تلتهم الضحايا!!

بطل السحر وظلّت الأضحية التي قُدّمت فداءً مجهولة...ابتهج لاستعادة ذكورته فنهض ثملاً مترنّحاً بانتصاره الظافر ودّ لو يصهل ليصل صوتُه إلى أقاصي الأرض؛ نجحتُ.. نجحتُ، لم تخصني الكافرة الجحود.. سحقاً لكلّ البكارات اللعينة، كادت تدمّر حياتي! في عينيها المبحلقتين رأى نفسه وعلى مرآتهما انعكس عريه فاضحاً ذليلاً. سأل: هذا أنا؟ ما الذي أفعله هنا؟ خشي أن ينهض فترصد عريَه ثلاثة أزواجٍ من العيون يجهل إن كانت مغمضةً أم لا!

وتحت أزواجٍ ثلاثةٍ من العيون سيظهر في قادمات الأيّام تحت جلدٍ آخر وهو يودّع وفيقة وصفاء وحنان. لن يكون شاهد الوداع آنها إلاّ منى، ابنة وفيقة، التي ستبكي وهي تروي لجنان المفجوعة مشهد الوداع الأخير! تبكي فجيعتها بأبيها وانهيار أحلامه رغم تشديد أمّها وفيقة على أنّ شيئاً لن يتغير بابتعاد كريم المؤقّت وأنّهم سيتابعون على ذات السمت وإنّما بوتيرةٍ أبطأ، فتجيب منى، علينا يا أمي أن نعدّ أكفاننا بدل الثوب الذي وعدتماني أنت وأبي بشرائه... وتبكي صديقتها جنان التي أصبحت وحيدةً... وحيدةً... وحيدة.

ـ لم أصدّق أبداً أنّ الذي يقف أمامنا ويخاطبنا هو أدهم، أدهم الذي ظلّوا دهراً يتحدّثون عنه، يحلفون باسمه ويحلمون بعودته. كان شخصاً آخر لم أعرفه للوهلة الأولى، فقلتُ إنّ المظاهر تخدع، لكنّه فشل حتّى في تمثيل

الدور الذي يُفترَض أنّه لا يقلّده! لم يتّهمه أحدٌ بالتخلّي عن رحاب، لكنّه دافع عن نفسه وكأنّه متّهمٌ بذلك...

ـ لا تريد أن تفهم أبداً أنّنا لا نستطيع البدء هنا.. لا نستطيع البناء فوق خراب! قولي بربّك يا وفيقة، ما الذي أستطيع فعلَه أكثر من ذلك؟ عدتُ مخاطراً بحياتي كرمى لها، لا كرمى لنفسي التي لا تستطيع حياةً دونها، لكنّها لم تجد في ذلك تكفيراً عمّا اضطررت لفعله أوّل مرّة، تريد منّي أن أكفّر عن خطيئتي بسفح دمي على مذبح عذاباتها! كأنّني كنت سعيداً في منفاي أو كنت أحيا حتّى! خالت أنّها هي الوحيدة التي تألّمت وعانت وحوربت و...

لكنّ حنان لا تحتمل المزيد، تنظر نحو وفيقة المطرِقة وصفاء التي تغيب وتنقلها عيناها إلى مجاهل قصيّةٍ فتقاطعه وهي المطّلعة على تفاصيل وخفايا لقائه الخاطف مع رحاب بعد إطلاقها:

ـ ألا ترى أنّك تقلب الصورة، وتحكي كأنّها هي الملامة والجاحدة لتنكّرك لنفسك وتضحياتك؟

ينظر إليها مشدوهاً لكنّها تتابع:

ـ أدهم... أنت تعلم أنّني أودّك وأقدّرك أكثر من الجميع، أكثر من رحاب حتّى، وأن أحداً لم يدافع ـ وربّما سيظلّ يدافع عنك ـ كما فعلتُ أنا، لكنّك تتجنّى عليها كما تجنّيت على غيرها.

يقاطعها ملدوغاً:

ـ من تقصدين؟

فتجيب دون تردّد:

ـ أنت تعلم، وإن كنت تصرّ على التجاهل فسأقول، جميل، أنتَ لم تتجنَّ عليه وحسب، بل تخلّيتَ عنه وخذلته!

ـ ما الذي تجدّفين به بحقّ الأبالسة؟ أنتِ من يقول هذا يا حنان؟

تتدخّل صفاء سريعاً:

ـ ليس هذا موضوع حديثنا، لنترك جميلاً الآن في مصابه.

لكنّه يحتدّ ويغضب:

ـ لماذا نتركه الآن؟ هل تركناه سابقاً حتّى نعاود تركه؟ أسألك أنت ياصفاء، قولي... هل فعلتُ أنا ذلك؟ وهل أنا ممّن يفعلونه؟

تصمت صفاء قليلاً وتتطلّع إليه بأسى:

ـ أنا لا أستطيع أن أحكم، ربّما لا يتّسم حكمي بالموضوعية. أرجوك أن تعفيني من سؤالك، فلا رغبة لي بالظهور بمظهر المنحاز بلِ المتطرف في انحيازه، ولا في موقعٍ معاكسٍ فأدّعي عكس قناعتي كيلا أُتّهم بالانحياز فأبدو ميّتة العاطفة!

لكنّه يصرّ وقد التمعت عيناه وامتلأت شرايينه بدماءٍ جديدةٍ فاتّخذ وضعيّة مقاتلٍ احترف القتال:

ـ لا، عليك أن تقولي، سأرضى بك حَكَماً أيّاً كان حكمك.

تحدّق صفاء في عينيه بصرامةٍ ثمّ تقول بخفوتٍ وحزم:

ـ لن ترضى به... ولن تحتمله!

ـ أقول سأرضى، ناقشيني وأقنعيني وسأتبنّى وجهة نظرك كاملةً.

تتدخّل أمّي محاولةً منع انفجارٍ يلوح وشيكاً:

ـ الأفضل أن نترك ذلك جانباً، نكمل حديثنا عن رحاب ثم نعود إليه فيما بعد.

يلتفت إليها بعتبٍ حقيقيٍّ ويقول ضارعاً:

ـ حتّى أنت يا وفيقة ترتابين بي؟ لماذا؟ دعونا نواجه الحقائق وأنفسنا أيّاً كانت النتائج. هل أفهم أنّ لك نفس الموقف؟ أيكون ذلك سبب جفاء رحاب واختلاقها الذرائع لرفض مناقشتي وخطابي؟ أفهموني ما الذي يحدث بحق الأنبياء؟

يصمتن جميعاً ويغضضن طرفهنّ فيستجديهنّ:

ـ انظرن إليّ، أنا لستُ غريباً! أدهم الذي تعرفنه تغيّر قليلاً لكنّه لم يتبدّل أو ينقلب على نفسه! فلماذا تتنكّرن لي؟

تعتصر حنان صدغيها برؤوس أصابعها وتبوح بما يعذّبها ويؤرّقها:

ـ أحقاً كنّا نعرفك؟

ـ حذار يا حنان! لا أحبّ لهجة الاستخفاف تلك، أنتِ تعرفينني ومعرفتك كانت صحيحةً ولا تزال.

يقولها بغضبٍ وهو يلوّح بسبابته أمام وجهها. لكنّها لا تخشاه وتتطلّع إليه كأنّها تبصره لأوّل مرّة:

ـ أدهم، اهدأ، لقد حاول فاتك أن يوحي لنا أنّك ميت، أو أنّك خدعتنا، أو أنّنا نجهلك. أمّا أنا، فأختار أهون الشرور!

ـ هل تصدّقينه أيّتها الحمقاء؟ متى كان صادقاً؟ أنسيتِ مناوراته ونفاقه وخبثه ومحاولاته الدنيئة لطردكم ثم بطشه الأعمى؟ هل ساءت الأمور لدرجةٍ بتِّ فيها تقارنينني به؟ حنان، نحن على طرفي نقيض.. خندقان متواجهان لا يمكن أن يصطلحا أو يستحيلا خندقاً واحداً.

تفقد حنان صبرها:

ـ لماذا لا تقول ذلك في وجهه؟ لماذا لا تواجهه به؟ لماذا تدعه يقول عنك أنّك جبانٌ ومدّعٍ وكاذبٌ كبيرٌ وأنّنا جميعاً مغفّلون لأنّنا آمنّا بك وصدّقناك؟ أيّ عماءٍ يجعلك ترى خندقين؟ ليس ثمّة إلا خندقٌ واحدٌ كبير

نختبئ جميعاً داخله ويصطادنا كفئرانٍ متى شاء! يتحكّم فينا من كلّ الجهات ويُخضِعنا بحسب هواه.

يقف ويصرخ مشيراً لصفاء ووفيقة:

ـ قولا شيئاً، هل غسل أدمغتكم جميعاً؟ هل استرخص أرواحكم فاشتراها بثمنٍ بخس؟ أفلتّم من سطوته سنواتٍ طوالاً وصمدتم، فكيف انهزمتم معاً في وقتٍ واحد؟ أفهموني أيّ عرضٍ عرضه عليكم؟ أيّة صفقةٍ عقدتموها معه؟ هل كان رأسي هو ثمن خلاصكم وراحة أرواحكم؟

تواجهه حنان وتساندها على مجنبتيها صفاء وأمّي:

ـ أتخرس أم أجتثّ لسانك وأسمل عينيك؟ أتظنّ نفسك قادراً على إرهابنا؟ طالما أخفق هو فستخفق أنت أيضاً. هل تعلم أيّها المتبجّح الكبير ماالذي قاله لي بعد أن دفع زبانيته تجاهي وتوالوا عليّ واحداً إثر واحد... ستّة اغتصاباتٍ متواليةٌ على مشهدٍ من الجميع رجالاً ونساءً وأطفالاً؟ هل تعرف ما الذي قاله؟ قال: اذهبوا جميعاً، أمّا أنتِ فستبقين هنا لسببٍ بسيطٍ، إذ أريد رؤية حمل سفاحك وولادتك عندي لأبصر وجهك وأنت ترضعين ابناً لا تعرفين أباه! ثمّ غيّر رأيه: لا، اذهبي واصرخي في وجهه، قولي إنّك انتُهكت مرّاتٍ عديدةً من أجله وهو غائبٌ لا يحضر ليمنع عنك المهانة فهو عديم الشرف، فاقد الإحساس بالنخوة!! أكان عليّ قول ذلك لك كيما انتزع من رأسك العفِن فكرة أنّه اشترانا أو استبدل أدمغتنا؟ هل تريد الدفاع عن نفسك بإلقاء اللوم علينا واتّهامنا؟ ألا ترى أنّك حلّقت بعيداً وتجاوزت كلّ حدودك؟ ألا يحقّ لي بعد ذلك كلّه أن أتساءل إن كنتُ قد عرفتُك حقّاً؟ ألا يحقّ لي أكثر من ذلك؟!

يمتقع أدهم، يترنّح وتتأرجح ذراعاه محتارتين... أتدفعان راحتيه لتسدّ الحنجرة التي أطلقت صرخة يأسها بعدما استحال جسدها صليباً سُمّرت عليه روحُها واستبيحت، أم لتغطية أذنيه كيلا تخترقهما قذائف فجّرت

دماغه ودوّت داخل جمجمته؟ يعود العملاق طفلاً يبحث عن حضن أمّه ليلوذ به.. يتطلّع إليهنّ مستنجداً يكاد يتداعى فتندفع صفاء ووفيقة نحوه، تسندانه وتجلسانه على أريكته بينما تطلّ حنان عليه لهباً شرساً من انتقامٍ أسود يحرقه حتّى النخاع! تحضن صفاء رأسه، تغطيه وتحميه من انقضاض حنان المباغت ثمّ تتّجه أمّي نحوها وتنحّيها بصعوبةٍ وتهمس:

ـ اهدئي يا حنان، لا يزال هو أدهم، لم يصر عدوّاً بعد. اجلسي أرجوك، لقد قسوتِ عليه وجُرت!

تستلم حنان لها... وعلى لمسها تصحو على مصيبة أمّي فتعانقها وتغتسلان بدمعهما. أجلب لهم قهوتهم فيتمالكون أنفسهم.

ـ أعتذر منكنّ جميعاً! أرجوكنّ اصفحنّ عنّي و...

تقاطع صفاء همسَه المبحوح:

ـ ليس مهمّاً يا عزيزي من يعتذر ومن يصفح.. ربّما كنّا جميعاً بحاجةٍ للغفران ولكن!

يتطلّع نحوها، هذه المرة تتوسط صديقتيها ويواجهنه جميعاً فيسأل متلهّفاً:

ـ قولي يا صفاء! اسألي ما شئت!

تُطرِق قليلاً ثم تتملاّه وهي تنقل كلماتها على صخورٍ زلجةٍ يندفع حولها تيّارٌ هادر:

ـ أرجوك يا أدهم، انسَ قليلاً أنّني شقيقته. في البداية لم آبه لتوقيفه، قلت بدلاً عن أدهم! ليكن. اعتدنا دوماً أن تفتدي أحبّتنا بأرواحنا، هكذا تعلّمنا وعليه ربّونا! وكنتُ أتعجّل رحيلك كيما يتركوه ويعيدوه إليّ، أنا التي انتظرته العمر وحيدةً وما كان لي سواه لم أرَه ولم أشبع منه حتّى بادروا لأخذه. ليس مهمّاً.. منعتُه من ملاحقة مي ومعرفة مكانها وزيارتها، ليس

مهمّاً أيضاً، مع أنّه آلمني وحزّ في نفسي. قلت انتظرتِ طويلاً فانتظري المزيد وسينتهي كلّ شيء إلى ماتشهّيتِه أبداً وترقّبتِه دهراً... ولكن!

تصمت ولا يلحّ عليها. يدرك ما تبتغيه ويتمنّى ـ على ما خلتُ ـ أن تظلّ صامتةً، لكنّها لا تستطيع.. تثب ناحيته، تجثو أمامه وتتابع متردّدة:

ـ لا تفهمني بشكلٍ خاطئ، حالما عرفتُ بإصابته فزعتُ، خفتُ فقدانه وخشيت ألاّ يجد طفلاي ملجأ بعد غيابه. ثمّ... سيموت يا أدهم، لقد عاد ببساطةٍ ليموت بيننا، كيما يغمض عينيه على وجوهنا وتلفظ شفتاه أسماءنا ويلمس رؤوسنا مباركاً! عاد كيما يجد من يُشعِل شمعةً فوق رأسه ويسهر قرب روحه وهي تودعه، كيما ينهال فوقه ترابٌ مألوفٌ وتضع أيدٍ مألوفةٌ أزهارها فوق قبره، كيما يُعرَف قبرُه ويُزار!! ثمّ تنقلب الحالة رأساً على عقب، ينقل نفسه من غربةٍ إلى غربةٍ ومن عذابٍ إلى عذابٍ ومن أيدٍ غريبةٍ إلى أيدٍ غريبة. أدهم.. موته بيننا سيكون عزاءه الوحيد قبل رحيله!

يصمت طويلاً، يقف، يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، يقف خلفها، يمسك كتفيها ويرفعها، يستدير ويواجهها ثمّ يعانقها ويهمس:

ـ هل أذهب بدلاً عنه؟

تصيح حنان بقسوة:

ـ بدلاً عن نفسك!

تتوسّل أمّي إليها:

ـ أرجوك يا حنان تمالكي نفسك.

لكنّها تحتدّ أكثر:

ـ أيمكن لعاقلٍ أن يستمع لقولٍ كهذا ويتمالك نفسه؟

لا يلتفت إليها بل يتابع:

ـ لم تجيبي؟

ترتبك صفاء:

- لقد عانى طويلاً.. طوال العمر؛ أمّه، أبوه، مي، أنا والطفلان ثمّ مرضه وعذاباته الأخيرة. هل تعرف ما الذي يفعلونه به؟ يمتنعون وحسب عن تقديم ما يخفّف أوجاعه وينظرون إليه ساخرين ضاحكين! أعلم أنّ فاتكاً سيرفض ولو أنّه يقبل لعرضت عليه جسدي لقاء كلّ حقنةٍ توقف أوجاع جميل إلى حين!! لا أعرف ما الذي عليّ قوله... لا أريدك أن تكون في موضعه ولا أريده أن يموت مثل الكلاب الشاردة!

تنوح ثمّ تتمالك نفسها:

- لا أستدرّ شفقتك، ولكن ضع نفسك في مكاني وقرّر! قلتَ منذ قليل إنّك ستقبل حكمي أيّاً كان، وأنا كذلك سأقبل حكمك أيّاً كان!

أنا المختبئة في الظلّ حسبت نفسي أمام مشهدٍ مسرحيٍّ أعد بكمالٍ حتّى تلك اللحظة، تتابع منى، لكنّ المؤلف والمخرج قرّرا أن تكون الخاتمة ارتجاليّةً، تركا فراغاً ليملأه الممثّلون قبل بدء مشهدٍ جديد. يطول الصمت، يتململ الممثّلون والمشاهدون.. لا تتغيّر الإضاءة ثم يأتي الوحي.

- صفاء، أرجوك تطلعي إليّ! أنا معك في كلّ ما قلته، ولكن دعينا ننظر إلى المسألة كغرباء؛ لستِ شقيقته ولستُ صديقه. جميل محكوم بالموت وبالعذاب قبله، لا يستطيع أحدٌ منع ذلك، سواءٌ تلقّى عزاءً أو مواساةً أم لم يتلقّ، سواءٌ دُفن في موقعٍ مجهولٍ أو معلوم. كلّ ذلك لن يغيّر من حقيقة غيابه الأبدي، هل نحن متّفقان؟

ينتظر جوابها، تكاد حنان تجيب لولا ضغط أمّي على كفّها. فيفترض أنّ صمت صفاء دليل موافقةٍ ضمنيّةٍ فيتابع:

- سأذهب وأقول لهم أنا ضالّتكم، فأطلقوا سراحه. سأفترض أنّهم سيلبّون، رغم ارتيابي بذلك. وبغضّ النظر عن إمكانية أن توافيه المنيّة في أيّة لحظة... سيعود إليكِ ويموت بيننا كما قلت. هل تظنّين أنّني سأخرج حيّاً بعدها؟

يصمت منتظراً جوابها، فتظلّ مطرِقةً.

ـ حسنٌ، غضّي الطرف عن جدوى حياتي، عمّا يمكن أن أفعله في بقيّة عمري. ألا ترين أنّنا نضحّي باثنين، نخسر إنسانين، أحدهما ميتٌ لا محالة، لقاء أن يموت بين يدي شقيقته؟ هل تقبلين بذلك؟ قولي نعم وسأمضي من فوري إليهم!

يخيّم صمتٌ ثقيلٌ، يدرك الجميع أنّها لن تقول النعم المنتظرة، وأدهم أكثرهم يقيناً. تأتي المفاجأة من أمّي، تزيح الصمت، تنقضّ على المشهد بهدوءٍ وتهتف بثبات:

ـ أنا التي ستقول نعم عن نفسي وعنها!

تسارع حنان:

ـ وأنا أيضاً أقول تلك النعم اللعينة!

ينتفض أدهم ويصرخ:

ـ لكنّني سألت صفاء، ولم أسألكما...

تصمت صفاء.. تطبق فمها ولا تعود لفتحه أبداً. لكن حنان تعاود انفجاراتها... ولا تحاول أمّي منعها ولا إيقافها.

ـ لقد فعلتَ بلحظةٍ ما عجزوا دهراً عن فعله! لن تكون استباحتُهم لي وصمةً تسمني، لن تلوّثني ولن تكون عاراً. فعلوا ذلك كلّه كي يدمّروا الصلات التي تربطنا ويدفعونا لرجم بعضنا بعد أن نلعن أنفسنا! وهاأنت تعلن نجاحهم، تخشى أن تتحوّل أيّة علاقةٍ إنسانيّةٍ لمصدر خطرٍ يقرّبك من شفير هاويةٍ تجهل عمق قاعها ومحتواه فترفض تلك العلاقة وتعلن حربك الغبيّة عليها!

في وحدتها ستشعر جنان بعد حديث منى الطويل بفقدانٍ مزدوج... ستجد نفسها معلّقةً بالفراغ، لا يقظةٌ ولا حلم.. لا أرضٌ ولا سماء ، لكنّها

آن ستقفل ملفّ أدهم أمام ستكون قد تخلّصت من ضياعها وستصبح عارفةً بما تريد، مدركةً درب الوصول إليه!

ـ قطعت عليكم أفكاركم وأحاديثكم ومنعتُكم عن أعمالكم! اضطررتُ لذلك، فهنالك ما يتوجّب كشفُه واكتشافه. ربّما كان عليّ الاعتذار عن الطريقة التي جلبوكم بها ولكن... أنتم أدرى!

على هذا النحو بادرهم فاتك بعد دخولٍ عاصف، هبوبٍ اقتلع الباب فأسقط قلوبهم وعفّر بالصفرة وجوههم وجفّف حلوقهم! سبقه مرافقوه بوجوههم الكالحة وأجسادهم الخرافيّة، انتشروا كمروحةٍ على جانبي الباب متوثّبين للقتال ثم لحق بهم.. خطواتٌ سريعةٌ وثقيلة، لمح جمعهم ثم راح يقفز بعينيه الضفدعتين عليهم واحداً واحداً، وكلما حطّتا على وجهٍ هبّ صاحبه واقفاً يكاد يعتذر عن وقاحة بقائه جالساً. اخترقهم جميعاً فانتصبوا كتماثيل ما عدا حنان التي لم تجفلها نظرات عينيه الصقيعيّة فظلّت مسترخيةً في جلستها تلفّ رجلاً على رجلٍ هازّةً قدمها محدّقةً بتحدٍّ واحتراس. مرّ عليها سريعاً؛ لم تتحطّم روحها بعد، حطّمتُ جمجمتها ولا تزال عنيدةً كبغلٍ حرون! لا شفاء لك أيّتها الكلبة إلاّ الموت ولن يطول انتظارك! اخترقت عيناه كتفي الطفلين اللذين أدارا له ظهريهما والتصقا بساقي أمّهما فارتعدا. أحاطت رأسيهما بكفّيها خشية أذىً يلحق بهما من عيني الوحش. لم يسألهم الجلوس، بل قال:

ـ لدينا وجوهٌ جديدةٌ غير مألوفة، نأمل ألا نضطرّ لإدخالها في قوائمنا القديمة!

ثمّ تابع:

ـ ظاهريّاً لا غبار على سلوك أيٍّ منكم، حتّى لؤماؤكم استووا وقوّموا

سلوكهم ولملموا ألسنتهم. أريد أن أطمئنّ على بواطنكم.. أتفحّص عن قربٍ ضمائركم خشية أن يكون الفساد الذي خرّبها يوماً مستمرّاً في نخره وبثّ إنتانه. سأكون صريحاً معكم، نحن لا يكفينا تدجينكم وضمان عدم عودتكم لبراريكم وحالات توحّشكم السابقة. أنسنتكم لا تهمّنا، ولا جعلكم أليفين، ما يهمّنا أن تكون مورّثاتكم قد اكتسبت تلك الصفات كيلا تنقلوا لأنسالكم صفاتٍ ورثتموها عن أسلافكم. منذ اللحظة، ستحدث طفرةٌ جديدةٌ في تطوّر جنسكم، ومن عندكم ستبدأ دورةٌ جديدةٌ لنسلٍ لامثيل له؛ يؤمن بالطاعة أوّلاً وبالطاعة ثانياً وبالطاعة ثالثاً وأخيراً!

أدار بصره عليهم مجدّداً ثمّ وضع كفّيه على خاصرتيه متحدّياً وسأل بخشونةٍ وقحة:

ـ هل من معترضٍ على ذلك؟

تململ البعض... لكنّهم آثروا الصمت. غير أنّ إبراهيم لم يستطع كأنّه لم يفق من ثمل أمس:

ـ ما الذي فعلناه فاستدعى خطابك واختباراتك؟

حدجه فاتك بنظرةٍ نزّت حقداً فعضّ إبراهيم على شفته واحتار أين يخبئ كفّيه المرتعشتين. ألا تستأهل قطعَك أيّها اللسان الغبي؟ ألا تستطيع أن تصغي وتسكت كالباقين؟

ـ السيّد الرسّام يسأل! هل صحوتَ، أم لازلت غاطساً في سكرك؟ في كلتا الحالتين أقول لك إنّه إجراءٌ روتينيٌّ وربّما ستخضع له كلّ يومٍ مرّاتٍ عديدة. نريد فحص دمك خشية وجود عدوى الإيدز أو ما يشابهها فنحصّنك أو نعزلك أو نرسل بك إلى جهنّم الحمراء ليبحّ صوتك من شدّة الصراخ فتخرس إلى الأبد. أيّهم تختار؟

أطرق إبراهيم فجأر فاتك:

ـ أجب!

أجاب إبراهيم بصوتٍ خافت:

ـ التحصين واكتساب المناعة!

لكنّ فاتكاً لم يكتف:

ـ قلها بصوتٍ مرتفع.

فهتف بها إبراهيم رغم إرادته.. وانكسر!

دارت العينان اللتان استحالتا جمراً على الوجوه المخطوفة:

ـ هل من سائلٍ آخر.. أو معترض؟

استعرضهم ثمّ تقدّم بإصرارٍ وحزم ووقف فوق رأس حنان، أمسك شعرها وجذبها بعنفٍ نحو الأعلى فاستقامت متألّمةً وهي تحاول تخليص رأسها من قبضته دون أن تصرخ.

ـ ثمّة من لا يعجبه كلامي! سيكلّفكم ذلك جميعاً غالياً. عبثاً تحاولون التقاء أنفسكم والبحث عنها عند بعضكم البعض، انتهى ذلك منذ زمنٍ بعيد... ومن لا يزال يراهن على عودة بيته أو عودته كما كان سابقاً فليكفّ ولينسَ ذلك أبد الدهر.. يمحُه من ذاكرته ويميته في أحلام نومه...

لوّح بشعر حنان ذات اليمين وذات الشمال فتمايلت مع جذبه وهي تعضّ شفتيها.

ـ تسمعينني، أليس كذلك؟ ومن ظلّ ينتظر عودة أدهم واهماً أنّه سيكرّر فعلته ويكون مثالاً يُحتذى فليس سوى أهبلٍ ومغفّلٍ كبير، وإن لم يرتدع وينتزع فكرته تلك من رأسه، فلدينا من المصحّات العقلية ما يتّسع للآلاف! أنا مصدر وجودكم ومبرّره، تذكّروا ذلك! وعلى أيّة حالٍ، ومنعاً لأيّ لبسٍ، اعلموا أنّه صار في قبضتي، آمنوا بذلك أو اكفروا به واجحدوه. أنتم أحرار! أقول لكم إنّه هنا، سيموت هنا... ومن لا يصدّق سيكون شريكه ورفيق رحلته الأخيرة!

عاود شد شعر حنان فتأرجحت مع حركة يده:

ـ هل تفهمين ذلك؟

أفلتها واتّجه نحو رحاب التي نظرت في عينيه بثبات:

ـ وأنت أيضاً، إلغيه من ذاكرتك خيرٌ لك! أفهمت؟ ابحثي لنفسك عن زوجٍ لا يغدر ولا يخون!

تركها وعاد لموضعه بين رجاله:

ـ لا تحسبوا أنّي مكترثٌ بكم، فمهما حاولتم أن تكونوا غير ما أريدكم أن تكونوه ستخفقون وتذهب محاولاتكم سدى. أريد أن أوفّر عليكم بقولي عناءات ذلك ومشاقّه وعذاباته. ولأنّني غير مبالٍ بكم وأعرف أنّكم مجرد ذبابٍ أزرق يئزّ فوق الجثث المتفسّخة، سأطلق سراحكم بعد قليل لتحوموا فوق مسوخكم ورمم رفاتكم!

التفت إلى مساعده، همس شيئاً فغادر الأخير إثره.

ـ أمّا الذين لا يؤمنون حتّى يروا فلن أخيّب ظنّهم، سأعرضه عليكم الآن. أدهم الذي يظنّه البعض حلماً يراوده بين الفينة والفينة فيذكّره بنفسه، سترون نهايته لتخرجوه من أحلامكم وتنتهوا عن تذكّر أنفسكم! ستتعرّفونه جميعاً وتقرّون أنّه أدهمكم فترتاحون وتريحون وتمضون إلى بيوتكم واحداً إثر الآخر. الذين لم يبصروه من قبل سيتعرّفونه بناءً على تعرّف الآخرين عليه. لا أريد تكبيدكم مشقّاتٍ إضافيّة... قولوا هو وارحلوا سريعاً.

نصف خدرٍ نصف صاح، محمولاً على غيبوبته المشتهاة، انتزعوه من إبطيه بقسوةٍ وجرّوه خلفهم، يخطّ كاحلاه مساره على الأرض سكّةً تنتظر قاطرةً تندفع فوقها ويتقدّمه رأسه متهاوياً نحو الأرض شاخصاً للأعلى... أسعفته مي حين اندسّت بين الثورين الذين يقطرانه فاحتضنت رأسه ورفعته قليلاً هامسةً، تشجّع... تلك هي البداية وحسب! رموه وسط القاعة فارتطم ظهره بالأرض ومضوا. عقدت مي حبوتها وأسندت رأسه على فخذيها وأمسكت قبضتيه المرميّين وراء كتفيه تشدّ أزره وتقوّي عناده. اقترب فاتك

منه وركله ركلاتٍ شديدةً على خاصرته وجانب صدره فانتفض كمن مسّه النزع وحدّق بالفراغ، التفت برأسه فرأى الجميع.. خرجت من ضباب عينيه أشباحٌ لاح أنّه يعرفها تشرف عليه وتشهد انسحاقه، تتعرّفه أو تعرّف عليه!

ـ من أنت؟ أجب! أرعد الجلاّد فوقه.

لم يدرك السؤال لأوّل وهلة، كاد أن يقدّم اسمه الحقيقي تلقائيّاً أو منعاً لعذابٍ آتٍ لا ريب فيه... لكنّ مي لكزته وصرخت في أذنه منبّهةً، حاذر أن تهون إرادتك عليك لتحافظ على حياتك، فهو يريد إذلالك وإذلالهم. أفهمه أنّه لا يستطيع أن يثنيك أو يجعل منك عبرةً لقدرته على محقهم! فهتف بوهن:

ـ أدهم جبيلي!

ومع ركلةٍ شديدةٍ أخرى، مرّ السؤال على تلوّيات الجسد المنطوي على نفسه جنيناً في رحم عدو...

ـ هل أنت متأكّد؟ قل!

أتى الجواب مختنقاً عابراً أميالاً من النسج الحيّة المنفلقة والمتشظيّة:

ـ أنا هو!

قصف الرعد فوقه مجدّداً:

ـ أبصرهم، فهم ينكرونك!

جال جميل بعينيه الدائختين على الشخوص ومال على جنبه ليتبيّن من لم يتبيّنه، تنبّه أنّه كشف ظهره لحذاء فاتك وأن أيّة ضربةٍ على عموده الفقري ستُخرج صراخه وعواءه فاستلقى على ظهره مرّةً أخرى محافظاً على انطواء فخذيه وتطلّع إلى الجانب الآخر... وعلى مهلٍ ميّز الحاضرين الذين توقّف النبض في عروقهم وعبثاً راحت أفئدتهم تدقّ بعنفٍ وصل صداه إلى أذنيه خليطاً متفاوتاً من القوّة والضعف، من الشدّة واللين، من الشجاعة والجبن.

احذر يا جميل، يريد استغلالك كحيوانٍ مخبريٍّ يثبت من خلاله وجهات نظره ونظريّاته التربويّة؛ إقناع الضحايا بأضحياتٍ جديدة.. ذبحٌ في الذبح! من قال إنّ إشهار الصلب بعد الموت لا يؤلم؟ تخرج من رمال البيداء امرأةٌ متلفّعةٌ بالسواد.. طويلةٌ كنخلةٍ راسخةٍ كبيت، ترتدي نطاقيها بعدما حرموها من نعمة تذكرها بهما، تنظر مصلوبها المشوّه والمقطّع من خلافٍ بعدما جفّفته هاجرة مكّة أياماً ثلاثةً ثمّ تطلق صرختها محتبِسةً دمعها في جوف مقلتيها... نعم سيّدتي، الشاة لا يؤلمها سلخُها بعد ذبحها، لكنّ البشر يتألّمون! صدّقيني لو أنّهم لم يجتثّوا لسانه لأكدّ ابنك لك ذلك بنفسه!

تلفت حواليه وهمس: مي أين أنت؟ هنا يا حبيبي لا أفارق رأسك، أخاف عليه خوفي على روحك! اقتربي، لا أريد أن يسمعني أحدٌ غيرك. تقترب منه فيسألها ضارعاً: أما وقد غبتِ مبكّراً لتكوني نذير موتنا القادم، فاحضري الآن علانيةً لتبشّري بمواعيد قيامتنا!

آنها استدار الطفلان وهالهما منظر الجسد المدمّى الهابط عن صليبه للتوّ، يتزوّد بما يؤازر روحه قبل تسلّقه مجدّداً ويتهيّأ لثقوبٍ جديدةٍ في الكفّين والقدمين. ركضا نحوه غير مباليين صائحين:

- خالو جميل... خالو جميل...

هبطا فوقه غمامتين من ياسمينٍ وبنفسجٍ وعانقاه فابتسم لظلّهما وأريجهما. لكنّ أمّهما اندفعت وراءهما، سحبتهما من ذراعيهما بقوّةٍ وحزم:

- هذا ليس خالو جميل، هذا عمّو أدهم!

ذُهِل الطفلان.. تطلّعا غير مصدّقين لكنّهما انصاعا لدفعها ولضغط أصابعها على عضديهما. رجعت إلى مكانها، ألصقتهما بساقيها وقد انشقّت حنجرتها واخضلّت عيناها بدمٍ يتيم...

قهقه فاتك بجلافةٍ ولؤم:

- أولاكم اعترفت... اذهبي فأنت وولداك طلقاء!

تردّدت لحظةً ثم اتجهت نحوه وباحت بوداعة:

ـ أودّعه؟

فصاح فاتك:

ـ لا، امضي الآن، فلنا لقاءٌ آخر...

ـ أبقى ثم أرحل معهم؟

ـ لا! أوصلوها للخارج.

ثارت في عينيها عاصفةٌ هوجاء ملأتهما رملاً ورماداً، سارت على غير هدىً لا تدري أتقود الطفلين أم يقودانها. أدهم، ما الذي فعلتَه بنا؟ أتيتَ تبحث عن حيٍّ فوجدناك تسعى وراء القبور ورحت تبعثرها واحداً واحداً لتعثر عليها... أمّا الذي عاد يبحث عن ميّتٍ فقد راح يفتح الأبواب، يحطّم النوافذ وهو يصرخ باسمها، لا لتخرج من بين الأموات بل لتردّ له روحه الهائمة في عالم الأحياء! ما الذي فعلتَه بنا، وفعلتَه بنفسك؟ قلْ أيّها الهارب... قل!

نمى شوك قلبها وتمدّد، تسلّق الأوردة والشرايين، اتّسع حتّى أقلقها وزعزع روحها. حاولت أن تنأى فتكلّب جرحُها بها وملأها خدوشاً. نزفت دماً من نوعٍ مغايرٍ أحسّته دون أن تراه أو تلمسه. سألت تباشير الصباح التي غسلت رملَ وجهها ورماد مقلتيها أن تواسيها، تمنحها ما تستطيع أن تتطلّع به نحو شمسٍ لا تسارع إلى غسقها، بهيّةٍ تشفي جراحها وتنعش غيبوبة روحها كيلا تبتلعها فجوةٌ سوداء تدعوها بإلحاحٍ وإصرار.

استنجدت بأبيها، سيحتملها كما احتملته وسيكون أقدر على تحمّل الصدمة، يبثّها شجاعةً ويعينها على الوقوف في وجه الريح العاتية. لن تنادي أمّها، كفاها ما لاقت من آلام.

تتباطأ حركتها وهما يصعدان جبلاً وعراً حيث لمّا تتسلّق شمس

الصباح. رحلةٌ أسبوعيّةٌ لا تتغيّر، لم تكن رحاب قد ظهرت بعد، ينطلقان فجراً.. يصلان السفح مع أولى نسائم الصباح والمدينة تتمدّد تحت أقدامهما غمياء غبشاء تفرك عينيها فيقول أبوها، لا تنظري إليها، انتظري قليلاً، ستزعل وتظلّ نائمة، تمهّلي، سترينها وقد غسلت وجهها ومشّطت شعرها وارتدت ثوباً متعدّد الألوان! تنظر الطفلة بدهشةٍ إليه، هل ستفرشي أسنانها يا بابا؟ طبعاً يا حبيبتي، لكنّها تكره أن يراها أحدٌ قبل أن تتجّهز للابتسام. هل تعبت؟ قليلاً يا بابا. أحملك؟ تصمت الصغيرة، وما إن يرفعها فوق كتفيه حتى تتعلّق بشعره وتقول ضاحكةً، بابا إذا كنت تعباً أنزلني. يقوم بحركةٍ توحي بإنزالها فتصرخ، لا.. لا... أمزح معك. يصعدان قمّةً مرتفعةً وحالما يصلانها يسألها أن تنظر. تلتفت حيث أشار؛ تكون الشمس قد أظهرت طرف خدّها الذهبيّ وهو يُطلِق ومضاتٍ ملوّنةً كأنّ شعاعاتها اخترقت آلاف الألواح الزجاجيّة وانعكست على مئات المرايا، ثمّ يقول: وهنا أيضاً. تستدير فترى في وهدةٍ عميقةٍ مجرى مائيّاً عائماً تتراقص فيه الالتماعات متألّقةً تبدّد ضباباً تجمّع فوق الماء المتدّرج رويداً رويداً من الخضرة إلى لون السماء. يُنزِلها فجأةً ويديرها للخلف فتنبسط المدينة تحتهما بعيداً وهي تضحك حقاً، رافلةً بنسيجها الأخضر وندى صباحها. يسألها: هل صدّقت الآن؟ تقف مبهورةً، نعم يا بابا. آنها تضحك وأسنانها تلتمع وشعرها ينتثر تحت الشمس. ما أجمل عينيها الخضراوين!

يقفان طويلاً ثم يهبطان دون اتّفاقٍ حال تغمرهما الشمس.. يركبان حافلةً في طريق العودة وتسأله عمّا تراه فيجيب ساهماً. أين كنتَ تغيب آنها يا أبي؟ تكبر وتكبر سؤالاتها، تتغيّر المدينة وتغوص تحت ملاءةٍ فاحمةٍ من هُبابٍ وغبار.. تغيض أمواهها وتنطفئ خضرة أشجارها فتقلّ الأجوبة وتعجز. تبقى الشمس شاهداً وحيداً على صورتها الأولى ومشهدها الذي لا يغيب! يمضي العمر ويغوص الأب في انطوائه وصمته، يبدو كمن فقد غالياً وفقد أمل لقياه، لكنّه يستيقظ على الصبيّة التي تنضج على مهل، تصاغ بكمالٍ

يقرّبها من أمّها فيلتصق بها. تصير الرحلة الأسبوعية إلى ضواحي المدينة؛ أشجارٌ كثيفةٌ.. ماءٌ جارٍ وسماءٌ زرقاء.. مباراةٌ حقيقيّةٌ تتنافس فيها عناصر الطبيعة على روح الإنسان. قطعتا قماشٍ ناصعتان.. ألوانٌ عديدةٌ... مشهدٌ واحدٌ وصورتان مختلفتان! لماذا نستخرج روحين متباينتين من مشهدٍ واحدٍ يا أبي؟ ذلك طبيعيٌّ يا صفاء، روحٌ تشرئبّ للأمام، تحاول اختراق الفضاء المجهول خلفه، وروحٌ ترتدّ إلى الماضي، يمسك بخنّاقها ويجرّها إليه ولا يسمح لها بالنأي أو الفرار! لا تبدّد الإجابة الغامض والسريّ. تصمت وتتأمّل بعمقٍ ألوانه؛ قمّةٌ ترابيّةٌ تخالط أنصع الألوان وتعكّر أبهاها وتطفئ أكثرها توهّجاً.. غبارٌ يلفّه السماء والأفق البعيد! كيف ذلك وما من صحراء؟ جبالٌ عاريةٌ حقّاً، أمّا ما يصل الأفق فليس سوى امتداداتٍ من الأخضر! من أين تأتيه الرمال؟ من أيّة كوابيس تنعكس وتنسكب فوق لوحته؟ يجيء الاكتشاف متأخّراً في غرفةٍ استحالت متحفاً اندثر في نهاية المطاف...

داهمت لوحاتِه السرّية، متمنيةً بينها وبين نفسها أن تراه يصيغ ويشكّل أجساداً عاريةً كنسوةٍ ملأن خياله وحوّمن فوق ذاكرته المتفحّمة.. أجساماً تلتمع بفضّةٍ قزحيّةٍ على أمواج بحرٍ متباين الأعماق تظلّه سماواتٌ حزيرانية أو غسقٌ خريفي، لكنّها شاهدت أشياء أخرى؛ بيوتٌ ترابيّةٌ متداعية الملامح، تخيلاتٌ لشوارع مدنٍ ما قبل تاريخيّة عرفت الطين المشويّ قبل الحجارة والأخشاب.. أجواءٌ كامدةٌ تخترقها ومضةٌ من خضرةٍ مرّت كسهم وبدت حلماً أكثر من يقظة وقسوة التراب وصلابة حجارةٍ غير مشذّبة ترتفع أسواراً واطئةً تفصل بين البيوت، تخرج من ورائها حيواناتٌ أليفةٌ فقدت عيونُها وحركاتُها بهجة الحياة! ما هذا يا أبي؟ من أيّة أرضٍ استحضرتَ رؤاك؟ يصمت، يحاول تغيير الحديث، يأخذها لصورٍ أخرى، لأحلامٍ متباينةٍ، لكنّها تصرّ فيرضخ لمطلبها. هنا أنا... وهنا أنت يا ابنتي، من هنا انفلقنا عن الصخر، طُرِدنا واقتلع أهلونا جذورنا لأنّنا حلمنا بمساحاتٍ أوسع من السماء وفضاءٍ أرحب من الأشجار والأمواه.. لأنّنا أردنا العيش على هوانا ولأنّ

أجسادَنا كانت أكبر ممّا صاغوه من حدود؛ ثيابٌ فولاذيّةٌ تحصر الأجسام وتقزّم الأرواح فخلعتُها من أجل أمّك! ألا أستطيع رؤيتها يا أبي؟ لا، سأحاول رسم الكثير عنها ثم تتعرّفينها على القماش. ينهرها مرّةً وهي تحاول تقليده، لا يا ابنتي، أنا أحاول إحياء مواتي، أمّا أنت، فعيشي حياتك!

تذكر مرتجفةً بكاء مي المرّ حين أطلعتها على تلك اللوحات. لم تسألها عن سبب بكائها، فقد عرفته وعرفت أنّها تبكي حياتها فرثت لها وبكت فجيعة أخيها القادمة... عقّب الأب على البكاء، لن تحيا طويلاً! لم تكذب نبوءته ورسمها وجهاً من طين الأرض يتشقّق صدىً للماء. سألها، ألا ترينها لجميل؟ فأجابت، ينفطر فؤاده قبل موعده. لكنّها تتشبّث بيد أبيها قبل الانتقال لعناق ساعد أخيها، تقودها من مكانٍ لمكان.

ـ أبي، أمكنتك غامضةٌ وغير متجانسةٍ وليست مألوفة!

. يندب أمامها متّكئاً على سكره ليبوح بما لا يقال:

ـ المكان؟! يعاديك فيصير محرّماً. يحن المرء لقيده ويحاذر الأفخاخ التي تتربّص به كلّما خطا خطوةً خارج منزله أو مكانه المألوف وإن كان زنزانته. حتّى في غرفته يعيش رعباً آخر، ينطوي على نفسه، تصبح الأمكنة محض وهمٍ يتحصّن داخله لائذاً، طالباً الحدّ الأدنى من الأمان!

ـ وتلك العذراء يا أبي؟

ـ أية عذراء؟

ـ تلك التي تستوطن الأيقونة. ثمّة فيها أشياء كثيرةٌ غير وجه العذراء، فلماذا تصرّ عليه؟

لم تكن قد تبيّنت أن تلك الوجوه المتباينة تجمعها ملامح واحدةٌ رُصِدت من زوايا مختلفةٍ لو جمعتها فوق بعضها لظهر وجه رحاب! يحاول أن يحيد عن الجواب ويدخل في متاهات رؤيته لتاريخ رسم الأيقونة، علاقتها بالكائن البشريّ وكونها جسراً يعبره ليتّصل بما لا يدركه، يحسّه ويعيشه ولا يفهمه، يتخيّله ولا يلمسه!

ـ ليس عن هذا أسأل يا أبي!

يخشى احتدام غضبها:

ـ حسنٌ، فيها تتجسّد المحبّة، فلا يمكن للربّ أن يكره أو يبطش أو ينتقم!

تصيح غضبى:

ـ والصلب والافتداء، الذبيحة الإلهيّة يا أبي؟

ـ دعيك من هذه الحكايا، فمجرد التفكير بها يثير المقت والكراهية. لايمكن للربّ أن يكون وحشاً فيعذّب بشرياً أو إلهياً أو خليطاً عجائبيّاً منهما ثمّ يضحّي به ليفدي البشريّة جمعاء ويمحو ذنوبها. لا يمكن للرحمة أن تجتمع مع القسوة في كائنٍ واحدٍ كاملٍ غير منتقص، «لا يمكن أن يوجَد الشرّ ثم يعاقَب عليه»!

ـ لكنه منحهم حرية الاختيار!

ـ ربّما أخطأ بمنحهم وعي حرّيتهم، وأسف لأنّه ورّطهم بما لم يؤهّلهم لمواجهته، لكنّه أحبّهم وأراد لهم أن يتعلّموا وما عاد قادراً على التدخّل بشؤونهم.

ـ هذا في الدنيا يا أبتِ! ماذا عن ملكوت السماء؟ عن الموت؟

ـ ليس لأحدٍ الحقّ في الحديث عنه إلا من وجهة نظرٍ أخلاقيّة، قولي ردعيّة. ارسمي إن شئت صلبانك والجرائم الوحشية التي تتمّ على أخشابها أو حديدها أو ما يشبهها في عصرنا، من أصغر طلقةٍ وحتى القنابل النووية! ارسمي إن شئت عالماً مجنوناً مهدّداً بالدمار في كلّ لحظة، لكنّني ما عدتُ أرى سوى وجهها ولن أرسم غيره حتّى موتي!

أتى الموت وظلّ السؤال باقياً على شاهدتكَ! إن كنتَ أحببتها، فلماذا قسوت على جميل؟ أفاقت على شدّ ذراعيها، تطلّعت فأبصرت الطفلين. توسّل هاني:

ـ ماما، جعت وتعبت!

وسألت هلا:

ـ ماما، نعود لبيتنا؟

مالت عليهما وعانقتهما:

ـ حاضر يا عيون ماما، سنذهب حالاً إلى بيتنا!

لكنّ أدهماً كان عارياً دون بيت، كان مخلوعاً والنفي عشّش في قلبه وفرّخ طيوراً تهاجر باستمرارٍ فلا تعرف موطنها ولا مواطن هجرتها، تلاحق بوصلتها في دورةٍ لا نهائيّةٍ لا يغلقها إلاّ انتهاء هجرتها وموت المنفى بتوقّف قلوبها! وهاهو في عريه يجد نفسه مكشوفاً في الخلاء، فيعود للبيت الذي أُخلي وتداعت جدرانه فسهل قصم أساساته ودكّها لإعادة هيكلتها بما يناسب الزمان. تمنّى أن يتطهّر سريعاً، فلتحرقه رحاب بنارها أو تغرقه بمائها، عليها وحسب أن تنقذ روحه وتخلّصه من قطيعته مع نفسه أو من انخلاعه عن روحه. ما من مفرٍ الآن؛ رحاب قولي ما شئتِ ولكن لا تجرحيني وأنتِ تقارنين بين عارضي الموت والحياة وتفجّرين قنبلتك:

كلّ هجرة من الحياة حتّى لو كانت في سبيلها هي لجوءٌ للموت حتّى لو اتخذ مظهر الهروب منه!!

لا يعلم أنّه سيُحرَم من الخيارات، فرحاب كانت آنها تُخرجه من حياتها وهي تتخلّى عن لحمها لترميه! لن يتأكّد من حقيقة سرابٍ هرب منه طويلاً إلاّ في حوارٍ قصير باترٍ وجافٍ، محاولة أخيرة لاستعادة حياته عبرها وخلالها. لن تتنكّر له، لكنّها ستضع إصبعاً فوق الجرح وتنكؤه وإصبعاً على العين وتفقؤها:

ـ عليك أن تسلّم نفسك وتتيح له أن يخرج!

يتأمّلها مصعوقاً. تقطع الدرب عليّ من البداية!

ـ هو ميتٌ لا محالة يا رحاب!

تهوي عليه من غير رحمة:

ـ وهل أنت حي؟

يحاول استعادة نفسه، استخراجها من العدم الذي تاهت في غمره:

ـ هل أكرّر أنّني عدت من أجلك يا رحاب؟

لا تهادن:

ـ عدتَ من أجل نفسك، هل أعيد الحديث عن رغبتك بالتقاعد في نهاية المطاف؟ أما كان حريّاً بك أن تواصل تقاعداً تظنّه لم يبدأ حتّى الآن؟

فلا ييأس:

ـ لنبدأ معاً من جديد، أنا من يحتاجك! هل أتوسل إليك؟ دعينا نحاول!

ـ ندور في حلقةٍ مفرغة، لن أغادر أبداً. أنت تحمل منفاك داخلك، تنتقل معه ولا تنتقل إليه أو منه، خيارك أن تنفيه من داخلك ببقائك، وهو ما يرتّب عليك ما لا تستطيع فعله لأنّك تبحث عن شخصٍ بينما افترضتُ أنّك مثلي توالي البحث عن أحلامك المبدّدة، مصرّاً على حتميّة تجسّدها!

ـ من أجل ذلك كلّه يا رحاب أريدك و...

ـ لن تستطيع دفع الثمن يا أدهم! انتزع ذلك من رأسك.

تدرك أنه خرج من حياتها، ربّما كان خطأ المرّة الأولى اضطراريّاً، أمّا تكراره الآن فلا يسمّى إلا تهرّباً جباناً من المواجهة:

ـ قد يكون أسلم لجسدي أن أرحل معك ونؤسّس بيتنا، لكنّ ذلك سيرتّب خسران روحي التي لم ولن أعرضها للبيع. فكّر معي بطريقةٍ معكوسةٍ

إن استطعت، إن لم أدافع عن روابطي وأواجه محاولات تمزيقها، فإنّما أتخلّى عنها وأساهم في تدميرها! هل تبصر ما يفرّقنا يا أدهم؟

ـ رحاب، تطلّعي بواقعية، إن محاولة التدمير تتقصّدنا قبل أن تتقصّد أحلامنا أو رؤانا أو حتّى صلاتنا. في الحنين الممضّ، في عذابات البحث عن ألفةٍ مفتَقَدةٍ تضطرّين لبناء عالمٍ بديل، وهماً كان أم واقعاً، لا تدّخرين وسعاً في إغنائه. وإن لم تستطيعي فعل ذلك، فكيف تفعلين كيلا لا تفقدي صلتك بالحياة؟ ثمّة ما سيتآكل فيك، ولن تدركي ذلك إلاّ متأخرة، فهل تخطئين إن حاولت إيقافه؟ تلويثٌ وأريد التخلص منه و...

تقاطعه دون مواربة:

ـ لا يعدو الأمر أنّ أرواحنا المعذّبة تؤرّقنا فنحاول البحث عن جلاّديها والاقتصاص منهم. أخبرني فقط كيف نفعل إن اكتشفنا على حين غرّةٍ أنّنا جلادو أنفسنا؟ الارتباط يا أدهم ظاهرةٌ لا تتعلّق بالهوية وحسب، بل بالوجود أيضاً. هل يصعب استنتاج أنّ الحفاظ عليه حفاظٌ على الوجود؟ ألا تستطيع أن تبصر ما حلّ بجنان؟

ـ لا تستطيعين البوح بما يعتمل داخلك على الملأ، لن تحتملي ذلك أبداً!

ـ ولن يرجع الرحيل إنسانيّتي المستلبة والمغدورة أو يعيد تأسيسها بشكلٍ معافى!

ـ وهمٌ... وهمٌ... مزيدٌ من الأوهام!

يتبدّد الاحتراس ويختفي الحذر في جوس حقل الألغام الذي دخلاه ليلتقيا وسطه؛ خطوةٌ خاطئةٌ واحدة وتتقوّض الأرض تحتهما، انفجارٌ واحدٌ سيولّد كماً لا متناهياً من الدمار:

ـ حسنٌ يا أدهم، لن أعرّض جنان لما تعرّضتُ أنا له. ارحل.. وعش في الوقائع إذن!

يتوتّر الهواء، هدوء الثانية الأخيرة واقتراب الشرارة من الصاعق الجاهز:

ـ ابقي هنا وعيشي في هذا الجنون المطلق. حاذري أن تكون نهاياتك هناك.. في غاية النسيان حيث يكفّن المرء بغيبته عن الزمن!

تراجع فاتك للخلف بعد مغادرة صفاء والطفلين فتقدم ستّةٌ من أعوانه أحاطوا بجميل فما عاد يظهر. راحوا يركلونه حيث تطاله أحذيتهم الثقيلة، فاحتمل بصبرٍ عجائبيٍّ صامتاً، متغلّباً على أوجاعه وظلّت مي تحاول حماية رأسه عبثاً، ثمّ أفلتته وابتعدت منتحبةً فشقّ صراخُه حلقة الأجساد التي تسيّجه أرجلُها وردّدته الجدران واخترق الآذان والعيون حتّى كاد الذين يرقبون عذاباته يتداعون قهراً وإشفاقاً ورعباً.

أشار فاتك فتوقّف الجلاّدون ولعلع صوته:

ـ دوركم الآن، واحداً واحداً ستمرّون قربه وتتعرّفونه. كلّما أسرعتم كلّما عجّلتم بإنهاء آلامه!

أشار إشارةً أخرى فضاقت الحلقة وتحرّكت... ستة أزواجٍ من الأحذية تطأ الوجه والصدر والأطراف وتسحل الروح!

ـ توقفوا! ألا تنهضين يا ابنة الزنا وتسارعين لإنقاذه؟

تسألت حنان، أيّ نوعٍ من البشر هو؟ من أيّ نسلٍ جاء وأيّة مورّثاتٍ حملتها صبغيّاته؟ كيف تجمّعت فيه وتركّزت خلاصات أزمنة الطغيان وعصورٌ مجنونةٌ بربوبيّة السلطة وشهوة المال والنساء ومجد الألوهة الكاذب؟ لم يكتف بكلّ ما فعله، بل يريد متابعة حساباته القديمة ولن يستكمل تدميره إلا بنشر خرابٍ تامّ. إلى متى؟ أيحسب أن الفناء والموت عاجزان عن اختراق مجال فضائه والوصول إليه؟ أيحسب نفسه خارج دورة الزمن الطبيعيّ، دورة الحياة والموت؟ أيعقل أن يكون مسّ الخلود قد أصابه فاستهان بكلّ شيء؟

لكنّه لا يطمئنّ لسيطرته ويحاول اختبارها، وإلاّ، ما معنى كلّ ذلك؟ فرّقنا، واضطرّ لجمعنا ليعيد حساباته ويقيس نجاحاته، كأنّما أكره على توحيدنا بما حاول تفريقنا به وخلاله! هل أدرك أخيراً أنّه استخدام سلاحاً ذي حدّين، أم أنّه يتعامى عن ذلك ويتناسى سحراً سينقلب عليه؟ سيخضعني الآن للتجربة، أرى ذلك في عينيه وتحفّزه، لا يريد شوكةً تعترض حلقه ولا يطيق لفظة لا. أشفقت صفاء على ولديها، أمّا أنا فما عندي شيءٌ لأخسره. في زمني المبدّد والضائع والموحي بالبؤس واليأس، لابدّ أن تتواصل في عمقه دورته الأساسيّة التي لا فكاك منها؛ دورةٌ تعاكس وتعارض عصر فاتك. لا يمكن أن أتراجع الآن، ليس لأنّني سأفقد مبرّر وجودي بل لأنّني سأكون ميتةً في زمنٍ استبدل الأحياء والأموات فيه مواقعهم. أيّة نبوءة!

وهاهو الإعصار في مركز زوبعةٍ يلفّ الكائنات ويذروها، هشيماً لاتُعرَف أصوله ولا نهاياته. كلّ ذلك يجب أن يتوقّف، كلّ ذلك يجب أن يتوقّف.

كانت تنوس ين صدى صراخات جميل وأنينه الموجع وبين الغضب الذي يجتاحها فيطرد الخوف من عروقها والرعب من عينيها، كأنّما ترى وجهها الآتي وصراخها المحمول على موجةٍ واحدةٍ متعانقاً مع صراخ جميل! توقّف أيّها النوم، توقّف أيّها الموت!

قبل عبورهم واحداً واحداً قرب جميل، كانت حنان تسدّد ثمن معارضتها وفضح لعبة فاتك القذرة... أبت أن تصرخ وأبت أن تستسلم بإذعان؛ امتلأ جسدها بالكدمات وسالت الدماء من وجهها أثناء كلّ انتهاك. لكنّها ما عادت تحتمل وهم يطؤونها واحداً واحداً وقد تعرّت تحت أبصار الجميع... صرخت حتّى فتّتت صرخاتها الجدران فكادت تنهار، لكنّها ظلّت تشجّع نفسها: اغتُصبت الأشجار والحجارة والفضاء واستبيح الناس، وليس اغتصابك إلا جزءاً يسيراً من الكمّ الهائل من الانتهاك. وكانوا

يرقبونها مسدلي الأجفان.. يختلجون مع اختلاجاتها ويرتعدون مع أنّاتها ويستعر غضبهم مع فحيح الشهوة الذي أطلقته الثعابين التي عبرته!!

تردّد وفيقة تحت أجفانها وهي تخفي رأس منى في صدرها... نفس الحكاية وفي كلّ مرة نراها جديدة، نحسّها بأشكالٍ مختلفةٍ أو كأنّها تعكس في كلّ مرة بعضاً ممّا يعذّبنا ويؤرّقنا أو بعضاً ممّا نخفيه. تتضرّع لنسيانٍ يفعل فعلَه كيلا يتحطّم الكائن تحت أثقالٍ لم يهيّأ لتحمّلها، وهي تعلم أنّ شيئاً لا يخرج من الذاكرة، يُدفع بعيداً بعيداً ثم فجأةً يصعد كشمسٍ في يومٍ كُفّن بالغيم!

لكنّ صفاء لن تنسى... كأنّ آليّات النسيان عندها قد تدمّرت. ستنتظر بأناةٍ عودة جميل، تمنح عينيها لرحاب وتقول:

ـ سيكونان ولديك إن أصابني مكروه!

تعانقها رحاب:

ـ بعيد الشر، ولكنني أعدك، سيكونان أغلى من جنان.

ـ ثمّة حقيبةٌ في غرفة أبي، ستقدّمينها لهلا؟

تحدس رحاب؛ ألوان فريد وفراشيه، فتذكر حقيبة كمان أمّها وتسأل بفزع، هل أستطيع تقديمها لجنان؟ ثمّ تجيب:

ـ سأفعل... سأفعل. اطمئني! لن ترحلي، أليس كذلك؟

تتأمّلها صفاء بدهشةٍ ممزوجة بعتابٍ حزين:

ـ لن أفعل! لكنّني أخشى أن تحتضنهما الشوارع إن حدث لي مكروهٌ غير متوقّع!

ـ لن يكون لهما سوى أحضاني...

ستتدخّل جنان فيما بعد:

ـ لا يا خالتي، سيكونان لي، إن أذنت لي صفاء، لأنّك ستعيدين نفسك فيهما غافلةً عن التطوّرات التي ستجعل من تلك النسخة شيئاً شائهاً لا يعرف مصادر انتمائه ولا وجهة تطلّعه. سيكونان لي لأنّني سأعرف كيف أجعلهما لا يكونان سوى نفسيهما، مرتبطين بحبلي سرّتيهما طواعيةً، مدركين قساوة الفولاذ المشحوذ لبترهما. سيعرفان آنها كيف يدافعان عنهما بأحلامهما الخاصة دون انتظار حلمٍ قد يتحقّق وقد لا يتحقّق!

تتطلّع خالتها بأسى لكنها تجيب بتعاطف:

ـ كما تشائين يا جنان...

لن تكون صفاء قد وقّعت آنها على وثيقة استلام أخيها أو بقاياه.. ستظلّ متماسكةً وتفتح عينيها بشجاعةٍ على جثته المهشّمة. تصرخ لحظة انفرادها به: ما هذا يا أبي؟ أليس صلباً؟ إن لم يكن فداءً فما هو؟ أيّة صفةٍ ستطلق على الأضحية البشريّة التي كان اسمها جميل سالم؟ سترفض أن تحزن، ترفض أن تبكي أو تدخل الحداد.. تتركه رغم معارضة الجميع أياماً ثلاثةً منتظرةً قيامته الموعودة! لكنّه يخذلها.. يتفسّخ على مهلٍ وتتغيّر ملامحه، تتشوّه وتكاد تتنكّر له، تشعل شمعتها فوق رأسه ليالٍ ثلاثاً ليستيقظ والنوم يجافيها، مصرّةً على ارتداء ثوب زفافها الأبيض... وحين لا يقوم تهدر في وجه أبيها البائس، تستجمع غيم يأسها وتستمطره لعناتٍ لا تستثني أحداً... لماذا يحدث هذا يا أبي؟ لماذا يحدث!!

تضع أدواتها وأحلامها وأوهامها وفزعاً آتياً، يختبئ في ظلال حاضرٍ تنشره شمسٌ آفلةٌ تفوح بروائح التفسّخ والنواتج الفاتكة لتفاعلات البكتريا مع نسيج الكائنات الميتة، في تابوتٍ خشبيٍّ وتدقّ في النعش أصابعها مسامير حقيقيّةً من لحمٍ ودمٍ وعظمٍ صدئت قبل الأوان وصبغت لحم الخشب الأبيض بمغرّتها الآدميّة ثم تستخرج ثياب حدادها على أمّها لتسربل ابنتها بها كأنّما تُشرع حداداً مبكراً لروحها التي تباشر الدخول في تيهها الزمانيّ وترضخ

للذين صدّقوا موته وأكرهوها على تشييعه إلى بيت أبويه. ستبصر حولها الوجوه التي خبّأت تحت أجفانها أوجاعَه وألصقت في قيعان جماجمها صراخه وسيلتصق طفلاها بساقيها وتشهد عن كثبٍ الموت الرابع في حياتها.. الموت الذي عانق جميلاً في وحدته ومنعه من إبصار لون السماء التي عاد ليغمض جفنيه على صفائها.

لكنّها تهيل عليه التراب الذي ارتضى القتلَ معادلاً لانغراسه في باطنه وهي ترى احتضار أبيها في عذاباته الأخيرة محرِقاً راحتيه بجمر ألوانه.. ترى قريته في لوحاته التي لفحته نيرانها لذنبٍ لم يكفّر عنه، ترى أمها شمعةً انطفأت روحها قبل أن تذوي ذبالتها بعد هجرٍ وشقاقٍ مرّا دون حقدٍ ولا عتاب! وتدرك أنّ بارقة كونها التي لم تسقط أبداً في الفخّ الذي أُعدّ لها بإحكام طوال عمرها، رغم مقتلة زوجها الذي لم تر موت وجهه قط، قد خبت وانطفأت إلى الأبد!

ومع آخر قبضة تراب ستودع موتها، تصافح الأشباح التي تشدّ على كفّها وتعانق كتفيها. تدفع الطفلين بعيداً كي تتبع مي التي لوّحت عن بعد... ستركض مجنونةً نحو بيتها، تأخذ أدواتها وأصبغتها وتركض مهاجرةً في الشوارع لترسم صلبانها التي خذلتها على إسفلت الطرقات وجدران الأبنية. وعلى أفق غسقها الأخير، تخطّ بفرشاتها العريضة المغموسة بسواد الليل: عاجزٌ وظالمٌ وكارهٌ لأنّه يبيح... ويسمح! ثمّ ترحل بعيداً وتختفي في غابة النسيان!

كانت رحاب أوّل من فتح عينيه وقد خمد الصراخ على قهقهات فاتك وهو يصخب ثملاً:

ـ هل بقي بينكم أبطال؟

تراجع الرجال نحو سيّدهم وكان ثوب حنان الأخضر ممزّقاً.. مبقّعاً بدماءٍ طازجة. انتزعت رحاب سترة كريم واتّجهت نحوها، رفعتها وأدخلت ذارعيها في كمّي السترة الفضفاضة، أسندتها متّجهةً نحو وفيقة لكنّ نوال اندفعت نحوهما. احتضنت حنان وهي تبكي بصمتٍ عاجزةً عن انتزاع عينيها عن جسد جميل الخامد ورأسه التي دخلت طور الحمى فراحت تنوس يمنةً ويسرةً منزلقةً في دوّامات الهذيان لتدفع إلى سطحها مي التي غيبها الزمان وآن أوان رجوعها!

لن تغادر تلك الصورة مقلتي جنان وهي تبدّد الأوهام التي أحاطت بعودة أدهم، بل ستجد عكس صفاء أنّ موت جميل كان ضرورياً، ليس أضحيةً تفتدي مي وتبعثها، بل مساهمةً في إيقاظ النوّم والغافلين واللامبالين. ستضطرّ لاستعادة ذلك كلّه حين يتهدّدها طردٌ تعسّفيٌّ من بيتٍ داخَل روحها، لاستعادة الحكاية من بدايتها وإعادة ترتيبها، كأنّها تنضج قبل الأوان وكأنّ الزمن يكرّر حكايته ليمنحها فرصة تصحيح خطأٍ قاد إلى الموت يوماً، وتتيح لها بعد عصرٍ من الانكسارات والهزائم والضياع أملَ اجتراح معجزة تأسيس انتمائها وإزاحة الشموس المذبوحة وعدم الاكتفاء بدور الشاهد الغائب على إمكانيّة دحر ما لا يدحر في الكائن البشريّ وقدرة تدمير أمنع حصونه وأقوى معاقله، شيئاً من التقاطع بين خيط الوهم وخيط الحلم في فجرٍ جديد!

أيكون ذلك بعض هذيانات جميل التي أحاطت برأسه هالةٌ من أطياف ملوّنة، أم أنّها نبوءات مي التي تلهّت بالتلويح لعصافير قلب جميل كيما تعود؟؟

وفي دورة العودة الصغرى، سيبحث القادمون الجدد عن مثالهم العائد

وصبوتهم المشتهاة والمستحيلة فيجدونه قد ولّى من جديد دون أن يخلّف آثاراً سلبيّةً شديدةً في تلك الدورة، لأنّ أحدهم سيعلن صراحةً أنّه ما من ضرورةٍ للبحث في ما مضى وانقضى، لا ينبغي نبش آثارنا ولا إزالة الغبار عنها بقدر ما يتوجّب بناء ما يصير آثاراً.

سترى وفيقة ذلك أكثر من غيرها بعدما أدركت أنّها لن تغادر وأولادُها بصحبة كريم الذي غطّت سترته آثار همجيّةٍ مرّت على جسد حنان وعبرت روحها...

ـ أنت ستبقى، لن يفيدك إقرارك ولن يغنيك، سيضحّى بك كيما يعلم الجميع أن عفّتك باطلةٌ وعبثاً سيكون لها معنى!

ـ ما الذي فعله أيضاً؟ تهتف منى ممسكةً بذراع أبيها، فيهدر فاتك:

ـ لم تتعلّمي ممّا شاهدته عيناك، تخرسي أم؟

يدفعها كريم بعيداً ويمرّ بمحاذاة جميل مودّعاً. يلتفت فاتك لمساعده:

ـ خذه، لينتظر قصياً ثمّ يدلي له بالاعترافات الملائمة!

ثمّ ينظر إلى الجميع هازِئاً متشفّياً:

ـ هل سأضطرّ لاستدعائكم مرّةً أخرى؟

يتطلّع فاتك إلى إبراهيم ويقول ضاحكاً كأنّ شيئاً لم يحدث وكأنّ أصدقاء قدامى اجتمعوا ليلةً وصاحب الدعوة يودّعهم فرداً فرداً:

ـ ستجد أشياء لا تخطر على بالك لترسمها، هل ستهديني لوحةً ما؟ مشهدُ حنان مستلقيةً جانب جميل سيبدو رائعاً! ما رأيك؟

يصمت إبراهيم ثم يجيب مطرِقاً:

ـ سأفعل إن رسمتها.

يضحك فاتك مرّةً أخرى:

ـ لا، سترسمها، أنا واثقٌ أنّ النوم سيجافي عينيك إن لم تفعل!

هل تستطيع رسمها يا إبراهيم؟ سيكون صعباً لكنّه ضروريّ. ربّما ستغضّ الطرف عن حنان، فبوسعها صياغة لوحتها الخاصّة بها. أمّا جميل، فما عاد له غير نهايات أعصابك وهي توتّر أصابعك فتنقل عذاباته إلى القماشة الميتة لتحيا بدفق الألوان المرتعش والمنسكب كشلالات دم. كيف يستطيع أن يبتسم ويضحك؟ هنالك الكثير من التعارض بين الفرح والوحشيّة! كأنّما، كأنّما يصرخ رغماً عنه: ضمن كلّ هذا البؤس المهين ثمّة خيطٌ رفيعٌ من الأمل يدفع ليس للبقاء وحسب، وإنّما للحياة.. شيءٌ يوحي بأنّ ما كدّت البشرية في إنتاجه وإطلاق رؤاه لا يزال مستمراً ولا يمكن أبداً أن يُنتهَب ويستنفد! إن لم يكن ذلك ما قاله جميل بصمته، فهو لم يقل شيئاً إذن!

ـ قل لي يا جميل، وأنا واثقٌ أنّك تسمعني: ألا يعني أن تعيش وحيداً معزولاً مغرِقاً في يأسك فاقداً كلّ أملٍ دون أن تتخلّى عن ضرورة أن تحيا، أنّك ترتمي في لجّةٍ لا حدود لها أغرقها الليل وأضاع النوء شواطئها؟

يجيب جميل بعينيه نصف المطبقتين:

/ للزمن المستباح طابعٌ عجائبيّ، أن يكون بوسعك العيش دون قدرةٍ على التفكير بغدٍ قريبٍ أو بعيد، ومن غير فرصةٍ لمراجعة ماضٍ قصيٍّ أو ملامس، وفوق هذا تُكره أن تكون وحدك وتتخلّى طواعيةً عن اتّصالك وتواصلك مع الآخر. ليس في ذلك شيءٌ من سطوة المال ولا سطوة القوة، بل استلاب العجز الذي استحال خنوعاً.. الحالة التي يأتي فيها الموت فتأنفه، ليس خشيةً أو عدم امتثال، بل لمجانيّةٍ تفقدك حافز الاندفاع نحوه!

تذكّر إبراهيم جملة كريم الذي مضى منذ قليل: «نحيا من قلة الموت!»

أهذا ما تقصده يا جميل؟ احتار إبراهيم كأنّ جميلاً تقصّد رمي لغزه وترك له حله.. رمى أسئلته ومضى...

لكنّ رحاب لن تحار، لأنّها فهمت جميلاً أكثر من البقيّة أو أنّها قرأت صفحته المفتوحة بعمقٍ أوصلها لما تخبّئه دلالات الألفاظ وراء سطورها المصفوفة بانتظام يخفي الفوضى التي تتردّى فيها، ورغم ذلك تمنحها معنىً قد لا يطابق ما أراد كاتبُها فتح الأعين عليه، خشيةً أو لامبالاةً أو تحدياً لدفع المرء للتفكير والبحث عن الأسئلة المتوارية خلف صراخ جميل!

ستندفع رحاب في مواجهة الوقائع إلى نهاياتها الحدّية القصوى، سيكون الثمن أكبر من قدرات احتمالها وستشعر أنّ روحها القتاليّة تتخلّى عنها وتتركها عاجزةً أمام هزائمها وأزماتها. وفي محاولة إثبات قدرة المرء على هزيمة كلّ ما هو مجحفٌ وجائرٌ، تُكمِل الخطوة المتبقّية التي ستُدخلها عالم أحلامها المجهضة والمستباحة. تخرج من أسرها الصغير مدمّاة الجسد وتدخل في أسر روحها الأبدي. الجَموحُ التي لا تحدّها الآفاق ولا تكفي الأمدية لخطوتها تتصنّم في لحم جسمها فتعاود إشراع أسئلتها، هل المشكلة في دورة الزمن؟ ثمّة بحثٌ في وقائع الحياة التي تحتاج كثيراً من التغيير ليكون لها معنىً ينسجم مع إرث المرء وإرادته، لكنّ تلك الدورة تصدمه فتختلف الشظايا والمزق! أما آن أوان القطيعة؟ تصغي لخالتها.

/ امضي معه وعيشي كما أنت، أما قلتُ لكِ إنّك لن تكوني خيراً من أمك وشقيقتك؟ هيا اغربي ولا تخيّبي ظنّي فيك!

/ ابتعدي يا خالتي، فلست بحاجةٍ لنصائحك المريضة.

تضحك الخالة فيأتي وجه الأمّ.

/ تعالي يا أمّي فقد اشتقت إليك. لمَ تخلّيتِ عنّي وتركتِني وحيدة؟

أبعدي أختك عنّي، ابقي بقربي وسأكون قادرةً على اتّخاذ قراري كما فعلتُ دوماً.

/ اختلفِ الوضع يا رحاب. صمدتِ، لا ريب في ذلك، لكنّك لم تلحظي ما تشكّل في قاع روحك! أيّة نقائض! أحسب أن روحك اعتكرت يا ابنتي.

يختفي وجه الأمّ فتتساءل رحاب: أتكون تناقضاتي قد تركّزت في بؤرة ذلك القاع فتحوّل صراعي مع الخارج المجحِف والقاسي إلى صراعٍ داخليٍّ تغلّبتْ فيه عناصر ضعفي على عناصر قوتي؟

تخلّف الذاكرة وراءها.. ما عاد مهمّاً ولوج لجاجتها وخوائها وعقمها، تتمسّك ببقيّة أمل، جنان. حتّى جنان رفضتكِ، أما وجدتك غير أهلٍ لاحتضان طفلي صفاء؟ تميل على ماءٍ بدا طازجاً لعينيها يعبر بها مخاضة اليأسْ ويوصلها لضفّةٍ بانت رماداً أحرق عشبَها عشقُها المجنون. آهِ ضوء السراب في ركام العصر الفحمي! وهي إذ تخفي آثارها، تبحث عن ظلالٍ ليديها قرب قامتها.. تقتفي ظلماتها لتبحث عن أنوار قدوماتها المجهولة التي غزت أحلامها ولم تستثر يقظتها. من تظن نفسها؟ سيسأل بعضهم. تقول تلميذةٌ في فصلٍ دراسيٍّ قادمٍ وقد تفاجأت بمعلّمةٍ جديدة:

ـ لن نرضى بديلاً عن معلمتنا القديمة!

تغصّ المعلّمة الجديدة:

ـ لكنّها...

تجيب التلميذة بنزقٍ وحدّة:

ـ إذن لا نريد غيرها!

تخرج من مقعدها الدراسي وتتّجه صوب الباب ثمّ تلحق بها رفيقاتها.

لكنّ السائلين وهم يمضون خلف أوهامهم أو يجترّون بقايا رممهم التي

كانت أو كان لها أن تكون أحلاماً سيبتهلون كيما يكونوا مثلها... ليس ليتألموا، وإنّما ليختبروا أولى علامات الغبطة بعد طول عذاب!

ستخرج رحاب رحّال من عباءة الصيف وسهل الفصول وطقس الحقول لتدخل في خريفٍ يطول... يطول! وعلى سفوح الجبال ووعر الجرود، ثمة مواسم وطيورٌ تنتظر دفء شموسٍ لا تهاجر ولا تغادر!

تهيئ ملاءاتها البيضاء وتنشرها على سرير نومتها.. تستلقي عليه وتفتح ذراعيها على وسعهما.. تبتسم: ما لم أفعله ستتعلّمه جنان وحدها وتقوم به عنّا. تتّسع ابتسامتها وتترقرق ينبوعاً صافياً على قسماتها. تأسف لأنّ زوجة فريد لم يكن بوسعها آنها أن تبتسم مثلما تفعل هي الآن... ربّما ستراها وتعتذر عمّا بدر منها! ستلوح جنان وسط ضبابٍ ينتشر على سطح مقلتيها، أما كان عليّ أن أكتب لها؟ لا، فكلّ ما سيُكتب سيكون عديم المعنى، يكفيها بيتٌ صار سكن روحها! ليتها فقط تعيد تأثيثه وتجدّده، ليتها لا تحتفظ إلاّ بكمان جدّتها وحسب!

حين شاهدوا الشمس واستنشقوا الهواء بعدما أطلقهم فاتك وسط المدينة تساءلوا: هل يملك أقدارنا ومصائرَنا حقّاً؟ أجابتهم زرقة السماء والفضاء الرحب الذي أحاط بهم وجعلهم غير مبالين بالسيّارات التي كادت تجتاحهم وزعق سائقوها فيهم أن يحيدوا عن الدرب. تلاصقوا وتطلّعوا في وجوه بعضهم: لتحِد تلك السيّارات اللعينة عن دربنا!

ومن بين الزحام وصخب الشوارع المكتظة تتقدّم مي نحوهم... يمدّون أكفّهم ليصافحوها لكنّها تبتسم لهم جميعاً. تطمئنهم على جميل: عادت العصافير المهجّرة إلى عشّها في لحم قلبه. ثمّ تسأل عن حنان.. تعبرهم كطيفٍ فيلتفتون نحوها وهي تختفي في الزحام.

مفردات

...وفي الأحلام تبزغ مدائن أخرى، تنهض شموسٌ مغايرةٌ تبدّل ألوانَها وشدّة إشعاعها وتسير في مداراتٍ استقلّت بها... تصعد متى تشاء وتسقط وقتما ترغب، شموس مغايرةٌ تعني عوالم مغايرة، ما من وقتٍ يزامن صباحاتها ولا أفق يوقّت مواعيد مساراتها. تسعى، رغم مفارقاتها، لتكون عيداً متجدّداً لا يتّصل بذكرى ولا يوقظه فصل.. عيدٌ لذاته ومن ذاته، فيه وعبره تخلق اللذّات المحرمات التي غادرت أسوار ألفتها فصارت طريدة الذئاب وصائدي الجوائز! أيّة مدينةٍ تلك؟ وأيُّ عصرٍ كارثيٍّ خيّم على بيوتها فطوى معالمها وباتت نسخةً مكرورةً فقدت امتياز اختلافها وافتراقها باللون! والليل موعد، دربٌ يمهّد لتقاطع دروب تتوازى نهاراً وتبحث عن صلاتها ليلاً...



